هربرت فيشر

أصول التاريخ الأوربي الحديث

من النهضة الأوربية
إلى الثورة الفرنسية

الطبعة الثالثة



دار المعارف بمصر

اهداءات ٢٠٠١

لمستشار/ رابح لطفي جمعة

القاهرة

أصول التاريخ الأوربّى الحديث

من النهضة الأوربيّة إلى الثورة الفرنسيّة

تأليف

هـــربرت فـــيشــر

نقله إلى العربية

الدكتورة زينب عصمت راشد
أستاذة التاريخ الحديث المساعدة
بجامعة عين شمس

الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى
مدرس التاريخ الحديث
بجامعة عين شمس

مراجعة

الدكتور أحمد عزت عبد الكريم
أستاذ التاريخ الحديث
عميد كلية الآداب بجامعة عين شمس

الطبعة الثالثة



دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

فهرس

الصفحة

الهوامش من وضع المترجمين

مقدمة الترجمة

أخيراً نقدم لقراء العربية ما تبقى من ترجمة كتاب « تاريخ أوربا » لهربرت فيشر . فقد سبق أن ظهرت ترجمة لكل عصر من عصور التاريخ الأوربى العام : عصر التاريخ القديم — وقد قام بترجمته الأستاذان الدكتور إبراهيم نصحى والدكتور محمد عواد حسين ؛ وعصر التاريخ الوسيط — وقد قام بترجمته الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور السيد الباز العرينى والدكتور إبراهيم العدوى ؛ والتاريخ الحديث والمعاصر — وقد قام بترجمته الأستاذان أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع. أما ترجمتنا هذه فتتناول الفترة الواقعة ما بين نهاية العصور الوسطى والثورة الفرنسية ، وهى الفترة التى يطلق عليها الأستاذ فيشر اسم عصر النهضة والإصلاح الدينى والاحتكام إلى العقل(١) . أما نحن فقد شئنا أن نطلق عليها اسم « أصول التاريخ الأوربى الحديث — من النهضة الأوربية إلى الثورة الفرنسية » .

وصاحب فكرة ترجمة هذا الكتاب هو المؤرخ الكبير أستاذنا « محمد شفيق غربال » الذى اطمأن — قبل أن نفتقده — إلى أن المشروع قد اكتمل وأن ترجمة الكتاب كله قد تمت . فإلى روحه نهدى هذا الجهد ؛ وكل منا قد تأثر به وبمنهاجه سواء عن طريق التوجيه العلمى المباشر أو خلال تآليفه التى يستشف منها منهاج الأستاذ فيشر وأضرابه : النظرة الكلية الشاملة ، والربط والمقارنة والتركيز ، مع سمو فى أسلوب العرض من الناحيتين الإنشائية والموضوعية . ومثل هذا المنهاج لا يتأتى إلا لمن أوتى عقلية واعية تميز بين الغث والسمين ، وقرأ قراءات واسعة لا ترتبط بزمان أو بمكان أو بالتخصص الأكاديمى الضيق .

ولقد صدرت فى العام الماضى فى إنجلترا طبعة جديدة لكتاب فيشر فى « تاريخ أوربا » رأى بعض النقاد الإنجليز أنها لم تعد تتمشى مع الروح الحديثة أو تفيد القارئ البريطانى . فالكتاب وضع فى فترة كانت فيها إنجلترا صاحبة الكلمة العليا فى السياسة

(١) Renaissance, Reformation, Reason.

العالمية[١] . والمؤلف ذاته ينتمى إلى ذلك الطراز « الفكتورى » من المفكرين الإنجليز الذين شهدوا أوج الإمبراطورية البريطانية وتحمسوا لها وتأثروا بها . . . والآن ، ونحن نشهد « تصفية » الإمبراطورية ، لم تعد مثل هذه النظرة تتمشى مع الواقع .

أما بالنسبة للقارئ العربى فإن كتاب فيشر لا يزال حيث كان ، لم يفقد طلاوته. فهو يمثل نمطاً من العرض التاريخى قد ينال رضى الصفوة المفكرة وإن لم تتفق معه فى كل ما يذهب إليه ؛ وقد يجد عنتاً من أولئك الذين ينظرون إلى التاريخ باعتباره سجلا لحوادث يتلو بعضها بعضاً . ولكنه لا شك يثير الإعجاب ويدفع القارئ إلى مزيد من التفكير والاطلاع . وترجمتنا هذه تمثل نقلة الأوربى من العصور الوسطى إلى فلسفات ديكارت وكانت وروسو وأضرابهم من رواد التنور فى القرن الثامن عشر الذين بشروا بالتسامح والعالمية ونافحوا عن حرية الإنسان وحقه فى العدل والكرامة .

وعلى الله قصد السبيل .

المترجمون

نوفبر سنة ١٩٦١ .

(١) طبع الكتاب لأول مرة فى عام ١٩٣٦ .

الفصل الأول

أوربا الجديدة

العصور الوسطى والحديثة – اتساع نطاق العالم – القومية – الرأسمالية – المدفعية – الإصلاح البروتستانتى – خصومات الكاثوليك – الانتشار السريع للإصلاح الدينى – عصر الحروب الدينية – أثرها فى فرنسا مقارناً بأثرها فى ألمانيا – الدبلوماسية الفرنسية ، والحركة البروتستانتية فى ألمانيا – خلو إنجلترا من الحروب الدينية – زوال الدافع الدينى فى الشئون السياسية إبان القرن الثامن عشر .

ليس من السهل على الباحث أن يحدد تاريخاً فاصلا بذاته بين العصرين الوسيط والحديث؛ فالانتقال بينهما حدث بالتدريج ولم يسر على وتيرة واحدة ؛ ثم هو فى بلد ما أسرع وأكمل منه فى بلد آخر ؛ هذا إلى أن التحول لم يعم العالم بأسره بحيث تركه خالياً من رواسب العصور الوسطى ؛ كما أنه فى العصور الوسطى نفسها لمعت هنا وهناك ومضات للعقل البشرى يبدو أنها لا تمت للعصر الوسيط بصلة ، بل قد تبدو – فى غير ما خفاء – إرهاصاً لتلك النظرة الواسعة ، والمشاعر المعقدة التى امتاز بها العصر الحديث .

والإنسان على أى حال أبطأ حركة مما يود أن يسلم به دائماً سكان المدن فى ديار الغرب ؛ فأساليب الحياة والفكر التى تستمد أصولها من عصور سحيقة لا تزال تفرض سلطانها على بعض البلاد والعقول : ومن ذلك أن الاعتقاد فى السحر ومخاطبة الموتى والبازرجة (التنجيم) والشعوذة لا تزال قائمة لم تختلف تماماً ، ولا تزال بعض الخرافات تحيا فى أوساط الفلاحين ؛ بينما امتزج بعضها الآخر بالطقوس الدينية ؛ فالأسرار الأولية التى تحيط بالكون : كاختلاف أشكال القمر وسير الكواكب والقوى الغامضة وراء ظاهرة التكاثر والنمو – كل ذلك شكل مثولوجيات الفلاح الأوربى منذ عهد سحيق . وفى الكنائس الكاثوليكية لا تزال المباخر – كما كانت من قديم – تتأرجح يمنة ويسرة ، مطلقة بخورها حول التابوت لتطارد الأرواح الخبيثة التى تعمل على دفع أرواح الموتى إلى جحيم أبدى ؛ ولا تزال المعجزات التى كانت شائعة فى العصور الوسطى قائمة تصنع الأعاجيب وتستهوى الناس

ليحجوا إليها كى ينالوا على يديها الشفاء مما ألم بهم من روماتزم أو برص أو ساق مكسورة . وإذا كان العصر الحديث قد أصبحت له مزاراته كما أنه طور وسائل انتقاله ، وحلت لورد Lourdes[١] محل كمپوستلا Compostella[٢] وكانتربرى ، وإذا كان الحاج لم يعد يجوس الديار معتمداً على عكازه أو يمتطى صهوة جواده المطهم ، بل أصبح يتنقل فى قطارات السياحة أو السيارات إلى مزاره المقدس ، فإن عقلية المتعبدين ظلت كما هى لم تتغير . وهكذا لم تفعل وسائل النقل الآلى المريحة التى تمخض عنها العلم الحديث شيئاً إلا أن حملت أناساً لا يزالون يعيشون بعقلية العصور الوسطى .

ولا يقل عن ذلك أثراً ما خلفته العصور الوسطى فى مجال الاجتماع والسياسة والاقتصاد . فمثلا قد لا يوجد بلد فى أوربا كان أكثر اطراحاً للعصور الوسطى من بريطانيا ؛ ومع ذلك فقد بقيت نظم العصور الوسطى فى المدن الإنجليزية دون أى تغيير حتى عام ١٨٣٥ بما تحمل من مثالب بهيجة خلابة ، لتفسح المجال للنموذج الديمقراطى المألوف الذى يتمشى والانقلاب الصناعى والتسوية بين الناس . كذلك لم تخل الحياة فى الريف الإنجليزى من مظاهر العصور الوسطى خلواً تاماً : فإن السائح فى إنجلترا لا يزال يصادف هنا وهناك هذه الحقول المكشوفة وقطع الأرض المبعثرة التى كانت تميز الفلاحة فى العصور الوسطى — هذا على الرغم من أن إنجلترا كانت أولى الدول التى استبدلت بهذا النظام نظاماً آخر يقوم على إنشاء المزارع الواسعة المسوّرة التى توافر أصحابها من النبلاء على تحسينها ، وهو النظام الذى اكتمل فى إنجلترا على نحو لم تعرفه البلاد الأخرى . وإذا كانت إنجلترا لا تزال تحمل من رواسب العصور الوسطى ما تحمل ، فما بالكم بالأقطار المتخلفة فى شرقى أوربا حيث غرق رجال الدين حتى أذقانهم فى بحر من الجهالة والوخم منذ عهد بعيد ؟! ولم يبدأ الفلاحون المضطهدون فى غاليسيا والبلقان يحسون بتغيير ملموس فى أوضاعهم أو تحسين لأحوالهم وطرائق معيشتهم إلا فى القرن

---

(١) مدينة فى جنوب غرب فرنسا قرب جبال البرانس اكتسبت أهميتها الدينية فى منتصف القرن التاسع عشر على أثر الرؤى التى تكشفت لفلاحة شابة اسمها برناديت سوبيرس Bernadette Soubirous

(٢) مدينة إسبانية شهيرة ذات أهمية دينية .

التاسع عشر . ولا يزال الناس يذكرون يوم كان أمير الجبل الأسود يقضى بين رعاياه بطريقة أبوية ، جالساً تحت شجرة على نحو ما كان يفعل القديس لويس فى زمانه . ولا يزال الرجل الألبانى يغدو ويروح مدججاً بالسلاح كشبيهه الأفغانى ويحيا حياة لا تختلف عن تلك الحياة التى صورتها الإلياذة . ولا يزال القرويون فى بلغاريا يمارسون طقوساً ويعتقدون فى خرافات ربما لو سمع بها يوريبيديس [١] لافتر ثغره عن ابتسامة عريضة . وقد لاحظ كاتب أريب ملم بأحوال اليونان الحديثة أن قوام الحياة الروحية للشعب اليونانى فى الوقت الحاضر لا يزال يتألف من مجموعة الأفكار والخرافات « يستتر بعضها خلف وشاح رقيق من المؤثرات المسيحية » ، فى حين أن بعضها الآخر لا يزال « متشحاً بثوب كلاسيكى لم يتغير » : فلا تزال تقدم القرابين من النقود والملح والخبز لاسترضاء آلهات الحظ الثلاث ، كما أن النقود التى كانت تقدم لراكب سفينة الموتى كى يحرس الموتى لا تزال توضع على شفتى من تنتهى حياته . وعلى هذا المنوال لا يزال هناك من يعتقد بوجود عرائس البحر والأشباح مصاصة الدماء والأرواح الشريرة والمردة التى تسكن الينابيع والجبال أو تلتقى بالملاح فى قاع اليم [٢].

ولا تزال حياة الفلاحين الأوربيين تحمل كثيراً من الأوضاع العتيقة التى لم يعف عليها الزمن أو يغير منها كثيراً . ومع ذلك فكما أن العصور الحديثة لا تقوم تماماً على نور العقل ، كذلك لم تكن العصور الوسطى غارقة تماماً فى ظلام الخزعبلات . فقد عاش فيها روجر بيكون Roger Bacon [٣] ، هذا الراهب الفرنسسكانى المتخرج من أكسفورد ، الذى وضع قاعدة عدم التسليم المطلق بمعرفة شىء ما دون إخضاعه للتجربة ، والذى كان أول من أصر على ضرورة إلمام الطبيب بأصول الكيمياء كشرط أساسى لتكوينه ؛ وعاش فيها تشوسر Chaucer [٤] الذى سبق بملاحظاته الدقيقة الغريبة من تقلبات الطبيعة البشرية وشذوذها عبقرية

---

(١) ٤٨٤ — ٤٠٧ ق . م . هو أحد كبار كتاب المأساة فى بلاد الإغريق القديمة.

(٢) Rennel Rodd, The Customs & lore of Modern Greece

(٣) حوالى ١٢١٤ — ١٢٩٤ م . فيلسوف وعالم إنجليزى .

(٤) ١٣٤٠ — ١٤٠٠ . هو أكبر شعراء إنجلترا فى العصور الوسطى ، ومن أهم مؤلفاته قصص كانتربرى The Canterbury Tales .

تشارلز دكنز Charles Dickens[١] ؛ وعاش فيها ڤللون Villon[٢] السارق القاتل والشاعر الذى تبز منظوماته الشعرية اللاذعة (١٤٣١) تلك الصورة التى رسمها ڤكتور هيجو Victor Hugo[٣] فى « أحدب نوتردام Notre Dame de Paris » لپاريس العصور الوسطى بروحها الساخرة المرحة ومشاعرها وإحساساتها وعواطفها الصاخبة ومزاجها المتقلب الذى تختلط فيه الجريمة بالتوبة ، والخشونة بالثقافة ، والقسوة بالعاطفة . والحق أن الحياة فى العصور الوسطى لم تطب لأصحاب العبقريات الأصيلة : فقد أمضى بيكون فى السجن عشر سنوات ، كما حوكم پترارك Petrarch[٤] بإيعاز من أحد الكرادلة باعتباره ساحراً توفر — دون داع — على دراسة ڤرجيل Virgil[٥]. ولكن بيكون كانت تكمن فيه روح العلم الحديث ، كما وجدت فى پترارك روح الإنسانية الحديثة . وحتى فى القرن الرابع عشر نلقى أناساً كانت لديهم الشجاعة الكافية ليقوموا بتشريح جسم الإنسان فى الخفاء . وكم من باحث مغمور فى عصر الإيمان سبق ڤساليوس Vessalius العظيم (١٥١٤ — ٦٤) الذى يعتبر الرائد الأول لعلم التشريح الحديث .

ولكن على الرغم من أن التحول قد سار حتما بالتدريج ، فإن التباين الكبير بين العصور الوسطى والعصور الحديثة كان واضحاً بما فيه الكفاية . فمن مجتمع موزع بين علمانيين وإكليروس إلى مجتمع موزع بين أغنياء وفقراء ؛ ومن بيئة معادية لحرية البحث إلى بيئة يعيش فيها العلم ويترعرع . كانت الكنيسة فى القرون الأولى من العصور الوسطى هى وحدها ملاذ الثقافة والواسطة العليا لضم القبائل المتبربرة إلى حظيرة التقاليد العظيمة للحضارة المسيحية والرومانية ، كما كانت الكنيسة الوارث الحقيقى للتقاليد السياسية للإمبراطورية الغربية المنهارة . وصبت اللغة والآداب والسياسة والقانون فى القوالب التعليمية المألوفة التى تبقت من حطام السلطة المدنية

---

(١) ١٨١٢ — ١٨٧٠ . أشهر ، وربما أعظم ، كتاب القصة فى إنجلترا .

(٢) حوالى ١٤٣١ — ١٤٦٣ . شاعر فرنسى غريب الأطوار اكتسب شعبية كبيرة واتسمت أشعاره بالطلاوة وأثرت كثيراً ليس فقط على معاصريه ، بل أيضا على الشعر الفرنسى الحديث .

(٣) ١٨٠٢ — ١٨٨٥ . شاعر وكاتب قصة فرنسى .

(٤) ١٣٠٤ — ١٣٧٤ . الشاعر والإنسانى الإيطالى الكبير .

(٥) ٧٠ — ١٩ ق . م . الشاعر الرومانى الكبير ؛ أشهر أشعاره « الإنياذة » .

التى انهارت . وكان استعمال اللغة اللاتينية شائعاً بين الطبقة المتعلمة فى غرب أوربا فكانت لغة عامة لهم جميعاً ، وظل روح المشرعين الرومان القدماء حيًّا مؤثراً فى قوانين الكنيسة التى كانت المحاكم الكنسية تطبقها فى شتى بقاع العالم المسيحى اللاتينى . زد على ذلك أن التفكير الأوربى ظلت تقوم عليه وتتناقله فى داخل المدارس والجامعات وفى خارجها طوائف من الرهبان فى نطاق النصوص المقدسة وما يتفرع عنها من آداب . ولقد ضاعت معالم المعرفة القديمة فى حين لم تتكون بعد معرفة جديدة ؛ ولما كانت أساليب العلوم الطبيعية لم تزل فى حيز العدم ، فقد وقع الذكاء البشرى فريسة لاتجاهين متطرفين : التسرع والاندفاع أو التردد والاستكانة . وكانت الكتابة باللغة الدارجة تدنياً يعتذر عنه ، حتى إن بترارك (١٣٠٤ — ١٣٧٤) كان يفضل ملحمة « إفريقية » — وهى ملحمة كئيبة نظمها باللاتينية — على القصائد البديعة التى كتبها والتى أكسبته الخلود .

أما النظريات السياسية فى العصور الوسطى فقد تأثر تشكيلها بالمكانة التى كانت الإمبراطورية الرومانية لا تزال تحتلها ، بالإضافة إلى تلك السلطة الطاغية التى تمتعت بها كنيسة روما الكاثوليكية . حقيقة إن الوحدة الأصلية للإمبراطورية الرومانية قد تمزقت أوصالها تحت مطارق المتبربرين الذين غزوا العالم الغربى ؛ فقامت إمبراطورية غربية لاتينية وأخرى شرقية يونانية . ولكن فكرة قيام إمبراطورية موحدة وعالم مسيحى موحد ظلت حية ؛ وإذا لم يكن فى وسع الناس أن يوفقوا بين الكنيستين اليونانية واللاتينية — والأمل فى احتمال التوفيق بينهما لم يخب على الإطلاق — فإن الكنيسة اللاتينية فى الغرب على الأقل قد اعتبرت كلا لا ينحل ولا يفنى ، بحيث اعتبر البابا الحارس الأعلى للعقيدة والأخلاق على الأرض ، وأصبحت كلمته — وقد علت فوق أنقاض الفوضى والعنف اللذين غمرا العالم — الصوت الحاسم الذى يدعو الحكام والرعايا على حد سواء إلى اتباع العدالة والمحافظة على السلام والتحلى بفضائل الدين التى تتكشف لهم . وقد لقيت هذه الفكرة عن حكم البشر قبولا فى ذلك المجتمع الفقير الجاهل الذى كان يتكون أكثره من الجنود والكهنة والفلاحين ، خاصة وأن المسيحيين كان أكثرهم يعيشون داخل وعاء الإمبراطورية الرومانية القديمة ولا يكادون يحسون بوجود بقاع واسعة من الكرة

الأرضية لم يصل إليها اسم روما .

والقرن السادس عشر الذى كان أول قرن اتضحت فيه معالم العصور الحديثة يقدم لنا أقوى تعارض لوجهة النظر هذه الرومانية والكهنوتية التى سيطرت على العالم فى العصور الوسطى ؛ فقد استرد التفكير العلمانى اعتباره ، يغذيه شيوع استخدام اللغات الدارجة وبعث اللغتين الإغريقية والعبرية بعثاً كاملا ، وكذلك بدأت دراسة طبيعة الكون دراسة جدية ستؤدى إلى نمو العلم الحديث . درس المصورون جسم الإنسان ، بينما شرحه الجراحون : وكان المثال فيروكيو Verrochio عالماً فى التشريح فى نفس الوقت . كما اطرد عدد المسلمين باكتشاف كوبرنيكوس Copernicus (١٤٧٣ — ١٥٤٧) ، ذلك الفلكى البولندى الذى أكد أن الأرض تدور حول الشمس . وما لبثت تلك الثقافة العلمانية ذات الطابع الأرستقراطى — ولا غرو ، إذ أنها نمت فى القصور المترفة للحكام الطغاة فى إيطاليا — ما لبثت هذه الثقافة أن أصبحت مشاعاً للجميع بفضل اختراع الطباعة . وفى الوقت الذى كانت المصالح الكهنوتية لا تزال قوية مؤثرة . عادل تأثيرها هذا اللون الجديد المثير من المعرفة التى لا ترتبط بعلوم الدين ؛ ولكنها ثمرة عمليات عقلية لم تقو العلوم الدينية على تسخيرها لمصلحتها . وضاق صدر أوربا ، فتحولت عن ذلك العالم الأدبى الواسع ، عالم التعليقات والشروح التى خطها العلماء فى القرون الأخيرة من العصور الوسطى « بحروف من أفيون على ألواح من رصاص » .

وشغلت الجغرافية قسطاً مهماً من هذه المعرفة الجديدة . فقد كان احتلال البرتغاليين لسبته على الساحل الإفريقى عام ١٤١٥ بمثابة الحلقة الأولى فى تلك السلسلة الطويلة من المغامرات البحرية المثيرة التى أدت إلى دوران ڤاسكو داجاما Vasco da Gama حول إفريقية (١٤٩٢) وتأسيس الإمبراطورية البرتغالية فى الشرق ؛ كما أدت إلى اكتشاف العالم الجديد فيما وراء المحيط الأطلنطى على يد الملاح الجنوى كرستوفر كولمبس Christopher Colombus . ومنذ ذلك الحين لم يعد البحر المتوسط مركز العالم المتمدين ؛ فقد انتقل التفوق التجارى من المدن الإيطالية إلى الأمم القريبة من المحيط الأطلنطى : البرتغال أولا ثم إسپانيا فالأراضى المنخفضة ففرنسا وإنجلترا ، وترتب على ذلك أن انتقلت على السفن عابرات المحيط

إلى أقصى الأرض تلك الحضارة التى نشأت فى وادى الفرات والنيل ثم انتشرت حول سواحل البحر المتوسط ، وأخذت أوربا تدخل مرحلة جديدة من تاريخها ، وهى مرحلة تتميز بتأسيس المستعمرات والإمبراطوريات فيما وراء البحار وبالانتشار التدريجى للنفوذ الأوربى فى شتى أنحاء المعمورة .

وقد وافق اكتشاف العالم الجديد انتشار الكتب المطبوعة ، ذلك الاكتشاف الذى علم الأوربيين — على حد كلمات بيكون السياسية أن « الحقيقة ليست وليدة السلطان ولكنها وليدة الزمن » وكان الأوربيون قد عرفوا منذ زمن طويل أن الأرض كروية ، وأنهم لو أبحروا غرباً بالقدر الكافى فإنهم لابد واصلون إلى الهند . ورغم ذلك فإنهم كانوا خالى الذهن تماماً من وجود كتلة أرضية لاحد لاتساعها وتوسط مواردها العالم . وإذا كانت تكهناتهم قد صدقت عن شكل الأرض ، فإن تقديرهم لحجمها قد انهار تماماً ؛ إذ أن العالم كان أكبر بكثير مما كانوا يعتقدون . وفجأة أدرك الناس أن حقائق الجغرافية القديمة التى طالما لقنها إياهم أهل العلم منذ قرون ، والتى كان يؤمن بها الناس فى كل الجامعات ، أصبحت تتناقض تناقضاً صارخاً مع الحقائق الثابتة .

وكانت النتائج التى ترتبت على ذلك أعمق مما أضافته الكشوف الجغرافية إلى المعرفة الوضعية ؛ فقد بدا الإنسان — دون وعى — يتخذ موقفاً جديداً من المعرفة نفسها ، ولم يعد يتورع عن تحدى السلطان ، كما تهاوت سيطرت الماضى على الأذهان . وكما تكشف كوكب الأرض عن عجيب خباياه التى لا نهاية لها ، فقد ظهرت أجيال من الناس لا يسلمون بأن الحقيقة قد اكتملت واحتوتها الكتب القديمة فعلا ، بل هو سر يبحث عنه فى طيات الزمن .

وفى غمرة التكهنات المختلفة بصدد المستقبل التى أثارها رد الفعل الأول لكشف أمريكا ، لم يتوقع أحد أن تصبح القارة الجديدة يوماً ما الإناء الواعى لما تلفظه أوربا . يومئذ بدا أن لأمريكا فوائد كثيرة : فهى ستفتح للكنيسة الكاثوليكية آفاقاً روحية واسعة . كما تقدم للملوك إسبانيا والبرتغال ملكاً عريضاً ، وتجتذب رجال البحر والباحثين عن الثروة والتجار والمبشرين عبر الأطلنطى ، وتمكن للسادة النبلاء الإسبان فرصة تنفيذ أحكام القانون والقضاء بين أهل البلاد الأصليين من الهنود ،

وتمثيل أبهة التاج الإسپانى فى أملاكه عبر البحار . ولكن لم يكن ثمة فى قصص البحارة العائدين من تلك البلاد ، أو فى أحوال أوربا الاقتصادية فى طلائع النصف الأول من القرن السادس عشر ما يؤيد توقع أن نجد جماعات كبيرة من المهاجرين الأوربيين مستقراًّ لها فى العالم الجديد . وحتى بعد مرور قرن من الرحلات عبر المحيط الأطلنطى ، حذر فرنسيس بيكون Francis Bacon[1] صاحب الطريقة العلمية ورائد الجغرافية ، حذر مواطنيه من استعمار أمريكا ، موجهاً النظر إلى أن أيرلندة تلك الجزيرة المهملة عبر مضيق سانت جورج ، أولى من أمريكا باهتمام المهاجرين الإنجليز ، إن كان لابد من الهجرة .

وفى إبان ذلك انهار الكيان السياسى « للإمبراطورية » التى عرفتها العصور الوسطى ، لتحل محلها الدول القومية الآخذة فى النمو . فبالرغم من تمشى فكرة المملكة العامة التى تسندها الكنيسة العامة مع أمانى أوربا خلال عدة قرون ، فإن هذه الفكرة لم تشكل تماماً لتتفق واحتياجات أوربا ؛ كما أن أوربا لم ترعها رعاية كاملة . والحق أن الإمبراطورية لم تحظ قط بولاء عام ؛ فإن الأمراء كثيراً ما تحدوا ادعاءات البابوات . وبينما كانت السلطة المدنية تمضى قدماً فى السيطرة على الإقطاع كانت الدول القومية تشق طريقها فى خطوات بطيئة مضنية ؛ وقد ظهرت فى إنجلترا أولا حيث كانت الظروف مواتية لظهورها ، ثم ظهرت فى الدول المسيحية فى شبه جزيرة أيبريا ، وفى فرنسا وفى الإمارات الكبرى من مجموعة الدول الألمانية . وما أشرف القرن الخامس عشر على النهاية حتى توطدت دعائم الحكومات القومية فى إنجلترا وفرنسا وإسپانيا ، مستعينة فيما استعانت به لتحقيق هذا الهدف بالاختراع الجديد للبارود . وفى إنجلترا كان « انتحار » النبلاء الإقطاعيين فى حروب الوردتين مقدمة لتوطيد حكم التيودور .

وإن هذا الطراز من الحكم الذى أخذ إذ ذاك يفرض نفسه قد تشكل على أساس مخالف لنظم العصور الوسطى القائمة على تفتت السلطان ، وأصاب من القوة درجة تدعو إلى الإعجاب ، ولكنا لو حكمنا عليه بالمقاييس الحديثة لألفيناه

---

(١) ١٥٦١ – ١٦٢٦ – الفيلسوف ورجل السياسة وكاتب المقال الإنجليزى .

ضعيفاً لدرجة تدعو إلى الرثاء . فإن ما كان يتمتع به أقوى الملوك فى القرن السادس عشر من موارد روحية وعقلية ومادية ليبدو تافهًا حقًّا إذا قيس بما يسند الدولة الحديثة من الضمير الاجتماعى المهذب والتعليم القومى المنظم والأدوات القوية لتحصيل المعرفة وتركيزها والمنشئات الحربية والبحرية العظيمة والموارد الهائلة. فالأوراق التى كانت تغذى أداة الحكم الإنجليزى طيلة عهد الملكة إليزابيث قد لا تعدل ما يتجمع خلال شهر فى أقل مكتب من مكاتب الحكومة الإنجليزية فى أيامنا هذه ؛ وأقوى جيش كان يستطيع فرنسوا الأول أن ينزله فى ميدان الحرب ليس شيئاً مذكوراً أمام فرقة واحدة من جيش پتان Pétain أو فوش Foche . وحتى فى أكثر الدول تقدماً فى القرن السادس عشر كانت الحكومة تعيش يوماً بيوم أو — كما يقولون — « من اليد إلى الفم » ؛ فهى تحشد الجيوش والأساطيل لتواجه ظروفاً معينة ، بينما تلجأ إلى أيأس المحاولات للحصول على المال . ذلك أن تجنيد جيش قوى والإنفاق عليه وإطعامه لم يكن فوق طاقة أية حكومة فحسب ، بل كان أمراً فوق مستوى تصور رجال الحكم وتدبيرهم . فقد طلب شارل السابع ملك فرنسا من كل أبروشية أن تعد جنديًّا ضارباً للسهام ، ولما فشل هذا الإجراء اضطر خليفته لويس الحادى عشر إلى الالتجاء مرة أخرى إلى الجنود المرتزقة من الأجانب ؛ وإن الإفلاس المزمن الذى حل بشارل الخامس، وهو يعد أقوى ملوك زمانه ، لظاهرة عامة للضعف الذى كانت تعانيه كل الحكومات فى ذلك العصر .

وبالرغم من ذلك كله ، فإن ذلك العصر الذى شهد تفكك العالم المسيحى اللاتينى قد شهد أيضاً — بشكل واضح — ظهور ذلك الشكل الأكفأ من أشكال التجمع الاجتماعى والسياسى وهو يتطلب من الأمة ولاء حرًّا وإن يكن صارماً . وفى القرن السادس عشر أخذ الأوربيون أكثر من أى وقت مضى يفكرون باعتبارهم أمماً ويعملون فى وحدات قومية ، ويقدمون لرأس الدولة القومية قدراً من الولاء الذى كانوا يقدمونه من قبل للكنيسة العامة الواحدة . ويعد روچر أشام Roger Ascham ، ناظر المدرسة والمصلح التعليمى الذى علم الملكة إليزابيث ، يعد نموذجاً للحركات التعليمية العلمانية الجديدة التى دعمت الأدب الشعبى والعزة القومية .

وكان ظهور الملكيات القومية فى القارة إيذاناً بعصر من التنازع الدپلوماسى

الحاد تحكمه فكرة التوازن الدولى . وفى حين زال ما كان يشعر به الأوربيون فى العصور الوسطى من وجود مصلحة أوربية عامة ، لم تستطع دولة واحدة أن تقدر قوتها ومواردها الحقيقية . وامتلأت أدمغة الحكام بمطامع رومانتيكية من تراث الرومان والكارولنجيين ؛ بينما كان من الخير لهم أن يكرسوا نشاطهم للعمل لما فيه خير رعاياهم. وكان فن السياسة لم يكن فجاً ، ولم يكن الاقتصاد السياسى قد ظهر بعد ولا قدر الناس فن « الراحة » المنزلية ولا سعوا إليه . ولعدم توافر الإحصائيات الصحيحة انتشرت معلومات غامضة عن ثروة الدول الأوربية وسكانها ، وثبت فى يقين الناس أنه ما زال فى وسعهم القيام بفتوح باهرة والاحتفاظ بها فى نطاق الإطار القديم للمجتمع الأوربى .

أما أن قيام دولة « عامة » (أى تنتظم قوميات متعددة) يقتضى التزامات عامة ، فهذا أمر لم يعن أحد فى مستهل القرن السادس عشر بالتفكير فيه . والسفر إذ ذاك كان أمراً شاقاً ، والعلاقات بين الحكومات نادرة ومتقطعة ؛ وكانت كل دولة تحاول أن تبز جارتها وتسعى إلى توسيع حدودها ، وضاعت على أوربا أكبر فرصة سنحت لها للقيام بذلك العمل العظيم ، وهو إنشاء حضارة تقوم على تعاون بنى البشر . وهذا الكشف عن العالم الجديد لو أنه وضع تحت إدارة رشيدة وعالجه الرأى العام بروح أكثر بهجة ، لكان من المحتمل أن يتمخض عن تقسيم القارة الجديدة بالعدل والقسطاس بين الدول التى اهتمت بها . إلا أن الكشف عن العالم الجديد كان — على العكس من ذلك — إيذاناً بانفجار حرب قاسية وانتشار القرصنة فى أعالى البحار لعدة قرون . وقد أخذ الناس كل ذلك قضية مسلماً بها ، ولم يرتفع مفكر سياسى إلى مستوى الأحداث الكبرى التى كانت تغير وجه العالم . وفى حين استسلم سير توماس مور Thomas More للأحلام السعيدة من عالم مثالى فاضل ، نرى ميكافيللى Machiavelli المفكر الفلورنسى الكبير ولا شىء أعز على قلبه من إيطاليا وقد تحررت من الغزاة المتبربرين .

وأصبح المال — الذى هو دائماً قوة يحسب حسابها فى شئون البشر — أكثر توافراً فى أواخر العصور الوسطى ، ثم ازداد وفرة قبل أن ينتهى القرن السادس عشر حين تدفقت على أوربا فضة پيرو . أما التجارة فقد نمت فى كل الأقطار

الغربية على أثر الدافع الأول الذى أنعشها أثناء الحرب الصليبية ، وترتب على ذلك ظهور طبقة وسطى ذات نفوذ قوى ومصالح مادية تتعارض مع استمرار فوضى الإقطاع . وفرض رأس المال نفسه على الحياة العامة ؛ وكم من تاجر أو مصرفى كبير بز بنفوذه كبار النبلاء الإقطاعيين بسيطرته على رأس المال حر التداول ، وقفز إلى مراكز ذات نفوذ سياسى : من أمثال جاك كير Jacques Coeur فى بورج ، وفوجر Fugger فى أوجز بورج ، ودك وتنجتون Dick Whittington فى لندن وروبرتو ستروتزى Roberto Strozzi فى فلورنسة . وقد مضى حين من الدهر قامت فيه أوجزبورج على تمويل الإمبراطورية ، بينما كانت مشروعات فرنسا فى إيطاليا تعتمد على تمويل بنك ستروتزى فى فلورنسة فى ليون والبندقية وروما . وهكذا أصبح رأس المال قوة لها حسابها ، تشد من أزر الدول الملكية القومية التى تعتبر سلطانها الوثيق من الحقائق الجديدة التى تميز أوربا فى القرن السادس .

وبينما أوربا تستنير بما انبثق لها من معارف وآفاق جديدة، وتهدف بروح العزة والاستقلال القومى ، انفجرت فوق ربوعها شرارة الإصلاح البروتستانتى . وما كان تحدى التعاليم الكاثوليكية بالشىء الجديد ؛ فقد بدأه وكلف Wycliffe (١٣٢٤ — ٨٤) فى إنجلترا وهس Huss (١٣٧٣ — ١٤١٥) فى بوهيميا . ومنذ ذلك الانقسام الأول فى الكنيسة الغربية امتلأت جنبات العالم المسيحى بالمفكرين الجادين الذين توافروا على البحث عن الطريق الأمثل لإصلاح العيوب الواضحة فى الكنيسة . وعقدت المجامع الدينية ، وتناقشت ، ثم انفرط عقدها ولما يصل الناس إلى أى تحسن ملحوظ . أما البابا — وقد بدا له أن لا شىء يتهدد سلطانه قدر اعترافه بمجمع دينى عام هيئة نظامية ومقررة لحكم الكنيسة — فقد تمكن من التحايل على الحركة الداعية إلى عقد مجمع عام بالاتصال مباشرة بالحكومات القومية فى أوربا وعقد اتفاقات دينية معها . ولم يكن بطاقة هذه المجامع العامة ، بمناقشاتها الصاخبة دون نظام ، وبتشكيلها من أعضاء متباينين جنساً ولغة وولاء ، لم يكن بطاقتها أن تكون نداً للبلاط البابوى بما عرف به من حنكة دبلوماسية . وكان اتفاق البابوية والحكومات الزمنية كفيلا بالقضاء على المحاولات الرامية إلى عقد مجمع دينى عام . وعلى أى حال فإن الإصلاح البروتستانتى لم يبدأ على يد

المجالس الكنسية أو بتعضيد منها ؛ بل إنه نبع من شعور مخلص بالتناقض القائم بين بساطة المسيحية الأولى والثروة التى كانت تتمتع بها الكنيسة الرومانية ، وما كانت تجبيه من فروض مادية ، وهذه الحركة قد عماها وشد أزرها تعضيد بعض الأمراء العلمانيين وطموحهم . هذا إلى أن حركة الإصلاح البروتستانتى قد نجحت فى توطيد أقدامها فى تلك المناطق من شمال أوربا حيث احتمت من هجوم الكاثوليكية عليها بمصادرة مساحات واسعة من أراضى الأديرة وما أدى إليه هذا الإجراء من قيام مصالح مكتسبة فى هذه الأراضى التى سلبت من الكنيسة ، رسخت أقدامها فى بعض المناطق حتى لم تعد ثورة ولا حرب بقادرة على المساس بها .

وفى غمرة هذا الانشقاق الدينى الكبير الذى قطع أوصال أوربا المسيحية كان الأتراك العثمانيون قد وضعوا أيديهم على كل البلقان واحتلوا مصر وأنشأوا أسطولاً مرهوب الجانب . حينئذ — فى النصف الأول من القرن السادس عشر — كان الدافع المسيحى فى توجيه السياسة من الضعف بحيث لم يتورع ملكا فرنسا فرانسوا الأول وابنه هنرى الثانى عن التحالف مع العثمانيين ضد شارل الخامس ، فى الوقت الذى تصدى فيه الإمبراطور — رأس أسرة الهابسبورج — للدفاع عن « الدين الحق » (الديانة الكاثوليكية) ضد « هرطقة » لوثر . والحق أن انتصار الحركة البروتستانتية فى أصقاع واسعة من شمالى أوربا يرجع إلى هذه المنازعات القومية والأسرية التى استعر أوارها فى طلائع القرن السادس عشر على نحو لم يعرف من قبل . وإنه لمن الخطأ أن نظن أن الاضطهاد لا يثمرا على الإطلاق : فهو الذى سحق حركتى الإلبجنسس Albigenses [١] واللولاردز Lollards [٢] واقتلع بذور البرتستانتية من إسپانيا وإيطاليا وبوهيميا . ولا داعى لافتراض الفشل الحتمى لجهود الحكومات الأوربية فيما لو اتحدت للقضاء على اللوثريين فى ألمانيا ، والكلفنيين فى جنيف . ولكن هذا الاتحاد لم يحدث قط . فلقد سيطر النضال الكبير بين أسرتى الفالوا والهابسبورج على العصر كله بحيث ارتبك شارل

---

(١) جماعة من الساخطين على الكنيسة الكاثوليكية ، ظهرت فى جنوب فرنسا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . ومن الصعب تحديد تعاليمهم بحكم أن معظم مصادرها مستقاة من خصومهم .

(٢) أتباع جون وكليف فى إنجلترا وكانوا من الساخطين على كنيسة روما .

الخامس أمام حركات الهرطقة فى ألمانيا التى وجدت ترحيباً من فرانسوا الأول ، فكان أول من استن باتجاهه هذا ذلك المبدأ فى تقاليد السياسة الفرنسية ، وهو تشجيع حركات الهرطقة فى خارج فرنسا مع العمل على إخماد أنفاسها فى الداخل . ولو لم تنتهج فرنسا هذه الخطة لكان من المحتمل إعادة ألمانيا كلها إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية .

كذلك تأثر مجرى الإصلاح الدينى فى إنجلترا بالتنافس الكبير الذى كان قائماً بين دول القارة الأوربية فى ذلك الوقت . ففى ذلك العام المضطرب ، عام ١٥٢٧ ، حين بات استمرار ولاء إنجلترا للبابوية رهناً بإقرار البابا لطلاق هنرى الثانى لكاترين الأراجونية ، كان البابا أسيراً فى يد شارل الخامس ابن أخت كاترين نتيجة للحرب بين فرنسا والإمبراطورية . وحتى ولو أراد البابا كليمنت السابع التمشى مع رغبة الملك — وقد كانت ثمة سوابق مماثلة فى تاريخ البابوية لمثل هذا الإجراء الذى يحثه على اتخاذه البلاط الإنجليزى — فإن البابا كان قد فقد حريته ، فلم يعد فى وسعه أن يوافق على إجراء الطلاق . وهكذا نجد أن الصراع بين أسرتى الهابسبورج والفالوا ، وهو الصراع الذى ساعد على التحول النهائى لشمال ألمانيا البروتستانتية ، هو نفسه الذى عجل بانفصال إنجلترا عن روما فى عهد هنرى الثامن ، ثم هو أيضاً الذى وقى الكنيسة الإنجليكانية الناشئة من الانهيار فى الأيام العصيبة من حكم إليزابيث .

ولم يتم ذلك الانفصام الدينى فى غرب أوربا دون كفاح مرير . ففى خلال النصف الأول من القرن السادس عشر استوعب الصراع الكبير بين أسرتى الهابسبورج والفالوا جهود أكبر دولتين كاثوليكيتين فى أوربا ، وانتشرت المعتقدات البروتستانتية فى وقت قصير ، فاستقرت فى الجزء الأكبر من ألمانيا وسويسرا وغزت ممالك اسكنديناوة وتسللت إلى إيطاليا وإسبانيا ، وجرفت كل شىء أمامها فى أسكتلندة وبوهيميا . وطبقاً لما ذكره كاردينال اللورين أصاب مس الهرطقة الجديدة ثلثى سكان فرنسا فى إبان حكم هنرى الثانى (١٥٤٧ — ٥٩) . وما فتئ ساعد الحركة يشتد طيلة قرن من الزمان ؛ وكما يحدث عادة حين تغدو الحركات الدينية شعبية وتتغذى بحقد الرجل العادى على بهارج السلطان والثروات التى يساء استخدامها ،

فقد تكونت حول البؤرة الأصلية للحماسة الدينية الحقيقية حالة واسعة من الأنانية والإهمال والجشع .

ثم جاء رد الفعل — فني عام ١٥٥٩ نفض هنرى الثانى ملك فرنسا يديه من حلم الفتوح الإيطالية ، وقد ردته إلى صوابه دون شك هزيمة جيوشه فى معركة سان كنتان ، فوقع معاهدة كاتوكمبرسيس Cateau Cambrésis مع الإمبراطورية . وصمم حينئذ على تسخير كل جهوده لاجتثاث جذور الهرطقة من فرنسا ، فكان ذلك إيذاناً ببداية عهد جديد إذ تأجل الصراع بين الهابسبورج والڤالوا . بينما بدأت الحروب الدينية ، وتساءل الناس : هل يصمد اللوثريون فى ألمانيا؟ وهل سيتسنى لأتباع كلڤن السيطرة على فرنسا ؟ هذا بينما نهضت البابوية فى ثبات لتسترد ما فقدته العقيدة الكاثوليكية من بقاع ، مستعينة فى تحقيق ذلك بطائفة الجزويت (اليسوعيين) التى أنشئت حديثاً .

واستمرت الحرب الدينية فى فرنسا ، تتخللها فترات انقطاع ، من ١٥٦٠ إلى ١٥٩٨ ، حين صدر مرسوم نانت الذى ضمن للهيجونوت البروتستانت تسامحاً دينياً وخولهم وضعاً ممتازاً جعل منهم دولة داخل الدولة فى المملكة الفرنسية ، واشتعلت الحفائظ أثناء تلك الحروب الدينية التى لجأ الدهماء أثناءها إلى كثير من أعمال العنف ، واتسمت خلالها أعمال العسكريين بالقسوة . ومع ذلك فإن هذه الحروب لم تخلف ندوباً عميقة من شأنها أن تعرقل رخاء المجتمع الفرنسى ؛ بل إن فرنسا خرجت بعد انتهائها أقوى مما كانت عليه فى أى وقت مضى : فأضحى جيشها أقوى جيوش القارة ودبلوماسيتها أقدر فى استقاء الأخبار ، وبلاطها أزهى بلاط أوربا. وفى القرن السابع عشر بلغت الملكية الفرنسية أوج مجدها وعظمتها : فقد وضع ريشيليو ومازران دعائم عصر لويس الرابع عشر (١٦٤٣ — ١٧١٥) الذى فرض نفسه أمداً طويلا .

وعلى العكس من ذلك كان أثر حروب الثلاثين عاماً الدينية فى ذلك الشتات من الدول الألمانية . وحين وضع صلح وستفاليا (١٦٤٨) حداً للنزاع ، ورسم الحدود بين الدول البروتستانتية والدول الكاثوليكية (وقد بقى الوضع الدينى منذ هذا الصلح قائماً حتى الآن) كانت ألمانيا قد أصبحت خراباً : فقد نقص عدد سكانها

إلى حد كبير واضمحلت مواردها فأصيبت مؤسساتها العلمية والتعليمية بضرر بالغ وتحطم كبرياؤها وضاعت ثقتها بنفسها نتيجة لما نزل بها من هزائم متوالية وإذلال شنيع . فليس إذاً من قبيل المبالغة القول بأن حرب الثلاثين عاماً قد أخرت حضارة ألمانيا لمائتي عام ، أو أن السهولة التي أخضع بها نابليون هذا الشعب الحي الناضج في العقد الأول من القرن التاسع عشر كانت نتيجة للعواقب المهلكة التي تمخضت عنها هذه الطامة الكبرى .

وبعد سلسلة من الانتصارات الباهرة التي حققتها الحركة الكاثوليكية في محاولتها رد أوربا إلى حظيرتها ، نجدها وقد توقفت فجأة وفي كل مكان ، ولم يعد من الأمور الممكنة أن يرد العالم اللاتيني المسيحي إلى حظيرة البابوية ؛ فقد سالت أنهار من الدماء وتكونت ألوان من المصالح ، واستقرت ألوان متضاربة من الولاء . وجاء صلح وستفاليا ثمرة لذلك الصراع الوحشي الذي دفعت أوربا ثمنه غالياً ؛ فدمغ خريطة أوربا بطابع الانقسام الديني . ولم تسو الخصومات بين الكاثوليك والبروتستانت ، ولم تهدأ الأحقاد بينهم ، فظل كل فريق متحفزاً في مراكزه مستعداً للوثوب .

وكانت النتيجة أكثر مدعاة للدهشة . فإن النمسا وإسپانيا — وهي الدول الثلاث التي كانت تهيمن على شئون أوربا — بقيت كلها مخلصة للعقيدة القديمة ، ولو أن هذه الدول القوية ، وكل منها مخلصة للعقيدة ، متحمسة للمحافظة على الكاثوليكية ونشرها ، وقد آثرت الوقوف صفًّا واحداً ضد البروتستانتية ، فهل ثمة مجال للشك في إمكانها فرض نوع من الوحدة الدينية على القارة مهما تكن هذه الوحدة آلية وجوفاء ؟ لقد اجتثت الهرطقة من جذورها في النمسا وإسپانيا وبوهيميا وپولندة — فهل كان يقيض لها البقاء في شمال ألمانيا والأراضي المنخفضة أمام جهد موحد تبذله الدول الكاثوليكية في عزم وإصرار ؟ أما الذي حدث فهو أن الدول الكاثوليكية لم تتحد قط . ففي اللحظة الحاسمة وقفت فرنسا نفسها — بتوجيه من الكاردينال ريشيليو — تعرقل المجهودات التي كان يبذلها دعاة الإصلاح الكاثوليكي بتوجيه من حكام الهاپسبورج في النمسا وإسپانيا . وقد بدأت فرنسا تفعل هذا بطريق غير مباشر ، ثم نجدها بعد عام ١٦٣٥ تنفذه بطريقة سافرة ؛ وفي كلتا الحالتين

كانت مقاومتها لتلك المجهودات مجدية تماماً ، و « كاردينال الهيجونوت » — كما عرف ريشيليو — أحد أولئك النفر النادر من الرجال الذين تسلطت عليهم فكرة « الدولة » . وجد حدود فرنسا تتهددها من كل جانب أملاك أسرة الهابسبورج ، وقد تضامن أمراؤها ضد فرنسا ؛ فصمم بكل ما لديه من عزم على إضعاف هذا التضامن والحط منه لمصلحة سيده ملك فرنسا . ولم يكن أى اعتبار دينى أو أخلاقى ليقف فى وجه إرادته الحديدية أو يبعث العاطفة إلى قلبه المتحجر . وبرغم أنه حين أصبح وزيراً لخارجية الملك لويس الثالث عشر عام ١٦٢٤ لم يكن لديه أسطول ولا جيش نظامى ، ورغم أن نبلاء الهيجونوت وأعضاء البرلمانات المحلية قد اعتصموا بمدنهم المحصنة مكونين بذلك دولة داخل الدولة ، وبرغم أن حياته ذاتها قد تهددتها المؤامرات الداخلية ، برغم ذلك كله فإن همته لم تفتر لحظة واحدة فى مقاومة الأداتين العلمانيتين العظيمتين اللتين كانت تحركهما الكنيسة الكاثوليكية . وفى الداخل قضى تماماً على قوة الهيجونوت السياسية فى الوقت الذى سمح لهم فيه بالتمتع بحريتهم الدينية . وفى الخارج مد القضية البروتستانتية بالمال وحارب معها جنباً إلى جنب مما ضمن لها النجاح : فهو آناً يحتل الفالتلين الذى يربط دوقية ميلان التابعة لإسپانيا بالنمسا ، وآناً آخر يسند بقوة السلاح ترشيح أحد الأمراء الفرنسيين لدوقية مانتوا ، وفى الوقت العصيب الذى تعرضت فيه البروتستانتية للأخطار كانت المعونة المالية الفرنسية التى حركت جيش جوستاف أدولف ملك السويد . وإذا كان جزء من قارة أوربا لا يزال بروتستانتياً حتى اليوم فإنما يرجع ذلك إلى الدپلوماسية النشيطة الدءوب التى اتصف بها هذا الكاردينال الكاثوليكى .

وقدر للمرحلة الأخيرة من ذلك الصراع الطويل المرير بين المذهبين البروتستانتى والكاثوليكى فى أوربا أن يكون لها أثر بعيد فى توازن القوى العالمى . فالهيجونوت كانوا من أنشط رعايا لويس الرابع عشر وأولاهم بعطفه ، وقد بزوا مواطنيهم الكاثوليك فى التجارة وركوب البحر ، كما بزوهم أيضاً فى كل فروع الصناعة ، وعلى الخصوص صناعة نسج الحرير التى كانت تحتاج فى ذلك العصر إلى قدر كبير من المهارة الفنية . ومع ذلك فقد رفض لويس الرابع عشر وزوجته المتعصبة مدام دى مانتينون أن يكون لهؤلاء الهيجونوت — بسبب آرائهم الدينية — مكان فى داخل الدولة

الفرنسية الكاثوليكية . فلا مهارتهم الفنية ولا مساهمتهم فى الرخاء المادى للمجتمع الفرنسى شفعت لهم فى تلك الخطيئة الكبرى التى قارفوها باعتناقهم البروتستانتية ؛ فاضطهدوا فى أول الأمر ثم طردوا من ديارهم فى عام ١٦٨٥ بعد أن سحبت الحماية التى أسبغها عليهم مرسوم نانت ، فهاجروا إلى الدول البروتستانتية المنافسة لفرنسا ولقوا فيها من العطف ما لم يلقوه فى وطنهم ، ثم نقلوا إلى أوطانهم الجديدة ثمرات معارفهم ومهارتهم . ولو قد بقى الهيجونوت فى وطنهم لربما أحرزت فرنسا قصب السبق فى حلبة الاستعمار .

وكانت بريطانيا أسعد حظًّا من غيرها ؛ إذ توقت ويلات الانقلابات الدينية التى اكتوت القارة بنارها . قامت فى الجزء الجنوبى منها كنيسة إراستية [1] فى حكومتها رومانية فى طقوسها ، كلڤينية فى عقيدتها ، وقد توطدت أركانها فى أواخر القرن السادس عشر . حقًّا إن ذلك لم يتم دون أن تسفك بعض الدماء وتجرى بعض الاضطرابات المحلية ، ولكنه تم على نحو يبعث على الدهشة بطريق التسليم الهادئ من جانب الشعب الإنجليزى ، وهو شعب فى جوهره لا يميل إلى الجدل الدينى . وبتحطيم الأرمادا الإسپانية (١٥٨٨) زالت تماماً فرصة حدوث رد فعل ناجح من جانب الكاثوليك، برغم أن ذلك الخطر لم يكن بالغ الأهمية بعد أن أشبع النبلاء وأعيان الريف نهمهم من أراضى الأديرة . وهذه الحرب الأهلية التى نشبت فى إنجلترا فى القرن السابع عشر لم تدر لتغلب إحدى العقيدتين : الكاثوليكية أو البروتستانتية ، بالرغم مما كان يتسلط على ذوى الرءوس المستديرة [2] من الخوف من روما التى كانت فى نظرهم قوة خبيثة سيئة الطوية لا ضمير لها لدرجة أن ممارسة أى طقس من الطقوس الدينية قد اعتبرت ذات دلالة منطوية على الشر . وإنما دارت هذه الحرب الأهلية للمحافظة على الحريات البرلمانية والرسوم الأنجليكانية . ولم يعد خطر استرداد الكاثوليكية للجزيرة البريطانية مرة أخرى عاملاً فعالا فى السياسة الدولية إلا فى الجزء الأخير من القرن السابع عشر حين بدأت مرحلة

---

(١) نسبة إلى توماس إراستوس (١٥٢٤ – ١٥٨٣) الألمانى – السويسرى . وتتضمن الإراستية إعلاء السلطة العلمانية على السلطة الكهنوتية ، وإن لم تحد العلاقة بين السلطتين .

(٢) أنصار البرلمان فى الحرب الأهلية الإنجليزية (١٦٤٠ – ١٦٤٨) .

اضطهاد لويس الرابع عشر للهيجونوت . وكان كل من شارل الثانى وجيمس الثانى كاثوليكياً ، عمل أولهما فى الخفاء بينما أفصح الثانى عن حقيقة نواياه . وقد عمل كلاهما على إعادة إنجلترا إلى حظيرة الكاثوليكية بالاستناد إلى جيش فرنسى : فحاول شارل الثانى تحقيق هدفه فى دهاء وتحفظ ، بينما أظهر جيمس الثانى حماقة كبيرة مصحوبة بصخب وضجيج . ولكن قضى على المؤامرة . وحتى فى حالة اعتماد الكاثوليك الإنجليز على الحرب الفرنسية يحق لنا أن نشك فى نجاح مجالدتهم للأسطول البريطانى وللبروتستانتية القوية فى مدينة لندن وفى المقاطعات الشرقية . وعندما جاء أخيراً وقت الامتحان ، لم يوجد رجل واحد يغامر بجلده فى سبيل الملك جيمس .

وثورة ١٦٨٨ التى جاءت بوليم أورنج إلى عرش إنجلترا سميت بالثورة المجيدة لأنها لم تسل فيها قطرة من الدم ؛ فقد وقفت البلاد صفاً واحداً كالبنيان المرصوص دفاعاً عن قضية البروتستانتية — وكان هذا البنيان من القوة بحيث لم تخش البلاد أن تجنح إلى التسامح ، فلم تسفك دماء أحد .

وجاءت هزيمة الإصلاح الكاثوليكى فى إنجلترا بداية لعصر جديد فى التاريخ الأوربى ، حقيقة استمر التنافس بين إنجلترا وفرنسا طوال القرن الثامن عشر ، ولكن لم تعد القارة الأوربية وحدها مسرحاً له ، بل إنه انتقل عبر المحيطات إلى كندا والهند . وأصبحت التجارة والمستعمرات أبعد أثراً فى السياسة العامة من الروابط الدينية والمحالفات بين الأسر الحاكمة . وكان الجيل الثانى من البيوريتان من الدهاء بحيث آثر كثير منهم الاتجاه إلى ميدان الأعمال واهتموا بجمع المال ، وأصبح طابع عهد أسرة هانوفر المحافظة فى السياسة (أو ما عرف حينئذ باسم وجزم Whiggism) ، وتحكيم العقل فى مجال الفلسفة ، وإيثار العافية وراحة العيش فى الحياة الاجتماعية . وهكذا بدأت ثروة إنجلترا ورخاؤها وحريتها تسترعى اهتمام الأجانب . ورغم أن عبقرية شكسبير كانت لا تزال لغزاً تحار فيه الأفهام ، فقد استحوذت على العالم الخارجى فكرة أنه يمكن استقاء الكثير من تلك البلاد التى كانت بمثابة رأس الحربة للعلم البروتستانتى فى تحديه للويس الرابع عشر : ففولتير كان تلميذ بولنجبروك Bolingbroke ، ومونتسكيو بدا له أن الإنجليز قد ملكوا

أسرار الحرية السياسية ؛ وانتشرت فلسفة نيوتن ولوك وكان لها أثرها فى المفكرين الذين وجهوا فرنسا فى القرن الثامن عشر . وهكذا عادت تلك الجزيرة الصغيرة — الجزيرة البريطانية — لعشرات السنين القادمة تلقن أوربا من جديد ، وأعادت بذلك ذكرى تلك الفترة الزاهية من تاريخ أكسفورد فى العصور الوسطى .

* * *

هذا هو الاتجاه العام لتلك القصة التى نعود الآن لنستعرض حوادثها : دين يؤمن به الناس فى بقاع شاسعة ، تتغلغل جذوره بعمق كبير فى تقاليد غرب أوربا الاجتماعية والسياسية ، تتحداه قوى روحية جديدة فى عنف وفى جانب كبير من القارة الأوربية ، وترغمه على قبول الهزيمة ؛ ونظام اجتماعى قائم على الشمول totalitarian يفقد بريقه وواقعيته ، ومجتمع غربى مسيحى تحلل إلى عدة أجزاء عجز عن امتصاصها من جديد . وجدّت وجهات نظر عن الحياة تستند إلى حرية الفكر وضمير الفرد وحق الدول — بل الطوائف الدينية الصغيرة — فى تقرير مصيرها ، استطاعت أن تقضى بالتدريج على جهاز الكنيسة القديم الذى كان ينتظم كل شىء ، كما أعانت على الظهور سلسلة طويلة من الأفكار الثورية التى أدت فى النهاية إلى تعديل النظم الأوربية وتشكيل العالم الحديث . وأفلتت بلاد أوربا الشمالية ذات الحيوية والنشاط المتجدد من قبضة روما . بينما ثبتت بلاد أوربا الجنوبية ، وهى أقل حيوية ونشاطاً ، على الطرائق القديمة . وذلك برغم ما طرأ عليها من تقلبات داخلية . وفى غمرة هذا النضال الطويل الذى أغرق أوربا فى بحر من الدماء امتزجت أنبل الدوافع بأحطها واستحال التمييز بينها . وفى خلال هذا الجدال الدينى الكبير بدا عمق العاطفة عند العباقرة من المتدينين فى كلا المعسكرين فى « كتاب الصلوات » لكرانمر Cranmer [1] و « الفردوس المفقود Paradise Lost » لملتون Milton [2] و « الرياضيات الروحية »

---

(١) ١٤٨٩ — ١٥٥٦ . رئيس أساقفة كانتربرى . وقد لعب دوراً فى حركة الإصلاح الدينى فى إنجلترا سيأتى تفصيل الكلام عنه فيما يلى .

(٢) ١٦٠٨ — ١٦٧٤ . شاعر إنجليزى عظيم ، وكان ضريراً .

لليولا Lyola[١] و« أفكار Pensées » پسكال [٢] وموسيقى پالسترِ يا Palestrina[٣] الكاثوليكية وموسيقى باخ Bach[٤] البروتستانتية . ورغم ذلك فإن السواد الأعظم من الأوربيين لم يكن متديناً حق التدين على الإطلاق . وكانت الشخصيات التى سيطرت على الموقف فى أوربا أثناء الحروب الدينية هم رجال السياسة والقادة العسكريون وفئة المغامرين ممن يستغلون حماسة الدهماء فى تحقيق أهدافهم الدنيوية. وهكذا يطفو من العاصفة شخص مثل والنشتين Wallenstein فى بوهيميا أو مولبرا Marlborough [٥] فى إنجلترا : يرسم السياسة ويقود الجيش ويجمع المال ويملأ أوربا بصيته ويبعث فى أرجائها الخوف من جرأته . ولو أتيح لرجل من أهل الصين ، ممن عاشوا فى هذا العصر ، أن يستعرض أحوال أوربا المضطربة إبان القرنين السادس عشر والسابع عشر . لربما احتشدت فى مخيلته الأسئلة التالية : ألا يفهم شعب خلا من المنازعات الدينية ، لأنه لادين له ، بل كل ما عنده مجموعة قوانين أخلاقية تنظم سلوك الناس — ألا يفهم هذا الشعب فن الحياة أكثر من غيره ؟ وهل الإصلاح البروتستانتى ، بكل نتائجه التى لا يمكن حصرها فى ميادين الفن والموسيقى والعلم والأدب ، وما يترتب عليه من فك عقال القوى البشرية بذلك الشكل الواسع ، جدير بالثمن الذى دفعته أوربا فى شكل حروب وحشية طويلة ؟ وهل تفكير الناس فى أسرار الكون القصوى ، هذا التفكير الذى كان أقل قدرة على الإلهام وأقل بطولة وثقة مما كان يسود المسيحيين الغربيين إذ ذاك ، لم يكن فى الواقع أكثر تأدية لراحة البشر ؟

---

(١) ١٤٩١ — ١٥٥٦ . مؤسس نظام الجزويت (اليسوعيين) — وسيأتى تفصيل الكلام عنه فيما يلى .

(٢) ١٦٢٣ — ١٦٦٢ . الفيلسوف الدينى والرياضى الفرنسى .

(٣) ١٥٢٦ — ١٥٩٤ . المؤلف الموسيقى الإيطالى .

(٤) ١٦٨٥ — ١٧٥٠ . جون سباستيان باخ الموسيقى الألمانى العظيم ، وكان ينتسب إلى أسرة مبرزة فى التآليف الموسيقية .

(٥) جون تشرشل مولبرا (١٦٥٠ — ١٧٢٢) — هو أحد كبار القواد الإنجليز ؛ وقد ظهرت مواهبه العسكرية أثناء حروب إنجلترا ضد لويس الرابع عشر .

كتب يمكن الرجوع إليها

من الممكن العثور على قائمة ممتازة لعدد قليل من المراجع التى تغطى أكبر حيز فى هذا الجزء فى الكتب الآتية :

— A.J. Grant, A History of Europe from 1494 to 1610 (1931).
— D. Ogg, Europe in the Seventeenth Century. (1925)

أما إذا احتاج القارئ إلى قائمة أطول فيستحسن أن يرجع إلى مجموعة Cambridge Modern History والتواريخ القومية المقررة كمؤلفات لافيس Lavisse فرنسا وفرود Froude وجاردنر Gardiner وماكولى Macaulay و ج . م . تريفليان G. M. Trevelyan عن إنجلترا، وكذلك كتب التاريخ المنوعة التى نشرتها تباعاً دار نشر مثون Methuen ولونجمانز Longmans .

الفصل الثانى

النهضة الإيطالية

أسباب بدء النهضة فى إيطاليا – مكانة فلورنسة – تعدد المواهب لدى كبار الفنانين – المؤثرات الدينية والعلمانية فى الفن الإيطالى – الحركة الإنسانية – ڤورنزو فاللا Lorenzo Valla – نيكولو دى نيكولى Niccolo de Niccoli ڤتورينو دا فلتر Vittorino de Feltre – بابوات النهضة – البندقية – الطابع الأرستقراطى الذى ميز الحركة الإنسانية الإيطالية – التناقض الصارخ فى الحياة الإيطالية – انتشار الأثر الإيطالى – « الأمير » و « رجل البلاط » – العوامل المحددة للأثر الإيطالى .

على حين تميز القرن الخامس عشر فى إنجلترا بالعقم الشديد فى الإنتاج الذهنى ، فإنه شهد بزوغ النهضة فى إيطاليا . فنى خلال المائتى عام ما بين ١٣٤٠ و ١٥٤٠ قدمت المدن الإيطالية نتاجاً من الفن والبحث والأدب لم يشهده العالم منذ أمجاد أثينا القديمة . ثم جفت إلى حد كبير ينابيع الخيال الإيطالى الفسيح المسرف الذى كان قد تدفق بقوة هائلة ، وانحصرت فى مجرى ضيق بعد أن وقعت إيطاليا تحت سيطرة الإسپان وخضعت للصرامة الدينية التى تميزت بها حركة الإصلاح الكاثوليكى بما توافر لها من أدوات : نظام الجزويت (اليسوعيين) ومحاكم التفتيش المقدسة والقوائم الدورية للكتب التى تمنع الكنيسة تداولها .حينئذ أفسح ما تميز به عصر الخلق والإبداع من نضج خلاق نشط المجال لمشاعر مريضة صوفية . ولما ولى الرسامون الكبار الذين وصلوا فى البندقية ، أكثر منهم فى غيرها ، المحافظة على أسمى تقاليد فنهم ، لم يسد أحد الفراغ الذى تركوه . وانحسرت عن إيطاليا موجة تفوقها بعد الدور الذى قامت به فى إثراء الحياة العقلية الأوروبية إلى درجة تفوق الحصر ، فاستحقت عرفان الجميل الدائم من جانب الإنسانية . منذ ذلك الوقت أصبح العالم أكثر احتفالا بنثر فرنسا وشعر إنجلترا ومسرحياتها الدرامية وموسيقى ألمانيا منه بكل ما حفلت به البندقية وفلورنسة من مراسم وأكاديميات .

ومن الطبيعى أن يقوم بعث الفنون بالآداب الأوروبية فى بلاد لا تزال مخلفات الماضى من التماثيل وغيرها تلمع بين أشجار الدلب والزيتون . كما أن روح العلوم

الإنسانية التى توارثها الناس عن العصور القديمة لم يحدث قط أن أصابها توقف تام . هذا إلى احتدام التنافس بين المدن والبلاطات الإيطالية المختلفة التى ود كل منها لو بز الآخر ، ووجود عدد كبير من رعاة الفنون الذين كان كل منهم على استعداد للدفع ثمن مرتفع لصورة أو مخطوطة ، والإغداق على الكتاب والمؤدبين . وأخيراً وجد فى إيطاليا من الأطلال والنقوش والعملات النقدية والمداليات ما اجتذب الباحثين منذ أيام پترارك ودفعهم إلى مواصلة البحث والتنقيب[١] .

وأسرعت الحركة الإنسانية ، التى أخذ يشتد ساعدها منذ أواسط القرن الرابع عشر ، أسرعت خطاها بشكل مثير براق خلال فترة من السلام ندر أن تعكر صفوها امتدت مدى أربعين عاماً ما بين صلحى لودى Lodi (عام ١٤٥٤) والغزو الفرنسى لإيطاليا على يد شارل الثامن . وقد تقدمت الفنون والآداب بخطى واسعة حين كان لورنزو دى مديتشى Lorenzo dei Medici أميراً لفلورنسة ، وحين كانت إيطالية آمنة من الغزو الخارجى نتيجة لقيام تفاهم مجد — وإن لم يكن سهلا — بين الدول الأربع الكبرى التى كانت تسيطر على مصائر شبه الجزيرة . وتركز هذا النشاط الفنى والفكرى بوجه خاص فى فلورنسة عاصمة لورنزو على نهر الأرنو ، وهى التى خلدت شهرتها أسماء دانتى وپترارك وبوكاتشيو Boccaccio وغيرهم من مجموعة الرجال الماجدين الذين جعلوا فلورنسة بحق عاصمة أوربا فى الفن والإبداع الفكرى . وقد انتظمت قائمة عظماء فلورنسة الذين ولدوا فيها وأنتجوا خلال الأربعين عاماً هذه أسماء ميخائيل أنجلو Michael Angelo ودونا تللو Donatello وفرافلپو لپى Fra Filippo Lippi وساندرو بوتشيلى Sandro Botticelli ؛ كما ينبغى إضافة أسماء مكياڤيللى Machiavelli الناشر وجيتشارديني Guicciardini المؤرخ وفيكينو Ficino الأفلاطونى وپوليسيان Politian المتوافر على دراسة اللاتينية ؛ هذا إلى لوكاديللا روبيا Luca della Robbia ودومينيكو جيرلاندايو Dominico Ghirlandaio[٢] والكل من الفلورنسيين — وكذلك شأن ڤيروكيو Verrochio وپروجينو Perugino[٣] وليوناردو

(١) ١٤٥٤ — ١٤٩٤ . البحاثة والشاعر الإيطالى .

(٢) ١٤٤٩ — ١٤٩٤ . الرسام الفلورنسى .

(٣) حوالى ١٤٥٠ — ١٥٢٤ . الرسام الإيطالى الذى ينتسب إلى بروجيا .

داڤنشي Leonardo da Vinci ؛ كما أن لورنزودى مدتيشى قد أظهر عبقريته كشاعر ورجل دولة وذواقة للفنون . وإننا حين نذكر ذلك نستطيع أن نكون لأنفسنا صورة تقريبية عن ذلك البهاء الأخاذ لمجتمع يقوده مثل هؤلاء ويسرعون خطاه . وإنه لمن دواعى قوة النهضة الإيطالية أن فنانيها لم يتقيدوا كثيراً بالتخصص الضيق . فمثلا وجد فى فلورنسة نقاشون ونحاتون انتموا فى نفس الوقت إلى فئة الأطباء والصيادلة بعد أن كانوا قد تلقنوا على أيدى الصاغة الذين جمعوا إلى العلم والتجارة معرفة واسعة بالفنون والحرف . ومن هنا لم تكن خوارق تنوع المواهب بالشىء النادر : فكان من الأمور العادية أن يتحول الناس من النقش إلى النحت ، ومن النحت إلى العمارة وأشغال المعادن ، ومن كل هذا إلى الشعر والفلسفة والعلوم الطبيعية . وكان ميخائيل أنجلو وليوناردو داڤنشي وألبرتىAlberti دائماً مضرب المثل المتواتر على هذا التنوع فى المواهب . فأنجلو لم يشتهر بتماثيله ورسومه على الجدران وحدها ، بل ذاعت شهرته أيضاً لمهارته فى تصميم تلك التحصينات التى درأت عن فلورنسة حصاراً مشهوراً ، ولاستحواذه على مشاعر مضيفه فى بولونا بقراءته لدانتى وپترارك وبوكاتشيو ، وأخيراً لأنه — وقد جاوز السبعين — ألف مجموعة من المنظومات الغنائية صيغت فى أسلوب عاطفى رفيع لم يعرف فى إيطاليا منذ وفاة دانتى . أما ليوناردو فإنه لم يكن مجرد راسم لوحتى « مونا ليزا » و « العشاء الأخير » بل كان أيضاً مهندساً وميكانيكيًّا وعالماً . وإن مذكراته تكشف لنا عن عقل شغوف بمقارفة كل أنواع المعرفة والخبرة : فإلى جانب شغفه بدراسة أفلاك الشمس والقمر ، كانت له نظريات خاصة بالحفريات التى عثر عليها بين صخور جبال الأپنين ، تقوم على القياس الرياضى وعلم الأحياء ؛ كما أن له مباحث خاصة بالغايات القصوى فى علم الميكانيكا . هذه القدرات الواسعة والشغف الكبير بالمعرفة تمثلت أيضاً فى ألبرتى الرياضى وفارس عصره ، الذى ألف كذلك مقطوعات موسيقية ورسم صوراً وبنى كنائس وألف ملهاة (كوميديا) وشرح علم العمارة فى عشرة كتب كانت صياغتها من اللطف والاتساق بحيث إن قراءتها لا تزال تبعث البهجة حتى وقتنا الحاضر . ولم يكن أى فرع من فروع العلم التطبيقية غريباً على ألبرتى الذى صمم عملية لانتشال السفن الغارقة والذى يقال إنه قد تنبأ ببعض المكتشفات الحديثة

فى طب العيون . على أنه إذا كان ألبرتى فى مواهبه نسيج وحده ، فإن التطلع إلى المعرفة الشاملة كان ظاهرة من ظواهر العصر شارك فيها الفنانون جميعاً .

وتمشى فن النهضة مع التقاليد المسيحية ، تستوى فى ذلك مظاهره المبكرة فى فلورنسة والمتأخرة فى البندقية ، بحكم أن الكنيسة كانت أكبر معضديه ؛ وهكذا نجد عشرين موضوعاً مستقاة من الإنجيل يقابلها موضوع واحد استقاه الفنانون من الآداب القديمة . هذا إلى أن بعض المبرزين من الرسامين مثل فرا أنجيلكو Fra Angelico وفرا فليپولپى Fra Filippo Lippi وفرا برتلميو Fra Bartolomeo كانوا رهباناً . ولكن بمرور الزمن فقد رسم الموضوعات الدينية كثيراً من مميزاته الروحية التى اتسم بها فى البداية ، فأصبحت الشخصيات فى اللوحات أقل كهانة وتزمتاً ، وهو ما اصطلح عليه العرف حينئذ ، واقتربوا كثيراً من واقع الحياة الإنسانية بلحمها ودمها . فمثلا « مادونا Madonna » تيسيان Titian[1] نموذج أنيق أكثرمنها صورة مثالية للأمومة المقدسة . وفى هذا المجال — كما هو الحال فى أوجه النشاط الإيطالى الأخرى — انطبع الفن بشكل حاسم بالطابع الدنيوى والنقاى الذى ساد العصر والذى لم يكن فى أى مكان أقوى منه فى روما ذاتها .

وتميز العصر بالجرى وراء المجد الشخصى . ولكى يخلد الأغنياء أنفسهم خلال الفن ، راحوا يحفزون الرسامين والفنانين إلى إبداع الصور والتماثيل . كذلك اكتسبت العمارة الفلورنسية الفخمة شهرة سريعة . وإذا كان من الإنجليز من لم تسنح لهم فرصة القيام برحلة إلى إيطاليا يشاهدون أثناءها تمثالا من نحت دوناتللو أو ميخائيل أنجلو ، فإنهم يستطيعون تلقى نفس النوع من التذوق فى زيارة لكنيسة وستمنستر حيث لابد أن يستحوذ على إعجابهم قبر هنرى السابع الذى صممه توريجيانو Torregiano[2] . وكما طلب الخلود راعى الفن من الفنانين ، كذلك طلب أهل الفن الخلود بأعمالهم . انتهى عهد المعماريين المجهولين والكاتدرائيات القوطية التى ساهمت فى تشييدها أجيال متوالية من البنائين المغمورين ، بعد أن أصبح

---

(١) حوالى ١٤٧٧ — ١٥٦٧ . أحد كبار ممثلى مدرسة التصوير البندقية .

(٢) ١٤٧٢ — ١٥٢٨ . نحات فلورنسى قضى جل حياته الأخيرة فى إنجلترا وإسبانيا ؛ وفى الأولى صمم مقبرة هنرى السابع فى وستمنستر وفى الثانية صمم تمثال العذراء فى إشبيلية .

المعمارى فى عصر النهضة ، فى أسلوبه فى فن العمارة المقتبس عن تعاليم فتروفيوس Vitruvius[١] ، يتوقع أن يجنى ثمرة عمله بعد إتمامه ، وهى شهرة تطير له أثناء حياته .

ومما يسم إيطاليى عصر النهضة بالقوة والذاتية أن فن عمارتهم ، رغم تأثره الشديد بكتابات فتروفيوس ، لم يكن قط متقيداً بالنظريات أو تقليداً أعمى للنماذج القديمة . حقيقة لقد راعوا قواعد أستاذهم الرومانى ، إلا أن ذلك لم يمنعهم من الاستجابة لدوافع الذوق الشخصى . وهكذا تشكلت قوالب الماضى بحيث تتمشى مع طرائق الحياة الحديثة ، وخفت حدتها لتلائم لطف الحياة ورخاءها . نقد يشمل تصميم المعمارى حديقة بها مسطحات مزروعة بالأزهار وأفاريز مستقيمة وبحيرات مربعة وخطوط عابسة لا تقوم عليها سوى أشجار الدلب — وبكل هذا تستكمل صورة الواجهة المتناسقة للمنزل الريفى فحتى پلاديو Palladio[٢] (من فتشنزا Vicenza) ، الذى أصبحت كتبه الأربعة فى العمارة حجة يعتد بها كثيراً فى ربوع أوربا ، لم يستطع أن يفرض حدود نسبه ومقاييسه الكلاسيكية الصارمة على خيال مواطنيه المسترسل . واصطدم شغف الإيطاليين الشديد بالزخارف بما تميز به التصميم الكلاسيكى من أوضاع صارمة ، ولكنه استطاع أن يفرض نفسه بمرور الزمن ، كما هو واضح فى كنائس القرن السابع عشر .

وتدفقت عمارة عصر النهضة من مركزها فى روما إلى خارج إيطاليا ، بعد أن وصلت إلى مجدها فى كنيسة القديس بطرس الجديدة بروما ، فملأت أوربا فى القرن السادس عشر بقصور وبيوت لم تنشأ لأغراض الدفاع بقدر ما أنشئت لجلب الراحة والمتعة لأصحابها . وإن قصور إزاى لى ريدو Azay le Rideau وفونتنبلو وهاتفيلد ونول Knole لتسجل جميعاً بداية عصر بز سابقه أبهة وفخامة . فقد حل المنزل الريفى محل القلعة المحصنة ، وأخذت مبانى المدينة تزحف بلطف خارج أسوارها ، وتراجع فن العمارة القائم على الخوف من غزوات المتبربرين فى القرن الثالث أمام الروح

(١) مهندس معمارى رومانى ألف كتاباً مشهوراً عن فن العمارة . لا يعرف كثيراً عن حياته ، وإن يكن قد عاش فى عصر أغسطس .

(٢) ١٥١٨ — ١٥٨٠ . المعمارى الإيطالى .

الجديدة والبهجة التى تميزت بها الحياة الاجتماعية الجديدة .

وفى مجال الأدب كان الطابع الأساسى للنهضة الإيطالية هو الابتعاد عن الأفق المدرسى والدينى المهيمن على العصور الوسطى ، مع شغف شديد بالحياة الوثنية القديمة وآدابها كما لو كان تعويضاً عن اتجاهات الماضى . وهذا الانطلاق الكبير للروح الإنسانية لم يسر على وتيرة واحدة . فالبعض ممن كانت تسهل لهم الكتابة بلغة بلدهم التسكانية رأوا ضرورة التعبير عن أنفسهم بمحاكاة سقيمة مغرورة لشيشرون ؛ بينما اطرح البعض الآخر الأخلاق والدين إلى غير رجعة . وعلى أى حال فقد علق الجميع أهمية كبرى على التمكن من الفصاحة اللاتينية ، ولهذا نجد أن إينياس سلفيوس Aeneas Sylvius[1] الذى وضع كتابه « أصول فن البلاغة Artis Rhetoricae Precepta » عام ١٤٥٦ ، استطاع أن يصل إلى كرسى البابوية ذاته بفضل مقدرته الخطابية باللغة اللاتينية وكان الإنسانى من رجال القرن الخامس عشر ، كما كان السوفسطائى اليونانى أو راهب العصور الوسطى ، عرضة للمغريات التى كانت تستهوى وُعّاظ الشعوب فى كل عصر فيستسلمون لها . وطالما بقيت الآداب القديمة محفوظة فى مخطوطات ، فإن حيازة مفاتيح المعرفة والتصرف فى « صندوق الدنيا » بالفتح والقفل بحسب الهوية ظل حكراً للإنسانى الذى يحوز هذه المخطوطات . وكان البحاثة المتنقل الذى يلقى محاضراته عن أفلاطون أو هوميروس ليطالع النص القديم ثم يقدم تعليقه متنقلا بالسامعين إلى أسرار العصور الخوالى بمحض إعمال ذهنه واستخدام صوته . ومتى كان المستمعون أكثر عاطفية واستعداداً للتعلم وأسهل قياداً منهم حينئذ ؟ فقد كان الإنسانى خطيباً وشاعراً وبحاثة ومعلماً ، يدعوه القائد إلى معسكره ليلهب القوات المحاربة بخطابه الشيشرونية ، وتستخدمه الحكومة للقيام بسفارات خطيرة أو تدوين الرسائل أو إلقاء خطب عامة فى مناسبات رسمية ، ويستقبله الأمير فى قصره ليتمتع بمجلسه وبما يثار فيه من مناقشات عقلية ، ويتخذه معلماً ومشرفاً على مكتبته ورفيقاً . وكم تكأكأ الناس من جميع الطبقات ، رجالا ونساء ، لسماع خطب الإنسانى . . . وكم أبكتهم بلاغته ، وكم عاشوا على

---

(١) البابا بيوس الثانى الذى عرف فى تاريخ الآداب بإينياس سلفيوس . (١٤٠٥ – ١٤٦٤).

الأفكار التى قدمها لهم ! وفى ظل أحوال كهذه ما كان من المتوقع ظهور أبحاث عميقة شاملة .

وبالرغم مما كانت عليه الكتابات اللاتينية التى وضعها الإنسانيون الإيطاليون من السطحية والضحالة ، فإنها كانت ذات أهمية كبرى من حيث إنها مهدت الطريق لاستكشاف المعنى الحقيقى لجمال العالم القديم . عرف الناس الدراسات الكلاسيكية اللاتينية فى البداية ، ومنها تطوقوا إلى الآداب الإغريقية ذاتها . وهكذا تدين أوربا الغربية للإنسانيين بفضل تعرفها من جديد على أفلاطون ، وبما توصلت إليه من توسيع معرفتها بالنصوص القديمة . وبعد أن اكتشف الغربيون أن الماضى شىء له كيانه يقف على قدم المساواة مع الحاضر ، وأن المستقبل سيطبق مثل هذه النظرة على الحاضر ، بدءوا يضعون الأجيال القادمة نصب أعينهم ، ويسرحون النظر فى الصورة التى سيبدو بها عصرهم بعد قرون . وتتميز المدرسة الكبيرة من الناشرين والمؤرخين الفلورنسيين بهذا الشعور الجديد بالاستمرار التاريخى الذى يتطرق رجوعاً إلى الماضى ويتطلع قدماً إلى المستقبل .

وتدفقت على أوربا المخطوطات الجديدة (فمثلا أحضر الكاردينال بساريون Bessarion « ١٤٠٣ –٧٢» وحدة ٨٠٠ مخطوطة إغريقية من القسطنطينية) ، حتى بدا أن ليس هناك حد لما يخبئه المستقبل ، بحيث بات من الممكن أن تلقى الأضواء على كل ما عفى عليه الزمن مثل كتب تاسيتوس Tacitus ومسرحيات سوفوكليس Sophocles وعشريات ليڤى Livy . ومما زاد فى إثارة مشاعر الناس ما وجدوه من صعوبات فى تفسير النصوص ، بحيث أصبح لا معدى منذ البداية عن وضع منهج نقدى كامل للدراسات الإغريقية ، ومنذ البداية تقريباً فيما يختص باللاتينية . أما الأدوات الفنية اللازمة للثقافة من قواعد اللغة والمعجمات والأبحاث التى تتصل بالفن القديم وعلم طبقات الأرض ، وتحقيق المصطلحات الذى قد يطول ، فقد امتزجت جميعها بروعة جمال الأدب الجديد .

وفى غمار هذا الخضم من الأذواق الجديدة ووجهات النظر الوليدة انفسح

(١) ٥٩ ق . م – ١٧ م . المؤرخ الرومانى .

المجال للنقد التاريخي العلمي الذى كان أستاذه لورنزو ڤاللا Lorenzo Valla (١٤٠٥ – ٥٧) . ولقد بدأ ڤاللا حقبة جديدة فى تاريخ البحث الأوربى بمقالته الجريئة التى انتقد فيها صحة «هبة قسطنطين»[١] ، مستنداً أولا وقبل كل شيء على قواعد عامة يؤيد بها أن قسطنطين لم يمنح الهبة بتاتاً وأن البابا سلڤستر Sylvester بالتالى لم يقبلها . ثم تطرق من فرض إلى فرض فى محاولته لإبراز وجهة نظره . فلو أن إمبراطورية العالم الغربى قد منحت حقيقة للبابا لأمكن الاستدلال على أن الهبة قد منحت بالفعل بوجود عملة تحمل اسم البابا . ولاحظ ڤاللا أن يوترو بيوس Eutropius[٢] – وقد كتب فى وقت متقدم بعد الحادث المزعوم – لم يشر إلى هذه الصفقة المهمة ، وأن النص الأصلى لم يظهر قط ، وأخيراً أن الوثيقة قد كتبت بلاتينية سقيمة تحمل طابع الديوان البابوى بدرجة من الوضوع بحيث يبدى ظاهرها كل دلائل التزييف المغرض . على أنه ليس أدل على التسامح الذى ساد إيطاليا حينئذ من أن مثير هذه الحملة الجريئة ضد إحدى الميزات التى اعتزت بها البابوية قد أصبح هو نفسه سكرتيراً للبابا نقولا الخامس .

فى بيئة كهذه سادتها الدعة والحرية أخذت حياة الباحثين تجتذب اهتمام الناس الذين كانوا فى الماضى شغوفين بمتابعة أعمال الملوك والقباطنة . أما الآن فقد استهوتهم قراءة حياة أولئك الأبطال الذين اجتذبوا التفات الأجيال القادمة بمحض شغفهم بالكتب والمخطوطات وهيامهم بالمعرفة لذاتها . وهذه صورة رسمها ڤسپازيانو – Vespasiano – [٣] لنيكولا دى نيكولى Niccolo de Niccoli الذى كانت مكتبته الخاصة – وقد حوت ثمانمائة ألف مخطوطة – إحدى مفاخر فلورنسة . قال ڤسپازيانو :

---

(١) طبقا لما يروى عن هذه « الهبة » منح قسطنطين البابا سلڤستر Silvester وخلفاءه من بعده – إلى الأبد – ليس فقط السيادة الروحية على البطريركات الروحية الأخرى ، فى شئون العقيدة والعبادة ، بل أيضاً السيادة العلمانية على روما وإيطاليا و « الولايات والأماكن والدول Civitates الواقعة فى المناطق الغربية » .

(٢) مؤرخ رومانى عاش فى القرن الرابع الميلادى .

(٣) إيطالى شغوف بالكتب عاش فى القرن الخامس عشر . وله فى فلورنسة التى أصبح أميناً لمكتبتها ، وكان على دراية وثيقة بالعبرية واللغات القديمة . وله عدة مؤلفات .

« كان مجلسه قبل كل شيء شيقاً للغاية ، يموج بالحركة ؛ فالابتسامة أبداً تراود شفتيه ، وحديثه شديد الإشباع . يلبس ملابس من أرق أنواع النسيج ، مشربة بحمرة داكنة ، تصل فى طولها إلى إخمص قدميه . لم يتزوج قط حتى لا يعوق الزواج دراساته ، معتمداً فى قضاء مطالبه اليومية على خادمه . ولقد تميز عن جميع الرجال : فهو أنظفهم مأكلا وفى شتى نواحى حياته الأخرى . كان فى جلوسه إلى الطعام يأكل فى أطباق أثرية نوعاً ما . وبهذه الروح كان يضع على مائدته أوانى من المرمر وأخرى ذات جمال خلاب ، وكان كأس شرابه من الكريستال أو من أنواع أخرى من الأحجار الثمينة . وفى الحق إن مجلسه إلى الطعام لمنظر خلاب ؛ وكأنك ترى نموذجاً كاملا للغابرين . يأمر دائماً بأن تكون الفوطة الموضوعة أمامه وكل المفارش ناصعة البياض . وقد يدهش بعض الناس لكثرة الأوانى التى حفلت بها مائدته . ولكنى أجيب بأن مثل هذه الأشياء لم يكن لها من التقدير والاعتبار ما أصبح لها بعد ذلك . ولما كان لنيكولو أصدقاء فى كل مكان ، فقد حرص كل من يود استرضاءه على أن يرسل إليه تماثيل من رخام أو أوانى أثرية أو نقوشاً ورسوماً وصوراً من عمل الفنانين المبرزين ، كما أهدوه قوالب من الفسيفساء . كانت لديه خريطة رائعة الجمال أشير فيها إلى كل جزء من أجزاء العالم وإلى كل مدينة من مدنه ؛ كما أنه كان يمتلك خرائط أخرى لإيطاليا وإسپانيا كلها بالألوان . ولم تكن فى فلورنسة دار كداره حافلة بأسباب الزينة مكتظة بالتحف الجميلة ، بحيث إن كل من قصده وجد عنده ما لا حصر له من الأشياء القيمة التى ترضى كل ذوق » .

وفى هذا العصر أيضاً بدأنا نسمع إشارة بمن هو أكثر الناس خدمة للمجتمع وأكثرهم استحقاقاً لجزائه (أعنى المعلم) . وإذا كان ڤسپازيانو قد قدم لنا وصفاً للثقافة الواسعة التى ألم بها ذلك الأعزب الفلورنسى الحريص الذى يمثل فى صفاته ورقة شمائله العالم القديم ، فقد خلف لنا أيضاً صورة للمعلم . ويمكن اعتبار ڤتورينو دافلتر (١٣٩٦ — ١٤٤٦)[1] رائداً للحركة التعليمية التى ترتب عليها وضع أسس معرفة الإنجليز بالعلوم الإنسانية . كان صغيراً ضئيل الحجم ، مرحاً ،

---

(١) ١٣٧٨ — ١٤٤٦ . أحد الإنسانيين الإيطاليين . افتتح مدرسة فى مانتوا لتعليم أبناء الأشراف والفقراء جنباً إلى جنب مصطنعاً المساواة فى معاملتهم . وشهر بمنهجه الجديد فى التعليم .

يبدو ذا طبيعة تغريه دائماً بالضحك ، فارساً ورياضياً ماهراً ، كرس جهده دون كلل أو ملل لتقويم الجسم والعقل والخلق . اكتسبت مدرسته شهرة واسعة فى شتى ربوع إيطاليا ، ويمكننا أن ندخل فى دائرة من تأثروا به كولت Colet [١] وولزى Wolsey [٢] وچون ملتون وتشارلز كنجزلى[٣] وكل نظار المدارس المحدثين طالما كان ديدنهم تقويم العقل والخلق عن طريق الآداب والموسيقى والفن ، مع إضافتهم إلى هذا المنهج الدسم اهتماماً بكمال الجسم .

ولم يكن حكام روما بقادرين على الوقوف مكتوفى الأيدى إزاء هذه الإشراقات التى أطلت من قصور الأمراء نتيجة لرعايتهم للفنون والآداب . أما منصب البابوية — وهى التى اهتزت هيبتها الروحية إلى حد كبير أثناء فترة الانقسام والأسر فى أڤينيون[٤] — فقد غدا أداة ناجحة لترقية المعارف وجمع الكنوز الفنية وتجميل تلك العاصمة المشهورة التى أهملت ردحاً طويلا من الزمن على نحو يعيد إليها طلاوتها القديمة. وقد أنشأ مكتبة الڤاتيكان نقولا الخامس (١٤٤٧—٥٥) ، وهو البحاثة المنحدر عن أب فقير كان يشتغل بدق أجراس الكنيسة ، والذى شجع كلا من فرا أنجيلكو وبنوتزو جوتزولى Benozzo Gozzoli [٥] وبيير و دلا فرنتشسكا Pierro della Francesca [٦] كما أن إينياس سلڤيوس المبدع ، وهو الذى شيد قصر پيكولوميني فى سيينا ، قد كرس للكرسى المقدس مواهبه كرحالة ورجل آداب ودبلوماسى وذواقة للفن ، حتى إنه حين اعتلى الكرسى البابوى باسم پيوس الثانى (١٤٥٨ — ٦٤) راح يستعيد الكثير من الحماسة القديمة التى كان يتسم بها الصليبى .

---

(١) ١٤٦٧ — ١٥١٩ . جون كولت مرب إنجليزى ومتفقه فى الشئون الدينية . وهو من زمرة الإنسانيين الذين نظروا إلى المسائل الدينية نظرة تحررية وانتقدوا المفاسد الملمة بالكنيسة الكاثوليكية .

(٢) حوالى ١٤٧٥ — ١٥٣٠ . كاردينال سياسى إنجليزى لعب دوراً فى الإصلاح الدينى فى عهد هنرى الثامن سيأتى تفصيله فيما يلى .

(٣) ١٨١٩ — ١٨٧٥ . رجل دين وشاعر وكاتب قصة إنجليزى .

(٤) إشارة إلى أن مدينة أڤينيون الفرنسية التى أصبحت قاعدة للبابوية من ١٣٠٩ إلى ١٣٧٧ .

(٥) ١٤٢٠ — ١٤٩٧ . رسام إيطالى .

(٦) ١٤٢٠ — ١٤٩٢ . مصور إيطالى ، شهر لابتكاراته فى فن الرسم المتطور وبراعته فى استخدام الضوء . وله كتيب هام فى الهندسة .

أما خليفته بولس الثانى (١٤٦٤ — ٧١) الذى جمع القطع المنقوشة من الأحجار الكريمة والبرونز بتلك الحماسة والمعرفة التى يتميز بها ذواقة بنا قى ، فإليه يرجع الفضل فى إعادة معالم أقواس النصر التى بناها كل من سپتموس سڤيروس[1] وتيتوس[2] . وهكذا توافر بابوات النهضة على البناء والترميم والزخرفة والجمع والانطلاق فى دنيا اللذات المترفة ، وهم ينفقون ويجمعون الضرائب من رعاياهم ، حتى وصلت رعاية البابوية للفنون أوجها حين تولاها ليو العاشر من أسرة مديتشى فى عام ١٥١٣ . وفى عهده أدت النفقات الباهظة التى أنفقت فى بناء كنيسة القديس بطرس إلى اهتزاز ولاء نصف العالم المسيحى .

على أنه يشق على زائر روما وهو يستمتع بهذه المجموعات الفنية والأبنية التى ترجع إلى هذا العصر أن ينتقد بابوات النهضة على ما بذلوه من جهود مستنيرة برغم فداحة تكاليفها . أما الذى يمكن أن يؤخذ عليهم فهو ذلك الجشع السافر الذى حفز بعض بابوات النهضة إلى توسيع أملاكهم العلمانية على حساب جيرانهم من أمراء إيطاليا . وحين نضع نصب أعيننا أن الخطر التركى كان داهماً ملحاً ، وأن الحاجة كانت شديدة إلى التساند السياسى من جانب الدول الإيطالية ، فإن سياسة بابا كسكستوس الرابع ، الذى أدى به طموحه إلى تأسيس مملكة علمانية وإلى تطبيق نظام علنى من المحسوبية وإلى الدخول فى الحرب مرتين ، لدليل بارز على الإثم السياسى . وإن الشعور السائد حينئذ فى شمال أوربا بأن البابوات هم أمراء إيطاليون يعملون على توطيد سلطتهم العلمانية أكثر مما يهتمون بالسهر على مصالح العالم المسيحى فيما يمس حياته الروحية — إن هذا الشعور لم يكن أقل العوامل شأناً فى الخروج على روما .

وفى إبان ذلك كله كانت جمهورية البندقية تواجه حقيقة داهمة رهيبة حين استولى الأتراك العثمانيون على القسطنطينية . ففى عام ١٤٥٤ تعجلت البندقية توقيع صلح غير مشرف مع الأتراك تلته فترة سلام قصيرة الأجل انتهت فى عام ١٤٦٣ ،

---

(١) ١٤٦ — ٢١١ . الإمبراطور الرومانى الذى يعتبر عصره بداية ظهور الاستبداد العسكرى .

(٢) ٤٠ أو ٤١ — ٨١ . الإمبراطور الرومانى الذى تميز عهده (٧٩ — ٨١) بسلام نسبى .

فنشب بين الطرفين قتال مرير خرجت منه البندقية وقد نقدت دلماشيا ولنوس والمورة ، وأجبرت على دفع جزية سنوية للسلطان . ولم يكن نبلاء البندقية الذين يملؤهم الزهو وحب المخاطرة على استعداد للتسليم بهذه الشروط المذلة عن يد وهم صاغرون ، ففكروا فى أن يعوضوا فى الغرب ما نقدوه فى الشرق بحيث يمكن موازنة الكوارث التى حلت بالبندقية فى بحر إيجة على حساب ميلان وفرارا ونابولى . وهكذا فإن البندقية فى عزمها الملح على تعويض ما نقدته ، قد سعت فى النهاية إلى إثارة شهوات فرنسا ومطامعها .

ورغم هذه العواصف فإن النصف الأخير من القرن الخامس عشر خالد فى تاريخ النهضة البندقية . فكنيسة القديس مرقص التى بدئت فى عام ٨٣٠ وأكملت فى عام ١٤٨٤ لاتزال محتفظة بالخصائص الجوهرية التى تميز بها الفن البيزنطى بشكل لا نجده فى أى بناء آخر من الأبنية الباقية فى البلاد التى كانت يوماً ما من أملاك الإمبراطورية البيزنطية . ولعل أنبل رد على أعمال التخريب البربرية التى أتاها الترك أن يكتمل على أرض البندقية الحرة بناء يقف كنصب تذكارى خالد لعظمة الإمبراطورية المسيحية الغاربة فى الشرق وحضارتها . ومع ذلك فقد وجد جانب آخر من النشاط الفنى والعقلى فى البندقية لم تعبر عنه الفسيفساء البيزنطية ولا الحلى التى تعيد إلى الأذهان ما كان قد صممه الصائغ الإسكيثى [1] فى قديم الزمان . فالبندقية على حدود عالمين : الإغريقى واللاتينى — وإذا كان الطابع الإغريقى يتمثل فى كنيسة القديس مرقص ، فإن فن چون بللينى John Bellini [2] الشائق — وبللينى أحد الرواد الأوائل للتصوير فى البندقية — ليرتبط تمام الارتباط بالمدارس الإيطالية .

أما اختراع الطباعة ، الذى قدر له فى الشمال أن ينشر نثر لوثر الملتهب فى طول ألمانيا وعرضها ، فقد كان بوجه خاص أداة الشعب الإيطالى فى دعم الدراسات

(١) سكان سكيثيا التى كانت تمتد فى الإستپس من جبال الكرپات إلى نهر الدون ؛ وقد ورد ذكرها فى تاريخ هيرودوت .

(٢) حوالى ١٤٣٠ — ١٥١٦ . من أشهر المصورين البنادقة .

الكلاسيكية . وكان أبرز أعلام الطباعةالإيطالية ألدس مانوتيوس Aldus Manutius الناقد والنحوى ومؤرخ الأدب وعالم الأخلاق الذى أنشأ المطبعة التى عرفت باسمه فى البندقية ، والذى لا يوجد فى حوليات الحركة الإنسانية الإيطالية من هو أنبل منه وأرق حاشية . كأن ألدس قد كابد أسوأ آفات الطفولة ، على شكل كتاب مدرسى سيئ للغاية . ولما كان ألدس مربياً ومن أتباع فلسفة أفلاطون ، فقد أمكنه الاقتناع بأن تحسين التربية الإيطالية يتوقف فى أساسه على تقديم كتب جديدة قليلة التكاليف . لهذا استقر فى البندقية وكانت مدينة آمنة من أخطار الحرب ، وهناك استطاع أن يجد مجتمعاً مثقفاً وأن يعتمد على تعضيد اليونانيين المهاجرين ، وأن ينشئ مطبعة أصدرت فى تتابع سريع كتباً كلاسيكية الواحد تلو الآخر فى طبعات من الرخص والبهجة والإتقان وحسن التناول بحيث استطاع السيد البندقى وهو ينساب بجندوله فى القناة الكبرى أن يتمتع بمباهج هوميروس فى مجلد صغير أوضح ما يكون طباعة .

وكانت الحركة الإنسانية فى عصر النهضة تتسم بطابع أرستقراطى يخالف طابع العصور الوسطى الذى يمتاز بالتدين والبطولة اللذين تعبر عنهما الكاتدرائيات القوطية والملاحم الشعبية Chansons de Geste — فإن الإنسانى إنما كان يخاطب الخاصة من الناس. ذلك لأن حماسة الفنان أو العالم لا تستطيع أن تحرك شعور العامة ؛ فإن الفلسفة والمعرفة والبحث النقدى للنصوص والحماسة فى متابعة الفن للفن ستظل جميعاً ألواناً من النشاط البشرى تختص بها فئة ضئيلة من مجموع الجنس البشرى . هكذا الحال الآن ؛ وكذلك كان فى عصر النهضة . وإذا كان الإنسانى قد استطاع حينئذ أن يرفع من أذواق الناس ، فإنه استطاع كذلك أن يوسع المسافة بين الأفراد .

وكما هو الحال فى الحركات الكبرى المعبرة عن الروح الإنسانية ، اقتصر نشاط النهضة على فئة قليلة نسبيًّا من الناس هم أولئك الموهوبون الخلاقون الذين عاشوا وأنتجوا فى مجتمع حساس ذكى . ولولا الحياة الزاخرة فى قصور إيطاليا ، ولولا رعاية الكنيسة وشغف الناس فى إيطاليا بإمتاع العين والأذن ، لكان ما قام به الإنسانيون فى حيز الاستحالة . فلم يحدث فى أى بلد أوربى آخر أن تقفل الحوانيت

حين يرتل الشاعر الشعبي أشعاره ، ولم يحدث كذلك أن سمح لفنان ذوقه بالصفح عن جريمة قتل . ففي إيطاليا وحدها كان يتوقع من نبيل أن يتذوق سوناتة أو يقدر لوحة أو يطالع أدباً قديماً . ويتضح ذلك كله بمقارنته بأحوال الأرستقراطية الفرنسية كما كانت عليه حتى هذبها فرنسوا الأول . فقد كان النبلاء الفرنسيون أجلافاً يقصرون همهم على الحرب ومباريات الفروسية والصيد . ولكن ذلك لا يعني أن الحياة الإيطالية ، برغم كل ما بلغته من رقة ولطف ، كانت مريحة أو آمنة . فقد كان الريف خالياً من حراسة الدولة ، وكأن الناس يسيرون مسلحين ، ويأخذون حذرهم من مظاهر الكراهة الحيوانية التي قد تبدو فجأة من جيرانهم . ومهما تألق في قصر الأمير من قطع الرخام والصور ، فإنه لا يعدو أن يكون قلعة أبرد من القبر في الشتاء : فهو لا يحوي من وسائل الراحة إلا القليل الذي يتطلبه أقل السكان تواضعاً في حي إسلنجتون و بتني في لندن . وإن مادونه بنفنتو تشلليني Benevento Cellini [1](١٥٠٠ — ٧١) عن تاريخ حياته ليصور مجتمعاً شاعت فيه جرائم العنف وأعمال القسوة والخيانة إلى حد أنها لم تعد تثير اهتمام الناس . هكذا كان مزاج الإيطاليين : سرعة غضب ، وثأر قاس ، مع حساسية لألطف ما يشوق الناس شكلا وصوتاً .

واستمدت الأرستقراطيات المحاربة فيما وراء الألب من هذه المواهب المتفتحة في إيطاليا عناصر جديدة من الاهتمامات . فالنبلاء عبر الألب ، بما كانوا عليه من بداوة ريفية خففت منها الرحلة إلى إيطاليا ، أخذوا أنفسهم بتشجيع الفنون والآداب . كما أخذ يضيق ذلك الفاصل الذي قسم المجتمع الوسيط ما بين كاتب مثقف ورجل حرب جاهل . وقبل نهاية القرن الخامس عشر نجد الناس — حتى النبلاء أنفسهم — يجارون روح العصر : فهم يغشون الجامعات ويتثقفون بالقراءة ويزينون دورهم ويبحثون عن الأبهة .

فإنجلترا — مثلا — أثناء حروب الوردتين — لم يكن فيها من كرهه الناس قاطبة مثل جون تپتوفت John Tiptoft إيرل ورستر (١٤٢٧ — ١٤٧٠)[2] ، وذلك

(١) ١٥٠٠ — ١٥٧١ . فنان وصائغ معادن ونحات إيطالي من فلورنسة .

(٢) قائد بارز من أنصار أسرة يورك أثناء حروب الوردتين .

لقسوته الباطشة حين جعله الملك إدوارد الرابع كبير ضباط حاشيته ، وأداة لتنفيذ أعماله الانتقامية الفظيعة ، مما أدى إلى تسميته « جزار إنجلترا » و « الجلاد الشرس ونازع رءوس الرجال » . ومع ذلك فإن قسوته ، وهى النموذج الذى كان مألوفاً فى إيطاليا ، كانت تخالطها درجة كبيرة من الثقافة ، ولم يكن بإنجلترا إلا نفر قليل ممن يلمون باللاتينية يمكن أن نقول إنهم أكثر ثقافة من هذا الأرستقراطى الفظ الذى تلقى تعليمه فى باليول ثم خالط الإنسانيين فى بادوا وأفرغ حوانيت بيع الكتب فى فلورنسة . كان تپتوفت فى الطليعة ، ثم ترسم خطاه نفر كبير من الإنجليز ممن تعلقوا بالدراسات اللاتينية وجرى العرف فى عهد الملكة إليزابيث على تسميتهم « بالمردة المتجسدين » ؛ ولكنهم بتتلمذهم على الإيطاليين ، إلى جانب ما اكتسبوه من آفات خلقية كثيرة ، كسبوا فنوناً منوعة من الذوق والمعرفة والتجربة عملت دوماً على إثراء ثقافة بلادهم .

وورثت أوربا عن إيطاليا النهضة فكرتين قيض أن يكون لهما أثر دائم فى مجال السياسة والتعليم . أما الفكرة الأولى عن السياسى الخالص أو المنقطع للسياسة فقد احتواها كتاب « الأمير » لمكيافيللى ، وهو الكتاب الذى كتب فى عام ١٥١٣ ؛ والفكرة الثانية عن السيد المهذب الشغوف بالدراسة احتواها كتاب « رجل البلاط » لكاستليونى Castiglione[1] الذى وضع بعد أعوام ثلاثة من هذا التاريخ . أما مكيافيللى فقد كان دبلوماسياً فلورنسياً ووطنياً إيطالياً متحمساً ، استغل الفراغ الذى فرض عليه فى المنفى فى تصوير نوع الحاكم الذى يؤهل خير تأهيل لتحرير أرض إيطاليا من دنس الغزاة ويبعث أمجاد روما القديمة . والمثير فى هذا البحث أنه موضوعى ؛ فالأمير متمرس فى سياسة القوة : فهو يلجأ إلى أساليب القوة والغش دون وازع أو تبكيت ، لا يعبأ بشىء فى سبيل توسيع رقعة أملاكه وإحاطتها بالضمانات الكافية . وهو واقعى يرى الحياة كما هى عليه ، ويحيط بالتيارات المعاصرة عن كثب ، ولا يتوقع فى الحياة أحسن أو أكثر مما تستطيع هى إعطاءه . وهكذا كان « أمير » مكيافيللى مختلفاً كل الاختلاف عن أرواح القديسين الذين

---

(١) بلدزار كاستليونى (١٤٧٨ – ١٥٢٩) . دبلوماسى إيطالى .

حفلت بهم مؤلفات القسس فى العصور الوسطى . وإن مبدأ سياسة القوة الذى سفر للناس دون مواربة أو تحفظ ، ممثلا ما هو جار فى الواقع فى ذلك العصر ، قد جاء بمثابة صدمة للرأى العام — إذ الناس لم يعتادوا أن يطلع عليهم بحث سياسى عار من الأخلاق والدين . ثم إن بطل ميكافيللى كان قيصر بورچيا ابن أخ إسكندر السادس البابا السفاح . وبالرغم مما قام به قيصر بورچيا من أعمال شخصية براقة ، فقد عرف فى الناس جميعاً بنجاحه فى تدبير جرائم القتل وأعمال الغدر والخيانة ، وهذا كله مما أضاف صفة الجرأة إلى هذا الكتاب الذى تحدى المألوف عند الناس .

وبقدر ما مثل « الأمير » الروح الإيطالية فى ذلك العصر ، مثلها أيضاً كتاب « رجل البلاط » لكاستليونى . وقد استقى المؤلف انطباعاته من بلاط إيطالى على درجة كبيرة من الثقافة ، هو بلاط الدوق جويدو بالدو Guidobaldo فى أربينو ، ثم رسم لرجل البلاط الأنموذج صورة نالت شهرة طبقت الآفاق فى طول أوربا وعرضها . فرجل البلاط لا ينبغى أن يقصر تدريبه على مدرسة البلاط ، بل عليه أن يتلقاه أيضاً فى المعسكر ؛ فينبغى عليه أن يكون مدججاً بالسلاح ، وأن يكون رياضياً يعنى بصحة جسمه ، ومثقفاً ذواقة للأدب بحيث يندمج فى كل مجتمع — فيقرأ الإغريقية واللاتينية والإيطالية جيداً ، مع بعض الإلمام عملياً بالرسم والموسيقى وإظهار إتقان يخيل إلى الناس وكأنه ليس نتيجة مجهود كبير ، لكل ما يسود عصره من أذواق وأفانين . وتمشت هذه النظرة إلى التعليم مع روح العصر ، فترجم كتاب « رجل البلاط » إلى عدة لغات . ويمكننا مطمئنين أن نعزو فكرة ملتون عن تعليم متعدد الجوانب من شأنه « أن يعد الإنسان للاضطلاع فى مهارة وإتقان بكل المناصب العامة والخاصة سواء فى الحرب أو السلم ، وفقاً لمقتضيات الظروف » — يمكننا أن نعزو فكرة ملتون هذه إلى الترجمة الإنجليزية الجذابة التى قام بها سير توماس هوبى Thomas Hoby فى عام ١٥٦١ .

ولكن هذا الفيض المفرط من العبقرية الإيطالية لم يكن له أى صدى فى العالم الإغريقى الأرثوذكسى سواء فى أملاك السلطان العثمانى أو فى أملاك قيصر روسيا . فلم تكن النهضة الإيطالية تعنى شيئاً للروس أو للترك ، وبغض النظر عن بعض

المؤثرات القليلة المتناثرة كصورة محمد الفاتح التى رسمها أحد البنادقة ووضعت فى قصر السلطان ، أو كبناء الكرملن فى موسكو الذى أخذ عن ميلان ، أو بعض اللفتات المتقنة فى أكرا ودلهى ، ظل أثر الذوق الإيطالى والعبقرية الإيطالية مقصوراً على العالم المسيحى اللاتينى . أما روسيا فقد كانت عالماً منفصلا قائماً بذاته ، ولم تكن عاملا يعتد به فى السياسة الأوربية حتى القرن الثامن عشر .

كتب يمكن الرجوع إليها

Trenchard Cox, The Renaissance in Europe (1400-1600). 1933.
نماذج مأخوذة عن الأعمال الفنية فى متاحف لندن

— M. Creighton, History of the Papacy during the period of the Reformation. (1882-94).
— Janet Trevelyan, A Short History of the Italian People. (1929).
— E. Armstrong, Lorenzo de Medici and Florence in the Fifteenth Century. (1896).
— P. Villari, Life and Times of Girolamo Savonarola. Tr. L. Villari. 2 vols. (1897-8).
— G. Vasari, Lives of Italian Painters, Sculptors and Architects. 8 vols. (1900).
— B. Berensen, Central Italian Painters of the Renaissance. (1897).
— B. Berensen, Venetian Painters of the Renaissance. (1894).
— M. Von Wolff, Lorenzo Valla. (1893).
— L.B. Alberti, Opere Vulgari. Ed. A. Bonucci (1843-9).
— L. von Ranke, History of the Popes. Tr. S. Austin. (1847).
— H.A. Taine, Philosophie de l'Art en Italie. (1865).
— Machiavelli, Principe. Ed. L.A. Burd. (1891).
— Vespasiano Da Bisticci, Vite de uomini illustri de Secolo XV. Ed. L. Frati. (1892).
— Cambridge Modern History. Vol. I.
— J. Burckhardt, Die Cuttur der Renaissance in Italien. (1869).
— J. Morley, Machiavelli. Romanes Lecture. (1897).
— J. Zeller, Italie et Renaissance. (1883).
— H. Brown, The Venetian Printing Press. (1891).
— J.A. Symonds, The Renaissance in Italy, Vols. IV & V. (1875-86).
— A.F. Didot, Alde Manuce et l'Héllenisme Venise. (1875).
— The Book of the Courtier. Tr. Sir T. Hoby. Ed. W.R. Raleigh. (1900)
— W. Ormsby-Gore, Florentine Sculptors of the Fifteenth Century. (1930).

الفصل الثالث

فرنسا وبرجندية

لويس الحادى عشر — انتصاره على النبلاء وشراؤه الإنجليز بالمال — حسن حظه — مقارنته بشارل حاكم برجندية — الخدمات التى أداها أدواق برجندية للأراضى المنخفضة — الفن الفلمنكى فى القرن الخامس عشر .

على حين كانت إيطاليا تتمخض عن حركة من الإنتاج الفنى ، كانت فرنسا تمر بمرحلة توقف فى تطورها الثقافى جاءت نتيجة طبيعية لما ألم بها من كوارث سياسية . فلقد عاصرت أزهى فترات التاريخ الفنى فى فلورنسة حقبة طويلة مضنية مرت فيها فرنسا بدور النقاهة من آثار التخريب التى حلت بها أثناء حربها ضد إنجلترا ، كما عاصرت ذلك الصراع الحاد بين دوقية برجندية والمملكة الفرنسية ، وتلك المراحل التى اجتازتها حكومة الملكية الفرنسية حتى استحالت من دولة ضعيفة منهوكة القوى إلى دولة تقوم على دعائم قومية سليمة ، وذلك بفضل ذكاء رجالها وغباء خصومها . فى هذه السنين القلقة لم يبد الفرنسيون أى رعاية للعبقرية الإيطالية ، ولم يقدموا إلا دليلا باهتاً على وجود مواهب فنية خاصة بهم . فلم يوجد من يخلف فئة النحاتين العظام من رجال القرن الثالث عشر الذين تجمل تماثيلهم كاتدرائيات ريمز Rheims وشارتر؛ أما جان فوكيه Jean Fouquet المصور فقد كان من بروكسل. ولم يحس الفرنسيون بعظمة الإنتاج الفنى الإيطالى ، ولم يستعدوا لتقبل النهضة الإيطالية إلا حين غزت الجيوش الفرنسية إيطاليا فى عام ١٤٩٤ . حينئذ كانت قد مضت ست سنوات على وفاة ڤروكيو صائغ الفضة المهندس الرسام النقاش الموسيقى النحات ، وهى الشخصية التى ربما كانت أبرز الشخصيات فى قصة التطور الفنى الإيطالى فى القرن الخامس عشر .

فى عام ١٤٦١ توفى شارل السابع بعد أن خلص فرنسا من نكسات الحروب الطويلة ضد إنجلترا ، وبعد أن ترك لبلاده حكومة وجيشاً . وواصل ابنه لويس الحادى عشر

(١٤٦١ — ١٤٨٣) ، الذى كان ثائراً ومنفياً ، ذلك الجهد القيم الوئيد . هذا الملك ذو القبعة والملابس القديمة الرثة ، العالم ببواطن الأمور ، الحريص الحذر ، الذى كان يعتقد أن لكل شخص ثمنه ، ومع ذلك لم يتردد فى قطع رأس من يعارضه من النبلاء أو فى وضع كاردينال خائن فى قفص حديدى — بدا هذا الملك مزيجاً يحير الألباب من الحذق والقسوة والشر . ولكن أولئك الذين عرفوا الرجل من أمثال فيليب دى كومين Philippe de Commines [1] البرجندى وأدركوا الصعوبات الملمة به ، قدروا فى لويس مجموعة من المواهب التى أنقذت الملكية الفرنسية من أشنع ألوان المهانة ، وإن كانت هى المواهب ذاتها التى كرهت فيه فئة النبلاء الحمقى الجهلة المتهورين الذين كانوا وباء المجتمع . أدرك لويس بذكائه الفطرى أن على السياسى أن يكون حسن الإصغاء نهماً فى جمع المعلومات قادراً بقدر الإمكان على أن يتعرف بنفسه على كل من له أهمية سياسية سواء فى مملكته أو خارجها فى البلدان المجاورة ، كما أن عليه ألا يدخر وسعاً لكسب عدو ، وألا يحفظ ضغينة لأحد ، وأن يصطنع صبراً بعيد النظر ، وأن يكون دائم الاستعداد للتعلم من أخطائه الشخصية ، وألا يقف كبرياؤه حائلا دون استرداد الأرض التى يكون قد فقدها . وبعد أن صب لويس جام غضبه — للمرة الأولى — على البارزين من أنصار العهد القديم ، مما هو متوقع من منفى عائد ، حاول أن ينظر إلى الموقف من زاوية أخرى حتى يستغله لمصلحته ، فسعى لاستعادة ود من أساء إليهم من قبل .

وكم من أزمة معقدة ثارت فأبدى لويس معيناً لا ينضب من الشجاعة والمقدرة . لم يكن قد مضى على توليه وقت طويل حين واجهه تألب خطير من النبلاء الساخطين (عرف بعصبة الصالح العام) يقوده شارل كونت شاروليه Charolais (الجسور) وريث دوقية برجندية ، ويسنده دوق برى Le Duc de Berri ، أخو الملك ، ودوق بريتانى ، وفى الوقت الذى وصلت فيه قوات الحلفاء إلى مشارف باريس كان ولاء العاصمة متذبذباً ، وكان من شأن أى خطأ أن يكفى لتحطيم ذلك الشاب غير المحبوب (الأجنبى حتى ذلك الوقت) الذى كان قد طرد مستشارى أبيه من مناصبهم

---

(١) حوالى ١٤٤٦ — ١٥١١ . أهم مستشارى الملك لويس الحادى عشر ، وتعتبر مذكراته — بعد أشعار ڤللون — أهم ما كتب باللغة الفرنسية فى القرن الخامس عشر .

وأحاط نفسه بعصبة من اختياره هو . ولكن لويس لم يتعثر على الإطلاق — فبعد أن أسرع إلى پاريس يقود قوة كبيرة ، استطاع أن يكسب خصومه فى المدينة بما أظهره من دلائل الصفح الحكيم ، وبذلك استطاع أن يعتمد على پاريس وأن يواجه جميع أعدائه الذين دبت الفوضى فى صفوفهم . ولقد تحاشى الدخول معهم فى معركة عامة ، مفضلا إرهاقهم بالمناوشات المستمرة حتى اضطروا إلى طلب الصلح ، وإذا كان لويس فى شوقه إلى فرجة يستطيع منها أن يبذر بذور الشقاق بين أعدائه قد منحهم شروطاً (صلح كونفلان Conflans) كانت من السخاء المفرط بصورة لا تتمشى على الإطلاق مع صالح فرنسا ، فإنما كان ذلك جزءاً من ذكائه الأفعوانى .

ولو كانت دوقية برجندية فى أيد قوية أو كان فى مقدور إنجلترا أو فى عزمها أن تأخذ جانباً فعالا فى الصراع ، لربما كان من الممكن أن تتكرر فظائع حرب المائة عام . ولعله من حسن حظ أوربا — ومن المحقق أنه كان من حسن حظ فرنسا — أن شارل بهجومه العنيد على السويسريين قد أطاح بالمركز القوى الذى شاده للبيت البرجندى أربعة من أحكم أمرائه ، وأن الحرب بين أسرتى لانكستر ويورك على الجانب الآخر من القنال الإنجليزى قد حالت دون قيام إنجلترا بأى تدخل فعال فى شئون القارة . حقًّا كان لا يزال فى طوق إنجلترا إرسال حملة لقيت ترحيباً من الشعب الإنجليزى ، ضد العدو القديم ، ولكن هدفها لم يعد الغزو — بل التهديد السافر . وهكذا فى خلال عشرين عاماً انتقلت مرتين إلى الأراضى الفرنسية جيوش إنجليزية ، ثم سحبت نظير إتاوة مجزية . واعتبر لويس وولى عهده أن هذا المال الذى تدفعه فرنسا للتخلص من رماة النبال الإنجليز ، الذين كانوا لا يزالون مبعث خطر ، إنما هو ثمن بخس .

وحالف الحظ لويس بتوفيقات أخرى . كان من حسن حظه أن شارل الجسور لم يعقب ذكراً ، ولهذا فبوفاته فى عام ١٤٧٧ آلت برجندية وبيكاردى وآرتوا إلى العرش الفرنسى . ومن حسن حظه أيضاً أن يتوفى رينيه آخر ملوك إكس دون أن يعقب ذكراً كذلك ، مما ترتب عليه أن مين وآنجو وإقطاعية بروڤانس الإمبراطورية أصبحت كلها جزءاً من المملكة الفرنسية فى عام ١٤٨٠ . وأخيراً كللت الأقدار

خدماتها للويس حين لم يعقب فرنسوا دوق بريتانى ؛ تلك المقاطعة الكلتية القديمة المعتزة باستقلالها الغنية بالحرف البحرية ، ولهذا لم يكن له وريث يستطيع أن يواصل خصومة جنسه القديمة. وإلى كل هذه السلسلة من حسن الطالع يرجع الفضل — فى الدرجة الأولى — فى أن تصبح فرنسا بعد وفاة لويس دولة متماسكة قوية ، مأمونة الحدود من كل جانب ، بعد أن كانت عند توليته على شفا الانهيار .

وفى ذلك التأليف الباهر الذى كتبه كومين ، يقف كل من لويس وشارل بارزاً كأنه صورة مجسمة للحكمة يمازجها الهوس ، وإن نقض أحدهما الآخر ؛ فاويس — بالتآمر فى صبر وأناة وببذل أقل ما يمكن من المال والدماء — يتغلب على أعدائه ويترك مملكته أقوى مما كانت عليه عندما تولى عرشها . أما شارل فيبدد إرثه العظيم بطموحه الحربى الذى لا يهدأ والذى دفع ثمنه غالياً . ويلاحظ بوجه الخصوص على لويس أنه كان يفضل العمل مع رجال الطبقة الوسطى ، وأنه كان يمثل طرازاً جديداً من رجال الدولة فى تجنبه سفك الدماء وعدم ثقته بالنبلاء وتفضيله للجند المرتزقة (وقد أدخل السويسريين فى خدمة التاج الفرنسى) وفى تشجيعه للتجارة . كان يشبه معاصره إدوارد الرابع ، ولكن بصورة أوضح ، فى كونه ملكاً من رجال الأعمال .

وإذا ما أخذنا ما قام به أدواق برجندية بصفة عامة ، لوجدناه أيضاً ، رغم ما حمل من طابع الاستعلاء الخشن ، يحمل دلالته على هذا التحول العميق من إقطاع العصور الوسطى إلى نظام الدولة القومية ، هذا النظام الذى أخذ فى القرن الخامس عشر يشكل من جديد الأوضاع السياسية فى غرب أوربا . كان أمراء برجندية مبذرين خشنين ملتهبين حماسة ، وضعوا نصب أعينهم تدعيم أسس الملكية وبناء دولة متماسكة فى وادى الرين وروافده تضم بعضاً من أغنى المراكز التجارية فى أوربا . ولم تكن التقاليد والولاءات القديمة تعنى شيئاً بالنسبة لهم ؛ ولهذا فإنهم صنعوا دولتهم بالفتوح العسكرية المصحوبة بالعنف دون كبير اكتراث بما جرى عليه العرف وأهواء الناس فى الأجزاء التى تتألف منها . وكادت سياسة التوسع المطردة التى اتبعتها هذه الأسرة النشطة الحازمة فى مدى أربعة أجيال ، كادت توصلها قاب قوسين أو أدنى من تحقيق هدفها .

وبموت شارل الجسور أمام أسوار نانسى (١٤٧٧) انهار هذا البناء المصطنع برمته كأوراق الشجر. ولكن جهود أدواق برجندية لم تكن كلها عبثاً — فهم الذين صنعوا بلجيكا، كما أنهم هم الذين لقنوا كونتية الفلاندر — التى هى نواة مملكة بلجيكا الحديثة — معنى جديداً للاستقلال والوحدة، وإن سياستهم الطموحة وانتصاراتهم الوامضة وتوفيقهم المحكم فى المزج بين ميول الشعب ومقتضيات الأبهة، لما ألهم مدرسة من الكتاب والمؤرخين كانوا فوق المستوى العادى. ولقد جعلوا من بروكسل، حيث أقاموا بلاطهم، عاصمة من أشهر عواصم أوربا؛ وإن أنتورب تدين بعظمتها التجارية إلى حد كبير لتشجيعهم وللقيود التى فرضوها للحد من منافسة بروج وغنت لها.

وفى غمرة هذا التنافس فى المصالح الاقتصادية التى كانت الفلاندر مسرحاً لها فى ذلك الوقت المتميز بالتطور السريع، استطاع أدواق برجندية دائماً أن يعتمدوا على المصالح التجارية النامية ضد الصناعة التى أصبحت لا تجارى الزمن لما فيها من قيود الاحتكارات والأساليب التى عفى عليها الزمن. كانت سياستهم جعل الفلاندر وحدة اقتصادية بقدر الإمكان وتشجيعهم للفنون الجميلة نفس تشجيعهم للتجارة، وإزالة العوائق الداخلية التى تعترض نقل المتاجر وتبادلها. ورغم أن هؤلاء الأدواق كانوا فرنسيين من حيث الأصل واللغة والذوق، فإنهم توافروا على تعلم اللغة الفلمنكية، ودفعتهم حكمتهم — وقد زادت عن حدها — إلى أن يحاولوا أمراً كان فى الحق مستحيلا: وهو القضاء على اللسان التيوتونى الذى كان أداة للكثير من المبادلات التجارية فى الفلاندر.

وإذا كانت الظروف الرئيسية التى أحاطت بالأدواق قد فرضت عليهم أن يجعلوا قاعدة ملكهم فى الفلاندر حيث ذكرى زمالة الحرب القديمة مع إنجلترا كانت لا تزال ماثلة، فإنهم من الناحية الأخرى لم ينسوا موطنهم الأصلى. أصبحت العاصمة فى بروكسل، ولكن مدافن الأسرة بقيت فى ديجون التى لم تعد تساير مقتضيات العصر. وانتشر فن الرسامين والنحاتين الفلمنكيين غرباً عبر برجندية إلى فرنسا حيث كان له أثر كبير. وكما أن الفلاندر قد أثرت فى فرنسا، فإن فرنسا بدورها قد أثرت فى الفلاندر عن طريق أدواق برجندية. وإذا كانت

بلجيكا لا تزال اليوم فرنسية الطابع ، فإن مرجع ذلك إلى تلك الفترة التى كانت فيها الفلاندر الخاضعة لأسرة فرنسية ، قلباً ومركزاً لدولة طموحة ميالة للفتح والتوسع .

ورغم أن الأدواق قد شجعوا الفن الفلمنكى برعايتهم ، فإنه — كالفن البرجندى — استمد أصوله من تراث العصور الوسطى . وعلى حين اتسمت النهضة فى إيطاليا بابتعاد حاسم عن أساليب العصور الوسطى وعن الفن القوطى ، وبإيثار قوى لنماذج الوثنية القديمة ، لم يوجد لدى فنانى برجندية مثل هذا الشعور الواعى بالتجديد ؛ ولهذا نجدهم يمرقون من العالم الوسيط إلى العالم الحديث بهدوء غير محسوس . اعتمد تطور الرسم عندهم على الملاحظة الدقيقة أكثر من اعتماده على النظريات الأدبية أو على الانتقاء أو الترك المبنى على أسس عقلية . وتميز الفن الفلمنكى فى القرن الخامس عشر برقة الشعور ومراعاة الحقيقة واتباع الأصول الفنية بدقة ؛ وعن الفلمنكيين الذين كانوا قد اخترعوا الأصباغ أخذ الإيطاليون استعمالها ، وإلى تصاوير هذا الشعب الموهوب يرجع أكبر الفضل فى شهرة تلك الإمارة الفتية الخشنة الصاخبة .

ويستوى فن الأراضى المنخفضة مع الفن الإيطالى فى كونهما ينبعان من حياة مدن تزخر بالنشاط وتقدم على الرخاء المادى . وقد نافس سكان مصبات الأراضى المنخفضة سكان فلورنسة والبندقية فى نشاط طوائفهم وتقديرهم للمهارة الفنية وتشجيعهم للجهود الأدبية والفنية . وقد نما نظام حكم المدينة الذى قام فى العصور الوسطى — نما فى إيطاليا والأراضى المنخفضة ، كل مستقلا عن الآخر ؛ وكان تدهورهما قميناً بأن يصيب الحضارة الغربية بحرمان قاتل . ولم يحتج الرسامون الفلمنكيون من رجال القرن الخامس عشر فى رسم شكل الإنسان كما رأوه إلى دروس جيوتو Giotto [1] أو مدرسته ، فقد تحولوا عن التقاليد البيزنطية بفعل مؤثرات واقعية أصيلة من وحى بلادهم ، ولقد استمدوا رسومهم من الحياة ، ولكن فى أصباغ مشرقة تبدو كأنها تتحدى حلوكة السماوات فى بلاد الشمال ، وآثروا الموضوعات

(١) ١٢٦٧ — ١٣٣٧ . الرسام الفلورنسى الكبير الذى لعب دوراً مهماً فى إرساء القواعد الجديدة لرسومات عصر النهضة .

المنزلية بوحى رعاة الفن من الأثرياء العلمانيين ، وجسموا إبراز كل تفصيل مألوف ، وكأنما هو نقش بارز . وانتشر تأثيرهم كما انتشر تأثير الفنانين الإيطاليين فى مجال أوسع . وما أشرف القرن الخامس عشر على نهايته حتى صارت كل ألمانيا الشمالية من أقصاها إلى أقصاها بمثابة مستعمرة فنية للفلاندر .

* * *

كتب يمكن الرجوع إليها

— A.W. Ward, in Cambridge Modern History, Vol. I, Chap. XIII.

— C. de Cherrier, Histoire de Charles VIII. (1868).

— J.F. Firk, History of Charles the Bold. 3 vols. (1863-8).

— C. Legeay, Histoire de Louis XI. (1874).

— Sir W. Scot, Quentin Durward.

— L.E. de Laborde, Les Ducs de Bourgogne. (1849-52).

— C. Petit Dutaillais in E. Lavisse, Histoire de France., Vol. IV.

— P. Fredericq, Essai sur le rôle politique et social des Ducs de Bourgogne dans les Pays-Bas. (1875).

— E.A. Freeman, Historical Essays, First Series (Charles the Bold). (1892).

— L. Battifol, The Century of the Renaissance. (1916).

الفصل الرابع

النهضة الألمانية

تقدم ألمانيا ثقافيا فى النصف الأخير من القرن الخامس عشر – انتشار الطباعة – أثرها فى ازدياد اهتمام الناس بالمسائل الدينية – فشل محاولات مكسمليان إصلاح الإمبراطورية – عظمة ألمانيا الحقيقية فى ذلك الوقت – الفنون والحرف – ألبرخت ديرر Albrecht Dürer وبطرس فشر Peter Vischer كوزانوس Cusanus .

تميز النصف الثانى من القرن الخامس عشر فى ألمانيا بتقدم ملحوظ فى الثقافة والتعليم والتربية ، تميزه بنمو سلطان أمرائها المحليين على نحو ما حدث فى إيطاليا . والواقع أن الشهرة الحالية التى يتمتع بها الألمان كقادة للعالم فى دراسة الكتب يمكن أن نرجعها إلى ذلك العصر الذى شهد إنشاء ثمانى أكاديميات ألمانية واختراع فن الطباعة الذى فتح للعالم آفاقاً جديدة والذى يرجع الفضل فيه إلى حنا جوتنبرج John Gutenberg من ماينز Meinz . وإن الثورة الضخمة فى الطاقات العقلية البشرية التى ترتبت على هذا الاختراع الأخير يمكن أن تعزى إلى السرعة التى انتشر بها هذا الاختراع فى ربوع أوربا فى عصر يتقيد بحقوق الاختراع . وفى عام ١٤٦٥ دخلت الطباعة بحروف معدنية إلى إيطاليا ، وفى عام ١٤٧٠ وصلت إلى باريس ، ووصلت إلى لندن فى عام ١٤٧٧ واستوكهلم فى عام ١٤٨٣ ومدريد فى عام ١٤٩٩ . وقد قدر البعض ، ولو أنه قد يكون تقديراً متحفظاً جداً ، أنه حين انتهى القرن الخامس عشر كان يوجد فى أوربا ما يقرب من تسعة ملايين كتاب مطبوع فى مقابل بضعة آلاف قليلة من المخطوطات حوت كل ما ورثه العالم من حكمة وشعر حتى ذلك الوقت .

وينبغى أن يعزى إلى الألمان الفضل الأكبر فى انتشار آلة الطباعة فى أوربا . حينئذ عرفت الطباعة بأنها الفن الألمانى ، وقصد الطباعون وبائعو الكتب الألمان كل مكان بحثاً عن العملاء ؛ وما أوفى عام ١٥٠٠ على نهايته حتى كان لهم أكثر من مائة

مطبعة فى إيطاليا ولا أقل من ثلاثمائة مطبعة فى إسپانيا . وعمت الأقطار حماسة تبشيرية ضخمة للفن الجديد . وراح الناس يقدرون أهميته بالنسبة إلى الحياة . وعبّر عن ذلك أحد المعاصرين — وهو ومفلنج Wimpheling [1]— بقوله : « وكما انتشر رسل المسيح فى أقطار الأرض يبشرون بالأنباء السعيدة — أنباء ظهور المسيح — كذلك ينتشر فى أيامنا هذه رجال الفن الجديد فى كل مكان يحملون فى أيديهم الكتب وكأنها كتب الرسل وكأنهم الدعاة إلى الحقيقة والعلم ». وليس أدل على صدق فراسة التاجر الألمانى عن هذه الاحتمالات « التبشيرية » من أنه فى عام ١٤٩٤ ، أى بعد مرور سنتين فقط على طرد المسلمين من غرناطة ، كان ثلاثة من الطباعين الألمان قد استقروا فى تلك المدينة .

وإن ما قام به الرواد الأول فى ميدان الطباعة وتجليد الكتب ليعد مفخرة من مفاخر أوربا ؛ وإن أوربا لتدين بالكثير لهؤلاء التجار الملهمين الذين جمعوا إلى تمرسهم فى البحث والفن خبرة بتنظيم الأعمال على نطاق دولى ، حتى إن التاريخ ليسجل دون تحيف أسماء الرعيل الأول من بائعى الكتب العظام مثل كوبرجر Koberger من نورنمبرج وفروبن Froben من بال . فإنه يندر حقاً أن نجد ما يفوق الطبعات الأولى من الكتب فى ألمانيا جمالا وروعة . وإذا كان الجانب الأكبر من الأدب الذى أخرجته المطابع الألمانية أدباً دينياً ، وإذا كانت قد ظهرت فى خلال الخمسين السنة الأولى من اختراع الطباعة مائة طبعة من الإنجيل وتسع وخمسون طبعة من كتاب ، «ترسم خطى المسيح Imitatio Christi» ، فإنما مرجع ذلك إلى أن رجال الدين فى ألمانيا ، مثلهم فى أى مكان آخر ، كانوا يكونون أغلبية الطبقة المتعلمة ، بالإضافة إلى أنهم كانوا أكثر الناس احتضاناً لتجارة الكتب ورعاية لها . ورغم أن الكتاب المطبوع قد لعب دوره فى نشر الحركات الفكرية والنقدية فى القرن السادس عشر ، فإن النتائج الأولى التى تمخضت عنها حركة الطباعة كانت مخالفة لذلك ؛ فقد عملت على إيقاظ اهتمام جماهير الشعب بالعقيدة وزيادة اهتمامهم بقراءة الكتب الدينية ومناقشتها .

---

(١) ١٤٤٩ — ١٥٢٨ . أحد فقهاء الدين الألمان ؛ وكان أيضاً متفقها فى اللغة . اقترن اسمه بإصلاح التعليم .

ومن هنا يكون من عدم الإنصاف القول بأن الفترة من تاريخ ألمانيا التى سبقت النهضة مباشرة قد اتسمت بدلائل الانحطاط والضعف . حقيقة وجد كثير من الأخطاء الفاحشة فى جهاز البلاد السياسى والاجتماعى — ومن ذلك أن الكنيسة التى قدر لها أن تمتلك ثلث الأراضى المملوكة أضحت من الغنى بدرجة لا تعصمها من الفساد ، وأن رجال الدين قد أمعنوا فى الاستسلام لمظاهر الترف الفارغ والإسراف البالغ . وكانت الحروب الخاصة أمراً مألوفاً لم يجد ما يوقفه بطريقة ناجعة حتى عقد مجمع (ديات) ورمز Worms فى عام ١٤٩٥ ، ولهذا قاست البلاد مما حل بها من دمار على أيدى أرستقراطية من أشد أرستقراطيات أوربا أنانية وكسلا . يضاف إلى ذلك أنه لم توجد فى داخل الإطار السياسى للإمبراطورية الألمانية أية قوة قادرة على تربية وإعداد هيئة من الرأى العام حازمة منزهة عن الهوى ، بحيث توازن شرور الأنانية الطبقية أو الاتجاهات الانفصالية الصغيرة . وليس أدل على ذلك من عصر الإمبراطور مكسمليان (١٤٩٣— ١٥١٩) مؤسس الوحدة النمسوية وحبيب أهل التيرول وخير من اصطادوا الشاموا و« آخر الفرسان » . وقليل من الحكام الألمان من هم أكثر من ذلك العاهل الأنيق النبيل الكريم جدارة بما أحيط به من حب . كما أنه لم يكن هناك من هو أكثر منه نشاطاً أو بلاغة أو جاذبية ، أو أشد منه رغبة فى المحافظة على ما اعتقد أنه التقاليد الحقة لمنصبه الرفيع وشرف الاسم الألمانى . ورغم كل هذه الخصال المحببة لم يستطع مكسمليان أن يوقظ تلك الهيئة السادرة فى غيبوبتها— أعنى الريخ الألمانى — للقيام بعمل فعال ضد الأتراك فى الشرق والفرنسيين فى إيطاليا — ففى المجمع الإمبراطورى الذى انعقد فى ورمز فى عام ١٤٩٥ ، ثم فى أوجزبورج ، تحطمت محاولاته القيام بإصلاح كاف للدستور الألمانى على صخرة المعارضة الصلبة التى أثارتها المصالح الأنانية ؛ فلم يستطع تكوين جيش إمبراطورى ثابت أو إقامة نظام ثابت لجمع الضرائب الإمبراطورية ، بعد إذ رفض الأمراء التابعون له العمل مع القوات الإمبراطورية ، كما رفضوا دفع « المليم العام[1] » (وهذه ضريبة تصاعدية على الأملاك) أو التعاون فى تكوين جهاز ينفذ قرارات المحكمة الإمبراطورية . وفيما عدا إدخال بعض

---

(١) فى الأصل The common penny .

التحسينات الطفيفة على دوائر القضاء والبوليس بإعلان سلام دائم بين ملاك الأراضى ، وإنشاء محكمة إمبراطورية ثابتة ، وتقسيم الإمبراطورية إلى عشر دوائر ، فقد فشلت كل المحاولات المضنية التى قام بها هذا الإمبراطور الأريب الواسع الأفق لجعل مجموعة الدويلات الألمانية قوة فعالة فى العالم . لهذا كله بقى الإمبراطور ظلاً لا حول له ولا طول ، وظل المركز الحقيقى للقوة السياسية فى أيدى المنتخبين والأمراء .

وعلى أى حال فليس ثمة ارتباط بالضرورة بين الحكمة السياسية عند شعب وتقدمه الروحى والفنى . فإن ألمانيا لم تكن تتجلى قيمتها السياسية فى إمبراطوريتها أو فى كبار الكهنوت فيها أو فى أمرائها العظام ، وإنما كانت تتجلى فى الآلاف من عمال المدن الموهوبين الذين سخروا ذكاءهم فى بناء الكنائس والكاتدرائيات القوطية ، وفى إدخال التحسينات على الأرغن ، والذين نبغوا فى مجال الحفر والنقش على الحجر والخشب والبرونز وخلفوا بنقوشهم ورسومهم وصياغتهم المعدنية شهرة عالمية فائقة تشهد بمهارة الجنس الألمانى . وإن الرسومات والنقوش التى أبدعها ألبرخت ديرر [1] ، وهذه الصنوف الفاخرة من القطع البرونزية التى أخرجها فى مدى خمسين عاماً مصنع الصهر الذى كانت تملكه أسرة فشر فى نورمبرج لهى كلها آثار من الفخامة كفّرت بها ألمانيا فى الفترة السابقة للنهضة مباشرة عن الفساد الذى حل بالكنيسة والخلط العنيف الذى أصاب حياتها العامة .

وفى العقد الثالث من القرن السادس عشر توقف فجأة تطور فنون النحت فى ألمانيا ، وهى التى كان بطرس فشر الأصغر قد سما بها إلى درجة كبيرة من المهارة ، وبدا أن الشريان الزاخر القديم الذى كان يغذى المهارة الفنية الألمانية قد استنفد طاقته . فقد حلت نماذج وأفكار متواترة مقتبسة عن الإيطاليين محل الفن الألمانى الذى — برغم افتقاره إلى الجمال البسيط الذى اتسم به الفن الإيطالى — كان أصيلاً وقويًّا ومتمشياً مع الطابع القومى ؛ ولم تعد نورمبرج — التى كانت فى القرن الخامس عشر فلورنسة ألمانيا — المركز الحيوى للفن الزخرفى . وبظهور

(١) ١٤٧١ — ١٥٢٨ . الرسام والمصور والنقاش الألمانى .

الإصلاح الديني بدأت تهب على النحاتين والنقاشين ريح سموم ، ليس فقط لأن ألمانيا باتت أشد فقراً بسبب الكشف عن الطرق الجديدة عبر المحيطات ، بل ولتحول أذهان الشعب الألماني إلى مسارب أخرى على أثر انغمار ألمانيا في بحر من الفوضى الدينية والاجتماعية . فقد أصبح الدين لا الفن هو العامل الفعال ؛ ومما له دلالته أن هولباين Holbein[1] قد لجأ إلى حماية البلاط الإنجليزي حين وجد أن بال لم تعد بأية حال البيئة المناسبة لرسام ألماني . لم ينفس الألمان عن طاقاتهم الفنية في مجالات الرسم أو النحت أو حتى في الفن اللطيف ، فن النقش على الخشب ، وهو الذي كان يوماً هواية عامة من الطبيعي أن تجد مجالها لدى سكان بلاد تنمو بها الغابات ؛ فإن كتابات لوثر — وكأنها التراتيل — قد كشفت عن طريق جديد . وانكب الألمان على الموسيقى ، وما أوفى القرن الثامن عشر على نهايته حتى كانوا قادة أوربا في هذا اللون من الفن الذي هو أكثر الفنون عالمية ، وهو اللغة الواحدة المشتركة بين الأديان جميعاً .

وعلى أي حال فقد كان ذلك مما يتوقع حدوثه . وإن الحياة الفكرية الألمانية ، قبل أن تهب عواصف النهضة ، لتتمثل أصدق تمثيل في نقولا كربس Krebs (١٤٠١ — ٦٤) الذي عرف بعد ذلك بالكاردينال كوزانوس ، نسبة إلى مسقط رأسه Cues في وادي الموز . ففي كوزانوس امتزج اتجاه قوي من الديانة الصوفية ، قد ترجع جذورها إلى تعليمه المبكر في « أخوة الحياة المشتركة » في دفنتر Deventer ، بحماسة الإنساني وبلاغة السياسي وطلعة بحاثة تيوتوني . درس كوزانوس في شبابه الرياضيات وقانون الكنيسة في جامعة پادوا ؛ حيث اختلط بمجموعة من العلماء النابهين الذين كانوا في ذلك الوقت يحاولون اقتحام المعارف الرياضية والفلكية والجغرافية . ثم أتت بعد ذلك فورة من النشاط في وقتها لتفتح أبواباً عدة على جانبي الألب للشباب الطموح : فعين كوزانوس سكرتيراً لأورسيني Orsini أحد كبار رجال الدين الذي كان من نخبة المثقفين الإيطاليين وممثلا للبابا في ألمانيا . وبذلك وجد نفسه في غمرة الأضواء الرئيسة التي أشعلت جذوة الحركة الأدبية الإيطالية ،

---

(١) أنتجت أسرة هولباين (في أوجزبورج وبال) عدداً من الرسامين ، أبرزهم هانز الأكبر (حوالي ١٤٦٠ — ١٥٢٤) وهانز الأصغر (١٤٩٧ — ١٥٤٣) .

فأصبح من أصدقاء توسكانيللى Toscanelli [١] الجغرافى وفاللا Valla [٢] بحاثة التاريخ وپوجيو Poggio [٣] مكتشف تاكيتوس . وبحماسة النحوى الحق كرس كوزانوس جهده للبحث فى مكتبات الأديرة فى موطنه الأصلى فى إقليم الرين . ولم يمض طويل وقت حتى تكللت جهوده بكشف النقاب عن اثنتى عشرة مسرحية من مسرحيات پلوتس Plautus [٤] . ومنذ ذلك الوقت ذاعت شهرة تريڤرانوس Treveranus (وقد لقب كربس بهذا اللقب لأنه كان من مقاطعة تريف Trèves على الرين) فى عالم المثقفين . وكوفئ ذلك المكتشف المحظوظ لهذا العدد من الكوميديات اللاتينية التى تفيض بالفجور بترقيته فى سلك الكهنوت ؛ فعين نائب أسقف ثم رئيساً لأسقفية فى التيرول ثم كاردينالا . وقد اكتسب كوزانوس بحسن تصرفه ونهمه فى القراءة وشخصيته السامقة أفكاراً ألمعية ، ويصدق ذلك على الفترة التى كان فيها الروح المحرك لمجمع بال صدقه على الفترة التى كان فيها الساعد الأيمن للبابا يوجينيوس Eugenius الرابع . وفى كل الأعمال التى قام بها هذا البحاثة الذى لم يكل له جهد ؛ كنسخه المخطوطات اللاتينية فى ألمانيا أو نقله نصوصاً إغريقية أتى بها معه من جبل آثوس ، أو فى تعليقه على القرآن أو فى الأطلس الذى وضعه لوسط أوربا — فى كل ذلك كان هذا الرجل يستلهم إحساس المسيحى الحق والأوربى الحق والألمانى الحق . وإنه لمما يسترعى الانتباه أنه فى رسالة كتبها فى سن الثلاثين عن الوفاق الكاثوليكى قسا فى الهجوم على مساوئ الكنيسة ودعا إلى إنشاء جيش إمبرطورى كوسيلة لعلاج الفوضى الممسكة بخناق ألمانيا . والحق أنه لم يوجد أحد ، منذ ذلك الوقت حتى اكتوت ألمانيا بمذلة الفتح الناپليونى ، يدعو إلى ذلك العلاج لنفس الداء من الفوضى والعجز الذى ظلت تعانى منه ألمانيا ، سوى جورس Gorres الألمعى ، وهو ناشر ألمانى آخر من منطقة الرين ، و إن لم تجد دعوته .

---

(١) ١٣٩٧ — ١٤٨٢ . رياضى وطبيب إيطالى ، رسم خريطة للعالم يقال إن كولمبس استخدمها فى رحلته إلى أمريكا فى عام ١٤٩٢ .

(٢) حوالى ١٤٠٧ — ١٤٥٧ . الإنسانى الإيطالى .

(٣) ١٣٨٠ — ١٤٥٩ . بحاثة إيطالى ظهر فى عصر النهضة .

(٤) هو المؤلف المسرحى العظيم فى روما القديمة . ولد ما بين ٢٥٤ ، ٢٥١ ق . م وتوفى فى عام ١٨٤ ق . م .

ويمتاز كوزانوس – كرجل دين – بصدق حماسته فى الهجوم على فساد أخلاق رجال الدين الألمان والخرافات الوثنية التى كانت لا تزال منتشرة بين الفلاحين الألمان ، كما يمتاز بعدم اعتقاده باللجوء إلى القوة المسلحة للقضاء على الروح الوثنية ، وإيمانه بسلطان المعرفة وإحكام العقل وفصاحة اللسان باعتبارها قوى لا غنى عنها فى الشئون الإنسانية . ومهما يكن الأمر ، فإن كوزانوس لا يعرف اليوم باعتباره إنسانياً أو رجل دين فى المحل الأول ، بل لأنه مؤلف « الجهالة المتأصلة De Docta Ignorantia » الذى يقال إنه يمكن أن تستشف فيه بسهولة مبادئ كثيرة موجهة من الفلسفة والعلوم الحديثة . ويرى كثير من الألمان المغالين فى وطنيتهم أن كوزانوس هو الذى مهد الطريق لكل من كوپير نكوس وديكارت وهيجل . على أن الناس لا ينبغى أن يتوقعوا أن تكون مجموعة من الأبحاث الدينية الصوفية من وضع سياسى من رجال الدين شغل بأشياء كثيرة جهداً ارتيادياً فى ميدان العلوم . ورغم أن أبحاث كوزانوس القاتمة تشرق هنا وهناك بوميض براق عن الإلهام المفضى إلى أغوار الكون الطبيعى ، وإذا كان تصوره « للمطلق » على نحو تنسجم فيه المتناقضات العقلية يبدو جديداً ، فإن طريقته فى التأليف كانت لا تزال تمت إلى طرائق العصور الوسطى . ذلك أن النتائج التى يؤكدها العلم الحديث قد توصل إليها كوزانوس بفروض لابد لأى عالم اليوم من أن يرميها بالخيال والسخف . والأهمية الحقيقية لما قام به هذا العالم التيوتونى الدءوب هى أننا نرى فيه ذكاء خارقاً التزم أساليب العصور الوسطى الألمانية تماماً ، ولكن أزكاه بالإشعاعات الأولى من العلم الإيطالى .

كتب يمكن الرجوع إليها

— J. Janssen, Geschichte des deutschen Volkes seit dem Ausgang des Mittelalters. Tr. M.A. Mitchell & A.M. Christie (1896-1925).

— C. Ulmann, Reformatoren vor der Reformation. Tr. R. Menzies. 2 vols. (1855).

— F.A. Gasquet, The Eve of the Reformation. (1905).

— F. Paulsen, Geschichte des gelehrten Unterrichts auf den deutschen Schulen und Universitäten. (1885-96).

— E. Müntz, Histoire de l'Art pendant la Renaissance. (1889-95).

— W.B. Scott, Albrecht Dürer, his life and works. (1869).

— L. Geiger, Renaissance und Humanismus in Italien und Deutschland. (1882).

— A.D. Vandam, Social Germany in Luther's Time, being the Memoirs of Bartholomew Sastrow. (1902 - abridged). With preface by H.A.L. Fisher.

— W. Bode, Geschichte der deutschen Plastik. (1885).

— Cecil Headlam, Peter Vischer. (1901).

— Sprenger, Albrecht Dürer.

— B.A. Duan, Ada, Krafft und seine zeit. (1896).

الفصل الخامس

ملكية جديدة فى إنجلترا

حروب الوردتين – أصولها – هنرى السادس وإدوارد الرابع – نتائجها الاجتماعية والاقتصادية – أهمية حكم هنرى تيودور – أول مستعمرة إنجليزية .

اندلعت حروب الوردتين بعد عامين من طرد الإنجليز من فرنسا فى عام ١٤٥٣ وإنه لمن الصعب أن نتصور نكبات عامة أنكى من نشوب نضال داخلى طويل بعد الفشل فى حرب خارجية ؛ ولكن الهزيمة والحرب الأهلية قد تضمنتا مع ذلك خيراً : فإن إنجلترا بعد أن تخلت تماماً عن محاولتها الفاشلة احتلال فرنسا استطاعت أن تجد طريق الصواب لتطورها فى بسط نفوذها على الجزر البريطانية والتوسع فى تجارتها وصناعتها وتأسيس المستعمرات فيما وراء المحيط . ويرجع نجاحها فى الاضطلاع بمثل هذه التبعات إلى أن حروب الوردتين قطعت دابر الإقطاع من الجهاز السياسى للدولة بشكل موفق لا نظير له فى بلد آخر .

ويختلف الصراع بين أسرتى يورك ولانكستر المتصارعتين اختلافاً أساسياً عن القلاقل الإقطاعية الناشبة فى القارة الأوربية فى تلك الفترة ؛ إذ أن كلا الفريقين الإنجليزيين كانا يسلمان بوحدة المملكة و بنظام الحكومة القائم على الملك والمجلس والبرلمان وهو النظام الذى توارثته إنجلترا منذ زمن بعيد . ولم يكن هدف أتباع أسرة يورك فى إبان المراحل الأولى للحرب هو انتزاع مقاطعات واسعة على نحو ما حاولت « عصبة الصالح العام » أن تفعله فى فرنسا ، ولم يكن هدفهم كذلك شل السلطة الملكية تماماً كما كان الحال فى ألمانيا ، أو تنفيذ أية خطة محددة للإصلاح الدستورى ؛ بل كان هدفهم شق طريقهم بالقوة إلى مجلس الملك ، وعن طريق سيطرتهم على المجلس يتسنى لهم حكم البلاد . ولن يستطيع أى الفريقين أن يدعى أنه التزم سياسة منزهة عن الهوى تهدف لخدمة الصالح العام – فإن المنازعات العائلية الخاصة ، وعلى وجه الخصوص المنازعات القائمة بين الأسرات

الكبرى فى مناقع حدود ويلز ، وفوضى الحرب والحاجة إلى تشغيل عصابات، وفيرة من الأتباع المسلحين الذين أدى توقف الحروب الفرنسية إلى تركهم بلا عمل — كل هذه كانت عوامل هامة فى حروب الوردتين . ومع ذلك فإن من الإجحاف أن ننكر على الزعماء فى هذا الصراع الوحشى كل اهتمام بالصالح القومى . فالحرب بين أسرتى يورك ولانكستر لم تكن عقيمة تماماً ؛ بل إنها نشبت من الصراع على قضية كانت أخطر القضايا العامة : وهى قضية الحرب أو السلام . فقد عزم هنرى السادس ووزيره سفولك Suffolk على إنهاء الحرب الفرنسية المؤسفة التى كان جلوستر وريتشارد أوف يورك متحمسين للاستمرار فيها ، وقوبلت معاهدة تور (١٤٤٤) التى قام سفولك بإجراء مفاوضاتها باحتقار مزدوج حين عرف أنها نصت على التخلى لفرنسا عن كاليه وعلى زواج ملك إنجلترا إحدى بنات العدو وهى مارجريت أنجو . وهكذا ساد جو من الكراهية والشك فى كل حصن من حصون البلاد وأثار مشاكل حادة : عمل أو تبطل ؛ مخاطرة أو برم بالحرب ؛ جنوح إلى الشهوة أو تحكيم العقل ؛ محاولة فجة لإحياء أمجاد قديمة أو قبول مخز لهزيمة لا محيص عنها . وتمخض هذا النزاع عن جو عنيف من الكراهية والحقد . وكانت النهاية المفاجئة العنيفة التى ختمت حياة كل من جلوستر العدو الشخصى لملكة فرنسا وسفولك الذى مثل للشعب كبش الفداء فى هذا الصلح المخزى — كانت هذه النهاية بداية عهد من الرعب وسفك الدماء وأحكام الإعدام ، مما لطخ بالعار الأيام الأخيرة من إنجلترا الكاثوليكية .

وإذا كان حزب يورك هو أول من لجأ إلى السلاح ، فإن رجاله بروا ذلك بالمذلة التى لقيتها البلاد فى الخارج وسوء الأحوال فى الداخل . وُجه اللوم إلى حزب لانكستر لضياع ما كان لإنجلترا من أملاك فى فرنسا ؛ ولم يستطع تدين هنرى السادس الواضح ولا مؤسساته التعليمية المجيدة فى إيتون وكيمبردج أن تحجب فى نظر معاصريه سياسته الخارجية المزرية وشخصيته الضعيفة وعلائم الجنون التى كانت تظهر عليه أحياناً ؛ كما أنها لم تحل دون الكراهية الشديدة التى ووجهت بها زوجته الفرنسية التى سيطرت عليه . وبعد أن هزم ذلك الأمير فى توتون Towton (١٤٦١) تتابعت عليه المآسى بعد أن عاش حياة لا غبار عليها ، فمن منفى مرير ،

إلى سجن خشن ، ثم ميتة قاسية رهيبة .

وعلى عكس ذلك القديس اللانكستري اللين الذي كان لا حول له ولا طول ؛ كان قاتله زعيم آل يورك ينتمي لطراز في فن الحكم أحدث وأكفأ أخذ الآن مكانه في الطليعة في دول أوربا الآخذة بأسباب التقدم نتيجة لازدياد أهمية الصناعة والتجارة . وإدوارد الرابع (١٤٦١ — ٨٣) لم يكن ذواقة للفن كلورنزو مديتشي ، ولا عبقريًّا في الدبلوماسية كاويس الحادي عشر ، ولكنه كان جنديًّا كفئاً أنيق المظهر ذا خلال محببة ، يتمتع بتلك الفطرة السليمة التي عرف بها رجال الطبقة الوسطى ، وهي الفطرة التي حملت عقلاء ذلك العصر على تقدير أهمية العمل لترويج مصالح أصحاب المال وكسب تأييدهم . ولما كان إدوارد الرابع ميالا إلى جمع ما يلزمه من الموارد بأقل ما يمكن من المتاعب له ولغيره ، فإنه اقتصد في جمع البرلمان مفضلا على الضرائب التي كانت تجمع بطريقة عقيمة وعلى نطاق واسع اتباع طريقة مباشرة بفرضه الهبات على الأغنياء . ولكن إدوارد جمع إلى صفاته الجذابة بعض الأخطاء الفادحة : فأخلاقه — حتى بمقاييس ذلك العصر — كانت متحللة بشكل مزر ، وهمته غير منتظمة ، وبخله شديد ؛ كما أنه أضاف إلى جريمة الاغتيال السياسي (بما فيها قتل الإخوة) أعظم خطأ توج به أخطاءه في شعب تحكمه مقتضيات العرف الاجتماعي ، وهو زواجه من غير طبقته . وقد استنكر نبلاء إنجلترا ، الذين لم يغفروا لإدوارد الثاني إطلاقاً انشغاله بصناعة الأقفال والبناء والملاحة ، استنكروا زواج إدوارد الرابع سرًّا من ابنة أسرة محدثة . إذ لم يستطع جمال إليزابيث وودڤيل Elizabeth Woodville أن يغطي على أصل والدها ؛ فهو رغم زواجه بإحدى الدوقات ، قد بدأ حياته بداية متواضعة كفارس . ورزحت أسرة يورك تحت عبء هذا الزواج غير المتكافئ : وعندما توفي إدوارد في سن الأربعين نتيجة انهماكه في الملذات ، لم يجد أبناء الملكة غير المحبوبة سنداً من الولاء أو الحماسة يحميهم . وقد أحسن عمهم رتشارد الذي اغتصب العرش باعتقاده أن البلد غير مستعد لبذل أية تضحية جسيمة لصالح إدوارد الخامس وأخيه الحدث . ومع ذلك فإن فظائع الحرب الأهلية لم تكن قد حجرت قلب الشعب الإنجليزي تماماً بحيث يقبل قتل هذين الطفلين في برج لندن دون احتجاج .

ولم تنقذ العم الشاذ والملك المغتصب شجاعته ولا مقدرته ، فاتجهت الرغبة إلى إنزاله عن العرش ، ودبرت المؤامرات لتحقيق ذلك ليس فقط من جانب حزب لانكستر ، بل أيضاً من جانب فريق كبير من حزب يورك ذاته . وعلى ساحة بوسورث فيلد Bosworth Field (١٤٨٥) ، استطاع هنرى تيودور ، وهو ابن سيد من ريف ويلز ولكنه سليل جون أوف جونت John of Gaunt عن طريق أمه مرجريت بوفورت Margaret Beaufort والمطالب الوحيد بالملك الباقى من حزب لانكستر ، استطاع أن يضع نهاية لرتشارد وأتباعه من حزب يورك ، وأن يؤسس الأسرة القوية التى قدر لها أن تقود إنجلترا عبر المصاعب الدينية والسياسية التى اتسمت بها الحقبة التالية(١).

انتهت حروب الوردتين بعد أن استنزفت الأرستقراطية الإنجليزية دماءها وشارفت على الهلاك . ومع أن النضال العنيف قد جرى على رقعة واسعة من البلاد وكلفها مائة ألف نفس ، فإن آثاره الاجتماعية والاقتصادية كانت محدودة تماماً . ولم تهتم أية مدينة إنجليزية بهذا النزاع بين الفريقين إلى درجة أن تصمد لحصار . أما الجيوش التى كانت تقطع أوصال بعضها البعض بالحراب أو تتقاذف بالنبال أو تتبادل بمهارة أقل وتكاليف أكثر طلقات مدافعها الحديثة الصهر على أيدى مدفعيين محترفين — هذه الجيوش لم تجمع من سكان المدن وأهل الفلاحة ، ولكنها تكونت من كبار النبلاء وأتباعهم المأجورين . ولم يتأثر تقدم البلاد الاجتماعى بهذه الاضطرابات كما يتبادر إلى الذهن ؛ فإن الشجار الناشب بين أسرتى پرسى Percy ومورتيمر Mortimer ، أو بين أسرتى نيڤل Neville وموبرى Mowbray لم يكن يعنى إلا القليل للعامة ورجال الحرف والتجار . وسارت التجارة فى طريقها المعبد ، وجمعت ثروات ، وبنى الأغنياء بيوتاً من الآجر أو الحجر لسكنهم الخاص ، أو شادوا الملاجئ والكليات لخلاص أرواحهم ، وبدا لسير جون فورتسكيو Sir John Fortescue(٢) أن الفلاحين الإنجليز أسعد حظاً من فلاحى فرنسا لأنهم أكثر رخاء ؛ وأخذت تختفى باطراد طبقة الأقنان الإقطاعيين ، وذلك تحت ضغط العوامل الاقتصادية الجديدة . ولكن هذه الحرب الأهلية الطويلة صاحبتها إحدى

---

(١) انظر ثبت الأنساب (١) .

(٢) حوالى ١٣٩٤ — ١٤٧٦ . مشرع إنجليزى اختلف مع الملك هنرى الثامن الذى عزله من منصبه القضائى الهام ثم صالحه بعد ذلك .

المصائب الكبرى التى يمكن أن تنزل بمجتمع منظم : فإنها شلت سير العدالة البريطانية وإن لم تحطم جهازها . استمر القضاة فى حضور الجلسات القضائية الدورية التى كانت تعقد فى كل مقاطعة بدورها ، ولا زالت محاكم الملك تعقد جلساتها فى وستمنستر ، وظل العمدة (sheriff) يعقد مجلس مستشاريه ، كما واصل « قضاة التحقيق » جلساتهم القصيرة ، واجتماعاتهم الدورية كل ثلاثة شهور . ولا زال المحلفون المتهيبون يدعون إلى القيام بمهامهم و يعاقبون على عدم الحضور . ومع ذلك كان القضاء يتعرض للتهديد فى كل حالة تتصل بمصالح صاحب أرض ذى نفوذ أو بمصالح أتباعه . واللوائح التى كانت تحرم كسوة الأتباع وإعالتهم ظلت عاجزة عن الحد من شر فاضح ، وإن كان قد أصبح أمراً شائعاً . ذلك أنه حين كانت تنظر المحاكم الدورية قضايا خاصة بأسرتين كبيرتين ، جرت العادة أن يركب رجال الفريقين المتخاصمين المسلحون خيولهم ، وقد حملوا شارات الوردات الذين يعولونهم ، ويقتحمون المدينة التى تعقد فيها المحكمة لإرهاب المحلفين والقضاة . ومن هنا لم تستطع يد العدالة أن تمتد إلى أى شرير مجرم طالما كان فى حماية النبلاء ذوى السلطان .

ورغم ذلك فمما له دلالته أنه على الرغم مما اتسم به ذلك العصر من الاضطرابات والعنف ، فإن كاتباً مثل فورتسكيو Fortescue استطاع أن يفخر بقوانين بلاده ودستورها . كان الإنجليز حينئذ شعباً يألف المقاضاة ، وهى سمة لازمتهم فيما بعد . وكانت المحاماة حينئذ ، كما هى الآن ، مهنة متميزة بالنفوذ والمحافظة ؛ وكان المحامى فخوراً بعلمه المليء بالأسرار شغوفاً بشرف مهنته وعلو مكانتها . وإن ما صاحب الحرب الأهلية من عنف وتوالى أحكام الإعدام خلال ذلك العصر العاصف لم يمحُ ذكرى الأيام الأولى من حكم أسرة لانكستر حين كانت البرلمانات تجتمع باستمرار وحين كان القانون يأخذ مجراه والسوابق الدستورية تتجمع لترجع إليها الأجيال المقبلة . وظلت تقاليد الحكومة البرلمانية قائمة رغم أن البرلمانات تحت حكم إدوارد الرابع لم تعمل أكثر من إقرار حالات التجريد من الحقوق المدنية أو التغاضى عن القتل والمصادرة . ولكن العدالة فى الأقاليم كانت قد انهارت تحت وطأة الإرهاب المتفشى فيها .

وتطلبت إعادة حكم القانون إقامة نظام جديد من الإجراءات الجنائية بحيث

يلقى كل كبير يخرق القانون جزاءه العدل بعد إزالة ذلك الكابوس الذى كان يشل السادة المحلفين البؤساء الذين كان الفزع أو الجشع يملى عليهم أحكامهم .

وترجع أهمية حكم هنرى تيودور (١٤٨٥ — ١٥٠٩) إلى تأكيده سلطان الدولة القومية على فوضى الإقطاع ، وأنه بزواجه من إليزابيث أوف يورك ، ابنة إدوارد الرابع ، قد أظهر للبلاد أن النزاع الحاد بين الأسرتين المتناحرتين قد آذن بالانتهاء . ومنذ ذلك الوقت رحبت البلاد بالبشائر الجديدة للسلام ، بغض النظر عن بقايا من أسرة يورك لم يتسن تأليفها ، وكانت تلقى تعضيداً فى أيرلندة والفلاندر ، واقتصرت خطورتها على تحالفها مع الأجانب . وقد أمكن قمع الثورتين اللتين قام بهما الدعيان لامبرت سمل Lambert Simmel وپيركن ووربك Perkin Warbect ، أمكن قمعهما الواحدة تلو الأخرى بنجاح أسهل ، لأنه — كما قال بيكون — « كان أمراً بغيضاً بالنسبة إلى سكان إنجلترا أن يحكمهم ملك تحمله إليهم حراب الأيرلنديين والهولنديين » . ولم يكن لهنرى تيودور جيش ثابت ، ورغم أنه — كما لاحظ سفير إسپانى — كان يود أن يحكم إنجلترا على الطريقة الفرنسية ، فإنه كان يعلم أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك ؛ فقد كان منذ البداية من الحصانة بحيث استشف أن أسرته لن يقدر لها البقاء إلا برضى من الشعب الإنجليزى .

وليس هناك ما هو أكثر إغراء للباحثين فى علوم السياسة من دراسة العملية التى عادت بها تدريجاً إلى السلام والعقل أمة أفسدها عهد طويل من الصراع المشوب بالحقد الشديد . ولهذه الغاية كرّس هنرى السابع اهتمامه . وإن من الملوك من هو أشد منه بهاء ، ولكن لن تجد من هو أجدى من ذلك العاهل الحريص الدءوب الذى استطاع بتصرفه الحكيم وسهره على شئون البلاد أن يجتث نهائياً سموم آخر حرب إقطاعية من كيان البلاد القومى . ورغم أن حكمه كان أوتوقراطياً ، فإنه كان خلواً من شرور الحكم المطلق ؛ فلم يبد غيرة من الرجال الأكفاء أو شيئاً من مركبات العظمة ، ولم يتخذ له بطانة من أصحاب الحظوة . فقد كان مستشاروه إما رفاق شبابه فى المنفى ممن خبرهم ، أو محامين أكفاء ، أو رجالا مثل هورتون Horton وفوكس Fox أو وورهام Warham ممن سما بهم ذكاؤهم وشخصياتهم بفضل المجال

الديمقراطى الذى هيأته الكنيسة . وقد كان من المستحسن صراحة أن يفوض الملك إمسون Empson وددلى Dudley انتهاب أملاك النبلاء بدلا من اتباع ماجرت به العادة فى فرنسا من إعطاء الطبقة الأرستقراطية ميزة الإعفاء من الضرائب الملكية . ولم يوجه أحد من المعاصرين اللوم إلى هنرى لاقتصاده فى دعوة البرلمان . وفى هذا العصر كان الناس يفضلون العدالة العامة على التمتع بالحرية السياسية الذى كان أمراً صعب المنال ، وفيه ارتفع مستوى القضاء . وأخيراً كانت « قاعة النجم » التى أقامها هنرى محكمة يرتجف لسلطانها أكبر نبيل فى البلاد .

ولم يكن تولى أسرة تيودور يعنى اعتزال إنجلترا ، ولا كان يستطيع فرض العزلة عليها . فإن هنرى فى سبيل حماية نفسه اضطر إلى البحث عن محالفات خارجية و إلى الاهتمام بمصالح إنجلترا فى أيرلندة وأسكتلندة ، وهما — كما أظهرت ذلك قصة ثورة آل يورك — البلدان اللذان كان من الممكن أن يشن منهما هجوم عدائى. لهذا زُوج ولى العهد من كاترين أميرة أرجونة وزُوجت مارجريت ابنة الملك بجيمس الرابع ملك أسكتلندة ؛ وفى الوقت نفسه بدأ فى عام ١٤٩٤ ذلك العمل الطويل لإعادة سلطة إنجلترا على أيرلندة ، وهو العمل الذى توج بالاتحاد البرلمانى بين الدولتين فى عام ١٨٠٠ ، وقد بدأ بإصدار قانون (قانون پوينج Poyning) أخضع القسم الشمالى من أيرلندة التابع لإنجلترا للمجلس الخاص فى لندن .

وقبل أن ينتهى القرن الخامس عشر أقلع أحد البحارة الجنوبيين واسمه جون كابوت John Cabot من برستول برخصة من الملك (١٤٩٦) على ظهر سفينة من غرب إنجلترا بصحبة بحارة من غرب إنجلترا أيضاً ، ثم عاد بالنبأ المثير : أنه لامس أرضاً فى الطرف الآخر من الأطلنطى . وترجع نيوفوندلاند ، وهى أقدم ممتلكات التاج البريطانى ، إلى حكم هنرى السابع حين أمكن لأول مرة أن تستشف معالم الدور الذى قيض لإنجلترا أن تلعبه فى المستقبل كدولة تتمتع بالنفوذ الغالب فى الجزائر البريطانية ، وترتبط ارتباطاً وثيقاً بالقارة الأوربية ، وكذلك تدفعها روح المخاطرة التجارية والبحرية إلى آفاق واسعة فيما وراء البحار .

كتب يمكن الرجوع إليها

— James Gardiner, in Cambridge Modern History, Vol. I, Chap. XIV.

— Vickers, England in the Later Middle Ages. (1913).

— Sir John Fortescue, Governance of England. Ed. C. Plummer. (1885).

— Paston Letters. Ed. J. Gardiner, 4 vols. (1900-1).

— J.A. Froude, Life and Letters of Erasmus. (1894).

— P.S. Allen, The Age of Erasmus. (1914).

— Erasmi Epistolae. Ed. P.S. Allen. (1906-1938).

— H.A.L. Fisher, History of England, 1509-47. Longmans. (1910).

— Francis Bacon, History of the Reign of King Henry VII. Ed. J.R. Lumby. (1876).

— C.L. Kingsford, Prejudice and Promise in Fifteenth Century. England. (1925).

الفصل السادس

تنافس فرنسا وإسپانيا على إيطاليا

شارل الثامن وإيطاليا – مخاطرة إسپانيا – اتحاد أرجونة وقشتالة – غلبة الدين فى إسپانيا وتوسعها السياسى – العلاقات بين إسپانيا والبرتغال – معاهدة توردسللاس Tordesillas – ارتباط إسپانيا والفلاندر عن طريق الزواج – النتائج البعيدة المدى لهذا الارتباط بالنسبة إلى أوربا والعالم – غزوات الفرنسيين لإيطاليا (١٤٩٤ – ١٥٥٩) . إسكندر السادس ومخازى روما – الروح الجديدة القائمة على الاحتكام إلى العقل وإرزمس .

وصلنا الآن إلى فترة من التاريخ الأوربى تثبت مدى ضعف الارتباطات الدينية والجنسية والثقافية إزاء مطامع البشر وحبهم المفرط للحرب . كانت إسپانيا وفرنسا قرب نهاية القرن الخامس عشر فى طليعة الدول اللاتينية والكاثوليكية فى الغرب ؛ تربطهما روابط الجنس والدين والتراث المشترك من اللغة والآداب الرومانسية. كما أنهما كانتا قد بلغتا مستوى عاماً من الثقافة يفوق كثيراً ذلك المستوى السائد فى شرق أوربا ، إن يكن أدنى من مستوى الثقافة الإيطالية بشكل واضح . وكان الأتراك يعتبرون الأعداء الألداء لهذه الحضارة اللاتينية المسيحية ؛ ولما كان الأتراك يسيطرون على شرقى البحر المتوسط ويهددون شواطئ إيطاليا وإسپانيا ، فقد كان من المحتمل أن يكون تكوين عصبة لاتينية لمجابهتهم الشغل الشاغل للدبلوماسية الغربية . ولكن ذلك لم يحدث . فبدلا من اتحاد الدول اللاتينية ضد الخطر الإسلامى ، اشتبكت مع بعضها البعض فى معارك عنيفة . وكانت إيطاليا جائزة النصر ، كما كانت ميدان الصراع . ومن مساخر التاريخ القاسية أن هذه البلاد ، التى تمتعت بموجة دافقة لم تكد تنقطع من الحضارة السلمية النادرة ، اطلعت البشرية من خلالها على ذرى جديدة من التفوق الفنى ، قد قيض لها أن تصبح – فى خلال أكثر من ستين عاماً – ميداناً لتصارع الجيوش الفرنسية والإسپانية .

والإيطاليون مسئولون عن ذلك بعض الشىء ؛ إذ أن السبب الرئيسى للمأساة هو الخلافات الناشبة فى إيطاليا ذاتها . حقاً تمتعت إيطاليا بعهد طويل من السلام ؛

فإن الخصومات المحلية التى كان يقوم بها الجند المرتزقة كادت تخلو من الدماء ، ولكن هذا السلام الطويل ، وإن محا ذكريات الحرب البشعة ، لم يُقرب بين الإيطاليين بحيث تتكون لهم عقلية مشتركة . كانت إيطاليا لا تزال على عهدها أيام دانتى : دولة تتآمر على دولة . وكان الإيطاليون لا يزالون يؤمنون بهذه الفكرة المحببة إليهم — وهى فكرة جديرة بأهل الفن — وهى أن من الخير إسناد المعارك إلى العصابات المتطاحنة من الجند المرتزقة . أما أن تكون هذه القوة المرتزقة صغيرة أو كبيرة ، محلية أو أجنبية ، فلم يكد يكون مسألة مبدأ فى وقت كانت فيه المشاعر الوطنية ضعيفة لدى الإيطاليين . ولكن كان أمراً بالغ الخطورة بالنسبة لإيطاليا ومصدر متاعب كثيرة فى المستقبل حين انضم لدڤيكو سفورزا Ludovico Sforza الوصى القوى على ميلان ، إلى رعايا فرانتى Ferranti حاكم نابولى الساخطين ، واستصرخ شارل الثامن ملك فرنسا لكى يحيى ادعاء آل أنجو القديم فى مملكة نابولى — وكان ذلك أمراً خطيراً جداً بالنسبة إلى إيطاليا ومصدراً لكثير من المتاعب المستقبلة . ولم يكن ثمة ما يمكن الدفاع به عن فرانتى ؛ فقد كان شخصاً فظاً خطراً دنىء النفس . ولكن جيشاً فرنسياً كان شيئاً آخر غير الجند المرتزقة : فهو يحارب ليقتل ؛ ولما كان فرانتى ينتمى إلى البيت المالك فى أرجونة ، وإن يكن من فرع غير شرعى ، فإن سقوط أسرته لم يكن ليحدث دون أن يسترعى انتباه ملك إسپانيا .

وفى أكثر من مناسبة فى تاريخ فرنسا ارتفعت الصرخة المنبهة للخطر الداعية « إن فرنسا متبرمة La France s'ennuie » . وكذلك كان الحال فى عام ١٤٩٤ . ولم يكن حكم لويس الحادى عشر ، و إن حفل بالمكاسب الراسخة ، براقاً بدرجة تكفى لإبهاج أرستقراطية فارغة تميل إلى ركوب المخاطر . ثم قامت ثورة صاخبة — عرفت باسم « الحرب الحمقاء la guerre folle » — عكرت صفو الوصايا الرشيدة التى كانت تقوم بها ابنته آن بوجيه Anne de Beaujeu ، ونبهت أخاها الأصغر شارل — ولى العهد — إلى أنه إذا أراد أن يحكم فعلا ، عليه أن يظهر الروح الرياضية التى تنتظرها من ملكها أرستقراطية فرنسية تتقد حماسة .

وكان خوض غمار حرب فى إيطاليا أكثر المخاطرات جاذبية . فلم يكن ثمة ما يغرى طموح الشباب أكثر من توقع سير ركبهم فى موكب للفرسان وهم يرتدون

حللهم الحربية البراقة تحت قبة إيطاليا الزرقاء عابرين بلاداً جميلة قد تتعرض بفعل خلافاتها الداخلية للوقوع فريسة فى يد الأتراك أو الإسپان ، ما لم ينتشلها فرسان فرنسا من هذا المصير .

وحروب (المتعة) لا يعوزها على الإطلاق عذر جدى . فالأتراك كانوا قد استولوا على أوترانتو بالفعل بعض الوقت . وكان حكام أرجونة يحكمون ناپولى التى كانت يوماً ما ملكاً لآل أنجو (١٢٨٣–١٤٤٢) ؛ على حين كان يشك فى أن الإمبراطور مكسمليان—وزوجته الثانية هى بيانكا من آل سفورزا Bianca Sforza — يدبر خططه للاستيلاء على دوقية ميلان الغنية التى كان أمراء أسرة أورليان يعتبرونها — منذ وقت طويل — غنيمة لا بد واقعة فى النهاية فى أيديهم .

وكان فى يد شارل الثامن ملك فرنسا — وهو شاب أحدب ماجن يشكّ فى قواه العقلية — أقوى مدفعية فى أوربا . ورغم أن كل العقلاء من ذوى الرأى فى باريس كانوا يعترضون على المغامرة الإيطالية لأن المملكة لم تكن وثيقة العرى وأحوالها المالية مضطربة ، ولأن الأسطول الصالح للخدمة فى البحر المتوسط كان لا يعتد به — رغم ذلك كله استسلم الملك لإغراء من استولوا على مسامعه ، ممن توافدوا عليه من ميلان وفلورنسة وروما وكلابريا ، يبثونه شكاواهم وآمالهم ويقدمون له رشاواهم . فهو سيدخل إيطاليا ليس كمجرد غاز ، أو كمجرد مطالب بميراثه فى ناپولى ؛ بل إنه سيدخلها ونجم الحرية يلمع فوق بنوده . قيل له إن الإيطاليين الذين يئنون من الطغيان سيتقاطرون على معسكره ، وإنهم سيملئون خزائنه بالأموال ، وإنه سيعيد الحكم الجمهورى إلى فلورنسة ويطرد الأرجونيين من ناپولى . ومن يدرى لعله ، وقد خرت إيطاليا المعترفة بالجميل ساجدة له ، سيطرد الأتراك من أوربا ويضع التاج الإمبراطورى فوق جبينه المكلل بالغار . قيل له أيضاً إن خيالته الذين جمعوا من نبلاء فرنسا وأشرافها ، وإن مقاتليه المرهبين من حاملى الحراب والبلط ممن أتى بهم من سويسرا وألمانيا ، وإن رماته الغسقونيين ومدفعيته الخفيفة السريعة الإطلاق ، وهى آخر ما وُفقت إليه المهارة الميكانيكية الفرنسية — قيل له إن هذا كله سيأخذ بلب أوربا بحيث لن تنساه سريعاً .

واتخذت الاحتياطات الدبلوماسية الكافية . كان شارل فى مأمن من الهجوم

من جهة الشمال الغربى ، وذلك لأنه بفضل تدبير أخته الوصية قد تزوج فى عام ١٤٩١ من آن وريثة عرش بريتانى . ولكى يعبر جبال الألب وهو خلو من المخاوف ، اشترى رضى إسپانيا بالتنازل لها عن كردانى Cerdagne وروسيون Rousillon (وهما مقاطعتان على حافة البرانس كان حنا الثانى الأرجونى قد رهنهما للويس الحادى عشر) ؛ وكذلك أمن حدوده الشرقية بالتنازل للإمبراطور عن مقاطعة فرانش كونتيه Franche Comté. ورغم هذا الإسراف فى التنازل عن الأراضى ، فقد كان ثمة مسألة عجز شارل عن أن يجد لها علاجاً . تلك هى مسألة ناپولى ؛ فما من ملك لإسپانيا يرضى بوجود الفرنسيين فى ناپولى : فالمسألة لم تكن مسألة شرف فحسب ، بل كانت صقلية بفائضها من القمح تسد دائماً العجز فى محاصيل إسپانيا الهزيلة .

ومما زاد فى مخاطر المغامرة الإيطالية — وهى المخاطر التى كانت عظيمة على أى حال ؛ إذ لا يوجد بلد متحضر آهل بالسكان يخضع برضاه لغزو أرضه على يد ثلاثين ألفاً من الجند الأجانب الماجنين — حدوث تغيير وقتى فى ظروف إسپانيا السياسية قبل ذلك بوقت قصير . فإن دولة أرجونة البحرية ، وهى الدولة التى كان بحارتها وتجارها معروفين فى كل موانى البحر المتوسط ، وقد اتحدت مع مملكة قشتالة بعد زواج فردناند وإيزابلا فى عام ١٤٦٩ . وليس من المتوقع أن يكون اتحاد سياسى مبنى على الزواج مدعاة لتغيير سيكلوجية شعبين مختلفين . ذلك أن سكان قطالونية ، التى هى أغنى وأهم مقاطعات مملكة أرجونة ، لم يتم إطلاقاً اندماجهم فى أهل قشتالة الذين يفصلهم عنهم اختلاف اللغة وكل تلك الاختلافات العميقة التى تفصل المزارعين عن ركاب البحر والتجار عن الفلاحين والنبلاء عن سكان المدن ومجتمعاً يقوم على نشاط عالمى واسع عن مجتمع يعيش معظم أهله يملؤهم الزهو وينعمون بالعزلة على نجاد عالية فى الداخل . ولكن على حين أن قطالونية لم تستسلم قط لنير قشتالة ، فإن زواج فردناند حاكم أرجونة من إيزابلا حاكمة قشتالة كانت له مزايا بلغ من أهميتها أنها ظلت باقية على الزمن . فقد ترتب على هذا الاتحاد أن أصبحت إسپانيا دفعة واحدة دولة أوربية عظمى قوية فى البر والبحر ، وسمت إلى مكانة من التفوق والمهابة فى العالم استمرت إلى نهاية القرن السادس عشر .

وآن الآن لأطماع أرجونة التى لا تهدأ ، وهى الدولة التى استولت أساطيلها على

ممالك فى جزائر البليار وصقلية ونابولى ، أن يدعمها مشاة جمعوا من حقول قشتالة ومدنها العالية . ولكن المزايا التى ترتبت على اتحاد إسپانيا لم تكن موضع تقدير ؛ فقد طبق لون من النظام على شعب يميل للعصيان ولا يخضع لنظام ، وتم ذلك على أيدى قوة مشتركة من ملكية قوية وكنيسة موالية . وبالتدريج حل محل النزعات المحلية المتنابذة تفكير أرحب أفقاً يتحرى حاجات إسپانيا وما تتيحه الدنيا الواسعة من فرص وإمكانيات . ولكن كان للمسألة وجه آخر . فإنه لما كانت إسپانيا قد ورثت سياسة أرجونة فى إيطاليا ، كان لزاماً عليها أن تقوم بسلسلة طويلة من الحروب فى إيطاليا كانت وخيمة العاقبة لها بقدر ما كانت ضارة لإيطاليا .

ذلك أن إيزابلا ، وهى من أكثر النساء اللاتى عرفهن التاريخ ضيق أفق ، وإن تكن أيضًا من أكثرهن نفوذاً ، كانت كاثوليكية متعصبة . ومن أول الأعمال الباهرة التى قامت بها المملكةالإسپانية المتحدة الاستيلاء على دولة غرناطة الصغيرة ، وهى الدولة التى كانت تحت حكم سادتها المسلمين المستنيرين قد وصلت إلى درجة من الرخاء والحضارة لا نظير لها فى أى بلد آخر فى شبه جزيرة أيبريا ، بل فى قليل من أسعد مناطق فرنسا وإيطاليا حظًّا . هل كان القضاء على هذه الدولة الإسلامية نعمة أم نقمة ؟ هذه مسألة يمكن المناظرة فيها بأساليب وحجج مختلفة . ولكن من دواعى الحكمة — على الأقل — أن نذكر أن مسلمى إسپانيا — بعكس الأتراك العثمانيين — قد استجابوا لدواعى الفن والعلوم والفلسفة ، وأن حكمهم قد تميز بالتسامح ، وأن دولتهم كانت ضعيفة لا تضر أحداً ، وأن طردهم من الأراضى الأوربية أمام الضغط الملح من جانب إيزابلا ، كان الخطوة الأولى فى سلسلة مستمرة من الاضطهاد الدينى نالت باستمرار من قوة إسپانيا وحيويتها .

قد تبدو هذه السياسة بغيضة فى عصر يتسم بالتسامح ؛ ولكنها لم تثر اعتراضًا من جانب رعايا فردناند وإيزابلا المسيحيين . فقد كانت تعاليم الكنيسة الكاثوليكية محل قبول فى كل مكان ، ولم ينكر أحد فى أى مكان المبدأ القائل بأن واجب الدولة المسيحية أن تقضى على الهرطقة فى داخل حدودها . وعلى حين كان الناس يدافعون بحرارة عن حرياتهم المحلية ، ولم تجد قضية حرية الفكر المقدسة من يعطف عليها أو يثيرها .

وهكذا كان الإدراك الغريزى العميق لحاجات البلاد السياسية معاوناً على دعم القوى الدينية المحافظة فى بلد انطبعت سياسته الخارجية زمناً طويلا بطابع الحروب الصليبية . وإن اتحاد أرجونة وقشتالة لم يفعل شيئاً لتخفيف حدة الروح الإقليمية المتغلغلة فى المقاطعات الإسپانية ؛ فالناس لا يزالون يحرصون على الامتيازات المحلية والإقليمية ويدافعون عنها بعناد شديد بحيث أصبح تأييد الكنيسة وعونها بوصفها النظام الأوحد العام فى إسپانيا كلها وموضع التبجيل من جميع أهلها أمراً بالغ الأهمية للحكومة .

وقد بلغ من توفيق ملوك إسپانيا فى كسب الولاء الكامل لقسيسيهم أنك لن تجد كنيسة پروتستانتية واحدة قد خضعت تمام الخضوع للحاكم الزمنى خضوع كنيسة إسپانيا الكاثوليكية لملكها فى العهد الذى بلغت فيه الإمبراطورية الإسپانية أوج عظمتها . فقد كون الملك والكنيسة ، والكنيسة والملك ، أداة واحدة متماسكة هما نشر العقيدة الكاثوليكية والدفاع عنها .

وعلى النقيض من ذلك التركيز الصارم فى العقيدة الدينية ، ذلك التركيز الذى جعل حكم إسپانيا فى كل مكان مرادفاً لاضطهاد العقائد المخالفة ، على النقيض من ذلك اتسع الأفق السياسى والاقتصادى لإسپانيا اتساعاً مفاجئاً واسع المدى . أصبحت فرنسا عدواً لإسپانيا ، وإيطاليا مسرحاً للحرب ، وإنجلترا حليفة ، والإمبراطورية الرومانية المقدسة والأراضى المنخفضة — بطريق الزواج — توابع لها ، والمحيط الأطلنطى ممراً يوصل إلى ممتلكات إسپانيا فى أقصى الغرب ، وهى أراض لا يحدها حد ، غامضة تحوطها الأسرار . وباتساع النشاط فى المحيطات ، دبت حياة جديدة فى موانى بسكاى وسانتندر وڤيجو والفيرول وقادس وإشبيلية . وتزاحم الناس على مغامرات جديدة ، وظهرت خصومات جديدة ، وتكونت أحلاف جديدة هجومية ودفاعية . وكان لزاماً على الدبلوماسية الإسپانية أن تنشط العمل على نطاق واسع . وليس فى وسع أحد أن يأخذ على السياسة الإسپانية فى العصر الذى بدا الآن أنها كانت تعانى تركيزاً فى الفرص لا محل له أو ضيق أفق مخز ؛ بل إن الخطر كان يكمن فى التشتت المفرط بين أهداف يختلف بعضها عن البعض الآخر : كإعادة تنظيم داخلية البلاد واحتلال أراض فى إيطاليا ، ومناضلة فرنسا

واستعمار القارة الأمريكية وسكناها .

ولو كانت الملكية الإسپانية تتصف بخيال بحرى ناضج ، لربما أضافت إلى سياساتها المتعددة احتلال البرتغال أو ضمها إلى الأملاك الإسپانية . كان هذا الجار ، الذى لم يتحل بخلال الجيران ، يقوم حينئذ بقيادة العالم الغربى فى مضمار النشاط البحرى . وكان ملاحو البرتغال قد وضعوا أيديهم على ثروة غينيا ولامسوا رأس الرجاء الصالح ، وكانوا على وشك الالتفاف حول شاطئ إفريقيا وفتح طريق جديد للثروة والفتح فى الهند . وكان من شأن ذلك كله أن يغرى بالعدوان منافساً متقداً فى مجال النشاط الاستعمارى . وكان من الممكن حينئذ أن يقال – كما ذهب كاتب برتغالى فى عام ١٦٢٤ (حين كانت البرتغال قد اتحدت بالفعل مع إسپانيا) – إن لشپونة هى العاصمة الحقيقية لشبه جزيرة أيبريا وأن سواحل الأطلنطى هى مركزها العصبى وأن أهم أهدافها السياسية تحطيم القوة البحرية المعادية حيثما وجدت . ولو قد قدر لهذه الآراء أن تتغلب فى نهاية القرن الخامس عشر ، لكان من المحتمل أن تتلطخ طلائع ارتياد المحيط الأطلنطى بدماء حرب أهلية بين دولتى شبه جزيرة أيبريا المسيحيتين .

ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث . فإن فردناند وإيزابلا – اللذين لم تراودهما كثيراً أحلام البحر – عزما على أن يرتبطا بالبرتغال بروابط تحالف أسرى يكون من القوة بحيث يقاوم إلحاح المنافسة الاستعمارية بين الدولتين . وهكذا عندما سارت إسپانيا فى إثر البرتغال وطالبت بنصيبها فى العالم الجديد ، حال تحكيم البابا دون نشوب الصراع . وقد هوجم حكم إسكندر السادس القاضى بأن تقتسم إسپانيا والبرتغال كل الأراضى والجزائر التى تم اكتشافها بالفعل ، أو تلك التى ستكتشف بعد ذلك « فى الغرب فى اتجاه الهند أو المحيطات » – هوجم هذا الحكم باعتباره اعتداء وقحاً على حرية البشر . وهذا الحكم واحد من تلك التدبيرات السياسية التى لا بد من انهيارها أمام ضغط الحوادث ، مهما كانت فائدتها باعتبارها توفيقاً مؤقتاً بين مصالح متعارضة . فإن الناس فى فرنسا أو هولندة أو إنجلترا لم يروا فى هذا الحكم البابوى أمراً يمكن التسليم به ؛ وتساءلوا : بأى حق يقصر البابا – وبابا إسپانى بالذات – العالم الجديد على الإسپان والبرتغاليين ؟ وهل من مصلحة البابوية أن

تربط نفسها فى هذا الوقت المبكر بالمبدأ القائل بأن الهند وأمريكا قد أقفلتا إلى الأبد أمام ملاحى الشمال؟ على أن أداة — مهما تكن قاصرة — تنجح لوقت ما فى وضع صيغة ملائمة تحسم الخلافات بين دول متنازعة بتحديد مناطق نفوذ كل منها — مثل هذه الأداة لا يمكن إدانتها برمتها . فإن المراسيم البابوية الخمسة التى أصدرها إسكندر السادس قد حققت غرضاً نافعاً وإن يكن وقتياً . ذلك أنها كانت الأساس الذى قامت عليه معاهدة تورد سيللاس (٧ يونية ١٤٩٤) التى قضت بأن تأخذ البرتغال كل شىء شرقى خط يرسم بطول المحيط الأطلسى على بعد ٣٧٠ ميلا غرب جزائر الرأس الأخضر ؛ على حين يعطى لإسپانيا كل شىء يقع غربى هذا الخط . وهكذا مكن ذلك الخط المرسوم البرتغال من المطالبة بالبرازيل وحدها .

ولقد كان من محض الصدفة أن يقوم كرستوفر كولمبس برحلته الاستكشافية المشهورة تحت العلم الإسپانى . كان قد عرض سره الدفين وحماسته الدافقة على كل من البرتغال وإنجلترا وفرنسا . وقد بحثت لجنة إسپانية مشروعه لمدة خمس سنوات ثم رفضته ، ولم يعدل هذا القرار غير المناسب نهائياً إلا بشق الأنفس وبنفوذ كاهن وسيدة ذات حظوة كبيرة لدى الملكة . كان كولمبس ملاحاً ممتازاً ، وقد سما إلى درجة العظمة بتصميمه الدافق على تحقيق حلمه حتى انتصر فى النهاية ، وذلك رغم ما صادفه من صد ومن عقبات كانت قمينة بأن تثبط همم رجال أتوا حظاً وسطاً من الشجاعة . وبعد أن عبر الأطلنطى فى ثلاث قوافل بحرية صغيرة ، وصل إلى جزيرة واتلنج Watling التى هى إحدى جزائر البهاما وذلك فى ١٢ أكتوبر ١٤٩٢ ، وأطلق عليها اسم سان سلڤادور San Salvador . كان قد أبحر منذ خمسة أسابيع فى بحر موحش مجهول ، مستكناً بإيمانه الذى لا يقهر هواجس بحارته المتمردين ، إلى أن وصل إلى ما اعتقد حتى آخر حياته أنه الطرف الشرقى لآسيا . وإن اكتشافه جزائر الهند الغربية هو المقوم الحقيقى لشهرته ، وإن أول رحلة له عبر الأطلنطى هى أعظم أعماله ؛ ذلك لأنه لم يوهب المقدرة على معالجة مشكلات الاستعمار الدقيقة أو حكم الناس على الأرض ؛ تلك المشكلات التى ملأت رحلاته الأخيرة بالمرارة ، فاعتقد أن استرقاق أهالى البلاد من الهنود هو خير ما يمكن عمله لهم . وقد بدا للمضاربين من التجار الذين كانوا يحومون حول بلاط برشلونة أن عدداً

قليلا من العبيد الذين لا يمكن فهمهم وحفنة من ذهب إنما هى جزاء حقير لسلسة متتالية من الرحلات الباهظة التكاليف ، وبديل يبعث على السخرية لتوابل الشرق التى يتطلعون إليها . فأقصى الملاح العظيم عن قيادته وأعيد إلى إسبانيا مكبلا بالأغلال ليواجه الحقد الدفين من جماعة المستثمرين الذين خابت آمالهم والغيظ الأشد من جانب المستعمرين العائدين إلى إسپانيا . ومات كولمبس فى عام ١٥٠٦ فى إسپانيا ، البلد الذى اتخذه وطنًا له ، مغضوبًا عليه مجللا بالمهانة . ورغم ذلك فهو مكتشف أمريكا ؛ وقد خلد التاريخ اسمه أبد الدهر .

ولا يمكن القول بأن الدافع لاكتشاف العالم الجديد لا يتعدّى الرغبة فى الحصول على التوابل والذهب ؛ إذ اختلطت المشاعر الدينية بالمطامع الاقتصادية . ففى الڤاتيكان — وخصوصًا لدى الفرنسسكان الذين كانت مشروعاتهم التبشيرية تمتد إلى العالم بأسره — كانت مشروعات البرتغال وإسپانيا تثير أكبر قسط من الاهتمام ، لا لأنها قمينة بأن تهيئ السبيل إلى تنصير الوثنيين فحسب ، ولكنها ستفضى أيضًا إلى شن هجوم على المسلمين من ناحية الشرق . كان المعروف أن نجاشى الحبشة مسيحى ، وكان المعتقد أنه لا تزال توجد فى الهند ، نتيجة لبعثة القديس توما ، دولة مسيحية يحكمها عاهل يعرف بالخان الأكبر . وكان يداعب أوربا الكاثوليكية أمل كبير فى أن تتلقى من هؤلاء الملوك الشرقيين البعيدين مساعدة فعالة فى حرب صليبية ضخمة أخيرة تشنها على المسلمين . تلك هى « خطة الهند » كما رسمها نقولا الخامس منذ وقت مبكر يرجع إلى عام ١٤٥٤ فى مرسوم بابوى أرسله إلى ملك البرتغال . وفى هذا الجو المفعم بالآمال الكبار أقلع كولمبس ليكشف الطريق إلى الهند غربًا .

وفى تلك الأثناء كان ضغط الأحداث البعيدة يمهد لاندماج غير طبيعى بين ثلاث دول تختلف كل منها عن الأخرى اختلافًا كبيراً ، هى إسپانيا والأراضى المنخفضة واتحاد ألمانيا الإمبراطورى ، فقد تمخض عن زيجتين مشئومتين وخمس ميتات غير متوقعة تغيير لمعالم السياسة الأوربية . ففى عام ١٤٧٧ تزوج مكسمليان ابن الإمبراطور فردريك الثالث ووريثه ، تزوج مارى وريثة شارل الجسور صاحب برجندية . ومرت السنون . وتوفيت مارى ، وأصبح

مكسمليان وصياً على الأراضى المنخفضة ، وفى عام ١٤٩٣ خلف والده فى منصب الإمبراطور الرومانى المقدس . أما فيليب ابن زوجته البرجندية ، وهو شاب رقيق أنيق ، فقد دخل فى طور الرجولة ؛ ولما كان وريثاً لثروة عظيمة ، فقد اشرأبت إليه الأعناق . ومنذ وقت مبكر فى عام ١٤٩١ دار الحديث عن زواج الأرشيدوق الفلمنكى من جوانا الابنة الثالثة للملكى إسبانيا . وكان الابنان صغيرين ، ودارت المفاوضات فى أناة ؛ ومع ذلك فقد تم عقد الصيغة فى عام ١٤٩٦ : وأصبحت جوانا الإسپانية زوجة لفيليب صاحب الفلاندر . من كان يستطيع حينئذ أن يتنبأ بالمصير المختلف تماماً الذى كان ينتظر الزوجين السعيدين ، أو النتائج البعيدة المدى لزواجهما ؟ من كان يستطيع حينئذ التنبؤ بالموت المبكر الذى قضى على فيليب الأنيق ، وجنون زوجته ، وتلك السلسلة الطويلة من الجنائز المفجعة التى حملتها إلى عرش إسپانيا على نحو لم يتوقعه أحد قط ، أو ذلك الأفق العريض من السلطات والعزة التى تفتح لابنها الصغير الوارث لحكم إسپانيا والأراضى المنخفضة والذى قدر له أن يخطو على إثر جده مكسمليان فيحمل تاج الإمبراطورية ؟ وهكذا بينما كانت الأحداث تجرى على هذا النحو لتمهد لإمبراطورية شارل الخامس ، كان من الطبيعى أن تركز السياسة الإسپانية جل اهتمامها على العالم القديم وليس على العالم الجديد .

ومن الصعب لوم معاصرى شارل الثامن لاعتقادهم أن إيطاليا التى قطعت شوطاً بعيداً فى التفكك السياسى — وإن تكن قد أصابت شهرة واسعة بسبب تراثها وثقافتها — غنيمة تفضل بكثير الجزائر التى اكتشفت وشيكاً فى الطرف الآخر للأطلنطى ، وكان يتحدث عنها بحارة نحاسيو الوجوه على أرصفة برشلونة ولشبونة . فإذا كان لابد من إيجاد ميدان للفتح والتوسع ، ففى إيطاليا حقل يمكن جنى ثماره على وجه السرعة . ولكن مما يؤسف له أن حكام فرنسا وإسپانيا ، رغم حاجات رعاياهم ومغريات العالم الجديد ، قد بددوا قواهم لفترة تزيد على الستين عاماً فى نضال هدفه السيطرة على إيطاليا ، فأنزل بهم جميعاً أضراراً فادحة وأذل بلداً متحضراً ومسالماً نسبياً أرغمته الظروف على أن يصبح مسرحاً لحرب بشعة .

وقد قيل فى معرض التهوين من هذه النتائج الخطيرة إنه لولا وجود الجيوش الفرنسية والإسپانية فى إيطاليا لكان الأتراك قد استولوا عليها . كذلك يمكن القول

أيضًا أن هذه الحروب التي لا هدف لها قد تمخضت عن بطولة بايار Bayard[1] وعن الأشعار الرائعة التي أودعها أريوستو Ariosto[2] ملحمته « أورلاندو غاضبًا Orlando Furioso . إن مثل هذه التخمينات الوهمية قد تصلح عزاء ، ولكنها لا تقيم دفاعًا .

وكانت حملة شارل الثامن (١٤٩٤) على إيطاليا — كما كانت الغزوات الفرنسية التالية لهذه البلاد — لا تعدو أن تكون قصة نصر سريع تعقبه نكسة مفاجئة كاملة . وقد ابتسم الحظ في البداية للجيش الفرنسي بمظهره البراق وهو يحمل معداته الحربية التي تمت إلى العصور الوسطى ويسوق قطاراً طويلا من المدافع الفاخرة ولم يكن لدڤيكو سفورزا Ludovico Sforza حاكم ميلان الذي دعا بنفسه تلك الحملة ، لم يكن بالرجل الذي يعترض تقدمها . أما ساڤونارولا Savonarola الراهب الدومينيكاني — وهو أحد أولئك الوعاظ المتشردين العظام الذين يظهرون بين وقت وآخر في بلاد جنوب أوربا اللاتينية والكاثوليكية ، فقد رحب بالفرنسيين باعتبارهم محررين لفلورنسة المدينة التي اتخذها وطناً له. وفتحت روما أبوابها . وغدا شارل دون أن يطلق رصاصة سيداً على مملكة نابولي . ولكن حينئذ ، وقد تحققت أهم أغراض الحملة ، أطلت الصعوبات الحقيقية برأسها . فلم يكن الجيش الغازي الذي انتظم جنوداً من الألمان والسويسريين ، كما صوره خيال ساڤونا رولا ، سرباً من ملائكة مطهّرين حلقوا فوق إيطاليا يحملون رسالة لوضع حد للبذخ والسرف ومساوئ الكنيسة البابوية ؛ بل كان ، كما يتوقع من القوات الفرنسية والألمانية في ذلك الوقت ، جيشًا فاسد الخلق منحلا فظًّا (رغم بعض الاستثناءات المشرقة) . وكلما مضت الحملة جنوبًا خلفت وراءها لهيبًا من السخط المحتدم . وسرعان ما تكونت عصبة إيطالية هدفها طرد الغزاة واعتراض طريق تقهقرهم . وفي ساحة فورنوڤو Fornovo شق شارل طريقه بين صفوف العدو (١٤٩٥) ورجع إلى فرنسا مكللا بهذا النصر ، ولكن بعد أن خسر كل شبر من الأراضي الإيطالية .

---

(١) ١٤٧٣ — ١٥٢٤. ينتسب بايار إلى أسرة فرنسية نبيلة سقط معظم كبار رجالها في ميدان القتال طيلة قرنين من الزمان . وقد أبدى ضروباً نادرة من الشجاعة أثناء الحروب الإيطالية .

(٢) ١٤٧٤ . ١٥٣٣ . الشاعر الإيطالي .

وبفضل النصر الذى أحرزه شارل فى فورنوڤو ، ولكن أكثر من ذلك بفضل معيشة الجيش الفرنسى على موارد أرض العدو ثم عودته إلى فرنسا محملا بالغنائم ، استعادت فكرة الحرب الإيطالية بريقها فى فرنسا . وحين توفى شارل (١٤٩٨) اجتذب سراب المجد الإيطالى الخادع ابن عمه ووريثه على العرش لويس الثانى عشر (١٤٩٨ — ١٥١٣) صوب الجنوب . وتكررت نفس القصة القديمة : انتصارات سهلة أعقبتها ارتباكات خطيرة ؛ ثم هزائم فى إيطاليا ، بل غزو فرنسا ذاتها فى نهاية الأمر . فتح الفرنسيون ميلان ثم أضاعوها ، واقتسموا ناپولى مع إسپانيا ثم أضاعوها ، وطردت البندقية من أملاكها على الأراضى الأوربية على يد عصبة تكونت من فرنسا والبابوية والإمبراطورية ، ثم أعيدت إلى ما كانت عليه على يد تحالف بابوى تكون ضد فرنسا . وهكذا فى هذا الجو المتقلب ، جوّ الدبلوماسية الإيطالية ، كان صديق اليوم عدو الغد . كان يوليوس الثانى ، البابا المحارب ، الذى ساعد فرنسا ضد البندقية هو — بعد وقت قصير — الذى دبّر العصبة المقدسة لطرد الفرنسيين من إيطاليا ، ولم يكن بوسع لويس الاعتماد على أية صداقة إيطالية راسخة . هزمت جيوشه فى نوڤارا (١٥١٣)، وبعد أن جُرد من كل فتوحه الإيطالية رجع إلى فرنسا لكى يواجه الإنجليز الذين استولوا على تورنى Tournai والبرجنديين الذين كانوا يحاصرون ديجون . تلك هى المذلات التى أصابت « أب بلده » فى النهاية لإغراء إيطاليا . استولى على ميلان وناپولى وأراضى البندقية ثم أضاعها جميعًا ؛ وغزيت أراضى فرنسا فى موضعين . ولكن الدرس مضى دون أن يثمر شيئًا . ذلك أن فرنسوا الأول (١٥١٥ — ٤٧) ابن أخ لويس الثانى عشر ، وهو شاب ذواقة للفنون ملتهب الشعور يميل إلى الانطلاق ، لم يكن بالرجل الذى ينسى أن عمه قد طرد من ميلان على يد جيش من صعاليك فلاحى سويسرا . وعبر فرنسوا جبال الألب وواجه الجند السويسريين المرتزقة الذين كانوا يحرسون ميلان ؛ وقد مكنه النصر الباهر الذى أحرزه فى مارنيانو Marignano (١٥١٥) من استرداد لومبارديا لفرنسا ، ولكن إلى حين .

وفى تلك الأثناء كانت الأمور تجرى باطراد معاكسة للأمل فى فوز دائم للفرنسيين فى إيطاليا . كانت إسپانيا ، منافسة فرنسا ، تتمتع بميزة السبق فى البحر

وقوتها الحربية من المشاة أقوى ، وثروة العالم الجديد بدأت تعرف طريقها إلى خزائنها . وفى عهد فردناند الكاثوليكى (١٤٧٩ — ١٥١٦) كانت إسپانيا من القوة بحيث استطاعت طرد الفرنسيين من ناپولى . وفى عهد حفيده الفلمنكى شارل (١٥١٩ — ١٥٥٦) غدت إسپانيا أكثر قوة بفضل الجزية التى تحمل إليها من الأراضى المنخفضة ، ثم منذ عام ١٥١٩ بفضل الموارد البشرية التى تجلب إليها الإمبراطورية . ولكن كلما مضت الأيام استجمعت المقاومة قواها وأتت إليها المساعدات من كل جانب . فنى خلال جيل واحد امتشق البابا وميلان والبندقية والسويسريون وإسپانيا والفلاندر والإمبراطورية الحسام للحيلولة دون سيطرة فرنسا على إيطاليا . ولكن فرنسوا الأول ظل متمسكاً بمشروعاته الإيطالية ؛ ورغم هزيمته وأسره فى باڤيا Pavia (١٥٢٥) لم يتحل مواطنوه من مشروعهم اليائس أو يتنازلوا عن ادعاءاتهم فى إيطاليا إلى أن وقع هنرى الثانى معاهدة كاتو كمبرسيس Cateau Cambrésis فى عام ١٥٥٩ . كانت المعاهدة نصراً لإسپانيا ؛ وكانت النتيجة القصوى لنزهة الفروسية التى أقدم عليها شارل فى خفة ونزق هى تسليم لمپارديا وناپولى للحكم الإسپانى الصارم المحافظ ، وأفول النهضة الإيطالية ، واختفاء الخيال الإيطالى الرحب وراء غيوم من الطغيان الإسپانى وتحكم رجال الدين ، وهو الخيال الذى كان فى وسعه أن يثير أجواء من البهاء لا يمكن أن تبارى ، ولكن كان فى وسعه أيضاً أن يقبل — فى سخرية وصبر — صرامة الطغيان والهزيمة .

كان لإيطاليا منذ زمن بعيد تأثير قوى فى شمال أوربا ، إن لم يكن لشىء ، فهو على الأقل لوجود روما وتأثيرها . فنى خلال القرن الخامس عشر كان يأتى إليها طلاب العلم من إنجلترا وألمانيا وفرنسا للدراسة فى جامعاتها ، ثم يعودون إلى بلادهم مزودين بأكداس من المعارف الطبية والكلاسيكية . وعلى فرض أن شارل الثامن لم يعبر الألب على الإطلاق ، فقد كان لابد أن يأتى الوقت للنهضة الإيطالية لتؤثر فى حياة الشعوب الشمالية . ولكن الحرب تسرع الخطى بعجلات التاريخ : فالعمليات التى تسير بطيئة وتدريجية فى الأحوال الأخرى تصبح حينئذ — فى ظروف الحرب — سريعة تتدفق حيوية ؛ فكل حرب رحلة استكشافية ، وكل اتصال دپلوماسى كشف الطبيعة الأجانب البشرية . وكذلك كان الشأن فى هذه الحروب

الإيطالية : فهى قد عجلت — إن لم تكن قد سببت — انتشار النهضة الإيطالية لدى شعب الشمال .

ومن الشخصيات التى وقفت على المسرح الإيطالى وظهرت أمام أعين أوربا عامة حين ارتفع الستار فى عام ١٤٩٤ شخصية رودريجوبورچيا Rodrigo Borgia (١٤٩٢ — ١٥٠٣) ، وهو إسپانى ثرى كان قد رشى المجمع المقدس منذ عامين ليحصل على منصب البابوية ، واتخذ لنفسه اسم إسكندر السادس . وهناك من يتلمسون الأعذار لكل شىء : فأعين النقد الحديثة التى تجنح إلى التسامح تجاوزت عن أخطر التهم التى ألصقها بهذا البابا معاصروه قانعة بأن تترك منها كنزوات مقررة بيع وظائف الكنيسة والمتع الدنيوية وأعمال الغدر والاغتيال بالسم . وفى حياة أى نظام فترات يكون فيها للطباع الحيوانية الخشنة فوائدها . ولم يكن هذا البابا الإسپانى الضخم أخشن ولا أفسق ولا أقسى من الأسرات الفظة البارزة فى روما ووسط إيطاليا التى صرف همه إلى سحقها . فهو إن كان قاتلا ومتآمراً فقد عاش فى جو من الاغتيال والتآمر . فإن إنشاء دولة بابوية خاضعة له فى وسط إيطاليا ، وهو ما كان يعمل له ، لا يكون بالكلمات المعسولة والرياضات الروحية ، بل بالقوة والغدر ، بالإدارة والمال . وفى هذا المجال كان إسكندر فى موضعه الحق ؛ كان يعمل — فيما يعمل — لمصلحة الكرسى البابوى ، ولكن كان من الواضح أنه كان يعمل فوق ذلك لإعلاء شأن أسرة بورجيا . وقد سجل مكياڤيللى فى كتاب « الأمير » كيف عمل قيصر بورجيا ، الابن اللامع للبابا ، على مساعدة أبيه فى إقليم رومانا ، وذلك المعين من أعمال البطش والغدر التى استخدمها لهذا الغرض . وقد رأى مكياڤيللى — كما سبق أن ذكرنا — فى حياة المغامر المعدوم الضمير نموذجاً لفن السياسة الجديد الذى لا تنال منه شفقة ولا تؤثر فيه أخلاق أو عقيدة دينية .

وكان مظهر الفساد الذى تقدمه روما فى عهد آل بورچيا مثيراً لاشمئزاز الطباع الروحية . وقد كتب ساڤونا رولا : « إن الفساد يبدأ فى روما ، ثم يمتد إلى الإكليروس جميعاً ؛ إنهم أسوأ من الأتراك ومسلمى المغرب . سنرى أن الجميع فى روما قد جمعوا ثرواتهم عن طريق بيع الوظائف الدينية : فهم يشترون الحظوة ثم يخلعونها على أبنائهم أو إخوتهم الذين يحصلون عليها بالعنف وبكل الوسائل الآثمة . إن

شراهتهم لا تخمد وهم يرتكبون كل شيء للحصول على الذهب . إنهم لا يدقون أجراسهم إلا فى مقابل المال والشموع ؛ وهم لا يحضرون التراتيل والصلوات والقداس إلا إذا توقعوا كسباً . إنهم يبيعون دخل كنائسهم ، ويبيعون القربان المقدس ، ويتجرون فى القداس . . . وإذا ما عاش قس أو كاهن حياة عادية فهم يسخرون منه ويقولون إنه منافق . وأصبح من الشائع أن الجميع يحذّرون من روما وأن الناس يقولون : « إذا أردت أن تحطم ابنك فاجعله قساً » . هذه اللهجة قد تحوى بعض المبالغة ، ولكن الاتهام كان حقيقياً فى أساسه . ورغم أن أوربا الكاثوليكية كانت فى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر تزخر بالحياة الدينية الأصيلة ، ورغم أن وجود رجال مستقيمين وقديرين قاموا بمجهود جدى لتحسين التعليم والمعرفة وإصلاح مفاسد الكنيسة — ومن هؤلاء هجيوس Hegius [1] فى دفنتر Deventer من أعمال الأراضى المنخفضة ، ونقولا الكوزى Nicholas of Cusa [2] فى ألمانيا والأسقف كولت Dean Colet فى إنجلترا — رغم ذلك كله أضاعت روما مركزها فى القيادة الروحية لأوربا . لن تجد بلاطاً كبلاطها فى سوء سمعته فى الشره والفساد والرذيلة . ومنذ عام ١٤٩٩ كانت الأحاديث تجرى على ألسنة الناس عن احتمال انفصال ألمانيا وإسپانيا عن روما .

وزاد الانحلال الروحى الذى أصاب روما أهمية ما تفجر فى شمال أوربا من روح جديدة تقوم على الاحتكام إلى العقل . وكان إرزمس Erasmus من روتردام (١٤٦٧ — ١٥٣٦) هو البشير بهذه الروح وداعيتها ، ما بقيت هذه الروح فى نطاق الكاثوليكية الأصيلة . وقليل من الرجال من كان له على جيله تأثير أقوى وأنفع من تأثير ذلك البحاثة الهولندى الرقيق المفلس الضئيل الحجم . انكب إرزمس على نفسه فى حرارة متقدة فى الأراضى المنخفضة وإنجلترا وفرنسا وإيطاليا حتى غدا لدرجة لا يدانيه فيها أحد — إلى أيام ڤولتير — الزعيم المعترف به لحركة الاستنارة فى أوربا .

(١) حوالى ١٤٣٣ — ١٤٩٨ م . إنسانى ألمانى سمى بهذا الاسم نسبة إلى موطنه الأصلى هيك Heck فى وستفاليا .

(٢) ١٤٠١ — ١٤٦٤ . كاردينال ومتفقه فى شئون الدين وبحاثة . سبق كوپرنكوس فى القول بحركة كونية ليست الأرض مركزها ، بل تشترك فيها . أشهر مؤلفاته عن الإنسان والدين كتاب « الجهالة المتأصلة De Docta Ignorantia » .

وقد تأثر إرزمس — ككل رجل مثقف فى عصره — بالدراسات القديمة اليونانية واللاتينية التى كان من دواعى مجد إيطاليا أن أحيتها . ولكنه كان يختلف عن كثير من البحاثة الإيطاليين فى أنه لم يكن وثنياً ولا محباً للجمال ولا متعلقاً بما وراء الطبيعة ؛ ولكنه كان مسيحياً عادياً مستمسكاً بالدين القويم ؛ كما أنه كان إلى حد ما ضحل الخيال — وتيرنس Terence[1] هو شاعره المفضل — ولكنه كان زاخر المواهب فى الإشراق والحكمة والفهم والاعتدال والذكاء الوقاد ، وهى مواهب أهلته لحمل رسالته للعالم أجمع . كان صاحب رسالة وكان داعية كما كان عالماً . كان يمقت الافتخار بالعلم والحذلقة والخرافة والجهل والغباء والعنف والرذيلة ؛ وقد وجه نشاطه الأدبى الطويل المتواصل لمقاومة هذه الشرور مقاومة باهرة متصلة . ورغم أنه تردد على بعض الجامعات — بل إنه شغل كرسى اللاهوت فى كيمبردج بعض الوقت (١٥٠٠ — ١٥١٣) — إلا أنه لم يكن جامعياً يدل بعلمه ؛ بل كان مواطناً فى هذا العالم يهتم بالسلوك قبل كل شىء ، كما اهتم أشد الاهتمام بجعل المعرفة فى متناول الناس العاديين وبتوسيع آفاقها . وقد أراد بوجه خاص أن يرى أسفار الكتاب المقدس مترجمة إلى كل اللغات ، وقال فى ذلك : « يشوقنى أن أرى الفلاح يتلوها وهو يسير وراء محراثه ، وأن يرددها النساج على أنغام منسجه ، وأن يستعين بها المسافر على متاعب رحلته » . بل إن أعماله الأكثر عملية — كشرحه لنسخة الإنجيل اليونانية ولما كتبه الآباء الأولون — تشف عن اهتمامه بمطالب القارئ العادى . وقد قر قراره على أن يرد الإنجيل اللاتينى إلى أصله اليونانى ، وأن يتحول عن محاورات المتفقهين فى الدين من المدرسيين القائمة على الحذق والمهارة إلى تعاليم الآباء الأولين التى كان يرى أنها تحوى روح الكنيسة الأولى نقية غير ممسوخة . وكان لب إيمانه — كإيمان النحوى — بقواعد لغته أن المسيحية الحقة الأصيلة قد غطى عليها ركام من أفكار عصور متتالية ، وأن من الممكن بعثها ببذل جهد كبير من الدراسة العلمية الجادة الواسعة الأفق .

وبالإضافة إلى التوجيه الجديد النافع الذى أضفاه إرزمس على الدراسات الإنجيلية ، وقف يبشر بكاثوليكية إنسانية متسامحة مستنيرة . لم يتردد فى أن يصب

(١) حوالى ١٩٠ — حوالى ١٥٩ ق . م . شاعر كوميدى إيطالى .

احتقاره على الرهبان الجهلة الخاملين ولا على الخرافات الكامنة فى عبادة المخلفات الدينية والمساوئ المتصلة بالحجج وبيع صكوك الغفران ، ولا على غيرها من مفاسد الكنيسة الشائنة ؛ وقد شاعت سخريته التى صاغها فى لاتينية حية محببة إلى النفس على كل لسان فى دنيا الأدب . ولكن روح النقد عنده لم تكن من العنف بحيث تصل به إلى حد الهرطقة أو الثورة . وفى البحث الذى وضعه إرزمس تحت عنوان « مرجع الجندى المسيحى Enchiridion Militis Christiani » (١٥٠١) عبر عن البشير الخالد للإيمان المستكن فى القلب الذى يستغنى عن السلوك والطقوس الظاهرة ، ويجد غذاءه فى الاستغراق فى النصوص المقدسة . ومن الواضح أنه لم يكن يعبأ بما وراء المبادئ الدينية من غموض أو مهارة فى الصيغ .

وقد أصابت كتاباته شهرة ضخمة منقطعة النظير . كانت محادثاته (Colloquies) وإشادته بالحماقة (Praise of Folly) وأمثاله السائرة (Adagia) فى طليعة كتب الأدب المطبوعة غير المتصلة بالمسائل الدينية التى أصابت رواجاً كبيراً . ولم يسبق قط أن استخدمت موهبة السخرية بمثل هذه المهارة . وقد جعل هذا الساخر الساحر الخفيف الظل من طبقة رجال الدين — وهى الطبقة التى كانت يوماً ما مهيبة الجانب وذات نفوذ ضخم — موضوعاً للتسلية والاحتقار . هاجم شرور الحرب وفساد أساليب التربية العتيقة وفراغ الحياة الدينية السائدة ، وعرّض بكل ذلك فى إخلاص زاد فى وقعه خلوه من ثقل الأسلوب والتعصب والهوى . وجاء وقت سار فى نفس الاتجاه مع لوثر ، ولكنهما لم يلبثا أن افترقا : إذ خرج لوثر على روما ؛ أما إرزمس فكان يؤمن بإمكان إصلاح الكنيسة الكاثوليكية من الداخل . والروح العنيفة المتعصبة التى لابست حركة الإصلاح البروتستانتى لم يستسغها المزاج الإنسانى المتسامح لذلك البحاثة الهولندى . وبينما كانت ألمانيا تضطرم بالنضال الدينى ، كان إرزمس — فى عزلته الهادئة فى بازل (١٥١٤ — ٣٥) — يحاول ، بسلسلة متقنة من الشروح والترجمات عن « الآباء » الأولين ، أن يحيى روح المسيحية الأولى وأفكارها لما فيه توجيه الكنيسة الكاثوليكية .

إن أهمية إرزمس فى تاريخ أوربا ترجع إلى أنه — فى عصر النهضة — قد مثل فى رونق وبراعة لا تدانى ذلك الإرث من الثقافة المسيحية والكلاسيكية ، وهو

الإرث الذى كان — ولا يزال — ملكًا مشاعًا لأوربا كلها . وسيبقى اسم إرزمس شامخًا فى كل قائمة تحوى حيرة الأوربيين . كان صاحب تلك الفكرة الداعية إلى تنظيم أوربا لتحقيق أهداف عقلية ، بحيث تكون مخلصة لماضيها بعد تنقيته من المساوئ التى علقت به ، ومرتبطة جميعًا برابطة باقية من السلام والأخوة . ولا يزال مثل هذا الوحى طلبة ذلك النفر القليل من الإنسانيين الذين يحاولون فى كل قطر أن يخففوا من مرارة الحياة السياسية .

كتب يمكن الرجوع إليها

— J.S.C. Bridge, A History of France from the Death of Louis XI. (1921).

— H. Lemonnier in Lavisse, Histoire de France, Vol. V.

— R.B. Merriman, The Rise of the Spanish Empire. (1918-25).

— J. Fiske, The Discovery of America. (1892).

— C.R. Markham, Life of Cristopher Colombus. (1892).

— E.I. Payne, History of the New World called America. (1892-9).

الفصل السابع

خطر الأتراك العثمانيين

سليم الأول وسليمان القانونى – الاستيلاء على رودس – جورج بودبراد George Podiebrad ومتياس كورفينوس Matthias Corvinus – معركة موهاكز Mohacs – عواقبها على النمسا .

لم يكن سقوط القسطنطينية بالنسبة إلى محمد الفاتح بمثابة النهاية ؛ بل إنه كان بداية لما ما بعدها . فقد اعتبر هذا الحاكم الكفء الطموح نفسه مبعوثاً برسالة هدفها ضم العالم إلى دار الإسلام ، مثله فى ذلك مثل لنين الذى ظهر بعده بمدة طويلة ، وتطلع بعمليات أخرى أقل شأناً من العمليات الحربية إلى تحويل الجنس البشرى إلى العقيدة الشيوعية . كان لمحمد الفاتح من شعبه المطواع الذى درب على تحمل كل المشاق عدا التفكير المستقل ، ومن جيشه المحترف المتمرس وطوابير مدافعه الجيدة ، ما أعطاه ميزة السبق على أعدائه المنقسمين على أنفسهم . كان دوى المدافع التركية يقصف على الفرات والدانوب وشاطئ ألبانيا ؛ وحين توفى السلطان فى عام ١٤٨١ كانت قد دانت له آسيا الصغرى وبلاد اليونان ومعظم شبه جزيرة البلقان . وكان الأتراك قد وضعوا أقدامهم على جانبى بحر الأدرياتيك بعد استيلائهم على الجزائر الأيونية وإشقودره وأوترانتو وهددوا سلامة إيطاليا وأوربا .

وبعد فترة قصيرة من حكم بايزيد المجنون ، تجدد سير الفتوح التركية على أيدى شخصيتين من أبرز شخصيات آل عثمان . فإن سليما الأول الذى خلع والده بايزيد فى عام ١٥١٢ هو – بعد جده محمد – أكبر بناة تلك الإمبراطورية التركية الواسعة التى تحملت تقلبات قرون عدة ولم تسقط إلا بفعل الصدمة الهائلة التى أصابتها فى الحرب العالمية الأولى . فسليم هو الذى فتح سورية ومصر وبلاد العرب ونقل الخلافة إلى بيت عثمان بعد تنازل آخر الخلفاء العباسيين ، وإليه سلمت رسمياً مفاتيح الحرمين رمزاً لسلطانه على العالم الإسلامى . وأصبحت إستنبول منذ أيام سليم مركز القوة الإسلامية غير مدافع مدى ثلاثة قرون . أما بغداد التى كانت عاصمة

العباسيين ومسرحاً رئيسيًّا لحضارة فاقت كثيراً مستوى التفكير التركى ، فقد نزلت وقتذاك إلى مجرد مدينة نائية من مدن الولايات .

وتميز التاريخ الحربى لسليمان القانونى ، وهو السلطان النشط الذى تولى الحكم بعد سليم ، بثلاثة انتصارات على وجه الخصوص : انتزاع بلغراد من المجريين ، وإرغام فرسان الإسبتارية[1] فى رودس على التسليم ، ومعركة موهاكز (١٥٢٦) التى لطخت ساحتها بالدماء ، وهى المعركة التى آذنت بالقضاء على استقلال مملكة المجر . فبلغراد كانت بوابة المجر ، ورودس محطة فى منتصف الطريق بين إستنبول ومصر ، والمجر كانت آخر حاجز جدى قام بين الأتراك والنمسويين .

وكان مفعول هذه الانتصارات أشد تأثيراً ، وذلك لما كانت تتمتع به الأمة المجرية من سمعة حربية عالية ، وللثقة التى علقها الناس جميعاً على مهارة الحامية المسيحية فى رودس وشجاعتها . أمكن الدفاع بنجاح عن حدود المملكة المجرية تحت قيادة جون هنيادى John Honyades وابنه ماتياس كورفينوس (١٤٥٨) ، وأُرغم الأتراك على قبول الهزيمة أكثر من مرة . أما سمعة فرسان الإسبتارية المقيمين فى رودس فكانت من نوع آخر — فعلى حين أن المجيار كانوا قد شقوا طريقهم — منذ وقت قصير — إلى الطليعة من تاريخ أوروبا بصفتهم أكبر المدافعين براًّ عن قضية المسيحية ، فإن فرسان رودس ما برحوا منذ أيام الحروب الصليبية منتصبين بمثابة رأس الحربة المسيحية فى أقصى الشرق ضد آسيا والإسلام . كانت رودس جزيرة صغيرة ، وكان الإسبتارية من حيث العدد والعدة أقل بكثير من مهاجميهم ؛ ومع ذلك فإنهم قد عاشوا طويلا حتى أصبح من الطبيعى أن يعتقد الناس أنهم سيبقون أبد الدهر . وكان تركهم يواجهون مصيرهم أمام الأتراك ، فى الوقت الذى أبدت فيه جنوة رضاها السلبى عن ذلك ، واغتبطت البندقية بذلك اغتباطاً لم تعمل على إخفائه — كان ذلك إعلانا مدويًّا للغرب بأن الأسطول التركى قد غدا صاحب السيادة فى بحر إيجة ، وأن المدينتين الإيطاليتين الكبيرتين اللتين قامتا بنقل الصليبيين إلى فلسطين قد غيرتا الآن اتجاههما وانضمتا إلى العدو .

---

(١) أوفرسان القديس يوحنا — أهم النظم العسكرية الدينية من حيث المدى والاستمرار . يقال إنهم وجدوا قبل الحروب الصليبية ولا يزالون يوجدون حتى الوقت الحاضر .

وكذلك اهتزت أوربا لانهيار المجر الذى فاق أثره فى التاريخ الأوربى سقوط رودس . ومن سوء طالع أوربا أن البولنديين والتشيكيين والمجيار لم يستطيعوا قط أن يتفقوا على شكل راسخ من أشكال التعاون السياسى . فإن عدم توافق الأمزجة المبنى على الاختلافات اللغوية والجنسية والدينية قد ثبت دائماً أنه أقوى مما تفرضه الاعتبارات والضرورات السياسية . وقفت عوائق فى وجه اتفاق بوهيميا ، وهى أغنى هذه الممالك الثلاث وأكثرها تحضراً ، مع كل من بولندة والمجر — فوقف الدين حائلا بينها وبين بولندة ؛ كما فصلها عن المجر اختلاف الدين والجنس واللغة . ولما كان نبلاء بولندة وبوهيميا والمجر يعرفون كيف ينتزعون امتيازاتهم الشخصية كاملة من ملكية انتخابية ضعيفة ، فقد ترتب على ذلك أنه فى نفس الوقت الذى كان فيه حكام غرب أوربا يدعمون قوتهم ، كانت دول شرق أوربا تسير فى الاتجاه المضاد : نحو التفكك الإقطاعى .

وقد تميز الفصل الختامى فى قصة استقلال بوهيميا والمجر بإحدى الفرص النادرة التى لو ضاعت لن تعود أبداً . ففى ربيع عام ١٤٥٨ انتخب رجلان بارزان لاعتلاء عرش بوهيميا والمجر . كان جورج بودبراد (١٤٥٨ — ٧١) نبيلا تشيكياً كسب ثقة الأمة البوهيمية بدفاعه الناجح عن عقيدة هس ضد أقلية قوية من الكاثوليك المتجرمنين . وبفضل ثباته واعتداله ورغبته فى اعتبار الدين مسألة يجب على الدولة أن تتناولها بروح التسامح والتوفيق بين الآراء المتضاربة ، ونجاحه فى قمع العصيان — بفضل هذا كله تمتع بسلطان قومى لم يتمتع به حاكم بوهيمى منذ أيام شارل الرابع ، ولم يقدر لحاكم بوهيمى أن يتمتع به مرة أخرى حتى أيام مازاريك Mazaryk [١] . وكذلك كان الشاب الذى اعتلى عرش المجر فى نفس الوقت تقريباً يتمتع بمثل ما تمتع به ملك بوهيميا من ميزات . فقد كان ماتياس كورڤينوس (١٤٥٩ — ٩٠) — كما كان پودبراد — من طينة قومية : فهو ابن ذلك الجندى الذائع الصيت جون هُنْيادى الذى طرد الأتراك من أمام أسوار بلغراد ، وقد ورث الكثير من حيوية أبيه ونشاطه ، وأضاف إلى مزايا الجندى فيه بصراً بفنون السلم ؛ وكان فاتح ڤينا هو أيضاً مؤسس جامعة برسبرج Prassburg وأول من أدخل على نبلاء المجر

---

(١) أول رئيس لجمهورية تشيكوسلوفاكيا (من ١٩٢٠ إلى ١٩٣٥) .

المتخلفين كثيراً من مهارات إيطاليا وفنونها . ولو تم عقد تحالف وثيق بين رجلين من طراز ماتياس كورڤينوس وجورج پودبراد — وكل منهما مبرز فى ناحيته ومحبوب كثيراً فى بلده — لكان لذلك أكبر الأثر . ولو قد تحالفت المجر مع بوهيميا فى ظل هذين الحاكمين ، لكان فى إمكانهما وقف غارات الأتراك وقفاً تاماً وتجنيب مملكتى جنوب شرقى أوربا المسيحيتين المصير الذى قدر لهما — وهو ابتلاع الإمبراطورية النمسوية لكل منهما . ورغم أن الرجلين قد ارتبطا برباط المصاهرة ، فإنهما اشتبكا فى صراع مدمر كان كارثة على كلا المملكتين . هاجت المجر بوهيميا ، ثم تُركت بدورها — ولا صديق لها — لتخر على ركبتين أمام الأتراك . وكان العامل الدينى هو السبب فى ذلك الانهيار المفاجئ الذى أصاب هاتين المملكتين اللتين كان من الواضح أنهما تسيران قدماً نحو الاستقرار والقوة . فقد وقف جورج حاكم بوهيميا مخلصاً لمواثيق مجمع بازل التى سمحت لكنيسة بوهيميا القائمة على تعاليم جون هس باستعمال العلمانيين « للكأس » فى تناول القربان المقدس . ولكن المجلس البابوى الذى لم يقر هذه المواثيق قط رأى فى ذلك أمراً لا يمكن السماح به . أُعلن حرمان پودبراد فى عام ١٤٦٦ ، وصممت روما على خلع هذا الهرطيق وإحلال ماتياس الكاثوليكى محله . واستسلم الملك المجرى للإغراء وانحاز بقواته إلى صف الكاثوليك الساخطين فى بوهيميا . وفى الحرب الأهلية القاسية التى نشبت بعد ذلك فى عام ١٤٦٨ صمد البطل البوهيمى ، ولكنه أرغم — بعامل الدفاع عن النفس — على أن يختار خلفاً له أميراً كاثوليكياً من الأسرة الحاكمة فى بولندة . وحين توفى پودبراد فى عام ١٤٧١ خلفه على العرش ڤلادسلاڤ جاجلون Vladislav Jaggelon .

وكان تولى هذا البولندى ، الأجنبى عديم الكفاءة ، الذى استدعى لحكم بوهيميا والمجر على التوالى مؤذناً فى كلا البلدين بانفجار نزعات الطبقة الأرستقراطية : وقف هذا الملك البولندى عاجزاً إزاء الملاك المثيرين للقلاقل فى هاتين المملكتين الشرقيتين — كما لو كان معلماً فرنسياً فى فصل من تلاميذ الإنجليز المشاغبين . لم يكن لديه جيش ولا مال ، ولم يكن يستطيع عمل شيء دون التجاء إلى المجمع (الديات) ، وقد حيل بينه وبين إدخال أية تجديدات فى المجر قصداً ، وهكذا كان مقضياً بالفشل على الكتائب الإقطاعية التى تجمعها مثل هذه الملكية أمام

المحكم الذى كان يخضع له جيش الأتراك .

ووضع ذلك كله موضع التجربة فى ساحة موهاكز (١٤٢٦) حيث دارت معركة كانت لها عواقبها الخطيرة بالنسبة إلى أوربا . فبعد هزيمة الجيش المجرى ومقتل لويس آخر الملوك من أسرة جاجلون واستيلاء الأتراك على المنطقة كلها الممتدة حتى أبواب ڤينا ، لم يبق للأرستقراطية المجرية المزهوّة رمق . استولى الأتراك على الجزء الأكبر من المجر واحتفظوا به حتى أواخر القرن السابع عشر ، ووضع فردناند حاكم النمسا وصهر لويس ووريث ادعاءاته يده على الباقى منها . وكانت النتيجة المباشرة لهذا اليوم المشئوم خضوع بوهيميا والمجر هذا الدهر الطويل لأسرة الهاپسبورج ، فقد استمر حتى معاهدة سان جرمان بعد الحرب العالمية الأولى . ولم يمكن محو آثار معركة موهاكز بصورة نهائية إلا بعد أن أوقع النصر الإيطالى فى ڤتوريو ڤنيتو Vittorio Veneto (١٩١٨) الانهيار بالإمبراطورية النمسوية .

حقًّا لقد تفجر فى ساحة موهاكز نبع جديد أمد بالحياة الإمبراطورية الرومانية المقدسة وبيت هاپسبورج . ذلك أن الدفاع عن المسيحية ضد الأتراك ، هذا الدفاع الذى كان من الممكن أن يلقى على كاهل الأمة المجرية لولا موهاكز ، قد وقع بمحض الضرورة على عاتق أرشيدوقات النمسا . وجدت هذه « الإمبراطورية المفككة » التى أقيمت على سلسلة من الزيجات الموفقة ، الأمر الذى يبرر وجودها فى نظر أوربا المسيحية ، لأنها — وقد اختفت المجر — أصبحت الحاجز الضرورى الوحيد القوى فى وجه إمبراطورية إسلامية عظيمة متوسّعة . أما أن تقوم الإمبراطورية على شتات من القوميات المختلفة ، فلم يكن مما يؤخذ عليها فى القرنين السادس عشر والسابع عشر . ولكن لما كانت إمبراطورية الهابسبورج تدين بوجودها للخطر التركى ، فإن كل مرحلة من مراحل اضمحلال القوة العثمانية كان يصحبها فقدان مبراطورية الهاپسبورج قدراً مما كان لها من مكانة . وفى النهاية انهار ملك الأتراك والنمسويين على يد عدو واحد — فإن روح القومية الذى تمخضت عنه الثورة الفرنسية قد ألهب الشعوب المسيحية فى البلقان أولا ، ثم امتد إلى الكراوتيين والتشيكيين والبولنديين ، فحطم الإمبراطورية النمسوية تحطيما .

كتب يمكن الرجوع إليها

— Cambridge Modern History, Vol. I, chap. III; Vol. III, chap. IX.

— J. Von Hammer-Purgstall, Histoire de l'Empire Ottoman. Traduit de l'allemand par M. Dochez, 3 vols, (1840-2).

— S. Lane-Poole, Turkey, (1908).

— L. von Ranke, The Ottoman and Spanish Empires in the Sixteenth and Seventeenth Centuries. Tr. W.K. Kelly, (1843).

— F. Donney, The Grand Turke Suleyman the Magnificent, (1929).

— De La Jonquière, Histoire de l'Empire Ottoman, (1881).

— G.E. Hubbard, The Day of the Crescent, (1920).

— G. Finlay, History of Greece. Ed. H.F. Tozer, 7 vols, (1877).

— G.G. Macartney, Hungary. Nations of the Modern World, (1934).

— Sir P. Rycaut, The Present State of the Ottoman Empire, (1668).

— F. Palacky, Geschichte von Böhmen, (1844-67).

— E. Denis, Fin de l'Indépendence Bohème, 2 vols, (1890).

— H.F. Brown, Venice : A Historical Sketch of the Republic, (1893).

— Zinkeisen, Geschichte des Osmanischen Reiches, (1840-63).

الفصل الثامن

الإصلاح الدينى فى ألمانيا

عوامل الإصلاح الدينى – المعارف الجديدة – مغريات البروتستانتية – التمكن الأدبى لدى زعماء البروتستانتية – مارتن لوثر – صكوك الغفران – البنود الخمسة والتسعون – الخروج على روما – شارل الخامس ومرسوم ورمز – العوامل التى ساعدت لوثر – نجاحه الجزئى – حملته على الفلاحين – زونجلى ولوثر – نجاح حركة لوثر فى إسكندناوة وبروسيا – الصدع الذى استعصى على الرأب قبل أن يحل عام ١٥٤١ .

كان الإصلاح البروتستانتى ثورة على كل من الثيوقراطية البابوية وامتيازات الإكليروس ؛ كما كان ثورة على روح الوثنية لدى شعوب البحر المتوسط . فهو من ناحية قد اتخذ شكل انتقاض للروح العلمانية على ادعاءات الإكليروس والإعفاءات التى كانوا يتمتعون بها ؛ ومن ناحية أخرى كان حركة إحياء دينى ومحاولة للعودة إلى الأساليب الأولى التى درجت عليها الكنيسة المسيحية . ويرجع حدوث الإصلاح الدينى فى الوقت الذى حدث فيه من ناحية إلى إحساس الناس بأن المساوئ المتصلة بالحكومة البابوية وبالكنيسة قد بدت إذ ذاك على جانب كبير من الخطورة ؛ كما يرجع من ناحية أخرى إلى أن الرغبة فى اصطناع شكل آخر من المسيحية أبسط وأكثر روحانية — وهى الرغبة التى استحوذت فى ذلك الوقت على عقول كثير من المتحمسين — قد ظهرت فى نفس الوقت على شهوة الأمراء العلمانيين الذين سال لعابهم على ثروة الكنيسة بعد أن لمسوا قصور مصادر دخلهم التقليدية عن الوفاء بحاجات الدولة المتزايدة . كما أن هذا الإصلاح الدينى قد تجاوب مع مد القومية الصاعدة وأسرع خطاه تحول البابوية إلى دولة إيطالية . وكانت قد سبقته ثم تمشت معه حركة قوية من التحرر الفكرى ، بحيث إن آلاف الجداول الصغيرة المنفصلة من الشك والنقد والاحتجاج — وهى الجداول التى كانت تتجمع طيلة جيل من الزمان — قد التقت أخيراً فى نهر صاخب من الثورة . هنا اطرح الفكر العام أوضاع الماضى ، وتهاوت القيود القديمة التى كانت تكبل الفكر وتحصيل المعرفة ؛

فرجع ريوخلن Reuchlin [١] فى ألمانيا إلى العبرية ، ورجع ڤاللا فى إيطاليا وبوديه Budé [٢] فى فرنسا إلى لغتى العصور القديمة اللاتينية والإغريقية الأصليتين ؛ وطرأت على أوربا روح من التنور التقدمى المتقد تحت المعرفة التقليدية ووجهت احتقارها وسخريتها إلى المساوئ والخرافات القديمة . ولم يقتصر رواد التنوّر على بلد دون آخر : فكان مكياڤيللى وڤاللا إيطاليين ، وڤون هوتن Von Hutten [٣] ألمانيًّا وزونجلى سويسريًّا ، ورابليه Rabelais [٤] فرنسيًّا ومور More إنجليزيًّا وإرزمس هولنديًّا . كان بعض هؤلاء من الشكاكين ؛ فى حين بقى الآخر مخلصاً للكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، وانحاز آخرون للثورة حين حل الشقاق .

ورغم أن حركة التنوّر فى القرن السادس عشر كانت حركة قائمة بنفسها متميزة تماماً عن الحركة البروتستانتية ، فإنها كانت من العوامل التى ساعدت على إنجاحها . فقد أضعفت عناصر التحصيل العلمى الجديد الميل التقليدى إلى تقديس الكثير من العقائد والتقاليد والعادات التى كانت سند الكنيسة الرومانية منذ زمن بعيد ؛ واستطاع الرجل العلمانى أن يقرأ لنفسه بعد أن أصبح فى مقدوره أن يتعلم الإغريقية ، بل العبرية أيضاً ؛ وبذلك تسنى له أن ينفذ من وراء اللغة اللاتينية ، وهى اللغة الرسمية للإكليروس الرومانى ، إلى اللغتين الأصليتين اللتين كتب بهما الكتاب المقدس . فلم تعد نسخة الإنجيل المكتوبة باللاتينية منذ القرن الرابع شيئاً مقدساً ؛ إذ كانت هناك نصوص أقدم منها وأقدس يجهلها الإكليروس اللاتين ، ولكنها فى متناول أولئك الذين يبحثون عن المعرفة ؛ ومن هنا لم يكن هناك بد من أن تظهر فكرة أن العلمانى الفاضل يستطيع الاتصال بربه مباشرة دون وساطة من الكهان . وما لبثت تلك

---

(١) ١٤٥٥ – ١٥٢٢ . إنسانى ألمانى متخصص فى الدراسات العبرية . كان طيلة ردح طويل من حياته المركز الحقيقى لكل الدراسات الإغريقية والعبرية فى ألمانيا .

(٢) ١٤٦٧ – ١٥٤٠ . بحاثة فرنسى نال ثقة فرنسوا الأول الذى شجعه وتجاوب معه ، فتأسست كلية هى التى أصبحت فيما بعد Le Collège de France ، ومكتبة هى التى أصبحت « المكتبة الأهلية La Bibliothèque Nationale » ولقد أقنع فرنسوا بمنع الحظر على التصوير ، وهو الحظر الذى كانت جامعة السوربون قد فرضته .

(٣) ١٤٨٨ – ١٥٢٣ . إنسانى ومحارب ألمانى اشتهر بالسخرية والتجوال ؛ وقد أدت سلاطته إلى الإيقاع به فى المتاعب .

(٤) حوالى ١٤٩٥ – ١٥٥٣ . مؤلف فرنسى شهير .

الحركة أن وجدت صداها لدى أشد المشاعر حيوية وأشدها تحللا فى أوربا . فمن الناس — كالمعمدين Anabaptists [(١)] فى مونستر Münster — من اطرحوا كل ما فى النظام القديم من قيود أخلاقية ، ومنهم — على النقيض — من تقمصته تلك الروح الكامنة فى الرواقية المسيحية التى هيمنت على حكومة كلفن فى جنيف ، كما هيمنت على الجيش النموذجى ، جيش أولفر كرمويل ، وخرج منها ذلك اللون من الحضارة الجادة الجارية وراء المال التى قامت فى مستعمرة نيوإنجلند وما أنجبت من ولايات .

وفى مقابل ما كانت الكنيسة الرومانية تقدمه من جمال فنى وطقوس ، كان فى مقدور المصلحين أن يقدموا للشعب شيئين كبيرين لإغرائه : أحدهما بهجة التراتيل الكنسية ، والآخر لذة الاشتراك فى صلاة تجرى بلغة يستطيع غير المتعلم أن يفهمها . ثم إنه ليس من الضرورى أن تكون تلك المحاولة للأصول إلى الرجل العادى شيئاً سوقياً ؛ فكثيراً ما سمت الموسيقى واللغة إلى مستوى رفيع . وإن إنجيل لوثر وإنجيل تنديل Tyndale[(٢)] وكتاب صلوات كرانمر Cranmer والترجمة الفرنسية لكتاب كلفن « أصول الديانة المسيحية Christianae religionis institutio » ، كل منها فى لغتها ، لقطع رائعة من النثر الفنى ، أما لوثر فيمكن القول بأن شغفه بالموسيقى ومواهبه الفياضة ككاتب ، كانت جزءاً مهماً فى تكوينه لا يقل أهمية فى حياته عن عمق معارفه وطاقاته الروحية . ولهذا يعد لوثر من واضعى دعائم اللغة الألمانية ، لما اتصفت به كتابته من غنى وغزارة وحيوية ، وإن كانت أقل صفاء من كتابه تنديل وكرانمر . وإنه لأمر بالغ الأهمية لتاريخ الإصلاح البروتستانتى أن من بين الرعيل الأول من رواده بعض الكتاب الذين أوتوا من المزاج والعبقرية

---

(١) اسم أطلقه الأعداء على فرق مختلفة كانت تنكر قيمة تعميد الأطفال ، وهى الفرق التى اشتهرت فى ألمانيا وغيرها أثناء فترة الإصلاح الدينى . ولمعمدى ألمانيا أهمية خاصة لأن حماسة الإصلاح الدينى قد بدت لديهم بأشكال مختلفة وبدت فى الناس مخالفة للقانون ، وإن يكن القصد منها غير ذلك : إذ جوهرها التطرف فى فهم وممارسة الإصلاح الدينى .

(٢) حوالى ١٤٩٢ — ١٥٣٦ . متفقه فى الشئون الدينية من أهم أعماله ترجمة العهد الجديد إلى اللغة الإنجليزية الدارجة . وقد لجأ إلى ألمانيا واستطاع أن يهرب إلى إنجلترا نسخا من ترجمته الجديدة للإنجيل .

ما جعل لكتاباتهم سلطاناً لا يزال يحرك الأفئدة . وإن قليلا من فقرات من الإنجيل باللغة الإنجليزية أكثر شيوعاً على ألسنة الناس من الفصل الثالث عشر الرائع من « الرسالة الأولى إلى الكورنثيين » وهذه الترجمة فى الأصل من عمل وليم تنديل الذى أحرق بتهمة الهرطقة فى عام ١٥٣٧ . وقد تنقب عبثاً فى آداب اللولاردز والهسيين لتجد مثل ما خطه هذا الفنان العظيم .

كان مارتن لوثر (١٤٨٣ — ١٥٤٦) ذلك الفلاح السكسونى الذى تدين له حركة الإصلاح الألمانى بقيامها وصفاتها ، أحد أولئك الرجال الذين يصلون إلى مراكز الصدارة فى العالم ، ليست لأنهم يمتازون بالابتكار ، ولكن لأنهم يحسنون التعبير عن أفكار وحاجات عصرهم . لم يكن لوثر متفقهاً فى الدين ولا كان فيلسوفاً ، وهو لم يؤمن بالبحث الحر ولا بالتسامح ، ولهذا رفض أن يسلم باحتمال التطور فى الفكر الدينى ، بل تمسك بكل شدة باعتقاده أن كل الحقائق المتصلة بالمشاكل القصوى للحياة والفكر كامنة فى الكتاب المقدس . ومن هنا لم تستمد الحركات العقلية الحرة فى الفكر الأوربى أصولها من مارتن لوثر الذى كان لاسامياً عنيفاً . ورغم أنه قد تسبب فى قيام ثورة ، إلا أنه لم يكن ثورياً ، بل عبقرياً من عباقرة الدين حصل على خبراته بنفسه ؛ وفى بحثه من الخلاص لنفسه اندفع خطوة إلى موقف جعل منه بطل الأمة الألمانية ضد ادعاءات الكنيسة الرومانية .

وإن قسطاً كبيراً من قوة لوثر ليكمن فى كونه ألمانياً بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى ؛ فقد انعكست وتضخمت فى مزاجه العاطفى كل عناصر القوة والضعف فى الشخصية الألمانية ، بما فيها من رقة وعنف ، ومن إسفاف فى القدح إلى ورع إنجيلى من الطراز القديم ؛ ومن موسيقى وعلم ، إلى مرح وتقشف ، وحسن إدراك ومجالدة للنفس ، ومن ندم عنيف إلى اعتداد شديد بالنفس . لم يحدث منذ أيام بربروسا[1] أن قام فى ألمانيا من مثل عصره وجنسه كهذا الراهب السكسونى

(١) حوالى ١١٢٣ — ١١٩٠ . هو فردريك الأول الإمبراطور الرومانى المقدس ، وقد أطلق عليه الإيطاليون اسم بربروسا أى ذى اللحية الحمراء . قام بست حملات على إيطاليا استوعبت نشاطه لمدة ٣٠ عاماً ، كان القصد منها إخضاع شبه الجزيرة . وقد اصطدم بالبابوية ، وكان ذلك جزءاً من النضال الكبير بين البابوية والإمبراطورية . كما قام بجهود كبيرة لتثبيت السلطة الإمبراطورية فى ألمانيا . وقد اشترك فى الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة ، ومن طريقه إلى فلسطين مات غرقاً فى آسيا الصغرى .

الضامر الذى مثل عصره بأسلوبه الخشن المكافح ، وبصوته الواضح المجلجل وسيطرته التى لا حد لها على الكلمات والحركات والأخيلة والمناقشات .

ومع ذلك فإنه لا ينبغى أن يتبادر إلى ذهن أحد أن الشعب الألمانى الذى نشأ لوثر بين ظهرانيه كان مهيأ لقبول فقه پروتستانتى أو كنيسة منشقة . ولو أن لوثر تقدم إلى الناس فى بداية الأمر بهذا أو بذاك لقوبل باستنكار عام ، ولكنه لم يأت بشىء من هذا القبيل ؛ بل كل الذى فعله أنه هاجم بيع صكوك الغفران . وإن مصدر ما حصل عليه من نفوذ لا يبارى أنه — وهو الراهب الأوجسطينى — قد شن حملة على تلك المساوئ العملية المتفشية فى الكنيسة الرومانية ، والتى كان كل ألمانى مستقيم التفكير — مهما بلغ من تعقله بروما — يعتبرها من الناحيتين الأخلاقية والدينية ما لا يمكن الدفاع عنه . وحين هاجم لوثر صكوك الغفران لم يعبر فقط عما يجول بخاطر الألمان ، بل إنه عبر كذلك عن الرأى الصائب فى داخل الكنيسة ذاتها .

كانت فكرة أن البابا قادر على إصدار صكوك غفران تجبّ الخطايا من كل نوع مستمدة من النظرية القائلة بأن القديس بطرس وخلفاءه قد خلعت عليهم ميزة توزيع فيض لاينضب من الثواب على المؤمنين. وهذا الفيض من الثواب يرجع أصلا إلى تضحيات المسيح ؛ ثم زاد على مرّ السنين بالأعمال الخيرة التى قامت بها أجيال متعاقبة من المسيحيين المؤمنين . وقد تجاوبت فكرة الثواب على أنها ليست أمرًا موقوتًا ولاشخصيًّا ؛ بل حصيلة من الثروة الروحية يمكن ادخارها لصالح الأحياء والأموات — تجاوبت فى نفس الوقت مع الخيال الدينى والمطالب المالية للبابوات على حد سواء . وليس أنسب لخزانة مرتبكة من أن تحوز موردًا سخيًّا دائمًا لا يبذل فيه صاحبه أى جهد ولا يساوره فى المحافظة عليه أى قلق ، ويكون قادرًا باستمرار على استخدامه لتحقيق فوائد مالية . وحين أسفرت عن نفسها المغريات المالية الكامنة فى ذلك الكنز الروحى ، تبددت الأحكام الأخلاقية التى كانت ملازمة لاستخدامه أصلا . لم يعد هناك إصرار على الاعتراف والتوبة ؛ بل أصبح من الممكن الحصول على غفران كامل من البابا يوليوس الثانى بمجرد المساهمة فى إعادة بناء كنيسة القديس بطرس . وذهب البابا ليو العاشر إلى ما هو أبعد من ذلك حين

وعد كل من خرج فى حرب صليبية ضد الأتراك برحمات السماوات الباقية Claudo tibi portas inferni et januas aperio Paradisi[1]. فهذا البابا المصرفى (وليوكان من أسرة مديتشى) قد اغتصب ما كان مفروضًا أنه من صفات الله وحده ؛ فلم يقصر دعواه على أنه قادر على التجاوز عن العقوبة على الخطيئة فى الحياة ، بل إنه قادر على أن يمحو الخطيئة ذاتها .

ووصلت المهزلة مداها إبان حملة لجمع المال لبناء كنيسة القديس بطرس قادها فى مقاطعتى ماينز ومجدبرج المبشر الدومنكانى حنا تتزل John Titzel .

وقد كتب أحد المعاصرين « إنه ليس من المعقول ما ذهب إليه هذا الراهب الجاهل الأحمق حين قال للناس إنهم إذا ما ساهموا عن طواعية واشتروا الثواب وصلك الغفران ، فإن كل تلال سانت أنابورج St. Annaburg ستستحيل إلى كتلة هائلة من فضة صافية وأنه ما إن سمع رنين العملة فى الصندوق حتى تكون روح من دفعت الأموال من أجله فى طريقها إلى الفردوس » . مثل هذه الوقاحة هى التى دفعت لوثر إلى أن يلصق على باب قلعة كنيسة وتنبرج Wittenburg فى ٣١ أكتوبر ١٥١٧ تلك البنود الخمسة والتسعين التى أشعلت جذوة الإصلاح الدينى فى ألمانيا بعد أن انتشرت فى الناس بسرعة على يد مطبعة صديق له .

ولكن قبل ذلك كان لوثر قد توصل إلى المعتقدات الأساسية التى آمن بها وألهمته كل ما قام به فى قابل الأيام . وقد جرب الصلاة والصوم وصنوف رياضة النفس ، فلم تجلب له راحة ولا خففت قيد أنملة من عبئه المبرّح بأوزار خطاياه . هنالك تبين له ما فى الإنسان من شرور حقيرة ، وما فى الله من خير وضّاء ليس فى طاقة البشر أن يصلوا إليه فتساءل : أين يجد الوسيلة لاجتياز تلك الهوة المظلمة بين الله والإنسان ؟ وتراءت له بشائر الأمل خطوة خطوة : فى زيارة لروما أولا ، ولكنه ما لبث أن تراجع لما شاهده فيها من فساد متأصل ، ثم بعد ذلك فى إرفرت من خلال دروس ستاوپتز Staupitz[2] ؛ وتوصل آخر الأمر إلى أن الإيمان هو الوسيلة

---

(١) أغلق لك أبواب النار وأفتح أبواب الجنة .

(٢) حوالى ١٤٦٠ – ١٥٢٤ . متفقة فى الشئون الدينية كان له تأثير على لوثر ، وإن بقى كاثوليكيا حتى نهاية حياته .

لعبور هذه الهوة ، فإن الإنسان إذا ما كان مؤمناً فإنه يستطيع الخلاص بالرغم مما استقر فى ذاته من شرور مهلكة . أما الأعمال فلا جدوى منها ؛ فالحج والاحتفالات الدينية والهمس فى المسابح وإيقاد الشموع وعبادة المخلفات الدينية لا تعدو جميعاً أن تكون عقبات فى طريق الخلاص . فالإيمان هو شرط الغفران ، والغفران هو الثواب على الإيمان ، وهما معاً كل ما يهم فى الحياة المظلمة للإنسان الذى قدر له مصيره . هذه الفكرة اشتقها لوثر من تعاليم أستاذه القديس أوجسطين [١] ؛ ولكنه الآن وقد كشف عنها بعد أن كانت غائبة عن إدراك الناس ، تشبث بها إلى حد التعصب .

وما إن ركب لوثر سفينة الغفران حتى انحدرت به بعيداً وبسرعة إلى مياه صاخبة . فإذا كانت الأعمال عديمة الجدوى ، فأى قيمة إذاً لقسَم الراهب أو تعبد الكاهن ؟ وما جاء عام ١٥٢٠ حتى كان لوثر قد توصل إلى أن كل مسيحى معمد قسيس ، وأن روما هى بابل وأن البابا هو المسيخ الدجال ، وأنه يجب السماح للقسس بالزواج وأن الطلاق أمر شرعى . ثم أتم لوثر خصومته مع روما حتى عزّت على كل علاج برسائله الثلاث المشهورة — الأولى نداء بالألمانية وجهه إلى العلمانيين حثهم فيه على تولى إصلاح الكنيسة بأنفسهم بعنوان « إلى هيئة النبلاء المسيحيين من الأمة الألمانية بصدد إصلاح العالم المسيحى » ؛ والثانية رسالة باللاتينية وجهها إلى رجال الفقه الدينى بعنوان « مقدمة عن الأسر البابلى الكنسى De Captivitate Babylonicon Ecclesiae Praeludium » ؛ والثالثة رسالة غريبة بعنوان « فيما يمس الحرية المسيحية » وجهها إلى ليو العاشر فى الظاهر على أنها نداء للسلام eirenicon . وقال مخاطباً البابا بصدد هذا كله « وذلك لأنك ترى ما يسمى بهيئة الكهنوت الرومانية التى لا تستطيع أنت ولا غيرك أن تنكر أنها أفسد من بابل وسدوم . ولقد أظهرت احتقارى حقاً وانتابنى الغضب لأن الشعب المسيحى يخدع تحت ستار اسمك واسم الكنيسة المسيحية ؛ لهذا قاومت ، وسأظل أقاوم ما وجد فىّ عرق ينبض بروح الإيمان » . وقد يعذر أى إنسان إيطالى حين لا يرى فى مثل هذا التصريح أى مظهر للمصالحة —

---

(١) ٣٥٤ — ٤٣٠ م . هو الفقيه المسيحى الكبير الذى وضع آراءه عن الديانة المسيحية ودفاعه عنها فى كتابه « مدينة الله Civitas Dei » .

فكان أن أصدر ليو قرارًا بحرمان الثائر وأجاب الثائر (فى ١٠ ديسمبر ١٥٢٠) بحرق القرار علنًا .

وفى تلك الأثناء وقع الاختيار على يافع فلمنكى يبدو عليه الجدّ وقد بلغ من العمر تسعة عشر ربيعاً لاعتلاء المنصب الإمبراطورى بعد إسراف بالغ فى المال والتآمر ؛ فكرس الإمبراطور الجديد نفسه توًّا لمعالجة هذه المشكلة الجديدة المضنية : مشكلة التصدى لهرطيق هو بطل قومى فى الوقت نفسه ، وبعد مرور وقت طويل اتّهم نابليون شارل الخامس بأنه أضاع إحدى الفرص العظيمة فى التاريخ حين رفض دعوة لوثر إياه ليتزعم حركة الإصلاح فى ألمانيا . ولكن كيف كان يتسنى لشارل وهو من أسرة الهابسبورج وإمبراطور للدولة الرومانية المقدسة وملك لإسپانيا الكاثوليكية المتشددة فى كثلكتها — كيف يتسنى له أن يكون زعيما لثورة ألمانية قومية ضد الكرسى البابوى ؟ لقد اجتمعت تقاليد أسرته وتقاليد منصبه الإمبراطورى وعقيدته الخاصة وتربيته والنزعة المحافظة فى تفكيره والمشاعر الغالبة على رعاياه الفلمنكيين والإسپان لتجعل مثل هذا الاتجاه مستحيلاً ؛ فوجد شارل نفسه بالضرورة فى وضع المدافع الشخصى عن البابوية ودرع النظام القائم .

وهكذا دعى لوثر إلى ورمز (١٥٢١) لمقابلة الإمبراطور الشاب والمثول أمام أول مجمع إمبراطورى له وسط تبلبل الرأى العام وموجة من سخط الناس على البلاط الإمبراطورى . طلب إلى لوثر أن يسحب ما كان قد كتبه ولكن أجاب فى كبرياء ، قوّاه دون شك شعور بتعضيد خارجى — أجاب بأنه طالما أخطأ بابوات وأخطأت مجامع دينية ، وناقض الجميع أنفسهم ، فإنه لن يسحب شيئًا ما لم يكن متعارضًا مع نصوص الكتاب المقدس أو المنطق الواضح ؛ وهو فى تشبثه لم يخسر شيئًا . ورغم أن البابا والإمبراطور قد تحالفا (٨ مايو ١٥٢١) لاختطافه والقضاء على آرائه ، فإنه ظل لبضع سنوات أخرى معبود جانب كبير من الشعب الألمانى ، خصوصاً الطبقة الوسطى العاكفة على صناعاتها فى المدن . أما مرسوم ورمز ، الذى جعل منه خارجًا على القانون ، فقد كان منذ البداية قرارًا أجوف .

وكانت الظروف السياسية فى صالح دعاة الإصلاح . فإن الإمبراطور الذى كانت تشتت جهوده مئات المطالب وتحوله بعض الشىء عن ألمانيا : حرب فرنسا

وحاجة إلى سحق العصيان الخطير الذى قامت به المجالس المحلية — فلم يكن إطلاقاً فى وضع يمكنه من القيام بضغط متصل هو وحده الكفيل بقمع حركة اعتمدت على تأييد الطبقة الوسطى وأصحاب المطابع . ولم يكن أخوه فروناند حاكم النمسا ، الذى كان يواجه الأتراك ، بأحسن منه مركزاً للتصدى للهرطقة الألمانية . أما الفرنسيون الذين كان شارل أعتى منافسيهم وأعدائهم ، فقد اعتبروا — وهم المستمسكون بالدين « القويم » ولكنهم الحريصون فى المسائل السياسية — اعتبروا اللوثريين مستحقين لكل تشجيع : إذ هم مصدر همّ دائم يقض مضجع الحكومة الإمبراطورية .

ولا تقوم الكنيسة عادة على نبى واحد — ومن هنا تدين اللوثرية بالكثير لسياسى وبحاثة وجامعة . كان فردريك العاقل منتخب سكسونيا أحد أولئك الذين لا يمتازون بقوة أو بشىء من الألمعية ، ولكنهم يؤثرون فى التاريخ عن طريق ما يبثونه فى نفوس الناس من احترام وما يصطنعونه وقت الحاجة من اعتدال أبوى رحيم . كان فردريك حاكما معتدلاً حكيما محباً للسلام فخوراً بفرقة الترانيم فى كنيسته الخاصة ، معتزاً بصوره وقلاعه وجامعة وتنبرج التى هو مؤسسها ، شغوفاً برياضات دينية من الإنجيل ؛ وقد أعطى فردريك الحركة الجديدة من التشجيع ما كانت فى أشد الحاجة إليه فى المراحل الحاسمة الأولى من تاريخها . فحين أصدر كل من البابا والإمبراطور ضد لوثر قرار الحرمان ، تقدم المنتخب العجوز فحماه من أعدائه ودبر له مخبأ بعيداً عن متناول أيديهم — وفى أراضى فردريك وبتعضيد منه انصهرت أفكار المصلح الكبير المتأججة ومشاعره الملتهبة لتشكل القالب الذى اتخذته الكنيسة اللوثرية .

هذا هو السياسى . أما البحاثة فكان فيليب ملانكتون Philip Melanchthon ذلك البحاثة الهادئ المتعمق فى الدراسات الإغريقية الذى أمد الدين الجديد فى ديسمبر ١٥٢١ بأول كتاب أولى له فى اللاهوت وهو « كلام معاد Loci Communes » الذى كان — كما لاحظ رانكه Ranke — أول كتاب ظهر فى الكنيسة اللاتينية منذ قرون حاوياً لنظام مبنى على الإنجيل وحده ، وقد وصف لوثر علاقته بملانكتون فقال : « لقد نشأت خشناً جافاً ، عاصفاً أميل للنزال . لقد ولدت لأحارب مردة وشياطين لا عدّ لهم ، لأزحزح جذوعاً وصخوراً ، وأجتث أشواكاً وأزيل غابات

برية ؛ ولكن المعلم فيليب يقف فى رفق وهدوء ومرح ، متحلياً بالنعم الكثيرة التى أنعم الله بها عليه » .

أما الجامعة فكانت جامعة وتنبرج التى ما لبثت أن أصبحت المهد الأساسى للتعاليم اللوثرية ومنافساً خطيراً للتعليم التقليدى فى السوربون . وإليها جاء طلاب العلم من جميع أصقاع ألمانيا ، بحيث غدت بمثابة المعمل العظيم للأدب اللوثرى . وفى هذا المكان الصغير وجد العقل القومى لألمانيا ، وهو العقل الذى أثرت فيه مشاعر هذا العصر المحتدم وحوادثه ، وجد من يعبر عنه بلغة استطاع كل ألمانى أن يفهمها ، ومنه أيضاً استمد بعض الأساتذة فى جامعة كيمبردج فى إيست إنجليا التعاليم المستوحاة من الإنجيل رأساً ، وهى التعاليم التى ساعدت على تحول إنجلترا إلى المذهب البروتستانتى ، وخلعت فجأة على معهد مغمور فى منطقة مليئة بالمستنقعات مكان الصدارة فى الحياة الفكرية عند الشعب الإنجليزى .

وبالرغم من الحماسة الشعبية الملتهبة ، فقد عجز المصلحون عن تحويل ألمانيا إلى بلد بروتستانتى . فإن الانقسامات السياسية المتأصلة التى عوقت ذلك الشعب العاصف لعدة قرون قد أثبتت أنها أقوى من موجة السخط على مساوئ البابوية التى عمّ انتشارها .

قبلت بعض الدول الألمانية النظام الجديد ؛ فى حين بقى بعضها الآخر مخلصاً للنظام القديم . فتألفت عصبة من الدول الكاثوليكية التى ارتبطت معاً فى راتسبون Ratisbon (١٥٢٤) ، كما تألفت عصبة أخرى مضادة من الدول البروتستانتية فى ترجاو Torgau (١٥٢٦) ثم اتسع نطاقها فى شمالكلدن Smalkalden (١٥٣١) . وقد وجدت ألمانيا السلام فى نهاية الأمر ، ولكن بعد حرب دينية أخرت تطور البلاد مدى قرنين من الزمان خرجت منها الحضارات الأحدث فى سكسونيا وهسّ وبروسيا وبراندنبرج معتنقة العقيدة اللوثرية ؛ فى حين أنه — بصفة عامة — بقيت تلك الأجزاء من ألمانيا التى كانت فيما مضى جزءاً من الإمبراطورية الرومانية ، خصوصاً بافاريا والنمسا وإقليم الرين — بقيت مخلصة للعقيدة الكاثوليكية .

وهكذا تطورت الحركة اللوثرية فى بضع سنوات ؛ إذ بعد أن كانت فى أساسها حركة وطنية وشعبية ، لم تعد لا وطنية ولا شعبية . اقتصرت العقيدة الجديدة على

بعض الإمارات والمدن الحرة ، واعتمدت فى كل مكان على عطف الأمراء والحكومات إلى حد كبير ؛ بينما لقيت معارضة وسخطاً من جانب طبقات برمتها من المجتمع وفى دوائر فكرية كثيرة . وأعجب الإنسانيون بالنقد الذى وُجه إلى الجمود البابوى ، ولكنهم ما لبثوا أن انزعجوا لإغراق لوثر فى العنف ؛ بل إن لوثر نفسه قد تراجع عن تأييد الفلاحين الثوار (١٥٢٥) : فكتب رسالة سجلت انشقاقه عن الديمقراطية الألمانية ، وألّب فيها انتقام الأمراء على الكادحين من فالحى الأرض الذين نشأ هو منهم .

ومنذ تلك اللحظة وقفت الكنيسة اللوثرية بشكل قاطع إلى جانب النظام المدنى والسلطان . كان هذا القرار من حيث المبدأ قراراً حكيما — فإن سفينة الإصلاح كان من الممكن أن تهوى إلى قاع خضم من الفوضى . ومما يشهد بحكمة لوثر أنه وقف ضد كل الحركات التى تدعو إلى الخروج على القانون فى غير مسئولية : سواء من أنبياء هاذين أو قواد جند مرتزقة متمسكين بنصوص الإنجيل ، أو معمدين فوضويين . ولكن الطريقة التى فصل بها لوثر حركته عن ثورة الفلاحين ، وفشله فى اقتراح أسس للتوفيق والمصالحة ، وتشجيعه لإجراءات القمع التى اتصفت بالوحشية لدرجة تركت الفلاحين الألمان أكثر عجزاً وهواناً عن أية طبقة اجتماعية أخرى فى وسط أوربا أو غربيها — كانت كلها بقعاً سوداء لطخت سمعته الطيبة . لقد كان الفلاحون الألمان رجالا غلاظ الطبع ومحاربين أفظاظاً ؛ ولكن شكاواهم كانت حقيقية ومطالبهم الأصلية عادلة ومعقولة . وإن اقتران اللوثرية بإجراءات القمع التى قامت بها أرستقراطية ملاك الأراضى الذين لا تعرف قلوبهم الرحمة ، بتدنى طبقة الفلاحين ، وهى أول طبقات المجتمع بالتعضيد — كل هذا مما أدى إلى نقص فاحش فى الطاقات الحيوية للحركة اللوثرية .

ولا يقل عن ذلك أهمية لمستقبل البروتستانتية الألمانية إصرارها على الانشقاق عن حركة الإصلاح الدينى فى سويسرة . كان السويسريون لا يزالون أشهر جند مرتزقة فى أوربا ، ولقد أوتوا حظاً وافراً من قوة البدن ، مع تأخر فى تذوق الفنون وطيبات الحياة ؛ وقد فصلتهم جبالهم عن الحركات العامة فى أوربا . ولكنهم فى عام ١٥٢٢ انجرفوا لأول مرة فى تيار الإصلاح الدينى ونقد العقائد والعادات . بدأت

الحركة فى زيورخ ، وكانت حركة أخلاقية من ناحية وإنسانية ووطنية من ناحية أخرى ، ودينية من ناحية ثالثة — وهى ككل حركات الثورة الدينية ساورها قدر ليس بضئيل من السخط الذى يتحفز للثورة على الأوضاع والقيود القديمة المقررة التى أحاطها الناس بالاحترام . كان ألرخ زونجلى Ulrich Zwingli ديمقراطياً جمهورياً إنسانياً ، وبدأ أهل زيورخ تحت قيادته يتبينون أن من العار على من يحترم نفسه من أهل زيورخ أن يتلقى إعانة أو أجراً من دولة أجنبية . وهكذا سرعان ما أخذت خميرة الوطنية الدفينة تفعل فعلها بين مواطنى هذه المدينة القائمة على شاطئ تلك البحيرة الهادئة ، فعاهدوا أنفسهم على « ألا يكونوا تبعاً لفرنسا ولا للإمبراطور ، بل يكونون مواطنين صالحين لزيورخ والاتحاد » ؛ وصاحب هذا الإصرار على أن يكونوا سويسريين بأى ثمن إصرار آخر على ألا يكونوا تابعين لروما مهما كلفهم ذلك . هاجم زونجلى الصوم فى لنت Lent ، كما هاجم تحريم الزواج على رجال الدين وعهود الرهبنة واستعمال اللاتينية فى الصلوات الكنسية وعقيدة الوجود الحقيقى فى القربان المقدس . ولقد كان المصلح السويسرى أشد تطرفاً من لوثر وأكثر منه تنوراً وأقل منه تأثراً بأفكار العصور الوسطى . لهذا فإنه حث الخطى دون تردد نحو الانفصال التام عن روما . وما وافى عام ١٥٢٩ حتى كانت ست من المقاطعات الثلاث عشرة وبعض المدن القليلة فى جنوب ألمانيا قد أخذت جانب الإصلاح الزونجلى .

وقد ارتأى فيليب أمير هس (ولقبه الرسمى Landgrave) ، وهو أقدر الأمراء الألمان الذين انحازوا إلى لوثر ، مدى الميزات التى يحققها تحالف القوتين الألمانية والسويسرية ؛ ولو كان الساسة هم الذين تزعموا الحركتين لأمكن إتمام هذا الاتحاد . ولكن لسوء الحظ لم يكن لوثر ولا زونجلى من رجال السياسة ؛ بل كانا من رجال الدين ، وكان كل منهما شديد التشبث بالموقف الذى وقفه من قبل . وقد حاول الأمير عبثاً أن يؤثر على الفقيهين المتنافسين لكى يجتمعا فى مؤتمر فى ماربورج Marburg (١٥٢٩) . ورغم إمكان الاتفاق على كثير من النقاط الثانوية ، لم تستطع أية حجة أن تزيل الهوة التى أثارتها بين المتنازعين المشكلة الرئيسية الخاصة بوجود جسم المسيح فى القربان المقدس . قال زونجلى إن العشاء الربانى كان

احتفالاً رمزياً : أما لوثر فرغم رفضه وجهة النظر الكاثوليكية التقليدية القائلة بأن جسم المسيح ودمه قد حلا محل العناصر ، فإنه قال بأنهما قد انصهرا بهذه العناصر جميعاً كما توجد النار فى الرصاص المنصهر . وحين جلس لوثر على كرسيه فى المؤتمر ، كتب على المنضدة أمامه : « هذا جسدى Hoc est corpus meum » . ولم يجد بداً بعد ذلك من التمسك بذلك النص الواضح ، وعلى الصخرة العتيدة التى أقامتها هذه الكلمات الأربع تحطم حلم إقامة اتحاد پروتستانتى واسع ينتظم المقاطعات السويسرية ومدن جنوب ألمانيا وإمارات ألمانيا الشمالية .

وعلى ذلك لم تصب اللوثرية أى توفيق فى سويسرا ، كما أرغمت على التنازل عن كثير مما أصابته أولا من نجاح فى ألمانيا . ولكنها عوضت نفسها عما فقدته باستقرارها فى ممالك إسكنديناوة الشمالية التى لا تزال حتى اليوم على المذهب اللوثرى ، وهو مذهب معتدل يناسب اعتداله الملوك الإراستيين ويلائم شتاء الشمال الطويل القاسى .

والسنوات العشرون التى أعقبت مرسوم ورمز من أشد الفترات قلقاً ودقة فى تاريخ ألمانيا . ولا شك أن قوماً جادين يواجههم هذا المزاج المتنافر من الآراء المتضاربة ليسائلون أنفسهم عما إذا كان كيان الريخ الألمانى سيخرج سليما من مثل هذه الصدمة الشديدة أو عما إذا كانت الحضارة ذاتها ستغرق فى طوفان من الفوضى . ولكن الأمل كان لا يزال يلح على الناس فى إمكان رأب هذا الصدع ؛ فلو أن فى الإمكان فقط دعوة مجمع دينى ، إذن لأمكن القضاء على مخازى الكنيسة التى يعرفها الجميع ووضع أساس يرضى كل المسيحيين الصادقين بالالتفاف حوله . ولم يكن أحد أشد إيماناً من شارل الخامس – بشعوره الطيب وضميره الحى – بضرورة إعادة السلام الدينى .

ولم يكن فى وسع الإمبراطور أن يعمل الكثير مما يساعد على حل المشكلة . فقد واجهته الأعباء فى إسپانيا وإفريقية وإيطاليا والأراضى المنخفضة ، وهى بالنسبة إليه كانت أشد حاجة إلى الحسم من التوفيق بين الخلافات الدينية فى ألمانيا . وفى خلال تلك الفترة الحاسمة من العشرين عاماً لم يزر هذا العاهل المثقل بالأعباء رعاياه الألمان أكثر من مرة واحدة (١٥٣٠) حين ترأس جلسات المجمع الإمبراطورى

فى أوجزبورج Augsburg وانساق إلى رفض « إعلان للعقيدة Confessio » وضعه ملانكتون الداعية إلى التوفيق ، وهو البيان الذى أطلق عليه اسم اعتراف أوجزبورج واعترف به منذ ذلك الوقت على أنه العرض الأصيل للعقيدة اللوثرية .

وهكذا دون تدخل من جانب الدول العظمى انتشرت العقيدة اللوثرية فى ألمانيا الشمالية ، واعتنقها الناس حتى فى بروسيا حيث قرر ألبرت أوف براندنبرج القائد الأكبر للفرسان الألمان (١٥٢٥) أن يفرض الطابع العلمانى على دوقيته وأن يحكمها باعتبارها إقطاعاً له من التاج البولندى ، مدخلا عليها فى الوقت نفسه النظام السكسونى للطقوس الدينية وحكم الكنيسة ، ومن السهولة بمكان أن نتصور النتائج التى ترتبت على ذلك العمل ؛ فإن النظام الجديد وطد أقدامه بمرور السنين والتفت حوله مشاعر وارتباطات جديدة بحيث أصبح من الصعب القضاء عليه . وعندما عاد شارل الخامس إلى ألمانيا فى عام ١٥٤١ بعد غيبة تسع سنوات وتصدى لمشكلة التوفيق من جديد ، كانت المشكلة قد أصبحت أشد تعقيداً منها فى أى وقت آخر ، وذلك بسبب تلك المصالح المكتسبة التى فرضت نفسها وأصبح من المستحيل الرجوع عنها . وقد تحطمت آخر محاولات التوفيق فى راتسبون . حينئذ أصبحت الفروق بين الكنيستين اللوثرية والرومانية أكثر اتساعاً وأعمق أثراً وأكثر تعدداً بحيث استعصت على العلاج .

كتب يمكن الرجوع إليها

— Cambridge Modern History, Vol. II.

— T.M. Lindsay, History of the Reformation; Vol. I, in Germany; Vol. II. in lands beyond Germany, (1905).

— B.J. Kidd, Documents Illustrative of the Continental Reformation, (1911).

— T.M. Lindsay, Luther and the German Reformation, (1900).

— The Table Talk of Martin Luther. Tr. & ed. William Hazlitt, (1848).

— Luther's Primary Works. Tr. & ed. H. Wace and C. Buchheim, (1896).

— L. von Ranke, Deutsche Geschichte in Zeitalter der Reformation. Tr. Sarah Austin, History of the Reformation in Germany, (1905).

— L. Pastor, History of the Popes. Ed. F.I. Antrobus and R.F. Kerr, (1894-1933).

— S.M. Jackson, Huldreich Zwingli, 1484-1531, (1903).

— W. Oechsli, History of Switzerland, 1499-1914. Tr. E. and C. Paul, (1922).

— E. Belfort Bax, The Peasant War in Germany, (1899).

— E. Belfort Bax, Rise and Fall of the Anabaptists, (1903).

الفصل التاسع

خروج إنجلترا على كنيسة روما

هنرى الثامن فى شبابه — الحركة الإنسانية والعقيدة الحقة — المزاج الإنجليزى — المشكلة الاجتماعية— مكانة الملكية — عدم وجود معارضة متحدة — توماس ولزى Thomas Wolsey — الطلاق — برلمان الإصلاح الدينى — توماس كرمويل Thomas Cromwell — حل الأديرة — قانون السيادة Act of Supremacy — الطريق الوسط الذى انتهجه هنرى — توماس كرانمر Thomas Cranmer — الخدمتان اللتان أداهما للإصلاح الدينى — إدوارد السادس ومارى — أسباب إحجام الشعب عنها — شهداء عصر مارى — أعداء إنجلترا .

فى عام ١٥٠٩ بدأ هنرى الثامن أنموذجاً كاملا لشاب من أمراء النهضة : كان يافعاً غضاً لايزيد عمره على ثمانية عشر ربيعاً ، طويلا متورد الوجنتين ظريفاً كجده إدوارد الرابع ، تتفجر منه حيوية دافقة ، ماهراً فى كل رياضات الرجال . اتصف بشهوة فائقة للصيد وللقمار وعشق النساء ومبارزة الفرسان ، وامتزج فيه هذا كله بتذوق لصحبة المثقفين من الرجال وبخيال داعبه — وإن لم يسترسل فيه كثيراً — لضم إحدى المقاطعات الفرنسية ووضع التاج الإمبراطورى على رأسه . وما إن اعتلى هنرى العرش حتى تزوج كاترين الأرجونية ، وهى سيدة جادة دمثة الأخلاق تكبره بست سنوات ، كانت أرملة لأخيه الأكبر آرثر الذى توفى فجأة فى لدلو Ludlow فى سن السادسة عشرة بعد زواج دام أربعة شهور . وفى عام ١٥٠٣ أصدر البابا يوليوس الثانى (١٥٠٣) فتوى أقرت الزواج من أرملة أخ متوف ، وذلك رغم النص الرسمى للفتكوس Leviticus[1] .

وقد أغرم الملك الشاب — عدا مفاتن البلاط والصيد — بأمرين لم يعرفا كثيراً فى الملوك الإنجليز حتى ذلك الوقت . كان هنرى مغرماً بالبحر ، فبنى الأحواض البحرية الملكية فى وولتش Woolwich ودتفورد Deptford وأنشأ ترنتى هاوس Trinity House ، وهى مدرسة لإعداد رجال البحر ، وأشرف بكل دقة واهتمام على بناء

(١) الجزء الثالث من العهد القديم .

أسطول ملكي ووضع أساس قوة إنجلترا فى البحر . وكان أول ملك إنجليزى له أسطول بمعنى الكلمة على أحدث طراز . وحين أنزلت السفينة « برنسس مارى » إلى البحر فى عام ١٥١٩ حضر الاحتفال كل رجال البلاط ؛ أما هنرى — كما أخبرنا المبعوث الفرنسى الذى اشترك فى الاحتفال — فقد « سلك مسلك أهل البحر : لبس سترة البحار وسروالا مصنوعاً من قماش مذهب ، وسلسلة ذهبية نقش عليها " الله وعدلى Dieu et mon droit" وعلقت فيها صفارة كان يبعث فيها صفيراً مرتفعاً كأنه صوت النفير » . وفى هذه وفى شئون كثيرة أخرى كشف الملك الشاب عن مزاج الشعب الإنجليزى وتمشى مع روحه .

أما الأمر الثانى الذى شغف به الملك فهو المسائل الدينية التى كانت قد أصبحت — كما أصبح الاقتصاد فى أيامنا — أساساً لدراسة السياسة . قرأ فلسفة توما الأكوينى[١] وناقشها ؛ بل إنه كتب بحثاً نشر فى عام ١٥٢١ رداً على لوثر كان من نتيجته أن أنعم عليه البابا ليو العاشر بلقب حامى العقيدة Fedei Defensor . وكلما تقدمت به السن وازداد اهتمامه بنفسه نما شعوره بالثقة فى عقيدته إلى حد أن أصبح يعد نفسه فى كل المسائل العليا الخاصة بالعقائد الدينية القاضى الفرد الذى لا ضرورة لغيره ، الوثيق الصلة بغايات الله وموضع سره . كانت وجهات نظره متمشية مع البابوية ؛ وفى كثير من المسائل الأساسية كالقداس أو تحريم الزواج على رجال الدين كان شديد التمسك بالعقيدة التقليدية . وحين اشتبك فى حرب خارجية لأول مرة كان هدفه نصرة البابا يوليوس الثانى ضد لويس الثانى عشر ملك فرنسا ، وأحرز نصراً فى معركة سبرز Spurs ثم نصراً آخر أشهر فى فلودن فيلد Flodden Field — وهما الانتصاران اللذان أعادا لإنجلترا سمعتها كدولة مهيبة الجانب فى أوربا ، بالرغم من أن أهميتهما لم تبق قائمة .

أما الشعب الإنجليزى فكان — على عكس ملكه ، وعلى عكس الشعب الإسكتلندى — غير مبال للبحوث الدينية . وقليل من البلاد من تأثر — كإنجلترا — هذا التأثر الطفيف بالهرطقة أو عرف عنه مثل هذا الإخلاص لروما . وكانت حركة

---

(١) ١٢٢٥ — ١٢٧٤ . شيخ الفلاسفة المدرسيين المسيحيين . وكان أتباعه يقولون بالقدرية والإلهام الحتمى وينكرون عقيدة أن مريم ولدت خالية من كل خطيئة .

اللولاردز استثناء قريب العهد ، ولكنها كانت حين اعتلى هنرى العرش قد فقدت تأثيرها على الجامعات وأهل الريف وغدت عقيدة حفنة مبعثرة من الرجال المغمورين رقيقى الحال الذين كانوا يمتهنون حرفًا متواضعة فى بعض أزقة لندن أو يحرقون الشجر لصنع الفحم فى غابات الساحل فى تشلترنز Chilterns . ولم يُبد البارونات أو أهل الريف فى إنجلترا كبير اهتمام بالمسائل الكبرى التى دار حولها الجدل وكانت تشغل اهتمام الناس فى القارة الأوربية ، كالمسائل المتعلقة بالقدرية أو التبرير بالإيمان . وكان الرجل الإنجليزى العادى يكن فى قرارة نفسه ولاء غريزيًّا للأمور المتواضع عليها وخاصة القداس والطقوس الكاثوليكية . أما فى الجامعات ، حيث كان يتلقى موظفو الدولة تعليمهم — وبالأخص فى جامعة كيمبردج — فقد ظهرت حركة دينية سببها الاتصال باللوثريين وكتاباتهم . ولكن هذه الآراء التجديدية كانت فى أوائل عهد هنرى الثامن مقصورة على صفوة من أهل الفكر الأكاديمى .

ورغم أن الشعب الإنجليزى يغلب عليه طابع المحافظة ، فإنه كان أيضًا بصفة عامة لا يميل إلى رجال الدين ؛ ويصدق هذا بصفة خاصة على العلمانيين فى لندن والمدن التجارية . وكانت الطبقة التجارية قد بدأت تتحدى الأسس التى تعتمد عليها الكنيسة الإنجليزية العتيقة الغنية واسعة السلطان ؛ وكان الجبلليون[١] Ghibellines الإنجليز يحقدون على ما يتمتع به القسس من امتيازات وما يحوزون من أملاك . كان يسوؤهم أن يعفى رجال الدين من التشريع الجنائى الذى يخضع له أفراد الناس فى الوقت الذى يخضع فيه الناس لتشريع الكنيسة الجنائى . وتساءلوا : لماذا يفلت سافك الدماء فعلا من العقوبة إذا استطاع أن ينشد مقطوعة من المزامير واستحق بذلك أن يكون رجل دين ؛ وأى حق يخول محكمة الأسقف الحكم على رجل علمانى بالحرق بتهمة الهرطقة دون أى تدخل أو مانع من جانب السلطة المدنية ؟ هذه وشكاوى أخرى ، وإن كانت قد لقيت بعض العناية فى التشريع فى عام ١٥١٢ ، هى التى كانت موضع النقد والتجريح الشديد فى البرلمان الذى انعقد فى عام ١٥١٥ .

وهناك سبب مشهور ، لم يمط عنه اللثام تماما حتى اليوم ، هو الذى أشعل

---

(١) أنصار الإمبراطورية أثناء نضالها مع البابوية فى العصور الوسطى .

نارَ الجدل . فقد وجد عثمان رتشارد هَنّ Richard Hunne ، وهو تاجر وترزى ثرى جواد ، مشنوقًا ومعلقًا فى قصر أسقف لندن . أما الإكليروس فكانت لهم وجهة نظر أخرى . فعلى حين كان الناس فى لندن مصممين على تصديق كل ما هو مشين فى حق القسس ، أصرت محكمة الأسقف المنعقدة فوق جثمان الرجل على أن التاجر كان زنديقًا لم يتب عن زندقته وأنه أقدم على قتل نفسه ؛ ولهذا أحرق جسده وأعلنت مصادرة أملاكه وضمها إلى التاج. واشترك الجميع فى مناقشة هذه القضية ، ووسط خضم من التهم المتراشقة التى أثارها موت هنّ ، أثيرت كل القضايا الأساسية المتعلقة بالكنيسة والدولة وأضحت مدارًا للنقاش . ولم يوقف هذا النزاع الحاد الذى كان ينذر بعواقب خطيرة إلا الإقدام على حل البرلمان .

ورغم أن اتجاه الرأى العام كان فى معظمه علمانيًّا لا يميل إلى الإكليروس ، فإنه لم يكن ثوريًّا . ولم تلهب حركة الإصلاح الدينى فى إنجلترا تلك المرارة الاجتماعية بين الطبقات التى أشعلت ثورة الفلاحين فى ألمانيا . حقًّا لقد كان ثمة أشياء معينة لم يستطع الشعب الإنجليزى قبولها . منها الضرائب الفادحة ، ومنها الحرب مع الأراضى المنخفضة التى كان من شأنها أن تقضى على تجارة الصوف . ثم جاء الاضطراب بخصوص « القرض الودى The Amicable Loan[1] » فى عام ١٥٢٣ ، والسخط الجديد المنذر بالشر من جانب الرأى العام فى عام ١٥٢٨ حين فكر هنرى فى الدخول فى حرب مع شارل الخامس — فكانت هذه الأحداث نذرًا أوضحت للعاهل الثاقب الفكر حدود سلطته . ولكن طالما كانت جيوب ملاك الأراضى ومربى الأغنام وتجار الأقمشة منتفخة بعيدة عن متناول الحكومة ، لم يكن هناك خطر كبير على سلطة الملك . حقًّا كانت توجد مشكلة اجتماعية خطيرة من وراء كل ثورة شعبية فى هذا العصر ؛ فقد زاد اعتبار الأرض سلعة ينظر إليها من زاوية تجارية ؛ ونتيجة للتقدم المستمر فى تجارة الأقمشة التى كانت أولى صناعات إنجلترا ، غدت الأغنام أكثر جلبًا للربح من الحبوب ، وغدا استغلال أرض المراعى أكثر فائدة من زراعتها

(١) احتدم البرلمان فى عامى ١٥٢٢ و ١٥٢٣ حين طلبت الحكومة منه مبالغ وافرة لكى تنفق منها على الحرب مع فرنسا — مما ترتب عليه عدم دعوته حتى نهاية حياة ولزى. حينئذ لجأ الملك إلى « المنح والهبات الجبرية »، وطلب فى عام ١٥٢٥ « قرضا وديا » قيمته سدس دخل كل فرد . وثار الرأى العام ضد هذا القرض وكاد ينشب العصيان .

بمقدار النصف ، وتفتحت شهوة ملاك الأراضى والمضاربين فى الأرض من سكان المدن ، وأصبح من الممكن جنى مكاسب ضخمة من الأرض بوسائل متعددة : كتركيز الممتلكات العقارية أو تسوير الأرض العامة بقصد استغلالها فى الزراعة أو الرعى أو تحويل أراضى الفلاحة إلى مراع للأغنام . هذه الخطط كانت معروفة فى القرن الخامس عشر ، أى أنها لم تكن بدعاً على أى حال . ولكنها طبقت فى القرن السادس عشر على نطاق واسع أثار ضيقاً وفزعاً ونقاشاً . فما مصير المزارع الذى حرم أرضه ؟ وما مصير عمال الحراثة الكثيرين ، وقد استبدل بهم فى الحقل راع واحد ؛ وما مصير الفلاحين الذين كانوا يزرعون بالمشاع ، فانتزع منهم مورد رزقهم بتسوير الأرض وربط ملكيتها ؟ إن هذه المشكلة الاجتماعية هى مشكلة طبقة ريفية فقدت أملاكها وبيوت خربت وقرى هجرها أهلها ومتشردين يزرعون الطرقات ويهاجرون إلى المدينة زرافات ووحداناً — أصبحت هذه المشكلة خطيرة فى حد ذاتها ، وزادها خطورة ارتباطها بسياسة الكنيسة التى جعلت من كل قس كاثوليكى متحمس مرشحاً ليكون قائداً للثورة ودفعت بالرهبان إلى سوق العمل ، وحطمت أجهزة العصور الوسطى التى كانت تقدم المعونات للفقراء .

وقد يكون هذا الداء أخطر فى الخيال منه فى واقع الأمر . وقد تكون النتائج الاقتصادية التى تمخضت عن تسوير الأرض قد بالغ فيها الكتاب المعاصرون . ومع ذلك فمما لا شك فيه أن الهدوء الذى اتصفت به الحياة الريفية الإنجليزية منذ القديم قد اضطرب الآن ، وأن شعوراً جديداً بالقلق قد انتشر على نطاق واسع جداً بين فقراء الريف . كما يحدث عادة فى فترات الاضطراب الاقتصادى ، كان الأغنياء يزدادون غنى والفقراء يزدادون فقراً . وكانت المصالح المكتسبة من القوة بحيث كانت تستطيع أن تعرقل محاولات الإصلاح التى تقوم بها الحكومة .

ويلاحظ أنه رغم كل هذه العوامل المحركة للسخط التى يمكن أن يضاف إليها الارتفاع المطرد فى أثمان ضرورات الحياة ، لم تؤد القلاقل الشعبية إطلاقاً إلى زعزعة مركز حكومة التيودور بشكل خطير . فقد كان باستطاعتها فى كل مناسبة أن تقمع العصيان بغير مشقة كبيرة ودون أن يكون لديها جيش ثابت أو بوليس نظامى (وإن كانت قد لجأت فى عام ١٥٤٩ إلى استخدام قوة طارئة من المرتزقة الأجانب الذين

تصادف وجودهم حينئذ بالبلاد) . ويرجع ذلك إلى ثلاثة عوامل رئيسية : فمن ناحية كانت الثورات إقليمية لم يتصل بعضها بالبعض الآخر ؛ ومن ناحية أخرى كان النبلاء وكبار الملاك بمنأى عن الفقراء ؛ كما أن احترام التاج والأسرة المالكة كان فى الطليعة من المشاعر السياسية لدى الشعب — فإن روح الطاعة السياسية قد ازداد عمقاً فى ضمير الأمة نتيجة للحرب الأسرية التى كانت لا تزال قائمة عالقة فى الأذهان والتى انتهت على ساحة بسورث Bosworth Field .

وقفت ملكية التيودور حائلا دون تجدد الصراع الأهلى فى البلاد . وقد وضعت نصب عينيها المحافظة على السلام والنظام وتطبيق العدالة وكسر غارب الطبقة الأرستقراطية وحماية الفقراء وتشجيع التجارة . وقد نجت الأسرة من أخطار تولى حاكم قاصر تحت الوصاية ، وفشلت محاولة لنقض النظام المقرر لتولى العرش حين دعت ليدى چين جراى Jane Grey إلى الحكم بحركة من أكثر حركات التاريخ الإنجليزى تلقائية وأشدها مضاء . ورغم أن العرش الإنجليزى لم تعتله امرأة منذ عهد ماتلدا Matilda [1] فقد كان يكفى لمارى ولأختها إليزابث من بعدها أن تكونا ابنتى ملك من ملوك التيودور . ولم تكن مباشرة الحقوق السياسية هى المثل الأعلى لدى إنجليز ذلك العصر ؛ وانصرف همهم إلى أن تبقى أسرة التيودور حاكمة . وكان الولاء للملكية من القوة بحيث إن شكسپير استطاع أن يكتب مسرحية « الملك يوحنا King John » دون أن يذكر « العهد الأعظم Magna Carta ». والحق أن الملكية قد بلغت من القوة حداً مكنها — رغم أعمال الإجرام والقسوة التى اقترفها هنرى الثامن — أن تجتاز بالبلاد هذه الفترة الحرجة من تاريخها وقد جنبتها ويلات حرب دينية .

وقد قنع هنرى مدى أربعة عشر عاما (١٥١٥ — ١٥٢٩) بأن يترك الحكم الفعلى فى البلاد فى يد توماس ولزى . ومن سخرية الأقدار فى تاريخ حياة ذلك الرجل الخارق للعادة أنه ، على حين ارتبطت كل أطماعه بالبابوية ، لم يفقه أحد فى العمل على تمهيد الطريق لقيام دولة إراستية . ولقد سعى ليضع نفسه مكان البابا فى إنجلترا بمثابة مندوب فوق العادة (Legatus a Latere) وليجمع فى يديه كل مقاليد

(١) من ١١٠٢ إلى ١١٦٧ .

السلطة الكنسية ، وبذلك أبطل وازى دستور الكنيسة الإنجليزية الذى يرجع إلى أيام العصور الوسطى ، وعلى هنرى كيف يكون سيداً فى بلاده . وظل وازى حتى آخر عمره لا ينفك طامحاً إلى منصب البابوية ؛ ومع ذلك فلا أحد — حتى اللوثريين — قد فاق هذا الكاردينال فى بثه فى نفوس الناس مثل هذه الأنفة الشديدة من الخضوع للقوانين الأجنبية التى كانت تسنها البابوية ، رغم أنه بفضل المراسيم التى حصل عليها من بابوات متوالين قد ابتدع لنفسه لوناً جديداً — ومكروهاً — من الطغيان الكنسى فى إنجلترا .

قيل إن وازى كان مصلحاً محافظاً عظيماً كان بوسعه — لولا حادثة أرسلها القدر — أن ينقذ الكنيسة الكاثوليكية فى إنجلترا . قام حقاً ببعض الإصلاحات الجزئية : كحل الأديرة الصغيرة واستغلال أوقافها فى إنشاء كليات فى أكسفورد وإپسوتش Ipswich ويبدو أنه كان قد أزمع القيام بإصلاحات أخرى مثل إنشاء ثلاث عشرة أبروشية جديدة .

ولكن قد يتطرق الشك فى أن هذا الرجل كان فى قرارة نفسه مصلحاً ، هذا الرجل الذى اجتمعت فى شخصه تقريباً كل نقيصة قد توجه إلى الكنيسة الكاثوليكية فى القرن السادس عشر والذى كان شغوفاً بجمع المناصب المتعددة ، منحلا فى أخلاقه الخاصة ومهملا لمهام منصبه الرعوى بشكل مزر (أى رعاية أبناء كنيسته) . فقد كان السلطان ، وليس الإصلاح ، هو العاطفة الرئيسية المتقدة بين جنبى هذا الرجل ، ابن الكلاف فى إپسوتش الذى جمع فى شخصه مناصب كبير قضاة إنجلترا وكبير أساقفة يورك وأسقف باث Bath وولز Wells ودرهام وونشستر على التوالى ، ورئيس دير سانت ألبانز St. Albans ونائب البابا ؛ وبالإضافة إلى ذلك كان « ملتزماً » لإيراد ثلاث أبروشيات خاصة ببعض الأجانب غير المقيمين بها . فكون رجل على مثل هذا الطراز يبدأ حركة الإصلاح ليس إلا نذيراً بما يخبئه المستقبل ..

كان وازى آخر الساسة العظام من رجال الدين الذين حكموا إنجلترا ، ومن بعده أخذ العلمانيون الأمر بين أيديهم . ولكنه خلال السنوات الأربع عشرة التى

تألق فيها نجمه كان — بإذن من الملك — حاكم إنجلترا الفرد ؛ لا يحد من نفوذه زملاء ولا برلمانات ولا مجامع دينية . كبح جناح النبلاء فى محكمة غرفة النجم ، وحد من سلطات المحاكم الكهنوتية بحكم كونه كبيراً للقضاة ، وفى رياسته لمحكمة الشكاوى جعل العدالة فى متناول الفقراء بثمن بخس . وقنع الملك بترك مهمة الحكم الشاقة فى يد مثل هذا التاج الكفء الدءوب على العمل الخاضع لشخصه .

وولزى — كرئيس للكنيسة — لم يكن إنجليزيًّا ، بل كان أوربيًّا . فإنه كان يستمد من روما سلطاته الدينية ؛ وكانت روما محط آماله الكبرى ، ومن هنا لم يكن يستطيع أن يغض الطرف عن مصير البابا . وبصفته سياسيًّا إنجليزيًّا وكاردينالا كاثوليكيًّا فى نفس الوقت ، وطد العزم على أن يحول دون استبعاد الفرنسيين للبابا . ولو حدث ووطدت فرنسا — غريمة إنجلترا القديمة — أقدامها فى ميلان ، فإن الزمن كفيل باعتلاء أحد الفرنسيين كرسى البابوية وقيام مجمع للكرادلة من الفرنسيين وتوجيه فرنسا للسياسة البابوية — ومعنى ذلك وقوع البابوية فى أسر أڤينونى جديد لا يقل فى خطورته عن الأسر الأول ؛ وحينئذ تصبح البابوية بعيدة عن متناول ولزى بعد القمر فى كبد السماء .

لهذا قرر ولزى أن تلعب انجلترا دورها كاملا ، وبشكل براق وحاسم ، فى الصراع الكبير الدائر فى القارة الأوربية بين شارل وفرنسا ، وأن تفيد من كلا الطرفين المتنازعين . ولكن عندما يجد الجدّ ، تنضم إنجلترا إلى جانب الإمبراطور ضد فرنسا ، وبذلك يطبق اسم ملك إنجلترا العظيم آفاق أوربا ويدرك الأجانب أن حكومة إنجلترا قوة يجب أن تحسب الدول حسابها فتسعى إلى تألفها وتقدم لها الرشى . ولم يدخر ولزى جهداً فى الإعلان عن عظمة سيده وقوته ، ولهذا كرس كثيراً من المال والجهد فى هذا السباق الدولى الكبير . وقد يتساءل المرء عن الفائدة التى تجنيها إنجلترا من هذا كله . فقد كانت قوة الدولتين القاريتين متوازنة تمامًا ، وكان من قبيل الوهم الاعتقاد بأن إنجلترا التى لم يكن باستطاعتها الاحتفاظ بجيش فى القارة لمدة تزيد على ثلاثة شهور متوالية — قادرة على أن تؤثر تأثيرًا فعالا فى التوازن الأوربى أو تحطم تماسك الملكية الفرنسية . أضف إلى ذلك أنه قُدر للأحداث أن

تثبت أن الخطر الحقيقي على حرية البابا لن يأتي من فرنسا ، بل من إسپانيا . فبعد أسر قوات شارل الخامس لفرانسوا الأول فى پاڤيا نهبت روما ، وبعد عامين (١٥٢٩) وقعت معاهدة برشلونة التى أخضعت البابا كليمنت تماماً لإرادة شارل الخامس . وفى تلك الأثناء أجرى الانتخاب مرتين لمنصب البابوية . ورغم الوعد القاطع الذى بذله الإمبراطور ، ولم يتول ولزى منصب البابوية . وما جاء عام ١٥٢٩ حتى كانت خبرات الكاردينال الدبلوماسية قد اكتملت — فإن تجار الصوف لم يكونوا ليسمحوا له — وقد حاول ذلك بالفعل — بتحدى الإمبراطور ؛ فبقى الإمبراطور مسيطرًا على السياسة البابوية . ومن هنا فإنه بصفته حبرًا متطلعاً إلى اعتلاء الكرسى البابوى ، كان قد راهن على الجواد الخاسر ؛ وبصفته رئيساً لوزراء إنجلترا يعنى بشئون التجارة ، لم يكن بوسعه أن يؤيد شخصًا آخر غير الإمبراطور . ومع ذلك فلم يكن ثمة سبب قاهر يرغمه على تأييد أحد الطرفين . وعندما سقط الكاردينال العظيم ، حوّل سيده — وقد كان أحرص منه — اهتمامه عن القارة ، وكرس اهتمامه لميدان آخر كان أولى بالاهتمام وأدعى إلى توقع النجاح . وهو توسيع سلطته فى داخل الجزائر البريطانية . ولكن هنرى لم يصب نجاحاً تامًّا إلا فى ويلز . على أن انتصار الإسپان فى إيطاليا ، ذلك الانتصار الذى توّج بمعاهدة برشلونة — قد تمخض عنه سقوط ولزى وتأسيس الكنيسة الأنجليكانية (الإنجليزية) .

أنجبت كاترين لهنرى بنتا عمدت باسم مارى ، ولكنها لم تنجب له ابناً ذكرًا . وقد حملت المرة تلو الأخرى لتلد له أطفالا إما ماتوا أجنة أو ماتوا بعد ولادتهم بوقت قصير ، مما أورث الملك المتحرق إلى وريث ذكر (ووراء ذلك أسباب سياسية وجيهة) اعتقاداً جازماً بأن ثمة لعنة متسلطة على زواجه . ومن يدرى — لعل فتوى يوليوس التى كانت باطلة من الوجهة الفنية... لعل البابا لا يملك الإفتاء فى مثل هذه المسألة . وكلما أمعن الملك فى التفكير ازداد اقتناعاً بأنه لا زال أعزب ، ومسيحيًّا أعزب أسىء التصرف فى شئونه ، وأنه يجب تسخير الجهاز البابوى العادى فى تنحية كاترين عن طريقه . ولم يكن يساوره شك فى أن ذلك أمر ممكن — وفى الحق أنه حدث فى محيط أسرته منذ وقت قصير . فإن صهره سفولك كان قد طلق زوجته ، وكذلك طلقت أخته مارجريت زوجها ، وتزوج الاثنان من جديد طبقًا

لفتوى أصدرها كليمنت السابع الذى كان مطواعاً . وبعد عام ١٥٢٧ ازدادت لهفة هنرى لأن يسدى إليه البابا هذا الجميل . إذ كان قد وقع فى حب آن بولين Anne Boleyn ، وعزم على أن يحقق رغبة هذه الشابة الجميلة المتقلبة فيتخذها زوجة شرعية له[١] .

وكانت إسپانيا هى العقبة التى تعترض تحقيق هذه الأمنية . ولو لم يكن البابا أميراً إيطاليًّا ضعيفًا تهيمن عليه إسپانيا ، لربما تم إلغاء زواج كاترين دون أن تترتب عليه نتائج ما . ولكن كليمنت كان مسلوب الإرادة ؛ فرغم أن ولزى حذره من أن ولاء إنجلترا لكنيسة روما قد أضحى بأسره فى الميزان ، فإنه كان عاجزًا عن تحدى ذلك الرجل الذى انتهكت قواته قداسة ضريح القديس بطرس وجعلت من قصر الفاتيكان إسطبلا لخيولها . وإزاء الضغط الملح من جانب كل من الملك والإمبراطور نظر البابا المنحوس يمنة ويسرة عله يجد مخرجاً : انتحل أعذارًا للتأجيل ، واقترح حلا وراء آخر (بل وصل به الأمر إلى اقتراح الجمع بين زوجتين) ؛ ولكنه وافق فى آخر الأمر على إنشاء محكمة تنوب عنه فى لندن يرأسها الكاردينال ولزى وكاميجيو Campeggio ، وبدا أنها قد تستطيع اتخاذ قرار نهائى . وواجه هنرى وكاترين هذه المحكمة وأدلى كل منهما فيها بحججه ، كما أبيح حضورها لدهماء لندن — وهم على فظاظتهم لم يتجردوا من الإنسانية أو العدالة — وأتيح لهم بذلك أن يشهدوا جانباً من المأساة الكبرى التى حركت خيال شكسپير . ولكن لا مشاعر أهل لندن ولا دفاع الطرفين عن وجهات نظرهما ولا الشعور العام القوى فى صالح الملكة التى أهينت فى كرامتها ، ولا الكراهية الشديدة الموجهة إلى المرأة الشابة التى كان مقدرًا لها أن تخلفها — لم يكن لشىء من هذا أثره . كانت إسپانيا تسيطر تماماً على إيطاليا ، وفجأة فعل الضغط الإسپانى فعله ، فأحيلت قضية الملك إلى روما .

وكانت الحوادث التى تلت ذلك دلالة كبرى . ذلك أن هنرى اصطنع خطة تدل على الحنكة السياسية الفائقة : فقد دعا البرلمان إلى مساندته فى نضاله مع الكرسى البابوى . وبعد أن كان قد نجح فى حكم إنجلترا بدون برلمان (باستثناء

---

(١) ترجع رغبة هنرى فى طلاق كاترين إلى عام ١٥١٤ .

فترة واحدة قصيرة الأجل) ، فإنه دعا الآن اللوردات والعموم إلى وستمنستر واستبقى دورة انعقادهم سبع سنوات ؛ وأصدر عن طريقهم اللوائح التى اقتضاها استقلال الكنيسة الإنجليزية عن روما وإخضاعها للتاج. قيل أحياناً إن مجلس العموم المنعقد فى عام ١٥٢٩ كان معبأ ؛ ولكن ليس ثمة ما يدل على ذلك . قد يتوقع هنرى — وله الحق فى ذلك — من مجلس مكوّن من ملاك الأراضى ومندوبى المدن ، أن لايتقاعس عن مساعدته فى تحطيم الروابط المالية والقانونية التى كانت تربط إنجلترا بسلطة روحية أجنبية . ولو أنه طالبهم بإبطال القداس لما أطاعوه مثل هذه الطاعة . ولو أنه من أتباع لوثر (كما كان الشائع بوجه عام عن آن بولين) لما استطاع التغلب على ما كان يواجهه من صعاب . ولكن هنرى كان فى عقيدته الأساسية من أكبر عُمد الكنيسة القديمة ، واستمساك هنرى بالعقيدة الكاثوليكية كان لا يقل أهمية عن الجرأة الثورية التى دفعته — فى نطاق العلاقات الدستورية — إلى تحدى البابا والإمبراطور ، ولو أدى إلى أسوأ النتائج . وقد نجح الإصلاح البروتستانتى فى إنجلترا لأنه تم على مراحل (جانبية) ، ولأن التعديل الأول — أو الدستورى — قدم للناس باعتباره رجوعاً إلى الأيام الخوالى حين كان الملوك حقاً هم سادة الكنيسة الإنجليزية . وفى هذا أيضاً أبدى هنرى روح الدهاء المعروفة عنه ؛ إذ لا شيء يقنع الإنجليزى بقبول تغيير أساسى من الاعتقاد بأن مثل هذا التغيير يتمشى فى الواقع ونزعة المحافظة .

أما المكان الذى شغر بسقوط ولزى فقد شغل جانباً منه رجل علمانى كان قد تدرب فى خدمة الكاردينال حيث تعلم أن وسيلة الحظوة لدى الملك هى المضاء والكدّ والخضوع . نظر توماس كرومويل إلى العالم بعين مغامر صلب كان قد حارب فى إيطاليا وقرأ « أمير » مكيافيللى وشعر بأن تيار الأحداث يتجه نحو تجريد السياسة من الطابع الدينى . ولن تجد بين البارزين فى إنجلترا فى ذلك الوقت من كان أقل تأثراً منه بالنزعات الدينية أو أقل استجابة لنداءات العاطفة والتاريخ أو العقيدة والتقوى — وهى كلها عوامل من شأنها أن تحرك قلوب المتدينين . أخذ على عاتقه مهمة تجريد الإكليروس من ممتلكاتهم واقتلاع جذور الرهبان بتلك الروح التى يتصرف بها محام جامد العواطف لا وازع عنده فى مسألة دقيقة معقدة من مسائل

العمل لحساب عميل سيئ السمعة وإن يكن ذا اعتبار .

وكانت المهمة الكبرى التى تواجه كرمويل — وتلى فى الأهمية تدبير أمره مع برلمان الإصلاح الدينى — هى حل الأديرة . كان كرمويل قد وعد الملك بأن يجعله أغنى عواهل أوربا . ورغم أن كثيراً من المؤسسات الدينية كانت مثقلة بالديون بشكل خطير ، فقد كان لا يزال ثمة محصول وافر دانية قطوفه لمن يشاء أن يجنيه . وكان ثمة أسباب أخرى تدعو إلى تضمين التهجم على المؤسسات الدينية فى خطة العمل ضد البابوية . فالرهبان والراهبات كانوا حصن البابوية ، وكانوا فى أغلب الأحيان يتمتعون بالإعفاء من إشراف الأساقفة ؛ كما أنهم كانوا يخضعون لرياسة أجنبية . وطالما سمح لهم بذلك ، كان من المتوقع أن يتحول كل دير فى البلاد للرهبان أو الراهبات إلى معهد تشع منه الحماسة والدعاية للقضية الكاثولكية . يضاف إلى ذلك أنه لم تكن ثمة وسيلة لاستمالة طوائف الملاك فى البلاد وربطهم بعجلة الإصلاح الدينى خيراً من الإسراف فى أن توزع عليهم الأراضى الواسعة التى كانت ملكاً للأديرة . ولا يمكننا أن نجزم بأن ذلك التوزيع كان جزءاً من خطة موضوعة ؛ ولكن من الثابت أن شهوة ملاك الأراضى المجاورة لأراضى الأديرة قد جعلته أمراً محتوماً . وما إن استحوذت الدولة على ثروة الأديرة حتى أغدقتها بسخاء على ملاك البلاد ونبلائها المتلهفين على زيادة ثرواتهم — ومن ثم غدت أقوى طبقة فى إنجلترا ذات مصلحة مكتسبة فى حركة الإصلاح البروتستانتى . وسواء أكان ذلك جزءاً من خطة موضوعة أم لم يكن ، فإنه كان أحكم الضربات التى صوبها هنرى إلى البابوية أثناء نضاله معها .

وأضفى لون من الاحترام المزيف على ذلك الإجراء ، ولولا ذلك لبدا عملا سافراً من أعمال السلب ، وذلك بحرص تقارير عمال كرمويل على إظهار مدى الفساد الخلقى المتغلغل فى تلك الأديرة .

والحق أن الفساد الخلقى كان فاشياً ؛ وتشير إلى ذلك مصادر أخرى أقل من تلك التقارير عرضة للشك . ولكن الرذيلة المستشرية حينذاك فى تلك الأديرة لم تكن فى الواقع كل ما يؤخذ على نظام الأديرة ؛ فإن الرذيلة كانت متوطنة فيها من قديم — بل إن ما أخذ عليها هى أنها غدت عديمة النفع ، وهذا أمر جديد . كانت

الأديرة قد استنفدت أغراضها حين انقطعت عن مهام العلم والتدريس والتسجيل والتنوير ، وبدا أنها فقدت عنصري الإلهام والابتكار . وكان بإمكانها – على أحسن الفروض – أن تدعى أنها تقدم الفرصة للاسترخاء البرىء المتأمل ، وعلى أسوئها أنها تتصدى لإصلاح المتبلدين والمجرمين. ولو أنها كرست ثروتها للتعليم لقدر للمستوى الفكرى والأخلاقى العام فى البلاد أن يسمو لدرجة عظيمة ، وإن أدى ذلك إلى تقليل فرص نجاح حركة الإصلاح ، ولما قدر للأسرات الكبيرة كآل سسل وآل كافندش أن يجمعوا ثرواتهم الطائلة ، ولما استطاع توماس كرمويل أن يصبح مليونيرًا قبل أن يساق إلى المشنقة .

وبسرعة جارفة نفذت هذه التغييرات الضخمة التى أحست بها كل قرية . ولم يشهد تاريخ إنجلترا حكومة فاقت حكومة هنرى فى تصميمها على السير فى طريقها أو فى طابع الطغيان الذى اتسمت به أساليبها . وما إن افتتح برلمان السنوات السبع حتى تملك الرعب الكهنوتيين والعلمانيين على السواء ، حين علموا بأنهم – بتجاهلهم للجنة وازى الكنسية العليا – قد عرضوا أنفسهم للعقوبات القاسية التى كانت توقع على من يتهمون بتنفيذ التشريعات البابوية .

أما قانون السيادة (The Act of Supremacy) الصادر فى عام ١٥٣٤ ، فقد وضع موضع التجربة – فإن هذا القانون الذى جعل الملك الرئيس الأعلى للكنيسة كان أكثر إثارة للجدل من القانون الخاص بالأموال التى كان يحصلها البابا على شكل دخل سنة مما تدره المناصب الجديدة على أصحابها (Annates Act) ، ومن مفعول قانون الاستئناف (Appeals Act) أو أى قانون آخر أصدره برلمان الإصلاح . فإن قَسَم الناس عليه – طبقًا لأوامر الملك – كان معناه النكث بعهدهم للبابا ؛ كما أن رفضهم أداء القسم معناه ملاقاة الموت بفأس الجلاد . وفضل سير توماس مور والأسقف فشر ، وهما أعظم شخصيتين فى الفترة الأخيرة من تاريخ الكاثوليكية فى إنجلترا ، أن يواجها الموت بيد الجلاد على حلف اليمين . ولكن أحدًا لم يحذ حذوهما : فقد حسمت الموقف مشاعر الرعب والإعجاب والولاء التى أثارها جبروت هذا الملك المحتدم العاطفة .

وحتى دارسى D'Arcy زعيم حركة « الحج زلفى — Pelgirmage of Grace
وهى الثورة الكبيرة التى نشبت فى الشمال رداً على حل الأديرة — اعترف بأنه لم يجل
إطلاقاً بخاطره أن يمتشق حسامه ضد الملك . حينئذ بدا أن لا شىء يستطيع أن ينال
من شعبية هنرى : لإطلاق كاترين ولا إعدام آن بولين ولا شنق أفضل أحبار
العصر وألمع إنسانييه .

ورغم انفصال الكنيسة الإنجليزية عن روما وتأكيد السيادة الملكية عليها ،
فقد بقيت مشكلة العقيدة والطقوس الدينية دون حل . فى تلك الحال من المشاعر
الملتهبة كان من المحتمل أن تفضى هذه المسائل العليا الدقيقة إلى فترة طويلة من
الاضطراب والفوضى . كان هنرى قد عقد العزم — وكان مقتنعاً بأنه مهيأ لذلك
تماماً — على أن يتقدم لشغل مكان البابا من الكنيسة الإنجليزية ، وعلى أن يصف
لشعبه ما يجب عليهم أن يؤمنوا به وما لا يجب عليهم ، معتمداً فى ذلك على أقسى
العقوبات التى يستطيع برلمان مطواع أن يبدعها . فالملك هو الذى كان قد وضع
فى عام ١٥٣٦ أول مجموعة من الطقوس الدينية لكنيسة إنجلترا وعنوانها : « المواد
التى وضعها سمو الملك لإقرار السلام المسيحى »[١] . ورغم ميل توماس كرمويل إلى
إقامة ائتلاف دينى وسياسى مع الدول البروتستانتية فى ألمانيا ، لم تقبل إنجلترا إطلاقاً
« اعتراف أوجزبورج » أو تنجرف فى الخضم العام الذى أثارته البحوث اللاهوتية
الألمانية . وإلى الملك يجب أن نعزو اللون الخاص الذى اصطبغت به الحركة البروتستانتية
فى مراحلها الأولى والخطى المرسومة التى سارت فيها . لم يكن هذا الملك اللاهوتى عالماً
ولا فيلسوفاً ولا مثالياً . كان عاقد العزم على وجوب أن يكون الفقه الدينى للكنيسة
إنجليزياً لا ألمانياً ، وأن يكون من صنعه هو لا من صنع فيليب ملانكتون . وربما
كان من شأن ذوى الأمزجة الدقيقة الباحثين فى الفقه الدينى أن يتساءلوا عما هو حق
أو أصيل أو أكثر ملاءمة لتحقيق حاجات البشر . ولكن هنرى كان يريد تسوية
تضمن له فى ذلك الوقت حصر انقسام شعبه فى أضيق نطاق : ففى عام ١٥٣٦
خطا نحو الإصلاح ؛ ولكن فى عام ١٥٣٩ تراجع بحدة وسن المواد الست ، وذلك
على أثر إنذار حركة « الحج الزلفى » بالخطر ؛ وفى أواخر حياته خطا مرة أخرى إلى

---

(١) "Articles devised by the King's Highness to establish Christian quietness"

الأمام ، وقد يكون ذلك بتأثير من كاترين پار Catherine Parr . فأمر فى عام ١٥٤٥ بإجراء مراجعة عامة لكتب الصلوات وأقرت تراتيل الصلوات العامة . ووضع « الإنجيل العظيم » . وهو الإنجيل المعتمد إلى حد كبير على الترجمة المترنمة الرشيقة التى قام بها وليم تنديل ، فى الكنائس بأمر ملكى وجعل فى متناول الجميع . وقد ظل هنرى حتى آخر أيامه متبعاً لطريق الوسط المحبب إلى الساسة : فظل يحرق اللوثر يين لهرطقتهم ويشنق الكاثوليك لخيانتهم .

وفى السنوات الأربع عشرة الأخيرة من حكمه عاونه رجل ترك طابعاً باقياً فى حركة الإصلاح الدينى فى إنجلترا . كان توماس كرانمر من تلامذة كيمبردج المتبحرين فى اللاهوت ومتزوجاً من سيدة ألمانية ، وكان بالفعل قد سار شوطاً فى عداوته لروما حين أدى لهنرى تلك الخدمات الخاصة بذلك الطلاق والتى وضعت أساس سطوته وخطورته فى المستقبل . كان من الممكن لهذا الفقيه الدينى المهذب المثقف أن ينعم بحياة مجيدة لا غبار عليها فى الأوقات الهادئة . فقد تميز بأخلاق صافية وبشعور دينى عميق ورقيق معاً ، وكانت تتملكه رغبة صادقة فى الرجوع بالكنيسة إلى بهائها القديم ، ولكن كانت تعوزه الجرأة . إلا أن الملك — فى مشكلته الشائكة الخاصة بإلغاء زواجه — استطاع أن يركن دائماً إلى خضوع أساقفة كانتر برى .

ورغم هذا الضعف الخطير ، قدم كرانمر للكنيسة الإنجليزية خدمتين لن تمحى آثارهما . فهو المؤلف الرئيسى لكتاب الصلوات الأنجليكانى الذى ساهم هو فيه بالتراتيل والصلوات اليومية . وفيما يلى نقدم اعتراف كاتب كاثوليكى — تأسره اللغة الإنجليزية الجيدة أكثر مما يأسره توماس كرانمر — بالصبغة التى أضفت على كتاب الصلوات جاذبية خالدة : « بفضل التراتيل التى هى من تأليفه ، والصلوات القصيرة اليومية والمقدمات والموسيقى العجيبة الكامنة فى الصلوات الخاصة ، وأكثرها من ابتكاره ، أضفى على الديانة التى قامت وشيكاً قوة لم تكن لتستمدها من أى مصدر آخر . وقد قدم بذلك بديلا من اللغة اللاتينية الرفيعة التى شكلت روح أوربا لأكثر من ألف عام ، وأثرى كنيسة إنجلترا بالأثر الجمالى الذى منه — أكثر

من أى شيء آخر – اكتسبت روحها بقاءها وتعلقت بها (بالكنيسة) قلوب الناس»[١] .

وكانت الطريقة التى انتهت بها حياة كرانمر هى الخدمة الثانية التى قدمها للكنيسة الإنجليزية . فبعد حياة قضاها فى العمل المتواصل ، مات كرانمر بطلا وشهيدًا . كانت الملكة مارى قد أجبرته ، بأمر منها ، على توقيع ست وثائق يجحد فيها معتقداته ؛ ثم علم أن هذه الوثائق التى وقعها قد نشرت . وحين كان فى طريقه إلى سيف الجلاد ألقى بالوثائق إلى النار وأكد معتقداته ، « وفى النهاية قال باسطًا ذراعه اليمنى ويده اليمنى : " يجب أن تكون هذه اليد التى وقعت فى الخطيئة بتوقيعها (للوثائق الست) أول ما يقاسى العذاب من جسمى " ؛ وهكذا وضعها فى النار وأحرقها بنفسه » .

وتتميز الفترة التى تفصل بين وفاة هنرى واستشهاد كرانمر باستمرار تأرجح إنجلترا بين النفوذ البروتستانتى والنفوذ الكاثوليكى ، وإن اتخذ ذلك التأرجح شكلا أشد عنفًا ، بعد أن كانت مشيئة هنرى الطاغية قد حصرته فى أضيق الحدود . ففى عهد إدوارد السادس سيطر المصلحون على الحكومة ، وشقوا طريقهم بخطوات حذرة تحت الحكم المستنير الذى اتسم به عهد الوصى سومرست ، ثم أسرعوا الخطى وأصبحوا أكثر خطورة فى عهد خلفه نورثمبرلاند . ثم أعقب ذلك رد فعل حاد – ففى عام ١٥٥٣ توفى الملك الصبى ، وانتقل العرش طبقًا لوصية والده إلى الأميرة مارى ، وكانت سيدة مكتملة فى السابعة والثلاثين من عمرها عرفت بإخلاصها للعقيدة الكاثوليكية قولا وعملا . وقد تلقى حزب الإصلاح المتطرف تولى مثل هذه الكاثوليكية بعين الشك والنفور ، إذ تنبئوا بنقض كل ما فعلوه : إلغاء الطقوس الإنجليزية ، وإلغاء الإنجيل وعودة الكنيسة إلى الصلح مع روما ، وفقدان الأساقفة البروتستانت مناصبهم – وبذلك يتعرض كل ما اتصل بالإصلاح الدينى لأخطار شخصية خطيرة . ولقد أراد نورثمبرلاند أن يتجنب هذه الشرور ، ويضمن بقاءه متمتعًا بالسلطان ، فعزم على تعديل وراثة العرش . ولكن المؤامرة فشلت ؛ إذ فضل الشعب الإنجليزى مارى تيودور على ليدى جين جراى Gane Gray حفيدة مارى الأخرى

---

(١) Hilaire Belloc, Thomas Cranmer.

التى كانت أختاً لهنرى الثامن وزوجة لدوق سفولك . ثم حدث ما كان متوقعاً : أعيدت العبادة القديمة ، وأعيد رسمياً ارتباط الكنيسة بروما ، وعفى رسمياً على آثار الإصلاح الدينى ، وذلك باستثناء شىء واحد وهو أن برلمان مارى نفسه لم يجسر على المساس بالمصالح المكتسبة الكبيرة التى تمخضت عن توزيع ثروة الأديرة .

ورغم أن رجال البرلمان لم يكونوا يأبهون عادة للمسائل الدينية (كما يدل على ذلك موافقتهم على السياسة التى اتخذت فى عهد إدوارد ثم موافقتهم على سياسة أخرى مخالفة فى عهد مارى) ، فإن الناس فى إنجلترا كانوا يحسون بإحساسين عميقين لم يوجدا فى هذه السيدة المتعصبة لمبادئها السامية ، المنكودة الطالع مما يشبعهما ، أو وجدا ما يعترضهما — وأول هذين الإحساسين هو العاطفة القومية . فقد تزوجت مارى بمطلق رغبتها فيليب ملك إسپانيا ؛ ورغم أن عقد الزواج كان من صنع الأسقف جاردنر الذى بذل أقصى ما أمكنه من المهارة واضعاً نصب عينيه المحافظة على استقلال إنجلترا ، فإن زوجها كان غير محبوب : فلم يكن هناك من يكن المحبة للملك الإسبانى أو لحاشيته أو لفكرة أن إنجلترا الآن تابعة لبلد أجنبى . بل لقد قامت ثورة ضد هذا الزواج تزعمها توماس يات Thomas Wyatt ولكن قضت عليها شجاعة الملكة نفسها . وحين علم الناس أن الزواج لن يعقب ولياً للعهد ، اتجهت أفكار الشعب إلى الأميرة إليزابيث التى لم تكن من صلب إسبانى أو زوجة لإسپانى ، بل كانت إنجليزية أو ويلزية من الناحيتين : فهى ابنة آن بولين وهنرى ، وهى ثمرة ذلك الزواج الذى ترتب عليه فصم الرابطة بين إنجلترا وروما ، وفتح الباب واسعاً أمام المد الكبير لحركة الإصلاح الدينى .

أما الإحساس الآخر لدى الشعب الإنجليزى فهو عاطفة الإنسانية . حقاً إنه فى الأوقات التى تحتدم فيها المشاعر كان بإمكان الإنجليز أن يقترفوا أعمالا وحشية فظيعة ، ولكنهم كانوا يستطيعون أن يدركوا وجه الخير حين يتراءى لهم . كان النحس الذى أحاط بالملكة كاترين قد استحوذ على مشاعرهم ؛ والآن أصبحت تثيرهم تلك المأساة الأخطر شأناً التى تسببها اضطهادات حكم مارى . قد لا يزيد عدد البروتستانت الذين قطعت رءوسهم بسبب معتقداتهم فى عهد الملكة مارى على ثلاثمائة ؛ ولكن كان يدخل فى هذا العدد القليل — إذا قارناه بما كان يحدث فى القارة — زعماء حزب

الإصلاح وأسمى الرجال فى البلاد فضيلة وموهبة . ولم تنطفىء النيران التى اشتعلت حول جثمان كرانمر ولاتيمر Latimer وردلى Raidley بسرعة ؛ وكان سجل الشهداء (Martyrology) الذى وضعه جون فوكس John Foxe وحكى فيه بحرارة قصة حياة ضحايا تعصب مارى وموتهم — بالنسبة للبروتستانت — لا يفوقه قداسة إلا الإنجيل وحده . ومثلا للروح السامية التى كانت تدفع آباء العقيدة البروتستانتية ، وللشجاعة التى حدت بهم إلى أن يفضلوا مواجهة عذاب التحريق على أن يخونوا معتقداتهم . ولم يخدم شىء العقيدة البروتستانتية فى إنجلترا فصفاها وعمقها كما غرس فى نفوس الشعب الإنجليزى الفزع من روما ، بقدر ما خدمتها تلك الألوان من العذاب التى لم يكن لها مبرر والتى نفذت — على عكس ما ارتأته حكمة شارل الخامس تطبيقاً لإرادة سيدة وحيدة بائسة . ومحا تيار البطولة والتضحية من نفوس الإنجليز ذكريات الطلاق بكل ما لابسه من فجر دنىء .

ولم يكن استقلال إنجلترا آمناً بأى حال خلال هذه الفترة القلقة . كان ثمة سؤال جوابه فى ضمير الأحداث : هل ستصبح البلاد تابعة تدور فى فلك فرنسا أو إسبانيا ؟ أو هل توهب القوة لتشق لها طريقاً خاصاً بها وحدها ؟ كان حجر الزاوية فى أمن البلاد هو الاتحاد بين إنجلترا وإسكتلندة . وقد أدرك هنرى السابع هذه الحقيقة فوضع أسس الوفاق بين الدولتين بزواج ملكى ؛ وأدركها هنرى الثامن من جديد فدبر تزويج إدوارد السابع بالطفلة مارى ملكة الإسكتلنديين ؛ كما أدرك تلك الحقيقة أيضاً الوصى سومرست الذى بدت فى الخطط التى رسمها لإقامة اتحاد إنجليزى — إسكتلندى صورة التسوية النهائية فى كثير من تفاصيلها الدقيقة . ولكن العقبات كانت جسيمة فى سبيل الوحدة — فإن رجال الأرستقراطية الإسكتلندية الذين كانوا يوجهون السياسة فى تلك المملكة الشمالية كانوا لا يقلون عن أمثالهم فى أوربا فساداً وإيثاراً لمصالحهم الخاصة ، وكانوا على استعداد — إذا واتتهم الظروف — لبيع أنفسهم بالمال للحاكمين فى لندن وباريس على حد سواء . ولكنهم لم يكونوا ليستطيعوا كلية أن يتجاهلوا دروس تاريخهم القومى : من تلك القرون من الإغارات على الحدود ، ومن ادعاءات الملوك الإنجليز المتعالية ، ومن التحالف الطويل مع فرنسا ، والإخلاص التقليدى للكرسى البابوى . كذلك لم يزدادوا ميلا

للتفاهم مع إنجلترا حين عمل هنرى الثامن – فى الأيام السود التى تلت هزيمة سلواى موس Solway Moss (١٤٥٢) – على إحياء ادعاءات السيادة القديمة التى كان أسلافهم قد رفضوها ، وحين استرسل الوصى سومرست فى تلك السياسة الجامدة حين غزيت بلادهم وأحرقت أدنبرة وهزم جيش إسكتلندى فى پنكى Pinkie . هذه الأعمال لم يكن من شأنها أن تجعل الأدلة البايغة التى وجهها الوصى إلى الشعب على مزايا الاتحاد أكثر إقناعـًا . ولهذا لاعجب أن يتفوق الحزب الفرنسى فى توجيه السياسة الإسكتلندية ؛ ففى عام ١٥٤٨ زوجت مارى الطفلة ، التى كانت قد خطبت للأمير إدوارد الصغير فى عام ١٥٤٣ ، من فرنسوا ولى عهد فرنسا .

تلك هى السحابة التى خيمت فى ذلك الوقت على مستقبل إنجلترا السياسى . أضحى من المحتمل أن تتحد فرنسا وإستكلندة يومـًا ما تحت حكم الزوج الفرنسى لمارى ملكة الإسكتلنديين ، وفى هذه الحالة يكون من المحتمل أن يصبح التحالف مع إسپانيا أمرًا لازمـًا لسلامة إنجلترا . ولكن إسپانيا كانت كاثوليكية ، وكان الرأى العام فى إنجلترا منجرفـًا فى تيار الإصلاح . وقد لايكون التحالف مع إسپانيا مما يمكن الحصول عليه فى كل وقت ، أو قد يتعذر تحقيقه إلا نظير ثمن قد لا تكون إنجلترا مستعدة لدفعه . وهكذا يقدر لإنجلترا البروتستانتية أن تضرب عليها عزلة خطيرة وهى تواجه أيرلندة الكاثوليكية فى الغرب وإسكتلندة الكاثوليكية فى الشمال ، وإسپانيا المشكوك فى موقفها ، وفرنسا المعادية . هذا الاحتمال الباعث على القلق هو الذى حدا بسومرست إلى التصميم على نشر أفكار الإصلاح الدينى بين الشعب الإسكتلندى ، وكان ذلك هو الموقف الذى قدر لحكومة إليزابيث أن تواجهه ، وهو الموقف الذى لم يعدّل منه سوى نمو حركة الإصلاح الدينى فى إسكتلندة .

يمكن الرجوع إليها

— Histories of England : G.M. Trevely
(1905-23). J.A. Froude, (1856-187
— Cambridge Modern History, Vol. II.
— A.F. Pollard, Henry VIII, (1913).
— A.F. Pollard, Wolsey, (1929).
— A.F. Pollard, A Life of Thomas Cranmer,
— F.A. Gasquet, Henry VIII and the English l
— H. Belloc, Cranmer, (1931).
— G. Cavendish, Life of Thomas Wolsey, (1930).
— W. Roper, The Life and Death of Sir Thomas Mo
— Sir Thomas More, Utopia.
— R.B. Merriman, Life and Letters of Thomas Crom
— R.W. Chambers, The Saga and Myth of Sir Thomas
— J.S. Brewer, The Reign of Henry VIII. Ed. J. Gard
— R.W. Dixon, History of the Church of England, (18
— W. Stubbs, Seventeen Lectures on the Study of Mediaeval and Modern History, (1900).
— F. Seebohm, The Oxford Reformers of 1498, (1867).
— J.B. Mullinger, The University of Cambridge from the Earliest Times, (1873-84).
— A.F. Pollard, England under Protector Somerset, (1900).
— A.F. Leach, English Schools at the Reformation, (1896).
— J.M. Stone, History of Mary I, Queen of England, (1901).
— H. Forneron, Histoire de Philippe II. 4 vols, (1881-2).

الفصل العاشر

إمبراطورية شارل الخامس

دلالتها – مراكز المعارضة – الأهداف الرئيسية للسياسة الإمبراطورية – شعبية شارل في إسپانيا – الصعوبات المالية – الأراضي المنخفضة – أهميتها المالية – محاكم التفتيش في الأراضي المنخفضة – الالتفاف بحراً حول العالم – المكسيك وبيرو وإسپانيا الكبرى – معاملة إسپانيا للأجناس الخاضعة لها – الانتصارات الإسپانية في إيطاليا – كليمنت السابع ونهب روما – دوريا يسترجع جنوه إلى جانب الإمبراطور – شارل في أوج عظمته في عام ١٥٣٠ – الممتلكات الإسپانية في إيطاليا .

أوجدت إمبراطورية شارل الخامس تحولا سياسياً في أوربا لا يقل كثيراً في أهميته عن احتلال قيصر لبلاد الغال أو ضم شارلمان ألمانيا إلى ملك الفرنجة [١] . قدر لهذه الإمبراطورية أن تضم بلاداً شديدة التباين في كل شيء في طباع أهلها وتقاليدهم : كإسپانيا والأراضي المنخفضة ، وألمانيا ونابولي ، وحضارة سهل لمباردى القديمة ، وممالك المكسيك وبيرو التي ضمت حديثاً . ولقد تكونت هذه الإمبراطورية نتيجة لحروب كانت ميادينها من الاتساع بحيث يمكن وصفها بأنها حروب أوربية خاصة ، كما كانت نتيجة التنافس مباشرة بين فرنسا وألمانيا للسيادة على أوربا ، تلك الخصومة التي ما فتئت منذ ذلك الوقت تقض مضاجع الساسة . ولقد أتاحت الإمبراطورية لإسپانيا ، التي لم يفقها بلد آخر في شدة تمسكها بروح المحافظة ، سيادة عابرة في العالم في العصر الحديث اعتبرتها فرنسا في بادئ الأمر ، ثم إنجلترا فيما بعد ، خطراً دولياً . كذلك أدى قيام هذه الإمبراطورية إلى القضاء على الحريات الإيطالية ؛ وبسلسلة واضحة من العلية ، إلى خلع الملكية الإنجليزية سلطان البابوية عنها . وإليها يمكن أن نتتبع المرحلة الأولى في ذلك الانفصال التدريجي في العلاقات بين الأراضي المنخفضة (التي كانت في ذلك الوقت وثيقة الاتحاد مع إسپانيا) والريخ الألماني ، مما أفضى في الوقت المناسب إلى قيام جمهورية هولندة البروتستانتية ومملكة بلجيكا الكاثوليكية . ويستوى عندنا اعتبار هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف إيذاناً ببدء العصر الحديث ، أو اعتبارها آخر محاولة كبيرة لاسترجاع

(١) انظر ثبت الأنساب (ب) .

الوحدة القديمة التى قامت فى العصور الوسطى بين العقيدة والحكم لمصلحة الكنيسة الكاثوليكية . ولقد وقف شارل يحارب فى كل جبهة : يحارب اللوثريين فى ألمانيا والأراضى المنخفضة ، والأتراك فى المجر وتونس والجزائر ؛ وفى كل ركن من أركان البحر المتوسط وقف شارل يحارب كالبطل الذى اختارته العناية الإلهية للدفاع عن العقيدة الكاثوليكية . وكان كل ما فى إسپانيا من غلايين الحرب وحملة الرماح والحكام العسكريين والكهنة الإسپان يعلنون للملأ أن الدولة الإسپانية التى التأمت حديثًا ، قد اضطلعت بدور تبشيرى وإمبراطورى .

ولكن أوربا لم تكن متحدة الجنان : ففرنسا التى كان من الممكن أن تتفق مع شارل الكاثوليكى كانت شديدة العداء لشارل الإمبراطور ؛ وإيطاليا (باستثناء بعض المؤثرات البروتستانتية الضئيلة) اضطرت للرضوخ لسيطرة الدولة اللاتينية التى كان بوسعها على الأقل أن تحمى مدن الشاطئ الإيطالى من الأتراك . ولكن الإسپانى الصارم الذى لا يمكن فهمه كان موضعًا للخوف والكره فى الشمال التيوتونى . هناك فى تلك الأصقاع استطاعت الدول اللوثرية ، يدعمها الكبرياء الألمانى والكراهية الفرنسية للإمبراطور ورجاله ، أن تثبت أقدامها ؛ وهناك أيضًا فى الأراضى المنخفضة نمت المعارضة للسيطرة الإسپانية ، وهى معارضة بلغت من العنف والإصرار أن ثورة الفلمنكيين والهولنديين تعدّ فى طليعة الأسباب التى يعزى إليها اضمحلال إسپانيا .

وكان رأس هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف رجلا خلا تمامًا من الفتنة والجاذبية وخلال الفروسية . كما أنه لم يكن محاربًا ولا مسترسلاً فى الخيال ، وفى أى موضوع يعرض له كان يعوزه الإبداع ، لم يكن جذابًا فى مظهره أو فى سلوكه ، وكان ذا شفة بارزة عرفت عن أسرة هاپسبورج ، مع لعثمة فى حديثه . وحين ولى الحكم فى سن الثامنة عشرة كان يستطيع التكلم بالفرنسية والفلمنكية ، ولكن كان لا يعرف شيئاً عن الإسپانية لغة أمه أو عن إسپانيا وطن أمه . ورغم ذلك فقد كانت عنده قابلية للتعلم ، كما كان مقدامًا صبورًا . وبعد انحسار الفورة الأولى من طيش الشباب ، أسرعت إليه الشيخوخة ، وتملكته حكمة صارمة ملحة مكنته من اجتياز صعاب قد ينوء بها من كان أضعف عوداً . كان فلمنكيًّا بالميلاد وبالوراثة ، ثم كانت نهاية حياته — بعد أن تنازل عن العرش — فى دير إسپانى . وإذ أدرك أن إسپانيا هى المركز الحقيقى لقوته ، أصبح بالتدريج إسپانيًّا دون أن يحسّ بذلك .

ورغم ما حاوله من إنصاف الأجزاء المختلفة التى كان يتكون منها ملكه ، فإنه لم يكن بأى حال السيد المطلق السلطان فى أى جزء منها ؛ فلم يكن على الإطلاق من الغنى أو القدرة بحيث يدمج الشعوب المتناحرة التى كان يستند إليها حكمه . وحتى نهاية المطاف بقيت كل من إسپانيا والفلاندر ووتنبرج وروما ، بعيدة بعضها عن بعض ، بعد القطبين أحدهما عن الآخر .

أما إزاء العواهل المسيحيين الآخرين ، فقد كانت سياسته دفاعية محضة. فقد عزم على الاحتفاظ بما ورثه أو ما اعتقد أن له حقًّا فى وراثته . ولكن الدفاع عن إمبراطورية فتية ضخمة مثل هذه لم يكن ليتم دون حرب . كانت فرنسا خصما بالضرورة ، تنافس شارل على برجندية وناڤار (والأخيرة دولة صغيرة بجوف البرانس كان شارل قد وعد فى عام ١٥١٦ بأن يرجعها إلى أسرة ألبرت الفرنسية التى كانت تحكمها من قديم) كما تنافسه أيضًا فى الانتخاب لمنصب الإمبراطورية وفى ميلان . وإن احتمال قيام دولة فرنسية فى سهل لمباردى أو فى خليج جنوة تعرقل المواصلات البحرية بين إسپانيا وألمانيا كان خطرًا شعر شارل بأن من واجبه مقاومته . كان ينبغى إذن أن تبقى ميلان وجنوة فى حوزة الإمبراطورية إذا ما أريد للفرسان الإمبراطوريين Landsknechts أن يمروا بسهولة إلى إسپانيا أو إذا ما أريد لحملة الرماح الإسپان أن يؤدوا دورهم فى ميادين الحرب الألمانية .

ولم يكن انتزاع ميلان من يد الفرنسيين عملا عدائيًّا نزقًا فى نظر شارل ، بقدر ما كان استردادًا لحلقة ضرورية فى سلسلة الدفاع الإمبراطورى . أما الأتراك فلهم شأن آخر — فقد كان واجبًا مقدسًا مفروضًا على الإمبراطور بحكم منصبه التاريخى وبحكم اتجاه الرأى العام فى إسپانيا ، أن يناجز « المسلمين » فى كل مكان . وكانت قشتالة شديدة الاهتمام بناڤار ، ولكن إيطاليا لا تعنيها فى قليل أو كثير ؛ وعلى العكس من ذلك كانت أرجونة شديدة الاهتمام بإيطاليا غير مكترثة بناڤار ؛ هذا إلى أن أرجونة وقشتالة كلتاهما لم تبديا اهتمامًا بالأراضى المنخفضة . ولكن إسپانيا بأسرها كانت تمقت الأتراك وتخشاهم ، وتضاعف هذا الشعور منذ أن التحق القرصان خير الدين برباروس بخدمة الأتراك ، وأخذ من وكره فى الجزائر يسطو على الشاطئ الإسپانى . وكان الإسپان قد دربتهم الأحداث التاريخية على فكرة

الحرب الصليبية . وكانوا شديدى الرضى طالما حارب إمبراطورهم اللوثريين والأتراك ؛ أما إذا حارب في سبيل أى قضية أخرى من قضايا تلك الإمبراطورية المترامية الأطراف فإنهم لا يكترثون إلا قليلا .

كان التاج محبوبًا فى إسپانيا . وكانت ثورة ممثلى الأقاليم Comuneros التى أقلقت شمال إسپانيا على أثر توجه شارل إلى تلك البلاد لأول مرة ، قليلة التأثر بالنهضة الجمهورية ، الأمر الذى يدل عليه أن الملكة المخبولة جوانا كانت أكبر ممول للثوار . لم يكونوا يشكون فى أن ملكًا شابًا من الفلاندر قد اعتلى عرش إسپانيا ؛ بل إن سبب شكواهم أنه قد اصطحب معه رتلا من الأتباع الفلمنكيين الجشعين وأنه اعتصر البلاد طلبًا للمال ثم رجع إلى الشمال تاركًا إسپانيا تحت رحمة أدريان أسقف يوترخت، وهو حبر هولندى مكروه لم يكن يعرف شيئًا عن البلاد أو لغتها . ومع هذا فإن عددًا من نبلاء قشتالة التفوا حول الملك وهزموا الثوار على ساحة فيلاجوس Vilagos (٢٣ أبريل ١٥٢١) ؛ ولهذا حين رجع شارل إلى إسپانيا فى عام١٥٢٢ — وفى هذه المرة كان التاج الإمبراطورى قد رفع قدره ، وكان إخلاصه للكاثوليكية قد تأكد فى مرسوم ورمز — حين رجع شارل إلى إسپانيا تصحبه قوة لا بأس بها من المدفعية وثلاثة آلاف فارس ألمانى ، وجد شعبًا على استعداد لطاعته والموافقة — فى حدود معينة — على تقديم المال له . وأكسبه تنكبه عن إراقة الدماء إعجاب رعاياه وعرفانهم للجميل ، خاصة وأنهم عرفوا أخيراً (١٥٢٢ — ٩) أنه على استعداد لتعلم طرائقهم وإعطائهم نوع الحكومة الذى يريدون . ورغم أن مزاج أهل قشتالة كان يقرّ الحكم الفردى ، فإن شارل حرص على احترام الحقوق الدستورية التى كان يعتز بها أهل أرجونة كثيرًا . كذلك سرعان ما أدرك سطوة الكنيسة الإسپانية واعترف بها .

وخيّر المسلمون فى بلنسية بين اعتناق المسيحية وترك البلاد ، وهو عمل يعده رجال الاقتصاد الحديث من أعمال الجنون والتعصب وإن كان عملا سياسيًّا يتمشى وروح التحيز السائدة فى ذلك العصر . كذلك رحب الناس بزواجه من إيزابلا أميرة البرتغال باعتباره إجراء دفاعيًّا إزاء احتمال نشوب المتاعب فى الغرب ؛ كذلك رحبوا بهذا اللون من الفخامة التى كانت مألوفة فى برجندية وإن كانت غريبة على

عادات البلاد البسيطة ، ولكنها ليست كثيرة على ملك هو فى نفس الوقت إمبراطور وأعظم عواهل أوربا .

وكان تمويل هذه السياسة الإمبراطورية العالمية مشكلة جديدة لأوربا ، ولم يستطع شارل أن يجد لها حلا ناجعاً بالرغم من حصوله على معونة آل فوجر Fuggers وولزر Welsers — وهما البيتان الماليان الألمانيان اللذان كان لا غنى عن قروضهما . ورغم أن الضرائب قد ازدادت فى إسپانيا إلى ما يقرب من ثلاثة أضعاف ما كانت عليه ، ورغم أنه لم ينفق منها على البلاد ذاتها سوى القليل ، فقد وجد فى نهاية حكمه عجز يتراوح بين ثلاثة عشر وعشرين مليوناً من الجنيهات الإسترلينية ، كما وجدت ظاهرة خطيرة منذرة بالويل للميزانية الإسپانية بصفة خاصة ، وهى اطراد الزيادة فى المعاشات التى تمنحها إدارة الدخل مقابل الأموال التى قدمها أصحابها مقدماً ، وهى طريقة لعقد قرض داخلى لا يوجد ما يدانيها سفهاً . وأسوأ من هذا كله رفض نبلاء قشتالة أن تفرض عليهم الضرائب (١٥٣٨) ، وما ترتب على ذلك من حرمانهم عضوية الكورتيز . وهكذا نجد أن صعوبة تمويل الإمبراطورية قد عجلت بالقضاء على الحريات البرلمانية فى قشتالة بدلا من عملها على تنميتها . أما الكورتيز فقد أصبح ظلاً بعد أن انعدم تمثيله لمصالح ملاك الأراضى — مجرد برلمان يضم أعضاء يمثلون ٣٦ مدينة .

ورغم ذلك فإن الإمبراطورية الواسعة المفككة قد بقيت ملتئمة فى اتحاد شخصى فضفاض تحت حكم آل هاپسبورج. كانت مقاطعات الأراضى المنخفضة فى بداية الأمر (١٥٠٧ — ٣٠) تحت حكم ماجريت دوقة ساڤوى ، وهى ابنة مكسمليان وعمة شارل الخامس ، ثم حكمتها بعد ذلك (١٥٣١ — ٣٥) مارى النمسوية أخت شارل وأرملة لويس ملك المجر . ولكن شارل كان باستمرار وراء كل شيء . وحين رفضت مدينة غنت المزدحمة بالسكان (١٥٣٩) أن تدفع نصيبها من الضريبة التى أقرتها مقاطعات الفلاندر من أجل الحرب مع فرنسا ، وانجرفت فى تيار الثورة لدرجة القبض على ضباط الإمبراطور والاتصال بفرنسوا الأول ، جمع شارل جيشاً وأوقع بالثوار العقاب الذى يستحقونه . أُعدم اثنان وثلاثون من زعماء البلاد . وألغى الدستور ، ونزلت أشد جمهوريات الأراضى المنخفضة

اعتداداً بنفسها إلى مركز مدينة وسط أراض زراعية مفروض عليها إعالة حامية إمبراطورية .

وإذا أريد لإمبراطورية من أى نوع أن تبقى متماسكة ، فإن من الواضح أنه لابد من مقاومة ادعاءات مدينة مثل غنت وحريتها فى أن تشارك فى تمويل حروب الإمبراطورية . ولكن فى الحق لاغنت ولا أى مدينة أخرى ، فلمنكية أو هولندية ، كانت تكترث لأطماع الإمبراطور الواسعة . كانت هذه المدن فخورة بشارل ، وقد أفادت — على طول المدى — بالسياسة التى ترتب عليها ضم تورنى Tournai وفريزيا Frisia ويوترخت Utrecht وأفريسيل Overyssel وجرونننجن Groningen ودفنتر Deventer وجلدرلاند Gilderland إلى كيانها الرخو . ولكن أى مصلحة لها فى ناڤار أو ميلان ، أو فى استرجاع دوقية برجندية التى أضاعها الهابسبورج ؟ إن تجارة الأراضى المنخفضة كانت تتطلب السلام وتلح عليه ، ولكن سياسة شارل كانت تقحمها فى حرب مستمرة . وقد فرض على سكان مدن الشمال أن يتحملوا القسط الأوفر فى أعباء الإمبراطورية المالية ، وكان لهم الحق فى أن يقولوا إنهم لم يحصلوا فى مقابل ذلك إلا على جزاء ضئيل ، اللهم إلا الاضطهاد الوحشى للخارجين على الكنيسة .

هذا الاضطهاد الدينى هو أكبر بقعة لطخت سمعة شارل . حقاً إن كونه — هو نفسه — فلمنكياً جعله أشد تصميما على اجتثاث جذور الهرطقة من وطنه ، ومن هنا نجده يعتبر قمعه للإلحاد واجباً مقدساً فى عنقه عليه أن يفى به لله وللبلاد . وحين وجد لدى عودته من مجمع ورمز الإمبراطورى أن الآراء اللوثرية تسرى بسرعة فى الأراضى المنخفضة ، أدخل إليها محاكم التفتيش (١٥٢٢) اعتقاداً منه أن بإمكان مثل هذه الأداة التى أحرزت نجاحاً كبيراً فى القضاء على بقايا المسلمين فى إسپانيا أن تحرز نجاحاً مماثلا إزاء الهولنديين والفلمنكيين . ولكن أهل الشمال كانوا يمتازون بشجاعة فائقة وعناد شديد . وحين أحرق فى أنتورب هنرى دى ڤوز Henry de Voes وجون إش John Esch — وهما فى الطليعة من شهداء العقيدة البروتستانتية — (٣١ يولية ١٥٢٣) ، أعطيا مثلا لمن يأتى بعدهما فى تذوق العذاب بتلك الروح الصلبة التى نجحت بعد ثمانية وخمسين عاما فى تأسيس الجمهورية الهولندية البروتستانتية .

« وبينما كانوا يساقون إلى المحرقة ، صاحوا بصوت مرتفع أنهم مسيحيون، وحين شد وثاقهم إليها وأشعلت النيران أخذوا ينشدون مواد العقيدة الاثنتى عشرة ، ثم ترنموا بعد ذلك بترنيمة الشكر (Te Deum laudamus) متناوبين فى إنشاد مقاطعها مقطعاً مقطعاً حتى أتت النيران على أصواتهم وحياتهم » .

وقد قيل إن عهد شارل شهد استشهاد نحو ثلاثين ألف رجل وامرأة فى المقاطعات السبع عشرة فى سبيل معتقداتهم . كان بعض هؤلاء من المعمدين الثائرين على النظام الاجتماعى بأسره ، كما كانوا خصوماً ألداء للكنيسة الكاثوليكية ؛ ولكن البعض الآخر كانوا من أتباع لوثر وكلفن وكانت جريرتهم الوحيدة أنهم كانوا يلتقون لقراءة الكتاب المقدس بلغتهم القومية ، وأنهم صمموا على عبادة الله وفقاً لطريقتهم . لم يدخر شارل وسعاً فى توقيع أى عقوبة مهما قست على المعمدين ، هؤلاء البؤساء الذين كانت معتقداتهم — الثورية إلى حد كبير — ثمرة البؤس الاجتماعى. شويت أجسادهم بنار بطيئة ، وأحرقوا أحياء أو أغرقوا فى اليم ، أو نزلت بهم أساليب أخرى من العذاب الأليم . فقد رأت السلطات أن المشنقة أو المحرقة اللتين قد تكونان كافيتين للوثريين ليستا كذلك لأولئك المتهورين الذين تجرءوا على مهاجمة الملكية والكهانة . وبالرغم من كل ذلك استمرت الهرطقة ؛ بل لقد تغلغل مذهب لوثر فى بلد توماس آكمبس[1] Thomas à Kempis و « أخوة الحياة المشتركة » إلى حد استحال معه سحقه بالاضطهاد مهما بلغت قسوته . اضطهد بروتستانت الأراضى المنخفضة وزج بهم فى أعماق السجون ومنعت اجتماعاتهم الدينية وحرقت أناجيلهم وذبح خطباؤهم ؛ ورغم كل ذلك فإنهم لم يهنوا فى مقاومتهم السلبية للحكومة . وحين تنازل شارل عن العرش فى بروكسل فى عام ١٥٥٥ ، واجه خلفه فى المقاطعات الشمالية شعباً قد رسخت عقائده البروتستانتية وسرت فيه مسرى الدم بحيث عجز كل جبروت الإمبراطورية الإسپانية عن ردعهم .

وفى العام الذى أدخلت فيه محاكم التفتيش فى الأراضى المنخفضة ، وبينما كان لوثر لا يزال مختبئاً فى وارتبورج Wartburg كان لا يزال يحق لكل كاثوليكى مخلص

(١) ١٣٨٠ — ١٤٨٠ . راهب ألمانى ألف (أو نسخ) كتاب « ترسم خطى المسيح Imitatio Christi » الذى يعزوه البعض إلى المصلح الكاثوليكى الهولندى جيرار جروت Gerard Groote .

أن يأمل فى أن يتم — على يد حكومة حازمة خلال بضع سنوات — القضاء على « مشادة الرهبان » ، وهو الاسم الذى كان يطلق على المشكلة اللوثرية فى ذلك الوقت . وبينما كانت هذه الأحداث تجرى ألقت السفينة « ڤكتوريا » — وهى غايون حمولته خمسة وثمانون طناً ، يحمل العلم الإسپانى ويقوده جون سباستيان دل كانو John Sebastian del Cano — ألقت مراسيها على نهر الوادى الكبير بعد غيبة ثلاث سنوات . كانت هذه السفينة قد دارت حول العالم بعد أن بدأت رحلتها كوحدة من أسطول يتكون من خمس سفن ويتولى فردناند ماجلان قيادته العامة . وكانت « ڤكتوريا » قد دارت حول پتاجونيا وعبرت المحيط الهادى ، وشقت طريقها بعد موت ماجلان فى جزائر البهار عبر المحيط الهندى إلى الطرف الجنوبى لإفريقية ، ومن هناك رجعت إلى بلادها .

وقد انتشى الإمبراطور الشاب بهذا الدليل الجديد على النعم المتعددة التى اختصت بها العناية الإلهية أسرة هاپسبورج . ألم يكن من الواضح أن النمسا كان مقدراً لها أن تبسط سلطانها على العالم ؟ « النمسا ! إمبراطورية كل الوجود Austriae est imperare orbi universo » . وقد تراءى لناظرى شارل أن النمسا الكاثوليكية ستبسط جناحيها على العالم الكاثوليكى : فكوبا كانت قد دخلت فى حوزة إسپانيا ، وكان هرناندو كورتيز Hernando Cortes قد أبحر من كوبا وضم المكسيك إلى أملاك إسپانيا . ورغم أن هذا القائد الصلب الذكى المحنك لم يكن معه سوى حفنة من الإسپان ، فقد استطاع بخيوله ومدافعه أن يتغلب على الأزتك Aztecs ، وهم جنس من أكلة اللحوم المتعطشين للدماء ، كانوا قد أقاموا فى بلادهم حضارة عجيبة عرجاء : فلم يكونوا يعلمون شيئاً عن العملة أو دواب الحمل أو الأبقار والماعز . ولقد خطف كورتيز ملكهم مونتزوما Montezuma ونصب نفسه سيداً على عاصمتهم . وليس فى التاريخ سوى أمثلة قليلة أوضح من المثال الذى ضربه كورتيز على أثر الهيبة فى الحرب . كان الأزتك قوماً أبرياء بقدر ما كانوا قساة . وجدوا فى القائد الإسپانى مصدراً للعجب تملك ألبابهم : فقد كانت حيويته الحيوانية الشرسة وخيوله ومدافعه أشياء خارجة عن عالم تجربتهم . وكانوا على استعداد لتصديق الأسطورة التى دبر كورتيز إذاعتها ، وهى الأسطورة القائلة إن الأجانب المحاطين بالأسرار والذين هبطوا

من المجهول بحيواناتهم الخارقة للعادة ، هم أنصاف آلهة ، من العبث إغضابهم أو مقاومتهم .

ولم يكن إخضاع المكسيك — أو إسپانيا الجديدة — سوى أحد تلك المظاهر العديدة لمقدرة الغزاة الإسپان فى مجال الارتياد . قد تلقاهم فى مستنقعات فلوريدا وعلى شواطئ المسيسبى وكلورادو . وقد أسسوا پناما ودخلوا نيكاراجوا واجتذبوا فى ركابهم الممولين الألمان إلى فنزويلا . ولكن لا يوجد فى هذه الأعمال العظيمة التى قام بها هؤلاء الرواد الشجعان ما يعدل فى أهميته استيلاء پيزارو Pizzaro على پيرو . فى هذه البلاد أمكن الحصول على كميات وافرة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة التى كانت فى نظر كل الإسپان — الذين سيطرت على تفكيرهم الأغراض المادية — الهدف الرئيسى للمغامرة الاستعمارية . هنا كانت تقع إلدورادو Eldorado التى كان البحث يجرى عنها منذ عهد بعيد ، والتى لم يمكن الاستحواذ عليها إلا بعد مشاق ، إن يكن إغراؤها من القوة بحيث إنها أصبحت فى الحال المستوى الذى يتحتم أن تقاس به كل الفتوحات والمستعمرات الأخرى . ولم تكن الأرجنتين — التى قدر أن تصبح أعظم مزارع الحبوب فى العالم الجديد — بلداً يستحق الاستغلال إذا ماقورنت ببيرو بمعادنها وأحجارها الثمينة . وفى الواقع أن سر اجتذاب نهر پلاتا — الذى يمد هذا البلد الخصب بالمياه — للمرتاد الإسپانى يرجع إلى كونه قد بدا مجرى مائياً يفضى مباشرة إلى ما اشتهوه من خزائن قشتالة الجديدة .

كان پيزارو أمياً لقيطاً ، احترف ركوب البحر كغيره من فقراء الإسپان فى ذلك الوقت ، بعد أن حاول طرق أسباب أخرى للرزق . وفى خريف عام ١٥٢٢ كان فى پناما معوزًا باحثاً عن الثروة ، متحرقاً لركوب الصعب فى سبيل الكسب . هنالك أخبره من يدعى بسكال دى أنداجايا Pascual de Andagaya — وهو ملاح إسپانى — عن أرض غنية فى أمريكا الجنوبية على ساحل المحيط الهادى ، يسكنها أقوام يعرفون باسم الإنكا Incas . وكان پيزارو أحد أولئك الرجال الذين يتخطفهم الطمع كالسكير يمضه العطش . ملأت أحلامه وشكلت تاريخ حياته رؤى ثروة عظيمة لا يحتاج الحصول عليها والتصرف فيها إلى كبير عناء . وكان الذهب عقيدته التى يؤمن بها ؛ وفى بحثه عن الذهب لم يستشعر خوفاً ولم يلق بالا لضمير . وفى التو

أقلع إلى بلد الثروة على ظهر سفينة واحدة ومعه مائة رجل . ورغم أن أمانيه قد انتهت بالفشل ، إلا أنه جدد المحاولة بعد سنتين (١٥٢٦) ، وكوفئ على جهده بما رآه من حقول فلحت خير فلاحة ووطنيين تحلوا باللآلئ وزينة الذهب . ومنذ تلك اللحظة حدد هدفه دون هوادة ؛ فعندما أراد أتباعه انتهاز فرصة وجود سفينة إسعاف ليرجعوا إلى پناما ، رسم بسيفه خطًّا على الرمال وقال : « أصدقائى ورفاقى . . . على هذا الجانب يوجد الكد والجوع والعرى والعاصفة التى تبتلع كل شىء ، والخراب والموت ؛ وعلى الجانب الآخر الدعة والسرور . هنالك پيرو بثرواتها ، وهنا پناما بفقرها . ليتخير كل منكم ما هو أكثر جدارة بقشتالى شجاع . أما أنا فإننى أختار الذهاب إلى الجنوب » . وبهذه الكلمات خطا پيزارو إلى جنوبى الخط وتبعه ستة عشر من رفاق سفينته .

أما الأراضى التى اكتشفوها فكانت دولة لم يكن لها قط نظير فى أى جزء آخر من ة . كانت إمبراطورية الإنكا تتميز بتوسعها فى تطبيق نظام يقوم حى .شيوعية المتعسفة . فلم يكن يسمح لأى فرد بأن يكون عاطلا أو أن يعمل أكثر ما يطيق ، وكان كل فرد معرضًا لنقله من مكانه — إذا ظهر أنه مزدحم بالسكان — إلى مكان آخر . وكان عباد الشمس الأذكياء الأغنياء هؤلاء قد أقاموا المعابد والقصور والقنوات المعلقة وحفروا القنوات وشقوا الطرق ومهدوا أرضهم للزراعة ، مما أثار جميعه إعجاب غزاتهم الذين ألهبت الفضة والذهب جشعهم . وبعد ارتياد دقيق لهذه البلاد العجيبة ، رجع پيزارو إلى إسپانيا حيث حصل على تفويض من الإمبراطور (٢٦ يولية ١٥٢٩) خوله سلطة نائب ملك فى البلاد التى كان لا يزال عليه أن يضمها . وليس فى الغزاة من بزّ فرانتشسكو پيزارو عنفًا وغدرًا . خطف أتاهوالپا Atahualpa حاكم البلاد المنكود الطالع بطريقة غادرة . ثم جرد من ثروته ، وبعد محاكمة هزلية أحرق حتى الموت فى أكبر ميادين كازامنكا Casamanca (٢٩ أغسطس ١٥٣٣) . ومن المظاهر الشريرة لهذه الجريمة التى تتقزز منها النفوس أنها نفذت على ملأ من الرهبان المبشرين الذين أبدوا موافقتهم عليها وأعلنوا استحسانهم لها ساعة تنفيذها .

ولم يكن فتح پيرو — التى كانت آخر وأغنى الثمرات الاستعمارية التى سقطت

فى يد إسپانيا أثناء حكم شارل الخامس — خيراً كله . لم يسبق لمجتمع أن اكتسب ميزة أخلاقية باشتراك أفراده فى الاندفاع بحثاً عن الذهب ؛ ولا يشذ عن ذلك إسپان القرن السادس عشر الذين تملكتهم حمى الذهب والفضة قبل أن يتم تنظيم المثل العليا للإنسانية ويبدأ تأثيرها فى مشاكل الصناعة . فقد تشاجروا مع بعضهم البعض ، وفرضوا أقسى أنواع الطغيان على أهل البلاد الأصليين البائسين ممن لا حيلة لهم . واعتبر المال — خطأ — هو الثروة ، وتجوهلت الدعائم الحقيقية للرخاء الاقتصادى . وهكذا أفسد قناصو ثروات بيرو أنفسهم ، ثم نقلوا جرثومة بخلهم وجشعهم الذى لا يعرف هوادة إلى صميم الجهاز السياسى الإسپانى .

« قبل تنازل شارل عن الحكم نظمت المكسيك وأمريكا الوسطى وفنزويلا وغرناطة الجديدة وپيرو وپوليفيا وغربى شيلى ممتلكات تابعة لتاج قشتالة . أما الأرجنتين وباراجواى فكانتا لا تزالان فى المراحل الأولى من الاستيطان . فى الوقت الذى كانت فيه كاليفورنيا وفلوريدا تمران بالمراحل الأولى للاستكشاف » . ومما يثير الدهشة فى العمل الذى قامت به إسپانيا أن هذا الاتساع الذى طرأ على إمبراطوريتها واستكشافاتها قد تم فى وقت كانت هى فيه مشتبكة فى حرب لا تكاد تنقطع مع أعظم دول أوربا ومع الأتراك غالباً .

وهذا الطغيان البشع الذى صبه المستعمرون الإسپان لهو البقعة السوداء التى تلطخ سجل تاريخهم هذا . ولكن من حق أوربا أن تشير إلى أن الإمبراطور قد انحاز إلى جانب الرأفة والاعتدال وأنه كان — إذا ما نشب النزاع بين الإرساليات التبشيرية العاملة لخير الإنسان وبين المستعمرين المستغلين — وهو ما كان يحدث غالباً — كان ينحاز إلى جانب الإرساليات ؛ كما أنه يحق لأوربا أن تذكر أن سكان أمريكا الأصليين إنما صينوا من الهلاك إلى أكبر حد بفضل تدخل الحكومة الإسپانية . وفى قائمة الأبطال المرسلين الذين وهبوا حياتهم للتخفيف عن الشعوب التى أخضعت لن تجد من هو أنبل من لاس كازاس Las Casas الذى كان أول قس تحقق من المظالم التى كان يقترفها مواطنوه فى المستعمرات الإسپانية وأول من أنكروها ؛ كما أنه رائد تلك الحركات الإنسانية التى جاءت فيما بعد وحاول رجالها أن يلطفوا من حدة استغلال العالم القديم للعالم الجديد .

* * *

وقد خلدت حروب شارل الخامس فى إيطاليا عبقرية تيسيان[١] وأريوستو[٢]. إلا أن هذه الحروب ليس لها من النتائج الباقية ما لتلك الفتوحات البعيدة عبر الأطلنطى. أما المعاصرون فكان يبدو لهم أن ليس ثمة كثير من الأحداث تفوق فى ضخامتها مع الزمن القضاء على القوة العسكرية الفرنسية فى إيطاليا. تم هذا القضاء بشكل مفاجئ جداً. وكان يبدو أنه مكتمل تماماً. هُزم الفرنسيون فى بيكوتشا Bicocca فى عام ١٥٢٢، ثم هزموا مرة أخرى فى بافيا فى عام ١٥٢٥ حيث أسر ملكهم فرنسوا ونقل على ظهر إحدى السفن إلى إسپانيا. وانتزعت ميلان من أيدى الفرنسيين وأعيدت إلى فرنتشسكو سفورزا باعتبارها إقطاعاً إمبراطورياً، وأصبحت منذ ذلك الوقت تابعة لإسپانيا، لا يكاد يخفى ذلك ستار رقيق من التنكر؛ وكما كانت إسپانيا تمسك بمفاتيح الشمال بإشرافها على ميلان، فإنها بإشرافها على ناپولى وصقلية غدت سيدة الجنوب. وبدا لتفكير أريوستو الشاعرى أن انتصارات شارل فى إيطاليا تنبئ بالإمبراطورية التى يقيض لها فى نهاية المطاف أن تحمل السلام إلى البشر.

مثل هذا الاستعراض لقوة إسپانيا أفزع كل من يهتم من الإيطاليين— لسبب أو لآخر— بمنع أية دولة أجنبية وحدها من إحراز السيطرة على شبه الجزيرة؛ كما أن هذا الاستعراض قد ألقى برعشات القلق فى قلوب الساسة الأذكياء العالمين ببواطن الأمور الذين كانوا يحكمون فى الفاتيكان. ربما بدا كليمنت السابع خير من يصلح لتزعم حركة إيطالية كبيرة ضد الإمبراطور وأنصاره، وذلك بحكم حسبه ومنصبه وتجربته (فهو — عندما كان كاردينالا باسم الكاردينال جوليانو مديتشى Guliano dei Medici قد ظل مدة طويلة فى الطليعة من ميدان السياسة). ولكن من سوء الحظ كان البابا — رغم كل مقدرته فى المفاوضة ومضائه وفراسته ودهائه وثقافته — خلواً من الصفات الخلقية والذهنية التى تلزم من يتصدى للقيادة، وكان من ذلك الطراز من الرجال الذين يجمعون فى خيالهم قدراً كبيراً من الأشياء الصغيرة بحيث تخفى عليهم الأشياء الكبيرة. لهذا كان كليمنت، كلما احتاج الأمر إلى قرار واضح، يتأرجح

(١) انظر ما سبق، ص ٢٦.

(٢) انظر ما سبق، ص ٨١.

بين خطط متنافرة ؛ فعندما كانت الضرورة تدعو إلى تعبئة كل أمراء إيطاليا فى جبهة واحدة لحرب الإسبان ، اطرح مساعدة حليف قوى بإصراره على استرجاع مدينتين تافهتين كان دوق فرارا قد اغتصبهما من الدولة البابوية . وهكذا فى موقف كان يقتضى البابا أن ينظر إليه نظرة عالمية ويتطلب منه إرادة حاسمة ، راح هذا السيد التسكانى الجذاب المثقف يبين عن أفق أسقفى ضيق لأمير إيطالى صغير ، وعن تردد عصبى لجندى قديم كثير الجلبة .

فى ظل قائد من هذا الطراز كان من المستحيل أن تثمر أية خطة عظيمة . وكان شارل على علم بالمؤامرات التى كان البابا يحيكها مع الوصية على عرش فرنسا ، ومع البندقية ، ومع مورون Morone مستشار ميلان ؛ كما كان على علم بعصبة كونياك المقدسة التى تكونت ضده ، وبجيش العصبة الذى كان يتجمع فى إيطاليا . لهذا احتاط مقدماً ضد هذه الإجراءات التى أنبئ بها ، فارتأى أن تعزز القوات الإمبراطورية بحيث يمكنها مواجهة الموقف .

وغدا البابا فى روما معتزلاً لاحول له ولا قوة . وحتى فى الفاتيكان لم يكن فى أمان من عشيرة كولونا Colonnas الموالية للإمبراطور القوية الشكيمة التى كانت لا تدع أى فرصة تمر دون استغلالها لتسوية حساب قديم ضد أحد البابوات . ولكن كان ثمة عدد تنبغى مواجهته أسوأ من عشيرة كولونا الذين أرغموه بالضغط المحلى المذل على سحب قوته من جيش العصبة . ذلك أن اثنى عشر ألفاً من فرسان الإمبراطور اللوثريين اقتحموا إيطاليا ، إذ كانوا يسيرون دون أن يتلقوا مرتباتهم ويعيشوا على ما ينهبونه من الريف (كما كانت عادة القوات الإمبراطورية) — اقتحموا إيطاليا لإنزال العقاب بالبابا الذى تجرأ على إهانة سيدهم الإمبراطور . وقد قال قائدهم جورج فون فرندسبرج George Von Frundsberg : «إن البابا أسوأ أعداء الإمبراطور ، وهو الذى بدأ الحرب . وفى سبيل مجد الله لابد من شنقه ، وإن كان الواجب يملى على أن أشنقه بيدى » . وفى مثل هذا المزاج تحرك هذا الجيش من الألمان الجائعين ، منضماً إلى القوات الإمبراطورية التى كان يقودها كونستابل[1] بوربون ، نحو

---

(١) كان لقب كونستابل فرنسا يطلق على أكبر موظفى خدمة القصور فى عصر الملوك الفرنسيين الأول . وكان يعنى كذلك القائد العام للجيوش أثناء غياب الملك .

الجنوب دون أن تعترضه أية صعوبة فى طريقه إلى روما . وما حدث بعد ذلك ، بالرغم من أنه لم يدبر من قبل بأى شكل ، ولم يكن على الإطلاق نتيجة لتعليمات من إسپانيا ، كان درساً قاسياً لرجال الدين أوضح لهم خطورة مخالفة إرادة الإمبراطور . وفى ليلة ٦ مايو ١٥٢٧ اجتمع خارج جدران المدينة البابوية أربعون ألفاً من شرار الجند وأبعدهم عن النظام لا يدانيهم فى وحشيتهم أى جيش فى أوربا ، وشقوا طريقهم إلى داخل المدينة واعتقلوا البابا فى قلعة سان أنجلو ، ثم أطلقوا العنان طيلة ثمانية أيام عصيبة لقسوتهم وتخريبهم : نهبت كل الكنائس والأديرة ، وقطعت رءوس رهبان وقسس ؛ « وتعرض عدد كبير من الراهبات العجائز للضرب بالعصى ، واغتصب عدد كبير من الراهبات الشابات وأخذن أسيرات » ، وتحولت كنيسة القديس بطرس وتحول القصر المقدس إلى إصطبلات للخيول ، وترك ثلثا مدينة روما أنقاضاً . وقد بدا لبعض الناس أن هذه العقوبة القاسية ليست إلا وحياً من الله ، وقال معاصر وقور : « كل الآثام كانت تقترف فى روما : اللواط وبيع المناصب الدينية ، وحب الطواغيت ، والنفاق والختل . لهذا فمن المؤكد أن ما حدث لم يكن من وحى الصدفة ، بل إنه عقاب أنزله الله » . وفى فلورنسة كان الدرس الذى لقنته هذه الحادثة أن فى الإمكان الآن طرد آل مديتشى دون خطر ، وإقامة جمهورية على أنقاض حكمهم ؛ أما العالم فقد وضح له أكثر من أى وقت أن النير الإمبراطورى قد أحكم وثاقه على إيطاليا .

ومن ناحية أخرى أصبح خطر الإمبراطورية من الجسامة بحيث أثار ضدها تألباً من الدول : فقد انضمت فرنسا وإنجلترا إلى البندقية لتخفيف حدة الزهو الإمبراطورى وتحرير البابوية من النير الإسپانى . واسترد جيش فرنسى يقوده لوترك Lautrec الجانب الأكبر من دوقية ميلان وسار عبر إيطاليا دون أن يعترضه شىء فى طريقه إلى حصار ناپولى . وفى يونية ١٥٢٨ بدت المدينة على وشك السقوط بعد أن شدد الفرنسيون حصارها من البر وحاصرتها سفن جنوة بحراً . وتساءل الناس عما إذا كان قد قدر لإيطاليا الانتقال من السيطرة الإسپانية إلى السيطرة الفرنسية . ولكن حينئذ طرأ أحد تلك التغييرات المفاجئة فى الأقدار التى من شأنها أن تؤثر بوجه خاص على جيوش صغيرة تعمل على مبعدة من بلادها . فى الجنوب داهمت الأمراض جيش

لوترك وكبدته خسائر كان لا يمكن تعويضها ، ثم تضعضعت قواه المعنوية بموت قائده ، فاضطر هذا الجيش إلى التخلى عن حصار ناپولى والتسليم فى أڤرسا Aversa ؛ وفى الشمال انهزم الفرنسيون فى لاندريانو Landriano أمام جيش إمبراطورى أرسلت إليه الأمداد . ولكن بقى هناك عامل أكثر أهمية من حيث تأثيره فى التوازن الدائم للقوى فى البحر المتوسط ، وهو تخلى الملاح الجنوى الكبير أندريه دوريا Andrea Doria عن الفرنسيين وانضمامه إلى الإمبراطوريين . كان دوريا بحارًا يجرى وراء الكسب ، ولكنه كان فى نفس الوقت جنديًّا مخلصًا لبلده ، تعتمل فى نفسه إحن كثيرة ، بعضها عام وبعضها شخصى ، ضد الفرنسيين . وكان وجود حامية فرنسية فى مسقط رأسه مثيرًا لغضبه ، كما أنه سخط للنمو السريع الذى أصابته تجارة ساڤونا Savona جارة جنوة ومنافستها بتشجيع من الفرنسيين . حتى إذا كان حصار ناپولى على أشده بحيث كان تحول دوريا من شأنه إلحاق أكبر ضرر بالفرنسيين وجلب أكبر منفعة لخصومهم ، حوّل دوريا نفوذ جنوة كلية إلى جانب المعسكر الإمبراطورى . وهكذا انحاز أقوى أسطول إيطالى فى غربى المتوسط إلى جانب إسپانيا . أما شارل فإن التحالف مع جنوة قد أكسبه ثلاث ميزات حاسمة : فهو قد أغلق الشاطئ الإيطالى فى وجه الفرنسيين وفتح الممر الموصل بين إسبانيا وألمانيا وأشاع فى إيطاليا شعوراً قويًّا بالانتصارات الإمبراطورية . وفى ملحمة أريوستو العظيمة ينفرد دوريا من بين أتباع شارل بكونه الصديق الذى جلب له النصر فى كل حرب .

ولم يشترك الإمبراطور بنفسه لا فى هذه الحملة ولا فى أى حملة إيطالية أخرى . فقد أحرز الانتصارات الإسپانية فى الميدان قواد إسپان يقودون جندًا من المشاة النظاميين الإسبان كانوا قد دربوا ليس فقط على الضرب بالرمح ، بل على المهارة فى استعمال الأسلحة النارية أيضاً . وعلى أى حال فإن الفضل فى ضمان ثمار النصر يرجع إلى شارل بتوخيه الحكمة والاعتدال السياسى . فإنه بعد انتصاره على الفرنسيين فى لاندريانو حطم التألب المعادى له بعقده صلحًا منفردًا مع فرنسا . كان لديه بعض ما يتنازل عنه والكثير مما يأخذه ؛ وطبقًا للمعاهدة التى أبرمت فى كامبرى Cambrai (أغسطس ١٥٢٩) تنازل الإمبراطور عن ادعاءاته فى وراثة ملك برجندية ، وهى الادعاءات التى جاءته عن طريق جدته مارى ، على حين تخلى فرنسوا عن

ادعاءاته فى إيطاليا وعن حقوقه الإقطاعية فى الفلاندر وأرتوا ، وتزوج فرنسوا إليانور أخت شارل .

وأصبح الإمبراطور فى أوج قوته : ساد إيطاليا ، وأجرى حلفًا أسريًّا مع كليمنت السابع الذى تَوَّجه فى بولونا بتاج لمباردى الحديدى وتاج الإمبراطوية الذهبى ، وعين أخاه فردناند خلفًا له على عرش الإمبراطورية ، وابنه فليب خلفاً له على عرش إسپانيا ، وتوافر له حينئذ الشرط الأساسى للقيام بأى عمليات ناجحة ضد الأتراك ، وهو عقد الصلح مع فرنسا . وعندما قاد جيشًا إلى إفريقية فى عام ١٥٣٥ واستولى على تونس ، تألق نجمه فى أوربا باعتباره البطل المنافح عن المسيحية ، وذلك بالرغم من ذكريات نهب روما المريرة .

ومع ذلك كله لم يكن شارل قد سوى حسابه نهائيًّا مع فرنسوا الأول . فإن هذا العاهل الذى صقلته الحضارة — وإن كان خسيس المعدن — ذلك الذى وصل بفن من الانطلاق حدت به إلى تشجيع الخارجين على الكاثوليكية
نسا مع اضطهادهم داخلها ، بل إلى تقديم ملجأ فى ميناء طولون للقرصان التركى برباروس — إن هذا الملك لم يكن قد اطرح أحلام الفتوح الإيطالية رغم كل ما نصت عليه معاهدة كامبرى . كان زواج أكبر أبنائه لكاترين مديتشى ، وهى من أقرباء البابا ، دليلا على أن ادعاءات فرنسا فى إيطاليا لا تزال قائمة . وفى الحق لقد نشبت الحرب من أجل ميلان فى عام ١٥٣٦ واستمرت سنتين حتى انتهت بمعاهدة نيس فى عام ١٥٣٨ ، ثم تجددت فى عام ١٥٤٢ ، وسويت نهائيًّا — فيما يتعلق بشارل وفرنسوا — بصلح كرسپى Crispi فى عام ١٥٤٤ . ولم تترتب على هاتين الحربين القصيرتين أية نتائج على جانب من الأهمية . فقد بقيت إسپانيا سيدة ميلان ونابولى ، وظلت فرنسا محتفظة بحدودها باستثناء استيلاء إنجلترا على بولونى . وبقى التفوق الدبلوماسى فى جانب شارل الذى أبدى مهارة كبيرة بإيقاعه فرنسوا فى شرك الأمل فى وراثة ميلان ، وكسب تعضيد إنجلترا له فى آخر حروبه . ولكن أهم الحقائق التى يبرزها هذا النضال الطويل على إيطاليا الاضمحلال الشديد للفكرة القديمة ، فكرة الوحدة المسيحية التى تشمل كل أوربا . ورغم أن المسلمين كانوا يدقون أبواب أوربا بعنف ، فإن جيش الإمبراطورية الرومانية المقدسة نهب

كنائس روما وأعلن « أشد الملوك مسيحية » أنه صديق الأتراك وحليفهم .

واستمر سلطان الإسپان فى إيطاليا ، وهو السلطان الذى توطدت دعائمه نهائياً فى عام ١٥٣٩ ، حتى نهاية حروب لويس الرابع عشر . واستبدلت إيطاليا بعصر النهضة الزاخر بالحركات العقلية الباهرة فترة من السكون الثقيل تحالف فيها الجزويت مع محاكم التفتيش وقائمة المطبوعات المحظورة (Index) لخنق الحركة العقلية الحرة وصهرها فى قالب كاثوليكى . ومضت الحياة أكثر وقاراً وأشد احتفالا بالتكلف ، وحل النفاق محل الجرأة الوقحة ، وأصبح اقتراف الرذيلة علناً والجهر بالإلحاد أمراً خطيراً وبالتالى لا يوائم روح العصر ؛ وتحالفت كل العناصر الفاضلة فى المجتمع الإيطالى بقصد إصلاح كنيسة روما . ولم يبق شىء من تلك الحرية الفكرية والكلامية القديمة التى جعلت إيطاليا فى العهد الماضى معلمة أوربا ، اللهم إلا فى دائرة صغيرة بين المثقفين فى ناپولى وفى جمهورية البندقية التى حافظت على استقلالها عن إسپانيا وظلت بعيدة عن نفوذ البابا . وراح الإيطاليون السريعو الخاطر يسخرون من حكامهم الوقورين الجادين ، ويهزون أكتافهم فى غير اكتراث ، ويصطنعون الطاعة — فى أسلوب لا يخلو من الشكر — لهؤلاء الأجانب الذين أعفوهم من مهمة الحكم والحرب .

وكانت إعادة أسرة مديتشى إلى فلورنسة من بين شروط الحلف الأسرى الذى تم بين شارل وكليمنت فى عام ١٥٢٩ . ونفذ هذا التعهد فى العام التالى : فحاصر المدينة جيش إمبراطورى كبير وضعت قيادته فى يد الأمير أورنج ، وسقطت بعد دفاع مجيد ، ثم جردت من نظامها الجمهورى وأجبرت على الخضوع لألساندرو مديتشى Alessandro dei Medici وهو ابن سفاح من جارية مخلطة بالدم الزنجى . وقد يكون سقوط جمهورية إيطالية قصيرة العمر قليل الأهمية بالنسبة إلى تاريخ أوربا الطويل ؛ ولكن الظروف خلعت على أفول الحريات الجمهورية فى فلورنسة دلالة خاصة . كانت المدينة عاصمة للعبقرية الإيطالية . أما الجمهورية التى خلقتها حماسة نبى داعية[1] ، فقد اجتذبت إليها آمال سلسلة من المؤرخين الوطنيين

---

(١) يقصد المؤلف الراهب ساڤونارولا .

لا تزال صفحاتهم الجادة تنبض بحماسة كلاسيكية . فلقد دافع ميخائيل أنجلو عن أسوارها ، ودافعت عن ريفها قوات من المليشيا تنبض قلوبها بحب الوطن ، محققة حكم مكيافيللى . ولو قيض للجمهورية البقاء لربما لقنت الشعب الإيطالى ذلك الدرس فى الاعتماد على النفس فى الحرب ، وهو الدرس الذى كان وحده كفيلا بأن يجلب لهذا الشعب السلامة والوحدة واحترام الذات . ولكن المدينة سقطت ؛ ومما هو جدير بالذكر أن من بين أسباب تسليمها خيانة أحد قادة الجند المرتزقة من پروجيا Perugia ، وكانت المدينة قد ارتكبت حماقة بطلب مساعدته .

كتب يمكن الرجوع إليها

— E. Armstrong, The Emperor Charles V, (1902).
— F.A. Mignet, Rivalité de François I et de Charles V. 2 vols, (1876).
— H.C. Lea, The Moriscos of Spain, (1901).
— Gelps, The Spanish Conquest of America, (1900-4).
— J.S.C. Bridge, A History of France from the Death of Louis XI, (1921).
— Henri Lemonnier in Lavisse, Histoire de France, Vol. V, i, V, ii.
— H.B. Merriman, The Rise of the Spanish Empire, (1918-25).
— R. Altimara y Crevea, Historia d'Espana y de la civilizacion espanola, (1902).
— J. Fiske, The Discovery of America, (1892).
— W.H. Prescott, History of the Conquest of Mexico. Everyman's Library. 2 vols, (1909).,
— W.H. Prescott, History of the Conquest of Peru. Everyman's Library, (1908).
— H.M. Stephens, Portugal, (1891).
— Janet Trevelyan, A Short History of the Italian People, (1929).

الفصل الحادى عشر

عقيدة كلڤن

نذير الإصلاح – إنجيل زيوريخ – ساحة كابل Cappel – جنيف – جون كلفن – رواقيته واعتقاده بالقدرية – تأسيسه دولة ثيوقراطية – طابع الكلفنية الديمقراطى – جنيف تصبح مركزا لتدريب رجال الدين البروتستنت – انتشار نفوذ الكلفنية .

لم يقتصر أثر لوثر فى تاريخ الجنس البشرى على تلك الرقعة من أرض ألمانيا وأسكندناوة التى ضمتها الكنيسة اللوثرية واستبقتها فى حوزتها ؛ بل إن هذا الأثر تغلغل فى كل مكان ومضى يجلجل فى ربوع أوربا بصيحات التحدى . وتساءل الناس عما إذا كان العالم حقيقة قد ظل يسير فى طريق الخطأ لأكثر من ألف عام ، وعما إذا كانت البابوية خداعاً ودجلا ، والقداسة التى يحاط بها رجال الدين سراباً والطقوس والاحتفالات والنظم التى تداخلت فى الحياة الأوربية العادية لا لزوم لها ؛ إن لم تكن ضارة . وما كان بوسع أحد – إلا إذا كان بليداً لا يكترث لشىء – أن يمنع نفسه من أن تتملكها روعة هذه الدعوة . قد تختلف الآراء حول قيمتها : فمن قائل إنها حسنة جداً ، بينما يرى آخرون أنها خبيثة جداً ؛ ولكن أحداً لا يستطيع أن ينكر أنها مثيرة . وقد تسابق فى الاستمساك بها البولنديون والتشيكيون والمجريون ، وحملها التجار الإسپان فى كتب صغيرة مطبوعة – عبر طرق جبلية – لتتحول إلى نثر قشتالى ، وناقشها علماء اللاهوت من فوق منابرهم فى كيمبردج ، وباعها تجار الكتب فى أكسفورد سرًّا ، ووزعت فى باريس تحت سمع أساتذة السوربون وبصرهم . وإذا كان إرزمس قد أثار فى الناس – أكثر من أى شخص آخر – روح التطلع والتساؤل ، فإن لوثر هو الذى بدأ الثورة العظمى وهو الذى بذر البذرة وهيأ الأرض فى سويسرا وفرنسا وإسكتلندة وإنجلترا ، وهى البلاد التى اتخذ فيها الإصلاح شكلا مغايراً للطراز اللوثرى .

ولقد أسرع ألرخ زونجلى الخطى بشكل مثير : حاول باتباعه سياسة حظر تجارى أن يرغم المقاطعات الكاثوليكية الخمس فى شرقى سويسرا على اتباع التعاليم

الإنجيلية التى لقيت رواجاً فى زيوريخ وبرن ، ودفع حياته ثمن تهوره على ساحة كاپل الملطخة بالدماء (١١ أكتوبر ١٥٣١) . وفقدت زيوريخ بموت حاميها زعامتها للحركة الإصلاحية السويسرية ، واسترجعت الديانة القديمة سطوتها فى القسم الشرقى من سويسرا ، وهو القسم الذى كان يغلب عليه الطابع الجرمانى من الناحيتين الجنسية واللغوية . ولم تنمح على الإطلاق آثار هذه الحرب القصيرة التى استمرت ستة أسابيع ؛ فإنما كان كاثوليكياً فى نهاية هذا النضال ظل كاثوليكياً حتى الوقت الحاضر . وتبخر حلم زونجلى فى انتشار العقيدة الإنجيلية فى جميع أنحاء الاتحاد السويسرى ، وحلول الحكم الديمقراطى محل حكم الأقلية فى كل مكان ، وحصول برن وزيوريخ فى شئون الاتحاد السويسرى على الأهمية التى توائم أعداد سكانهما . ومع أن أخلاقه الخاصة كانت لا شائبة فيها ، فإنه — وهو أكثر المصلحين الدينيين موهبة وأشدهم جاذبية — فشل لأنه أخطأ فى تقدير أهمية الفلاحين المتحمسين ، حماة العذراء والقديسين الذين كانوا يعيشون فى أكواخهم الخشبية المصنوعة من جذوع الأشجار فى أعالى مراعى جبال الألب وغاباتها على مسافة بعيدة من هرطقات الذين نشأوا فى المدن .

وانتقلت زعامة حركة الإصلاح السويسرية إلى برن ، ثم إلى جنيف ، وهى مدينة كانت تقع خارج الاتحاد السويسرى ولا يزيد عدد سكانها على ١٣ ألفاً ؛ ولكن قيض لها بسبب موقعها الجغرافى (وكانت تقع على حدود أربع دول) وأكثر من هذا بسبب ارتباطها بأحد الزعماء الدينيين العظام فى العالم ، أن تكون عاصمة البروتستانتية الغربية ، وعلى رأس المدن التى احتمت بها الأقليات المضطهدة من معتنقى هذه العقيدة لعدة قرون .

ولقد كانت جنيف تناضل منذ ثلاثين عاماً للتخلص من سيطرة دوق ساڤوى وأميرها الأسقف ، واتخذ النضال شكل حرب أهلية مريرة . وأطلق خصوم حزب « حكومة الكنيسة بواسطة الأساقفة »[1] على الحزب اسم المماليك . أما حزب الأحرار فقد عرف باسم Eidgenossen (بمعنى الرفاق الذين أدوا القسم) ؛ وما لبث هذا الاسم — فى شكله الفرنسى المعروف بكالهيجونوت — أن طبق آفاق أوربا .

---

(١) The Episcopal Party .

ولكن جنيف استطاعت تحقيق حريتها فى النهاية (أكتوبر ١٥٣٦) مستعينة بمساعدة برن المدينة البروتستانتية، وأصبحت على استعداد للاحتفال ببعض الدعاة الفرنسيين الذين كانوا ينشرون التعاليم الإنجيلية عبر إقليم الڤود Pays de Vaud — وكانت برن تشجعهم على ذلك. ولم يكن ثمة من هؤلاء الدعاة من كان أقوى أثراً من وليم فارل William Farel الذى كان يتقد حماسة، وهو الذى أقنع باحثاً فرنسياً شاباً كان يتجول فى رحلة خاصة ثم ألقى رحاله فى جنيف فى عام ١٥٣٦، أقنعه بأن يتوقف فى هذه المدينة ويستبدل إلى الأبد بحياة البحث العلمى حياة الخدمة الكهنوتية العاملة.

هذا الباحث الشاب هو جون كوڤان John Cauvin (وكلڤن)، وهو ابن موثق عام، ولد فى نويون Noyon فى پيكاردى فى عام ١٥٠٩، وكان قد قفز إلى حيز الشهرة — بالرغم من أنه لم يكن قد تجاوز السابعة والعشرين من عمره — حين نشرت له ثلاثة بحوث تستحق الإعجاب: الأول تعليق علمى على كتاب سنيكا[1] «عن التسامح De Clementia»، والثانى مقالة أكاديمية كتبها بقدر من الحماسة للتعاليم الإنجيلية بحيث اضطر إلى الرحيل عاجلا عن باريس؛ والبحث الثالث مدخل إلى الدراسات الإنجيلية بعنوان «مبادئ الديانة المسيحية Christianae Religionis Institutio» وقد نشره فى بال وأهداه إلى الملك فرانسوا الأول.

ولن تجد من هو أقل شبهاً بمارتن لوثر من هذا الشاب الفرنسى المهذب الدءوب على الدراسة. كان كلڤن ينتمى إلى الطائفة العليا من الطبقة الوسطى، وكان يغشى مجالس النبلاء من الرجال والنساء فلا يحس ضيقاً، وكان قد اعتصر كل ما استطاعت باريس أن تقدم له من العلوم الإنسانية وكل ما قدمته له أورليان وبورج Bourges من علوم القانون. ولم يكن فى كلڤن شىء من طباع لوثر: فلم يكن فيه شىء من حيويته الدافقة، ولا من مرحه وألمعيته، خشونته ودعابته، خياله الملتهب وروحه «المدرسية» الضيقة، إيمانه الريفى الساذج بالخرافات ونقده لذاته لدرجة غير عادية. أما المصلح الفرنسى فكان هادئاً متحفظاً، مشرق التفكير

(١) حوالى ٤ ق. م — ٦٥ م. فيلسوف وخطيب رومانى. كان معلما لنيرون الذى أرغمه — عندما شب عن الطوق — على الانتحار.

والتعبير ، دائم التفوق على من تصدى لمجادلته ، وذلك بفضل ما لديه من ذخيرة حاضرة من المعارف عن آباء الكنيسة والإنجيل ، كما كان متملكاً لتلك الميزة العظيمة التي لا يعرفها إلا أولئك الذين شقوا طريقهم حتى وصلوا إلى معتقدات راسخة آمنوا بها دون أن تبدو عليهم آثار صراع داخلي . وكان في تفكيره يمتاز بالبساطة الجادة ، مما منحه سلطاناً على أصحاب العقول الرخوة المترددة . ومن الممكن أن نصفه بأنه بطل من أبطال الرياضة — لا رياضة الجسم ، ولكن رياضة الفكر — أو أنه قديس مجرد من النوازع العاطفية أو قد نقول عنه — ببساطة — إنه قد ولد موجِّهاً للضمير . ولقد كرس جهده ليجعل من جنيف جمهورية إنجيلية وأن يقود حزب الإصلاح — أو الهيجونوت — في فرنسا .

وفي تقديره لنفوذ كلفن في فرنسا يقول رنان Renan[1] إنه نجح في عصر وفي بلد كانا يطلبان العودة إلى المسيحية ، لسبب بسيط وهو أنه كان أشد رجال جيله استمساكاً بالمسيحية . هذا الحكم صحيح إلى حد كبير ، ولكنه ليس كل الحقيقة . كان كلفن مسيحيًّا ، بسيطاً مترفعاً في حياته الخاصة ، مسيطراً على عواطفه ، سامياً في أهدافه . ولقد سخر كل قواه الجسمية والعقلية في محاولة هدفها أن يعيد إلى العالم مسيحية القرون الثلاثة الأولى التي كون عليها بأسلوبه الذهني الهادئ المتوثب صورة مُقْنِعة . كانت مراسلاته شديدة الوفرة ؛ ومن المدينة التي اتخذها وطناً له أخذ يبث النصائح الروحية لكل هيئات الهيجونوت في فرنسا : فهو يثبِّت إيمان المتشككين ويهز الكسالى ويشجع من وهنت روحهم المعنوية ويؤنب المتخلفين . ولكن لا ورعه المسيحي ولا نشاط قلمه الذي لا يهدأ كان كفيلا بأن يجعل منه قوة في فرنسا لولا ما كان عليه من قدرة فائقة في التراكيب المنطقية ، مع إشراق العبارة ووضوحها ، وإيجاز العرض وحاسة الاتزان — وهي وحدها الصفات الكفيلة بأن تمكن مثقفاً فرنسيًّا أريباً أن يكون مسموع الكلمة في فرنسا .

وفي عام ١٥٦١ كتب سفير البندقية إلى الدوج ما يلي : « إنه ليصعب على قداستكم تصديق القوة والنفوذ اللذين يتمتع بهما في هذه البلاد أكبر حكام الكنيسة

---

(١) ١٨٢٣ — ١٨٩٢ م فيلسوف ومستشرق فرنسي ، اشتهر في العالم الإسلامي بمساجلاته مع جمال الدين الأفغاني في باريس .

فى جنيڤ ، واسمه كلڤن ، وهو فرنسى من مقاطعة بيكاردى . إن له سلطاناً خارقاً ، يفوق كل الآخرين بأسلوب حياته وتعاليمه وكتاباته . وكان مما يدعم نفوذ كلڤن تلك السمعة المنقطعة النظير التى كانت تتمتع بها جنيڤ ؛ فهى المدينة التى كان شعبها يختار حكامه ، والرعية قسسها ، وليس بها كنيسة ممتازة ولا طبقة أرستقراطية ، ولكن يتساوى أهلها جميعاً أمام القانون تساويهم أمام الله » .

وكان كلڤن — محقق سنيكا وناشر مؤلفاته — رواقيًّا كأستاذه : فهو يؤمن بوجوب اتباع الفضيلة لذاتها دون أمل فى جزاء أو خوف من عقاب . وهذا المثل الأعلى الرواقى الذى طورته تعاليم الإنجيل جزء لا يتجزأ من العقيدة الكلڤنية . وكذلك لم ينل من نفوذها الأدبى ذلك المبدأ الآخر الذى نادت به العقيدة وهو مبدأ القدرية : بمعنى أن بعض الناس قدر لهم سلفاً أن يحيوا حياة سرمدية ، بينما أعد للآخرين عذاب مقيم ، وهو مبدأ لم يكن كلڤن ليعثر عليه فى الإنجيل ، ولكنه استنبطه من تعاليم القديسين بولس وأوجسطين .

والحق أنك لن تجد بين الشعوب الأوربية من هم أصلب عوداً أو أشد تمسكاً بشعائر عقيدتهم ، أو حرصاً فى البحث عن أسباب الثروة من أتباع عقيدة قد يبدو أنها تسفه كل جهود البشر وتدعو إلى حياة الخمول والدعة .

عاش كلڤن فى جنيڤ من عام ١٥٣٦ إلى وفاته فى عام ١٥٦٤ ، باستثناء فترة ثلاث سنوات من ١٥٣٨ إلى ١٥٤١ . وفى جنيڤ شكل طرازاً جديداً من الدولة الثيوقراطية فرضت نفوذها على روح الكنائس « الإصلاحية » وتكوينها فى جميع أنحاء العالم . وسرّ التنظيم الذى وضعه كلڤن ما اهتدى إليه من أنه فى خلال القرون الثلاثة الأولى من تاريخ المسيحية كان الذين لا يستحقون رحمة الله يحرمون من مائدة العشاء الربانى . لهذا عزم على إحياء هذه القاعدة القديمة ، فيقصر الامتياز الأسمى بالانتماء إلى الكنيسة على المتعبدين الذين يثبت إيمانهم ويمتحنون فى تقواهم . ولم يثبِّط من همته أن مثل هذا الهدف لا يمكن تحقيقه دون إشراف دقيق شاق على الحياة الخاصة للفرد . وهو قد رحب بفرض شروط يخضع بمقتضاها رجال الدين والعلمانيون على حد سواء لرقابة صارمة . ورغم أن دعوة السلطة العلمانية لتأييد النظام الروحى كانت مما يناقض تعاليمه ، فإنه كان مقتنعاً بأن من واجب الحاكم فى جنيڤ أن يعضد الكنيسة . وأية تضحية لا يمكن تبريرها فى

سبيل رد الناس إلى التقوى ؟ لهذا أنشئ فى جنيف مجلس أعلى ، بعض أعضائه من العلمانيين وبعضهم الآخر من الكهنوت ، بمهمته فرض طائفة من الجزاءات على كل من يتراخى فى سلوكه الشخصى وفى معتقداته الخاصة . كان الموت عقوبة الزنا والتجديف والهرطقة . وهكذا أضحت حكومة جنيف العابسة ، المنقبة عن أخطاء الناس ، الشديدة البطش ، وقد اتخذتها بلاد أخرى نموذجاً تحتذيه — أضحت مصدر قسوة ومكابدة للناس فى العالم الجديد والقديم على السواء . أما فى جنيف ذاتها فقد تسببت فى حرق سرڤيتوس Servetus الموحِّد (Unitarian)[١] وقد اشترك كلڤن فى إصدار قرار الحرق ووافق عليه .

وإنه لمن دواعى عظمة كلڤن أنه لم يكن فقط قطب الرحى فى حركة أوربية واسعة ، بل إنه كذلك قد جعل من جنيف — فى نطاقها الضيق المحدود ، ضد كل ما يمكن تصوره من العراقيل — المدرسة الكبرى لعقيدة الإصلاح . وقد افتخر فى خطاب وجهه إلى الخريجين من رعاة الكنيسة فى جنيف بأنه فى خلال الفترة الطويلة التى قضاها يلقن تعاليم الإنجيل ، لم يقدم قط على مسخ اى نص من نصوص الكتاب المقدس . وبفضل جهوده أصبحت جنيف مدينة على ثقافة عالية ؛ بل إنها غدت كذلك ، وبوجه أخص منذ إنشاء الجامعة فى عام ١٥٥٩ ، مركزاً لتدريب الرعاة البروتستانت أو الهيجونوت . وحين حل كلڤن بجنيف كانت مدينة شديدة الصخب منقسمة على نفسها ، يشيع فيها الفساد ؛ فخلفها من بعده « إسبرطة » بروتستانتية وروحاً لكل ما فى الحركة الإنجيلية لذلك العهد من جرأة وإخلاص وإمعان فى التعصب .

كانت الكلڤنية أكثر أشكال الإصلاح البروتستانتى اتساع مدى وأعمقها تأثيراً ؛ فقد خلقت الكنيسة البروتستانتية فى فرنسا، وشكلت الجمهورية الهولندية ، وقبلها الإسكتلنديون ديانة قومية لهم . وقبل وفاة كلڤن كانت المقاطعات البروتستانتية فى سويسرا الشرقية قد قبلتها ، كما قبلتها البلاتينات ، واعتنقها معظم المجريين الذين خرجوا على روما . وحتى فى إنجلترا ، حيث كان عليها أن تواجه تياراً جارفاً من الروح المحافظة ، كان لها أثرها البارز فى المواد التسع والثلاثين التى تؤلف العقيدة

(١) الذى لا يؤمن بالثالوث .

التى أقرّتها الكنيسة القومية . وكان هذا الأثر من الوضوح لدرجة أن الملكة إليزابيث ، على قلة عطفها على جنيف ، قد وقع عليها قرار الحرمان باعتبارها كلفنية . ومن بعد ذلك أصبحت الكلفنية قوة غالبة فى السياسة الإنجليزية . ولكن ذلك لم يستمر إلا فترة وجيزة فى عهد البرلمان الطويل الأمد ؛ ولم يحدث إلا بقوة السلاح ، لا نتيجة لتغيير فى مشاعر الشعب . حتى إذا عادت الملكية إلى إنجلترا تقهقرت الكلفنية مرة أخرى وأصبحت عاملا ثانويًا وإن كان لا يمكن إهماله فى الشعور الدينى فى البلاد . وإذا كانت جنيف لم تلق ترحيباً فى بلاط شارل الثانى الطروب ، فإنها بالذات كانت طلبة سكان المناطق الساحلية فى أمريكا الشمالية حيث ظل نفوذها العميق على الكنيسة والدولة — خاصة فى مستعمرات نيوإنجلند — منذ رحلة السفينة ماى فلور Mayflower فى عام ١٦٢١ حتى أواسط القرن التاسع عشر . وأثارت تعاليمها الجامدة الخشنة تيارين متباينين ولكل منهما مميزاته الخاصة : من تفاؤل البرجماسى المبنى على التفكير الذى يحث على العمل الإيجابى ، المثالية والمتطرفة عند رجل العلم المسيحى الذى ينكر وجود الألم والشر .

كتب يمكن الرجوع إليها

— Mark Pattison, Collected Essays. Ed. H. Nettleship, (1889).

— T.H. Dyer, The Life of John Calvin, (1850).

— H.F. Henderson, Calvin in his Letters, (1909).

— A. Bossert, Calvin (Grands Ecrivains Français).

— Ch. Borgeaud, The Rise of Modern Democracy in Old and New England. Tr. Mrs. Birkbeck Hill, (1894).

— Ch. Borgeaud, Histoire de l'Université de Genève. I, L'Académie de Calvin, (1559-1798).

— L. Haüsser, The Period of the Reformation. Tr. Mrs. G. Sturge. Ed. W. Oncken. 2 vols., (1873).

الفصل الثانى عشر

ألمانيا تتفق على ألا تتفق

التوازن بين القوى الكاثوليكية والبروتستانتية فى ألمانيا – أول صدمة خطيرة للحركة اللوثرية – فيليب حاكم هس Hesse–شارل الخامس يهاجم اللوثريين – تراوح مصائر الجانبين فى الحرب – استنجاد اللوثريين بفرنسا – صلح أوجزبورج (١٥٥٥) – معاهدة كاتوكمبرسيس (١٥٥٩) – فرنسا تخسر إيطاليا ولكنها تحصل على متز وتول وڤردان – الشخصيات الجديدة على المسرح .

إذا لم يكن فى الإمكان رد اللوثريين إلى حظيرة الكثلكة بالوسائل السلمية ، أكان من الممكن سحقهم بالقوة ؟ فى عام ١٥٤٠ كانت الكتائب الضخمة فى جانب الدول الكاثوليكية ؛ ولم تكن العقيدة اللوثرية معترفاً بها إلا فى عدد من الدول الألمانية الصغرى: منتخبية سكسونيا ، ودوقية سكسونيا، وهس ، وبرنزويك ، وبراندنبرج (منذ عام ١٥٣٩) وبروسيا وعدد من المدن الهامة فى الشمال والجنوب . وهؤلاء البروتستانت – وقد سموا بهذا الاسم نتيجة احتجاج protest على الادعاءات الكاثوليكية وضع فى عام ١٥٣١ – قد نظموا أنفسهم ، وكان بإمكانهم إنزال جيش إلى الميدان ؛ بل إنهم انتزعوا نصراً عسكريًّا على أسرة هابسبورج حين أعادوا إلى ورتمبرج دوقها اللوثرى المنفى . ولكن إذا ما قارنا الموارد العسكرية والمالية التى كانت لدى عصبة شمالكلدن Smalkalden بسطوة الدول الكاثوليكية – فيما لو اتحدت هذه الدول أو استطاعت تعبئة مواردها ؛ وإذا ما قارناها بإسبانيا وفرنسا وإيطاليا والنمسا والأراضى المنخفضة – بله نصف ألمانيا الكاثوليكى ، لوجدنا هذه الموارد العسكرية والمالية مما لا يعول عليه . كان لا محيص لأية قوة يستطيع البروتستانت الألمان إنزالها إلى الميدان من أن تتحطم أمام جيش يمثل – ولو على وجه التقريب – الموارد التى تستطيع دول أوربا الكاثوليكية الاعتماد عليها . هذه الفروض لم تتحقق على الإطلاق : فلا فى هذا الوقت ولا فى أى وقت آخر كان الدين هو الدافع الأوحد فى السياسة الأوربية ؛ إذ وجدت إلى جانبه دوافع وعوامل أخرى . كان شارل مخلصًا فى كاثوليكيته ، ولكن حتى شارل ذاته كان أحياناً على خلاف مع البابا . ولو أن

الأمراء الكاثوليك فى الديات الألمانى خيروا بين أحد أمرين : توحيد ألمانيا كلها تحت حكم إمبراطرى قوى فى ظل المذهب الكاثوليكى أو بقاء ألمانيا منقسمة تحت حكم إمبراطور ضعيف ، لاختاروا الأمر الأخير . ولم يكن ثمة أمير — كاثوليكياً كان أم بروتستنتياً — على استعداد للموافقة على أية خطة تهدف إلى تعبئة موارد الإمبراطورية فى سهولة وقوة بقصد تحقيق سياسة قومية ، كاثوليكية كانت هذه السياسة أم لوثرية . كان الأمراء قانعين بضرورة استمرار الإمبراطورية الرومانية المقدسة — فهى جزء من الماضى ، ورياستها بالانتخاب وتؤمن مزاياهم الخاصة ، وتداخل كيانها مع ما لهم من امتيازات خاصة ، حتى أصبحت جميعاً تشكل كياناً واحداً — كانوا قانعين بذلك طالما لا يفكر الإمبراطور الرومانى المقدس فى التدخل فى شئونهم الداخلية . ومن هنا اجتمعت مجامع إمبراطورية وأقيمت الولائم ثم انفضت ولم تضع شيئاً اللهم إلا الاعتراف أو عدم الاعتراف — دون جدوى — بالانقسام الدينى الذى غدا حقيقة مقررة . وحين أصبح من المعروف أن عصبة شمالكلدن — طمحت للمقاومة وأن لها أصدقاء فى الخارج ، أحجم خصومها عن الالتجاء فوراً إلى استخدام القوة .

وكذلك كان المصلحون فى كل المراحل الأولى من حركتهم الإصلاحية يتمتعون بالمزايا التى تتمتع بها كل هيئة نشطة من قوم متحمسين انطلقوا يشنون حملة على المساوئ التى يعترف بها الجميع ، وهم أوفر استعداداً وأمضى سلاحاً من خصومهم فى مجالات النزاع الجدلى . كان هجومهم الفكرى والأدبى قوياً ، بينما كان الدفاع الفكرى والأدبى — حتى نزل اليسوعيون الميدان — ضعيفاً . وكانت القوى العادية الممكن تنظيمها ضد الحركة الجديدة ، وهى القوى التى كانت تقف فى صف المحافظة العمياء ، مجردة من السلاح نتيجة إصرارها على عدم الاعتراف بالفلاحين والمعمدين على حد سواء . وبفضل نفوذ لوثر فى تنظيم الحركة (وقد عاش حتى عام ١٥٤٦) لم يثر المصلحون الألمان ذلك اللون من الفزع الذى يحدو بالخصوم إلى الاعتقاد بأنهم يواجهون أحد تلك الأخطار التى تتهدد الطمأنينة الأساسية فى الحياة والتى ينبغى العمل على تجنبها بأى ثمن وقبل كل شىء آخر . والحق أن اللوثرية كانت أكثر الأشكال التى اتخذتها حركات الخروج على روما فى القارة محافظة . كانت

طقوسها الكنسية منصبة فى القالب الكاثوليكى ، ولم تكن عقيدتها الخاصة بتحول جسد المسيح ودمه تبعد كثيراً عن نظرية الكاثوليكية القائلة بتحول العناصر . ولم يكن دعاتها الأول بمعزل عن الكنيسة ؛ بل كانوا فى معظم الأحيان رهباناً وقساوسة على درجة خارقة للعادة من التدين ، اعتقدوا أن باستطاعتهم إرجاع الكنيسة إلى أساليبها الحقة الأصيلة ، والفارق الآن بين الكاثوليكى والبروتستانتى واضح وعميق. أما فى الجيل الأول للحركات الإصلاحية فقد كانت المعالم أكثر مرونة ، وكان إمكان الوصول إلى حلول وسطى أكثر احتمالا . وقد اجتذبت التعاليم الجديدة رئيس أساقفة كولونيا ، وجاء وقت لاح فيه احتمال انحياز كل الأسقفيات الكبرى الثلاث على الرين إلى المعسكر اللوثرى .

وفى كل الحركات الدينية تأتى فترة من الخطر تطرأ حينما تبدأ الحماسة العاطفية الأولى فى الخمود ويدعى رجال السياسة ليأخذوا الأمر بين أيديهم . ولم يكن الأمراء الذين خلفوا الدعاة فى توجيه الحركة اللوثرية على قدر من الخلق يرفعهم فوق المستوى العام لعصرهم وبلادهم ، بل كان واضحاً أن واحداً منهم كان أحط من ذلك المستوى .

وكان طلاق فيليب حاكم هس فى عام ١٥٤٠ أول صدمة خطيرة أصابت الحركة اللوثرية ، وأول حادث أتاح لخصومها مجالا قويًّا لمهاجمتها . إن أولئك الذين تعرضوا للهجوم العنيف بسبب تدنىّ أخلاقهم سرّهم أن يعلموا أن هذا الزعيم اللوثرى الكبير لم يكن أفضل من غيره ، وأنه أقدم على طلاق زوجته الشرعية ليتزوج امرأة أخرى أسرت لبه ، وأنه لقى تشجيعاً من بعض الفقهاء اللوثريين مثل بوسر Bucer وملانكتون ، بل من الدكتور مارتن (لوثر) نفسه برأيه الذى أبداه حين قال إن الكتاب المقدس يقرّ تعدد الزوجات . كذلك لم يخفف من ذلك العمل الشائن ما نصح به المتفقهون من وجوب إخفاء الزواج الثانى . ولم يكن فيليب هس مستعدًّا لا لإخفاء زواجه الثانى ولا لاقتراف « كذبة جزئية كبيرة فى سبيل خير الكنيسة المسيحية » تمشياً مع نصيحة لوثر . ولكن مجرد إسداء مثل هذه النصيحة قد خفف من حماسة الأمير لإخوانه اللوثريين ، بل دفعه — لوقت ما — إلى

الانضمام إلى معسكر الإمبراطور ، وأعلن بذلك عن انشقاق فى صفوف البروتستانت .

وبينما كان الحزبان الألمانيان كل منهما يراقب الآخر بعين الكراهية المتحفزة ، وقع شارل صلحاً مع فرنسا (سبتمبر ١٥٤٤) وبذلك أصبح حرًّا — فيما لو فشل التوفيق — فى أن يجرب سلاح القوة ضد اللوثريين . و يمكن تبرير هذه الخطة بطائفة كبيرة من الأسانيد المتجانسة ، وبخاصة الانتصارات الأخيرة التى أحرزتها العقيدة البروتستانتية فى البلاتينات وفى كولونيا ؛ كما تقدم إليه بالنصيحة كاهن اعترافه ، وكان صاحب نفوذ عليه استغل نفوذه لإشعال نار الحرب . ولكن الإمبراطور لم يكن يؤمن فى قرارة نفسه بسلام دينى يتم بهذه الوسيلة العنيفة ، ولهذا لم يحزم أمره على أن يجمع جيشاً يضم أحلافاً ويضرب ضربته إلا بعد تردد طويل وبعد محاولات — لها مغزاها — لإخفاء غرضه الحقيقى .

وحين شن الإمبراطور الهجوم على جون فردريك حاكم سكسونيا وعلى فيليب هس — وهما أبرز قادة القضية اللوثرية — حرص على أن يبرر عمله باعتبارات سياسية محضة . أعلن أنه إنما يعاقب الأميرين لا بسبب هرطقتهما بل بسبب عصيانهما . ورغم أن البابا كان يقدم رجالا ومالا ، فإن شارل كان يعلم أن شن حرب صليبية صريحة على الهرطقة لن يلقى ترحيباً من الألمان ؛ فهو نفسه كان يعتمد على تعضيد بعض الخارجين على الكنيسة — ومن ذلك أنه كان يعتمد بوجه خاص على المهارة العسكرية المعروفة عن موريس حاكم سكسونيا الماكر الطموح الذى كان الإمبراطور قد وعده بمنصب جون فردريك الانتخابى[١] .

وتميزت الحرب التى اندلعت بعد ذلك بعجز القواد البروتستانت عن الإفادة من المزايا العظمى التى توافرت لهم فى البداية ، كما تميزت بخيانة الأمير موريس القاصمة ، وبانتصار الإمبراطور فى ميلبرج Mühlberg على نهر الألب (٢٤ إبريل ١٥٤٧) ، وهو النصر الذى توج انتصاراته الأخرى . ولكن انتصارات شارل العسكرية لم تعجل بحسم المعضلة الدينية ؛ فلم يترتب على هزيمة الجيش اللوثرى

(١) انضم موريس دوق سكسونيا إلى جانب الإمبراطور بسبب غيرته من ابن عمه فردريك منتخب سكسونيا ؛ وكان موريس يطمع فى أن يؤدى ذلك إلى جعله منتخبا لسكسونيا بدلا من فردريك .

وأسر جون فردريك وتسليم فيليب هس دون قيد أو شرط ، أى تعديل فى الميزان العام للعقيدتين المتصارعتين ؛ بل لم يكن الألمان اليوم أشد ميلا إلى مساعدة الإمبراطور ،فى علاج ذلك البلاء الذى ظل يقوض الحياة الألمانية العامة ، ونعنى به الفوضى السياسية التى كانت تخيم على البلاد . وحين اقترح شارل تكوين عصبة ألمانية يرأسها قواد دائمون ، لها موارد دائمة وجيش نظامى ، لم يلق من يستمع إليه فى المجمع الإمبراطورى ؛ وحين وضع خطة ترمى إلى جعل الإمبراطورية وراثية فى أسرة هاپسبورج ، رفضها المنتخبون فى الحال . وكان من الواضح أنه — وهو ألمع شخصيات أوربا — يرزح فى ألمانيا تحت وطأة كل أنواع الصد والتحقير . كان الأمراء يشكون فيه لأنه كان يبغى السلطان ، وكذلك كان يشك فيه الكاثوليك لرغبته فى إصلاح المفاسد ، والبروتستانت لإخلاصه للبابا . ولهذا عندما وضع مشروع مدروس للتوفيق عرف باسم (Interim) (١٣ مايو ١٥٤٨) ، هاجمه كل الناس ولم ينفذه أحد .

ثم تلت ذلك فترة أصيب شارل أثناءها بإذلال مباشر كان أنكى على ألمانيا ، وأدى — بسلسلة طويلة مترابطة من الأحداث — إلى هاتين الحربين الفرنسيتين — الألمانيتين الكبيرتين اللتين اجتاحتا أوربا فى القرنين التاسع عشر والعشرين[١] . وكان موريس حاكم سكسونيا وهنرى الثانى ملك فرنسا الجديد هما الممثلان الرئيسيان فى تلك المأساة . كان موريس قد باع نفسه لشارل فى عام ١٥٤٦ جرياً وراء المنصب والسلطان ؛ إذ كان يبغى سلب جون فردريك منصبه الانتخابى ونقل الأملاك التى كانت فى يد فرع إرنست إلى فرعه هو (الألبرتى) من أسرة ڤتن Wettin . ولما كان مغامراً نهماً ، فقد جرى وراء أشياء أخرى لم يقيض له الحصول عليها ، وإن كان قد خرج منها فى الواقع بصيد ثمين . فقد حصل على المنصب الانتخابى ، ولكنه لم يحصل على مجد بورچ ؛ وربما قد أثارته شكاوى أخرى ، وإن كانت أقل مساساً بشخصه : كاستمرار حبس صهره فليب هس واعتداء

---

(١) يقصد المؤلف حرب السبعين (١٨٧٠ — ٧١) والحرب العظمى الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) . وقد نشر الكتاب قبل نشوب الحرب الثالثة فى عام ١٩٣٩ التى كان من ورائها كذلك العداء التقليدى بين فرنسا وألمانيا .

الإمبراطور على الحريات المحلية التى كانت تتمتع بها بعض المدن البروتستانتية . وهكذا تحول سريعاً من خيبة الأمل إلى الشك فالغضب وبدأ سرًّا فى تكوين تألب ضد الإمبراطور ، وراح يبحث عن حليف قوى ، فولى وجهه شطر هنرى الثانى ملك فرنسا . وليس ثمة كثير يمكن أن يقال لمصلحة هذا العاهل سوى إدراكه أن مصالح فرنسا الحقيقية ليست فى إيطاليا ، بل على الرين . وقد تمشت مقترحات موريس وزمرته من القواد البروتستانت مع ذلك التقرير البارع لحاجات فرنسا . فاتفق فى معاهدة شامبور Chambord (١٥٢٢) على إعطاء هنرى متز وتول وفردان ومدينة كامبرى يحكمها بوصفه نائباً للإمبراطور ، وذلك مقابل تعضيده للثوار الألمان . وهكذا منذ عقدت هذه الصفقة الشهيرة وضعت فرنسا قدميها فى الألزاس واللورين .

وبينما كان الفرنسيون منشغلين بالاستحواذ على مغانمهم ، زحف جيش موريس على إنزبروك Innsbruck واضطر الإمبراطور إلى الهرب فجأة ناجياً بحياته عبر ممر برنر . ومنذ ذلك الوقت لم يعد لشارل أدنى تأثير على مصائر ألمانيا .

وكانت النتيجة أن السلام الدينى فى ألمانيا لم يتم على يد شارل ؛ بل تم على يد أخيه فردناند وهو من أعقل الحكام من آل هابسبورج . كان شارل يسعى إلى إقرار التفاهم على أساس التوفيق ؛ أما فردناند فقد سلم بالانقسام كحقيقة واقعة لا مناص من التسليم بها ، وكان المبدأ الأساسى الذى قام عليه صلح أوجزبورج (٢٥ سبتمبر ١٥٥٥) هو حق كل إمارة فى اختيار عقيدتها Cujnus regio ejus religio ؛ فلكل أمير الحق فى أن يحدد فى بلاده شكل الكنيسة ونوعها دون تدخل من جانب الإمبراطور أو الديات . وهكذا ثبت أن فكرة إعادة توحيد ألمانيا حتى يمكن توجيه قواها ضد فرنسا ، وهى الفكرة التى كانت لا تفتأ تداعب خيال شارل ، لا تعدو أن تكون حلماً بعيد المنال . فلم يكن الكاثوليك على استعداد للتسليم للوثريين ، ولم يكن اللوثريون بدورهم على استعداد للتسليم للكاثوليك . على أن فردناند أخذ بخطة التوفيق فى أعضل المسائل : فقد تقرر حرمان كبار الأساقفة والأساقفة والقسس الذين تحولوا إلى البروتستانتية من مناصبهم وممتلكاتهم ؛ على أن لا يسمح لأى حاكم دينى بأن يفرض العقيدة الكاثوليكية بالقوة على رعاياه .

والحق أن صلح أوجزبورج لا يمكن أن يدرج فى عداد الوثائق الحرة : فهو لم يفسح مكاناً لتلك الأنواع من العقيدة البروتستانتية التى ازدهرت فى زيوريخ أو فى جنيف ؛ كما أنه لم يعلن مبدأ التسامح الدينى . ولكنه يستحق التقدير باعتباره حلا نافعاً — وإن لم يصقل — لنزاع خطير — فإذا كان لم يجلب إلى ألمانيا الوفاق الدينى ، فقد أبعد عنها شبح الحرب نصف قرن من الزمان .

وبعد أربع سنوات من تلك التسوية الدينية (إبريل ١٥٥٩) عقدت معاهدة أخرى فى كاتو كمبرسيس Cateau-Cambrésis ، وهى المعاهدة التى وضعت حداً لذلك النضال الطويل الذى نشب بين فرنسا وإسپانيا من أجل السيادة على إيطاليا . وإذا كانت الدول الأبية الحساسة لا تتخلى ببساطة عن مطامعها الكبيرة ، فمن السهل أن نتصور أن فرنسا — دون ألم أو شعور بالمذلة — تتخلى عن أحلامها فى السيطرة على إيطاليا ، وهى الأحلام التى ما فتئت فرنسا ستين عاماً تسخو لتحقيقها بالدماء والمال . ولكنها تلقت فى المرحلة الأخيرة من النضال تحذيرين خطيرين : فقد هزم الإسپان فى ناپولى جيشاً فرنسياً يقوده دوق جيز أبرع قواد فرنسا ، ويسنده بولس الرابع أشد البابوات اختلالا ، وقفل هذا الجيش متقهقراً صوب الألب ، وعلى مقربة من فرنسا ذاتها — على مسيرة أيام قلائل من باريس — دحر جيش فرنسى آخر يضم زهرة نبلاء فرنسا ويقوده كونستابل مونمورنسى Montmorency ، كبير نبلاء فرنسا وأكبر مستشارى الملك ، أمام أسوار سان كنتان على يد جيش إمبراطورى يقوده عمانوئيل فلبرت Emmanuel Philibert دوق ساڤوى . ولم يحدث منذ أيام أجنكور Agincourt[1] أن نزلت بنبلاء فرنسا وفرسانها مثل هذه الضربة القاصمة ، ولم يحدث إطلاقاً أن أسر مثل هذا العدد الكبير من النبلاء الممتازين . وارتفع صوت أسرى الحرب — بما فيهم مونمورنسى — ملتمسين عقد الصلح .

وهكذا ترك الفرنسيون إيطاليا بعد انسحابهم من پيدمونت وساڤوى لقمة سائغة فى يد الإسپان . ولكنهم لقوا فى الشمال ما عوّضهم عن تلك الخسارة ؛ فإن أحداً لم يطالبهم بإعادة أسقفيات اللورين الثلاث — بل إنهم أضافوا إليها كاليه التى

---

(١) قرية فى شمال فرنسا فى قسم بادى كاليه Pas de Calais ، جاءت شهرتها من وراء انتصار هنرى الخامس ملك إنجلترا على الفرنسيين فى ٢٥ أكتوبر ١٤١٥ .

انتزعوها من الإنجليز في عام ١٥٥٨ سواء لخير إنجلترا أو شرها . ومنذ ذلك الوقت اتجهت أطماع فرنسا في القارة صوب الرين .

ثم أعد المسرح لاستقبال ممثلين جدد . كان شارل الخامس الهمام قد نفض يديه من أعبائه التي لا تنتهي ، وانزوى في دير إسباني معتل الصحة مضيع الآمال ؛ وخر موريس الخائن صريعاً في الميدان ؛ وكان هنري الثامن وإدوارد السادس وماري ملوك إنجلترا قد ماتوا . ولم يبق من شخصيات الماضي الكبيرة سوى شخص واحد أثبت كفايته في الحرب والسلام ، هو فردناند حاكم النمسا الذي غدا الآن إمبراطوراً . أما الرجال الجدد فهم فليب ابن الإمبراطور المتقاعد ، الأمير المدقق الدءوب الممعن في كاثوليكيته ، وعمانوئيل فلبرت حاكم سوفاي ، وهو القائد الشاب الذي انتصر في معركة سان كنتان والمؤسس الحقيقي لتورين ولتلك الدولة الصغيرة في جوف الألب في الركن الشمالي الغربي من إيطاليا ، وهي دولة بيدمونت التي ستوحد الشعوب الإيطالية تحكمها في القرن التاسع عشر . أما إنجلترا فكان على عرشها امرأة شابة تدعى إليزابيث لم تكن معروفة حينئذ ، ولكن كان يبدو أن لها قدرها في موازين أوربا ومصائرها . وفي بلاط فرنسا كانت توجد فتاة تدعى ماري ، وهي ابنة جيمس الخامس ملك إسكتلندة من ماري جيز ، قيض لها أن تحمل على رأسها تيجان إسكتلندة وإنجلترا وفرنسا . أما هنري ملك فرنسا فقد قتل في حفلة مبارزة بعد وقت قصير من توقيع تلك المعاهدة الهامة ، مخلفاً من بعده أرملة إيطالية أطلق عليها الفرنسيون اسم كاترين دي مدسيس Càtherine dei' Médicis وقد قدر لها هي الأخرى أن تلعب دوراً مثيراً على ذلك المسرح الحافل .

كتب يمكن الرجوع إليها

— Cambridge Modern History, Vol. II.

— B. Zeller, Histoire d'Allemagne, Vol. V, (1885).

— O. Engelhaaf, Deutsche Geschichte im Zeitalter der Reformation.

— P. Voigt, Moritz von Sachsen.

— W. Stubbs, Lectures on European History, 1519-1648. (1904).

— L. Haüsser, The Period of the Reformation, (1873).

— L. von Ranke, History of the Reformation in Germany. Tr. S. Austin, (1905).

الفصل الثالث عشر

الإصلاح الكاثوليكى

إجناتيوس ليولا Ignatius Lyola – نظام اليسوعيين – مجمع ترنت Trent – روح الإصلاح – تدخل روما – بيوس الرابع – قلاع البروتستانتية – بوهيميا والپلاتينات – ضعف الحركة البروتستانتية – الأمور المثيرة للنزاع فى صلح أوجزبورج – ضآلة شأن الحكومة الألمانية – مكسمليان الثانى – عهد رودلف الثانى الحافل بالكوارث – تربية اليسوعيين – فتوح اليسوعيين فى النمسا وبولندة .

فى يوم ١٥ أغسطس ١٥٣٤ ، وهو العام الذى قطع فيه هنرى الثامن علاقاته بروما ودفع فيه توماس مور حياته ثمناً لاستمساكه بالعقيدة القديمة ، ورفع فيه جاك كارتييه Jacques Cartier – من سان مالو St. Malo – الصليب على خليج سانت لورنس – فى ذلك اليوم اجتمع سبعة من الطلاب فى كنيسة القديسة مريم على ربى مونمارتر فى پاريس حيث أقسموا على التزام العفة والفقر ، وعاهدوا أنفسهم على أن يقضوا حياتهم فى أورشليم ، مكرسين جهودهم لأعمال اعتبروها أقدس الأعمال ، وهى رعاية المسيحيين ، وتنصير المسلمين . كان زعيم هذه العصبة رجلا أعرج من جماعة الباسك ، فى أواسط العمر اسمه أنيجو لوپيز دى ريكالدى Inigo Lopez de Recalde ، وإن يكن التاريخ يعرفه باسم إجناتيوس ليولا . كما كانت العصبة تضم شخصين آخرين هما أجزافييه Xavier ولينيز Lainez .

وإسپانيا بلد المتصوفة والرهبان والحجاج والأجناد . كان ليولا جندياً خيالياً . يمثل بأسلوبه الصارم الخيالى الحماسة الدينية الصليبية التى عرفت عن مواطنيه ، تماماً كما تجسم فى لوثر ذلك الورع الإنجيلى الذى عرف عن فلاحى سكسونيا فى القديم . حارب فى ناڤار (١٥٢١) حيث أصابه الجرح الذى خلف فيه عرجاً لازمه طيلة حياته ؛ وفى أيام نقاهته البطيئة المؤلمة اتجه بتفكيره إلى نوع جديد من الخدمة يستوى فى بطولته وشاعريته وتضحيته ، ويقدم لمن راض نفسه ووهبها للخير فرصاً للسمو إلى أعلى عليين . قرر قراره على أن يصبح جندياً للمسيح ، ولم يكن

أى تعذيب للبدن فى سبيل تطهيره من الأدران أمراً شديد القسوة بحيث يتحرج عنه هذا الرجل المتقد حماسة . هجر أسرته ، وعاش على الخبز والماء ، محاسباً نفسه حساباً عسيراً بضع مرات فى كل يوم ، وأخذ نفسه بنظام قاس من الصلوات وقمع مطالب الجسد ، ليروض نفسه على الاندماج فى الذات العليا . ثم بعد رحلة إلى بيت المقدس مر بتجربة لا تمر دائماً بمن شفهم الوجد : فقد غدا يتهم نفسه بالجهل ويتحرق شوقاً إلى المعرفة ، وآلى على نفسه أن يتعلم ؛ حتى إذا كانت سنة ١٥٢٨ وجد نفسه فى باريس ملكة الجامعات ، وفيها تلقى العلم سبع سنوات ، وفرض إرادته المسيطرة على صحبة من الرفاق ، وتراءت له فكرة مشروع يقوم على الفروسية المقدسة تنهض به صفوة من الناس امتحنت نفوسهم .

وكان من حسن حظ الكنيسة الكاثوليكية أن الحرب بين البندقية وتركيا عرقلت المشروع الذى كان ليولا ورفاقه قد تعاهدوا عليه : وهو تكريس حياتهم للتبشير فى فلسطين . وفى إيطاليا وجد تحرقهم إلى نصرة الدين ميداناً بزّ غيره من الناحية العملية . فقد أقسموا على الطاعة ، ورسموا قساوسة ، وسموا أنفسهم جماعة المسيح ؛ وفى ٢٧ سبتمبر ١٥٤٠ حصلوا من البابا بولس الثالث على مرسوم بتكوين « فيالق العسكرية الكنسية Regimini Militantis Ecclesiae » ، وهو المرسوم الذى أرسى القواعد التى قام عليها نظام اليسوعيين .

ووجه الأهمية فى النظام الذى ابتدعه ليولا أنه وفر للبابوية صفوة مختارة من الناس دربوا بعناية لتنفيذ مشيئتها . وبقدر صرامة مسئوليات اليسوعيين كانت ضخامة الامتيازات التى منحت لهم : فقد أعفوا من الضرائب ، وكانوا لا يعترفون للأمراء بأية رياسة ، كما أعفوا من الخضوع لقضاء رجال الدين إلا من طائفتهم . أما تنظيمهم فكان عسكرياً أوتوقراطياً ؛ إذ كان يرأسهم قائد (جنرال) منتخب مدى الحياة ، يتبع البابا فى كل الأمور . ولا يقل عن ذلك أهمية المقومات الأخرى لنظام اليسوعيين من رياضة النفس رياضة روحية ، وتقدير التربية والتعليم ، وهو الأمر الذى تميزت به أخصب سنى ليولا نفسه . وكان تدريب اليسوعى المبتدئ بالغ الصرامة — فهذه الرياضات الروحية التى وضعها مؤسس النظام كانت تقتصد إلى تطهير الفكر من الأخيلة المشتتة ، وتدريب الإرادة على الحياة المكرسة لهذا الغرض

ولكن هذا النظام لم يقصد إلى تكوين طائفة من الرهبان المنعزلين عن العالم ؛ فإن أهداف ليولا كانت عملية بقدر ما كانت خيالية . كانت مهمة اليسوعى أن يعظ الناس ويصغى إلى اعترافاتهم ويعلمهم أن « التعقل الكامل ممزوجاً بالتدين المعتدل أفضل من كثير من التدين مع مجرد التعقل » وأن « الكنيسة لو قالت عن شىء ما إنه أسود — ولو كان يبدو أبيض — فما علينا إلا أن نقر فى الحال أنه أسود » . مثل هذه الأقوال ترينا روح الخضوع التام والتسليم المطلق اللذين خلعا على النظام مقوماته الخاصة . وحيثما احتاج الأمر إلى وضع سياسة ما ، تجد القس اليسوعى مستعداً أبداً بنصائحه . وحيثما احتاج الأمر إلى جهد تربوى — سواء فى أوربا أو فى الصين — كانت مدرسة اليسوعيين أو كليتهم — المتمتعة دائماً بالكفاءة والمقدرة والخاضعة لإدارة جيدة صارمة — أداة هامة ، لأكثر من قرن ، فى يد النفوذ الكاثوليكى والدعاية الكاثوليكية .

* * *

وقد اتضح لكل العقلاء من الكاثوليك منذ زمن بعيد أن الكنيسة قد أضحت كومة عالية من المفاسد . سلم البابا أدريان السادس بالحاجة إلى الإصلاح ، وكان قبل ذلك قد كتب عن كثير من الأمور المشينة التى استشرت فى البلاط البابوى ذاته ، كما اعترف بذلك الداء المزمن الذى استشرى فى كيان الكنيسة برمتها بحيث كان من العبث إخفاؤه . نفس هذه النغمة ترددت بشكل أكثر تجسيماً فى وثيقة تستحق الاهتمام (عن الإصلاح الكنسى المتعلق بنظم الكرادلة Constitutium quarondam cardinalium emendenda ecclesia) قدمت إلى البابا بولس الثالث فى عام ١٥٣٨ . هذه المفاسد الصارخة كانت أوضح فى البلاط البابوى ومدينة روما منها فى أى مكان آخر .

كان البابا يتمتع بسلطان مطلق . فقد وقف — معتزاً بتقاليد طال عليها الأمد فى السلطة المطلقة — يقاوم بعناد أى اقتراح يرمى إلى أن يتم إصلاح الكنيسة على أيدى مجالس قومية أو أن تطلق أيدى المجامع المسكونية للكنيسة فى إخضاع الملاحدة أو تعريف صلاحيات الكرسى المقدس أو تحديدها . فقد كان للكنيسة فى القرن الخامس عشر تجربة من تلك المجامع ، وقد اعتبرتها شراً ينبغى تجنبه ، ولا يسمح

به إلا إذا تلقت تلك المجامع أوامرها من روما .

ومع ذلك ، فبعد كثير من التسويفات والاعتراضات دعى مجمع دينى إلى الانعقاد فى ترنت Trent ، فكان مرحلة حاسمة فى تاريخ الكنيسة الكاثوليكية ، وذلك رغم أن أعضاءه لم ينتظموا فى حضور جلساته ، وأن هذه الجلسات أجلت عدة مرات استمرت إحداها عشر سنوات . وخرجت الكنيسة فى آخر الأمر بتعاليمها وقد تحددت ، ونظامها وقد توطد ، وصلواتها وقد أثرتها روعة موسيقى پالسترينا . وقد دخلت البابوية المجمع عرضة لكثير من الاحتمالات ، وخرجت منه منتصرة فى كل قضية . وبدلا من أن تضطر إلى التنازل مرضاة للوثريين ، أصرت على أن تضع مبادئ العقيدة على رأس موضوعات المناقشة ، واستطاعت — بفضل ما كان لها فى أشخاص القساوسة الإيطاليين من أغلبية طيعة — أن تحصل خلال الجلسات الأولى على قرارات قاطعة بصدد المسائل الأساسية الثلاث : سلطة نصوص الإنجيل ، ومبدأ التبرير بالإيمان وحده ، وطبيعة القربان المقدس — وهى المسائل التى فصلت العالمين اللوثرى والكاثوليكى كلا عن الآخر . وبهذه القرارات ضيعت البابوية نهائياً على الإمبراطور أمله الذى طالما راوده فى أن يهتدى إلى خطة لتسكين ثائرة رعاياه اللوثريين ، ورسمت خطاً بيناً ، عميقاً وواضحاً ، فصل بين العقائد الكاثوليكية والبروتستانتية ، ووضع بذلك حداً لمحاولات التوفيق ، وبدأ عهداً من الصراع الصريح بين الجانبين . ولقد قال لورد آكتون Acton المؤرخ الكاثوليكى العظيم إن الكنيسة بهذه القرارات قد « طبعت نفسها بطابع عصر متسم بالتعصب ، واستدامت روح الفساد » . ولم تراجع قط بعد ذلك تلك التشريعات التى خرج بها مجمع لم ينتظم حضور أعضائه وكان يتكون فى أساسه من قساوسة إيطاليين يخضعون للبابوية — وهى باقية إلى اليوم باعتبارها عقيدة الكنيسة الكاثوليكية .

وفى المرحلة الثانية من عقد المجمع ، وهى المرحلة التى بدأت فى عام ١٥٦٢ بعد فترة توقف استمرت عشر سنوات ، ركز المجمع جهوده لبحث مشكلة النظام والتعليم فى الكنيسة . فأصدر مراسيم تحتم إقامة رجال الدين فى مقار أعمالهم ، ومراسيم لإنشاء معاهد لتدريب القساوسة ؛ ولكن المجتمع تجنب كل اقتراح من شأنه العمل على ملاقاة الهرطقة فى منتصف الطريق أو الحد من اختصاصات

البابا . ولقد حفظ لنا المؤرخ البندقى پاولو سارپى Paolo Sarpi بروح النقد التى تميز بها سجلا لذلك المجلس الذى كان خارقاً للعادة وكان ممعناً فى الإخلاص لتقاليد الأوتوقراطية البابوية ولكن كان بعيداً كل البعد عن تمثيل أوربا ، وجاءت قراراته مخيبة لآمال أولئك الذين كانوا يؤمنون بحكم الكنيسة بواسطة المجامع الدينية . وكانت شخصية لينيز القائد الثانى لطائفة اليسوعيين والرجل الذى استرد النصر لقضية البابوية ، هى الشخصية الرئيسية فى المناقشات الأخيرة . وقف هذا اليسوعى الصارم البليغ الذى لا يقهر كالعملاق فى ذلك الخضم من التآمر الخفى والإحن القومية الغاضبة والفجور السافر .

* * *

ولا يكاد يقل عن مجمع ترنت فى أهميته — وإن فاقه قطعاً فى أثره المباشر — ذلك التحسن الملحوظ فى صفات شاغلى الكرسى البابوى ، الأمر الذى بدا واضحاً حين تولى بولس الثالث فى عام ١٥٣٤ ؛ وبلغ أوجه بتولية بيوس الخامس فى عام ١٥٦٣ . كان بابوات عصر النهضة العظام غالباً شخصيات فخمة عالمية تتقد حيوية : فهم طيبو المنبت ، على ثقافة عالية ، ويغدقون من كرمهم على رعاية الفنون والآداب ، ويأخذون بنصيب كامل نشط من عواطف عصرهم ومنافساته السياسية ومن شهواته الوضيعة أيضاً . كان لهم « أبناء إخوة » و « بنات إخوة » جاءوا من اتصالاتهم غير الشرعية ، وكان من أعز أمانيهم أن يوفروا لهم مناصب تتفق ومكانتهم ، وكثيراً ما أذكوا نار الحروب وتعرضوا لفضائح صارخة . وقام بلاطهم على الاتجار بالمناصب الكنسية وجمع رجل الدين لعدة مناصب وعدم إقامته فى مقر عمله . وفى إبان النضال الطويل بين فرنسا وإسپانيا للسيطرة على إيطاليا ، لم يستطيعوا أن يتفادوا القيام بدور فعال . كان بولس الثالث ، وهو من أسرة فارنيز Farnese العظيمة ، التى يمكن اعتبارها آخر الأسرات المالكة فى عصر النهضة ، نصيراً لفرنسا ، وإن عرف بالتردد . أما يوليوس الثالث فقد كان ذا نزعة للتوسع والسيطرة ، وكان بولس الرابع (من أسرة كارافا Caraffa من ناپلى) يكره إسپانيا كرهاً جنونياً دفعه إلى طلب معونة الأتراك ضدها . ولكن فى تلك الأثناء لاح تغيير فى الأفق — فالحركة الإصلاحية التى اجتاحت فرنسا وألمانيا وإنجلترا

كانت قد أخذت تطرق أبواب روما ذاتها ، وانتشر الشعور بوجوب عمل شيء ما ، وبأن الهيئة البابوية لن تظل سادرة فى طرائقها القديمة ، بينما العالم كله ينادى بملء فيه طلباً للتغيير والإصلاح . واستجاب بولس الثالث البابا الألمعى الدنيوى لهذه الروح الجديدة ، فدعا مجمعاً وأقام نظام اليسوعيين . أما البابا بولس الرابع المتقد حماسة وإيماناً فكان أكثر شعوراً بهذه الروح . حقًّا إنه كان رجلا أضنته المشاعر السياسية التى عرفت عن نبلاء ناپولى ، وهو الذى دبر تلك الحرب المنكودة لكى يمكن فرنسا من السيطرة على نابولى بلده الأصلى : كما أنه لم يكن فوق مستوى رذيلة المحسوبية . ورغم هذا كله فإنه كرس جهده لتفصيلات الإصلاح العملى ، فكان بذلك أول بابا يسير فى هذا الطريق . ولكن أعظم تغيير حدث على أثر تولى بيوس الرابع فى عام ١٥٥٩ ، فقد تميز عهد هذا الشاب الميلانى الجدير بالاحترام باختفاء تلك الخصائص التى خلعت على البابوية منذ زمن بعيد طابعاً دنيويًّا . لم يكن ينتمى إلى أسرة من النبلاء ، ولم يكن سياسيًّا أو داعية حروب ولا متجراً بالمناصب . بل لقد حكم بالموت على « أبناء إخوة » سلفه غير الشرعيين ، على حين كان ابن أخيه كارلو بوروميو Carlo Borromeo من أكثر شخصيات عصره تديناً . أما عن مجمع ترنت فقد كان يرضيه أن يدعى للانعقاد من جديد ، وقال فى ذلك : « إننا نرغب فى مجمع ، ولا جدال فى أننا نود أن ينعقد وأن يكون عالميًّا . . . إنه سيصلح ما يحتاج إلى إصلاح ، حتى وإن كان ذلك فى أشخاصنا أو فى شئوننا » .

ولكن ربما كان ميشيل جسليرى Michele Ghislieri الرجل المتواضع الذى اعتلى العرش البابوى فى عام ١٥٦٥ باسم پيوس الخامس أكثر البابوات تمثيلا للروح الجديدة ، روح التعصب الصارم الذى ألم بالحياة الدينية فى إيطاليا فى ذلك العصر . كان شعب روما يستثيره ذلك المنظر الذى لم يألفه : منظر البابا الناسك ، يخترق الشوارع حافى القدمين ، ولا يكترث براحة الظهيرة ، ويصحو مع الفجر ، ويقلل نفقات بلاطه إلى أدنى حد . لقد بدا لهم شخصية بعثت من بعض قبور العصور الوسطى حين حرم إعطاء أية أحياء للهيجونوت وأبدى إعجابه بالفظائع التى قام بها ألفا فى الأراضى المنخفضة ، وأرسل تلك السفن الحربية الإسپانية والبندقية التى

حطمت الأسطول التركى فى لپانتو .

ولا شيء يفوق فى مفعوله أن يضرب الإنسان المثل بنفسه . قال پاولو تيپولو Paolo Tiepolo فى عام ١٥٧٦ : « لقد كان من حظ الكنيسة — إلى أقصى حد — أن توالى عليها عدد من البابوات ممن لم تلحق حياتهم شائبة ، ومن هنا حرص الآخرون على أن يسلكوا مسلكاً طيباً ، أو على الأقل تظاهروا بذلك . أخذ الكرادلة وكبار موظفى الكنيسة يحضرون الصلوات فى مواعيدها ؛ واهتم أهل بيتهم بتجنب كل ما من شأنه أن يثير الفضائح ، وتخلت المدينة كلها عن نزواتها القديمة ، واتخذت مسحة أكثر مسيحية فى الحياة والسلوك مما كانت عليه فى أى وقت مضى » . ولكن البابوات لم يصلوا بعد إلى حيز الكمال . فسكستوس الخامس المتدفق حيوية ، وهو الذى كتبت هذه الكلمات فى عهده ، لم يكن قط جاهلا متعصباً ، لم يسلم من يديه الغليظتين أى أثر قديم ، مهما كان بديعاً ، بل كان يذكر مفتقراً إلى خلال البر التى أوصى بها بولس الرسول[1] . فهذا البابا نائب المسيح على الأرض ومحقق مؤلفات القديس أمبروز Ambrose[2] ، أبدى ارتياحاً ملحوظاً حين علم أن بعض رجال العصابات فى كمپانيا قد ماتوا على أثر تناولهم طعاماً مسموماً أعد لهم .

وقد أخذت ألمانيا — وهى البلاد التى ظهر فيها الانشقاق أول ما ظهر ومنها طبق آفاق أوربا — أخذت دور الطليعة فى الحملة التى شنت لرد البروتستانت إلى حظيرة الديانة الكاثوليكية ، ففى ألمانيا بدا أن الهرطقة الجديدة قد استقرت إلى أبعد الحدود ، وفيها كانت تشق طريقها على أوضح ما يكون ؛ وكان تخفيف حدة التوتر أو القيام بإجراءات قمعية أشق ما يكون فى ألمانيا نظراً لأنه لم توجد بها حكومة كاثوليكية مركزية قوية . وما جاء عام ١٥٧٠ حتى كان شمال ألمانيا — وهى البلاد التى عرفت أثناء الصراع الطويل فى العصور الوسطى بين الإمبراطورية والبابوية بحماستها لقضية البابوية — قد أوشك أن يتحول إلى كتلة پروتستانتية

(١) أحد حوارى السيد المسيح ، ومن كبار المتفقهين فى الدين المسيحى . وقد قام بجهود تبشيرية كبرى — وأهميته بالنسبة إلى الدين المسيحى لا تفوقها إلا أهمية المسيح ذاته .

(٢) ٣٤٠ ؟ — ٣٩٧ . أسقف ميلان وأحد كبار آباء الكنيسة .

متراصة . أما فى المقاطعات الكنسية الواقعة فى أسفل الرين فقد استجمعت الهرطقة — بعد انتشارها جنوباً من هولندة وغرباً من سكسونيا وشمالا من سويسرا — استجمعت قدراً كبيراً من القوة لدرجة أثارت الخوف من احتمال انتقال أسقفيات الرين الكبرى إلى المعسكر البروتستانتى برغم التحفظ الدينى الذى جاء فى صلح أوجزبورج : استقرت الكلفنية فى البلاتينات واللوثرية فى ورتمبورج وبادن. وكان القسس اللوثريون يعملون فى قلاع نبلاء باڤاريا وفى المدن الواقعة على الدانوب . وعلى حين ظل إقليم التيرول شديد الاستمساك بالكاثوليكية ، كان كل من ستيريا Styria وكورنثيا Corynthia ومقاطعتى دوقية النمسا قد تحول إلى الطقوس البروتستانتية إلى حد كبير .

كانت القوة الحقيقية للمذهب البروتستانتى فى وسط أوربا — وإن لم يكن ذلك واضحاً فى عام ١٥٧٠ — وتكمن فى منطقتين إحداهما فى أقصى الشرق فى ألمانيا والأخرى فى أقصى الغرب منها : الأولى مملكة بوهيميا القديمة ، التى كان يختار ملوكها بالانتخاب ، حيث استطاع أتباع هس أولا ثم « الإخوان البوهيميون » ثم الدعاة اللوثريون من سكسونيا أخيراً ، استطاعوا أن يغرسوا فى نفوس الفلاحين التشيكيين وفى نفوس النبلاء التشيكيين إلى حد كبير تحولا عنيفاً عن الولاء لروما ، والدولة الأخرى التى تركزت فيها القوة البروتستانتية فى وسط أوربا هى إمارة البلاتينات ، تلك المنطقة التى يرويها نهر النكر والرين حيث توالى على حكمها عدد من الأمراء المنتخبين الكلفنيين الذين حرصوا على أن يظلوا على اتصال بأبناء عقيدتهم فى سويسرا وفرنسا جنداً مرتزقة للهيجونوت ، وأقاموا فى عاصمتهم هيدلبرج مركزاً للآراء والتعاليم الكلفنية وعملوا كحلقة توثق الصلة بين قوى الثورة البروتستانتية المناضلة فى هذه البلاد .

ورغم ذلك فقد وجد فى الحركة البروتستانتية عنصران من الضعف كانا أعمق من البعد الجغرافى الفاصل بين بوهيميا والبلاتينات . فكلما ازداد فقهاء الديانة اللوثرية تعمقاً فى بحث عقائدهم ، وألفوا عنها البحوث ، بدت لهم — وهم فقهاء لا يعرفون شيئاً فى السياسة — شدة الحاجة إلى كبح جماح الكلفنية كما بدا لهم خطؤها واضحاً فى نقاط حيوية كثيرة .

ووضعت صيغة للأم الخلافات القائمة بين اللوثريين (Formula Concordiae, 1580) ،

وجعلت الخط الذى يفصل بين العقيدتين المتنافستين واضحاً لا يلحقه لبس ، فقد اتفق الكلفنيون واللوثريون على أن يحتفظ كل فريق بعقيدته — وهكذا، بينما كان فى وسعهم أن ينتزعوا ضمانات لحماية إخوانهم فى العقيدة ، وذلك عن طريق الضغط السياسى المشترك على الإمبراطور حين طلب منهم أن يساعدوه فى حربه مع الأتراك ، سارت سكسونيا اللوثرية فى طريق وسار منتخب البلاتينات فى طريق آخر .

على أن نقطة الضعف الثانية كانت أشد خطورة ؛ وهى تتمثل فى هبوط الحماسة الروحية ، وهو أمر يطرأ على كل الحركات الثورية حين تنحسر موجة الحماسة الأولى . فلم يترك لوثر من يخلفه فى زعامة الحركة اللوثرية ، وجاءت بين وفاته وميلاد جون سباستيان باخ مائة وأربع وثلاثون سنة خالية من العبقرية اللوثرية . وجاء فى أعقاب عصر المبشرين والأخلاقيين عصر من الحذلقة الدينية والانحطاط العبودى وفى مجال الأدب عصر من الإسفاف الثورى الوضيع . وأجدبت الحركة اللوثرية ، فلم يخرج من صفوفها أى مفكر أو بحاثة عظيم ، ولم تجرف هذه الديانة أمامها اتجاهات سياسية ، وذلك رغم ما كان لها من أثر عام على أخيلة الناس وقلوبهم . ومع ذلك كان فى اللوثرية مصادر قوة داخلية ، ماثلة فى ذلك التدين الذى كان يطبع حياة الأسرة عند أوساط الناس ، وفى ارتباطها بموسيقى الكنائس ؛ وقد صمدت هذه القوة الداخلية لكل العوامل ، فلم ينل منها شىء حتى تنظيمها الحكومى وانتشار الفساد الخلقى فى ألمانيا .

وكان الوضع الدينى فى ألمانيا لا تزال تحكمه معاهدة أوجزبورج التى اقتضت كثيراً من الجهد حتى أمكن الحصول عليها والتى أسىء وضعها ؛ ولكنها رغم ذلك تأتى فى مصاف أنجح ما استطاع الساسة الألمان تحقيقه : إذ أنها منحت أوربا نوعاً من السلام لفترة تزيد على الخمسين عاماً . ولكن لا اللوثريون ولا الكاثوليك كانوا على استعداد لأن يخلصوا فى تنفيذ هذا الحل الوسط للنضال الذى استنفد طاقتهم ؛ فإن اللوثريين لم يقبلوا إطلاقاً مبدأ «التحفظ الكنسى » الذى أجبر رجل الدين الذى يتخلى عن عقيدته الأولى على أن يتخلى كذلك عن الدخل والموارد التى كانت فى

يده فعلا . أما الكاثوليك فكانوا يرون أن الكنيسة الكاثوليكية يحق لها أن تسترد كل الممتلكات الكنسية التى صودرت منذ عام ١٥٥٢ ، واعترض اللوثريون على ذلك . وتمسك الأمراء الكاثوليك بحقهم فى طرد البروتستانت من أراضيهم ، وإلا حق لهم اضطهادهم . وكان هذا فى نظر البروتستانت ، الذين لم يكونوا أقل تعصباً من الكاثوليك ، نقضاً صريحاً لمرسوم التسامح الذى اعتبروه جزءاً لا يتجزأ من التسوية . وفى وقت كانت فيه مبادئ العقيدة مائعة فى قلوب الناس ، بحيث إن الأمير أو المدينة أو مجمع القسس فى الكاتدرائية أو أحد أحبار الكنيسة كان يستطيع أن يتحول من الكاثوليكية إلى البروتستانتية ، مثيراً فى كل حالة تلك المسألة الشائكة : مسألة مصير أوقاف الكنيسة — فى مثل هذا العصر من السهل أن نتصور كيف تعددت ظروف النزاع من جراء تنفيذ صلح أوجزبورج ووصلت إلى درجة خطيرة .

ورغم ذلك فإن الداء لم يكن مما يعز علاجه . حقـًا لقد طرد قسس بروتستانت من أراض كاثوليكية ، وحرم الوعظ على البروتستانت ، وكان يكفى أن يكون المرء بروتستانتيًّا لكى يغلق فى وجهه كل سبيل إلى الوظائف العامة أو تحصيل الرزق ؛ وقد حدث ذلك دون أن يثير موجة من السخط العارم لدى الرأى العام ، ذلك السخط الذى يثيره تحريق الأتقياء من الناس من أجل عقائدهم . ولكن مما يجب أن يذكر للحكام الكاثوليك فى ألمانيا أنهم اتبعوا سبيل الحكمة فتجنبوا محاكاة أساليب محاكم التفتيش الإسپانية . فلو أن لوثريًّا أُعدم حرقاً ، لتعالت صرخات الألمان ولاضطروا أمراءهم إلى الخروج بجيوشهم طلباً للإنصاف .

وكان سر هذا الأفول فى ألمانيا خلو البلاد من أية حكومة ؟ فلم توجد بها سلطة قوية قادرة على حسم الخلافات الناجمة عن تفسير المعاهدة الدينية أو ردع من يخرق أحكامها . كانت المجامع الإمبراطورية بطيئة العمل مشوشة النظام عديمة الأثر وأعضاؤها جامحون . أما الأمراء فكانوا أكثر اهتماماً برعاية مصالحهم الأسرية والإقليمية المتعددة منهم باتباع خطة شاملة ومدروسة لحل المشكلة الدينية فى ألمانيا . حقـًا كان هنالك الإمبراطور ، وهو هاپسبورجى تربطه بمملكة إسپانيا القوية وشائج عائلية وثيقة ؛ وكان ملكاً على بوهيميا ، وملكاً على المجر بالاسم (رغم أن فتح

لأتراك للمجر لم يترك له إلا حكم رقعة صغيرة من تلك البلاد) ، وكان كذلك حاكماً على الدوقيات الخمس : النمسا العليا والنمسا السفلى وستيريا وكارنثيا Carinthia وكارنيولا Carniola . لم يكن ثمة أمير ألمانى يدانيه فى مكانته أو فى اتساع الأراضى التى يحكمها ؛ ورغم أن سلطاته الدستورية فى الإمبراطورية قد تقلصت إلى حد كبير ، فإنه كان لا يزال ثمة لدى الشعب الألمانى رصيد كامن من مشاعر الولاء للإمبراطورية ، وهو رصيد كان بإمكان رجل عظيم أن يلجأ إليه ويستثيره لو استطاع أن يلهب خيال الناس ويعالج أموره مع الأمراء ويتصدى بشجاعة لمعضلة الجامعة الجرمانية . ولكن أباطرة الهابسبورج فى النصف الثانى من القرن السادس عشر لم يكونوا فى مستوى هذه المهام العظام . كان فردناند الأول (١٥٥٦ — ٦٤) كاثوليكيًّا طيباً حكيماً . وقد وفق طوال حياته فى توفير شروط معقولة لرعاياه البروتستانت رغم أنه سمح لليسوعيين بالعمل فى ڤينا . أما خلفه مكسمليان الثانى فقد أشاد به ستبز Stubbs [1] باعتباره « أول عاهل أوربى من أى دين رفض أن يلجأ إلى الاضطهاد » ، ولأنه اعتذر عن تنفيذ دعوة البابا بيوس له لمهاجمة البروتستانت ، كما رفض أيضاً رجاء البروتستانت له أن يطرد اليسوعيين . ولكن رغم ذلك كانت تعوزه الصفات التى يستلزمها الموقف . فهذا الرجل ذو الشخصية المحبوبة الذى استمع فى شبابه إلى تعاليم الدعاة اللوثريين ، وفى أواسط عمره زوج ابنته بفيليب الثانى ثم فى آخر رسالة له فى الديات أعلن حياده فى المسألة الدينية ، وحين حضره الموت رفض مناولة الكنيسة — هذا الرجل لم يساهم بجهود إيجابى فى تسوية النزاع الدينى فى ألمانيا . ورغم أنه هو نفسه كان متسامحاً ، فقد أقر أعمال الاضطهاد التى قام بها جيرانه . ورغم أنه كان كاثوليكيًّا من الوجهة الرسمية ، فقد كان لوثريًّا فى روحه . وهكذا عاش موزع النفس بين العقيدتين المتنابذتين وسط حالة من التردد الذى لا نفع فيه ، الأمر الذى منعه من اتخاذ قرارات حاسمة تحتاج إلى جهد .

ثم تولى الحكم رودلف الثانى (١٥٧٦ — ١٦٠٢) الذى كان عهده خطيراً

---

(١) أكبر المؤرخين الإنجليز فى القرن التاسع عشر . كان جل اعتماده على الوثائق والمصادر الأصلية ، ولم يكن يعترف بفلسفة معينة للتاريخ .

منكود الطالع كاد يفضى بألمانيا إلى الحرب . فنى عام ١٥٧٦ كان الإمساك بزمام الإمبراطورية يتطلب رجلا ذا همة عالية أصيلا نشطاً ، مغرماً بألمانيا ، قادراً على أن يوطد دعائم صداقة راسخة مع الزعماء السياسيين للشعب الألمانى ، وهى وحدها السبيل إلى أن يسترد الإمبراطور شيئاً من نفوذه وسلطانه . ولكن رودلف كان على نقيض ذلك كله : لم يكن فيه شىء مما عرف عن الألمان من صخب وإسراف فى الشراب ودماثة فى الخلق . تربى فى البلاط الإسبانى ، بما فيه من مراسيم شكلية ، بل إنه فى شبابه قبل أن يلم به الانقباض ويملك عليه نفسه ، أظهر من المراس ما عرف عن طالب العلم أو صاحب المركز الرفيع أو الراهب المتعبد . وقد أورثه الميل إلى البعد عن الغوغاء مرضاً قتالا فى عقله ؛ وبينما كان الأتراك يجتاحون حدود المجر ، وبينما كانت ألمانيا تسير سراعاً إلى الفوضى والانهيار ، كان هذا الأعزب الشاذ العديم الشعور بالمسئولية يعيش معتزلا بنفسه بعيداً عن جماهير الشعب الألمانى الهائجة ، فى تلك القلعة العالية التى تطل أبراجها على براغ ، يمضى أيامه بصحبة المنجمين والكيميائيين وسوّاس الخيل ، قانعاً من دنياه بأن يدعوه ينعم بخيوله وكتبه وأدواته الرياضية ومحظياته ، عاهداً بشئون الإمبراطورية المسئمة إلى رجل بعد آخر من الأصفياء العاجزين . فليس بمثل هذا الحاكم كان يمكن تهدئة الضجيج المتعالى من جانب الشعب الألمانى .

وفى تلك الأثناء كان الإصلاح الكاثوليكى يمضى ببطء فى إحراز انتصاراته بفضل التشجيع الخاص الذى كان يبذله أدواق باڤاريا وبفضل المساعدة الملحوظة التى قدمتها له طائفة اليسوعيين .

أدرك إجناتيوس ليولا — مثله فى ذلك مثل كل الساسة الذين يفوقون غيرهم دراية وبعد نظر — أن كل التغييرات البعيدة المدى فى الاتجاه الروحى عند البشر ينبغى أن تقوم على المدرسة . رأى أن إفساد الإكليروس الكاثوليك وجهلهم هما الدعامة الأساسية للقضية البروتستانتية ، ولهذا صمم على أن يعالج هذا الداء بالتعليم . كما أنه رأى أنه بتأثير الإنسانيين أُدخل فى تعليم الشباب تقييم جديد للقيم : ثقافة طغت على اللاهوت ، وعقيدة أخلت مكانها للحرية ، وفقد المجتمع الحصون التى كانت تحمى العقيدة الكاثوليكية ، وهى حصون الجدل التى شادها المدرسيون العظام فى العصور الوسطى .

ولكى يخدم ليولا هدفه المباشر ، وجد أنه من الأجدى أن يدرب الصفوة من الناس بدلا من توزيع مواهبة على الجماهير . وعجلة التاريخ قلما يحركها الفقراء ؛ فالعالم — فى جملته — يحكمه أصحاب المناصب والثروة والمواهب . وهكذا لم يوجه اليسوعيون جهودهم فى التعليم نحو الجماهير ، بل وجهوها إلى الأشخاص الذين يعول عليهم والذين قد تؤهلهم مواهبهم ومراكزهم ليكون لهم نفوذ على رفاقهم . ولما كان نظامهم مجانيًّا متسماً بروح المحافظة ، فقد لقى إقبالا واسعاً ، وكانوا من التعقل بحيث لم يهملوا العلوم الإنسانية والتعليم باللغات اليونانية واللاتينية والعبرية ، وهى اللغات التى كانت قد استقرت فى ذلك الوقت باعتبارها من لزوميات الثقافة الرفيعة ؛ كما عنوا بصحة تلامذتهم وسلوكهم ، وهو مما كان يميل إليه الناس أيضاً . على أن أهم من ذلك التفوق الفنى فى أسلوب تدريب الشباب على أن يتعلموا ويكتبوا ويناقشوا كان ذلك النظام المطرد الصارم من الرياضيات الروحية ؛ فكان تلميذ اليسوعيين يظل حتى يذهب إلى قبره حاملا معه طابع التأثير اليسوعى .

وفى الخمسينات من القرن السادس عشر أخذ « الكهنة الإسپان » — كما كان اليسوعيون يسمون — يتسربون إلى ألمانيا وينشئون فيها المدارس والكليات بقصد رد الناس إلى العقيدة الكاثوليكية . فنحن نجدهم فى ڤينا حيث أطلقت أيديهم فى شئون الجامعة فسيطروا عليها فى عام ١٥٥١ ، وفى كولونيا وإنجلشتاد Ingolstadt فى عام ١٥٥٦ ، وفى ميونخ فى عام ١٥٥٩ . وعلى طول الرين والسين : فى بون وماينز وشپيير Speier وفى ورزبورج Würzburg أيضاً ، أنشئوا مراكز للتعليم والدعاية . وعجزت المدارس اللوثرية فى منتصف القرن السادس عشر — بكفاءتها وضيق أفقها أيضاً — عن مناقشة المدارس اليسوعية .

كانت ڤينا تملك مفتاح الموقف ؛ ولم يفت على ليولا أن يدرك أن قلب الإمبراطورية لا محالة واقع فى أيدى العدو إذا لم ترد المقاطعات النمسوية حالا إلى حظيرة الديانة الكاثوليكية . لهذا أرسل إلى ڤينا واحداً من أعظم الشخصيات الكاثوليكية فى ذلك العصر ، وهو العلامة الهولندى الغيور بترس كانيزيوس Petrus Canisius الذى استطاع بحماسته وبلاغته —وكان لا يزال شابًّا — أن يحتفظ بكولونيا فى نطاق الكثلكة ، أصبح كانيزيوس موضع ثقة الإمبراطور ، وله تدين

حركة الإصلاح الكاثوليكى فى النمسا بأقوى دفعاتها : فهو الذى كسب لليسوعيين الهيمنة على التعليم فى النمسا ، تلك الهيمنة التى استمرت قائمة عدة قرون لم ينل منها شىء . على أن طائفة اليسوعيين قد حققت أعظم نصر فى ألمانيا حين قام فردناند حاكم ستيريا — وهو من شباب أسرة هاپسبورج — وكان قد تشبع فى شبابه بمبادئ اليسوعيين ، بطرد البروتستانت من ستيريا أولا ، ثم — حين أصبح إمبراطوراً على الدولة الرومانية المقدسة — تزعم قوى الهجوم الكاثوليكى المضاد أثناء حرب الثلاثين عاماً .

ولكن بقى علينا أن نشير إلى أعظم توفيقات اليسوعيين . كانت مملكة بولندة بعد اتحادها مع دوقية لتوانيا فى عام ١٣٨٩ أكبر من أى دولة فى غرب أوربا . وكانت هذه البلاد الموحشة الخالية ترحب بكل مهاجر ؛ ولكن لم يحدث فيها على الإطلاق ما يدعو إلى أن توضع المؤهلات الدينية لدى أولئك المهاجرين موضع الامتحان الدقيق . فر إلى بولندة فى العصور الوسطى عدد من اليهود هرباً من الاضطهاد الشديد الذى كانوا يلقونه فى بلاد غرب أوربا الكاثوليكية ؛ وفى بولندة أعطوا حق الضيافة ثم أنسلوا نسلا تكاثر عدده باطراد وأمد بولندة بالقسط الأوفر من فنونها الحضرية . وكان أكثر من نصف السكان يعتنق باستمرار العقيدة الأرثوذكسية (اليونانية) ، وفى القرن الخامس عشر تسلل إلى بولندة عدد من أتباع جون هس ، ثم تبعهم بعد ذلك ممثلون لكل مذهب من المذاهب البروتستانتية ؛ فمن لوثريين وكلفنيين إلى « إخوان بوهيميا » واتحاديين — وكلهم نشروا دعاياتهم بسهولة فائقة ؛ إذ أن سلطان الملك الكاثوليكى كانت تحصره فى حدود ضيقة امتيازات النبلاء الباهظة . ولكن ثبت أن الحرية الدينية الكاملة التى منحت للبولنديين كانت بالذات نكبة على القضية البروتستانتية . فلم تكن بالبلاد سلطة بإمكانها أن تحد أو توجه ذلك السيل المتدفق من الآراء الدينية المتعارضة التى كانت قد انتشرت فى الخارج على أثر ذيوع التعاليم اللوثرية . حقاً لقد أبرمت بعض المواثيق — فإخوان بوهيميا قد أقنعوا أنفسهم بالانضمام إلى الكلفنيين فى عام ١٥٥٣ ، وهؤلاء أقنعوا أنفسهم بالانضمام إلى اللوثريين فى عام ١٥٧٠ . ولكن هذه التشكيلات كانت قد تأخرت طويلا ، كما أنها لم تكن وثيقة العرى بدرجة كافية ؛ فقبل خمس

سنوات من اتفاق اللوثريين والكلفنيين على تسوية خلافاتهم كان اليسوعيون قد نزلوا إلى الميدان ، وبفضل تشجيع الملك لهم هيمنوا على التعليم العالى فى البلاد .

وتلا ذلك حملة كاثوليكية بطيئة راسخة القدم تسير فى اتساق ونظام ، كللت بالنصر فى النهاية . وما أوفت نهاية القرن السابع عشر حتى كان اليسوعيون قد جعلوا من بولندة قطراً من أشد أقطار أوربا تمسكاً بالكاثوليكية ومركزاً لاتينياً أمامياً بين البروتستانستية التيوتونية والحضارة اليونانية — الروسية الشرقية . وإن الرحالة الذى يعبر الحدود البولندية اليوم إلى أراضى جمهوريات الاتحاد السوفييتى ينسى أن السكان على جانبى خط الحدود يرتبطون معاً بروابط الوحدة الجنسية . فقد حجبت حركة الإصلاح الكاثوليكى كل الصلات التى ربما ربطت البولندى بالروسى من قبل . ففى جانب تقوم الكنائس الكاثوليكية بأنوارها الساطعة وحفيف أثواب أفواج الركع المتعبدين فيها ؛ وفى الجانب الآخر تقوم الدعوة المقصودة إلى اللادينية التى ترجو الحكومة الشيوعية الجديدة فى الاتحاد السوفييتى أن تحلها محل عبادة الأيقونات البيزنطية التى سيطرت أجيالا طويلة على طبقة الفلاحين الجهلة الذين يؤمنون بالخرافات .

كتب يمكن الرجوع إليها

— L. Pastor, History of the Popes. Ed. F.I. Antrobus & F. Kerr, (1894-1933).
— A.W. Ward, The Counter - Reformation, (1889).
— L. von Ranke, History of the Reformation in Germany. Tr. S. Austin, (1905).
— J.A. Froude, Lecture on the Council of Trent, (1896).
— M. Philippson, La Contre-révolution religieuse du seizième siècle, (1886).
— J.C. Lea, History of the Inquisition in Spain. 4 vols, (1907).
— J.A. Symonds, Renaissance in Italy : The Catholic Reaction, (1886).
— H.D. Sedgwick, Life of Ignatius Lyola, (1923).
— W. Stubbs, Lectures on European History : 1519-1648, (1904).
— W.E. Collins, The Catholic South (in Cambridge Modern History, Vol. II, chap. XII).
— A. Gindely, Rudolf II und seine Zeit, (1863).
— G. Droysen, Geschichte der Gegenreformation, (1893).
— A. Huber, Geschichte Oesterreichs, (1885).

الفصل الرابع عشر

الحروب الدينية فى فرنسا

هذه الحروب الأهلية شر مستطير – الموقف فى عام ١٥٥٩ – كاترين مدتيشى – آل جيز – الهيجونوت – السياسيون Les Politiques – الحل الوسط الذى اتفق عليه أولا – مذبحة ڤاسى Vassy – اللجوء إلى المرتزقة الأجانب واستصراخ الدول الأجنبية – الانتصارات الكاثوليكية فى دريه Dreux وجرناك Jarnac ومنكنتور Moncontour – كوليني يعيد الميزان إلى صف الهيجونوت فى عام ١٥٦٩ – صلح سان جرمان (١٥٧٠) – سياسة كوليني الطموحة المعادية لإسپانيا – الرعب يستولى على الملكة – مذبحة يوم القديس بارتلميو – هنرى ناڤار يصبح الثانى فى وراثة العرش فى عام ١٥٦٤ – مخاوف الكاثوليك – مقتل آل جيز – آخر الڤالوا – مقاومة « العصبة » – انتصار هنرى ناڤار – مرسوم نانت (١٥٩٨) – سياسة هنرى الحربية وموته المفاجئ .

كانت الحروب الدينية فى فرنسا ، وهى الحروب التى شغلت النصف الأخير من القرن السادس عشر ، أنكى على البلاد بكثير من الحروب الإيطالية التى سبقتها . وكانت سياسة فرنسا الإيطالية من الحماقة بمكان ؛ فهى – إلى جانب أسباب أخرى – قد ضحت بأعمال الارتياد التى كان ملاحو بريتانى ونورمندية قد بدءوها فى العالم الجديد ، مما ترتب عليه – بعد هذا الإسراف الشديد فى إراقة الدماء وبذل الأموال – انتهاء هذه الحقبة من الطموح الفرنسى بالفشل . ولكن الحروب الدينية كادت تحطم الوحدة التى حققتها فرنسا بعد جهود طائلة ، وأورثت فرنسا عللا لا يمكن قياسها بخسائر المعارك وحدها . فقد قامت مدينة على أخرى ، وأخذت قرية بتلابيب أخرى ، وقامت الأسر بعضها على بعض ، وأصبحت المصادمات المسلحة والاغتيالات قصة كل يوم . وقد ارتبكت بعض حوادث القتل نتيجة لتعصب دينى ، وبعضها طلباً لثأر خاص ، وبعضها الآخر نتيجة موجة من الإرهاب الأهوج كما يحدث فى كل وقت تفتك فيه جرثومة الجاسوسية الرهيبة بجهاز الدولة السياسى ؛ وانحرفت المثل العليا الأخلاقية لدى أتقياء الهيجونوت فى نضال اتسم – إلى حد كبير – بأساليب لصوص أيرلندة المسلحين . أما عقلاء الإنسانيين الفرنسيين فقد نأوا بأنفسهم عن ذلك ، كما فعل مونتانى الذى تشف مقالاته التى

نشرها أثناء الطغيان الوحشى الذى قامت به العصبة الكاثوليكية عن مبادئ أبيقورية مستنيرة وشك كريم .

* * *

وفيما يلى صورة تقريبية للوضع فى فرنسا حين توفى هنرى الثانى فى عام ١٥٥٩ . أحرزت دعاية جنيف (أو دعاية الهيجونوت) تقدماً كبيراً ، كسبت إلى صفها أصدقاء فى الجيش وفى برلمان پاريس ، كما اجتذبت إليها أنصاراً كبيرين آمنوا بها بحماسة فى كثير من مدن الأقاليم . والاضطهادات الكثيرة التى صبت على تلك الحركة لم تفلح فى وقفها ؛ ورغم أن عقوبة الهرطقة كانت الموت حرقاً ، وأن ثمانية وثمانين من بسطاء البروتستانت قد لقوا هذا المصير فى عهد هنرى الثانى ، فإن عدد المتحولين إلى العقيدة الجديدة كان ينمو باطراد . وكانت الأناجيل الفرنسية الصغيرة وكتب المزامير توزع سرًّا وتقرأ فى الاجتماعات المنزلية الخاصة » والدعاة والمعلمون الذين تلقوا تدريبهم فى مدرسة جنيف الحصن الحصين للكلڤنية ، كانوا يتجولون من مكان إلى آخر يثيرون فى الناس روح البطولة والصبر على المكاره . هذا ولم يكن الهيجونوت الفرنسيون يجهلون المصير الذى يواجهه إخوانهم فى العقيدة فى بلاد أخرى : فهم كانوا يعلمون أن نسوة پروتستانتيات قد دفنّ أحياء فى الأراضى المنخفضة ، وأن الملكة مارى فى إنجلترا أرسلت قسساً پروتستانتيين إلى المحرقة ، وأن جون هس رفع راية جنيف بين الإسكتلنديين . وكانت جمعيات المخلصين لعقائدهم ترتبط معاً برابطة الزمالة فى الاستشهاد ؛ وهكذا واجهت حكومة فرنسا الضعيفة المفلسة طائفة من الهرطقين لم ينظموا صفوفهم بعد ، ولكن شوقهم للمنافحة عن عقيدتهم كان كبيراً ، وكانوا يتقدون حماسة ويشدّ عزمهم شعور بالتضامن مع الطوائف البروتستانتية فى البلاد الأخرى .

وفى مواجهة هذا التحدى للعقيدة القديمة ، وهو التحدى الذى كان حينئذ آخذاً فى التجمع ، قامت التقاليد الكاثوليكية للملكية الفرنسية ، والقوة المنظمة للكنيسة الكاثوليكية وغضبات رعاع پاريس الممتزجة بالخرافات ؛ كما كان وراءها دائماً قوة إسپانيا المتفوقة بحراً ، وذات الكلمة العليا فى إيطاليا والأراضى المنخفضة ، والمرتبطة بالأسرة الحاكمة فى النمسا بأوثق الوشائج الأسرية .

ولو قدر للعرش الفرنسى أن يشغله فى ذلك الوقت ملك قوى عاقل متسامح قدير راغب فى الإفادة من تلك المشاعر القوية فى سبيل تحقيق استقلال الكنيسة الفرنسية عن سلطان البابوية ، وهو الاستقلال الذى طالما تطلع إليه كثير من أحبار الكنيسة الفرنسية ، ولو كان هذا الملك – كهنرى الثامن – على استعداد لأن يكون السيد المتصرف فى بيته ، لو قدر لفرنسا مثل هذا الملك فى هذا الوقت لربما وفرت البلاد على نفسها عهداً طويلا من البؤس والشقاء . ولكن فى هذه الظروف الحرجة توالى على حكم فرنسا ثلاثة من أضعف الملوك الذين جلسوا على عرش أوربى على الإطلاق . كان فرنسوا الثانى أكبر أبناء هنرى الثانى وكاترين مديتشى قد أقعده المرض ، وكان الثانى – شارل التاسع – محطم الأعصاب ، إن لم يكن مجنوناً ؛ ثم كان الثالث – هنرى الثالث – منحلا . أما السلطة الحقيقية فكانت فى يد أمهم التى كانت تعانى من شيئين : كونها امرأة ، وكونها أجنبية[1] .

كان مركز هذه السيدة الإيطالية المثقفة الساخرة المنحدرة من صلب الطبقة الوسطى فريداً فى صعوبته بعد أن دعيت فجأة لتحكم فرنسا فى وسط عاصفة من المنافسات الحادة التى قسمت البلاط والبلاد . فاتباع سياسة جريئة مما قد يستهوى ملكاً من أبناء البلاد كان أمراً بعيداً عن متناول سيدة أجنبية . وسياسة نشطة متحمسة من شأنها أن تلاقى تعضيداً قلبيًّا سواء من جانب الكاثوليك أو من جانب الهيجونوت كانت غريبة على مزاجها الذى لا يكترث لشىء ولا يتأثر مطلقاً بالنوازع الدينية . ولما وجدت نفسها تكتنفها الأخطار ، وفى مركز يستلزم أقصى درجات الحذر ، قررت أن تحتفظ لأولادها بمباهج الملكية على أن تحتفظ هى بجوهر السلطان ، ذلك باتباع وسيلة رأتها أكفل ما تكون لتحقيق هذه الغاية ، وهى إقامة سلام دينى يقوم على التوفيق . ولقد اختلفت الآراء حول شخصيتها : فهى من نظر أحد المؤرخين « تمتاز بوجه خاص بعبقريتها فى الحب الأموى » ؛ على حين أنها فى نظر آخرين أكبر صورة مجسمة لخداع البشر ولؤمهم . وربما كان أصغر أبنائها ، وهو من أقل نقادها عطفاً عليها ، أقرب إلى كبد الحقيقة حين خلع على أمه لقب « السيدة الأفعى Madame la Serpente » . ولقد كانت فى احتقارها للصدق وفى

---

(١) انظر ثبت الأنساب (حـ) .

إسرافها على نفسها وفى إلحاحها على طلب الثأر الشخصى دون أن تعتمل فى قلبها ذرة من تبكيت الضمير — فى كل ذلك كانت كاترين دى مديتشى إيطالية بنت عصرها . ولعل أعظم مزاياها السياسية مثابرتها فى هدوء على السعى لتحقيق توازن سلمى بين طائفتين متعصبتين ؛ ورغم أن التسامح كان مما يرتاح إليه عقلها ومزاجها ، فإنها لم تتخذه قط مبدأ ثابتاً لا تحيد عنه . وقد أتى وقت على هذه السيدة السمينة اللطيفة المكبة على العمل ، صاحبة الذوق الفنى الدقيق الأصيل التى كانت تهوى اللوحات والجواهر والكتب الجيدة وما كانت على الإطلاق لتنسى أو تعفو عن إساءة والتى كانت أول حاكم فى فرنسا نظم الفساد الخلقى كأداة للسلطان السياسى — أتى عليها وقت نحت جانباً سياسة التسامح التى انتهجتها وعاونت فى تدبير مذبحة يوم القديس بارثلميو .

وكان ثمة فى فرنسا جماعات من الطبقة الأرستقراطية العالية ، تحجب — بسلطانها وطموحها إلى السيطرة على شخص الملك وبالتالى على الحكومة — الملكة الإيطالية وأولادها التعساء الذين تتابعوا على العرش . وكانت إحدى هذه الجماعات كاثوليكية بشكل واضح ، والأخرى پروتستانتية بشكل واضح أيضاً ؛ على حين أن الجماعة الثالثة كانت تشغل موقفاً وسطاً : فهى تعارض زعماء الكاثوليك فى شئون السياسة ، وتعارض البروتستانت فيما يتعلق بالعقيدة الدينية . وكان الفريق الكاثوليكى هو حزب آل جيز الذى كان يتزعمه فرنسوا دوق جيز الذى أصبح معبود فرنسا بعد دفاعه عن متز واستيلائه على كاليه . وكان يتزعم هذا الحزب من الناحية الدينية أخوه شارل صاحب اللورين وكاردينال ريمز Rheims الذى لم يكن لديه مانع أن يكون أول بطريرك لكنيسة جاليكانية مستقلة ، فلما ثبت له استحالة ذلك نصب من نفسه فى مجمع ترنت راعية شديد الحماسة والمهارة لأشد ادعاءات البابوية تطرفاً . وهكذا كان باستطاعة حزب جيز أن يفاخر بأنه جندى فرنسا الأول وينتظم فى صفوفه أبرز رجال الكنيسة فى المملكة ؛ ولكن نفوذهم لم يقف عند هذا الحد . فإن أختاً لفرنسوا جيز كانت زوجة لملك إسكتلندة ، وكانت ابنة عم له تجلس على عرش فرنسا . وهكذا كان حزب جيز يمثل أقوى هيئة تسند المصالح الكاثوليكية فى البلاد ، وذلك بفضل ارتباطه الوثيق بملكين متوجين ووضع الأسرة يدها على

خمس عشرة أسقفية وأملاك واسعة متناثرة على طول الحدود الشرقية للمملكة . ولقد تطلعت إسپانيا وروما — المرتبطتان بهذه الأسرة البارزة — إلى آل جيز ليقوموا بالعبء الأكبر فى الدفاع عن الكاثوليكية فى فرنسا .

أما زعيما حزب الهيجونوت فكانا أميرى البوربون : أنطوان ملك ناڤار وأخوه لويس دوق كونديه الذى كان حاكماً لپيكاردى ، وكان قد قبل منصب حامى حمى كنيسة فرنسا . حقًّا إنه لا يمكن القول بأن أحداً من هذين النبيلين الكبيرين كان راسخ القدم فى العقيدة الهيجونوتية ، إلا أن نفوذهما كان عظيماً فى غرب فرنسا وجنوبها الغربى وكذلك فى نورمندية ، مما ترتب عليه اجتذابهما كثيراً من صغار النبلاء وأعيان الريف فى هذه المناطق إلى حلبة الصراع .

أما الجماعة الثالثة الذين كانوا يمثلون قوة لها وزنها فى وسط فرنسا بوجه خاص والذين كان يتزعمهم السياسى المخضرم آن دوق مونمورنسى فقد كانوا رجالا مخلصين للعقيدة الكاثوليكية ، ولكنهم لم يكونوا يكنون كثيراً من الحب للملكة الوالدة ولا لآل جيز ؛ ومن ثم وقفوا موقفاً وسطاً بين الفريقين المتطرفين . كان مونمورنسى ممعناً فى كاثوليكيته ، ولكن أبناء عمومته — الإخوة شاتيون Châtillon — كانوا ينتهجون خطة أخرى . انضموا إلى الهيجونوت ، وأصبح أحدهم وهو جاسپار دى كولينى Gaspard de Coligny ، أميرال فرنسا — وهو رجل ذو شجاعة لا ترتوى وعقيدة دينية متأصلة — أكبر القواد البروتستانت ؛ وبالتالى أصبح الهدف الرئيسى لانتقام الكاثوليك .

وفى هذه الأوقات التى احتدمت فيها مشاعر الناس كان أقل حادث كفيلا بإشعال الحرب . أثار إعدام محام كلڤنى فى باريس — لدى الجماعات البروتستانتية السرية — وربما بتشجيع من كونديه ، بل من إليزابيث ملكة إنجلترا — أثار تدبير مؤامرة لخطف الملك وآل جيز فى أمبواز Amboise . واكتشفت المؤامرة ، ووقعت عقوبات قاسية على المتآمرين ، وغامر آل جيز — الذين كانت قوتهم تتزايد باستمرار — بالقبض على كونديه والحكم عليه بالإعدام . ولكن حدث تبدل مفاجئ فى مصائر الأمور : ففى ٥ ديسمبر ١٥٦٠ مات الملك الشاب ؛ وهكذا وجد آل جيز أنفسهم — وهم فى غمرة نجاحهم — وقد انتزع منهم نفوذهم فى

البلاط ، وأعداؤهم وقد أرسوا أقدامهم فى مكانهم . أصبحت الملكة الوالدة وصية على ابنها القاصر شارل ؛ وانتهجت سياسة تقوم على العفو والتوفيق ، يساعدها فى ذلك مستشار الدولة لوپيتال L'Hôpital ، وهو أحد الساسة العظام القلائل الذين أنجبهم ذلك العصر ، أطلق سراح كونديه من سجنه ، وصدر عفو عن الكلڤنيين ، وعين ملك ناڤار عضواً بمجلس الملك (Lieutenant-General) وهكذا كان من الممكن أن تضع أسس صلح مؤقت فيما لو تمت فى وقت تكون فيه مشاعر الناس أكثر هدوءاً . وقطعت المباحثات بين كبار الفقهاء فى كلا الفريقين المتباعدين — وهو ما كان يحدث عادة لمثل هذه المجادلات بشكل أو آخر — وعلى أثر ذلك صدر مرسوم فى يناير ١٥٦٢ أقر شرعية ممارسة الهيجونوت لمشاعرهم الدينية علناً طبقاً لشروط معينة غير جائرة . ولكن حدث هذا بعد أن اضطرمت النفوس . حطمت الصور الدينية ، وشوهت الكنائس ، وهوجم الإكليروس والمبشرون ؛ ثم ذبحت قوات آل جيز عدداً من الهيجونوت وهم يتعبدون فى ڤاسى ، فانفجرت الحرب الأهلية انفجاراً عنيفاً مفاجئاً بعد أن أمكن تجنبها هذا الوقت الطويل .

وقد اتسم هذا النزاع ليس فقط بأنه كان يعتمد على المرتزقة من الأجانب إلى حد كبير ، بل إنه تميز أيضاً بأنه كلما قامت الحرب أعقبها السلام بعد وقت قصير . وليس سبب ذلك توقع الطرفين تسوية يقبلانها حقًّا ، ولكنه يرجع إلى عوامل أخرى كفراغ أيدى المتحاربين من المال أو مقتل قائد أو حدوث تخاذل أو ضعف مفاجئ فى الشعور الذى كان لا يزال كامناً بوحدة فرنسا باعتبارها كنزاً لا يجوز تبديده بسهولة ، وهو الشعور الذى كانت تخالطه الأحقاد الدينية أو الشخصية العنيفة لذلك العصر .

هذه الأسباب تفسر كيف أن فرنسا كانت مضطرة إلى خوض حروب أخرى قبل أن يحسم النزاع بين الكاثوليك والهيجونوت .

ولم يتورع كلا الطرفين عن الالتجاء إلى المعونة الأجنبية . ولّى الكاثوليك وجوههم شطر إسپانيا ؛ على حين ولى الهيجونوت وجوههم شطر إنجلترا ؛ بل لقد ذهبوا فى الحرب الأولى إلى حد وضع الهاڤر فى يد الإنجليز ووعدهم بكاليه ، ومع ذلك فإنهم لم يعقدوا قط حلفاً مع دولة پروتستانتية : فإن الصدع القائم بين اللوثريين

الألمان والهيجونوت الفرنسيين كان يعز على الرأب . حقاً لقد شارك لوثريون من الألمان فى الحروب الفرنسية ؛ ولكن أكثرهم كان يقاتل فى صفوف الكاثوليك ، لا الهيجونوت .

وفى الحرب الأولى كانت كل المقدمات تشير إلى توقع انتصار الكاثوليك : فهم قد تسلطوا على الملك والملكة ، وضمنوا تعضيد باريس ، ومساعدة طائفة من المرتزقة الإسبان والألمان ممن مهروا فى القتال — هذا إلى استيلائهم على روان ثم انتصارهم أخيراً على قوات كوليني وكونديه فى درية (فى نورمندية) . ولكن هذه الميزات تبددت فجأة حين خر فرنسوا جيز صريعاً على يد سفاك أمام أسوار أورليان .

ولكن الهيجونوت لم يفيدوا كثيراً من هذه الجريمة ؛ فقد عزى مقتل فرنسوا جيز إلى كوليني ، وأصبح لدى أسرة القتيل دافع للثأر أقوى بكثير من قوة معتقداتها الدينية .

ثم تلت ذلك سنوات أربع تخللها سلام غير مستقر جابت كاترين وأولادها خلاله ربوع الأقاليم . وتيقظت شكوك حزب الهيجونوت حين تمت فى بايون Bayonne (مايو ١٥٦٥) مقابلة بين كاترين وأختها إيزابلا ملكة إسپانيا التى كان يصحبها دوق ألفا . وكان من الواضح أن غرض كاترين الأساسى هو السعى لتزويج ابنتها مارجريت بدون كارلوس Don Carlos بن فليب الثانى ملك إسپانيا ؛ ولكن نوقشت أيضاً فى هذا الاجتماع مسائل أخرى ، وبخاصة تعاون فرنسا وإسپانيا ضد الأراضى المنخفضة . وفى ذلك ما يكفى لإثارة مخاوف كوليني أنشط محركى حزب الهيجونوت ؛ وحين علم أن ألفا يزحف صوب الأراضى المنخفضة على طول حدود فرنسا الشرقية على رأس جيش إسپانى ممتاز تصحبه فرقة استطلاع فرنسية ، شعر الأميرال أن الوقت قد حان لتحرير البلاط من المؤامرات الإسپانية . وضعت خطة لاختطاف شارل التاسع ، وكان فشلها معجلا بنشوب القتال من جديد .

وقد يكون بإمكاننا اعتبار الحربين التاليتين سلسلة واحدة من العمليات : إذا لم يفصل بينهما سوى صلح لونجيمو Lonjumeau القصير الأمد (١٥٦٨) . ولهاتين الحربين أهميتهما لعوامل ثلاثة : ففى هذه الفترة بالذات برزت لاروشل لأول مرة باعتبارها حصناً بحرياً پروتستانتياً عظيماً قادراً على أن يصمد للحصار ؛ وفى

هذه الفترة أيضاً برز هنرى ناڤار ابن الملك أنطوان ، وهو الذى قدر له فيما بعد أن يصبح هنرى الرابع ملك فرنسا — باعتباره قائداً پروتستانتيا . ولكن أهم ما يلفت النظر فى خصائص هذه الفترة أن النصر النهائى كان من نصيب كولينى ، وذلك رغم سلسلة متلاحقة من الانتصارات الكاثوليكية وأسر كونديه ومقتله فى جرناك ، وتغطية ساحة مونكنتور الملطخة بالدماء بحوالى ستة آلاف جثة من الهيجونوت . ولقد قام هذا القائد المحنك بتقهقر رائع من اللوار صوب الجنوب ، ثم كون جيشاً جديداً زحف به على باريس حيث وجد البلاط خلواً من كل قوة ، فأرهب أعداءه وسيطر على الملك وانتزع لنفسه السيطرة على سياسة فرنسا . وكان شارل التاسع ، الذى قامت على تنشئته مربية پروتستانتية ، على استعداد للتفاهم . اعترف صلح سان جرمان (أغسطس ١٥٧٠) — أكثر من أى وقت مضى — بأهمية حزب الهيجونوت كهيئة ذات مصالح خاصة لها كيانها فى فرنسا . وسمح لكبار النبلاء — كما كان الحال من قبل — بأن يقيموا الصلوات — طبقاً لمذهب الهيجونوت — فى قلاعهم لكل من يرغب فى حضورها ، ونص على بقاء شعائر العبادة البروتستانتية فى كل المدن التى تمارس فيها فعلا ، وفى مدينتين فى كل مقاطعة إدارية فى فرنسا ؛ ووضعت ضمانات لمنع المظالم التى تتخذ شكل القانون ، كما وضعت فى يد الحزب — لمدة سنتين — أربعة أماكن لها أهمية حربية عظيمة ، وذلك ضماناً لتنفيذ المعاهدة . وهذه الأماكن هى : لاروشل ومنتوبان Montauban وكونياك Cognac ولاشارتيه Ln Charité.

وهكذا انفسح أمل جديد أمام الهيجونوت . فحتى ذلك الوقت كانت الملكية الفرنسية ، فى دفاعها عن القضية الكاثوليكية ، وبفضل نفوذ آل جيز إلى حد كبير ، على استعداد للالتجاء إلى إسپانيا طلباً للمعونة . فجاء كولينى الآن يمهد الطريق لانقلاب سياسى كامل . كانت خطته أن يضمن حماية بنى ملته فى فرنسا عن طريق إشعال حرب قومية ضد إسپانيا فى الأراضى المنخفضة . ولتحقيق هذا الهدف عمل على تكوين حلف عظيم تتزعمه فرنسا وتسنده كل من إنجلترا وهولندة وتسكانيا والبندقية وربما الأتراك ، القصد منه إقرار السلام فى البلاد وضم الفلاندر وآرتوا إلى أملاك التاج الفرنسى . وكانت المعاهدة الدفاعية التى وقعها كولينى مع إنجلترا

فى بلوا Blois فى ١٩ أبريل ١٥٧٢ الحجر الأول فى البناء الدبلوماسى الجديد .

وبين التدابير التى اتخذت فى هذه الفترة التى ارتفع فيها نفوذ الهيجونوت مشروع قدر له أن يؤثر تأثيراً قويا فى الموقف الداخلى فى فرنسا . فقد تمت المباحثات فى أمر زواج أبرم بالفعل (١٨ أغسطس ١٥٧٢) بين مرجريت ڤالوا ، أخت الملك ، وهنرى ناڤار . فقد استدرج هذا الشاب من بيارن Bearn ذو الأنف الصغير الأحدب ، هذا الابن الريفى لفارس من البرانس وأم هيجونوتية متعصبة — استدرج من مقاطعته البعيدة وزوّج بإحدى أميرات الأسرة الفرنسية المالكة الكاثوليكية . وكان هذا الزواج المختلط الأول من نوعه ؛ فلقى المقت الشديد من كل كاثوليكى مخلص . وتساءل الناس : فى أى طريق تسير فرنسا فى ظل ملكها ضعيف العقل وقائدها الهيجونوتى ؟ أتسير فى طريق ينتهى بها إلى منازلة أعظم القوى الكاثوليكية فى أوربا ؟ أم فى طريق يفضى إلى وقوعها فى قبضة ملك پروتستانتى ؟ كانت كاترين من الألمعية بحيث استبانت ما طرأ على الجو السياسى من تغيير : فقد كانت تعلم أن الأغلبية العظمى من الشعب الفرنسى لا تزال مخلصة للعقيدة القديمة رغم أن ما يقرب من ثلث النبلاء أصبحوا من الهيجونوت . كانت تخشى الحرب ، وسطوة إسپانيا ونفوذ كولينى على ابنها ؛ كما كانت تخشى أن يوجه آل جيز ضربتهم إذا ما بقيت ساكنة ، ومن ثم ينتزعون لأنفسهم السيطرة على فرنسا ؛ وكانت من الحذق بحيث أدركت أن حرباً تشنها فرنسا للاستيلاء ولو على شبر من أراضى الفلاندر لن تحظى بعطف الحكومة الإنجليزية لأمد طويل . لكل هذا قر قرارها على تدبير مقتل كولينى . ولكن الهجوم على الأميرال فشل ، ولم يكن الجرح الذى أصابه على يد كاثوليكى مسلح بالغاً (٢٢ أغسطس ١٥٧٢) ؛ ومن ثم أصبح مركز الملكة الوالدة دقيقاً . وكانت باريس مزدحمة بالسادة الهيجونوت الذين أتوا إلى العاصمة لشهود حفلات الزواج الملكى ، وقد استشاطوا غضباً للاعتداء السافل على زعيمهم موضع حبهم وتقديرهم العميقين . وحتى لا يتطور الأمر من سيئ إلى أسوأ ، صممت الملكة على إعادة الكرة ، ليس ضد كولينى وحده فى هذه المرة ، ولكن — فى جنح الظلام — ضد كل الزعماء البروتستانت . وانخدع الملك الضعيف بقصة مؤامرة يدبرها الهيجونوت ، وأمكن إقناعه بالموافقة .

كان آل جيز يتعطشون للانتقام ، ومن ورائهم ومن وراء من يلوذ بهم وقفت پاريس الكاثوليكية يملؤها الغيظ الكامن والغضب . وفى فجر يوم ٢٤ أغسطس (يوم القديس باثلميو) دقت أجراس قصر العدل فى پاريس فكانت إشارة البدء بالمذبحة.

ولم تقتصر المذبحة الوحشية على پاريس ، حيث قتل حوالى ثلاثة أو أربعة آلاف من الهيجونوت ؛ بل لقد تعدتها إلى الأقاليم أيضاً ، وقد فاقت بكثير أقصى ما كان يقدره رجال البلاط . ولم يكن أهل باريس ، الذين تأثرت تجاربهم بالقلاقل الدينية ، بحاجة إلى من يغريهم بقتل الهيجونوت أو التمثيل بجثثهم . فلم يقف بهم الأمر عند حد قتل زعماء الهيجونوت ، بل مدوا أيديهم بالقتل إلى عامتهم ، واقتدى بهم أهل الأقاليم وكأنهم يقومون بعمل بهيج . وأرسل كومينى إلى البابا الذى بعث « بالوردة الذهبية » إلى الملك . وحين سرت هذه الأخبار السعيدة ، أخبار التخلص من مثل هذا العدد الكبير من المهرطقين . أمر البابا بنقش مدالية تخليداً لهذا العمل ، ورأس فليب الثانى ملك إسپانيا صلاة شكر . فلم يكن أحد يحلم بمثل هذا النصر الكاثوليكى العظيم : فلقد مات كولينى ، ووقع كونديه وهنرى ناڤار فى يد الملك ، وأكدت الآلاف من جثث الهيجونوت ثبات فرنسا على العقيدة الكاثوليكية .

وكان الرعب يسيطر على المتآمرين الذين دبروا مذبحة سان بارثلميو ، ولكن من المحتمل — بالرغم من ذلك — أنهم كانوا يخشون أن يقدم الحزب الكاثوليكى المتعصب ، الذى يسيطر عليه آل جيز ويرتكز على رعاع پاريس ، على خلع هذا الملك الذى ساير الهيجونوت إلى أقصى حد . وقد كاد هذا الخطر أن يتحقق فى عهد هنرى الثالث الذى خلف أخاه فى عام ١٥٧٤ . وهكذا بدلا من أن تقضى مذبحة سان بارثلميو على الهيجونوت ، كانت مقدمة لحرب رابعة . فلقد تحدى الهيجونوت القوات الملكية ، وهددوا وحدة فرنسا من عاصمتهم الغربية لاروشل يؤيدهم عدد كبير من « السياسيين Les Politiques » ومنهم — لفترة من الوقت — الأخ الأصغر للملك . ولكن الكاثوليك — وخاصة جماهير پاريس الديمقراطية — لن يغتفروا للهيجونوت هذا العناد العنيف المستمر الذى كان يؤثر تأثيراً سيئاً على حركة المعاملات ، والذى كان يتنافى مع الوطنية (إذ كان الهيجونوت على اتصال بإنجلترا) . وكان المتعصبون يريدون السير بالحرب إلى النهاية ؛ ولكنهم رأوا أن

الملك والملكة الوالدة لا يزالان يتابعان سياستهما المألوفة : عرض سلام أو هدنة على العصاة فى كل مناسبة ، وأنهما لا يزالان تسيطر عليهما تلك الفكرة الجديرة بالاحتقار — فكرة إمكان إيجاد مكان لتعبد الهيجونوت أحراراً فى غير خفاء فى دولة كاثوليكية . بدا لهم أن معاهدة ١٥٧٦ تكاد أن تكون تسليماً . لهذا تكون اتحاد كاثوليكى — عرف عادة باسم « العصبة » — يرعاه البابا وملك إسبانيا هدفه تثبيت دعائم العقيدة الكاثوليكية فى فرنسا .

وفى عام ١٥٨٤ توفى الأخ الأصغر للملك ، وكان أصغر أبناء كاترين والأخ الوحيد لهنرى على قيد الحياة . ولما كان الملك لم ينجب نسلا ، فلا مناص من أن يكون هنرى نافار الوريث التالى للعرش . وأصبح مبدأ أعضاء العصبة الباريسيين أن « الجمهورية خير من تولى ملك من الهيجونوت » ، وأصبح هنرى الثالث لسنوات طويلة لا حول له ولا قوة أمام آل جيز يؤيدهم إذ ذاك مثل هذا الشعور الحماسى الدافق . أحنى الملك رأسه ، ومضى فى حماية السفاكين ، تحيط به شبكة من المؤامرات ؛ بينما انتزعت العصبة السلطة الحقيقية على فرنسا الكاثوليكية ، وظهر مدى ضعف الملك فى يوم المتاريس Journée des Barricades (١٢ مايو ١٥٨٨) حين رفضت باريس — فى ولائها لهنرى دوق جيز — أن تسمح لقوات الملك بالدخول إلى المدينة ؛ كما ظهر هذا الضعف مرة أخرى حين أصدر مجلس طبقات الأمة — فى اجتماعه فى بلوا Blois تحت نفوذ اليسوعيين — سلسلة من القوانين التى كان من شأنها — لو نفذت — أن تؤدى إلى إفلاس الخزينة وحرمان الحكومة من آخر مقومات سلطتها . ولقد حاول هذا الملك المنكود الطالع — الذى قيل عنه إنه « أسوأ حاكم من أسوأ أسرة حكمت على الإطلاق » — أن يتخلص من هذه المهانات فلجأ إلى الاغتيال : فقُتل دوق جيز وأخوه كاردينال اللورين فى قلعة بلوا قرابة عيد ميلاد عام ١٥٨٨ على يد بعض أتباع الملك الغسقونيين .

وكانت الملكة الوالدة العجوز على فراش الموت حين حمل إليها أحب أبنائها الخبر قائلا لها كما يروى : « الآن غدوت ملك فرنسا ؛ لقد قتلت ملك باريس » — فكان جوابها : « أرجو الله أن يكون ذلك حقًّا ؛ ولكن هل تأكدت من المدن الأخرى ؟ »

وحينئذ بدأ الفصل الأخير من الدراما الطويلة . وبينما أعلنت العصبة الكاثوليكية خلع هنرى عن العرش وحاولت أن تحكم العاصمة والبلاد كان عدد كبير من الفرنسيين يتزايد يوماً بعد آخر — وهم ليسوا من الهيجونوت ولا من أتباع العصبة — يتجهون بأفكارهم إلى هنرى ناڤار وارث العرش بحكم القانون . وكان هذا الأمير ، ابن الجنوب الشاب ، قد كشف عن صفات حربية باهرة : فقد أثبت فى كوترا Coutras أن باستطاعة جيش من الهيجونوت حسن القيادة أن يهزم قوات التاج من الكاثوليك فى معركة نظامية ؛ كما أن أعمال الفروسية العديدة التى شاعت عنه ، وحرصه الريفى وروحه المرحة — كل ذلك كان مما قربه إلى رجل الشعب . كان پروتستانتيًّا ، ولكنه كان رجلا ، بينما كان قريبه الملك — الذى كان يلبس عقداً من اللؤلؤ وأقراطاً فى أذنيه — كاثوليكيًّا ، ولكنه كان خليعاً . ووجد ابنا العم أن مصلحتهما المشتركة تدعوهما إلى مهاجمة العصبة الكاثوليكية ، تلك العصبة التى خلعت أحدهما وأعلنت أن الآخر لا يستحق العرش . ولكن بينما كانت جيوشهما تقف خارج پاريس ، خر الملك صريعاً على يد يعقوبى مفتون اسمه جاك كليمان Jacques Clément (أول أغسطس ١٥٨٩) — وبذلك انتهى حكم أسرة الڤالوا الطويل فى فرنسا ، وانفتح باب الصراع المباشر بين هنرى ناڤار و « العصبة » .

وحكمت پاريس باسم العصبة لجنة من ستة عشر بإشراف دوق ماين Mayenne الأخ الأصغر لهنرى جيز . وقد فرضت نظاماً من الإرهاب شبيه بحكم لجنة الأمن العام فى عام ١٧٩٤ . ويستند المدافعون عن تلك اللجنة إلى أنها صانت لفرنسا عقيدتها الكاثوليكية وهى أكثر ملاءمة للناس من البروتستانتية ، وأن الجرائم التى ارتكبتها كرّهت الناس فى النزعات الجمهورية مدى قرنين من الزمان . وكان من آثار حكمها العنيف المكروه رجوع فرنسا آخر الأمر إلى الاعتقاد بأن إعادة الملكية الوراثية من شأنه أن يقلل من فرص الانقسام ؛ ولما كانت البلاد لا تقبل حكم أميرة إسبانية ولا حكم نبيل فرنسى ينتخبه مجلس طبقات الأمة ، فإن الكتلة الرئيسية الأرستقراطية الفرنسية قد التفت حول الأمير البوربونى . ولكن التعصب كان لا يزال حادًّا بلغ من حدته أن هنرى — حتى بعد تخليه عن عقيدته البروتستانتية فى كنيسة سان دنيس (٢٥ يولية ١٥٩٣) — اضطر إلى الانتظار مدى ثمانية

شهور خارج أسوار پاريس قبل أن يتمكن من التغلب على مقاومة المدينة .

وحمل العاهل الجديد إلى فرنسا هدية أثمن من كل ما حققه ملوك الڤالوا من باهر الأعمال : فقد كان يهتم برجل الشارع فى فرنسا ويتمنى أن يراه راتعاً فى بحبوحة الرخاء والسعادة . ورغم أن مذكرات وزيره البروتستانتى الكفء سللى Sully موضع شك فى كثير من النقاط ، إلا أنها على الأقل تقدم دليلا جيداً على أن حكومة فرنسا فى عهد هنرى الرابع كانت تهتدى فى أعمالها بفكرة الصالح العام . ومن ذلك أنها شرعت تعمل فى عزم على قمع الفوضى وتحسين الزراعة وترويج التجارة وإعادة السلام إلى بلد نزلت به ثلاثون عاماً من الحروب الأهلية إلى أدنى درجات البؤس . وقد تحقق الكثير من مشروعات الحكومة : كالأعمال العظيمة لتجفيف المستنقعات وتحسين الطرق . وازداد الدخل وانخفضت الديون ؛ وقد وجد سللى البلاد عند توليه الحكم مثقلة بعجز كبير ، ثم تركها وقد تخلصت من ديونها . ولكن كان على هنرى قبل أن يتمكن من تطبيق هذا العلاج تطبيقاً كاملا أن يواجه مشكلتين ملحتين : الإسپان والهيجونوت . وقد استطاع ببعض العون من الملكة إليزابيث أن يطرد جيشاً إسپانيًّا من أميان ، وأجبر إسپانيا (طبقاً لمعاهدة ڤرڤان Vervins — ١٥٩٨) على التخلى عن كاليه وبلاڤيه Blavet فى برتيانى ، وهما القاعدتان الفرنسيتان اللتان كانت إسپانيا قد وضعت يدها عليهما بصفتها حليفة للعصبة الكاثوليكية . أما الهيجونوت فقد كانوا يثيرون صعوبة أخطر من ذلك بكثير . كانوا رجالا من حديد تحدوا التاج الفرنسى أكثر من ثلاثين عاماً ، وكان بوسعهم فى أى وقت أن ينزلوا إلى الميدان جيشاً من خمسة وعشرين ألف رجل — لهذا لم يكن من اليسير إخضاعهم ؛ بل كانوا فى مركز يمكنهم من الوقوف من الملك موقف الند للند . ولم تكن التسوية المشهورة المعروفة بمرسوم نانت مرسوماً ملكيًّا بالعفو تفضل به الملك ؛ كما أنها لم تكن إعلاناً فلسفيا للتسامح — إنما هى معاهدة لم يمكن الوصول إليها إلا بعد مفاوضات مضنية استلزمت وقتاً طويلا ، ثم قبلت بعد تردد كضرورة فرضتها ظروف كريهة لا يمكن تجنبها . ولقد منحت هذه التسوية الهيجونوت حرية العبادة فى قلاع النبلاء وفى أماكن معينة نُص عليها ، كما منحتهم المساواة فى الحقوق المدنية والحماية القانونية ؛ وزيادة فى ضمان سلامتهم منحوا حق

وضع حاميات فى أكثر من مائة مدينة محصنة بما فى ذلك بعض القواعد الكبرى فى البلاد مثل لاروشل وسومير Saumur ومونبلييه — وكل ذلك على حساب الخزانة الفرنسية . وفى الواقع لقد سمح لدولة هيجونوتية ، صغيرة بجيشها وقلاعها وحكومتها المدنية ، أن تقوم وتعمل فى قلب فرنسا .

ولمرسوم نانت مكان ملحوظ فى تاريخ الحضارة باعتباره أول اعتراف عام بأن من الممكن أن تقوم أكثر من طائفة دينية واحدة فى نفس الدولة ؛ فقد جعلت هذه التسوية الشهيرة التسامح الدينى جزءاً من القانون الدستورى لفرنسا قبل الاعتراف به فى إنجلترا أو ألمانيا لوقت طويل . وهكذا انتزع الهيجونوت قوة واقتداراً من خصومهم الكاثوليك امتيازات ما كان الكاثوليك ليسمحوا بجعلها موضع نقاش .

ومنذ ذلك الوقت وضعت الأسس لأزهى فترة فى تاريخ فرنسا انتعشت فيها الملكية وسما قدرها واتسع نطاق الصناعة والتجارة فيها بشكل ملحوظ ، ودبت الحماسة فى الكنيسة الكاثوليكية وأثرت حياتها بفضل تحدى عقيدة الهيجونوت لها ووجودها معها جنباً إلى جنب . ولكن كُتب لهذه المزايا أن تتبدد أمام التعصب الأعمى والجشع القاتل . ولقد قال سكاليجر Scaliger — البحاثة الكلاسيكى الكبير — عن هنرى إنه لا يستطيع تركيز تفكيره على المستقبل لمدة ربع ساعة برغم ذكائه ومعرفته الواعية للطبيعة البشرية . فلو أنه كان يتمتع بمزيد من بعد النظر لحاول أن يحكم بمعونة مجلس طبقات الأمة ، ولرفض استدعاء اليسوعيين الذين كانوا قد طردوا من فرنسا فى عام ١٥٩٤ باعتبارهم مفسدين للشباب ومقلقين للأمن العام وأعداء للملك والدولة ، ولأبعد عن عقله فكرة حرب خارجية أملاها الطمع . لقد عاش هنرى الرابع ، الذى كان معرضاً باستمرار للقتل على يد سفاك ، معتمداً على ما تمليه عليه قريحته الحاضرة . ولقد رفض هنرى واثقاً فى رجاحة عقل مستشاريه ، ورغم الوعد القاطع الذى أخذه على نفسه — رفض أن يدعو مجلس طبقات الأمة للانعقاد أو أن يشرك معه رعاياه فى المران على أعباء الحكومة . كان سمح النفس فى المسائل الدينية ، وقد ورث كاترين مديتشى فى خطة التسامح ؛ ولكنه استدعى اليسوعيين الذين قُدر لنفوذهم فى البلاط ولتأثيرهم فى التعليم الفرنسى — وهو التأثير المطبوع بروح

التعصب ــ أن يؤديا إلى طرد الهيجونوت ونقض مرسوم نانت الذى كان أعظم ما قام به هنرى .

أما فى السياسة الخارجية فقد تأرجح هنرى بعد صلح ڤرڤان (١٥٩٨) بعض الوقت بين فكرة الاحتفاظ بالسلم مع إسپانيا ، سلماً تدعمه مصاهرات ملكية ، وبين الهجوم على أسرة هاپسبورج . ولكن أفكاره اتجهت بالفعل إلى الحرب وإلى سياسة كتلك التى تحمس لها كولينى منذ حوالى الخمسين عاماً : وهى القيام بهجوم كبير على أسرة هاپسبورج الكاثوليكية بمساعدة پروتستانت ألمانيا والأراضى المنخفضة ، وينتهى باحتلال الأراضى المنخفضة الإسپانية وإيصال حدود إسپانيا إلى الرين . ووجد هنرى تعلة لتنفيذ هذا المشروع فى النزاع على مصير كليڤ ــ جيليش Cleves-Julich الواقعة على الحدود الفرنسية الشرقية ، وتقرير إلى أى الكتلتين تنتمى : الكاثوليكية أو البروتستانتية . واختار هنرى لحظة البدء فى العمل مدفوعاً بعاطفته نحو دوقة كونديه التى كان زوجها قد دفع بها إلى حماية البلاط النمساوى فى بروكسل دون استعداد دپلوماسى كاف . وكان على حافة الحرب لتنفيذ مشروعه الضخم المعادى للكاثوليك حين خرّ صريعاً بخنجر رڤاياك Ravaillac — وهو كاثوليكى متعصب . وهكذا لم يكن من شأن استدعاء اليسوعيين إلى فرنسا أن يكسر من غارب « العصبة » الكاثوليكية .

كتب يمكن الرجوع إليها

— L. von Ranke, Civil Wars and Monarchy in France in the Sixteenth and Seventeenth Centuries. Tr. M.A. Garvey. 2 vols. (1852)

— L. Rouvier, Les Origines Politiques des guerres de religion. 2 vols. (1913-14)

— E. Armstrong, The French Wars of Religion. (1892)

— P.F. Willert, Hency of Navarre and the Huguenots of France. (1893)

— A.J. Grant, The Huguenots. (1934)

— J.H. Mariéjol, Catherine de Médicis. (1920)

— E. Faguet, Seizième siècle. Etudes Littéraires. (1894)

— L. Battifol, The Century of the Renaissance. (1916)

— J. Delaborde, Gaspard de Coligny, Admiral de France. (1879-82)

— A.J. Butler, Wars of Religion in France (Cambridge Modern History, Vol. III, chap. I).

— Lord Acton, Lectures on Modern History (Saint Bartholomew). (1906)

— A. Forneron, Les Ducs de Guise et leur époque. 2 vols. (1878)

— A. Tilley, The Literature of the French Renaissance 2 vols. (1904)

الفصل الخامس عشر

قيام الجمهورية الهولندية

استمساك إسپانيا بالديانة الكاثوليكية – فيليب الثانى – إسپانيا وجيشها وأسطولها – مالية إسپانيا واقتصادياتها – أهمية الأراضى المنخفضة لإسپانيا – انحياز إليزابيث إلى البروتستانتية – نجاح الملكة فى إسكتلندة « محض إنجليزى » – المحافظة على الوحدة القومية – الحل الوسط الخاص بالكنيسة – فليب وإنجلترا – جرنفل Granvelle فى الأراضى المنخفضة – وليم أورنج – إجمونت Egmont وألفا – أورنج وألفا – تسوية غنت The Pacification of Ghent . دون جوان النمسوى – انشقاق الشمال عن الجنوب – تأسيس جمهورية الأراضى المنخفضة – سطوة أمستردام – بيت أورنج – أسباب نجاح الهولنديين – العوامل التى شتت جهود پارما – مهارة موريس ناساو Nassau العسكرية – الهولنديون يوقعون هدنة مع إسپانيا (١٦٠٩) .

برزت إسپانيا فى النضال الأوربى الكبير الذى أثاره الإصلاح البروتستانتى أكبر نصيرة للقضية الكاثوليكية. فبينما استقر فى شمال ألمانيا لون من ألوان البروتستانتية وبينما كان لون آخر منها يخوض فى فرنسا معركة حياة أو موت ، كانت إسپانيا ممتنعة وراء حدودها الجبلية الصلبة كاثوليكية من قمة رأسها إلى إخمص قدميها . ففى إسپانيا ارتبط الدفاع عن العقيدة الكاثوليكية ونشرها بنمو الأمة ومجدها على نحو لا تجده فى أى مكان آخر فى أوربا . كان الرهبان والراهبات والقساوسة يشكلون جانباً كبيراً من السكان ، واعتبرت محاكم التفتيش – وكانت تحت رقابة التاج – إجراء وقائياً ضرورياً . وكان المشهد المثير لتنفيذ أحكام التحريق علناً فى بلد الوليد (١٨ أكتوبر ١٥٥٩) الضربة الأولى فى حملة القمع التى وجهت ضد العقائد الجديدة التى جاءت من ألمانيا إلى إسپانيا ، وهى حملة لم تثر سوى احتجاجات متقطعة عقيمة . وقد بلغ من نشاط محاكم التفتيش الإسپانية – بتشجيع من فليب الثانى – أن الهرطقة – وكانت لا تزال إذ ذاك فى إسپانيا نبتاً جديداً لم يألفه الناس – قد اجتثت من جذورها قبل نموها . ومنذ ذلك الوقت غدت الكنيسة الكاثوليكية بمأمن من الأخطار ، وتمتعت بهيمنة على التعليم ثبتت لكل تحد حتى كانت ثورة ١٩٣١ حين جاء التحدى لها من جانب حركة نبعت من إسپانيا ذاتها وأيدتها

— فيما يبدو — أغلبية الشعب الإسپانى .

وكان فليب الثانى حاكماً كاثوليكياً متديناً شديد التمسك بواجباته ؛ وكان يرى أن أسمى رسالاته فى الحياة أن يستأصل الهرطقة من جذورها فى البلاد التى يحكمها ، وأن يأخذ بناصر عقيدة آبائه فى شتى ربوع العالم . ولما كان رجلا ضيق الأفق جاداً فى عمله متوافراً عليه ، عاجزاً عن تمييز جلائل المسائل من حقيرها — وبالتالى عاجزاً عن أن يعهد بعمله لغيره — فإنه أثقل فى نفسه بواجبات تافهة ، بحيث خفيت عليه الجوانب الكبرى من ساسة الدولة . ولقد ترسبت فى ذاكرته بعض الذكريات المعتمة : كقتل أكبر أبنائه — وكان مختل العقل ، واغتيال سفير للأراضى المنخفضة سراً . ولا يعى التاريخ أمثلة كثيرة أفجع من حياة هذا الحاكم المستبد المنقبض المثقل الضمير وقد راح — منكباً على مكتبه وباذلا جهداً يفوق طاقة البشر — يعمل لإنقاذ إمبراطورية إسپانيا الكاثوليكية من الأفكار الجديدة التى بلبلت الخواطر ، ومن القوى العارمة التى كان يزخر بها العالم .

وكانت قوة إسپانيا كامنة فى جيشها القائم ؛ ولم تكن بأوربا قوة مشاة أكثر مراناً أو نظاماً أو حنكة فى الحرب من مشاة الإسپان المشهورين الذين قدر لهم أن تكون إيطاليا ميدان تدريبهم . ولقد هرع نبلاء الإسپان إلى الانتظام فى صفوف الجيش معتقدين أنهم لن يندموا على الانخراط فى السلك العسكرى تحت سماء إيطاليا المشرقة . وفى النصف الثانى من القرن السادس عشر كان ملك إسپانيا يتمتع بخدمة أمهر الضباط فى أوربا . وكان نفر منهم — مثل ألفا — من النبلاء الإسپان ، بينما كان آخرون من الإيطاليين ، ومن بينهم أعظم قواد ذلك العصر ألسندرو فارنيز Alessandro Farnese دوق پارما . هكذا كان من دواعى فخر السياسة الإسپانية أنها استطاعت أن تجتذب إلى خدمة التاج الإسپانى بعضاً من أعلى الكفايات من أشد عائلات إيطاليا اعتزازاً بأصولها النبيلة .

على أن قوة إسپانيا البحرية كانت أقل خطراً . فهى من ناحية دولة بحر متوسط ، ثم هى دولة محيط أطلنطى من ناحية أخرى . وكان يواجهها فى البحر المتوسط عبء تطهيره من القراصنة الأتراك ، ومساعدة البندقية وفرسان مالطة فى وقف تقدم الزحف البحرى المطرد لأسطول السلطان . وكانت هذه التبعات ثقيلة

ومرهقة . فهذا العدو الجسور السريع الحركة كان — من قواعده فى الجزائر وتونس — يشن الغارات على جزائر البليار وشاطئ بلنسية . وكانت الدولة العثمانية الطموح ، التى وطدت مركزها فى القسطنطينية ، تعتمد على بحارة من اليونان ومصدر تهديد مستمر لسلامة إيطاليا . حينئذ نشأ على مياه البحر المتوسط الهادئة — على مر القرون — شكل من أشكال الحرب لم يكن يتناسب على الإطلاق مع مناخ المحيط الأطلنطى . فالسفن الواطئة التى تدفعها المجاذيف (Galleys) ، وهى السفن القديمة من أيام الجمهورية الرومانية والإمبراطورية الرومانية ، كانت لا تزال تستعمل ؛ وطريقة التجذيف صوب العدو والاشتباك معه ، ثم حسم المشاة للمعركة بالتلاحم بالأيدى على صفحات البحر ، كانت لا تزال متبعة أيام فيليب الثانى لم تتغير عما كانت عليه فى أيام إجزرسيس [١] وبومبى [٢] . وأعظم معركة بحرية دارت فى البحر المتوسط فى القرن السادس عشر — وهى معركة ليبانتو Lepanto (١٥٧١) التى أوقع فيها دون جوان النمسوى ، أخو الملك فليب ، هزيمة ساحقة بالجيش التركى ، كانت معركة بين هذا النوع من السفن وبين السفن ذات المجاذيف . ولكن لم يترتب على هذا أن يحصل الرجال الذين مرنوا على القتال فى هذه السفن على أية خبرة تكون عوناً لهم فى تسيير السفن الشراعية عابرة المحيطات أو الغلايين (Galleons) التى أصبحت جزءاً لا غنى عنه فى القوة البحرية الإسپانية . بل على العكس من ذلك ، غدا استخدام النوع القديم من السفن ، أى السفن الواطئة ذات المجاذيف ، فى وقت أصبحت لا تتمشى مع روح العصر ، غدا أمراً شديد الضرر . وأصبح بإمكان أسطول مزود ببحارة فى المحيط أو فى بحر المانش أن يثق فى قدرته على دحر عدو لا يزال أسير خطط حربية تقوم على حشو البنادق من الأمام ، وهى الطريقة التى كانت متبعة فى حرب السفن الواطئة ذات المجاذيف .

ومما عرقل جهود إسپانيا فى ذلك الوقت أنها — بسبب اضطرارها إلى الحرب فى جبهتين — كانت مضطرة إلى أن تستخدم فى نفس الوقت طرازين من سفن

---

(١) أجزرسيس الأول ملك الفرس الذى قام بحملة ضخمة فى أوائل القرن الخامس الميلادى لغزو بلاد الإغريق ، منيت بالفشل .

(٢) جنايوس پومبى Gnaeus Pompeius (١٠٦ — ٤٨ ق . م) . المحارب الرومانى الكبير . هزم فى الحرب الأهلية بينه وبين يوليوس قيصر ، وفر إلى مصر حيث قتل .

القتال : أحدهما قديم غاية القدم ، والآخر حديث جداً ، وأن كثيراً من بحارتها قد تدربوا على الطريقة القديمة . ولكن كان من الممكن التغلب على هذه العراقيل لو قيض للمشرفين على شئون إسپانيا أن يلهموا التقدير الواعى لقيمة القوة البحرية فى القتال . ومن العجيب أن إسپانيا — برغم المصالح الضخمة التى تكونت لها فى العالم الجديد— لم تبذل جهداً مستمراً لكسب السيطرة فى المحيط الأطلنطى . ومن المؤكد أن تحرر الجمهورية الهولندية من السيطرة الإسپانية يرجع إلى حد كبير إلى ترك الثوار يسيطرون على البحر دون منازع .

ولكن ضعف إسپانيا كان فى اضطراب ماليتها . لم توجد فى القرن السادس عشر حكومة أوربية ذات اقتصاد قوى ؛ ولكن إسپانيا ضربت مثلا فريداً لبلد يمتلك مساحة واسعة من الكرة الأرضية فى كلا العالمين القديم والحديث ، وفى متناول يديه أغنى الموارد المعدنية المعروفة حينئذ ، ومع ذلك فهو فى حاجة مستمرة إلى المال ، وهو غالباً عاجز — لفقره المدقع — عن القيام بأبسط أعباء الحكومة . وأسباب هذا التناقض يرجع بعضها إلى سياسة عامة لا وعى فيها ولا ذكاء ، وبعضها إلى جهل بالقوانين الاقتصادية وإلى نظام ضرائبى فاسد ؛ ولا يقل عن ذلك أثراً فقدان أى وقف جدى لأعمال المضاربة والتبذير . ولم يكن باستطاعة الملك أن يجمع الكثير من الأموال من إسپانيا ذاتها : فالإكليروس — برغم ثرائهم العريض — كانوا يعفون من الضرائب ؛ وفى قشتالة كان النبلاء غالباً عرضة لإجراءات ابتزاز من وقت لآخر ، ولكنهم — بسبب ما جرت عليه العادة لوقت طويل — كانوا يعفون من المساهمة فى موارد التاج المنتظمة ؛ وفى أراجونة أقر الكورتيز مبلغاً ثابتاً من المال ولكنه غير كاف بالمرة . ولما كان الانتهاب شائعاً فى المستعمرات الإسپانية ، فلم يكن يصل إلى الخزائن الملكية سوى جانب صغير من الثروة التى كانت تجمع من المكسيك وپيرو . ولكن إذا كان فى الوسع علاج خراب الذمم بفرض رقابة أشد صرامة ، فإن أخطر من ذلك أن النظام المالى العام فى الإمبراطورية الإسپانية كان يقوم على نظرية خاطئة فيما يتعلق بالتجارة — إذ أن رخاءها كان يتطلب أن يوفر لها أقصى ما يمكن القيام به من التبادل الدولى للبضائع . أما إسپانيا فقد اتبعت فعلا خطة الحماية فى أضيق صورها وأشدها إسرافاً . ولم يكن فى إسپانيا إذ ذاك أى علم

أو صناعة ؛ وعلى حين أنها كانت عاجزة عن أن ترسل إلى مستعمراتها ما كانت هذه الأخيرة تحتاج إليه ، فإنها حرمت عليها المتاجرة مع الدول الأخرى . وكان من المتوقع أن تنتهى هذه السياسة إلى إحدى نتيجتين لا ثالث لهما : إما عرقلة التقدم المادى فى المستعمرات ؛ أو تشجيع التهريب على نطاق واسع . وقد أدت هذه السياسة فى الواقع إلى كلتا النتيجتين — هذا فى الوقت الذى عرقلت فيه ضرائب داخلية لا حصر لها تجارة إسپانيا وزراعتها ، كما أثقلت كاهلها كذلك ضريبة الكابالا (alcabala)[1] وهى ضريبة كانت تفرض بنسبة ١٠٪ على المبيعات ، حتى إنه من العسير أن نتصور وجود وسيلة أخرى دبرت خيراً من هذا لتشل الرخاء الاقتصادى عند شعب من الشعوب .

وإذا كان من الممكن استخراج القليل من المال من إسپانيا ، فلم يكن يتوقع منه شىء فى إيطاليا — وترتب على هذا أن تكون الأراضى المنخفضة هى مصدر الدخل المادى الأكثر قابلية للتوسع . وقد غدت أنتورب إذ ذاك من أغنى المدن التجارية فى العالم ؛ ولم تكن تعترض نشاطها القيود التى كانت تفرضها طوائف الحرف (guilds) ، وغدت مركزاً عظيماً للمعاملات الدولية ، وبزت بسهولة بروج وغنت فى الثروة وحرية المواصلات ، كما غدا لها — بفضل نمو تجارة المحيطات — ميزة على الفلاندر باعتبارها مركزاً للأعمال المصرفية. وكانت أمستردام— وهى إحدى مدن الهانسا — تسير بخطى واسعة نحو التقدم ، وقد نما رخاؤها — الذى كان مستمداً فى الأصل من صيد الأسماك — بفضل الثروة النامية للدول الأوربية القريبة من ساحل الأطلنطى . وهكذا أترعت الأراضى المنخفضة بالثراء ، فكانت القلب المالى للإمبراطورية الإسپانية .

وكانت إنجلترا — التى حكمها فليب بعض الوقت بصفته زوجاً للملكة مارى — مرتبطة بالأراضى المنخفضة التى كانت بالنسبة لإسپانيا أرض الذهب — بروابط المبادلات التجارية منذ أمد بعيد . وكان فليب — كأبيه من قبل — يدرك تماماً قيمة إنجلترا كحليف وصديق . كان يقدر قيمة التجارة الإنجليزية بالنسبة إلى رعاياه الفلمنك والنتائج السيئة التى تترتب على وقف هذه التجارة ؛ كما كان يعلم

---

(١) من الكلمة العربية « القبالة » .

أن إنجلترا تستطيع — لو ناصبته العداء — أن تعرقل المواصلات البحرية بين إسپانيا والأراضى المنخفضة ، وأنها تستطيع — لو وهبته صداقتها — أن تحمى هذه المواصلات أحسن حماية . ولكنه كان كاثوليكياً مخلصاً ، وكان يقدم الدين على أى اعتبار آخر . واحتفاظه بصداقة إنجلترا يتوقف — فى النهاية — على العقيدة التى يعتنقها أهلها .

ولكن إليزابيث صممت على أن تكون پروتستانتية . وكان قرارها هذا جريئاً : فشمال إنجلترا كان لا يزال كاثوليكياً ، وكذلك سكان مرتفعات إسكتلندة والأيرلنديون ؛ على حين أن جيشاً فرنسياً تقوده الوصية مارى جيز كان يعسكر فى المنخفضات الإسكتلندية للدفاع عن القضية الكاثوليكية . ولكن إليزابيث اتخذت هذا القرار بالتعاون مع مستشارها العظيم وليم سسل Cecil لورد برجلى Burghley ، ولم تتراجع قط . وربما تكون قد تأثرت فى ذلك بآثار تربيتها الأولى وتنشئتها وفقاً للعقيدة البروتستانتية ، وبألوان المهانة التى عانتها فى عهد أختها الكاثوليكية .

وقد أبدت الحكومة الإنجليزية فى السنوات القليلة الأولى من حكم إليزابيث من الحنكة السياسية ما لم تبلغه قط أية حكومة أوربية حتى ذلك الوقت . أمكن تفادى حرب أوربية ، وكان ذلك لخير البلاد ، وأقيمت كنيسة إنجلترا على أساس قومى مستقر دون حدوث قلاقل أهلية ، وبأدنى حد من التدخل فى حرية الفكر . وأرسل جيش إلى إسكتلندة حيث أبدى من الشجاعة فى حينها ما يعود الفضل فيه إلى سسل ، ونجح هذا الجيش فى تحرير البلاد من عساكر الوصية الفرنسية مارى الذين كانوا هناك لحراسة القضية الكاثوليكية ، وبهذا مهدت الأرض فى منخفضات إسكتلندة لتلقى دعوة جون نوكس والديانة البروتستانتية . ولا يوجد فى تاريخ إنجلترا الحربى — ولا حتى ووترلو — ما يفوق فى نتائجه البعيدة المدى ذلك الحصار المضطرب لمدينة ليث Leith الذى قام به جيش إنجليزى مختل النظام ، وتوج فى النهاية بمعاهدة إدنبرة . فلأول مرة منذ قرون يدخل جيش إنجليزى إسكتلندة ، لا ليلحق مهانة بكبرياء الإسكتلنديين ، بل ليخدم قضية إسكتلندية . وهكذا خطت الحكومة الإنجليزية — بتأمينها للإصلاح البروتستانتى فى جنوب إسكتلندة — الخطوة الأولى اللازمة لاتحاد البلدين على نحو ما تنبأ به بعض عقلاء الرجال فى ذلك الوقت .

ومن الخير أن الحكومة استطاعت أن تتجنب خططاً حمقاء كان يحتمل أن تفسد هذا العمل العظيم الذى أملته الحنكة السياسية : كإحياء ادعاء إنجلترا القديم فى السيادة على إسكتلندة أو زواج الملكة إليزابيث من نبيل إسكتلندى . ولكن الحكومة الإنجليزية لجأت إلى خطط ماهرة ، فضربت الحكومة ضربتها فى الوقت الذى كانت تنعم فيه بالهدوء وفرنسا مشغولة بمؤامرة أمبواز[1] . وفى أثناء ذلك كانت ملكة إنجلترا تخادع بتقديم بعض العون للثائرين فى فرنسا حتى تحوّل الأنظار عن ضربتها فى إسكتلندة .

وكانت الملكة الجديدة تعتز بأنها « محض إنجليزية » . فقد كانت على علم بهواجس رعاياها فى الجزيرة ضد الأجانب ، الأمر الذى لمسته بنفسها فى عاصفة الاحتجاج التى واجهت زواج أختها بإسبانى . ولهذا لم تعتزم تكرار الخطأ الذى ارتكبته أختها . ولكن استهواء الرجال كان طبيعة ثانية فيها ؛ كما رأت فى التلهى الجدى ببحث عروض الزواج منها واجباً دبلوماسياً عليها تدين به لبلدها . ومن ذلك أنها — حرصاً منها على أن تحفظ للهيجونوت روحهم المعنوية — أبدت لفترة تزيد على عشر سنوات استعداداً لقبول زواج ألنسون Alençon الذى كان يصغرها بنحو عشرين عاماً ، والذى كان مجرد أضحوكة ، حتى فيما لو كانت خلاله أقل مدعاة للاحتقار . ورغم ذلك فإنها فى قرارة نفسها كانت تأنف أن يشاركها أجنبى عرشها وآثرت أن تموت — كما عاشت — ملكة عذراء و « محض إنجليزية » . وقد قالت لآخر برلماناتها فى نهاية حياتها الطويلة : « رغم أنكم قد لقيتم ، وستلقون ، على هذا العرش من هم أقوى منى وأحكم ، إلا أنكم لم تجدوا ولن تجدوا من هو أكثر حباً لكم منى » . وكان الإنجليز يعلمون أن ذلك حق ، ولم يستطع شىء أن يحجب عنها ولاء رعاياها لها ولاء شاعرياً : سواء مظاهر الغرور والحماقات التى كانت كفيلة بأن تجعل امرأة أخرى أدنى من إليزابيث موضعاً للسخرية ، أو الأعمال الوضيعة التى تكفى لتلطخ أية سمعة بالأوحال . كانوا يحسون أنها امرأة عظيمة معتزة بنفسها متوقدة الحماسة ، حكيمة إلى درجة تفوق التصور ، وأنها وهبت حياتها لخدمة بلادها ومجدها .

---

(١) انظر ما سبق ، ص ١٨٧ .

وكان الجميع فى خارج إنجلترا يعترفون بأن بلداً كإنجلترا بلغ هذا المبلغ من الثروة والقوة لا يمكن غزوه على الإطلاق إذا ما بقى متحداً ؛ ومن هنا استندت آمال آل جيز — ثم آمال فليب الثانى واليسوعيين من بعد ذلك —على احتمال انقسام الإنجليز على أنفسهم . ولكن باستثناء حركة العصيان التى قام بها إيرلات الشمال فى عام ١٥٦٩ — وكان قد مضى على جلوس إليزابيث على عرشها أحد عشر عاماً — لم يتهدد الوحدة القومية خطر جدى ؛ وأتت دعوة الشمال الكاثوليكى متأخرة جداً . فسكان منخفضات إسكتلندة كانوا قد انضموا بالفعل إلى كنيسة الإصلاح ، كما أن معظم سكان وسط إنجلترا وجنوبها ارتضوا التسوية الأنجيلكانية . وهكذا حين نشبت الحرب مع إسپانيا ، لم يوجد حزب إنجليزى مستعد لتعضيد الغزاة الأجانب، كما كان شأن « العصبة » فى فرنسا . كانت لندن پروتستانتية قلباً وقالباً ؛ وما كان أحد يقبل أن يفكر فى أن تقيم بعاصمة الإنجليز حامية إسپانية كتلك التى احتفظت « للعصبة » بپاريس .

وفى مقدمة الأسباب التى عملت على تشكيل تفكير الرأى العام فى إنجلترا على هذا النحو غير العادى البراعة التى تم بها توطيد الكنيسة الإنجليزية على دعائمها الجديدة : فلم يحرق أحد من خصومها ، وعومل الأساقفة الكاثوليك الذين جردوا من أملاكهم باحترام؛ ورغم أن البرلمان قد أقر قانوناً بالوحدة الدينية Act of Uniformity، فإنه لم ينفذ بشكل يجعل اعتناق معتقدات دينية مخالفة أمراً خطيراً — بل لقد أطلقت فى سماء إنجلترا — عن تدبير ملائم — غمامة هذبت من معتقدات الملكة الدينية ، حتى بدا للناس فى نهاية الأمر أن من المحتمل أن تعود إلى حظيرة البابوية — فعلى حين اعترضت الملكة على التضحية فى القداس ، لم تخف كراهيتها لزواج رجال الدين ، وكانت الشموع تضىء أحياناً على مذبحها فتعطى الكاثوليك بصيصاً خداعاً من نور الأمل .

أما أولئك الذين أزعجهم الخوف من اقتداء الملكة بوالدها فتعلن نفسها « رأس الكنيسة » ، فقد تعزوا بلقب جديد غامض قد يعنى أقل من ذلك ، ولو أنه قد يعنى أيضاً نفس الشىء . وبعد — فأى شىء فى هذه التسوية الدينية مما يدفع العقلاء إلى الثورة ؟ إن طقوس الكنيسة (The Liturgy) المستمدة من كتاب صلوات

كرانمر الموضوع فى عام ١٥٥٢ بعد إدخال بعض التعديلات الطفيفة عليه ، وضعت بصراحة على نماذج كاثوليكية ، وإن تكن حكومة الكنيسة أسقفية ونصوص عقيدتها كلفنية إلى حد كبير . ولهذا لم تحظ هذه التسوية الدينية بالرضى التام من جانب أى فريق من الرأى العام : فالفقهاء الإنجليز الذين تلقوا علومهم الدينية فى سويسرا وجدوها جد محافظة ، على حين اعتبرها الكاثوليك جد ثورية . أما أولئك الذين كانوا يمقتون وشاح الكهنوت أو موائد القربان المقدس ، أو يبحثون فى الكتاب المقدس عن بينة للأساقفة فلا يجدون إلا قليلا ، فقد بدت لهم كنيسة إليزابيث بعيدة كل البعد عن الكمال . أما الشعب فى مجموعه ، ممن لا تعنيهم فى كثير أو قليل المسائل اللاهوتية ، فلم يجدوا فى هذه التسوية القائمة على التوفيق شيئاً يكرهونه ، وبقى الكاثوليكى العادى لايحرك ساكناً حتى عام ١٥٧٠ حين حرم البابا الملكة وأعلن عزلها ، فاضطر حينئذ أن يسائل نفسه : لمن يدين حقاً بالولاء فى خاتمة المطاف ؟

وحين اعتلت إليزابيث العرش لم تكن إنجلترا فى نظر ملك إسپانيا متشحة بثوب العداء ؛ بل كانت بلداً ينبغى عليه أن يسعى لكسبه ومصالحته .

ورغم أن فيليب كان كاثوليكياً متديناً ، عقد العزم على اجتثاث جذور الهرطقة من أملاكه ، فإنه لم يكن قط صليبياً للدرجة التى تحدوه إلى التضحية بالمصالح السياسية الحقيقية لبلاده على مذبح الدعاية الدينية . كانت إنجلترا دولة « مهرطقة » — وهذه طامة كبرى ووصمة بشعة . ولكن هرطقة إنجلترا لم تكن مطلقاً مما يحدو بفليب إلى مهاجمتها ؛ بل إنه — على العكس من ذلك — اغتبط كثيراً برؤية جيش إنجليزى يحطم كبرياء آل جيز فى إسكتلندة رغم كونهم من الكاثوليك . وكان من الجائز أن يتوقع منه — بصفته كاثوليكياً — أن يرحب بتوقع احتمال حدوث اتحاد بين إنجلترا وإسكتلندة وفرنسا تحت حكم مارى ملكة الإسكتلنديين ؛ ولكنه — بصفته ملكاً لإسپانيا — كان لا يسعه إلا أن يعتبر هذا الاحتمال كارثة ينبغى تجنبها بأى ثمن . وفى هذا التقدير الأخير ثبت أن السياسى فيه أقوى من الكاهن — وهكذا وقف فليب من الأزمة الكبرى التى وطدت الإصلاح البروتستانتى فى إسكتلندة ومهدت الطريق للاتحاد بين إنجلترا وإسكتلندة ،

موقف الصديق الذى لا يحمل ضغناً لأخت زوجته ، إليزابيث الهرطقية . وهكذا عاونت إسپانيا المذهب البروتستانتى فى إنجلترا بصداقتها فى عام ١٥٦٠ بقدر ما عاونته بعدائها فى عام ١٥٨٨ .

ثم جدّ حينذاك عامل آخر جعل فليب يحرص على علاقته الودية مع إنجلترا : فقد ووجه بمتاعب خطيرة فى الأراضى المنخفضة . كان الملك حين توجه إلى إسپانيا قد أناب عنه فى حكم المقاطعات السبع عشرة مارجريت دوقة پارما ، وهى ابنة شارل الخامس وثمرة زواج غير شرعى من عشيقة فلمنكية . وكانت مارجريت ذكية عطوفة قوية الشخصية ؛ كما أنها من أهل البلاد ، وباستطاعتها أن تتكلم لغاتها . ولو أنها تركت لتحكم المقاطعات السبع عشرة بمساعدة نبلائها المحليين دون تداخل من إسپانيا ، لما كان ثمة كبير شك فى أن يكون حكمها ناجحاً محبوباً . ولكن نائبة الملك لم تكن مطلقة الحرية : فقد أرغمتها التعليمات السرية التى بعث بها الملك على أن تنفذ المراسيم ضد المهرطقين ، وفرض عليها العاهل الغائب عن البلاد هيئة استشارية من ثلاثة مستشارين ترجع إليهم بانتظام فى كل مسائل السياسة والإدارة كبيرة كانت أم صغيرة . وكان الكردينال جرنڤل ، ابن ذلك السياسى العظيم الذى كان أكبر مستشارى شارل الخامس طيلة ثلاثين عاماً ، الرئيس المعترف به لهذه الهيئة وصاحب القسط الأوفر من النفوذ فيها ، وذلك لما عرف عنه من الانكباب على العمل والمقدرة الفائقة ودماثة الخلق .

ووجه الخطورة الحقيقية فى حكومة جرنڤل (وكانت حينئذ تعدّ كذلك) ليس أنها كانت تفتقر إلى المقدرة أو الحنكة السياسية ؛ بل إنها كان يطلب منها — على غير ما تراه أصلح للموقف — أن تنفذ سياسة كريهة تمليها إسپانيا . كان أهالى الأراضى المنخفضة معتزين بالحقوق التى حصلوا عليها والامتيازات التى اكتسبتها مقاطعاتهم . وكانوا يمقتون وجود القوات الإسپانية وفظائع الاضطهاد الدينى الإسپانى ، ويخشون العواقب التى تترتب على تنفيذ المشروع الجديد : مشروع إنشاء أربع عشرة أبروشية ، وهو المشروع الذى كان ينذر بإدخال محاكم التفتيش الإسپانية واتخاذ إجراءات أعنف ضد العقائد الإصلاحية . وتساءل النبلاء الوطنيون الأثرياء المعتزون بأنفسهم ممن خدموا الدولة فى عهد شارل الخامس : إلى متى

يحتملون هذه المظالم ؟ ومتى يسمح لهم بنصيبهم الحق من نفوذ الحكم ومغانمه التى أقصاهم عنها الكاردينال المقيت وبطانته ؟

وكان الرجلان اللذان عملا سويًّا على إنزال الكاردينال من علياء سمائه يتباينان بشكل غريب فى المزاج والطباع . كان إجمونت جنديًّا كريماً مزهوًّا بنفسه ، مهتز الشخصية بعض الشيء ، ارتفعت به انتصاراته فى سان كنتان وجراڤلين Gravelines إلى الذروة فى أعين الشعب ، ثم أخذته الحسرة لشعوره بأنه لم يجز الجزاء الأوفى . أما وليم ناساو أمير أورنج فقد كان أصلب عوداً وإن يكن أقل احتفالا بالمظاهر ، وكانت شخصيته تقوم على الاعتزاز بالنفس والعزم والشفقة . كان هذا الأرستقراطى الكبير يأنف من وطأة القوات الإسپانية على الأراضى الفلمنكية ، وأفعم بالأسى على ضحايا قسوة الطغيان الإسپانى . حقًّا إن وليم كان يتمتع بقليل من الصفات العسكرية ، عدا أنه لم يكن مستعدًّا للاعتراف بالهزيمة ؛ ولكنه كان يتحلى بعزم فائق على متابعة هدفه ، وكان لديه معين لا ينضب من المهارة الدبلوماسية — وقد وجد نفسه منساقاً فى مجرى الأحداث إلى تزعم حركة شعبية هدفها التحرر من الحكم الإسپانى . وهو يتهم بأنه كان مخلصاً لإسپانيا فى البداية ثم انقلب ثائراً ، وبأنه كان كاثوليكيًّا فى البداية ثم انقلب لوثريًّا فكلڤنيًّا . كان انتهازيًّا فى الواقع ، يعيش على خيط رفيع من المبادئ ؛ ولما كان يهيم بالحرية ويمقت التعصب — وهى العقائد التى عرضته ، كما عرضت صديقه إجمونت ، لميتة عنيفة — فإنه يعد أحد كبار الأبطال فى تاريخ الحرية فى أوربا .

وعندما لاحت تباشير العاصفة صمم فليب على أن يضرب ضربته . ولكن لم يترتب على انسحاب جرنفل تحت ضغط إجمونت وأصدقائه (١٥٦٤) إلا إصرار الملك وتصميمه على القضاء على هراطقة الشمال . وبالإضافة إلى الرعب الذى أشاعته محاكم التفتيش والتطبيق القاسى للمراسيم الصادرة ضد الهرطقة ، صدر إلى سكان الأراضى المنخفضة فى ١٨ أغسطس ١٥٦٤ أمر بضرورة التزام قرارات مجمع ترنت . وبنفوذ الأمير أورنج صدر فى مجلس نائبة الملك احتجاج رسمى على هذه المظالم وغيرها ، وحمل إجمونت الاحتجاج بنفسه إلى الملك فى يناير ١٥٦٥ .

واحتدمت المشاعر بسرعة حين ظهر أن بعثة إجمونت لا طائل منها وأن فى

عزم الحكومة انتهاج الصرامة فى تطبيق المراسيم والقرارات التى صدرت لمقاومة الهرطقة . وتعاهد بعض شباب النبلاء وتكاتفوا لمقاومة محاكم التفتيش ، ومنهم كلفنيون معروفون بالصلابة ــ مثل مارنكس Marnix ، ومنهم كاثوليك متأثرون بالتعاليم الإنسانية ــ مثل بردرود Brederode . تلك هى الجماعة التى وضعت الوثيقة المعروفة فى التاريخ باسم « الحل الوسط » ، وهى الوثيقة المتشددة التى ما كانوا يقبلون فيها جدالا . وقد أخذهم الكبر فاتخذوا الاسم الذى أطلقه عليهم خصومهم المزدرون بهم وهم اسم « الشحاذين Gueux » ــ تماماً كما فعل بعض الجند البريطانيين فيما بعد حين لم يأنفوا من أن يعرفوا باسم « المحتقرين The Contemptibles » . أما فليب فكان يدبر فى هدوء رداً قاتلا على كل هذا الاحتجاج والهيجان (وقد حاول أورنج وإجمونت أن يسلكا بهما مسلك الاعتدال) وعلى الثورة الوحشية التى قام بها الكلفنيون على العقائد المقررة .

ويؤخذ على هذا الملك الإسپانى أنه لم يكن متفتح الذهن ، ولا ألمعيًّا ولا إنسانيًّا ، كان الرجال الثلاثة (أورنج وإجمونت وكونت هورن Hoorn) هم الذين عاونوا فى إقرار الأمن فى البلاد أثناء الاضطرابات الأخيرة ، ولكن هلل لهم « الشحاذون » فوشت بهم نائبة الملك سرًّا ؛ ومن ثم استقر الأمر على تحطيمهم . وبدلا من أن يفكر الملك فى علاج آخر ، كأن يذهب بنفسه إلى الأراضى المنخفضة لمدة أسبوعين مثلا لبحث المشكلة فى مكانها ، أرسل إليها ألفا ، أحسن قواده وأشدهم عنفاً ، على رأس جيش قوى من المرتزقة الإيطاليين والإسپان ليسحق الهراطقة ، ويعمل ــ بتوجيه خاص ــ للإيقاع بالرجال الثلاثة وقتلهم ، وهم الذين كان يستطيع حاكم أكثر تعقلا أن يجد فيهم الدعائم الرئيسية لحكمه .

وانسحب أورنج الحريص إلى حيث يجد السلامة فى وطنه فى ألمانيا قبل أن تدركه العاصفة ؛ ولكن فى لحظة جانب فيها التوفيق الإسپان أمسك بإجمونت وهورن غدراً ، وبعد محاكمة هزلية قطعت رأساهما فى الميدان العام فى بروكسل . وكان مصرع هذين الرجلين الشجاعين الواسعى النفوذ (يونية ١٥٦٨) جريمة من تلك الجرائم السياسية التى لا تبرأ منها الحكومات .

وفى خلال ست سنوات مليئة بالفزع مضى ألفا يطبق على أهالى الأراضى

المنخفضة الذين أذهلهم الرعب مبدأه بجذافيره . ولكن كانت ثمة عوامل أربعة لم يعمل لها حساباً ، هى فى مجموعها التى أحالت نجاحه الأول إلى فشل قتال . وأورنج أول هذه العوامل . أعلن هذا الأمير خارجاً على القانون ؛ ولما كان يخشى الإسبان ولا يرجو منهم شيئاً ، فقد شرع فى تنفيذ خطة جريئة تقوم على جمع الجيوش لمحاربتهم . ولكن عملياته الحربية منيت بالفشل ؛ فهو لم يكن قائداً ، وكانت قواته تفتقر إلى النظام والأجر ، ولا تستطيع الوقوف أمام جنود ألفا المحنكين والمعدين للخدمة فى هذه البلاد فى معركة يلتحم فيها الفريقان . ولكن إذا كان أورنج عاجزاً عن قهر العدو فى الميدان ، فقد كان باستطاعته أن يكبده نفقات لا قبل له بها . ولكى يدفع ألفا رواتب جنده ، اضطر إلى اللجوء إلى نظام ضرائبى كان من المحتم أن يثير موجة من السخط الشديد فى مجتمع يعمل أهله فى التجارة . فالتجار الكاثوليك الذين لم يرفعوا إصبعاً لإنقاذ مهرطق من المحرقة أو للاحتجاج على المذابح الشاملة التى كان « مجلس المتاعب Council of Troubles » يقوم بها — قد استشاطوا غضباً حين طلب منهم أن يدفعوا رسماً قدره ١٠٪ على كل مبيع ، ولم يقنعوا بما قيل لهم من أن الضريبة سمة من سمات الميزانية الإسبانية . وهكذا اتحدت البلاد كلها وكأنها رجل واحد — دون تمييز بين طبقة وأخرى أو بين عقيدة وأخرى — ضد حكومة وجهت مثل هذه الضربة القاتلة إلى التجارة التى كانت قلب البلاد النابض .

أما العامل الثالث فهو البحر . كانت السفن فى أيدى بروتستانت وقراصنة . فإن نبتاً جديداً من أهالى ألمانيا السفلى أو من الفايكنجز الهولنديين كانوا يجتاحون البحار الضيقة وينتهبون الكنوز والمتاجر وينهبون الكنائس ويقتلون القسس والرهبان — يفعلون كل ذلك رداً على الأعمال البربرية التى لم يكن فى وسع أى جيش بروتستانتى فى القارة أن يأخذ ثأرها بدرجة كافية . فإذا كان « الشحاذون » فى البر حتى ذلك الوقت قليلى الحيلة ، فإن « شحاذى البحار » وضعوا روحاً جديدة فى النضال . واستطاع القراصنة الهولنديون بتشجيع صريح من جانب الإنجليز ، وهم على مثالهم فى الهرطقة والعقلية ، وبرضى إيجابى من جانب الملكة إليزابيث استطاعوا أن يستولوا على مدينة برل Brill (أبريل ١٥٧٢) — وبذلك وضعوا — من حيث لا يحتسبون — أسس دولة أوربية جديدة وشهيرة .

ولكن المجهود البحرى لم يكن وحده كافياً على الإطلاق لبناء الجمهورية الهولندية ، فلقد شارك « شحاذو البحار » فى الدافع الأساسى الذى حرك المقاطعات الشمالية إلى أن تنفض النير الإسپانى وتدعو وليم أورنج ليقودها إلى النصر . وأدى الاستيلاء على برل مباشرة إلى الاستيلاء على فلشنج Flushing فى الشمال ومونز Mons وڤالنسيين Valenciennes فى الجنوب ؛ ولكن — أهم من ذلك — بدأ معارك الحصار التى أعطت تاريخ هارلم Haarlem وألكمار Alkmaar وليدن Leyden شهرة خالدة . وإذا كان الهولنديون عاجزين حتى ذلك الوقت عن الصمود لقوات ألفا من الجند المحنكين فى معركة مكشوفة ، فقد كانوا من وراء أسوار مدنهم يجالدون بشجاعة رجال باعوا أنفسهم عدواً أثبت المرة تلو الأخرى أنه — حين يحمى وطيس المعركة — لم تكن تأخذه رحمة ولاشفقة : لا بصغير أو كبير ولا برجل أو امرأة .

وكانت فظائع الجيش الإسپانى الذى لم يقبض رواتبه بانتظام ، وانحلال نظامه ، مما رفع أورنج فى خريف عام ١٥٧١ وربيع العام التالى وصيفه من مستواه العادى إلى أوج مجده . كان ألفا قد استدعى ، ثم مات خلفه ركوسنس Requesens فجأة ، وجاء خلو البلاد من حاكم إسپانى فقدم فرصة للفلمنكيين لا ينتظر من دبلوماسى فى ذكاء أمير أورنج أن يهملها . وكانت البروتستانتية الهولندية فى موقف لا تحسد عليه ، وكان الأمير قد خسر جيشاً وفقد أخوين له فى ساحة موكرهيد Mookerheede المروّعة (١٥٧٤) ؛ كما طردت قواته من جزائر دويڤلاند Duiveland وشووين Shouwen ، وفرغت خزانته ، وصدته الملكة إليزابيث وكان قد عرض عليها السيادة على مقاطعاته الشمالية ؛ وكان يعلم جيداً أن دولته الكلڤنية الصغيرة التى لم تكد تتكون بعد لن تكون لها حيلة إزاء سطوة الإمبراطورية الإسپانية ما لم تستند إلى تعضيد داخلى قوى . وفجأة لمع فى المقاطعات الجنوبية بريق من الأمل لم يكن متوقعاً : فقد رفع الجيش الإسپانى راية العصيان بسبب عدم دفع رواتبه ، ثم استولى على ألوست Alost وتحول إلى عصابات أعملت السيف والنار حتى مشارف بروكسل . ووجد وليم فى هذه الحالة من الغضب والفزع التى استولت على الأهالى فرصة ذهبية ليوسع نطاق قضيته ويحول مصائرها — فدخل فى مفاوضات مع ولايات الفلاندر وبرابانت Brabant بالنيابة عن هولندة وزيلند ، وذلك بقصد إخراج

الأجانب وتسوية المسألة الدينية . ثم جاء نهب الإسپان الفظيع لمدينة أنتورب ، المعروف « بالغضبة الإسپانية » ، فأزاع نهائيًّا آخر مظهر للتردد كان يعترض إتمام تسوية غنت (نوفمبر ١٥٧٤) . وتكاتفت المقاطعات الكاثوليكية والمقاطعات الشمالية البروتستانتية (هولنديو أسفل البلاد والوالون) معاً فى اتحاد سياسى لمواجهة الخطر المشترك . وحين بدأ الحاكم الإسپانى الجديد — دون جوان النمسوى — حكمه يحيط به كل بريق دمه الملوكى ، وغار لپانتو لم يذبل بعد على جبهته ، لم يجد بدًّا من أن يسلم بالمطلب الذى أجمعت عليه البلاد : وهو وجوب تخلصها فى الحال وإلى الأبد من القوات الأجنبية ، واحتفاظ المقاطعات بالمواثيق والحريات التى حصلت عليها . وأشد إيلاماً لهذا الحاكم المتغطرس المندفع كان السلطان الذى كسبه أورنج — ولقد كتب ألڤا إلى الملك : « لقد سحر أمير أورنج عقول الناس : فهم يحبونه و يخشونه ويتمنون أن يصبح سيدهم » .

ولكن الأمير لم يحتفظ بالنصر الذى كسبه ؛ فإن روابط الاتحاد التى صهرت على لهب « الغضبة الإسپانية » أصبحت من الضعف بحيث لا تقوى على الصمود لامتحان جدى . فالمقاطعات المتحدة لم تكن على رأى واحد بشأن المسألة الحيوية التى لم تكن قد حسمت بعد وهى المسألة الدينية . ثار الكلڤنيون فى غنت على حكومتهم ، وجانب الأمير أورنج الصواب إذ شجعهم بعض الشىء على ذلك ، ثم سجنوا دوق أيرشوت Aerschot وهو حينئذ القائد الكاثوليكى للجنوب — وبذلك أثاروا من جديد مشاعر الكراهية الدينية المحترمة التى كانت قد التأمت أمام الشعور بالخطر المشترك . وفى هذا الجو ، والبلاد قد التهبت مشاعرها وتقطعت أوصالها ، نزل بها جيش مختار من عشرين ألف مقاتل ، يقوده أعظم جنود إسپانيا وأقدر ساستها . لم يكن دوق پارما — كما كان ألڤا — متعطشاً للدماء ، لا يقوم من خطأ حتى يقع فى آخر ؛ ولا كان خيالياً مثل دون جوان . ولكنه كان يحسن المداهنة والخداع والتهدئة ؛ وهو حين يبدد الشكوك من حوله يعرف أيضاً كيف يسدد ضربته — وقد تمكن بالنصر الساحق الذى أحرزه فى جمبلو Gembloux (يونية ١٥٧٨) أن يضمن أخيراً عودة المقاطعات الجنوبية إلى الخضوع لإسپانيا .

وبهذه المعركة استقر لكل من هولندة وبلجيكا وجودها السياسى المنفصل .

واستمر الحال على هذا المنوال حتى الوقت الحاضر . باستثناء الاتحاد القصير المضطرب الذى أقيم بين البلدين بين عامى ١٨١٥ و ١٨٣٠ . وهذا البعد الذى يفصل بين بروكسل ولاهاى فى الوقت الحاضر روحاً – رغم قربهما مكاناً – يعزى فى الدرجة الأولى إلى ألفا الذى سحق پروتستانت الجنوب فى القرن السادس عشر ، وإلى پارما الذى حال دون عودتهم وانتعاشهم . فإذا ذكر التاريخ بناة بلجيكا الحديثة ، عدّ منهم هذين القائدين الأجنبيين . وقد ترك أولهما ذكرى كريهة ، على حين خلف الآخر أمجد الذكريات .

وأخيراً – وبعد إحجام كبير – اطرح أورنج حلمه بتكوين دولة متحدة من الأراضى المنخفضة ، ووافق على اتحاد يوترخت (١٥٧٩) الذى كان معضدوه البروتستانت فى الشمال قد وضعوا إطاره رداً على اتحاد آراس Arras الكاثوليكى . لم يبق أمامه حينئذ سوى أن يركز جهده فى الدفاع عن كلفنيى الشمال فى هولندة وزيلندة ، أولئك الذين قاسوا كثيراً ، وقد وضعوا مصائرهم بين يديه ، وباتوا مصممين على التضحية بكل شىء فى سبيل معتقداتهم . وفى سبيل تحقيق هذا الهدف ، ورغم ما أبداه خيرة مؤيديه من أسف شديد ، قرر أن يطلب المساعدة من دوق أنجو Anjou الذى كان يبدو أنه سيقدم خير ضمانات المساعدة الفعالة بسبب كونه وريثاً للعرش الفرنسى وخاطباً معروفاً ليد ملكة إنجلترا . ولكنها كانت مضاربة فاسدة : فأنجو كان خئوناً ، وجيشه عاصياً وحمايته مكروهة ، ولهذا لم ينتج خير من تدخله القصير الأمد . ولكن القدر كان يدخر للهولنديين فى حربهم ضد إسپانيا حليفاً أقوى ، لن يلبث قبل مضى وقت طويل حتى يميط اللثام عن خلال مدهشة .

فى ذلك الوقت كان مبدأ الاغتيال السياسى أمراً مقرراً على مدى واسع ، خصوصاً وأنه – وإن لم يكن الأسلوب الوحيد – كان يزكيه بعض الأعضاء الإسپان فى طائفة اليسوعيين . لهذا ليس ثمة ما يدعو إلى الدهشة حين تقرر حكومة إسپانيا أن تزيح غريمها العنيد القوى من طريقها باغتياله . وأعلنت الإمبراطورية أن الأمير خارج على القانون (١٥ مارس ١٥٨١) ، وأنه عدو للجنس البشرى ، ووعدت بالمال والأراضى والألقاب من يأتى برأسه . ولكن إلهة النقمة تلازم سياسة

الاغتيال السياسى : فقد تخر الضحية صرعى ، ولكن القضية تبقى يشد أزرها دم الشهيد . فنى ١٠ يولية ١٥٨٤ أطلق شاب برجندى متعصب يدعى بلتزار جرار Balthazar Gérard الرصاص على أورنج فى « بهو الأمير Prinzenhof » فى دلفت Delft ؛ ولكن رغم أن وليم فى ذلك الوقت لم يكن يزيد على الحادية والخمسين من العمر ، فإن مقتله جاء متأخراً جداً . فقبل ذلك بثلاث سنوات (٢٦ يولية ١٥٨١) كان ممثلو برابانت والفلاندر ويوترخت وجلدرلاند Guelderland وهولندة وزيلندة قد اجتمعوا فى لاهاى ووقعوا صكاً Act of. Abjuration أقسموا فيه اليمين على خلع ولائهم للتاج الإسبانى . وهكذا فرغم وفاة وليم أورنج فى تلك الآونة ، تمخض الاضطراب والعاصفة عن دولة من صنع يديه قامت بالفعل ، وكان من المقرر لها أن تملأ البحار بسفنها وتبنى فى الشرق إمبراطورية مفرطة فى الغنى ، وتتحدى أساطيل إنجلترا وجيوش فرنسا ، وتكسب امتنان الجنس البشرى باعتبارها ملجأ للحرية الفكرية وموطناً لمدرسة من الرسامين أثروا ثقافة أوربا على الدوام بما راعوه فى رسومهم — بدقة ورقة — من بدائع الحياة الهادئة .

* * *

واصطنعت الدولة الجديدة لنفسها دستوراً كان يبدو لكل ناظر أنه لا يصلح مطلقاً لجو السياسة الأوربية العاصف . فقد كانت الدولة عبارة عن اتحاد من سبع جمهوريات صغيرة ذات سيادة ، لكل منها برلمانها المحلى وحاكمها التنفيذى المنتخب Stadtholder ، وحقها فى المشاركة بنصيب مباشر فى الإشراف على مالية الاتحاد وسياسته الخارجية . وللاتحاد مجلس للنواب ، يختار أعضاؤه من مجالس الطبقات المحلية ويساعده مجلس من اثنى عشر عضواً ، وهو ينظر فى الشئون التى تعنى الاتحاد كله ويعين القائد العام للجيش والقائد العام للأسطول . ولكن لما كانت هذه الهيئات المركزية لا تتمتع بالسيادة الحقيقية ، بل تتمتع بها المجالس المحلية السبعة ، فلم يكن ثمة ضمان دستورى يضمن تماسك الجمهورية كما يضمن الاستمرار والحيوية فى إدارة شئونها . فى أية لحظة كان بإمكان فلاحى فريزيا وقسس يوترخت أو نبلاء جلدرلاند أن يعرقلوا بأصواتهم — إذا ما أرادوا — الخطط التى جهد فى حبكها أرستقراطيو المدن التجارية . على أن الجمهورية لم ينقذها من هذه العواقب

السيئة التى ترتبت على هذا القصور فى جهازها السياسى سوى عوامل ثلاثة هى التجانس الفعلى بين سكان هولندة ، وتفوق هولندة على سائر المقاطعات — وأهم من هذين العاملين المكانة الخاصة التى أعطيت عن طواعية لزعيم بيت أورنج خلال الخمسين عاماً الأولى الدقيقة لاستقلال هولندة .

ولما كان الجانب الأكبر من الشعب الهولندى يعنى بالتجارة والصناعة وركوب البحر ، فقد كان يجتمع على وجهة نظر واحدة فى الشئون الخارجية ، وعلى فهم مشترك لحاجات هولندة ومصالحها . زال النظام الإقطاعى ، وحل محل النبيل والكاهن فى أهميتهما رجال الطبقة الوسطى من سكان المدن . وكان الأرستقراطيون فى المدن يسيطرون عليها ، والمدن بدورها كانت تسيطر على الجمهورية . وشاءت الأقدار — إلى حد ما — أن تقع المراكز الرئيسية للتجارة والعلم فى داخل مقاطعة واحدة ، الأمر الذى عاون كثيراً على منح البلاد الاستقرار والقوة . فإن أمستردام وروتردام ودلفت ودوردرخت Dordrecht وليدن (مقر الجامعة الهولندية) ولاهاى (العاصمة السياسية للدولة) تقع جميعها فى هولندة . ولم يحدث فى أى مكان آخر فى أوربا أن تركز فى رقعة واحدة من الأرض هذا الحشد من السكان والقوة التجارية ؛ ولم يحدث فى أى مكان آخر أن عولجت شئون التجارة بمثل هذه المهارة أو فهم الناس فن الحياة الحضرية بمثل هذا الإتقان . ولما كان لهولندة قصبة السبق بين المقاطعات السبع ، فقد تزعمت أمستردام مدنها وبزت منافساتها فى الصيرفة والتجارة وحجم أسطولها واتساع نشاطها الاستعمارى ، وهكذا عوضت القوة المستمرة من التفوق الاقتصادى الحكم المركزى الذى كان يفتقر إليه الدستور . ومن الوجهة النظرية بقيت حريات الأقاليم مصونة لم تمس ؛ ولكن من الناحية العملية كانت السياسة التى تلقى تأييداً من حكام أمستردام الأثرياء كفيلة بأن تستهوى أعضاء الاتحاد الآخرين الأقل من هولندة شأناً .

على أن أمراء بيت أورنج قدموا لهذه السياسة التى توزعت وتوازنت بهذا الشكل وحدة فى التوجيه كان لا غنى عنها . وأبدع ما فى هذه الأسرة هو حكمتها فى مراعاة الروح الجمهورية التى كان يحرص عليها الهولنديون . فوسط خضم من الأخطار لا حصر له كسب وليم الصامت لهذا الشعب حريته ، ثم جاء موريس وفردريك

هنرى من بعده فنافحا عنها . ولكن لا النجاح الذى حققوه ولا سجل خدماتهم الخلاب قد أغراهم بتقويض أشكال الدستور على ما فيها من عراقيل ثقيلة . قنع عميد بيت أورنج بمركز الحاكم المنتخب ؛ ولما كان يشغل مناصب الحاكم فى خمس مقاطعات والقائد العام لجيش الجمهورية وأسطولها ، فقد ركز فى يديه – باختيار الناس اختياراً حراً – السلطات الفعلية فى الدولة . وقد اجتمع لرؤساء هذه الأسرة الممتازة من المناصب التى انتخبوا لها خلال سبعين عاماً ما جعل لهم قدراً عظيماً من السلطان لا يقل عما كان يتمتع به أى عاهل فى أوربا تولى عرشه بالوراثة فى ذلك العصر الأرستقراطى . ثم أعقب وفاة وليم الثانى (١٦٥٠) عهد طويل حكم فيه حاكم لم يبلغ سن الرشد ، فعهد بتسيير دفة الجمهورية أثناءه إلى أكبر موظف مدنى فى المقاطعة الرئيسية : وهو محصل موارد هولندة العظيم The Grand Pensionary of Holland . ولكن ذكرى بيت أورنج لا تزال حية فى قلوب الشعب الهولندى ؛ ففى الوقت الذى أحدقت بهم أشد الأخطار ، حين كانت جمهوريتهم الصغيرة تتهددها بالدمار قوة لويس الرابع عشر العسكرية الضخمة ، استصرخوا ابن حفيد وليم الصامت لكى ينقذهم – ولم تذهب صرختهم عبثاً .

* * *

فصل ربع قرن من الحرب بين وفاة وليم أورنج وهدنة الاثنى عشر عاماً التى وقعت فى عام ١٦٠٩ والتى أعلنت للعالم أجمع اعتراف إسبانيا نهائياً بعجزها عن قهر الجمهورية الهولندية . وجاء الخلاص للهولنديين من عاملين : أولهما تحول الجهد الحربى لإسبانيا ضد إليزابث وهنرى الرابع ؛ وثانيهما اكتشاف المقاطعات المتحدة لسياسى عظيم وقائد عظيم . فحين خر وليم صريعاً على يد سفاك ، كان دوق پارما فى أوج انتصاراته ؛ وسقطت مدن الفلاندر وبرابانت واحدة بعد أخرى أمام براعته المظفرة . احتل بروكسل ، واجتاح أنتورب ، وهدد بسحق آخر حصون القضية البروتستانتية : هولندة وزيلندة ، لولا أن تداركتهما النجدة سراعاً .

وكان من غير المحتمل أن يستطيع الجيش الإنجليزى الصغير ، بقيادة ليستر Leicester الذى ألقت به الملكة إليزابيث إلى فلشنج Flushing لموازنة الموقف ، أن يصمد إلى النهاية للقوات التى كان القائد الإسپانى قادراً تماماً على جمعها

وبث الحماسة فيها . ولكن جهود پارما كانت مشتتة : فقد أمر فى البداية بأن يجمع جيشاً لغزو إنجلترا ، وحين تبدد هذا الأمل نهائياً بتشتت الأرمادا ، أمر بأن يتوجه إلى فرنسا ليؤيد مصالح سيده فى الحرب الأهلية الناشبة فيها . وهكذا ذهب لينقذ پاريس فى الوقت الذى كان عليه أن يعمل للسيطرة على أمستردام ؛ وفى الوقت الذى كان على قواته أن تحتل هولندة ، طلب إليها القيام باحتلال لا طائل من ورائه لمدينة روان Rouen. وهكذا ترتب على تحمل هذا القائد العظيم واجبات حربية متنوعة ومشتتة للجهد أن توفى فى عام ١٥٩٢ ولما يحقق مهمته بعد .

وكان الدستور الهولندى قاصراً عن مواجهة ضغط الحرب وأعبائها الثقال ، شأنه فى ذلك شأن الدستور الأمريكى فى الوقت الحاضر . فقد كانت كل مقاطعة تتمتع بالسيادة ، وكانت كل مقاطعة حريصة على التشبث بطرائقها المألوفة . ولكن من حسن حظ الجمهورية فى مستقبلها أن تكون مقاطعة هولندة ، بفضل ثروتها وسكانها وحيويتها ومساهمتها بنصيب الأسد فى تكاليف الاتحاد ، القوة الأولى المتفوقة فى مجلس طبقات الأمة . وكان لسانها الناطق مدى ثلاثين عاماً هو جون ڤان أولدنبارنڤلد John van Oldenbarnveldt ، والرئيس المدنى الحقيقى للجمهورية الناشئة مدى اثنين وثلاثين عاماً (١٥٨٦ — ١٦١٨) . وقد خدم الحظ هذا الرجل العاقل المحنك حر التفكير حين قدم له رفيقاً جديراً بالإعجاب فى شخص القائد موريس ناساو بن وليم أورنج .

وكان هدف هذا الضابط الممتاز وابن عمه وليم ناساو أن يصنعا جيشاً يستطيع قهر الإسپان فى معركة مكشوفة ؛ وهذا ما حققاه بالفعل . واستطاع موريس فى أربع معارك رائعة أن يحرر أرض المقاطعات الاتحادية وأن يبين عن نفسه كأعظم قواد عصره . فلم يكن ثمة أى فن من فنون الحرب لم يكن هو خبيراً فيه ؟ وقد اعتبرت خطط الحصار التى وضعها ونفذها غاية فى البراعة من حيث الحذر والتمكن ، وكشف توزيعه للخيالة أثناء القتال عن نظرة الخبير المتمكن . وإن استيلاءه على جرترودنبرج Gertruidenburg ومطاردة فرسانه لڤاراكس Varax فى ترنهوت Turnhout (١٥٩٧) فى ليلة من ليالى الشتاء ، وهجومه الجرىء الذى أتى فى وقته وحول الهزيمة إلى نصر فى معركة دنكرك المريرة — كل ذلك — اعتبر نماذج

فائقة فى فن الحرب . وفى تلك الأثناء أمكن التفوق على الإسپان بحراً ؛ وسجل الانتصار البحرى الرائع فى جبل طارق (١٦٠٧) التفوق القاطع للهولنديين وأرغم أعداءهم على التفكير فى طلب الصلح .

على أن الاتفاق كانت تعترضه ثلاث عقبات كبرى : الاستقلال والدين والتجارة . فقد كان مما لا يحتمله كبرياء الإسپان أن يعترفوا بهؤلاء العصاة الهولنديين دولة مستقلة ، أو يسمحوا لهم بتحريم إقامة الطقوس الكاثوليكية علناً ، أو بالمتاجرة مع هذه الرقعة الواسعة من العالم الجديد التى كان البابا قد خص إسپانيا بها . بدا أن عقد الصلح فى حيز الاستحالة ؛ ولكن ما لبثت أن وقعت فى أنتورب هدنة مداها اثنا عشر عاماً (٩ أبريل ١٦٠٩) . ولم يذكر شيء عن الموضوع الشائك الخاص بالدين ؛ ولكن أهالى الأراضى المنخفضة انتزعوا من خصومهم — بعد إحجام وتردد — الاعتراف باستقلالهم وحقهم فى المتاجرة فى المياه الإسپانية .

ففى خلال هذه السنوات الخمس والعشرين كانت خلاصة الشعب الهولندى قد عمدت إلى ركوب البحر ، تاركة جيوشها البرية تتكون فى معظمها من الألمان أو الإنجليز أو الأسكتلنديين . وصل قبطان هولندى إلى القطب الشمالى وأمضى الشتاء فوق ثلوجه ، وزار أسطول هولندى الصين وسيام ، وقامت للهولنديين محطات تجارية فى جزائر البهار ، وأسست فى عام ١٦٠٤ شركة هند شرقية هى أولى الشركات الكبرى الحاصلة على امتياز . وقامت الثروة الجديدة الناتجة من التجارة العالمية النامية على تغذية المجهود الحربى الذى كانت تقوم به هذه الجماعة الصغيرة فى عددها ، العظيمة فى حيويتها — ثم مكنت هذه الجماعة ، بعد نضال مستميت استغرق جيلا ، من أن تعقد هدنة مظفرة مع أقوى دولة عسكرية فى أوربا .

كتب يمكن الرجوع إليها

— Motley, Rise of the Dutch Republic. 3 vols. Everyman's Library. (1906)
— H. Pirenne, Histoire de Belgique. (1907)
— W.H. Prescott, History of the Reign of Philip II. (1855)
— Martin A.S. Hume, Philip II of Spain. (1902)
— P.J. Blok, History of the People of the Netherlands. (1892-6)
— J.E. Neale, Queen Elizabeth. (1934)
— R. Altimara y Crevea, Historia d'Espana y de la civilization espanola. (1902)
— R.B. Merriman, The Rise of the Spanish Empire (1918-25)
— A.F. Pollard, History of England. (1912)
— F.W. Maitland, The Anglican Settlement and the Scottish Reformation. (Cambridge Modern History, Vol. II, chap. XVI).
— J.A. Froude, History of England. (1856-70)
— A. Lang, History of Scotland. (1900-7)
— J. Skelton, Maitland of Lethington and the Scotland of Mary Stuart. 2 vols. (1894)
— P. Hume Brown, John Knox. 2 vols. (1895)

الفصل السادس عشر

إنجلترا وإسبانيا

المنافسة التجارية بين إنجلترا وإسپانيا – مشروعات الأفراد وحرص الدولة – ملاحو إنجلترا اليپوريتان – سحر الشرق – الضربة الأولى – فرنسيس دريك Francis Drake – الثورة الكاثوليكية فى الشمال – مارى ملكة أسكتلندة – اتحاد البرتغال مع إسپانيا – الأرمادا وماترتب عليها – زوال مكانة إسپانيا – طرد بقايا المسلمين – بداية الاستعمار الإنجليزى .

إن المنافسة بين إنجلترا وإسپانيا ، وهى المنافسة التى تطورت إلى حرب سافرة فى عهد إليزابيث ، قد ساعدت دون شك على تقوية المشاعر البروتستانتية لدى الشعب الإنجليزى ؛ ومع أنها تلونت منذ البداية بشىء من صبغة العداء الدينى ، إلا أنها كانت فى جوهرها منافسة اقتصادية . فإن حب المغامرة والمال والتجارة قد أغرى شعب إنجلترا – الذى اعتادركوب البحار – بتحدى الاحتكار الذى حرصت إسپانيا على الاحتفاظ به فى العالم الجديد وجزائر الهند الغربية . ولكن الحرب لم تقم بسبب الدين ؛ فهى لم تندلع بسبب تصميم الحكومة الإسپانية على فرض العقيدة الكاثوليكية على إنجلترا ، أو لأن إليزابيث كانت تتحرق شوقاً إلى التعجيل بمخاصمة إسپانيا الكاثوليكية . وإنما نشبت الحرب لأن بحارة من الإنجليز يعملون بدافع من أنفسهم – وإن لم يخل الأمر غالباً من عطف الملكة وإغضائها الطرف – قد صمموا على تحقيق مطالبهم فى المشاركة فى تجارة العالم الجديد .

وليس ثمة فى السنوات الثمانى عشرة التى تلت معاهدة إدنبرة (١٥٦٠ – ١٥٨٨) ما هو أبرز من التعارض بين روح الحذر من جانب الحكومة الإنجليزية وروح المغامرة والجرأة من جانب ذلك الفريق المحارب من الأمة الذى اعتاد ركوب البحار . وبينما يخلو التاريخ الرسمى للحكومة تماماً من هذا النشاط ، فإن ألوان النشاط غير الرسمية التى لم يكلف أحد أصحابها بها ، تسجل فصلا جديداً فى تاريخ العالم . كان غرض الملكة أن تحول دون حدوث انفجار دينى ، وأن تجنب البلاد الدخول فى حرب خارجية ، إلى أن يجىء الوقت الذى يغدو فيه الولاء لها عادة مقررة لدى

كل رعاياها . لهذا قامت سياستها على تخفيف حدة النشاط وإطراح المسئولية عن المغامرات التي تؤدي إلى إفساد العلاقات. وعدّ البيورتان المتقدون حماسة — مثل سير فرنسيس ولسنجهام Walsingham — هذه السياسة خيانة مذلة للقضية البروتستانتية فهم كانوا يتوقون إلى محاربة العدو ، لا في الخفاء أو بشكل محدود ، بل جهاراً نهاراً في كل الجبهات : في فرنسا ، وفي الأراضي المنخفضة ، وفي أعالي البحار. ولم يكن يروقهم تجنب الملكة ركوب المخاطر ، وهي خطة قد تكون سياسية ولكنها خالية من البطولة . فإنجلترا حينئذ قد غدت أول قوة بحرية في العالم كان لديها أمهر صناع السفن وأحسن السفن ، وخيرة البحارة . كانت قد تلقت دروس المدفعية البحرية وقيمة صفّ المدافع على جانبي السفينة ؛ وكانت سفنها أصغر من سفن الإسپان حقًّا ، ولكنها كانت أكثر منها قدرة على مسايرة الريح ، كما كانت أيسر قيادة . ورغم أن الأسطول الملكي كان صغيراً (إذ لم يزد قوامه في عام ١٥٥٩ على اثنتين وعشرين سفينة حمولة كل منها مائة طن فصاعداً ، ولم يعد في عام ١٦٠٣ تسعة وعشرين سفينة) ، فإن كان يوجد دائماً احتياطي كبير من أسطول القراصنة والأسطول التجاري ، يمكن الاعتماد عليه في التعاون مع أسطول الملكة في وقت الشدة . وإن نمو القوة البحرية للأمة يدين بالقليل للتشجيع الرسمي ؛ فهو نتيجة ذلك الميل الطبيعي القوي الكامن في هؤلاء القوم الطموحين المشتغلين بالبحر ، وقد وجدوا أنفسهم فجأة في موقف عجيب : إذ وجدوا في أنفسهم القدرة على التسابق للسيطرة على العالم.

ورغم أن البحارة الإنجليز في عصر إليزابيث لم يكونوا جميعاً من طراز واحد ، فقد كانوا يملكون بعض الخلال المشتركة . فهم — كبحارة — كانوا يؤمنون بقدَر قاهر يتحكم في الأمواج والرياح ومصائر الرجال. كانوا فخورين بإنجلترا وبملكتهم ، يحتقرون الأجانب ، ويكرهون البابا والأتراك والشيطان — ولو أن كرههم للبابا ربما كان لا يعدله كرههم لأي شيء آخر . فهو الذي خص البرتغال بالهند الشرقية وخص إسپانيا بالهند الغربية ، وليس عندهم أدنى اعتبار للقانون الدولي سواء كضرورة أو كحقيقة واقعة ؛ فهم قد اعتبروا أعالي البحار منطقة فراغ لا يمتلكها أحد ، بإمكانهم أن ينهبوا فيها ويقتلوا كما شاءت لهم أهواؤهم . ولم توح المغامرات بإمكان القيام بعمل تبشيري إلا لفئة قليلة من ذوي النفوس الأكثر تطلعاً ، ولم يحس

أحد من القسس البروتستانت الذين كانوا يعملون فى سفن إليزابيث بالدور النبيل الذى قام به الكاثوليكى لاس كازاس Las Casas [١] .

ومع ذلك فقد خالط أحط الشهوات لدى القراصنة شىء من الخيال الفسيح الساذج ، مما أضفى شيئاً من النبل على عمليات ركوب البحار فى ذلك العصر . وكان اتساع المعلومات الجغرافية واكتشاف الصين (كاثاى Cathay) — أو الفردوس الأرضى — دوافع يشعر بها الجميع : فلم تقتصر على رجال العلوم أو الحالمين الشاعريين وحدهم ؛ وكانت الجسارة وليدة النجاح . وقد كتب القبطان روبرت ثورن أوف برستول Master Robert Thorne of Bristol إلى سيده (هنرى الثامن) فى عام ١٥٢٧ مزكياً له المعبر الشمالى إلى جزائر البهار — بأسلوب ذلك العصر الجرىء — قال : « لا توجد أرض لا تصلح للسكنى ، ولا بحر لا يصلح للملاحة » .

ذلك أن جزائر البهار القاصية فى مياه الهند الشرقية كانت لا تزال فى مقدمة البقاع التى تستهوى المغامرين والرواد . حاول ولوبى Willoughby وتشانسلر Chancellor فى عام ١٥٥٣ أن يصلا إليها عن طريق المعبر الشمالى الشرقى ، وفتحا باب المتجارة مع روسيا وكان ديفز Davis وفروبشر Frobisher وجلبرت Gilbert يأملون أن يعثروا على الطريق الشمالى الغربى ، فاكتشفوا من جديد مضيق هدسن فى عام ١٦١٠ — ولكن كلا المعبرين كان يعترضهما بشكل فظيع عائق من الجليد والثلج فى المناطق القطبية .

فإذا أريد الوصول إلى ثروة الشرق ، لم يعد ثمة من سبيل آخر سوى تصويب ضربة مباشرة إلى الاحتكار التجارى الذى فرضه الإسبان والبرتغاليون فى البحار الجنوبية . أدرك نفر من البحارة الإنجليز — كجون هوكنز John Hawkins (١٥٩٥) الذى بدأ عملية نقل الزنوج من غانا إلى جزائر الهند الغربية — أنهم لن يشاركوا فى تجارة الشرق هذه إلا باستخدام القوة ، ولهذا سلحوا سفنهم وباتوا مستعدين للقتال ، وتطلعوا فى ثقة إلى الاصطدام بإسبانيا . ولا يمكن توجيه اللوم

---

(١) ١٤٧٤ — ١٥٦٦ . أسقف إسپانى رحل إلى العالم الجديد بعد الكشوف الجغرافية وبذل جهودا متواصلة لتحسين أحوال الشعوب المفتوحة التى عاملها المستعمرون الإسپان معاملة غير إنسانية . وقد سبقت الإشارة إليه فى النص .

إلى هؤلاء البحارة الإنجليز إلا إذا عد الهجوم العنيف على احتكار لا يمكن الدفاع عنه أمراً لا يمكن الدفاع عنه هو نفسه . أما موضوع القضية فهو تجارة العالم .

وفى عام ١٥٦٧ تبودلت الطلقات الأولى فى هذه المعركة الكبرى فى الميناء المكسيكى سان جوان دى ألوا San Juan de Ulloa . كان جون هوكنز وابن عمه الشاب فرنسيس دريك قد لجآ إلى هذا الميناء احتماء من عاصفة ، بعد أن قاما بتجارة وقرصنة رابحتين فى أعالى البحار الإسبانية ، عند ما ظهر فى الأفق أسطول من ثلاث عشرة سفينة حربية إسبانية تحمل إحداها الحاكم الإسبانى الجديد للمكسيك . ورغم أن هوكنز كان فى وضع يمكنه من الحيلولة دون دخول الإسبان إلى المياه إلا أنه لم يكن عنده سوى خمس سفن — لهذا آثر أن يفاوض الإسبان وبينما كان الأسطولان الصغيران يقفان جنباً إلى جنب ، وبينما كان بحارتهما يتبادلون الود على الشاطئ ، وجه الإسبان هجوماً غادراً إلى الإنجليز الذين كانوا لا يتوقعون شراً ؛ فقتل منهم الكثيرون ، وفقدوا ثلاث سفن ، ولم يتسن لهوكنز ودريك أن ينجوا بنفسيهما من المعركة إلا بعد قتال عنيف باهر . وعندما وصلت أنباء المعركة إلى إنجلترا كان لقصة غدر الإسبان وشجاعة الإنجليز أثر عميق . وعلى حد قول كامدن Camden : « استشاط الجيش والبحارة غضباً فى طول إنجلترا وعرضها ، وتحرقوا شوقاً إلى محاربة إسبانيا — ولكن الملكة لم تصخ سمعاً » .

وفى خلال الثمانى والعشرين سنة التالية سيطرت على البحار شخصية فرنسيس دريك الجبارة . ويعتقد البعض أن طرائقه فى القرصنة لم تكن هى المثلى ، وأنه كان يحسن صنعاً لو أقام فى قرطاجنة أو فى أى مكان آخر فى « البحر الإسبانى Spanish Main قاعدة لقرصنته . ولكن دريك حقق ما كان يصبو إليه . وهو إجبار إسبانيا على الدخول فى الحرب عن طريق أعمال السطو المستمرة التى كان يقوم بها فى كل مكان . ولم ينج من يده شىء : لا المدن الواقعة على « البحر الإسبانى » ، ولا الطريق الذى كانت تسلكه كنوز بيرو عبر برزخ پنما ، ولا شاطئ المحيط الهادى ، ولا جزائر البهار . وفى السنة السابقة على إقلاع الأرمادا أحرق دريك السفن الراسية

---

(١) ١٧١٤ — ١٧٩٤ . سياسى ومشرع إنجليزى ندد بسياسة إنجلترا إزاء مستعمراتها الأمريكية .

فى ميناء قادس . وقبل ذلك – عند عودته من رحلته التى طاف فيها حول العالم – أطلق عليه مواطنوه لقب « سيد لصوص العالم المجهول » ، ونزلت ملكته – التى قبضت نصيبها من الغنائم – خصيصاً إلى ميناء دتفورد لكى تنصب المكتشف العظيم فارساً ونقيباً لمهنة القراصنة .

وفى تلك الأثناء كانت الأحداث تتحرك سراعاً نحو النضال السافر الذى كان كل من فليب وإليزابيث شديد الرغبة فى تجنبه . كانت قوة إنجلترا حينئذ من الوضوح بما يكفى لإقناع أعدائها بأنه لايمكن قهرها إلا بالاستناد إلى حزب إنجليزى راغب فى الإطاحة بالملكة وإعادة العقيدة الكاثوليكية . مثل هذا الحزب كان موجوداً ؛ فقد كان من الممكن العثور على أنصار للكنيسة مبعثرين فى طول البلاد وعرضها . كانوا قلة فى الجنوب والشرق ، وكثرة فى الشمال ، وغالبية فى المناطق الكتلية من الجزائر البريطانية . وكانت قوتهم يخشى جانبها بوجه أخص فى مقاطعات إنجلترا الشمالية ، تلك المقاطعات الفقيرة المتخلفة حيث كان النبلاء الإقطاعيون لا يزالون يحتفظون بقوتهم ، وحيث تآلف القسس الإسكتلنديون الهاربون من غضب جون نوكس مع الرعاية الكاثوليكية التى كان يبثها الإنجليز النازلون فى لوفان Louvain ، لكى يستديموا جميعاً جذوة العقيدة القديمة . وقد لعب كبرياء الطبقة الأرستقراطية فى شمال إنجلترا دوره دائماً فى الشئون السياسة سواء فى الماضى أو الحاضر ، كانت البروتستانتية بالنسبة لأهالى المستنقعات الغربية – من أمثال أيرل نورثمبرلاند ولورد ديكر Dacre – بدعة كريهة فرضها على البلاد المستشارون من رجال الطبقة الوسطى الذين كان من سوء حظ البلاد أنهم استحوذوا على مسامع الملكة ؛ فرفعوا لواء الثورة فى عام ١٥٦٩ معتمدين على معونة إسپانية وإسكتلندية لم تصل أبداً ، فأتلفوا الأناجيل وكتب الصلوات فى كاتدرائية درهام ، ثم أمكن سحقهم بسهولة وبدون شفقة بعد أن فشلوا فى تلقى أية معونة جدية . وجاء سحق هذه الحركة الفجة المفككة فقدم لإليزابيث ميزة حاسمة كان من الخير لأعدائها أن يتدبروها . ولكنهم لم يعوا هذا الدرس ، فاستمرت المؤامرات ضد الملكة حتى النهاية .

وكانت مارى ملكة إسكتلندة لهؤلاء الحانقين من الكاثوليك بمثابة قاعدة مستمرة

وخطيرة يتجمعون حولها ولو قدر لقصة هذه الأميرة المنكودة الطالع أن تنتهى نهاية مفاجئة فى صيف عام ١٥٦٧ لربما كانت كالآتى : تربت مارى ، وهى ابنة جيس الخامس من مارى جيز ، فى بلاط كاترين مديتشى الداعر ، حيث زُوجت من فرنسوا ولى عهد فرنسا الذى تولى العرش بعد ذلك . ومات زوجها فى پاريس وهو لم يزل صبيًّا ، وماتت أمها مارى جيز فى ليث Leith . ولما كانت الملكة الشرعية لإسكتلندة ، فقد دعيت إلى مملكتها من أفراد الطبقة الأرستقراطية الإسكتلندية الذين كانوا يهتمون قبل كل شىء بالدفاع عن استقلال بلادهم فى وجه جارتها الجنوبية . وهناك زفت إلى إيرل دارنلى Darnley الشاب الخليع الذى كان له حق فى عرش إنجلترا عن طريق والدته . ورغم أن الزواج قد أعقب ولداً هو الذى أصبح جيمس السادس ملك إسكتلندة ، ثم جيمس الأول ملك إنجلترا ، فإنه كان مأساة تلطخت بالدماء. وقد اتخذت الملكة سكرتيرها الإيطالى رتزيو Rizzio عشيقاً لها ، وكان على جانب من الثقافة محبباً إلى النفس ، على النقيض من دارنلى الفظ ، والنبلاء البروتستانت المتزمتين الذين كانوا يسيطرون على سياسة البلاد . وقتل دارنلى غريمه فى حضرة الملكة ؛ وبعد عام قتل دارنلى — واعتقد الكثيرون أن زوجته قد تواطأت مع قاتله بوثول Bothwell الذى أسرعت بالزواج منه . وتقزز النبلاء الإسكتلنديون الذين لم يكن يعجبهم العجب من هذه الصفقة التى لطخت بلادهم بالعار ، فسجنوا مارى فى لوتشليڤن Lochleven ، وعزموا على تقديمها إلى المحاكمة على ما اقترفت يداها ؛ ولكنها عمدت إلى الهرب ، وعبرت الحدود ملطخة السمعة فى عيون معاصريها من الكاثوليك والبروتستانت على السواء ، والتجأت إلى رحمة إليزابيث .

ولو أن إليزابيث أرجعت مارى لتمثل أمام متهميها فى إسكتلندة لوفرت على إنجلترا كثيراً من المتاعب . ولكن فكرة العصيان كانت تثيرها ؛ وما كانت تكن أى عطف على العصاة ولو كان فى العصيان مصلحة لبلدها . كانت تمقت جون نوكس ، وراحت تلقى باللائمة على النبلاء الإسكتلنديين للمهانة التى ألحقوها بمليكتهم الشرعية ، ولم تستطع أن تروض نفسها على التعاون الوثيق سواء مع الهولنديين أو مع الهيجونوت . لهذا احتفظت بمارى سجينة فى إنجلترا وحاولت أن تتفاوض

وإياها ، مقترحة شروطاً للسلام لم تكن غير معقولة : كأن تتنازل مارى عن عرشها لجيمس السادس وتسمح له بتلقى تعليمه فى إنجلترا . ولكن مارى ، التى ملأ الانتقام نفسها واستحوذت عليها الأطماع ، فضلت أن تلعب دوراً أكثر أهمية من هذا . وفى ديسمبر وجدت من يشجعها على أن تأمل فى الزواج من فليب ملك إسپانيا .

لهذا أصبحت الملكة الأسيرة طيلة تسعة عشر عاماً (١٥٦٨ — ١٥٨٧) مركز الدائرة الذى التفت حوله دوامة التآمر الكاثوليكى. تتابعت المؤامرات التى كان يغذيها كل من ملك إسپانيا والبابا الذى أعلن حرمان الملكة المهرطقة إليزابيث وأحل رعاياها من واجب الولاء لها ؛ كما كان يشجعها كذلك الكاثوليك الإنجليز المنفيون فى الخارج . وتألفت جمعية پروتستانتية هدفها حماية حياة الملكة العظيمة التى كانت مهددة بين وقت وآخر ، بعد أن رفضت إليزابيث بإصرار أن تحمى نفسها بتقديم مارى للمحاكمة ، الأمر الذى أزعج رعاياها البروتستانت وأثار دهشتهم. وما لبث أن قام دليل واضح على تآمر الملكة الإسكتلندية واشتراكها فى خطة هدفها التخلص من منافستها . وحين انكشفت مؤامرة بابنجتون Babington [١] تقدم أعضاء مجلس العموم واللوردات ملتمسين بالإجماع إعدام «التنين الشرير الضخم ملكة الإسكتلنديين» وأخيراً وبعد تردد طويل مضن ، وقعت إليزابيث فى أول فبراير ١٥٨٧ على صك الحكم بالإعدام ، ذلك الحكم الذى لم يكد ثمة ما هو أوضح منه فى تحديه لكل من البابا وإسپانيا وكل أعمالهما . كانت مارى قد تخطت ظلال شبابها العاصف القاتمة ، وغدت بطلة من أبطال القصص ، وزعيمة لعقيدة ، يراها العالم الكاثوليكى قديسة وشهيدة . وقدمت إليزابيث — وقد ساورها الشك والقلق — سابقة لإعدام ملكة متوجة مسحت بالزيت المقدس .

وكانت إسپانيا فى موقف يسمح لها بقبول التحدى : فقد وقعت كارثة فى مراكش ، ومات سباستيان ملك البرتغال (١٥٨٠) وانقرضت أسرته ، فأدى هذا إلى ضم البرتغال إلى التاج الإسپانى . وهكذا انتقلت إلى يد فليب الثانى بضربة

---

(١) مؤامرة دبرت فى عام ١٥٨٦ لمقتل إليزابيث ، كان محورها أنتونى بابنجتون الذى سبقت له الخدمة فى بلاط مارى ، وكانت مارى نفسها تغذى هذه المؤامرة .

من ضربات الحظ غير المتوقعة البقاع الآتية : شاطئ الأطلنطى الممتاز ، ومناجم البرازيل ، والأملاك البرتغالية الغنية على جانبى إفريقيا ، والمحطات التجارية والقواعد العسكرية فى جزائر البهار وجزائر الآزور (وهى محطة فى منتصف الطريق فى عرض المحيط الأطلنطى) وجزائر الهند الشرقية . وقد قام كاتب برتغالى بعد ذلك بأربعين عاماً، حين تبينت طبيعة النزال بين إسپانيا وبريطانيا بشكل أوضح. فاقترح أن ينقل ملك إسپانيا عاصمته من مدريد إلى لشبونة ومن ثم يسوق أسطولا مهمته الدفاع عن الهند وأمريكا الجنوبية فى بحر المانش ؛ إذ فيه وحده يمكن حسم النزاع العالمى العظيم . ولكن أحداً لم يأخذ بهذه النصيحة قط : فلم يلق الإسپان أى ترحيب من جانب البرتغاليين. ولم يكن بأى حال مزج البلدين كل منهما بالآخر ، وانفصم هذا (الزواج) المتعب بعد ستين عاماً . ومن عجائب سخرية القدر أن حقبة الجامعة الأيبيرية قد شهدت أزهى عصور الأدب الإسپانى ، كما شهدت أيضاً الاضمحلال التدريجى لقوة إسپانيا والبرتغال . ولكن حين قام الاتحاد فى عام ١٥٨٠ ، بعث فى نفس فليب ملك إسپانيا الأمل فى تضخم قوته ، الأمر الذى نظرت إليه إنجلترا وفرنسا بعين الحذر والشك العميقين .

على أن فليب كان لا يزال مسترسلا فى تردده . ورغم أن إنجلترا كانت تعضد حركة التذمر عند البرتغاليين وثورة الهولنديين ، فإن الملك أحجم عن القيام بهجوم مباشر على جزيرة أولئك الهراطقة المخوفين ، لما يقتضيه ذلك الهجوم من تكاليف ومخاطر . وترتب على ذلك بينما فرنسا مشلولة بحرب الرجال الثلاثة المسمى كل منهم بهنرى [١] وبعد أن اعترفت مارى استيوارت بفليب رسمياً خلفاً لها على عرش إنجلترا أن سلم فليب زمام التقدير للبحارة ، والمنفيين والقسس ، ودعا رعاياه إلى التأهب لغزو إنجلترا — وبذلك فعل ما فعله دون كيشوت [٢] حين جرى وراء غاية مقدسة وإن كانت مستحيلة .

أما الأرماد الإسپانية فقد نظر إليها بروح صليبية مقدسة ، وبذلت فى إعدادها

---

(١) هنرى الثالث وهنرى نافار ضد هنرى دوق ماين Mayenne قائد «العصبة» أو حزب غلاة الكاثوليك .

(٢) هو الفارس الخرافى الذى صوره أديب إسپانيا الكبير مجويل سرڤاتيس (١٥٤٧ — ١٦١٦) . وكان خياليا يجرى وراء الفضيلة والخير ، ويحارب الشر — أو ما يعتقد أنه شر — وإن كان شبحا .

نفقات مزعجة وقد أقلعت من لشبونة فى ٣٠ مايو ١٥٨٨ يقودها الدوق دى مدينا سدونيا Medina Sedonia ، وكان مالكاً للأرض ، غبيًّا جباناً ، لم يؤهله شيء لقيادة الحملة سوى مركزه وحده . وكانت الخطة تقتضى أن يتقدم الأسطول فى بحر المانش إلى دنكرك ونيوبورت Nieuport ، ومن هناك ينقل جيش پارما إلى إنجلترا حيث تخلع إليزابيث وتنصب مكانها بنت الملك فليب . وليس ثمة ما هو أكثر إمعاناً فى الجرى وراء الخيال من هذه الخطة الواهية . والمنفيون دائماً مستشارو سوء : فلم يدرك الكاثوليك الإنجليز المقيمون فى أوربا — وكان يستمع إليهم ملك إسپانيا والبابا — ما حدث من تغيير فى مزاج الشعب الإنجليزى خلال العشرين سنة المنصرمة . فبقدر ما قويت الروح الپيوريتانية ، ضعفت الروح الكاثوليكية ، وجاء جيل تمتع بالسلام والرخاء فوطد ولاء الأمة للتاج . حقيقة لم يخل الأمر من الاضطهاد ، ولكن ذلك لم يحدث إلا بعد أن قرر البابا فى عام ١٥٧٠ خلع الملكة ، وإن يكن لا يقارن بفظائع التحريق فى حكم مارى ، ولا بمذابح الكاثوليك فى الأراضى المنخفضة وفرنسا وإسپانيا. ولم يكن يوجد فى إنجلترا حزب واحد يرحب بنزول قوات إسپانية أو يرضى بملكة إسپانيا . وحتّى على فرض نزول جيش پارما فى إنجلترا مع المعدات والإمدادات الآتية بحراً من إسپانيا ، لوجدوا أمامهم تقاومهم قوة متحدة لشعب مقدام التهبت حماسته .ولكن الخطة بأكملها انهارت على صخرة عجز الأسطول الإسپانى . فإن الغلايين الإسپانية الواسعة المزدحمة بالجند التى كان يعرقل حركتها أسلوب القتال القديم بين السفن الشراعية ذات المجاذيف ، وهو الأسلوب الذى عفّى عليه الزمن ، تفوقت عليها فى الحركة والسرعة سفن الأعداء . وكانت أرشق منها وأسرع . لهذا هزمت الأرماد فى معركة بحرية كبرى فى جراڤلينز Gravelines ثم حطمتها فى النهاية العواصف الشديدة التى هبت على بحر الشمال . والمحيط الأطلنطى . وبينما كان أسطول هولندى يحوم حول دنكرك ، مما اضطر پارما إلى البقاء على الساحل ، راح دريك وهوكنز وفروبشر يحطمون الغلايين الإسپانية ويشتتونها .

ولم تكن الأرمادا الإسپانية الفصل الأخير فى حرب طويلة استمرت بعد وفاة فليب الثانى وإليزابيث ولم تنته إلا فى عام ١٦٠٤ ، بل كانت الفصل الأول منها.

وتميز استمرار القتال من جانب إسپانيا بتحسن عظيم فى أساليب القتال فى البحر لولاه لتعذر على هذه البلاد أن تصون مواصلاتها الأساسية مع العالم الجديد ، وهو ما تم لها بالفعل ؛ كما تميز من جانب إنجلترا مجموعة من الأعمال الجريئة كان أبقاها نهب قادس فى عام ١٥٩٧ . وقد تابع كل من الفريقين النضال على مدى واسع : فاتصل الإنجليز ببقايا المسلمين فى بلنسية وأنصار دون أنطونيو المطالب بعرش البرتغال ؛ بينما تحالفت إسپانيا مع اليسوعيين الإنجليز والثوار الأيرلنديين ، كما أنزلت قواتها فى أيرلندة للتعاون مع أودونل O'Donnell وتيرون Tyrone . وكان إنشاء مزارع مونستر فى عهد إليزابيث ، بثمن باهظ من دماء الأيرلنديين ، نتيجة عارضة مؤلمة لهذه المرحلة من النضال بين شيعتى البروتستانت والكاثوليك فى أوربا .

وكان المصير الذى انتهت إليه الأرمادا الإسپانية أول إعلان للعالم بأن الإمبراطورية الإسپانية ليست فوق مستوى الهزيمة. كان من المعروف جيداً أن استعدادات الغزو قد تمت على مدى أرهق موارد البلاد إلى أقصى حد ؛ وحظى المشروع بتعضيد البابا وبركات رجال الدين وصلوات الشعب . ولكن قدراً ما — شق على الإسپان أن يوائموا بينه وبين كبريائهم الدينى — قد جعل الأرمادا هباء منثوراً على يد بحارة الشمال الأبطال وعواصف السموات العاتية .

حقاً إن الإسپان لم يكونوا على استعداد للاعتراف بالهزيمة ، وإنهم ما فتئوا يواصلون النضال فى فرنسا وإيرلندة والأراضى المنخفضة وفى أعالى البحار . ولكن شبح الخوف من طغيان الإسپان قد تبدد من سماء أوربا . وأظهرت انتصارات هنرى الرابع أن إسپانيا لن تستطيع أن تجعل لها موطئاً فى فرنسا ، وبددت حركة كنجسيل Kingsale آمالها فى أيرلندة ؛ وفى عام ١٦٠٩ وصل بها الأمر إلى حد الاعتراف باستقلال الهولنديين . وعقدت الدول المعادية لإسپانيا الصلح كل منها فى الوقت الذى رأته أكثر ملاءمة لها : فتخلى الفرنسيون عن الإنجليز ، كما تخلى الإنجليز عن الهولنديين . وحين عقد الصلح مع إنجلترا فى عهد جيمس الأول فى عام ١٦٠٤ اشتمل على تنازلات كرهها الرجال القدماء من عصر إليزابيث : فقد تم الاتفاق على أن يكون بإمكان إسپانيا منع دخول الإنجليز إلى جزائر الهند

ومحاكمتهم أمام محاكم التفتيش . ولكن الواقع أن موجة الهجوم الإسپانى قد أوقفت وأكملت الأرمادا عملية تحويل إنجلترا إلى بلاد پروتستانتية ، وهى العملية التى بدأتها اضطهادات عصر مارى .

وإن سلسلة طويلة من الهزائم تنزل بشعب متدين من شأنها إما أن تزعزع عقائده أو تثبتها . وعندما كان القتال العنيف فى المانش على أشده ، صاح البحارة الإسپان قائلين : « لقد تخلى الله عنا » ؛ ثم اقتنع الشعب بعد ذلك بأن العقاب قد حل به لأنه هجر الله . عزا رجال الدين الخسائر التى حلت بإسپانيا فى البحر وعجزها فى أيرلندة وفشل خطتها لتحويل إنجلترا عن عقيدتها وفى إخضاع الهولنديين — عزوا كل ذلك إلى وجود لون من ألوان الهرطقة الخبيثة ، وبلغ الأمر من السوء أنه سمح به فى إسپانيا — ومن ثم كان من رأيهم أن الخطوة الأولى لإقالة البلاد من عثرتها ليست خطة لإصلاح مالية البلاد أو أسطولها ، بل استرضاء الإله الغاضب الغيور ؛ فالمسلمون إما أن يتقدموا إلى الاعتراف أو يتركوا للبلاد . واتبعت النصيحة . كان المسلمون موضع كراهية لأسباب عدة : فهم سمر البشرة ، وهم مهرة ومجدّون ، ويراهم الإسپان ملحدين فى قرارة أنفسهم ، يعطفون على القراصنة الإفريقيين الذين كانوا يغيرون على الشاطئ الإسپانى . لهذا لم ترحب الأمة الإسپانية بقرار أصدره فليب الثالث قدر ترحيبها بطرده لهذه الفئة الجديدة بالثناء التى بلغ تعدادها حوالى نصف المليون من أمهر زراع البلاد وصناعها — مما أدى إلى إضعاف قدرة إسپانيا على تحمل أعباء إمبراطوريتها المترامية الأطراف .

وحتى نهاية القرن السادس عشر لم تكن إنجلترا قد بذلت جهداً جدياً للاستعمار فى العالم الجديد . فالبحارة والسادة المغامرون الذين سخروا بملك إسپانيا لم يكونوا من تلك الطينة التى تنبت المستعمرين : وبدلا من أن يواجهوا ذلك العمل المجهد المطرد لإقامة جاليات على شاطئ أمريكا الشمالية ، استسلم رحالة العصر الإليزابيثى لمثيرات الكشف والنهب والحرب . ولكن فكرة الاستعمار كانت تلوح فى الأفق ، وقد اجتذبت رجالا مثل رتشارد إيدن Richard Eden وسير همفرى جلبرت Humphrey Gilbert وسير ولتر رالى Walter Raleigh ورتشارد هاكليوت Richard Hakluyt (١٥٥٣— ١٦١٦) المبشر والطالب لبعض الوقت فى كرايست تشرتش Christ Church فى

أكسفورد الذى كان كتابه « أهم الرحلات البحرية وأسفار الشعب الإنجليزى وتجاراته واكتشافاته »[١] بمثابة الملحمة النثرية الكبرى التى تصور عصر المغامرين هذا ؛ وأدت فكرة الاستعمار إلى تأسيس مستعمرة على شاطئ أمريكا الشمالية أطلق عليها اسم « ڤرجينيا » تيمناً بالملكة « العذراء » فى عام ١٥٨٤ ، ولكنها تركت بعد ذلك لتذوى بسبب افتقارها إلى المعونة الكافية ، ثم أعيد تأسيسها من جديد فى عهد خلف إليزابيث . أما كيف تعمر المستعمرات بالسكان أو كيف تحكم أو يربط ما بينها وبين الوطن الأم — فكلها مسائل لم توضع على بساط البحث فى ذلك الجو من الحرارة والانفعال الذى أثارته الحرب مع الإسبان . ولكن من الواضح أن نقل نظام الحكم فى الدولة المستعمرة إلى العالم الجديد وميزاتها وحضارتها كان غريباً على ذلك العصر ؛ بل إن جلبرت وهاكليوت قد نظرا إلى المستعمرة كوسيلة فى جوهرها لتقدم التجارة وتخليص المجتمع من عناصره التى لا خير فيها . ثم إن البحارة المحاربين فى عصر إليزابيث لم تكن لديهم أية فكرة كيف يعالجون أمورهم مع الهنود الطيبين ، أهالى قارة أمريكا الشمالية. أما سير فليب سدنى Philip Sidney — الذى كان من الممكن أن يلمع نجمه فى العالمين كمثل أعلى للحاكم فى المستعمرات ، بوضعه مستوى يتبعه الآخرون — فقد أوقفته الملكة إليزابيث عن تولى الحكم فى مستعمرة ڤرجينيا . ولم يبدأ الإنجليز فى تعلم دروس اللباقة والرأفة ، تلك الدروس التى جعلت حكمهم للشعوب الخاضعة لهم مما يرضى عنه العالم[٢] — لم يبدءوا ذلك إلا بخطوات بطيئة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

---

(١) Principal Navigation, Voyages, Traffiques and Discoveries of the English Nation

(٢) الاستعمار الإنجليزى — كأى استعمار آخر — يمتلىء تاريخه فى شتى البلدان التى حل بها بألوان من الضغط والاستغلال والقسوة . ولو كان قد ظهر بالصفة التى يخلعها عليه المؤلف لما ووجه بهذا التحدى العاصف فى كل مكان .

كتب يمكن الرجوع إليها

— Histories of England : Froude, (1856-70). Pollard, (1912). Fletcher, (1905-23). Trevelyan, (1926)

— J.E. Neale, Queen Elizabeth. (1934)

— G.W. Prothero, Select Statutes and Other Constitutional Documents. (1898)

— M. Creighton, The Life of Elizabeth. (1896)

— M.A.S. Hume, The Great Lord Burghley. (1898)

— P. Hume Brown, John Knox. (1895)

— G. Lytton Strachey, Elizabeth and Essex. (1928)

— Conyers Read, Mr. Secretary Walsingham. (1925)

— A Lang, The Mystery of Mary Stuart. (1904)

— J. Skelton, The Scotland of Mary Stuart. (1894)

— R. Simpson, Edmund Campion : A Biography. (1896)

— J.S. Corbett, Drake and the Tudor Navy. 2 vols. (1898)

— J.A. Froude, English Seamen in the Sixteenth Century. (1895)

— M.A.S. Hume, The Year after the Armada. (1896)

— William Harrison, Description of England. Ed. F.J. Furnivall. (1877)

— Daniel Neal, History of the Puritans. 5 vols. (1822)

— W.B. Rye, England as seen by Foreigners in the Days of Elizabeth and James I. (1865)

— W.A. Raleigh, Shakespeare. (1907)

— G. Saintsbury, History of Elizabethan Literature. (1887)

— عن النشرات الرئيسية التي وضعها كبار من ألفوا في عصر إليزابيث ، انظر :

Cambridge Modern History, Vol. 3, Chap. 11.



الفصل السابع عشر

حرب الثلاثين عاماً

المأساة الرئيسية فى تاريخ ألمانيا – فرديناند الثانى – الطابع العام للحرب – دور السويد – الثورة البروتستنانتية فى بوهيميا – حادثة الإلقاء من النوافذ فى براج – البلسجراف وتاج بوهيميا – مدى مسئولية جيمس ملك إنجلترا – معركة التل الأبيض – حركة المقاومة الكاثوليكية فى بوهيميا – عقاب البلسجراف – تدخل الدنمرك – ولنشتين – تهديد الكاثوليك فى الشمال – جستاف أدولف يعيد التوازن – موته فى لوتزن – أكسنستييرنا Oxenstierna يعقد حلف هيلبرن Heilbronn – مقتل ولنشتين فى ١٦٣٤ ، وصلح براج ١٦٣٥ – انتهاء الدوافع الدينية من الحرب – انتصار ريشيليو – هزائم إسبانيا – صلح وستفاليا .

ما فتئت دنيا العبقرية الأوربية المزدهرة يتلألأ سناها بأيدى أعلامها شكسبير وسرڤانتيس حتى منيت بمحنة عاجلة هوت برقعة عظيمة من أوربا الوسطى إلى منازل البربرية والبؤس . هنالك نشبت حرب الثلاثين عاماً بسبب الفتنة الدينية فى بوهيميا ، وقد كان من الممكن تحديد ميادينها ولكن أتيح لها أن تنتشر مما أدى إلى تدخل معظم الدول الأوربية فى الصراع بدرجات مختلفة . وعلى الرغم من أن الدنمرك والسويد وفرنسا وإنجلترا وساڤوى والأراضى المنخفضة قد لعبت دوراً فى المأساة، فقد اتخذت الحرب الإمبراطورية الألمانية مسرحها الأصيل على الدوام ، كما كان البوهيميون الألمان أوفر هذه الشعوب حظاً من الخسائر . ومن قبل كانت الطبيعة قد فرضت على الألمان جزاءصارماً . فقد كانوا بسبب موقعهم الجغرافى بعيدين عن المشروعات الاستعمارية التى أغنت حياة الأمم المطلة على المحيط خلال القرن السابع عشر – ثم أضيف إلى ذلك الوضع الجغرافى المعوّق ما حل بهم عندئذ من ضيق اجتماعى نتيجة لدمار حرب قد شُنت بوحشية قلّ أن عرف لها التاريخ مثيلا . وفى الحق أن وصف حالة البؤس التى اضطر العاجزون من فلاحى ألمانيا أن تحملها فى تلك الأيام العصيبة أمر لا تشوبه مبالغة . فكان النهب ، وكانت المجاعة ، بل أكلت لحوم البشر . وفنيت قرى بأكملها ، كما وقع ما ينتظر دائماً فى مثل هذه المحن القاسية المفجعة ، فقد انهارت الروادع الأخلاقية تاركة المجال لموجات عارمة من الفسوق.

وفى بداية القرن السادس عشر كانت ألمانيا تقتعد مكان الصدارة فى الحضارة الأوربية ،حتى إذا انتهت حرب الثلاثين عاماً غدت البلاد وقد أقفرت من كل أدب وفن ، وتبلبل لسانها ، كما انحدرت أساليبها الاجتماعية وعاداتها إلى حضيض من البربرية المسكوفية .

وكان المحرك الأول للحرب يسوعياً تقلد تاجاً ، وهو فرديناند صاحب استيريا الذى أصبح فيما بعد الإمبراطور فرديناند الثانى الذى ينبغى أن يُعد من عظماء الرجال العاملين فى ذلك القرن ، وذلك على ضوء ما أحدثه من تغييرات بوازع من نفسه . كان أول طالب يتلقى علومه فى كلية يسوعية يصل إلى العرش الإمبراطورى . وكانت تعاليم اليسوعيين تتحكم فى ذهنه المحدود المفعم بالمرارة ، وتسيطر عليه عاطفة واحدة وغرض واحد : المقت الشديد للبروتستانت والتصميم على اقتلاعهم من أملاكه . فأنزل بهم سلسلة من الاضطهادات فى استيريا عام ١٥٩٨ ، وواصلها فى بوهيميا ثم تابعها فى سائر أنحاء أملاكه النمساوية . ونجح فى تحقيق هدفه وهو تصفية « المارقين » . ووضع الحياة الدينية والفكرية فى بلاده تحت حكم جماعة اليسوعيين الحديدى . ولكن الثمن كان باهظاً . وهو التحطيم العنيف الذى أصاب بناء المجتمع البوهيمى بأكمله ؛ وما تلا ذلك عرضاً من اندلاع حرب الثلاثين عاماً . ولن تجد فى العالم رجالا كثيرين — على شاكلة فرديناند الثانى — ذوى أمانة وتقوى وعزم قد ساقوا العالم فى مثل هذا التيار الجارف من البؤس وفرضوا على عقول الناس مثل هذا العهد الطويل من الإرهاق الدينى .

ومع ذلك فإن الأهداف التى تسببت فى هذا النضال الطويل المهلك لم تكن تافهة . فقد كان يتوقف عليه مصير ألمانيا وانتزاعها من حركة الإصلاح الكاثوليكى فيتوقف التقدم الذى أحرزته تعاليم اليسوعيين ، وتخلص للكنيستين اللوثرية والكلفنية مساحات واسعة من الأرض فى وسط أوربا . ولكن الدين على الرغم من أنه كان أشد العوامل أثراً فى النزاع وأكثرها بعثاً للمرارة فى نفوس الناس ، لم يكن عندئذ ، وربما لم يكن على الإطلاق ، الدافع الوحيد فى أذهان رجال السياسة .

وقد نفت حرب الثلاثين عاماً بصورة قاطعة للغاية فكرة إمكان توحيد ألمانيا

مرة ثانية فى أى وقت فى ظل نظام إمبراطورى قوى . كما وضحت كذلك أن أولئك الأمراء الألمان الذين كانوا يهتمون اهتماماً بالغاً بالكنيسة الرومانية كانوا أكثر اهتماماً بمراكزهم الخاصة فى ولاياتهم ؛ لذلك كانوا على استعداد أن يحتفظوا بحيادهم بل يتحدوا مع الفرنسيين أكثر من العمل على استعادة الإمبراطورية الكاثوليكية إلى مركز السلطان الفعلى فى ألمانيا . وهكذا ثبتت الحرب الانقسامات الدينية فى ألمانيا ، فى الوقت الذى أكدت الفوضى السياسية فيها ، ومع ذلك فقد كان ثمة قضية أخرى ، لعبت دوراً كبيراً فى دوافع ذلك العهد وأثرت كثيراً فى التسوية النهائية فى صلح وستفاليا (١٦٤٨) : لمن تؤول السيطرة فى بحر البلطيق ؟ لقد انقضت أيام مجد حلف الهنسا Hanseatic League إذ أن لشبونة وأنتورب وأمستردام ولندن قد فاقت كثيراً كلا من ليوبك Lübech وروستوك Rostock ، « وسترالسند » Stralsund ، ودنتزج بعد أن افتتحت الطرق البحرية الجديدة . فلم تعد جمهوريات الحلف الألمانية المنافس الخطير للسيطرة على البلطيق ، وإنما أصبحت الممالك المتنافسة هى الدنمرك والسويد وپولندا . وكانت المملكة الأولى عزيزة الجانب بسبب سيطرتها على مضيق « سوند » Sound ، واحتلالها للولايات السويدية الجنوبية الثلاث ، وكذلك كانت السويد لما كان يتمتع به ملوكها الممتازون من نشاط وفهم ؛ بينما راحت پولندا وكان يحكمها أمير كاثوليكى من أسرة فازا Vasa ، وكأنها تحلم بأن يأتى يوم تخضع فيه السويد للنير الأجنبى ممثلا فى حكم اليسوعيين والصقالبة .

وعلى ذلك فمن المظاهر المميزة لحرب الثلاثين عاماً أنه بينما كانت السويد تحارب فى سبيل قضية البروتستانت ، وتساهم مساهمة حاسمة فى انتصارها النهائى ، كانت كذلك تهتم اهتماماً جديداً بالحصول على السيطرة السياسية والتجارية على الساحل الجنوبى للبلطيق ، وعلى حرية استخدام السوند Sound فى تجارتها ، مما جعلها تستخدم الصراع الدينى فى ألمانيا لتحقيق أهدافها ؛ وتصبح فى نهاية الحرب سيدة على البلطيق ، كما نالت بفضل انتصاراتها فى ألمانيا مقعداً فى مجلس الدايت ، وأصبحت ذات أهمية عظمى فى السيطرة على شئونه . ولم يكن دور روسيا قد حان بعد . فقد انتزعت منها السويد ولايات البلطيق . أما أسرة الهوهنزلرن أصحاب براندنبرج الذين سينالون الغنيمة فى النهاية فقد كانت پوميرانيا تفصلهم عن البحر ، كما كانوا

يحكمون بروسياالشرقية بوصفها إقطاعاً بولندياً . أما السويد فكان ذلك اليوم يومها. وللمرة الأولى منذ هجرات القوط خطت السويد ، البلد الفقير القاحل الذى يبلغ تعداد سكانه مليوناً ونصف مليون نحو مسرح السياسة العالمية وأثرت فى تشكيل التاريخ ، حين أتيح لها ملك عظيم ينتمى إلى أسرة لا مثيل لها فى المواهب وعلو الهمة ، تتمتع بعواطف الولاء العميقة الجذور فى نفوس الفلاحين ، فتقدم نصيراً لقضية البروتستنتية ، وجعل من السويد دولة من الدرجة الأولى ، وبفضل سلسلة من الانتصارات الباهرة — قد ساهمت فرنسا فى تمويلها بنصيب وافر — حوّل بحر البلطيق إلى بحيرة سويدية .

* * *

وفى تاريخ الشعوب لحظات تتضافر فيها مجموعة متباينة من الأسباب فتستثير أفكار الناس . وقد كانت مناسبة انقضاء مائة عام على بدء حركة الإصلاح الدينى (١٦١٧) لحظة من هذه اللحظات . ومنذ مضى وقت طويل وصراع العقائد فى أوربا الوسطى يهدد بحدوث انفجار عام . وقد وقعت أحداث خطيرة بل حدثت انفجارات صغيرة أشعلت الحرب فعلاً ولكن أمكن لحسن الحظ حصرها فى مكمنها كما حدث فى كولونيا عام ١٥٨٠ ، كما بلغت حالة القلق درجة من الخطورة بررت تكوين اتحاد پروتستانتى دفاعى مسلح (١٦٠٨) قابله حلف كاثوليكى متحالف مع إسپانيا . ولم يمنع نشوب حرب عامة فى عام ١٦١٠ حول وراثة دوقى كليف جوليش Cleves-Gulich سوى مقتل هنرى الرابع ملك فرنسا، حتى إذا كان عام ١٦١٨ حين مضى قرن على قيام حركة الإصلاح الدينى ، وكانت حرب الدعاية قد بلغت ذروتها وغدا الجو مشحوناً بمهاترات رجال الدين المتنابذين، وصلت الأنباء بأن فرديناند مضطهد البروتستانت فى استيريا قد أصبح ملكاً على المجر وبوهيميا وراح يرسم الطريق ليخلف ابن عمه الأكبر متياس Mathias على عرش الإمبراطورية .

وعلى الرغم من أن پروتستانت بوهيميا كانوا من الكثرة والنفوذ بحيث استخلصوا من الإمبراطور رودلف عهد التسامح (الرسالة الملكية فى يولية ١٦٠٩) ، فقد كانوا لا يسيطرون على تقاليد الحكم . فقدّر لهم أن يشاهدوا « عهدهم » العزيز

عليهم وقد قامت على تنفيذه — بما يتعارض مع مصالحهم — هيئة من الأوصياء أو وزراء الملك عينهم الإمبراطور « متياس » ليديروا حكومة البلاد . وكان عهد التسامح قد منح النبلاء والمدن الملكية فى بوهيميا وسيليزيا ولوساتيا Lusatia حق بناء دور للعبادة ، وممارسة العقيدة اللوثرية على طريقة أهالى بوهيميا . ولكن ذلك الحق — على ما قيل — أنكر عليهم فى موضوعين ، فى بروناو Braunau وفى كلستر جراب Klostergrab بتأثير تعصب رجال الدين الكاثوليك وتؤيدهم السلطة الإمبراطورية . فهُدمت الكنيسة البروتستانتية فى كلوسترجراب ، وفى بروناو سُجن البروتستانت الذين ثاروا على الاضطهاد الكاثوليكى . وإذا كانت هذه الأشياء قد وقعت فى عهد ماتياس ، فماذا يبقى للبروتستانت من أمل فى أيام أصفى فى عهد فرديناند ؟ لقد اشتدت عزائم جميع اليسوعيين فى البلاد عندما أُعلن أن مضطهد البروتستانت فى استيريا قد غدا ملكاً وأنه سيصبح عما قريب إمبراطوراً . وتحت زعامة أحد النبلاء الكلفنيين ويُدعى « هنرى متياس أف ثورن Henry Matthias of Thorn قرر البروتستانت فى بوهيميا القيام بالثورة .

وقد أجاب نبلاء بوهيميا على المرسوم الملكى الذى يحرم البروتستانت من عقد المجالس بعمل ذاعت شهرته : وهو حادث الإلقاء من النوافذ فى براج « Defenestration of Prague » الذى أشعل لهيب الحرب الطويلة . وكان فى الحكومة وزيران كاثوليكيان يُدعيان مارتنيتز Martinitz وسلواتا Slawata وقد حملا خزى السياسة الملكية ، وكانا بصفة خاصة على صلة وثيقة بالحكومة الأخيرة البغيضة . وفى خلال مقابلة عاصفة جرت فى هاروشين Hardshin فى القصر المحصن الكبير القائم الذى يشرف على المدينة ألقى الشعب من إحدى نوافذ القصر بهذين الوزيرين ومعهما سكرتير خاص إلى خندق الحصن ؛ ولقد كان عملا جاء نتيجة لحدة متعمدة قصد به توجيه إنذار إلى كل من يهمه الأمر : بأن صبر البروتستانت فى بوهيميا قد نفد ، وأن الكلفنيين قد أصبحوا أخيراً على استعداد لتصويب ضرباتهم .

ولاحت عندئذ فرصة عظيمة لمنتخب سكسونيا اللوثرى وللاتحاد البروتستانتى : فلو أنهم أعلنوا بجلاء باسم هذه الكتلة من الأمراء الألمان التى اكتسبت نفوذاً أنه يجب احترام عهد التسامح ، وأقنعوا هيئة المنتخبين بأن تُصرّ على ذلك كشرط

سابق لانتخاب فرديناند إمبراطوراً إذن لأصبح فى الإمكان تهدئة الحال فى بوهيميا ، ومنع وقوع الحرب . ولكن الاتحاد البروتستانتى كان يعوزه الإقدام وبعد النظر . فلم يقاوم الثورة ، كما أنه لم يمنحها المساعدة الفعالة ، واعتلى فرديناند عرش الإمبراطورية غير مقيد بأى شرط (فى عام ١٦١٩) .

لم يكن للبروتستانتية فى بوهيميا قط كيان قوى متحد . فكان لزاماً عليها أن تبحث فى الحلفاء وإلا فنيت . فوجهت أنظارها شرقاً ناحية الأتراك وبروتستانت المجر ، والتمست المساعدة المريبة لدى أمير كلڤنى بربرى غريب الأطوار من ترنسلڤانيا يدعى بثلين جابور Bethlen Gabor ؛ كما اتجهت جنوباً نحو البروتستانت فى النمسا ، أما غرباً فاتجهوا ، نظراً لجمود سكسونيا وضعفها ، نحو ذلك الحصن المنيع للكلڤنية : وهو إقليم البلاتين . وبعد أن أعلن البوهيميون خلع فرديناند قدموا التاج لفردريك الخامس ليكون ملكاً عليهم وهو منتخب البلاتين ، أو البلسجراف كما كان يعرف فى إنجلترا .

وقد قدر لهذا البلسجراف أن يصبح فى نظر البيورتيان الإنجليز المسيطرين فى ذلك الوقت بكل قضية البروتستانت فى القارة الأوربية — كانت أمه بنت وليم الصامت ، وزوجته إليزابث الجميلة ابنة جيمس الأول ملك إنجلترا فى ذلك الوقت . وقد كان جميع البروتستانت الإنجليز من أصحاب النخوة على استعداد لامتشاق الحسام فى سبيل الأميرة الإنجليزية وقد بدا زوجها الألمانى الشاب الزعيم المختار لقيادة الثورة ضد النمسا وإسبانيا — وقد راجت فى لندن فكرة وجوب إرسال بعض الإنجليز للمساعدة فى الدفاع عن البلاتين فى الوقت الذى يتجه فيه البلسجراف لنجدة بوهيميا .

وكان جيمس الأول لا يوافق على هذه الحماسة الطبيعية العنيدة المشهورة ، وإن كانت خالية من الحكمة والتعقل ؛ وقد بدا هذا الملك من بعض الوجوه أكثر استنارة من شعبه . كان يؤمن باتحاد قام بين إنجلترا وإسكتلندة ويرى أنه قد آن الأوان لأوربا بعد هذا النضال الدينى الطويل الدامى أن تصطنع شيئاً من السلام والتسامح ، ولذلك عقد صلحاً مع إسبانيا عام ١٦٠٤ لم يرض عنه الناس ، كما أخذ يتفاوض لعقد زواج — كان أشد إثارة للسخط — بين ابنه وأميرة إسبانية ، وقد كان

متأثراً بسفير مضلل محنك ، وإذا به يفاجأ بالعرض البوهيمى وهو يعلم علم اليقين بشعور رعاياه .

وإن سياسيًّا أريباً بعيد النظر كان جديراً به أن يستخدم كل جهوده لتحويل البلسجراف عن الشروع فى محاولة يائسة من شأنها أن تقحم فى الحرب أوربا من الكرپات إلى الراين . ولكن جيمس امتنع عن استخدام نفوذه على زوج ابنته ، ذلك النفوذ الذى كان ولا شك يملكه عليه . وعلى ذلك فهو يتحمل نصيباً ثقيلا من المسئولية عن الشرور التى نجمت عن ذلك .

أما النتائج فكانت كما يلى ، فإن البلسجراف الذى لم يكن بطلا وإنما كان شابًّا خجولا لا تجارب له خضع لإلحاح الكلفنيين المتسرعين — ودون أن يحسب للعواقب حساباً قبل أن يتوج ملكاً على بوهيميا . ولكن معركة واحدة حاسمة على التل الأبيض White Hill . على بعد بضعة أميال خارج پراج (نوفمبر ١٦٢٠) كانت كافية لتقرير مصيره . ولو كان له حظ من شجاعة لربما حاول أن يجمع شتات الهاربين ، ولكن الكلفنى الشاب اكتفى بالفرار مع زوجه الجميلة تاركاً پروتستانت بوهيميا تحت رحمة فرديناند . ولم ير هذا العاهل الذى كان يؤيده وقتئذ عصبة الكاثوليك ولوثريو سكسونيا ما يدعوه إلى أن يترفق بثوار تآمروا مع الأتراك ، وهددوا ڤينيا ووضعوا على عرشه هرطقيًّا أتوا به من أقصى ألمانيا . فصمم على استئصال الديانة البروتستانتية من بوهيميا ، وقد صادف هذا التصميم نجاحاً لم يشاهد له نظير فى تاريخ الاضطهاد إلا فى أحوال نادرة . ولم تلبث البلاد أن خضعت للحكم النمساوى عن طريق المصادرات الواسعة النطاق والقمع الذى لا يرحم . وفرض الألمان سلطانهم على التشيكيين بطريقة غير محتملة ، كذلك الذى فرضه الإنجليز المستوطنون فى إيرلندا ، وقد بقى قائماً لا يكاد يتزحزح حتى القرن التاسع عشر . فحكم الموظفون الألمانيون فى « هاردشين » ، وسيطر رجال الدين اليسوعيون على التربية من Clementinum [1] . وفى أعقاب النبلاء الألمان والمغامرين والموظفين والقسس اليسوعيين والرهبان والكابوسيين أتى الفقهاء الألمان يبشرون بالمبادئ الأتوقراطية للقانون الرومانى . وتحت وطأة تلك المبادئ الصارمة بات الفلاحون البوهيميون تحت مواطئ

(١) Clementinum دير أنشأه الرهبان الدومينيكان وأعطاه فرديناند الأول لليسوعيين فى ١٥٥٦ .

الأقدام وأصبحوا أقناناً . وهكذا كانت النتيجة الأولى لمغامرة البلسجراف إحداث حالة من الاسترقاق فى أوربا .

أما النتيجة الثانية فكانت أن أصدر الإمبراطور أمراً باعتبار البلسجراف خارجاً على القانون وطرده من حظيرة الإمبراطورية ؛ وبمقتضى السلطة التى يملكها نقل البلاتين مقاطعته ومنتخبيه إلى مكسمليان Maximilian صاحب بڤاريا ورئيس الحلف الكاثوليكى وقائد الجيش الذى انتصر فى موقعة التل الأبيض . وكان حتما أن يتبع هذا الأمر انتقال ميدان الصراع من بوهيميا إلى الراين ، ويستأنف بذلك الصراع كما كان على أشده . وكان إقليم البلاتين معقل الكلڤنية الرئيسى فى غرب ألمانيا — فمن إقليم البلاتين خرجت الجيوش مؤيدة ثورة الهيجونوت فى فرنسا ، وجهود الهولنديين لخلع النير الإسپانى عنهم . وعلى الرغم من أن البلسجراف لم يكن أهلا لتقدير إخوانه فى العقيدة ، فإنهم لم يكونوا على استعداد لرؤيته وقد طرد من ولايته ليتولاها أمير كاثوليكى ، أو أن ينقل منصبه الانتخابى بصفة دائمة إلى الفرع الأصغر من أسرة « وتلسباخ » Wittelsbach . ولمـــا كان دايت راتشبون Ratisbon يشاركهم شعورهم إزاء اللقب الانتخابى فقد استخلص من الإمبراطور ، عن طريق التراضى والتوفيق ، أمراً بأن لا يتمتع مكسلميان باللقب الانتخابى إلا لمدى الحياة فقط ، ولكن الممتلكات كان لها شأن آخر . فإن هذه الأملاك قد عزيت وأعيدت قسراً إلى حظيرة الكاثوليكية : إقليم البلاتين الأعلى شمال (راتشبون) على يد مكسمليان ، وإقليم البلاتين الأدنى على يد « تللى » Tilly القائد الكفء لجيش الحلف وأصله من الوالون — وقد قبل الدايت بقاء هذه الأقاليم خاضعة للحكم الكاثوليكى . وهكذا بلغ مدى انتصار الكاثوليك فانتزعت بنجاح من يد البروتستانت بوهيميا أولا ثم إمارة البلاتين الانتخابية .

وكان حتما على الكلڤنيين إذا أرادوا أن يستردوا هذه الأقاليم الحيوية أن يبحثوا عن حلفاء بسبب نتيجة ثالثة لمغامرة البلسجراف وهى انحياز سكسونيا واللوثريين إلى جانب الإمبراطور ، كما أدت فعلا إلى حل الاتحاد البروتستانتى . وإذا كان اللوثريون السكسونيون قد انضموا إلى كاثوليك بوهيميا للقتال فى حرب فرديناند فى سبيل القضية الكاثوليكية فى بوهيميا فإن فى ذلك لإيضاحاً جلياً لذلك النفور المستحكم

بين معتنقى اللوثرية والكلفنية ذلك النفور الذى ساد منذ البداية وكان أكثر من مرة شؤماً على التوجيه المحكم لقضية البروتستانت . ولكنه يدل كذلك على حقيقة سياسية أخرى هامة وهى إغراق منتخب سكسونيا فى رجعيته ونفوره من تشجيع البدع الصارخة ، ورغبته فى العمل مع الإمبراطور طالما كان ذلك ممكناً .

وعندما اشتدت المحنة بالبروتستانت المقاتلين فى ألمانيا طلبوا المعونة من كريستيان Christian ملك الدنمرك فقدمها لهم ولم يدفع هذا الملك اللوثرى ليتدخل فى الصراع الألمانى اهتمام بالغ بالعقيدة البروتستانتية بقدر ما دفعته شهوة جارفة للحصول على مغانم من الأراضى الكاثوليكية . وكان بين هذه الأغراض الحصول لأبنائه على حصة محترمة من إيرادات بعض الأسقفيات فى شمال ألمانيا . ولما لم تكن الرغبة فى أملاك الكنيسة أمراً مقصوراً على الدنمرك وإنما شارك فيها على نطاق واسع الأمراء البروتستانت فى سكسونيا الدنيا ، فإنه لم يكن من المتعذر مع شىء من التشجيع من الملكية الإنجليزية أن يقوم بين الطامعين لون من التحالف وأن يجمع جيش وتوضع خطة للمعركة .

وبينما كان يدبر كل هذا فى الشمال ، طرأ تغيير هام على التوجيه الحربى للقوات الكاثوليكية . فإن الانتصارات المبكرة لحركة الإصلاح الكاثوليكى فى بوهيميا والپلاتين لم تحرزها القوات الإمبراطورية تحت قيادة فرديناند ، وإنما أحرزتها الفرق الألمانية تحت قيادة مكسمليان صاحب بڤاريا . على أن اعتماد الإمبراطور بهذه الصورة على جار يحميه — وقد يغدو منافساً له — وكان أمراً لن يطيقه الإمبراطور . فتطلعت السياسة الإمبراطورية إلى جيش إمبراطورى يخضع لقيادة إمبراطورية . ومن هذه الضرورة ظهرت شخصية غامضة وقوية هى شخصية « ألبرت وينسلاس ڤون ولدشتين Albert Wencelas Von Waldstein أمير فريدلاند Friedland الذى يعرف غالباً باسم ولنشتين Wallenstein وكان الرجل من نبلاء بوهيميا نشأ وترعرع يوتراكيا Utraquist[1] . وقد برزت مواهبه فى الحروب ضد الأتراك . أما فى الناحية الدينية فقد كان حظه منها باستثناء علم الفلك ضئيلا أو لا يساوى شيئاً . أما شهواته العنيفة

---

(١) أطلقت هذه التسمية على أتباع هس فى بوهيميا ، الذين سمح لهم باستخدام الكأس فى تأدية الطقوس الدينية Communion Service .

فقد كان له منها حظ يكفى لتشييد إمبراطورية أو إتلافها . كان يملك ثروة هائلة لأنه قد ربح من الحروب ، ومن المضاربة فى الأراضى ، ومن كل شيء لمسه ؛ وبقدر ما كان طموحه كان مصيره فى الحياة . وما زال قصره الفسيح فى پراج ، بتماثيله وأروقته الإيطالية ، وأبهائه الطويلة ذات النهايات البهية ، ولوحاته ذات القماش المزركش بالرسوم وصوره وتحفه يشهد بذكرى ولنشتين وعظمته وانتصاراته . تقدم هذا الرجل عندئذ إلى الإمبراطور يعرض عليه أن يقدم لفرديناند جيشاً على نفقته الخاصة غير مشترط شيئاً إلا أن يحتفظ جيشه بالغنائم بينما يكون من نصيب الإمبراطور ما يغنم من المدفعية والذخائر .

والحرب التى شنها البروتستانت فى سنة ١٦٢٦ من محاولتين منفصلتين انتهت كل منهما بكارثة : إحداهما القيام بهجوم ضد الجيوش الإمبراطورية فى الشرق بالاشتراك مع أمير ترنسلڤانيا ، والأخرى زحف جيش آخر من الدنمرك لمقاتلة جيش الحلف الكاثوليكى . ولم يتمخض عن المحاولة الشرقية غير موت مانسفيلد Mansfield فى قرية بعيدة من قرى البوسنة ، وكان من أمهر قواد البروتستانت . أما فى الدنمرك فقد كانت ضربة محطمة محكمة فى لوتر Lutter بثورنجيا Thuringia (٢٧ أغسطس) كافية لتوطيد انتصار « تللى » وولنشتين ، ولفتح الطريق إلى شلزويج هلشتين Schleswig Holstein أما زحف القوات الكاثوليكية ، وإبعاد الدنمركيين ، فلم يعودوا يشكلون عاملا خطيراً فى القتال .

وللمرة الثانية هوت قضية البروتستانت إلى درك سحيق ولكن للمرة الثانية كان انتصار الإمبراطور الكامل بعينه سبباً فى تحريك عوامل مضادة كان من شأنها أن تحد من هذه الانتصارات . ففى غمرة الابتهاج بالفوز لاحت للمنتخبين الكاثوليك فكرة كانت طبيعية وإن تكن غير حكيمة ترتبت عليها نتائج بالغة الضرر بمصالح الإمبراطورية . منذ ١٥٥٢ انتقلت حصة كبيرة من الثروة الكنسية من الكاثوليك إلى البروتستانت متضمنة فى شمال ألمانيا أسقفيتين عظيمتين واثنتى عشرة أسقفية . ومن هذا القدر الضخم من الموارد ، كان جانب يصرف بطريقة مشرفة للقيام بحاجات الكنيسة اللوثرية ، وجانب آخر يصرف بطريقة أقل كرامة لمساعدة الأمراء الزمنيين لتوفير ما يحتاجون إليه من الضروريات والكماليات . ثم تقرر الآن بمرسوم

٦ مارس ١٦٢٩ أن تعود كل هذه المغانم إلى أصحابها من الكاثوليك — ونستطيع أن نتصور مدى ما أحدثه هذا الأمر من اضطرابات بين البروتستانت الذين وضعوا أيديهم على هذه الأملاك ثم اضطروا تحت ضغط قوى والنشتين الغاشمة إلى التخلى عنها بعد أن مضت عليهم سنون طويلة وقد اعتادوا أن يعدوها أملاكاً خاصة ، بل إن الكاثوليك بدءوا يتذمرون عندما تبين لهم أن الآباء اليسوعيين قد أخذوا يتسربون إلى بيع لم يطأها قدم يسوعى من قبل ، وأن مشروعاً يدبر بإشارة من ولنشتين يقضى بإنشاء إمارة من أربع أسقفيات غنية فى شمال ألمانيا لتكون ملكا وراثياً لأحد الأمراء . وأخذ الألمان الكاثوليك منهم والبروتستانت يتساءلون عما يتربص بهم من سوء بسبب مكانة ولنشتين وأعماله ؛ فإن جيشه العظيم المجند من كل إقليم وكل عقيدة قد قام بنهب الكاثوليك والبروتستانت على حد سواء . أكان هذا الجيش يمهد لصاحبه أن يصبح طاغية على ألمانيا ؟ أم كان هذا القائد يسعى لينشئ مملكة لنفسه ؟ ثم أكان هذا الحماس الملتهب للكثلكة قناعاً يخفى وراءه مؤامرة تستهدف هدم حرية الألمان لصالح النمسا وحسب ؟ جالت هذه الشكوك فى أذهان الكثيرين من البروتستانت والكاثوليك فى ألمانيا ، وكان مكسمليان صاحب بقاريا بابوياً مخلصاً ، ولكنه لم يقاتل فى معركة فرديناند بالتل الأبيض كى يمهد السبيل لقائد بوهيمى ليجعل الأمراء الألمان عند موطئ قدميه . وفى دايت راتشبون (يولية ١٦٣٠) ، أصر مكسمليان على عزل ولنشتين ، ولشد ما كانت دهشة ألمانيا عندما أجيب إلى طلبه .

وأفادت فرنسا تحت زعامة الكاردينال ريشليو فائدة سريعة وباهرة من هذه الثورة التى ذر قرنها ضد سيطرة النمسا . فأزالت شكوك بقاريا بمقتضى معاهدة سرية ، ورتبت تمويل القوات السويدية التى أعدت لاحتياج ألمانيا (معاهدة باروالد Barwalde فى ٢٣ يناير ١٦٣١) حتى تُقيل عثرة قضية البروتستانت .

وإن جستاف أدولف ملك السويد ينبغى فى مجال التفاضل البشرى أن يحتل أرفع مكانة ؛ كان لغوياً بارعاً ، إذ كان يتكلم ثمانى لغات ، جندياً عظيماً ومدرباً ماهراً للجند ، سياسياً يتميز بمطامعه الواسعة ولكن غير المتعذرة ؛ كان مخلصاً ، عاطفياً ، مؤمناً بالعقيدة التى ورثها عن آبائه . وإن جستاف أدولف ليفوق معاصريه من الساسة فى نشاطه وبساطته واستقامة خلقه . وبالجملة سيطرت عليه طوال حياته

المصالح العظمى لبلاده وعقيدته . كان يأمل أن يؤمن للسويد نصيباً آمناً متفوقاً من تجارة البلطيق لا ينافسه فيه أحد ؛ وفى سبيل تحقيق هذه الغاية ، وكذلك لتكوين درع واق من پولندا والروسيا تطلع إلى الاستيلاء على شريط طويل من الساحل الجنوبى للبلطيق ؛ أما فى سبيل القضية البروتستانتية فى ألمانيا فكان يعمل على تحقيق النصر لها على الكاثوليكية والحصول لها على أراض أكثر اتساعاً لتكون آمنة من الاعتداء .

وقد أمضى فترة شبابه فى الحرب . فحارب الدنمرك وروسيا ، ثم حارب سجسمندفازا Sigsmund Vasa ، ملك پولندا الكاثوليكى وهو ينتمى إلى أسرته نفسها وكان يحلم بالحكم فى السويد وينشر العقيدة الكاثوليكية فيها . وفى خلال هذه الحروب العصبية تحت أجواء پولندا القاسية ، شكل جستاف الأداة الحربية التى أكسبته الشهرة فى تاريخ فن الحرب .

وإن الجيش السويدى الذى كان يحوى خلاصة من الإسكتلنديين الأشداء دائماً ، اشتهر أساساً بخمس خصائص . كان أفراده يلبسون زياًّ مخصوصاً . وكانت فرقه صغيرة ومجهزة بحيث تكون سريعة الحركة . وكانت مدفعية الميدان خفيفة متحركة سهلة الاستخدام تعمل ببراعة عظيمة ، وتعزز المشاة . أما البنادق فكانت من نوع أفضل من ذلك الذى كان يستخدم عندئذ بصفة عامة . وفرقة الفرسان بدلا من أن تركض نحو العدو وتفرغ فيه رصاصها على الطريقة الهولندية ، ثم تستدير راكضة لتعمر بنادقها ، فإنها تعمر السلاح فى موضعها بصلب مكشوف . وبالإضافة إلى هذه المزايا كان لها من معدن قائدها ما لا يقدر بثمن . كان جستاف يسيطر على كل صغيرة ، ويساهم فى كل عناء ، ويتعرض لكل المخاطر ، وينتهز كل فرصة ليبث فى أتباعه خفاف الحركة أقوياء العزيمة روح الاحتمال والطاعة والموت إذا دعت الحاجة إلى ذلك .

وقبل أن يبرم جوستاف معاهدته الشهيرة مع فرنسا كان قد وصل إلى جنوب بحر البلطيق ووطد أقدامه فى كل من بروسيا الشرقية وپولندا الغربية . وإذا كانت قد خالجته يوماً ما بعض الشكوك عن جدوى حرب يشنها فى ألمانيا للانتقاص من نفوذ الإمبراطور فقد بددتها بعض العلامات الواضحة التى أظهرت عداء فرديناند .

فإن الإمبراطور الذى كان يتمسك بأن عرش السويد من حق ذلك الشخص الكاثوليكى من أسرة ڤازا الذى كان يحكم فى پولندا ، لهذا رفض أن يعترف بجستاف ملكاً على السويد . وإن الأمر لا يحتاج إلى بصيرة ثاقبة لاكتشاف ما وراء هذا الرفض من خطة لتدبير إعادة الكاثوليكية إلى السويد عن طريق سجسمند ملك پولندا .

وهكذا فى الوقت الذى بسط لنشتين سلطانه شمال ألمانيا ، بل ذهب أبعد من ذلك فتقدم لمحاصرة سترالسند Sralsund ، قرر جستاف أن الوقت قد حان ليضرب بشدة فى سبيل السويد والعقيدة البروتستانتية ؛ وقد كان فرديناند عدوًّا له لاعتبارات ثلاثة منفصلة : بصفته صديقاً لبولندا وحامياً للكنيسة الرومانية ومنافساً مباشراً للملك السويد على السلطان فى بحر البلطيق ثم قد بدا أن ألمانيا بأسرها قد جثت عند قدمى الإمبراطور . ولكن على الرغم من الآراء الكريمة التى عرف بها جستاف وأفقه الواسع فيما يتعلق بتكوين اتحاد بروتستانتى فى ألمانيا ، فإن ذلك الملك الذى لا يقهر وحصن العقيدة البروتستانية وأسد الشمال ، ومصدر الرعب للنمسا لم يصل إلى أبعد مما وصل إليه الدنمركيون فى سبيل حل تلك المشكلة المتنازع عليها وهى منح ألمانيا السلام الدينى .

غدا أسلوب جستاف فى الحرب نموذجاً يتدارسه طلاب الفنون العسكرية فى كل أنحاء أوربا وكذلك فى إنجلترا حيث قدر للحروب الأهلية أن تبين ذلك . شن جستاف حرباً سريعة ناجحة فى شمال ألمانيا ، وحقق انتصاراً باهراً على الأعداء الغفيرة التى كان يقودها تللى فى برتنفيلد Breitenfeld (١٧ سبتمبر ١٦٣١) ، وتقدمت القوات البروتستانتية نحو پراج شرقاً ونحو مينز Mainz وورمز Worms غرباً ، ثم جاءت هزيمة تللى الأخيرة فى ليك Lech ، ودخول جستاف ميونخ وقد ألفت كلها عملا جليلاً يبهر الأبصار ، وقد ظل مدة طويلة يجتذب إعجاب أوربا . وفى أقل من عامين انقلبت حظوظ العقائد المتنازعة انقلاباً شديداً .

ولكن المظهر فى الانتصارات السويدية كان يفوق الجوهر ، إذ لم يكن من المتوقع أن يرضى الألمان عن جيش أجنبى لا يتقاضى أجراً طيباً ولا يعيش إلا على خيرات البلاد. فتوانى پروتستانت ألمانيا فى مساعدة السويديين وقد اتهموهم بحق بأن الحصول على أرض ألمانية كان أحد أغراضهم الرئيسة . وعلى الرغم من آمال ريشيليو

فإن الكاثوليك وقد أثارتهم عمليات السلب المنظم التى قام بها الجند السويديون، لم يعتبروهم أصدقاء لهم وإنما اعتبروهم أعداء ؛ على ذلك هاجمت كل من السويد وبفاريا الأخرى بدلا من الهجوم المشترك على فرديناند . وقد خرج جستاف من هذا الصراع منتصراً . ولكن كان فى انتظاره جيش إمبراطورى أعاد تكوينه ولنشتين وأصبح قائداً له . وكان فى انتظاره ليحاسبه حساباً عسيراً . وكان هذا الجيش من القوة بحيث استطاع أن يطرد السكسونيين من بوهيميا ، وبحيث أصبح بعد أن انضمت إليه قوات مكسمليان ستين ألفاً . وفى نورمبرج Nuremberg عندما تحرش جستاف بالقائد البوهيمى الكبير نزلت بجيوشه أول هزيمة . وعلى الرغم من أنها قد استردت كرامتها بسهولة فى الميدان المخضب بالدماء فى لوتز Lutzen (١٦ نوفمبر ١٦٣٢) فلم تجد شجاعة السويديين كثيراً لأن الملك — دون علمهم — كان قد سقط صريعاً فى المعركة . وذكر أنه عندما سأله أحد المتورعين عن اسمه عندما كان ملقى على الأرض مثخناً بجراحه المميتة قال : « أنا ملك السويد الذى يوقع على عقيدة الشعب الألمانى وحريته بدمه » .

واستمرت الحرب وقد فقدت بوفاة جستاف البقية الباقية من مثلها العليا البروتستانتية — ولم تكن السويد على استعداد للانصراف عن نضال قد أعطاها حصن بوميرانيا المكين ، وغنائم كثير من المدن الغنية ، وصوتاً مسموعاً فى مجالس أوربا . وإذا كان جستاف قد اختفى من الميدان فقد كان لا يزال هناك الوصى السويدى على العرش فى فترة قصور من ابنة الملك الراحل الطفلة . وكان هذا الوصى سياسيًّا حكيما قد شارك الملك الراحل فى موضوعات اهتمامه وأحلامه ، وحمل لمدة طويلة أعباء الحكومة الداخلية ، كما جمع كل مقاليد السياسة الخارجية فى يديه — وقد صمم ذلك الوصى « أكسنستيرنا » Oxenstierna على أن يحتفظ للسويد بالزعامة على ألمانيا البروتستانتية . وكان رهن إشارته ضباط جستاف الذين كانوا يعتبرون المعارك مذاق الحياة. وبفضل مساعدتهم مضافاً إليها جهود الفرانكونيين Franconian ، والسوابيين Swabian ودائرتى الراين (معاهدة هيلبرن Heilbornn فى ٢٣ أبريل ١٦٣٣) ، كان المستشار السويدى لا يزال يأمل الاحتفاظ بمركز يجعله قادراً على ضمان صلح موفق للسويد والقضية البروتستانتية .

أما ولنشتين فكان ، وهو أقل تشبثاً بأهدافه ، يفكر فى خطة لتسوية المسألة الألمانية .

أما المجلس اليسوعى فى ڤينا ، فإن سلوك القائد البوهيمى العظيم عقب موقعة لوتزن Lützen قد بعث فيهم أظلم الشكوك ، فبينما هو جامد فى الحرب ، كان نشطاً فى ميدان السياسة . و بينما كان متوقعاً أنه سيستغل إلى أبعد الحدود نتائج معركة لوتزن ، ظل مقيماً فى كسل ببوهيميا يفاوض السكسونيين . ولم يدفعه وقوع راتشبون Ratisbon فى يد السويديين ولا فزع ڤينا إلى العمل الفعال . فإن أفكاره وقد أثر فى توجيهها ما أصابه من سآمة المرض ، وكذلك الطموح الغادر قد أصبحت تتجه إلى تحقيق سلام عام ألمانيا لا يقوم إلا عن طريق فرض نفوذه وحده ، ولن يكون الصلح الذى يوده ولنشتين صلحاً يسوعياً ولكنه يوده صلحاً بوهيمياً مبنياً على التسامح إلى حد لا يرضى عنه الآباء اليسوعيون . ولربما — وإن لم يكن هذا أمراً أكيداً — حوى الصلح أيضاً بين شروطه تاج بوهيميا لولنشتين . ولكن لم يتحقق لولنشتين شىء من هذه الأحلام . وتقرر فى ڤينا أن من الخطورة بمكان الإبقاء على هذا الرجل حياً . وقد كان فرسان الدراغون الأيرلنديون فى معسكرهم «بإيجر» Eger على استعداد لاغتياله (١٦٣٤) .

وصدرت عروض الصلح الفعالة الأولى من ذلك الركن فى ألمانيا الذى أظهر منذ بداية الحرب أقل قسط من القابلية للقتال : وكان قتال اللوثريين زرعاً ليناً لا يفلح إلا فى ضوء الانتصارات السويدية . وعلى ذلك عندما دُحر برنارد Bernard صاحب ساكس ڤيمار Saxe Weimar وهورن Horn — القائدان اللذان آل إليهما إرث جستاف . وفى معركة نوردلنجن Nordlingen الحاسمة ، انتقل كل الجزء الجنوبى الغربى من ألمانيا بضربة واحدة من السيطرة السويدية إلى السيطرة الإمبراطورية . ولم يكن صلح پراج Prague (١٦٣٢) عملية شريفة ذلك لأن اللوثريين لم يلفظوا حلفاءهم السويديين فحسب ، بل تعهدوا بمساعدة النمسا لطردهم من ألمانيا — ولكن الصلح أحكم من الحرب على الدوام ؛ فإن صلح پراج الذى قد اعترف به تقريباً فى نهاية ١٦٣٥ جميع الأمراء المهيمن والمدن الحرة فى ألمانيا كان تسوية طيبة وحكيمة بقدر ما سمح به الموقف عندئذ . فقد حصل الموقعون البروتستانت على ضمان أسلوبهم

فى العبادة ، وعلى استيفاء الأراضى والإيرادات التى كانوا قد أخذوها من الكنيسة الرومانية مدة خمسين عاماً .

ولكن فى هذه اللحظة التى لاحت فيها بشائر السلام العام ، دخلت الحرب فى طور جديد علمانى تماماً ؛ فقد فقدت الحرب ذلك الطابع الدينى الذى تميزت به أصلا ، واختفى فى غمرة النضال بين أسرتى البوربون والهبسبرج للسيطرة على أوربا . فلم يكن هناك حقاً إلا قدر ضئيل من الروح الدينية القديمة فى نضال اتحدت فيه فرنسا الكاثوليكية والسويد البروتستانتية مع جمهورية هولندا البروتستانتية (فى معاهدة كامپيين Compiègne ٢٨ أبريل ١٦٣٥) ضد ألمانيا اللوثرية والنمسا الكاثوليكية وإسپانيا الكاثوليكية وأخذت ساڤوى تبيع فيه صداقتها تارة لهذا وتارة أخرى لذاك ؛ وعندما أصبحت المسائل الخطيرة موضع النزاع لا تتعلق بالعقيدة أو الطقوس الدينية ، وإنما تتعلق بإمكان السماح للسويد بالاحتفاظ بپوميرانيا ولفرنسا باستبقاء الألزاس . فقدت الحرب الجانب الأكبر من دوافعها الحماسية للعقيدة ولكنها امتلأت بعمليات الزحف والتراجع والحصار والتسليم والحراق عمداً ، والقتل وكل ألوان النكبات التى كان فى مقدور الفرق المرتزقة المتوحشة الجائعة أن تنزلها بشعب لا حول له ولا قوة . وقد تبين أن المدبر الرئيسى لهذا الدور الطويل من الكرب الشديد والفوضى هو أحد كرادلة الكنيسة الرومانية . فخلال ثمانية عشر عاماً (١٦٢٤ — ١٦٤٢) ما فتئت عبقرية ريشيليو السياسى ، رئيس وزراء لويس الثالث عشر تسيطر على مسرح الحوادث الأوربية . ولكن هذا الحبر المستبد كان يفتقر إلى كثير من الصفات الضرورية للرجل السياسى : إذ لم يكن يفقه شيئاً فى الاقتصاديات ولا المالية العامة . فعلى الرغم من المدة الطويلة التى تمتع فيها بسلطان مطلق لم يحرك ساكناً لعلاج ارتباك النظام المالى فى فرنسا وما به من فساد وظلم ، مما أدى فى النهاية إلى القضاء على الملكية . كان عديم الاكتراث بالجانب الإنسانى كله فى ميدان السياسة . ولكن ثمة قضية واحدة فقط كرس لها فى إصرار ذهنه الرائق المنطقى الذى لا يرحم . ولم يشغل تفكيره شىء عن العمل لعظمة فرنسا بالمعنى الذى فهمه من هذه العبارة سلسلة طويلة من السياسيين الفرنسيين من مزران ولويس الرابع عشر إلى دانتون ونابليون وديلكاسيه Delcassé وكليمنصو Clémenceau وپوانكاريه

Poincaré وتلميذه تارديه Tardieu . وقد وضع لنفسه منذ البداية ثلاثة أهداف : تحطيم النفوذ السياسى للهيجونوت ، وكسر شوكة النبلاء ، وجعل اسم الملك مهاباً محتوماً فى سائر أنحاء أوربا . وقد حقق الهدف الأول تماما ، بينما حقق جانباً من الهدف الثانى . أما الهدف الثالث ، وكان يتضمن تقطيع أوصال ألمانيا وإضعاف إسپانيا فقد قطع فى بلوغه شوطاً بعيداً .

ومن الأدلة على خلوه من روح التحيز الدينى أنه أثناء محاولته العظمى ضد الهيجونوت لم يتورع عن طلب مساعدة البروتستانت وألزم الهولنديين كشرط لحصولهم على المساعدات المادية من المالية الفرنسية . أن يساهموا فى إخضاع حصن لاروشيل La Rochelle العاصمة الشهيرة للكلڤنية فى فرنسا . ومهما كان الشعور إزاء هذه المهمة كريهاً فى أمستردام ، فلا شك أنه من وجهة النظر الواسعة للمصالح البروتستانتية ، كان من الخير تجريد الهيجونوت من قدرتهم على مضايقة الحكومة الفرنسية . فإن هذه الأقلية المسلحة التى كانت تسيطر على مائة مدينة محصنة وكانت بمثابة كتلة من الجرانيت وقفت حجر عثرة فى طريق النمو القومى . طالما كان الهيجونوت يكونون دولة داخل دولة فى فرنسا فإن ريشيليو كان عاجزاً عن تنظيم صفوف الأمراء البروتستانت فى قارة أوربا ضد أسرة الهبسبورج . والواقع أن فرنسا لم تتقدم لتساهم بذلك النصيب العظيم فى توجيه حرب الثلاثين عاماً التى أكدت الانقسام الدينى وخلدته إلا بعد أن تخلصت من هذا الارتباك الداخلى (١٥٢٩) . ولم يقف النبلاء حجر عثرة فى طريق ريشيليو ، فأعدم مونمورينسى Montmorency أعظم نبلاء فرنسا بسبب تآمره — وفى سبيل موازنة نفوذ الأرستقراطية ، أنشأ تدريجياً نواة الأداة المدنية المركزية (عمال الملك فى الأقاليم)[1] ، وكذلك أقام جيشاً وأسطولا لخدمة الملك خدمة دائمة .

إن الباحث فى فن الدبلوماسية ، إذا حوّل أنظاره عن الآلام البشرية ، ليعجب بالمهارة التى استخدمها هذا الحبر المسيحى كى يطيل من أمد حرب همجية وغير

---

(١) عمال الملك أو مندوبوه فى الأقاليم Intendants ، يعينهم الملك فى فرنسا لإدارة الشئون المالية أو فرض الضرائب ؛ وعلى إثر انتهاء الحروب الدينية فيها فى القرن السادس عشر درج الملك على إنفاذهم لإعادة الأمن فى الأقاليم التى تسودها الاضطرابات . استخدمهم ريشيليو للحد من سلطان الأشراف فى الأقاليم . وألغت الجمعية الوطنية هذه الوظيفة فى ١٧٨٩ ولكن أعادها نابليون .

ضرورية ، وبالسخاء الصائب الذى أحيا الحماسة الضئيلة فى نفوس السويديين الذين لم يكن ثمة مندوحة عنهم ما قدمه إليهم من إمدادات من الرجال والأموال ، والحذق الذى أظهره عندما أخذ سراب صلح وشيك الوقوع يبهر ناظريه ، والمهارة التى جعلت أشد منافسيه المعروفين من دنمركيين وبولنديين تخيم عليهم سكينة محايدة . وإذا لاحظ المدقق أن بعض الخطط قد أصابها الفشل ، كما حدث بالنسبة لتكوين اتحاد الراين تحت حماية فرنسا ، ذلك المشروع الذى أعده وحاول إنجازه المرة بعد الأخرى كل من مزران ونابليون وبوانكاريه لهلّل لدقة الخطة التى تضمنت غزو إقليم روسييون Roussillon ، والهجوم على قطلونيه Catalonia ، وتوحيد جهود منتوا Mantua ، وپارما Parma وسافوى ضد النفوذ الإسپانى فى إيطاليا ، ومعاهدة المصاهرة مع إنجلترا وحصول المملكة الفرنسية على الإلزاس واللورين . وقد أشار البعض إلى أن ريشيليو كوزير للحربية كان ذا عيوب عديدة ، فهو لم يستطع أن ينشئ جيشاً أو أن يضع خطة للمعركة وأنه بلغ من حرصه على العظمة أنه كان يخشى أن يعهد إلى الرجال النابهين بالقيادة حتى إن انتصار كونديه Condé فى روكروا Rocroi ذلك العصر الذى أعلن أن فرنسا قد أصبحت مرة أخرى قوة حربية عظمى لم يحدث إلا فى عام ١٦٤٣ ، عندما كان قد آواه قبره . وإن دبلوماسية الكاردينال لتدعو إلى الإعجاب بدرجة أكبر . فلم تقم الجيوش الفرنسية إلا بالقدر اليسير خلال المعارك التى استمرت سبعة أعوام تحت قيادة ريشيليو ولكن ما إن وصلت إلى نهايتها حتى أصبحت فرنسا سيدة على الألزاس واللورين وردسييون كما أوقفت زحف حركة الإصلاح الكاثوليكى فى ألمانيا .

وفى هذه الفترة الأخيرة من الحرب (١٦٢١ــ٦٥) حين كان يحكم فى إسپانيا فيليب الرابع وأوليڤاريز Olivarez ، ملك ضعيف ووزير صلب الرأى ، بُليت إسپانيا بأربع كوارث جسيمة : تحطيم أسطولها ، وثورة قطلونية . وفقدان البرتغال ، وثورة ناپلى . وكان العامل المشترك فى جميع هذه النكبات أن إسپانيا وهى البلاد الفقيرة المنهوكة القوى التى اتصفت بفساد الحكم والانقسام الجغرافى والتاريخى إلى أجزاء متميزة عن بعضها ومتعادية ، راحت تطمع فى أن تلعب دوراً رئيسياً على مسرح حوادث السياسة الأوربية . ولو لم يكن رجل دولتها مفتوناً بسحر الحروب الخارجية لأدرك أن دولة

كإسپانيا قد بلغت هذا المبلغ من الضعف عند اعتلاء فيليب الرابع العرش كانت فى أمس الحاجة إلى عهد طويل من السلام والاستجمام ، والإصلاحات المدنية . ولم تعد إسپانيا — والفوضى ضاربة أطنابها فى شئونها المالية ، وأسطولها من السفن عابرة المحيطات قد غدا هيكلا ، وفقدت جزائر الهند الغربية ، وأصبح لا يربطها بمستعمراتها الأمريكية إلا خيط واه ، وبلغ التذمر بالبرتغال ونابلى مبلغاً عظيماً ؛ وتدهورت قيمة عملتها ، وضاعت الأراضى المنخفضة فعلا إلى غير رجعة ، لم تعد إسپانيا بأحوالها تلك — بقادرة على تزعم الكاثوليكية فى أوربا ضد أعدائها من البروتستانت . كان أوليڤاريز كفئاً ضليعاً ، عصبى المزاج ولكنه كان أيضاً رجلا من رجال البلاط ، محروماً من الخبرة السياسية . وقد استطاع أن يتملق سيده التافه عندما أشار عليه بأن حرباً خارجية عظيمة ، يدبر أمورها وزير كفء ، من شأنها أن تعيد إلى الملكية بريقها القديم . ولكن كان أمراً لا مناص منه أن تعثرت السياسة على صخرة المال . كان أوليڤاريز فى سبيل تحقيق النصر النهائى فى الحرب بحاجة إلى أموال تفوق كثيراً تلك التى اعتاد الشعب الإسپانى أن يقدمها عن طريق مجالس الكورتيز الخمسة الإسپانية . وقد لاقى معارضة فى كل مكان ، ولكن على وجه الخصوص فى قطلونية أغنى أقاليم الإمبراطورية الإسپانية وكذلك أكثرها استقلالا . وفى لحظة غير مناسبة صمم أوليڤاريز على أن يكسر شوكة القطالونيين لكى يقضى على امتيازاتهم ويقيم بينهم جيشاً مأجوراً . ولكن برشلونة لم تكن مثل لاروشيل فقد كانت باستثناء أشبيلية أغنى ثغر فى إسپانيا ، وعاصمة لشعب يتكلم لساناً مختلفاً ، شديد التمسك ببعض العادات القديمة التى جعلته أقرب إلى أهالى بروڤانس منه إلى أهالى قشتالة ، وهو لم يكن مستعداً بأى حال من الأحوال لأن يعتبر بلاده إقليماً تابعاً لقشتالة . وفى ١٦٣٠ ثار القطالونيون ، وفى العام التالى انتخبوا لويس الثالث عشر حاكماً على برشلونة ، ووضعوا أنفهم رسمياً تحت حماية فرنسا .

وسرعان ما أثرت الثورة القطالونية تأثيراً خطيراً على الحالة فى البرتغال ؛ ذلك لأن الستين عاماً التى اتحدت فيها البرتغال مع إسپانيا بدلا من أن تحسن العلاقة بين الدولتين زادتها مرارة فقد أثار البرتغاليين حكامهم الإسپان الغافلون وشكوا من أن قادس قد سلبت لشبونة تجارتها . ولكن ثمة حقداً كان أشد عمقاً وأكثر شرعية وصل

بالعلاقات بين الدولتين إلى أقصى درجة من السوء منذ تسببت إسپانيا فى ضياع إمبراطورية البرتغال فى الشرق . إذ أن الاتحاد بين القطرين قد ورط البرتغال فى جميع الأعمال العدائية التى أثارتها المطامع البعيدة المدى لإسپانيا . تلك المطامع التى يتحمس البرتغاليون فى الاستجابة لها ، بل فضلوا ألف مرة أن يفضوا تلك الشركة التى أدت إلى فقدان أثمن ما يملكونه من مستعمرات . وإلى هذا السخط العنيف أضافت سياسة أوليڤاريز التى طبقها بشدة ڤسكونسيلوس Vasconcellos الكريه الذى لا يمكن احتماله . وعندما تبين للبرتغاليين أنهم سيعاملون معاملة التابعين لقشتالة ، وأنهم مهددون بدفع الضرائب القشتالية ، وقد ألهب حماستهم المثل الذى ضربه القطالونيون ، تنادوا للثورة ودعوا إلى عرش البرتغال أحد نبلاء أسرة براجانزا Braganza.

وقد استغرق الأمر ثلاث ساعات . وفض الاتحاد إلى يومنا هذا ، واتسع الصدع بين الدولتين واستعصى على الرأب بسبب الحرب العقيمة التى دامت بينهما ثمانية وعشرين عاماً .

لقد أصاب كل من أوليڤاريز وريشيليو عندما قدرا أنه لابد من تحقيق قدر أكبر من الإدارة المركزية حتى يتوافر لدولتيهما درجة أعظم من الكفاية . أما السبب الذى جعل أوليڤاريز يفشل وريشيليو ينجح أن الظروف فى فرنسا كانت مواتية لتركيز السلطة بينما كانت معاكسة لذلك فى إسپانيا . فكل الطرق فى فرنسا كانت تؤدى إلى پاريس بينما لا يوجد طريق واحد فى إسپانيا يوصل إلى مدريد ؛ وكانت جبال أيبريا ورجالها يتصفون بالعناد . ولكن أوليڤاريز تجاهل الجبال وحاول أن يسوق الرجال . وإزاء مثل هذه الإهانة الموجهة لعزلتهم المفضلة الهادئة لم يكن فى استطاعة جنس فى العالم أن يقاوم بعناد أعظم مما فعل الأيبريون . فالإسپانى وإن كان يحلم أحلاماً إمبراطورية فإنه كان يرفض أن يدفع ثمن هذه الأحلام . ولم يكن فى استطاعة أى شىء أن يقنع القطالونى بأن المستوى المالى الذى ألفوه فى العصور الوسطى لا يصلح لمواجهة مسئوليات الإمبراطورية الحديثة .

* * *

ثم كان استئناف الحرب مع الهولنديين بعد انتهاء هذه الاثنى عشر عاما فى ١٦٢١ مسألة أخرى انتهت نهاية سيئة لإسپانيا . عند موت « موريس ناسو » Maurice Nassau وجد الهولنديون فى أخيه الأصغر فردريك هنرى رجل دولة وجندياً

قديراً فى توجيه العمل للدفاع القومى . وتحت لواء هذا القائد العظيم ، وبفضل المعونات المالية التى كان يقدمها ريشيليو وبعض المغامرين من الإنجليز ذوى الخبرة ، قاومت الجمهورية الهولندية ، بنجاح قوات إسپانيا البرية .

وفى أثناء عمليات حصار هرتوجنبوش Hertogenbosch ، ومايسترخت Maestricht وبريدا Breda ، أظهر الهولنديون أنهم لم يفقدوا شيئاً من حيلهم القديمة من فن الحصار . فكان فى مقدورهم الاستيلاء على المدن والدفاع عنها . وفى حرب المواقع لا حرب الحركة لن تجد أبرع من جيوشهم . ولكن التقدم السريع والانتصارات الحاسمة والعمليات الحربية ذات النطاق الواسع كتلك التى اتصف بها جستاف أدولف كانت غير مألوفة فى أذهان هذا الجنس البطىء المنسق . فقد كان الهولنديون يحافظون على مراكزهم ؛ وحتى مع مساعدة فرنسا ، كانت مهمة تحطيم خطوط الدفاع النمساوية والإسپانية فى المقاطعات الجنوبية ما يطيقون .

وإن العبقرية الحقيقية للشعب الهولندى لم تظهر فى هذه الحرب البرية ، وإنما ظهرت فوق صفحة الماء . ففى بسالة فائقة ، توغلوا إلى أبعد أنحاء العالم وأشدها عزلة فاكتشفوا نهر الأمزون ، وأحضروا الشاى من فرموزا إلى أوربا ، وأسسوا فى بتافيا Batavia مركزاً لإمبراطوريتهم الشرقية ، وأقاموا دولة هولندية من الأراضى البرتغالية الشاسعة فى البرازيل . ولابد عند تقدير العوامل التى أدت إلى انفصام الوحدة بين إسپانيا والبرتغال اعتبار هجمات الهولنديين على المؤسسات البرتغالية فى البرازيل وسيلان من العوامل الرئيسية .

وإزاء ازدياد هذا النشاط الاستعمارى المطّرد قامت المملكة الأيبرية المتحدة — وقد أصبحت على وشك الانهيار — بمجهود أخير مجيد وجرىء معاً . فأرسلت أسطولا قويًّا تحت قيادة « أكويندو » ، وهو من أقدر رجال البحرية الإسپانية ، إلى بحر المانش لمنازلة الهولنديين فى مياههم القومية ؛ وعبر أسطول آخر يتكون من سفن إسپانية وأخرى برتغالية المحيط الأطلسى لاستعادة البرازيل . وقد تحطم كلا هذين الأسطولين بسبب براعة أعدائهم الهولنديين فى فن ارتياد البحار . وإن معركة « دونز » The Downs (١٦٣٦) التى هزم فيها « ڤان ترومب » Van Tromp القائد الإسبانى « أكويندو » لشهيرة فى تاريخ أوربا البحرى ؛ ولكن القتال دام أربعة أيام فى « إيتماركا »

Itamarca على سواحل برممبوكو Permambuco (١٦٤٠) كان بالمثل قتالاً حاسماً . وهكذا تضافر هذان الانتصاران اللذان أحرزهما الهولنديون : الأول فى مياه أوربية ، والثانى فى مياه أمريكا الجنوبية لوضع خاتمة للإمبراطورية الأيبرية .

ولم يأت صلح وستفاليا (١٦٤٨) الذى أنهى هذه الحرب الطويلة نتيجة لأى ميل من الجيوش المتصارعة فى ألمانيا لفرض قرار عسكرى حاسم ذلك لأن أحداً منهم لم يكن يميل إلى شيء من هذا إذا كان نداء الحرب موفور الربح ؛ إنما دعا إلى ذلك حسن إدراك ملكة السويد كريستينا Christina وعواطفها الإنسانية ، ثم ما لحق بإسپانيا من إعياء وأخيراً نفاد صبر المؤتمرين وما أصابهم من سأم بعد أن ظلوا مجتمعين مدة ثلاث سنوات فى مدينتين صغيرتين من مدن وستفاليا (منستر Munster وأزنبروك Osnabruck) ، ليصلوا بجهودهم الشاقة المعقدة إلى نهاية حاسمة على أننا ينبغى أن لا نخطئ فى تقدير الابتهاج العارم الذى كان يملأ جوارح الجنود السويديين والفرنسيين والإمبراطوريين حين كانوا يمارسون حرفتهم إلى غايتها . فقد كان القتل والسلب بمثابة العبير الذى يستنشقونه . ولو قد عجز الدبلوماسيون عن الوصول إلى اتفاق ، ولم يوقظهم الصلح المنفرد بين إسپانيا والأراضى المنخفضة فى يناير ١٦٤٨ من الركون إلى أساليبهم البطيئة إذاً لاستمر فى القتال قواد الحرب «رنجل» Wrangel ، « وكونيجزمارك Konigsmarck وكونديه Conde ، وتورين Turenne ، وكولورادو Colorado ، وپيكولوميني Piccolomini » حين يحين الوقت ليستأنف القتال جيل آخر من القادة العتاة .

وقد عمل صلح وستفاليا على تحقيق التوازن الدينى والسياسى فى ذلك العصر ، فأقر ذلك القانون العام لأوربا لأجيال عديدة . وقد حصل كل من الأطراف المتعادية على لون من ألوان الترضية المادية . فقد تم الاعتراف بجعل تاج بوهيميا وراثياً فى أسرة الإمبراطور ؛ وبإمارات الألزاس لفرنسا ؛ وپوميرانيا الغربية وأسقفيتى «برمن» Bremen و«فردن» Verden للسويد ، وإقليم البلاتين الأعلى لبڤاريا . وقد كان استيلاء فرنسا التام على الألزاس العليا والسفلى جزاء تدخلها فى الحرب بين الأمراء الألمان بالنسبة لمصير تاريخ أوربا — أهم وأعظم ما تمخض عنه الصلح من نتائج . وقد كان أسلم لفرنسا وأقل استفزازاً لألمانيا لو قبلت فرنسا الألزاس كإقطاع

إمبراطورى يعطيها مقعداً فى الدايت الألمانى ؛ ذلك رأى رآه أحد دبلوماسيى فرنسا فى ذلك العهد ، وتبينه مزران فيما بعد . ولكن سبق السيف العزل لأن الخطأ كان قد وقع . فقد ألقى الفرنسيون القفاز متحدين شعور الشعب الألمانى ، فلما بلغ الشعور القومى قوته أخيراً لبى الألمان النداء والتقطوا القفاز . ولم يتوقع أحد أن تتمخض أهواء هذه الحرب المضنية عن ميل للأخذ بالتسامح الدينى ، ذلك لأن أحداً من الطرفين لم يكن مستعداًّ لذلك ؛ وإنما كان هناك على الأقل اتجاه قوى لإعادة توكيد ذلك المبدأ الذى اتخذ قاعدة لصلح أجزبورج وهو « أن الناس على دين ملوكهم » وتوسيع ذلك المبدأ ليشمل أنصار العقيدة الكلفنية . وآلت إمارة البلاتين الدنيا بعد أن رفعت إلى إمارة انتخابية ثامنة إلى شارل لويس Charles Lewis ابن « ملك الشقاء » الذى كان حمقه فى ادعائه الحق فى تاج بوهيميا قد أثار كل هذه الشرور ، ولكن بوهيميا ذاتها مع كافة الأملاك الوراثية الخاصة بالأسرة المالكة فى النمسا قد أطلقت لنشاط اليسوعيين ، وبذلك تحقق حلم فرديناند وهو ألا يسمح لمارق أن يتعبد أو يغط فى هذه الرقعة الواسعة من الأرض .

وإن التباين لعظيم بين ألمانيا كما كانت فى عهد فردريك برباروسا وبين الاتحاد الضعيف من ثلثمائة وخمسين ولاية الذى تمخض عنه مؤتمر وستفاليا ، (ولكل منها الحق فى انتهاج سياسة خارجية خاصة طالما لم تكن موجهة ضد الإمبراطورية) . ففى أيام بربروسة كان الإمبراطور يمارس فى ألمانيا سلطة حقيقية وإن لم تكن منتظمة ، أما الآن فقد غدا سلطانه اسمياًّ فى ألمانيا وإن أصبح وطيداً فى النمسا وبوهيميا والمجر . فى ذلك الوقت البعيد كانت سويسرا والأراضى المنخفضة فى حوزة الإمبراطور ، أما الآن فقد اعترف رسمياًّ باستقلال جمهورية سويسرا ، أما الأراضى المنخفضة وإن بقيت اسماً جزءاً من الدائرة البرجندية فقد انقسمت فى النهاية إلى ولاية إسبانية وجمهورية هولندية . فى ذلك الوقت البعيد كانت ألمانيا ذات أثر فعال فى العالم فإذا هى اليوم تصبح عديمة الأثر . فى ذلك الوقت كانت ألمانيا تدين بعقيدة دينية واحدة فإذا هى اليوم تغدو موزعة بين عقائد ثلاث . ومن هذا التشتت فى الولايات الألمانية والانهيار الذى أصاب القوة الإسبانية ستسنح الفرصة لفرنسا لتعزيز مطامعها العسكرية تلك المطامع التى عمل على استغلالها لويس الرابع عشر ونابليون إلى أقصى حد .

كتب يمكن الرجوع إليها

— S.R. Gardiner : The Thirty Years War. (1874)

— C.R.L. Fleacher : Gustavus Adolphus, King of Sweden. (1890)

— A. Gindely : Thirty Years War. (1882-3)

— Hanotaux : Histoire du Cardinal de Richelieu. 2 vols. (1898)

— G. D'Avenel : Richelieu et la monarchie absolue. (1884)

— W. Coxe : Honse of Austria. (1847)

— Lavisse : Histoire de France. (1900-1911)

— H. Belloc : Richelieu. (1930)

— Hallandorfand Schuck : History of Sweden. (1929)

— A. Gindely : Waldstein wahrend seines ersten Generalats im Lichte der gleichzeitigen Quellen. (1886)

الفصل الثامن عشر

انتصارات مزران

تفوق فرنسا فى أوربا – آن النمساوية ومزران – حرب الفروند الأولى – المقارنة بين الحركات الثورية فى فرنسا وإنجلترا – حرب الفروند الثانية . تشويه سمعة كونديه – أثر الفروند – انتصارات مزران الدبلوماسية . هيجو جروسيوس Hugo Grotius وحلف الراين .

ظاهر أن أثر روح ريشيليو فى إملاء معاهدة وستفاليا فاق كثيراً أثرها فى إملاء معاهدات أخرى تمت لصالح فرنسا حتى معاهدة فرساى نفسها . فلم يحدث أن أحرزت فرنسا مطلقاً انتصاراً دبلوماسيًّا أعظم من ذلك الذى أحرزته ، فى وستفاليا . كما أن خريطة أوربا السياسية لم تظهر قط قبل أكثر اتساقاً مع المطامع الفرنسية . أما ألمانيا المكونة من ذلك الاتحاد المرضوض من الدول الضعيفة الفقيرة التى تتبادل العداد فلم يكن لها كيان كقوة عسكرية قادرة على الوقوف عقبة جدية فى سبيل تحقيق السياسة الفرنسية ، وبدلا من أن تكون خطراً يتهدد فرنسا كانت على العكس من ذلك عاملا أساسيًّا لتأمينها ، ومصدراً يمدها بالحلفاء السياسيين ، ومجالا لنفوذها ، وحاجزاً فى طريق النمسا ، وعاملا أساسيًّا فى التوازن الدولى . ومنذ ذلك التاريخ إلى وقوع الثورة الفرنسية بات الإبقاء على ألمانيا على هذه الصورة ضعيفة ومنقسمة على نفسها هدفاً أساسيًّا فى السياسة الفرنسية .

ولم ير الفرنسيون فى مثل هذا الموقف أمراً كريهاً . فإنهم وقد اطمأنوا لجانب ألمانيا التى كانت عندئذ منهوكة القوى والتى لم يكن من المحتمل مطلقاً أن تستجمع أسباب القوة قد سرهم أن يعتبروا أنفسهم الملائكة الحارسين ، والأوصياء القيمين على شعب له مكانته ، شعب مسالم ، ولكنه موغل فى التأخر . وسجلوا فى خيلاء انتشار الآداب الفرنسية ، والمسرح الفرنسى ، والأزياء الفرنسية بين أفراد الجنس التيوتونى الغليظ الخانع ، واعتبروا أن العناية الإلهية بحكمتها هى التى مكنت فرنسا فى ذلك الوقت ، فى أكثر الظروف ملاءمة من استئناف مهمة تحضير الشعوب التى كان شرلمان يقوم بها بين برابرة الشرق .

ولكن الانتصار السياسى فى ذلك الوقت وما صحبه من فرص واضحة مضى دون أن يشعر به أحد . فبينما كان رجال السياسة يوقعون المعاهدة فى مُنستر Munster كانت فرنسا ثائرة ، وحكوماتها لا تستطيع المحافظة على مركزها فى باريس إلا بشق الأنفس .

وكان على رأس الحكم فى فرنسا أجنبيان : آن النمساوية والكاردينال مزران . وعندما مات لويس الثالث عشر فى عام ١٦٤٣ ، ترك وراءه طفلا فى الخامسة من عمره وقد استطاعت أمه الإسپانية أن تحرر نفسها بمهارة من سلطان المجلس الذى كان قد عين لكى يرشدها إلى الطريق السوى. واتخذت لنفسها حق الوصاية ، ثم استدعت زوجها الإيطالى حتى يشاركها الأعباء . وقد بات كل ما يتعلق بهذا الأمر كريهاً لأمراء البيت المالك والنبلاء وبرلمان پاريس وعامة الشعب . فقد كرهوا آن الوصية الإسپانية على العرش ، وبغضوا مبدأ الأمير الذى يصبح وزيراً مسيطراً على شئون الدولة . ولم تكن هناك رذيلة لا يصدقون أن مزران لا يتصف بها . فقد كان فى نظرهم لصًّا ، محتالاً ، مفسداً ، فاجراً ، وضيع الأصل ، محدث نعمة ، نهاباً للأموال العامة . وإن المهارة السياسية العظيمة التى مكنت هذا الوزير الذى لا شك فى احتياله من الاحتفاظ بتقاليد ريشيليو السياسية قد ضاعت وسط خضم رذائله .

وقد اشتد السخط على الحكومة بسبب الضرائب التى اقتضاها أولاً تمويل الحرب الألمانية ثم الحرب الإسپانية التى استمرت أحد عشر عاماً عقب توقيع صلح وستفاليا . كان مزران على غرار أستاذه ريشيليو جاهلا بالمبادئ الأولية للسياسة المالية . فكانت جميع أساليبه المالية سيئة ، ولكن تميز أسلوبان منها بالخطورة لأنهما أساءا إلى پاريس : وهما فرض ضريبة على المساكن فى ضواحى العاصمة ، ثم تدخل صارم فى عملية الاستثمار المفضلة لدى الپاريسيين ألا وهى الإيجارات التى حددتها بلدية پاريس .

كان الجو ينذر بالثورة . ففى عام ١٦٤٨ كانت الثورة ناشبة فى ناپلى وفى قطلونية ، وفى البرتغال ، وفى إنجلترا ، فكيف يتأتى لفرنسا أن تنجو من هذه المحنة العامة ؟ وهتفت البائعات باسم مسانيللو Masaniello الصياد الناپوليتانى الذى تجرأ

على تحدى ملك إسپانيا ؛ بينما تمعن المسنون فى البرلمان فى سابقة أعظم أهمية ، قد قررها مجلس يماثل مجلسهم فى الاسم ، قد انعقد فى وستمنستر Westminster واستطاع ليتوه أن يُسقط الملكية الإنجليزية .

نشأ عن هذه الأحوال العامة الثورتان العجيبتان اللتان تعرفان بثورتى الفروند الأولى والثانية . وقد عرضت هاتان الثورتان الملكية لأخطر أنواع الإذلال ، كما انتشرتا انتشاراً واسع المدى فى وقت من الأوقات (١٦٥٢) مما أصبح يهدد بزعزعة بناء الدولة من أساسه . وقد ذكر ميشليه Michelet أن كافة أفراد الشعب الأمناء فى فرنسا وقفوا فى وجه مزران ، بينما وقف المحتالون جميعهم إلى جانبه . وإن هذا القول ليبلغ من التعميم حداً لا يمكن الاعتداد به ، فإن مزران كان يناضل فى سبيل مواصلة السياسة الخارجية لفرنسا ، وفى سبيل توحيد الدولة الفرنسية . وقد كان خصومه فى كثير من الأحيان لا يعبأون بأى من هاتين المسألتين . والحقيقة أن كل ما وجد فى فرنسا من أفكار صائبة جدية فيما يتعلق بالإصلاحات المالية أو مقاومة الاستبداد بالطرق الدستورية أو ما يتصل بمشكلة « أحوال الشعب » كانت هذه الآراء كلها موجودة عند القائمين بحركة الفروند وعلى وجه الخصوص أعضاء برلمان پاريس الذين تزعموا ثورة الفروند الأولى وأكسبوها ذلك الجلال الذى لا يمكن أن تدعيه لنفسها الحركة الثانية .

ولكن هذه الهيئة ذات الأفكار السياسية القيمة كانت على وجه الخصوص فى طريقة الدعوة التى بثتها ومداها ، كذلك فى طبيعة الوسيلة التى استخدمتها للتعبير عنها ، كانت خالية من الإلهام والقوة إذا قورنت بتلك الفطنة المستنيرة الجائشة التى أذكتها وإن ضيقت أفقها العاطفة الدينية والتى حملت قضية البرلمان إلى النصر فى إنجلترا . فإن الثورة التى يرجى من ورائها نتائج دائمة تتطلب بعض الإعداد الذهنى ؛ ولكن فى فرنسا تدبر أى حركة لإعادة بناء الملكية على أسس دستورية . فإن مجلس طبقات الأمة الذى انعقد فى عام ١٦١٤ قد انحل دون أن يوجه خطاباً للأمة بعد أن أظهر بوضوح يبعث على الدهشة مدى أنانية الطبقة الأرستقراطية . وكان برلمان پاريس هيئة وراثية من القضاة الوقورين المحترمين القديرين وقد عملت على قمع سلطان الملكية المطلق عن طريق حقها فى رفض تسجيل المراسيم الملكية . ولكن

هذه الهيئة كانت عارية من أى صفة نيابية عامة . وبديهى أن تدافع الهيئة ذات الامتيازات عن الطبقة صاحبة الامتيازات ، ولذلك فهى لم تعبر عن الإرادة العامة فى فرنسا إلا فى مناسبات نادرة ولفترات وجيزة وخلال بعض الأزمات الطارئة . وقد ظهرت مثل هذه المناسبة فى أغسطس ١٦٤٨ ، فاتحد النبلاء والشعب والبرلمان فى الاحتجاج على ضريبة الحرب التى فرضها مزران ، وفى المطالبة بالحرية المدنية والضمانات الدستورية . وقد كان الشعور متقداً لدرجة أنه عندما سجن مزران « بروسيل » Broussel بطل المطالب البرلمانية الموقر ، أقيمت ألف ومائتان من المتاريس فى أنحاء باريس ، وسقطت الحكومة .

على أنه فى حركة الفروند الأولى عندما كانت المسألة الدستورية محددة بوضوح وعندما كان الشعور إزاءها ملتهباً ، لم تجد هذه الحركة خارج البرلمان أى اهتمام مدعم للإصلاح أو أى محاولة منظمة لتخفيفه ؛ فإن زعيم الغوغاء فى باريس « پول دى جوندى Paul de Gondi » كان مفطوراً على التآمر ، يبحث فى المياه العكرة عن قبعة الكاردينالية ؛ أما السيدات الأنيقات اللائى لعبن دوراً نشطاً للغاية فى هذه الكوميديا الجدية فقد حمستهن دوافع بعيدة كل البعد عن إصلاح الدولة أو تحسين أحوال العامة . ولم يكن ثمة أى رابطة بين النبلاء الذين كانوا يرغبون فى أن يؤكد مجلس طبقات الأمة امتيازاتهم ويوسعها وبين البرلمان الذى كان يعتبر هذه الهيئة منافساً خطيراً له ، وإنما وجدت بينهما كراهية مشتركة للكاردينال وقد جردت هذه الخلافات بين القائمين على حركة الفروند هذه الحركة من كل اعتبار وقوة .

وكانت الفروند الأولى وافرة الأضرار والعيوب : ذلك لأن الحالة التى كان فى الإمكان معالجتها ببعض الترضيات الملائمة فى وقتها ويقصد احترامها بأمانة والمحافظة عليها فى حزم ، قد انحدرت بسبب الحقد وسوء النية إلى درجة جعلت الملك يفقد باريس ، ولا يتمكن من استعادتها إلا بعد حصار فعلى (معاهدة روى Rueil فى ١١ مارس ١٦٤٩) . ولكن أثيرت فى الفروند الأولى قضية معينة على الأقل لها أهمية دستورية حقيقية ؛ ومع أن قضاة باريس أعضاء البرلمان قد أساءوا إلى قضيتهم بانضمامهم إلى النبلاء المتمردين الذين أثاروا عواطف الغوغاء ، فقد كانت بين أيديهم قضية يتحتم على كل حاكم عاقل ألا يرفض الاستماع إليها : إذ أنهم نهضوا

يكافحون فى سبيل الحرية المدنية وإدخال نظام الرقابة على الأموال العامة . وإنها لوصمة كبرى فى مكانة مزران السياسة أنه كان سيئ القصد فى الترضيات التى اضطر إلى تقديمها للبرلمان مرتين فسحبها فى أقرب فرصة واتته .

كانت حرب الفروند الثانية أضعف مبدءاً ، وأشد خطورة وأعظم حزباً . فقد افتتحت باعتقال كونديه Condé ، صاحب انتصار روكروا Rocroi ولينز Lens وقائد جيش الوصى على العرش فى الثورة الأولى . ولم يكن فى مقدور أى رجل أو امرأة الصبر طويلا على الادعاءات التى لا تحتمل من هذا الجندى المتعجرف . على أنها كانت خطوة جريئة من جانب مزران أن يسجن رجلا له مثل هذا القدر من الثروة والمهابة والشهرة . هنالك انفجرت البلاد فى موجة عنيفة من الغضب ، أتت بالقائد تورين Turenne على رأس جيش إسپانى إلى بيكارى ، وأوقدت نار الثورة فى بوردو ، وأدت فى النهاية إلى إطلاق سراح كونديه وفرار مزران (يناير ١٦٥١) . وبالرغم من أن كونديه كان فى وسعه أن يعتمد على تأييد الحزب الثائر من النبلاء ، إلا أنه لانحراف مزاجه ، كان آخر من يستطيع التوفيق بين المختلفين فيربطهم جميعاً بتحالف سياسى . فلم يكد الائتلاف بين صفوف النبلاء من أصحاب السيف والنبلاء من أصحاب الرداء[1] يبدو حتى انفصمت عراه . ثم إن الوصية الأريبة قد كرست نشاطها بوحى من مزران لعمل هين وهو إثارة قائد منافس لكونديه ويماثله فى غروره وطموحه من دوائر الفروند الداخلية وهو پول دى جوندى Paul Gondi ، زعيم القساوسة والرعاع وكان قد انحاز إلى جانب البلاط على وعد برتبة الكاردينال . ولم يلبث القائد تورين بعد ذلك حتى استسلم لفعل الرشوة . مات كل من الرجلين فى موضع يخول له المساهمة فى الدفاع عن قضية الملك ، فكوندى كان ملك رعاع پاريس غير المتوج ، كما كان فى تورين وهو من أم هولندية أعظم جندى نظامى فى أوربا . وفى يناير ١٦٥٢ ، أعيدت الأمور إلى

---

(١) النبلاء أصحاب الرداء . الأشراف الفرنسيون الذين كانوا يمنحون ألقاب الشرف بحكم تقلدهم مناصب حكومية معينة . وقد كانوا عادة يشترون هذه المناصب بالمال – وكانوا أقل مرتبة من الوجهة الاجتماعية من « أشراف السيف » Noblesse de l'Epée الذين امتدت أصول أسراتهم إلى عهد إنشاء الملكية الفرنسية .

(٢) وقد أصبح فيما بعد الكاردينال ريتز Cardinal de Retz

نصابها حتى إن مزران أصبح قادراً على اللحاق بالوصية على العرش فى أورليان .

ومع ذلك بقيت بعض العوائق العظيمة التى يجب التغلب عليها حتى يمكن إعادة السلام إلى فرنسا . فهذا كونديه فى ميدان القتال مع نفر من الصحاب من خلاصة الناس فى پاريس ، وتحت سلطانه جمهرة من النبلاء المتمردين فضلا عن ثروته الخاصة الجديرة بملك . كما أن كونديه رغم تخلفه عن تورين فى الكفاءة الفنية كان أوفر قواد فرنسا حظًّا ممن زانوا جبينهم بأكاليل الغار فى حرب الثلاثين عاماً . ولكن مزران كان يعرف كونديه هذا ؛ فقد تبين له أن فى وسعه الاعتماد على ذلك الرجل الطاغية فى الوقت الملائم بحيث يقضى على حب الجمهور الرخيص له على أن التجربة قد كلفت فرنسا الشىء الكثير . وقد انسحب الكاردينال بحكمة إلى ما وراء الحدود بمجرد دخول الأمير كونديه پاريس (فى ٢ يولية ١٦٥٢) على رأس جيش قد جند نصفه من إسپانيا ، وقد أمدته ببعض المساعدة الآنسة « مونپنسييه » Monpensier وكانت شابة لطيفة ، تسعى يائسة للزواج من رجل مهيب . وعندئذ عندما لم يعد لأنصار مزران قيمة لاختفاء مزران تلاشت مهزلة هذه الفتنة وأغراضها .

وأخذ الأفراد العاديون يتساءلون عما يدعو إلى استمرار هذا الاضطراب المشين الذى كان شديد الضرر بالصناعات ، عظيم الخطورة على فرنسا ، فأدانوا معاهدة كونديه المخادعة فى إسپانيا ، وأنفوا من وجود جيوشه الإسپانية ، وسخطوا على اعتداءات السفاحين الذين يتبعونه ، وأخذوا يسائلون أنفسهم عن الأسباب التى أوقعت پاريس تحت رحمة هذا الشغب الغريب الذى أثاره بعض النبلاء التافهين والسيدات الرشيقات ورعاع الشوارع وجنود الأعداء . أما وقد تمادوا فى لعبتهم فقد أصبحت منافية للوطن : وأسوأ من ذلك موجبة للسخرية . وما كاد الأمير يفطن إلى أن رضى الشعب قد أخذ ينحسر عنه حتى بارح مقره وانسحب إلى إسپانيا . وفى ٢١ أكتوبر ١٦٥٢ ، عاد لويس الرابع عشر مرة أخرى إلى پاريس وانتهت حرب الفروند الثانية .

وقد خلفت هذه الثورة الموجبة للسخرية درساً انطبعت آثاره عميقة فى وعى الملك الصغير ؛ وتلك هى الأهمية الرئيسية التى كانت للفروند فى التاريخ العام .

فلم ينس لويس الرابع عشر مطلقاً الإهانات التى نزلت به صبيا ، عندما طوردت أمه فى پاريس وعندما أطلقت النيران من الباستيل على الجيش الملكى ، وكادت الملكية تنهار على يد النبلاء الثائرين ، وقد تحالفوا مع دولة معادية ؛ فقد خرج من هذه التجربة بحكمة مؤداها أن فرنسا فى حاجة إلى يد حديدية لملك مستبد لا يثق فى وزراء عظام ينهضون بأعماله ولكنه ينظر فى كل أمر بنفسه ويكبح جماح البلاد . وبذلك أدت اضطرابات الفروند رأساً إلى الحكم الفردى للويس الرابع عشر .

وعاش مزران حتى عام ١٦٦١ ، مؤيداً فى مركزه بانتصارات القائد تورين . وقد حقق فى الفترة الأخيرة من حياته انتصارات دبلوماسية لا تقل كثيراً فى أهميتها عن تلك التى قد ميزت بداية عهده رئيساً للوزارة . وأول ما واجهه الآن هو أن تنتهى الحرب التى طال أمدها مع إسپانيا بنجاح . ولم يكن الكاردينال إزاء أمر على هذا القدر من الأهمية ليسمح لأى اعتبار دينى أو أخلاقى يؤثر فى أعماله السياسية . فهو قد غذّى الثورة فى نابلى وقطالونيا والبرتغال ، وهو لم يحجم فى سبيل حمل عدوه على عقد الصلح عن التحالف مع الجمهورية الإنجليزية التى استباحت دم ملك إنجلترا .

ونتج عن ذلك الائتلاف (٣ مارس ١٦٥٧) موقعة الدن Dunes عندما ظهر جيش پيوريتانى إنجليزى لأول مرة فى معارك القارة وحارب تحت قيادة تورين ووجه الضربة الأخيرة فى الصراع بين إنجلترا وإسپانيا ، ذلك الصراع الذى كان قد بدأ منذ تسعين عاماً على صفحة المياه المشمسة فى أحد ثغور المكسيك .

ولقد أتم صلح البرانس (نوفمبر ١٦٥٩) الذى جاء مباشرة فى أعقاب الانتصارات الإنجليزية الفرنسية فى الفلندر ، أتم تأمين الأراضى الفرنسية . فى الحق أن قطالونيا قد تركت لإسپانيا ولكن بعدما بدا منها من إصرار عنيد على فصم عرى التحالف الأهوج الذى تسرعت فى عقده مع الفرنسيين . غير أن فرنسا قد نالت فتوحاً أخرى على حساب إسپانيا : روسييون Roussillon وسردينيا فى الجنوب ، وجزءاً من أرتوا Artois وطائفة متصلة من المدن على الحدود الشمالية الشرقية فى بلاد « الفلاندرز » وهنولت Hainault ولكسمبرج Luxemburg . وإذا كان الإنجليز قد

استولوا على دنكرك فقد كان ذلك — من وجهة النظر الفرنسية — العيب الوحيد لصلح رحبوا به .

ثم عقد قران ملكى فتوج عمل مزران . فقد كانت الأراضى المنخفضة الإسپانية وهى تمثل على وجه التقريب بلجيكا الحالية منذ أمد بعيد ومطمح أنظار الفرنسيين . ولكن كيف السبيل للحصول عليها ؟ — فسبيل الغزو باهظ الثمن مشكوك نجاحه على حين أن الزواج رخيص مهره ومضمون تحقيقه . ولما تأكد مزران من ضعف ابن فيليب الرابع الصغير من زوجه الثانية ضعفاً يقرب منيته ، فتح موضوع الزواج . فكان آخر ما حققه الكاردينال أن عقد الزواج بين ماريا تريزا كبرى بنات فيليب الرابع ولويس الرابع عشر . كم من نتائج باهرة كانت متوقعة من ذلك القران ؟ قد يكون فيها عقد صفقة لاقتسام الإمبراطورية الإسپانية مع ليوبولد إمبراطور النمسا الذى قنع بالزواج من الابنة الصغرى لملك إسپانيا ، وربما كان أثمن من ذلك أن تجتمع إسپانيا وفرنسا تحت تاج واحد . ولعل مزران توقع ما حدث فعلا وهو أن البائنة التى تنازلت ماريا تريزا فى مقابلها عن ميراثها لن تعبر البرانس أبداً .

لكن ما أضعف أحكم رجال السياسة فى التنبؤ بالمستقبل ، فإن الزواج الذى أثار مثل هذه الآمال العظيمة كان سبباً فى حرب مضنية شنتها فرنسا وإسپانيا على الإمبراطورية والدول البرية فى الشمال وخرجتا منها وقد ضعفت قوتهما ونفوذهما بدرجة محسوسة .

ولم يمض ذلك الدرس الفظيع الذى خلفته الحروب الدينية دون أن تعيه آذان الإنسانية . فهو قد ترك كتاباً عظيماً وتجربة هامة . أما المؤلف فهو المقال الشهير : قانون السلم والحرب De Jure Pacie et Belli ، ذلك المقال الذى تصور فيه المواطن الهولندى « هيجر جروسيوس » Hugo Grotius لأول مرة القانون الدولى فى معناه الشامل كعلم حديث . وأما التجربة فهى صورة مصغرة من عصبة الأمم (وضعها على نهر الراين فيليب فون شونبرج Philip Von Schonberg رئيس أساقفةماينز المستنير فى عام ١٦٥٨) . وفيها تعهدت الدول الأعضاء بتسوية منازعاتها بالطرق السلمية . وقد ترك العمل السامى الذى قام به جروسيوس العالم الإنسانى أثراً خالداً فى وعى أنصار السلام . فإذا لم يكن حظه من النجاح فى منع الحروب بأوفر مما كان

لتعاليم الكنيسة المسيحية فهو قد صور المفارقات التى أثرت فى قيم الأخلاق السائدة بين الدول من حيث التمييز بين الحروب التى يدعو إليها الحق وتلك التى يُثيرها الباطل ، وبين وضع المحاربين وغير المحاربين وأخيراً بين الوسائل التى تتبع فى الحرب مما يقع فى نطاق ما اصطلح عليه من قسوة مباحة وتلك التى تقع خارجه .

أما اتحاد الراين فإن النجاح الذى كان ينتظره كان محدود المدى ؛ إذ أن أهالى الراين بقبولهم فرنسا عضواً فى اتحادهم قد أحالوا الاتحاد من جماعة مسالمة إلى تحالف تسيطر عليه أهداف دولة عسكرية عدوانية .

كتب يمكن الرجوع إليها

— J.B. Perkins : France under Mazarin. (1886)

— C. de Cherrier : Histoire de France sous Mazarin. (1868)

— D. Ogg : Europe in the Seventeenth Century. (1925)

— V. Cousin : La Jeunesse de Mazarin. (1865)

— Lavissa : Histoire de France, Vol. VI.

الفصل التاسع عشر

الثورة العظمى فى إنجلترا

فشل الحركة المعادية للإصلاح الدينى – الحركة الإنسانية – الإنجيل – البحر – الروح العلمية – ضآلة أهمية إنجلترا نسبيا فى أوربا – غلبة التعصب – حق الملوك الإلهى – الشعور المعادى للكاثوليكية – مسألة السيادة – جيمس الأول – اتهام بكنجهام بالخيانة العظمى – تقتير البرلمان – نوع المعارضة البرلمانية . شارل الأول غافل عن علامات الخطر – إحدى عشرة سنة من الحكم الفردى – سترافورد Strafford ولود Laud – هجرات البيوريتان – الثورة الإسكتلندية وعودة الحكم البرلمانى إلى إنجلترا . البرلمان الطويل الأمد – جون پيم John Pym – الحرب الأهلية – أوليڤر كرمويل Oliver Cromwell – تعصب البرلمان – الصراع بين البرلمان والجيش – الحرب الأهلية الثانية وإعدام شارل – قوة الجمهورية العسكرية والبحرية . سياسة كرمويل الإيرلندية والإسكتلندى وسياسته الخارجية – طبيعة العهد الدكتاتورى ونتائجه .

بينما أنهكت الحروب الدينية القارة الأوربية مرت إنجلترا بأزمة الإصلاح الدينى دون أن تزعجها غارة خارجية أو اضطرابات داخلية خطيرة . فقبل أن يصل حكم إليزابث إلى نهايته كانت الأغلبية العظمى من الشعب الإنجليزى قد رضيت بالكنيسة التى صنعتها الدولة ، وهى الكنيسة التى لم تكن كاثوليكية ولا پرسبتارية ، وكانت من الأعمال العظيمة التى قامت بها اليصابات لتدعيم مركزها إزاء ضغط القوى المصارعة . وقد أمكن صد هجمات الحركة المعادية للإصلاح الدينى ؛ ذلك أن قرار العزل البابوى الذى أصدره پيوس الخامس فى غير ترو جعل الكاثوليك الإنجليز يواجهون صراعاً قاسياً فيما يتعلق بولائهم لدولتهم ونفر عن البابوية هذا الجانب الكبير من الرأى العام الكاثوليكى الذى كان إنجليزيًّا قبل أن يكون كاثوليكيًّا . وفقدت العقيدة القديمة مكانتها فى نفوس الناس بسبب ارتباطها الوثيق بقوة إسپانيا المعادية . كما أحبطت المؤامرات التى دبرها اليسوعيون لقتل الملكة – وكانت الدولة من القوة بحيث استطاعت أن تقتصد فى عقوباتها – ولو قورن عدد الكاثوليك الذين أعدموا بتهمة الخيانة العظمى فى عهد إليصابات بعدد البروتستانت الذين أحرقوا بسبب الإلحاد فى حكم مارى لتبين لنا أنه كان ضئيلا . على أن الاضطهاد دائماً أمر يؤسف له ؛

ولكن هؤلاء الرجال الذين عرفوا بسمو الإدراك تحالفوا مع دولة أجنبية لقلب نظام الدولة .

والحق أن الشعب الإنجليزى تمتع بيمن الطالع ، فقد تلقى الإنجليز تربيتهم من الحركة الإنسانية ، والكتاب المقدس ، والبحر ، واستدركوا ما فقدوه بسبب ارتباك المدارس خلال عهد الإصلاح الدينى بالتيارات الجديدة من الإلهام التى سرت فى حياة الأفراد عن طريق هذه المنابع الثلاثة المختلفة فيما بينها اختلافاً كبيراً . ففى عهد إليصابات ، على الرغم من أن الشعب الإنجليزى قد استمر شعباً ريفياً ، فإنه قد أصبح محبًّا للشعر والموسيقى وللكتاب المقدس كما بات شغوفاً بالبحر — وقد احتفظت المدارس بهذا الاتجاه الجديد فى الدراسات الإنسانية ذلك الاتجاه الذى كانت تعاليم إرزمس وكوليت القوة الأصلية الدافعة له . فأرسل نبلاء القوم وسراتهم أبناءهم إلى جامعتى أكسفورد وكيمبردج ، وكانتا يومئذ قد بدأتا تتجهان اتجاهاً حديثاً نحو تلقين الشباب من غير طلاب رجال الدين ثقافة عليا . وتعلمت السيدات والسادة اليونانية واللاتينية والإيطالية والفرنسية . وترجمت الآداب الإسپانية والفرنسية والإيطالية إلى اللغة الإنجليزية . وسرعان ما أصبح السفر إلى إيطاليا ، وإنشاء القصائد القصيرة (المكونة من أربعة عشر بيتاً) ونظم الشعر غير المقفى على الطريقة الإيطالية مطمح المحظوظين من الدارسين . ودخلت فى المسرحية الشعبية قصص من جميع أنحاء العالم لأمثال بوكاتشيو Boccacio وبانديللو Bandello وساكسو جرامتيكوس Saxo Grammaticus ، وكذلك من تراث الكلتيين القدماء ، فغذت عبقرية شكسبير ببعض المادة الجديدة .

وقد أخذت هذه الثقافة الأدبية الحرة تتغلغل فى المجتمع وأفادت من حيوية البلاط ونشاطه وقصور النبلاء والفنادق والمسارح بأكثر مما أفادت من المدارس والكليات بنظامها المحدود . وقد حال دون انحدار هذه الثقافة الحرة إلى مثل ما شاع فى إيطاليا من ترخيص وسخف ظهور عنصر آخر له أهميته فى الثقافة القومية تمثل فيما كشف عنه أخيراً الكتاب المقدس فى ترجمته الإنجليزية من ثراء وروعة . فقد مضى قرنان ونصف حين لم تكن قد ظهرت بعض الصحف الرخيصة والروايات ، والطبقة الفقيرة والمتوسطة من الشعب الإنجليزى لا تستمد قوامها الفكرى وغذاءها

الروحى إلا من كتب اليهود المقدسة . وكان سلطان هذا الأدب الحاد العذب فى آن واحد فريداً فى نوعه وعالمياً . وغدا الكتاب المقدس فى كافة كنائس الأبروشيات مفتوحاً وفى متناول كل قارئ . وهنالك تحققت فكرة الجامعة الشعبية . فراح الناس يغترفون من هذا المزيج الوافر حيث اختلطت أقدس وأسمى آيات الفكر الشرقى البعيد بتراث الماضى الخشن . وراح أفراد الشعب الإنجليزى يجوسون خلالها بمحض إرادتهم ، لم يرشدهم فى ذلك أحد ، ولم تعترض سبيلهم عقبات . فكانوا يلقون دائماً فى طريقهم دروساً أعانتهم على السلوك فى الحياة ، تميز بعضها بالعمق والجمال السرمدى، على حين كان بعضها الآخر باعثاً للهمم والزهو والاكتفاء الذاتى .

ومثل البحر عنصراً ثالثاً فى الثقافة الإنجليزية فى ذلك العهد ، وبات قصص الجغرافيين يسيطر على أخيلة الشعب حيث صور لهم أن كل شىء ممكن فى عهد امتدت فيه آفاق الآمال والمعرفة . فتساءل « هكلويت » Hakluyt مَنْ من ملوك هذه البلاد قبل مليكتنا قد شوهدت أعلامه خفاقة فى وقت من الأوقات فوق مياه بحر قزوين ؟ بل مَنْ منهم قد اتصل بإمبراطور العجم واستطاع ، كما فعلت جلالتها ، الحصول لتجارها على امتيازات ودية واسعة ، ثم من شاهد قبل عهد هذه الدولة أحد الرعايا الإنجليز يمثل الملكة لدى الباب العالى فى القسطنطينية ؟ وهل رأى أحد قبل اليوم قناصل وقائمين بالأعمال من الإنجليز فى طرابلس وحلب بسوريا وبابل والبصرة Balsava[1] ، بل من ذا الذى سمع إطلاقاً بوجود إنجليزى فى «جوا» Goa قبل الآن ؟ ثم هل كانت السفن الإنجليزية فيما مضى تستطيع الرسو فى نهر البلاتا العظيم » ؟ كل هذا قد تجده : بعضه واضحاً وبعضه ملحوظاً فى كتابات شتى مثل تمبورلان Tamburlane لمارلو Marlow و « مزوفيلوس Musophilus لدانييل Daniel على حين يفلت بعضه الآخر عن الملاحظة ونعنى أثر روح المغامرات الدامية فى البحار فى أسلوب الشعراء فى عصر إليزابيث بالإضافة إلى بعض ما كان يداعب نفوس المغامرين من آمال . وهناك أمران كانا أفعل من كل أثر مباشر فى الثقافة : أولهما النظام الذى فرضه البحر على المتعلقين به ، وثانيهما السحر الذى فتن به رجال البحر فى عصر المغامرة والاستكشاف والحروب

---

(١) يقصد Balsara وهو الاسم الذى كان يطلق على البصرة فى عصر إليزابيث .

البحرية . فبعد أن كان البحر عند هوراس Horace مصدر رعب غدا منذ يومئذ فرصة بريطانيا .

ومن الممكن اعتبار الروح التقدمى الجرىء الذى تميز به دنييل فى مسو فيلوس (١٦٠١) أنموذجًا لذلك التكوين الحديث للفكر الإنجليزى الذى نتج عن امتزاج حركة النهضة بحركة الإصلاح الدينى . فالكاثوليك كانوا قد قدموا فلسفة متكاملة للحياة ، صاغتها عبقرية اللاتين ، ثم بلغت حد الكمال فى القرن الثالث عشر . ومن هذا الإطار المغلق للتعاليم أخذت كافة قوى الحركة الإنسانية ودراسة الكتاب المقدس المطلقة ، والمغامرات البحرية تستمد الجانب الأفضل من الأمة . وتغير مركز اهتمام المفكرين . فأخذت عبقرية فرنسيس بيكون التنبئية تدعو الطالب إلى هجر أرسطو والدراسات الفلسفية والتحول إلى الانصياع لدراسة الطبيعة . وهكذا انزاح الستار عن خفايا العالم عن طريق الاستنتاج وليس عن طريق الترجيح .

ويبدأ القرن السابع عشر بأحلام فرنسيس بيكون البراقة بينما ينتهى بإثبات إسحاق نيوتن المحكم : أن الكون بأكمله وحدة عضوية واحدة ، وبين عهدى هذين العالمين فصل طويل مجيد من جهود العلماء الإنجليز : بدأت باكتشاف هارفى Harvey للدورة الدموية فى ١٦٢٤ (ولم يتوصل إلى ذلك إلا لأنه قد اختبر كافة نظرياته بالتجربة) ، ثم تابعها روبرت بويل Robert Boyle بما حققه من فتح فى علم الكيمياء . كما وضحت جهود العلماء فى الجمعية الملكية التى أنشئت ، وبفضل هذه الجهود نالت إنجلترا مكانة ممتازة فى عالم الفكر فى أوربا ، تلك المكانة التى لم تتمكن من تحقيقها عن طريق شهرة شاعر كشكسبير أو ملتون محصورة فى الجزيرة البريطانية ؛ ذلك لأن إنجلترا ظلت ضعيفة الأثر فى أوربا منذ وفاة الملكة إليزابيث حتى عهد أوليفر كرمويل . فإن مدرسة الدراما والشعر الإنجليزية العظيمة التى أينعت فى عهد إليزابيث وخلفها جيمس مضت دون أن تلقى إليها القارة الأوربية بالا إلى أن قام « شلجل » Schlegel بترجمة شكسبير إلى الألمانية فى نهاية القرن الثامن عشر ، بل إن هذه النهضة الأدبية قد غشاها بعض الأفول فى إنجلترا ذاتها وسط السحب المتكاثفة للعقيدة البيوريتانية . كما لم تكن لإنجلترا أهمية جدية فى موازين السياسة الأوربية ومقاييسها باستثناء عهد

الجمهورية ؛ فقد أهملت البحرية فى عهد جيمس ، وعلى الرغم من أن اهتمام شارل بتقوية البحرية كان أعظم فإنها لم تصل مطلقاً فى عهده — بسبب تقتير البرلمان — إلى درجة من القوة تجعلها صالحة على الأقل لحماية البحار البريطانية من القرصنة . حقاً لقد حارب جنود بواسل من الإنجليز لنصرة القضية البروتستانتية فى إقليم البلاتين ، وفى الأراضى المنخفضة ، وبين صفوف جيوش جستاف أدولف . ولكن لم يكن لإنجلترا جيش قائم ، كما أن تدخل إنجلترا لم يؤثر بدرجة فعالة فى مجرى السياسة الأوربية من أى ناحية من النواحى إلى أن كان عهد كرمويل الذى حوّل إنجلترا لأول مرة فى تاريخها إلى دولة عسكرية .

وأثناء هذه الفترة من العزلة والظلام النسبى كان الشعب الإنجليزى يواجه مشكلتين جسيمتين متصلتين إحداهما بالأخرى : الأولى مشكلة دينية والثانية دستورية وسياسية .

عجزت الكنيسة الرسمية للدولة التى أسستها إليزابيث عن إرضاء الروح الدينية الجريئة التى كانت تستقى الإلهام من الكنائس البروتستانتية التقدمية فى سويسرا . فكره البعض مبدأ الكنيسة الرسمية للدولة فى حد ذاته ، وكره البعض الآخر النظم الأسقفية ، وكره فريق كبير استعمال الحلة الكهنوتية البيضاء ، وموضع المذبح جهة الشرق ، كما كرهوا طقوساً دينية وثيقة الصلة بالطقوس الرومانية . ومن ثم نشأت المسألة التالية وهى هل فى الإمكان توسيع الكنيسة إلى حد استيعاب هذه السلسلة الممتدة من الحركات الفكرية والمشاعر البروتستانتية ؛ فإذا كان الجواب بالنفى ماذا يكون مصير البروتستانت الذين يتحتم بقاؤهم خارج الكنيسة الرسمية ، فهل من المستطاع أن يكون ثمة تسامح داخل الكنيسة إزاء وساوس البيوريتان ؟ وهل من الممكن اتباع سياسة من التسامح الدينى إزاء المجتمعات البروتستانتية المختلفة التى يعترف بها خارج الكنيسة ؟ كانت الإجابة عن السؤال الأول فوراً بالنفى — إذ رفض جيمس الأول ولود Laud كما رفض رجال الكنيسة الإنجليكانية فى عهد الملكية بعد عودتها أن تستوعب الكنيسة تلك المذاهب . ولعلنا نأسف لذلك . وقد يكون فى وسعنا أن نقدر أنه ربما كان من الممكن تجنب كثير من المتاعب فى عهد الملكين الأولين من أسرة استيوارت لو كان هنالك مقدار أوفر من المرونة والسماحة إزاء مؤلفات

العقيدة البيوريتانية فى مسألة الشعائر الكنسية . ولكن التاريخ قد اتخذ الاتجاه الثانى ، عندما آثر ثلثمائة قس بيوريتانى اعتزال أعمالهم التى يتعيشون منها فى عام ١٦٠٤ على أن يتبعوا كتاب الصلوات كما طلب منهم أن يفعلوا ، ومن ثم واجهت أسرة استيوارت التى أودت بشارل الأول .

ذلك لأن فكرة التسامح التى كانت تتضمن الإجابة الصحيحة عن السؤال الثانى ، والحل الوحيد للمشكلة كلها ، كانت غريبة على الأذهان فى ذلك العهد ؛ فلم تتقرر إلا جزئياً بمرسوم برلمانى فى نهاية القرن السابع عشر بعد أن أدى الإنجليز الثمن باهظاً : حرباً أهلية وتغييراً فى الأسرة الحاكمة ؛ إذ أن الأوربيين لم يتلقوا دروساً فى التسامح الدينى فى عهد الكنيسة الرومانية الطويل ، كما أنهم أبطأوا فى تعلمها وسط العواطف العنيفة التى أطلقها الانشقاق الكبير — ولم يكن جون نوكس John Knox ووليم لود William Laud أكثر تساهلا من أجناس ليولا Ignatius Lyola ودوق ألفا . وكان الدفاع عن السبيل الوسط الذى انتهجته الكنيسة ناجحاً طالما كانت الملكة العظيمة إليزابيث على قيد الحياة بفضل الإدارة الحازمة لرئيس الأساقفة ويتجيفت Whitgift إزاء الكاثوليك فى جانب ، وإزاء المذاهب البروتستانتية فى جانب آخر . ولكن مما لا شك فيه أن تيار الفكر داخل الكنيسة كان يطرد ابتعاده بانتظام عن روما ويتجه نحو المذهب البيوريتانى .

وقد عارض هذا الاتجاه فى إصرار جيمس الأول الابن الشاذ لمارى استيوارت وهنرى دارنلى Henry Darnley وشارل ابنه ؛ ولم يصدر ذلك عن رغبة هذين الملكين العودة إلى حظيرة الكنيسة الرومانية . إذ كانت مكانة الحاكم الأعلى للكنيسة فى إنجلترا ترضى فى الملك كل ما يتطلبه ضميره وكبرياؤه . فقد كانا على المذهب الأسقفى ، وكانا بدرجة متفاوتة إذ كان شارل أكثر صراحة من أبيه فى كهنتيته من أنصار الكهنوت « لا أسقف ولا ملك » عبارة قالها جيمس لزعماء رجال الدين البيورتيان فى مؤتمر « هامبتن كورت Hampton Court عام ١٦٠٤ ، واكتسب هذا الاقتران بين الأسقفية والملكية ، الذى أصبح حجر الزاوية فى نظام أسرة استيوارت نوعاً من التقديس بظهور مبدأ جديد تحمس بالتبشير له أساقفة ينتمون لبلاط الملك وهو أن الملك يتقلد تاجه بمقتضى حق إلهى . ولم يكن أمر الدفاع عن

هذه النظرية ممكناً ، ولكنها كانت ملائمة . فأسرع رجال الدين فى الكنيسة الإراستية Erastian Church[1] فى تأييد فلسفة قد أضعفت من الطابع الدنيوى لمؤسستهم ؛ ثم إن الملك جيمس ، وقد كان حقه فى وراثة العرش موضع النقد قد سر كثيراً بدعوى قيام ملكية استيوارت بإرادة الله .

وثمة اعتراض كبير على سيطرة السياسة على الدين ، فالحكم الذى يستمد سلطته من الدين قد لا يخنع ، إذ يشق على ملك يعتقد أنه اللسان المعبر عن الإرادة الإلهية التى لا يعتريها تبديل أن ينزل عن شىء أو يساير الظروف ، وهو أمر يساعد فى الظروف العادية على تسيير دفة الحكم . ولو كان مبدأ الحق الإلهى للملوك مجرد تنميق لطيف فى القول لما آذى أحداً ، على أنه لم يكن شيئاً من ذلك عندما أنذر جيمس زعماء رجال الدين البيوريتان فى سنة ١٦٠٤ أنهم إذا لم يمتثلوا هم وأصدقاؤهم فإنه سوف يطردهم من البلاط طرداً . وكانت النتيجة أن تنازل ثلثمائة من رجال الدين عن معايشهم مؤثرين ذلك أن يمتثلوا لإرادة الملك .

ولا يمكننا فهم حقيقة الصراع الذى بدأ هكذا مبكراً بين البيوريتان وملكية ستيوارت إلا إذا أدركنا عمق الشعور المناهض للكاثوليكية الذى كان يسود فى ذلك الوقت ، ذلك الشعور الذى لم يقتصر على غالبية رجال الدين بل ساد لندن والثغور وأفراد الطبقة الكادحة من المجتمع . فى هذه المناطق التى عبر الرأى العام فيها عن نفسه ساد الشعور بالخوف والحقد على الكاثوليكية لعدة أجيال ؛ فإن ذكريات شهداء عهد مارى والأرمادا الإسپانية وتدبير المكائد ضد حياة الملكة العظيمة كانت لا تزال حديثة العهد عندما اعتلى جيمس الأول العرش . وقبل أن تضعف هذه الذكريات جاءت مؤامرة جاى فوكس Guy Fawkes (وقد دبرها بعض السادة الكاثوليك) لنسف البرلمان بمجلسيه . فكانت جريمة نقشت فى أذهان العامة رعباً

---

(١) Erastian Church : الكنيسة الإرازستية نسبة إلى توماس إراستوس (Erastus, Thomas) (١٥٢٤ — ١٥٨٣) ، رجل دين سويسرى ألمانى اتبع عقائد زونجلى ودافع عنها وقاوم محاولات الكلفنتيين لفرض النظام البرسبتارى على الكنيسة الزونجلية وفقاً للنموذج الجنيفى . ولا مجال على الإطلاق للمشاكل فيما يتعلق بالعلاقات بين الكنيسة والدولة لدى إراستوس ومن ثم كان Erastianism of Westminster معناه خضوع الكنيسة لسلطة الدولة .

عميقاً لا تزال ذكراه قائمة فى بعض المدن والقرى الإنجليزية حين تقوم جموع الناس سنويًّا بإشعال حرائق رمزية لحرق البابا .

ويضاف إلى ما ذكرناه من بواعث الحقد والخوف ما كان يحوط مصائر البروتستانت فى القارة الأوربية من قلق وشك فى نفوس أبناء دينهم من الإنجليز ، فإن حروب الهيجونوت وصراع الهولنديين البروتستانت الطويل الجرىء ، والمصائب التى نزلت بقضية البروتستانت فى بوهيميا والپلاتين أثارت أقوى مشاعر العطف فى إنجلترا . وفى عقلية الحرب هذه التى بعثها هذا الصراع بدت بعض النقاط البسيطة المتعلقة بطقوس أو ملاحظات دينية مما قد يبدو تافهاً فى عهد أكثر هدوءاً وتسامحاً ، بدت على جانب عظيم من الأهمية حتى لترى الكثير يبارحون أسرهم وديارهم ويواجهون عواصف المحيط الأطلسى حتى لا يشهدوا مائدة القداس وقد تحولت إلى أقصى اليمين من كنيسة القرية ، حيث استقرت لتجتر الحقد على القداس الكاثوليكى .

أما المسألة الدستورية فقد كان مدار البحث فيها حول المعين الحقيقى للسلطة العليا : أهو الملك أم البرلمان ؟ وربما كان من الخير أن تلك المسألة العميقة ، مسألة توفيق القوى داخل الدولة ، لم تدرس أبداً على أنها موضوع نظرية فلسفية — وإنما جاهد فيها رجال عمليون مستندين على مقتضيات الحياة العملية يوماً بعد يوم ، وعلى ضوء السوابق التاريخية . ومن أجل ذلك كان الحل النهائى الذى ألهمت به التجربة الملحة هو تكوين مجلس وزراء يشير على الملك ويحمل المسئولية عن جميع أعماله أمام البرلمان ، وقد صمد هذا الحل لكافة الأعاصير السياسية ، ويُعد أعظم ما استطاعت الحكمة البشرية أن تبدعه لنظام الحكومة الحرة . غير أن الحل كان معقداً غامضاً ، لا تؤيده السوابق التاريخية ؛ وحتى أواخر القرن الثامن عشر عجز الذين صنعوا الدستور الأمريكى عن فهم طبيعة نظام مجلس الوزراء وعمله . وإذا كان رجال السياسة قد أخطأوا مرماه مدة طويلة فى عهد أسرة ستيوارت فإن ذلك أمر لا يدعو إلى الدهشة .

وإن الأهمية البالغة لهذه القضية الدستورية تكمن فى الحقيقة الآتية : إن السادة أعضاء مجلس العموم قد نما فيهم الاهتمام القوى بكثير من شئون السياسة العامة وخاصة شئون الدين ، ومسائل السياسة الخارجية المتفرعة عن الدين ، والشئون المالية —

وقد وجدوا أنفسهم فى هذه الشئون وقد وقفوا معارضين أشد المعارضة للتاج .

فتقاليد الإنجليز كانت برلمانية من قديم . أما استبداد أسرة التيودور فقد كان بدعة جديدة ، ولم يقبله الإنجليز إلا لأنه كان ثانى أمرين أحدهما الحروب الأهلية والغزو الخارجى ، وأيده ما تمتعت به أسرة التيودور من هيبة ومقدرة ومهارة فى معالجة البرلمان — وقبل أن تنقضى أخطاء الأرمادا لم يكن لدى البرلمان غير استعداد ضئيل لمقاومة أعمال الملك على حين أنه فى أواخر عهد إليصابات جهر الناس بالتذمر الذى أصبح نذيراً بهبوب العاصفة ومن ذلك ما وقع مرة حول مسألة الاحتكارات عام ١٦٠١ عندما تبينت إليزابيث روح الشعب فى معارضة أعضاء مجلس العموم فرأت بعين البصيرة أن الحكمة فى الإذعان المؤقت . وفى لهجة سامية ، لهجة تبين عن سر سحرها وقفت إليزابيث تعلن عدولها لأعضاء مجلس العموم الأوفياء : « إذا كان الله قد بوأنى مكاناً علياً ، فإنى مع ذلك أرى جلال التاج فى أننى حكمت مؤيدة بحبكم . ومن أجل ذلك لا أرى السعادة فى أن الله قد أقامنى ملكة بقدر ما أراها فى كونى ملكة على شعب جد شكور » .

أما جيمس الأول وهو لا يتمتع بأى قدر من هذه الكياسة الفاتنة وبوجهة نظر تخالف تماماً وجهة نظر الأعيان وعامة رجال القانون فى البرلمان ، فلم يلبث أن أفلح فى تأجيج أوار معارضة برلمانية شديدة الخطر . كان الملك حاذقاً ومثقفاً وفكهاً ، ومن نواح متعددة أكثر استنارة وإنسانية من كل أفراد شعبه . إلا أنه كان شديد المراس بسبب غروره ، وكان فى تقديره للمواقف السياسية من أسوأ من تربعوا من الحكام على عرش إنجلترا فى أى عهد من العهود ؛ فقد جانبه الصواب فى كل شىء ، وأثار عاصفة من السخط بسبب سياسته الخارجية الودية لأسبانيا وقد اختار من المقربين إليه أولا روبرت كار Robert Carr ، ثم جورج ڤللير ز George Villiers وهو دوق بكنجهام Duke of Buckingham ، وكانوا جميعاً موضع السخط العام . كما أثار عليه تجار المدينة ، وتحدى البرلمان فى اختصاصاته المالية عندما حاول أن يفرض ضرائب غير مباشرة (أو قروض) مستخدماً ماله من حقوق . وكان له رأى خاطئ فى البرلمان ؛ كما بلغت به الحماقة أن صرح به . فأخبر اللوردات وأعضاء مجلس العموم أن امتيازاتهم ليست قائمة على حق وإنما هى منحة

ملكية ، وقال إن مجلس العموم « لا يتمتع إلا بحكمة خاصة ومحلية » . وأعلن بوضوح أن واجب أعضاء مجلس العموم مقصور على إقرار موارد الدولة والتعبير عن آراء ناخبيهم ، أما تشكيل السياسة القومية وتنظيم الكنيسة القومية فمن مسائل السياسة العليا التى يبت فيها الملك وحده . وقد أجاب البرلمان على ذلك فى عام ١٦٢١ باحتجاج شهير تناول الأسس الجوهرية للقضية العظمى : إن حرية البرلمان وامتيازاته واختصاصاته حقوق أصيلة قديمة لا شك فيها توارثها الشعب الإنجليزى ؛ وإن المسائل الخطيرة والشئون العاجلة المتعلقة بالملك والدولة والدفاع عن البلاد وعن كنيسة إنجلترا ووضع القوانين وصيانتها وإنصاف المظلومين كلها موضوعات ومسائل من اختصاص البرلمان، يتشاور فيها أعضاؤه ويتناقشون» . وقد وجد الملك أن هذه المبادئ تعارض آراءه الدستورية لدرجة أنه مزق تلك الصفحة المهينة من مضابط مجلس العموم ، وحل البرلمان ثم اتهم سبعة من أعضائه بالخيانة العظمى . وكان جون پيم أول زعيم للثورة الپيوريتانية أحد أولئك الذين عانوا من اضطهاد الملك .

وكان يترتب على التسليم بحرية البرلمان فى تشكيل السياسة العامة والاعتراض عليها أن يكون البرلمان أيضاً حرًّا فى عزل الوزراء الذين تعتبر آراؤهم ماسة بالمصلحة العامة . ولكن كيف السبيل إلى تحقيق ذلك ؟ لم يكن هناك من سبيل أصلح من تلك الوسيلة القديمة العنيفة المعروفة وهى الاتهام بالخيانة . وكانت تتمثل فى محاكمة قضائية فى مجلس اللوردات بناء على تهم قد حددها مجلس العموم . تلك طريقة خرقاء غير قانونية وغير ملائمة ؛ فإن أخطاء رجال السياسة لا تنبنى عادة على عذر أو خيانة عظمى أو مخالفة أو غير ذلك من التهم التى تستوجب المحاكمة القضائية وإنما قد تنجم عن خطأ فى الحكم أو انحراف المزاج أو فى سوء التقدير . ومهما كان لتهمة الخيانة من فائدة منتظرة فى نتائجها السياسية فقد كانت غالباً بعيدة عن العدل فى إجراءاتها وفى العقوبة التى يحكم بها . ومع ذلك فقد لجأ أعضاء مجلس العموم خلال القرن السابع عشر المرة تلو الأخرى إلى تلك الوسيلة بغية الوصول إلى ما كان يبدو لهم بغير ذلك بعيد المنال ، ونعنى استبعاد الوزراء من المتعسفين ومن غير المرضى عنهم . وهكذا بتلك المقرعة الثقيلة استطاع الزعماء البرلمانيون فى ذلك العهد أن يمهدوا الطريق الذى انتهى إلى اصطناع وسائل أخرى مما تأخذ به البرلمانات الحديثة وهى وسائل أخف وأحكم .

كان جورج ڤلليرز، George Villiers ، دوق بكنجهام، جريئاً مسرفاً رقيقاً لطيف العشرة ، غير أنه فى تدبير أمور الدولة كان ناصحاً متهوراً وعنيداً . وكان المستشار المفضل لدى الملك جيمس الأول خلال السنوات الأخيرة من حكمه، كما غدا صديقاً حميماً وناصحاً يعتمد عليه لابنه شارل الذى خلفه على العرش عام ١٦٢٥ . غير أن البرلمان كان عديم الثقة به ، كثير النقد لعمله وقد حاول فى النهاية أن يعزله عن طريق اتهامه بالخيانة . وبات زعماء مجلس العموم لا ينتظرون خيراً من الحكومة طالما بقى ذلك المحظوظ البهى المتعجرف قريباً من ساحة العرش . على أن المنازعات التى قامت بين شارل والبرلمانات الثلاثة الأولى لم يكن مبعثها فى حقيقة الأمر غير حقيقة واحدة وهى أن الملك قد أصر على تعضيد وزير صمم النواب على خلعه . ولم يكن ثمة عمل أشد مجافاة للحكمة لخلق جو من المرارة من تمسك الملك بصداقته لبكنجهام على أن تلك المرارة قد توارثها العهد الجديد عن العهد القديم . وآية ذلك أن البرلمان قد تخلى فوراً عن عرفه التقليدى منح الملك الجديد ما قيمته ٣٠٠,٠٠٠ من الجنيهات مدى حياته، فاقترح النواب أن تكون هذه المنحة لمدة عام فقط . والواقع أنهم بلغوا فى الاقتصاد حد التقتير كما بلغوا فى ارتيابهم حد الإجحاف ، فهم لا يأتمنون دوق بكنجهام فى الأموال العامة على شروى نقير .

ولن نجاوز الإنصاف حين نأخذ على برلمانات العهد الأول من حكم أسرة ستيوارت أنها لم تراع العجز الذى أصاب مخصصات الملك التقليدية نتيجة لهبوط قيمة العملة، بل إنها كذلك لم تكن مستعدة لرفع الثمن الذى تتطلبه سياستها الخاصة التى كانت تهدف إلى محاربة الإسپانيين وإنقاذ البلاتين ومعاونة الهيجونوت على ريشيليو . غير أنهم لم يكونوا على استعداد مطلقاً لتقديم الموارد التى لا يمكن أن تتحقق بدونها مشروعات من هذا النوع وعلى مثل هذا النطاق . ولو قد قدر لهم أن يضبطوا مصروفات الدولة ويراقبوا سير الإدارة إذاً لتعلموا أن يكونوا أكثر حكمة وسخاء . ولكنهم كانوا يحقدون على كل فلس ينفق . فدفعوا شارل بتقتيرهم هذا إلى أن يسلك سبلا غير دستورية بغية الحصول على المال ؛ دفعوه إلى فرض ضريبة السفن وإلى القروض الإجبارية ثم دفعوه فى النهاية إلى منازعات بلغت من الشدة حداً أدى إلى تعطيل الحياة البرلمانية عدة أعوام .

على أن الساسة الإنجليز الذين تصدوا للدفاع عن الحريات الدستورية خلال هذه الفترة كانوا من طراز لانظير له فى كافة الدول الأوربية ، فهم فى الغالب كانوا من سراة الريف ، رققهم قبس من العلوم الإنسانية ، فهم قد فلحوا الأرض ، وطردوا الصيد ولعبوا مع ذلك دوراً خطيراً كقضاة للصلح [١] فى مقاطعاتهم المحلية ؛ وكانت الأصول الهامة للقانون العام الإنجليزى مألوفة لديهم . وعلى الرغم من أنهم كانوا أكثر الهيئات تمسكاً بالنظريات فقد كانوا أشد تشبثاً بالأصول الشرعية . عليهم مسحة من ذلك الوقار الدينى السامى الذى امتاز به رجال القانون من الجانسنست [١] فى برلمان باريس ، بل كانوا أوسع منهم خبرة بالحياة ، وأكثر استعداداً لمقارعة السياسة . كانوا فى قرارة نفوسهم رجالا وقورين سريعى الانفعال ؛ أحسوا بالمسائل العويصة إحساساً عميقاً ؛ وعلى الرغم من أن مجلس العموم قد أصبح عن طريق نظام اللجان أداة جد ملائمة لمعالجة الشئون الدقيقة علاجاً فعالا فقد كان ثمة مناسبات اشتد فيها انفعال الأعضاء حتى استسلموا لسيل من الدموع .

عجز شارل عن سياسة هؤلاء الرجال الذين ملأهم الجد والنشاط والعناد . ولا يمكن الاستعاضة بالفضيلة والتهذيب عن الإدراك العام الذى يحف به المرح واللين والذى من شأنه وحده أن يحفظ للسياسى مهارته فى الأجواء العاصفة . فكان يلجأ فوراً إلى حل البرلمان الذى يضايقه ، وإيداع العضو المزعج بصفة خاصة السجن دون محاكمة . إذ لم يدرك معنى معاملة الخصم الأمين معاملة أمينة ، كما لم يتورع عن استخدام نفوذه العظيم لدى القضاء للحصول على أحكام تتفق مع الرغبات

---

(١) Justices of the Peace قضاة الصلح : قضاة محليون فى إنجلترا لا يتقاضون مرتبات ، يتمتعون بسلطات واسعة فى الفصل فى القضايا الصغرى ، ويخضعون لعقاب الملك إذا أساءوا استخدام سلطاتهم . كان وليم الأول أول من عينهم فى ١٠٧٦ . وفى ١٣٢٧ عين إدوارد الثالث من يعرفون بالمحافظين على السلام Conservators of the Peace وحددت اختصاصاتهم فى ١٣٦٠ .

(٢) Janserists : الجانسنيون أتباع كورنيلس جانسن Cornelis Jansen (١٥٨٥ – ١٦٣٨) وهو لاهوتى هولندى ينتمى إلى الكنيسة الكاثوليكية . سعى إلى تقويم الحياة المسيحية بالعودة إلى تعاليم القديس أوجسطين ؛ وأسس مذهباً عرف باسمه Jansenism نادى فيه بضرورة التقشف والحصول على النعمة الإلهية وقلل من أهمية الشعائر المظهرية مثل تناول العشاء الربانى . وقال إن المبدأ القائل بعصمة البابا عن كل خطأ يجب ألا يؤخذ قضية مسلمة . وقد قضى مرسوم بابوى صدر سنة ١٧٠٥ ، وآخر فى ١٧١٣ بطرد أتباع هذا المذهب من الكنيسة الكاثوليكية .

الملكية . ومع ذلك فقد تجمعت نذر الخطر : من ذلك اللوردات الخمسة عشر الذين أبوا أن يدفعوا القرض الإجبارى فى سنة ١٦٢٦ ، والفرسان الخمسة الذين أودعوا السجن « بإعلام خاص من الملك » لرفضهم دفع ذلك القرض . وقد احتجوا بعد ذلك فى قضية شهيرة على أنه على الرغم من ذلك كان من حقهم أن يطلق سراحهم بمقتضى قانون الـ Habeas Corpus[1] ؛ ثم كان هناك تجار لندن وقد رفضوا دفع الضرائب . وأخيراً أصدر برلمان ١٦٢٨ وثيقة ملتمس الحقوق ، وقد وضعت بضغط من سير إدوارد كوك العظيم Sir Edward Coke القاضى الأعلى لمحكمة الدعاوى العامة ، وقد أعلنت عدم شرعية أربعة من أعمال الحكومة وهى : التصريح بالأحكام العرفية ، إيواء الجند والبحارة فى المنازل الخاصة ، جباية القروض والضرائب بدون موافقة البرلمان ، والسجن التعسفى (دون محاكمة) . ولم يكن شارل ليلتفت لأى من هذه الإنذارات . ومن ثم انفجر سخط الشعب فى ٢ مارس ١٦٢٩ .

ورفض مجلس العموم فى الدورة الثانية للبرلمان الثالث أن ينفض بأمر من الملك . وبقى رئيس المجلس فى مكانه ، وبإشارة من سير جون إليوت John Eliot تُلى القرار التالى على المجلس : إن كل من يُدخل فى الدين بدعاً أرمينية أو كاثوليكية وكل من يُشير بجباية الضرائب قبل موافقة البرلمان ، وكل من يؤدى هذه الضريبة يعتبر عدواً للمملكة والمصلحة العامة . وهنا حل الملك البرلمان ؛ وبدأ عهداً من الحكم الشخصى امتد ما يزيد على إحدى عشرة سنة .

وكان توماس ونتورث Thomas Wentworth الذى أصبح فيما بعد إيرل استرافورد Earl of Strafford شخصية بارزة بين الزعماء السياسيين الذين شغلوا بمسألة إقرار ملتمس الحقوق . أما الدوافع التى جعلت هذا السياسى القوى الخيالى إلى الانحياز فى بداية الأمر إلى جانب البرلمان ، ثم إلى التحول بجهوده بعد ذلك

---

(١) Habeas Corpus : أمر قضائى يوجهه قاض إلى شخص ما سجن شخصاً آخر وهو يقضى بإحضار السجين فى موعد ومكان يحددهما القاضى لكى يمثل أمام المحكمة لسماع أقواله . وعرف القانون فى إنجلترا منذ القرن الرابع عشر وأصبح علاجاً لسجن الأشخاص دون سند قانونى . وأجاز البرلمان الإنجليزى عام ١٦٧٩ هذا القانون لكى يدعم الحرية الشخصية فى إنجلترا ويمنع الحكومة من سجن أى شخص دون تقديمه إلى محاكمة قانونية على أثر القبض عليه .

لتأييد الملك ،فكانت أقل وضوحاً لمعاصريه مما أصبحت عليه منذ ذلك الوقت . ومن ثم اتهم Wentworth بالردة فى آرائه السياسية . على أنه فى مجال نضال التحول لا يمكن إطلاق لفظ مرتد إلا على من يتبرأ من الجانب الأصلح من نفسه . ولكن ونتورث لم يفعل شيئاً من هذا . فقد كانت نزعته الملكية تجرى فى عروقه ، على أنه كان كذلك متحمساً للإدارة القوية العادلة الناجحة . فإذا كان فى عام ١٦٢٨ قد تزعم المعارضة ضد التاج فذلك لأنه كان لا يثق فى سياسة بكنجهام ، ورأى أن الامتيازات قد ذهبت شوطاً بعيداً ، كما كان يؤمن بأن البرلمان « هو النطاسى الكبير القادر على التوفيق الحقيقى بين الملك والشعب » . وإذا كان فيما بعد ، عندما أصبح رئيساً للشمال ثم بعد ذلك أثناء إدارته لأيرلندا قد ظهر كرائد لهذه السلسلة الطويلة من الولاة الذين أنجبتهم إنجلترا بعد هذا فإنه بسبب خطورة النزاع البرلمانى العنيف قد توصل إلى النتيجة التالية ، وهى أنه من الممكن ائتمان الملك على حكومة البلاد أكثر من البرلمان . وظلت « الرفاهية المشتركة بين الملكية والرعايا » الهدف الأعظم الذى دأب على تحقيقه . على أنه قـــد توصل إلى النتيجة الآتية وهى أن الدواء الناجع لاضطرابات عصره فى اليد الحازمة أو كما كان يلقبها السياسة النافذة .

واستطاع ونتورث أن يعتمد فى هذه المحاولة على المعونة الحماسية التى قدمها له أحد ساسة الإنجليز من المرتبة الثانية ولكنه ترك أثراً كبيراً فى تاريخ العالم وهو وليم لود . وقد أدت سياسته الدينية إلى تأسيس مستعمرات نيوانجلند فى العالم الجديد والثورة المسلحة التى قام بها البرستاريون فى أسكتلندا على كتاب الصلوات الأنجليكانى ، الأمر الذى عجل بوقوع الثورة العظمى . على أن الوسيلة التى دفعت إلى حركتين على مثل هذا القدر من الأهمية على جانبى المحيط الأطلسى وهما تأسيس نيوانجلند وخلع شارل الأول لم تكن نتيجة لمهارة لود السياسية وإنما نتيجة الاستياء العظيم الذى أثارته سياسته . ومع ذلك فإنه لا يمكن نكران مزاياه وإن كانت أقل أثراً من أخطائه . فقد جمع بين الذهن القوى وإن كان ضيق الأفق والميل العميق للتقوى وحساسية مريضة بالضمير ، والتحمس لأنواع من النشاط الدقيق المتداخل . والواقع أنه عندما كان فى أكسفورد حيث أصلح من شأن الجامعة والكليات كان فى مكانه الصحيح ؛ على حين أن محاولته دفع الشعب الإنجليزى إلى قبول طقوس دينية كان

الاعتقاد السائد عندئذ أنها تميل نحو الطقوس الرومانية أنذرت بكارثة كان لا مفر منها .

والواقع أن العقوبات التى فرضها ذلك السيد الأكسفوردى النشط القدير على المعارضين الذين رفضوا قبول النموذج الموحد للكنيسة العليا الذى صمم أن يفرضه على الكنيسة الإنجليزية ، تبدو تلك العقوبات خفيفة إذا قورنت بالاضطهادات العنيفة فى إسبانيا والأراضى المنخفضة وبوهيميا . حقاً إن ضحايا لود قد حرموا معايشهم ، وفى بعض الحالات المتطرفة حكم عليهم بالجلد وقطع الأذن ؛ ولكنهم لم يُحرقوا قط على القوائم ، أو تقطع رءوسهم ، أو يعذبوا على آلات التعذيب ، أو يسترقوا عبيداً يجدفون فى السفن . ومع ذلك فقد كره جانب كبير من الإنجليز سياسة رئيس الأساقفة إلى حد أنهم بدءوا حركة الهجرة إلى سواحل أمريكا الشمالية. فبات يغادر إنجلترا كل عام من ١٦٢٩ إلى ١٦٤٠ مئات من الإنجليز سادة وفلاحين وأجراء فى الحقول ورجال دين ؛ واستقروا على سواحل « مساشوزتس » Massachusetts . ولم يكن ذلك لخروجهم على كنيسة إنجلترا وإنما لرغبتهم أن يعبدوا الله على طريقتهم الخاصة فى نطاق تعاليم تلك الكنيسة. وهكذا تمخضت سياسة ذلك الأسقف الأكسفورى المتحذلق عن نتيجة عجيبة إذ تمخضت عن ولايات نيوانجلند وقد قدر أنها زودت الولايات المتحدة الأمريكية بربع عدد سكانها . وهكذا جاء أعظم حدث فى التاريخ الإنجليزى فى عهد شارل نتيجة غير مقصودة لسياسة فاسدة . وقد حمل الهاربون من لود معهم نظم جيلهم وطابعه إلى مستعمرات نيوانجلند . وقد تميزت دائماً مستعمرات نيوانجلند التى أنشئت متلاصقة بثلاثة مظاهر : الكنيسة المقامة لخدمة الجماعة Congregational ، ومجلس المدينة ومدرسة القرية . وهكذا استقرت فى أعماق الأرض الأمريكية هذه المظاهر فى الحياة الإنجليزية القديمة . وقد بلغ من هذا الاستقرار أنه حين قذف عهد البخار إلى القارة الأمريكية بالملايين من المهاجرين من جهات أخرى من أوربا حلوا فى وطن يخضع سكانه لأحكام القانون العام الإنجليزى ويتكلمون اللغة الإنجليزية ويحتفظون بكثير من المميزات الأساسية للحكومة الإنجليزية .

وقعت الثورة العظمى لأن الأسكتلنديين من سكان السهول الذين كانوا شعباً

حربيًّا وبرستباريًّا فى الوقت ذاته قد رفضوا أن يقبلوا كتاب الصلوات الأنجليكانى الذى حاول شارل الأول ومستشاره الأخرق رئيس الأساقفة لود أن يفرضاه عليهم . وقد كانت مفاجأة تامة لشارل الذى لم يكن يعرف شيئاً عن أسكتلندا أن الأسكتلنديين بدلا من قبول الطقوس الأنجليكانية أنزلوا جيشاً إلى الميدان ، عجز سادة إنجلترا المسالمون عن مواجهته سريعاً . وكانت مصنفات العقيدة البرسبتارية غامضة على الملك غموض استعداد الأسكتلنديين لمواجهة المحن فى المعركة . وعلى حين كان السادة الإنجليز يفلحون الأرض ويطردون العبيد ، ويديرون الأقاليم ؛ كان الأسكتلنديون من سكان المنخفضات قد احتفظوا بحماستهم للحرب نتيجة للمشاجرات الإقطاعية وجيرتهم لسكان المناطق المرتفعة البدائيين ، وبفضل حميتهم التى أصبحت اختصاص وخبرة المغامرين منهم فى الحروب الألمانية . ولقد عجب الإنجليز أن يجرؤ الأسكتلنديون يتزعمهم « إيرل أرجيل » Earl Argyll فى اجتماعهم فى كنيسة جلاسجو على رفض كتاب الصلوات الذى كانوا يرونه صالحاً تماماً لهم . على أن ما حيرهم أكثر من ذلك أن تتمكن هذه الدولة المعوزة الصغيرة لساعتها من إنزال جيش إلى الميدان عبر الحدود بينما كان ملك إنجلترا لا يأمل فى صده بدون الالتجاء بوجه خاص إلى دعوة البرلمان .

وكانت تجربة البرلمان القصير الذى استدعى للموافقة على الاعتمادات اللازمة لمحاربة أسكتلندا ، ولكنه انفض عقب دعوته تقريباً (١٣ أبريل — ٥ مايو ١٦٤٠) كانت هذه التجربة كافية لتبين للملك أنه لا يستطيع أن يتوقع الحصول على المال إلا إذا كان على استعداد للقضاء على ما يشكو منه الناس . على أنه كان يتحتم عليه الحصول على الذخائر والمهمات ؛ إذ عبر الجيش الأسكتلندى تحت قيادة الكسندر لسلى Alexander Leslie أحد المحنكين فى الحروب الألمانية نهر التويد Tweed فاحتل درهام Durham ونرثمبرلند Northumberland وطالب بمبلغ من المال ثمناً للتفكير فى الانسحاب . ولم يكن فى وسع شارل الحصول على المال بوسيلة أخرى غير الالتجاء إلى برلمان جديد . وعندئذ استقر عزم جماعة كبيرة من أماجد الريف على رأسها جون پيم وجون همپدن John Hampden على أن عليهم على الأقل أن ينتخبوا لهذا المجلس أعضاء يجبرون الملك على رفع المظالم عن الأمة .

لم تقتصر شهرة البرلمان الطويل على إنجلترا وحدها وإنما تعدتها إلى التاريخ العام ، إذ ترتب على وضعه حداً فاصلاً لاستبداد ملوك إنجلترا نتائج بعيدة المدى فيما يتعلق بنمو الحريات البرلمانية فى جميع أنحاء العالم . ففى الدورة الأولى لهذا المجلس الذى تملك أعضاءه الإخلاص والغضب الشديد ، ألغيت المحاكم ذات الامتيازات (غرفة النجم ، ودار القضاء الأعلى ، والسلطات القضائية المميزة لمجالس ويلز والشمال) . وأكد الأعضاء فى وقار أن جمع المال عن طريق الهبات أو عن طريق ضريبة السفن دون موافقة البرلمان أمر غير شرعى . ومنذ ذلك الوقت بقيت تلك الحدود التى رسمت سليمة من كل اعتداء . وهكذا ضمن البرلمان بصفة قاطعة منذ ذلك الوقت حقه فى إدارة الشئون المالية ، وتوجيه سياسة الأمة عن طريق الشئون المالية . ومما لا شك فيه كذلك أنه منذ ذلك التاريخ ظلت الحقوق المدنية للرعايا مصونة من تدخل الملك التعسفى .

على أنه لم يظهر فى ذلك الوقت من الشواهد ما يؤكد أن هذه المبادئ الرئيسية ستقرر وتدرج فى الدستور . إذ كان الجو يفيض بالشائعات المزعجة . فكان يلازم مخيلة زعماء البرلمان منظر شبح سترافورد Strafford يتقدم نحو لندن على رأس جيش من الإيرلنديين المتوحشين لكى يعيد للملكية سلطانها . ولم يكن فى استطاعة پيم وهو القوة المحركة لنشاط البرلمان أن يركن إلى الحرية الإنجليزية ، طالما ظل سترافورد مطلق السراح — لذلك تقدم فرفع عليه دعوى الخيانة . ولما كانت الإدانة لا تبدو مؤكدة . فقد استبدل هذا الاتهام فى منتصف المحاكمة الخطيرة بتجريده من حقوقه المدنية ومصادرة أملاكه . ولكن سترافورد كان من الخطورة بحيث لا يتوقع إنصافاً من خصومه . فإن أعضاء البرلمان الذين حكموا بإعدامه ، والرعاع الذين راحوا يزعرون حول القصر الملكى فى هوايت هول White Hall ، احتشدوا لمشاهدة إعدام من سموه «توم الأسود الطاغية» Black Tom The Tyrant فى البرج Tower Hill . إن هؤلاء وأولئك لم يكونوا يفكرون فى إقامة العدل إنما كانوا يحرصون على السلامة . وكان إعدام هذا الرجل الجرىء الفطن جزءاً من أحداث الحرب وإجراءاً احتياطياً عنيفاً ، دبر لتلافى شر سياسى مستطير قد يتوقع فيه الجميع تهديداً لصالح الدولة .

وعلى أثر ذلك سارت الحوادث مسرعة نحو صراع مكشوف . فألزم الملك

بالموافقة على قانون لا يجيز حل البرلمان دون موافقة أعضائه ، وهنالك اندفع البرلمان بزعامة پيم مؤيداً من مدينة لندن حيث كان الشعور البيوريتانى جارفاً ، فاتخذ طائفة من الإجراءات والاقتراحات ، كان القصد منها تطوير طابع الدولة . وإذ كان سخط پيم وأشياعه أكثر انصباباً على الأساقفة ؛ فقد اقترح إلغاء النظام الأسقفى من أساسه وفروعه وأيد الاقتراح التماس وقعه الكثرة من أهل المدينة ؛ وتراءى لپيم أن كنيسة پيوريتانية تحت إشراف مندوبين من أعضاء البرلمان من غير رجال الدين خير من كنيسة أرمنية ، يسيطر عليها موظفون من قبل الملك يؤيدون الاستبداد السياسى ويظاهرون نظام الطقوس الدينية . على أن البرلمان تتزعمه هذه القيادة الجريئة ذاتها لم يكن راضياً أن يدعى لنفسه حق إصلاح الكنيسة . ثم كانت الثورة المروعة التى قام بها الكاثوليك الإيرلنديون ، وكان من نتائجها قتل عدد كبير من البروتستانت ، فجعلت مشكلة سيطرة الجيش فى مقدمة المسائل السياسية التى تواجه إنجلترا .

وعلى الرغم من كافة السوابق ، صمم پيم على أن تعيين الضباط بالجيش الأيرلندى يجب أن يكون من حق البرلمان لا من حق الملك ؛ وأصر كذلك على أن يكون وزراء الملك « من الآن فصاعداً ممن يتمتعون بثقة البرلمان » . على أنه إذا أصبح البرلمان صاحب السلطان فى مراقبة المالية والسيطرة على الكنيسة والجيش ومجلس الوزراء فقد غدا بذلك حاكما على الشعب. وهذا ما لم يكن شارل مستعداً للتسليم به على الإطلاق. وفى نوبة من الجنون صمم الملك أولا على توجيه تهمة الخيانة إلى كل من الأعضاء الخمسة الذين تزعموا هجوم البرلمان وهم پيم ، وهمدن ، وهزلرج Hazlerigg ، وهولز Holles ، وسترود Strode ، ثم القبض عليهم فى ١٤ يناير ١٦٤٢ . وإذ قصد الملك إلى مجلس العموم « كان الطائر قد أفلت » . ولم يمض على ذلك ستة أيام حتى رأى شارل أن الحكمة تقضى عليه أن يفر كذلك من لندن التى كانت تموج بجموع الجماهير المعادية .

وفى غضون ذلك الجدل الحماسى المثير تصدعت وحدة البرلمان الطويل تصدعاً لا يرجى له إصلاح بعد أن ظل ذلك البرلمان قائماً طالما كانت القضية موضع النزاع إعادة التوازن بين البرلمان والملك . فهذا حزب الأسقفية المعتدل ينحاز إلى جانب

الملك متأثراً بالقانون الذى ألغى النظام الأسقفى فى أساسه وفروعه (Root and Branch Bill)؛ وتكونت الأحزاب، واشتدت الخلافات بينها عندما ظهر أن پيم لم يعد ينادى بما طالب به البرلمان من قبل، بل كان يرنو فى الواقع إلى السيادة المطلقة. وقدر يومئذ حين اندلعت نار الحرب الأهلية أن ثلاثين من مجلس اللوردات وثلاثمائة من مجلس العموم سيؤيدون دعوى البرلمان.

فأما الشعب الإنجليزى وهو صاحب تقاليد عريقة محببة إلى نفسه من الوئام الاجتماعى فإنه لم ينخرط فى صفوف المعسكرين المتخاصمين من الفرسان وذوى الرءوس المستديرة إلا فى بطء وبعد إحجام مرير. على أن الظروف التى تزود فى العادة الصراع الداخلى بالمرارة أو تطيل أمده دون داع لم تكن موجودة فى إنجلترا فلم تعاد طبقة طبقة أخرى، ولم يثر جوع على شبع، بل لم يضح بالبلاد إشباعاً للرغبات الراسخة لعصابات النهب والسلب من الجنود المرتزقين. ومنذ بدء الصراع إلى نهايته. كانت راية المبادئ الدستورية تخفق عالية ظاهرة للجميع؛ كما زود أعيان الأقاليم كلا الخصمين بعناصر القيادة فمن قادة حزب البرلمان كان لوردات سيكس ومنشستر Earls of Essex Manchester واللورد فيرفاكس Lord Fairfax وأوليڤر كومويل. كلهم من طبقة ملاك الأراضى. وهذه الأرستقراطية المستنيرة التى تملأ نفوس أفرادها المشاعر الإنسانية من هواة الرياضة الذين يبطئون فى الغضب، ويسرعون إلى الصفح، استطاعت هذه الأرستقراطية أن تنتزع من الحرب أشد سمومها أذى وأن يجردوها من بعض وحشيتها؛ وإن شروط التسليم السمحة التى قدمت لأكسفورد عند تسليمها فى نهاية الحرب فى ٢٠ يونية ١٦٤٦ كانت أصلح تتويج لمثل هذا النزاع.

تلك حرب استمرت خمسة أعوام كاملة ظفر فيها فى النهاية حزب البرلمان يظاهره الأسطول والعاصمة ومدن صناعة المنسوجات والمقاطعات الشرقية مما رجح كفته فى الموارد المالية رجحاناً حاسماً. وإذا كان من شأن المال أن يجعل النصر النهائى مكفولا إلا أن أثره الكامل كان بطىء الظهور على الرغم من أن حالة الپيوريتان المعنوية لم يعتورها أى انهيار. وفى معركة ١٦٤٣ كان فريق الفرسان (حزب الملك) يفوقون خصومهم من حيث استخدام سلاح الفرسان ومن حيث توفر القيادة فى

شخص الأمير روپرت Rupert ابن أخى الملك ؛ فقد كان قائداً من قواد الفرسان الملهمين ، فباتوا خطراً على خصومهم مما اضطر پيم إلى الاستعانة بالأسكتلنديين أملا فى ترجيح كفته . وهكذا يضطر قادة الحرب دائماً إلى المجازفة ؛ فإن پيم — فى حرصه على أن لا يفلت منه النصر — كان مستعداً لمواجهة احتمال سيطرة جيش أسكتلندى على البرلمان. وجاءت معركة مارستن مور Marston Moor . (٢ يولية ١٦٤٤) وهى أعظم مواقع الحرب ، فبررت القرار الذى اتخذه پيم ، وذلك أن جيشاً مختاطاً من الأسكتلنديين وأهالى يوركشير وأيست أنجليا East Anglia اكتسحوا جيش الملكيين يقودهم الأمير روپرت ، وتمكنوا بذلك من ضم أقاليم الشمال لذوى الرءوس المستديرة ، وهكذا أنقذوا بضربة واحدة قضية البرلمان من الفشل الذريع .

وفى هذه المعارك التى دارت على أرض يوركشير أظهر أوليڤر كرمويل لأول مرة بأعماله المجيدة كفاءته البارزة كقائد للفرسان ؛ على أن الفضل فى الانتصار إنما يرجع إلى الجوهر الكامن من رجاله (الحديديين) فهم مندفعون أبداً ولكنهم أيضاً رهن إشارته . واعترف البرلمان بعبقرية قائده الجديد . وبالرغم من أن كرمويل كان « مستقلا » فى عقيدته ومتفقاً مع الكنيسة الإراستية Erastian[1] إزاء المسائل المطروحة ، فقد أفسح له الزعماء البرلمانيون طريق التقدم واستمعوا لنصائحه . وهكذا أغفل أمر الخلافات الدينية مرة أخرى بغية الحصول على نصر حربى . ولو قد منيت هذه الحرب بقيادة رخوة إذاً لاستمرت سنوات عديدة ولنشرت السموم فى حياة البلاد . إلا أنها بفضل ما أوتى خلفاء پيم فى تسيير دفة البرلمان من الحزم والمقدرة وصلت إلى نهاية سريعة حاسمة ؛ على أن الفضل فى هذا النصر كان قسمة بين كرمويل والبرلمانيين فى إيجاد تمويل تلك القوة من محترفى الحرب الذين توافرت لهم الرواتب الطيبة والغذاء الصالح ، وهى القوة التى عرفت باسم الجيش النموذجى الجديد الذى كسب معركة نازبى Nasby فى ١٦٤٥ ، ثم أهوى بالضربات الأخيرة على الحطام المتناثر من الحزب الملكى . وتمسك المشرعون الپيوريتان بتلك القاعدة القائلة بأن الواجب الأول لحكومة الحرب هو أن تكسب الحرب . فذروا فى الرياح نزعاتهم الدينية السالفة وعاونوا كرمويل فى تكوين الأداة التى ساقت الملك إلى المقصلة

---

(١) انظر هامش (١) ص ٢٧٥ .

وأودت بالبرلمان الطويل إلى نهاية محزنة ومخزية معاً .

ذلك لأن هذا البرلمان الذى استطاع أن يكسب الحرب قد بات عاجزاً عن تحقيق الصلح فهو قد اضطهد الملكيين بما فرض عليهم من غرامات معجزة ثم طرد الإكليروس الأنجليكان من وظائفهم ، كما حرم استخدام كتاب الصلوات الإنجليكانى وبذلك أضاع فرصة استرضاء أعدائه المهزومين . بل كان أدعى إلى العجب أن البيورتيان المتحذلقين فى مجلس العموم المظفر نفروا أنصارهم بتعصبهم الأحمق . وقد كان الفضل فى انتصار ذوى الرءوس المستديرة فى الحرب الأهلية للجيش النموذجى الجديد . وكانت أكثر عناصره من صغار ملاك الأراضى فى المقاطعات الشرقية الذين كانوا يمتازون على غيرهم من القوى البرلمانية بسعة الصدر إزاء كافة المذاهب البروتستانتية . وقد سعى البرلمان الطويل إلى حتفه بظلفه حين أخذ فى اضطهاد المذاهب المختلفة ورفض مطالب الجيش العادلة فى المرتبات . فهذا المجلس الذى أظهر العداء لأثمن مظاهر الحياة والحرية فى الفكر البروتستانتى الإنجليزى وعدم المبالاة بخدمات الجيش الذى حقق له النصر ، هذا المجلس لم يعد صالحاً لحكم إنجلترا . وأثار تعصبه الضيق أعظم شخصيتين فى إنجلترا فى ذلك الوقت وهما أوليفر كرمويل ، وجون ميلتون Milton .

وفى الصراع الذى نشب وقتئذ بين البرلمان والجيش وقع حادث يصور بوضوح الخلق الإنجليزى ، ذلك أن أيًّا من الجانبين لم يكن يفكر فى الاستغناء عن الملكية ، بل سعى كل منهما للاستحواذ على شخص الملك ليتخذ منه أداة للمساومة وتسيير إدارة الدولة فى ظل الحكم الملكى القديم المعتاد . وفى المفاوضات الثلاثية التى دارت بين شارل والجيش والبرلمان دافع كل حزب عن بعض المبادئ التى رأى أن البلاد فى حاجة إليها ، وهى إذا طبقت فى مجموعها كفيلة بوضع نموذج لسلام وطيد الأركان فى إنجلترا . فالملك يدافع عن الملكية وكتاب الصلوات الإنجليزى ، والبرلمان يذود عن القانون العام والحكومة المسئولة ، والجيش يؤيد التسامح الدينى ويرجو له أن يمتد فيشمل المخالفين للعقيدة الرسمية من المذاهب البروتستانتية . ولكن شارل لم يقدر له أن يعود إلى الحكم لا على يد الجيش لأن الملك رفض شروطه العادلة ، إذ أنه لم يكن على استعداد ليقوم بدور الملك الذى لا يحكم roi-fainéant على أساقفة دون

سلطان ومذاهب لا يحكمها ضابط ، ولا على أيدى الأسكتلنديين الذين لم يتورع الملك عن طلب مساعدتهم البرسبتارية .

هنالك أخذ شارل يضرب البرلمان بالجيش ويضرب أسكتلندا بإنجلترا ، مؤملا على الدوام أن يواتيه بعض الحظ السعيد ، فيتغلب على خصومه ، وكان فى مسلكه « تارة امرأة ، وتارة قسيساً ، وتارة أخرى ولداً ضالاً مدللاً لم يكتمل بعد نموه »(١) ، قد سمح لكافة الفرص أن تفلت منه حتى أصبحت الحرب الأهلية الثانية سبباً مباشراً لنهايته. فلم يكن فى استطاعة الجيش أن يصفح عن اتفاق شارل مع الأسكتلنديين ، ذلك الاتفاق الذى دفع بجيش دوق هاملتون Duke of Hamilton إلى الإغارة على لنكشير ، وهدد بإقامة ملكية برسبتارية فى إنجلترا تؤيدها حراب الأسكتلنديين . وإذا عاد كرمويل من الشمال عقب واقعة برستون Preston مال عقله إلى تأييد القرار الحازم الذى اتخذه الجيش وهو أن هذا « الرجل الدموى » ينبغى إبعاده . ثم أزاح كرمويل العقبات التى أقامها البرلمان فى سبيله مستخدماً وسيلة التطهير الجافة التى قام بها برايد Pride ، وبذلك ساق الملك إلى ذلك المشهد الختامى أمام قصر هوايتهول ؛ ولكنه بذلك أعاد إلى الإنجليز ولاءهم للملكية حين أنزل شارل إذ أن سوقه إلى الموت قد أنزله منزلة الشهداء والسادة من عظماء الإنجليز وأحله تماماً من آثامه العديدة :

ولقد خابت تكهنات المتنبئين بقصر حياة الجمهورية التى أقامها قتلة الملك ، فهم قد أخطأوا التقدير الصحيح للنشاط أو التنظيم الذى جاء مجرد نتيجة لحرب أحسن القادة قيادتها . فإن جميع مرافق الحكومة الإنجليزية قد اتسعت بسبب المحنة التى منيت بها البلاد كما عمت الدهشة أوربا حين رأت أن الجمهورية الجديدة لم تنل منها أو تنهك قواها هذه الحرب الأهلية التى استمرت خمسة أعوام ؛ بل إن إنجلترا لم تكن فى مواردها المالية أو قوتها الحربية أقوى منها فى أى وقت مضى بل ألهبتها نار الحماسة والكفاح والهجوم ، وهو شىء غريب لم يألفه المزاج العادى للشعب الإنجليزى . لقد انشغلت الجمهورية بالمعارك وإراقة الدماء ، فأخضع كرمويل كلا من أيرلندا وأسكتلندا ، كما شن حرباً عدوانية على الهولنديين أولا ثم على الإسبانيين . وفتحت جمايكا ودنكرك وضمتا إلى إنجلترا . وهكذا انعقد

(١) John Buchan, *Oliver Cromwell*, p. 120.

لإنجلترا لواء الزعامة للمرة الأولى والوحيدة بين دول أوربا العسكرية . وكتب القائد تورين عشية معركة الدن Dunes التي جعلت دنكرك من نصيب كرمويل ، « إني رأيت الإنجليز . إنهم أبدع جيش في حيز الإمكان[1] (يونية ١٦٥٧) . ولم يكن في وسع أي جيش في أوربا أن يباري جنود أوليفر كرمويل ذوي المعاطف الحمراء في أساليبهم وأنظمتهم وتجاربهم . وقد كانت حملاته على إيرلندا وأسكتلندا جزءاً من خطة عامة تستهدف تأمين سلطان الجمهورية البيوريتانية في كافة أنحاء الجزائر البريطانية بحيث يعجز الكاثوليك أو أتباع أسرة استيوارت عن قلب النظام الجمهوري. وفي معركة قصيرة قاسية (أغسطس إلى أكتوبر ١٦٤٩) استطاع كرمويل أن يسجل اسمه بحروف من الدم في حوليات أيرلندا . فقد أراد كما أراد من قبل سترافورد Strafford وجيمس الأول والإيصابات أن يجعل من الأيرلنديين شعباً إنجليزياً بروتستانتياً . على أنه وإن كان قد ماثلهم فيما انتهوا إليه من فشل ، إلا أن نتائج فشله كانت أبلغ ضرراً إذا قيست بعظمته وسعة إدراكه . فلم يسفر استعمار كرمويل لأيرلندا إلا عن مزيد من الأضرار ؛ فهؤلاء أهل أيرلندا — وقد أجلوا عن ديارهم ليخلوها للجنود والمضاربين في الأراضي من الإنجليز — لجأوا إلى المستنقعات الموحشة في كونوت Connaught ، حيث توجد سلالتهم إلى اليوم . وعلى الرغم من الجهود التي بذلت في تلك البقاع المزدحمة ، فهي ما زالت تمثل صورة من الشقاء المادي لا نظير له في أي بقعة أخرى من الجزائر البريطانية ؛ على أن استعمار كرمويل قد غرس المقت في نفوس المواطنين الأيرلنديين للعقيدة البروتستانتية التي كان يرغب في نشرها بينهم وقد أدى ذلك إلى مذابح دروجدا Drogheda وكسفورد Wexford ودفعت إلى هجرة الألوف من الأسر الكلتية البسيطة لتخلي الطريق لأرستقراطية أجنبية من الملاك ؛ وهذه الوحدة البرلمانية القصيرة الأجل أفسحت للأيرلنديين البروتستانت ثلاثين مقعداً في البرلمان الإنجليزي لم يكن من شأنها أن تعرض شيئاً من هذه الآثام .

وكذلك كان الخضوع العسكري الذي فرض على أسكتلندا عام ١٦٥٢ ناشئاً عن ظروف الحرب الأهلية في إنجلترا . حقاً إن الأسكتلنديين قد صمدوا في رفضهم

---

(١) John Buchan, *Oliver Cromwell*, p. 120.

كتاب لود للصلوات إلا أنهم لم يميلوا إلى جانب المنشقين الذين أعدموا الملك الأسكتلندى . فرحبوا بشارل الثانى وتوجوه فى سكون Scone ملكاً على أسكتلندا . ثم ألزموا ذلك الشاب المترف الذكى وهو أكثر الراغبين عن دينهم إباءً ومراوغة بالولاء لحلفهم وتقاليدهم الموقرة . ولكن كرمويل فى معركتى دنبار Dunbar وورسستر Worcester ، استطاع أن يقضى على كل أمل فى إعادة الحكم لأسرة ستيوارت بمعاونة أولئك البرسبتاريين المتجهمين (٣ سبتمبر ١٦٥٠ — سبتمبر ١٦٥١).

هنالك تجرعت أسكتلندا نصيبها من دواء كرمويل ، وهو إن كان أقل عنفاً من النصيب الذى خص أيرلندا إلا أنه خلف مع ذلك مذاقاً مرًّا . كان كرمويل من أكبر أنصار الوحدة — وآية ذلك أن أصبحت إنجلترا أو أسكتلندا وأيرلندا للمرة الأولى تحت حكمه فى ظل برلمان واحد . وقد كان حدثاً جديداً منذراً بالويل عندما استوى حامى حمى الجمهورية أمام العالم سلطاناً لا يحكم على إنجلترا وحدها بل على بريطانيا العظمى بأسرها . ولكن اتحاداً قد عمد بدم العنف لا يمكن أن يقدر له البقاء . وهكذا انهار الصرح الذى شاده كرمويل قبل أن تستطيع السياسة المدنية تخفيف حدة الغزو الحربى . فلم تكد الملكية أن تعود حتى عادت البرلمانات القديمة سيرتها من جديد فى دبلن وإدنبرة وعادت الأحقاد القديمة تتابع سيرها الذى لا يرجى من ورائه خير وأبطأت حركة الوحدة الحقيقية حتى فى الجهات التى لم يكن الدين فيها عائقاً . وفى كل مكان وقف الكاثوليك والبروتستانت وجهاً لوجه ظلت الهوة المظلمة قائمة وانقضى سبعة وأربعون عاماً قبل أن يتفق الإسكتلنديون والإنجليز على أن يتفقوا ؛ أما أيرلندا فكان عليها أن تنتظر حتى عام ١٩٢١ بعد أن اجتازت هزات الحرب العالمية لكى تصل إنجلترا وأيرلندا الكاثوليكية ، بصعوبة ، إلى اتفاق على الاختلاف ، على الأقل بالنسبة إلى ذلك الوقت وإرلندا الكاثوليكية على الانفصال .

أما فيما وراء بحر الشمال فقد كانت تقوم الجمهورية الهولندية ، وتربطها بقتلة الملك من الإنجليز صلات تقوم على التشابه فى نظام الحكم الديمقراطى والحرص المشترك فى الدفاع عن المذهب البروتستانتى حتى باتت فكرة التحالف بين الإنجليز والهولنديين فى شكل من أشكال الاتحاد السياسى أمراً طبيعياً بحيث أصبح بالفعل

موضوع المفاوضة بين الطرفين ؛ ولكن الهولنديين كانوا ينافسون الإنجليز فى البحر ، وينافسونهم التجارة . ومنذ أن زوجوا رئيس جمهوريتهم الأخير وليم أورنج William of Orange (المتوفى ١٦٥٠) من مارى كبرى بنات ملك إنجلترا أصبحوا على العموم على صلات ودية بتلك الأسرة التى كانت مبعث الخوف لقتلة الملك . ولم يلبث كلا الشعبين ، رغم ما ربط بينهما من وشائج كثيرة ، أن باعدت بينهما الفرقة كما تباعد العاصفة الهوجاء بين السفن . وقد عمّ تجار أمستردام السخط حين علموا بإصدار برلمان إنجلترا قانون الملاحة فى ١٦٥١ الذى يقضى بألا تحمل السلع الإنجليزية على سفن أجنبية ؛ وكان الهدف المباشر من ذلك منع الهولنديين من نقل التجارة . ولم يكن شعور الإنجليز أحسن من ذلك حيث كان يُنظر إلى الأراضى المنخفضة على أنها وكر للمؤامرات وللخطرين من الفرسان . وإلى كل ما ذكر من أسباب العداوة زادت الغيرة ثم التنافس بين قوتين بحريتين متعادلتين فى البحار الداخلية فازدادت العلاقات بينهما خطورة حتى أدت إلى حالة تجعل اشتعال نار الحرب متوقعاً لأتفه حادث . من ذلك أن امتناع الهولنديين من أداء التحية للعلم البريطانى كان نذيراً بصراع بحرى عنيف بين أسطولين عظيمين يقودهما أمهر رجال البحر ، أصاب فيها كل من ترمب Tromp وبليك Blake حظوظاً متوالية من النجاح والفشل . على حين أصيبت الأراضى المنخفضة فى تجارتها الخارجية الواسعة الانتشار بخسائر متفاوتة — ومنذ الحرب الأولى من الحروب الثلاث التى قامت بين إنجلترا وهولندا أخذت الأراضى المنخفضة تنهار كقوة عالمية . ولم يكد كرمويل ينهى تلك الحرب بمعاهدة ١٦٥٤ حتى مضى فى طريقه بالتدريج إلى تلمس الملابسات الدبلوماسية الأكثر مواتاة لضمير البروتستانت . وفى النهاية اتحد مع السويد وفرنسا واستأنف بذلك النزاع التقليدى مع إسپانيا الكاثوليكية .

وقد أخذ على كرمويل أنه ألقى بثقل إنجلترا وقوتها العسكرية والبحرية فى كفة النضال ضد إسپانيا وكان عليه — فى نظر القادة — أن يحذر تفوق فرنسا الذى آذن بالظهور ويعمل مع كبح جماحه ؛ إلا أنه لم يفعل ذلك . وفى تلك الآونة الفريدة التى توافرت فيها لإنجلترا القوة الحقيقية وجهت قوتها تلك توجيهاً خاطئاً ؛ ولكن الحكمة لا تدرك بسهولة إلا بعد أن يقع الحادث . فى ذلك الوقت كان يمكن أن يقال الشىء الكثير

للدفاع لا عن التحالف مع دولة لو تركت معادية لاستطاعت بتأييدها للملك المنفى أن تكون مصدر أذى ، هى دولة عرفت فى سياستها الخارجية التقليدية بالانحياز لجانب البروتستانت . يضاف إلى ذلك أن أطماع لويس الرابع عشر الخطيرة لم تكن قد ظهرت بعد . ولو قد عاش كرمويل عقداً من سنوات أخر لربما وقف وقفة البطل المدافع عن الحريات البروتستانتية فى أوربا ضد التعصب العدوانى لفرنسا الكاثوليكية (ولسبق ذلك وليم الثالث فى الدور الذى قدر له) .

على أن ثمة جانباً واحداً من سياسة كرمويل الخارجية تمشى مع المصالح الدائمة لبريطانيا ، وهو التحالف الإنجليزى البرتغالى الذى بدأ منذ سنة ١٦٥٤ والذى أتاح للأسطول الإنجليزى استخدام ثغر لشبونة البديع . فقد كانت لشبونة مفتاح البحر المتوسط وفيها كانت الأساطيل الإنجليزية ترمم ويعاد شحنها بالمؤن ؛ وأمنت بذلك الدفاع عن جبل طارق ، ومكنت إنجلترا قبل عهد البخار أن تحتل مكانتها كإحدى قوى البحر المتوسط ، وكم أبدى الأسطول البريطانى من شجاعة فى مستهل هذا الدور حين مضى أسطول بليك يطارد الأمير روپرت وجماعته ومرّ بتسكانيا والبابوية مطالباً إياهما بالتعويضات ، وضرب تونس بالقنابل ، ورفع العلم البريطانى فوق مياه مالطة والبندقية وطولون ومرسيليا ! وهكذا قبل أن تظهر بوقت طويل حاجة بريطانيا إلى هذه السلسلة الممتدة من القواعد البحرية على طول الطريق البحرى إلى الهند أظهر بليك بطل البحار فى عهد الجمهورية الذى لا تزال صورته ماثلة فى كلية وادهام Wadham College فى أكسفورد ، أظهر مدى السهولة التى يمكن أن يتحقق بها مثل هذا العمل الخطير .

ولئن كان عهد الجمهورية والدكتاتورية قد زخر بالمناقشات السياسية والتجارب الدستورية ، إلا أنه ينبغى اعتباره فترة فراغ فى تاريخ الشعب الإنجليزى الداخلى أكثر منه مساهمة فى تقدمه ، ذلك لأن الأعمال التى بدئ بها أو التى تمت فى عهد الحكومة غير الملكية لم تعمر بعد ذلك . ولم يكن فى استطاعة أوليڤر — كما قيل حقًّا — أن يحكم بالبرلمان أو بدونه . فقد استحال عليه بحكم طبيعته أن يكون من عشاق الحرية أو حاكماً دستوريًّا ، واضطره عنف الأحداث الثورية إلى حكم البلاد حكماً عسكريًّا ، وهو حكم لم تكن له جذور من رضى الشعب . ولو قد

استفتى الشعب فى حرية فى أى وقت بعد إعدام شارل الأول إذاً لأعاد الملكية إلى إنجلترا . لكن كرمويل لم يكن فى وسعه أن يسمح بمثل هذه الحرية . لقد كان ثمة أمور جوهرية لم يقبل فيها مناقشة خشية المجازفة بانهيار كيان الدولة كله ؛ نذكر منها على سبيل المثال مركزه وتسامحه إزاء اتباع المذاهب البروتستانتية المنشقة ، وعليهم كانت تعتمد قوته ! ولكن هذه الأمور بالذات كانت مما يرغب بكل برلمانى فى مناقشتها . ولو قد وضع كرمويل التاج على رأسه كما أراد غالبية أعضاء مجلسه من المدنيين وعدد كبير من معتنقى المذهب البرستبارى فى لندن إذاً لاستقام هذا الوضع الملىء بالشذوذ والارتباكات واتخذ شكلا قانونياً يجعله مقبولا فى نظر رجال القانون — ولكن النظام الجمهورى حتى بعد أن توجته الانتصارات فى البحر والبر ظل فى نظر شعب عاطفى محافظ كالشعب الإنجليزى أشد غموضاً وأكثر إزعاجاً من الملكية القديمة . على أن أوليفر وإن كان قد بعث مجلساً وهمياً للوردات فإنه قد نفر من طقوس التتويج التقليدية ، وقد يكون ذلك بدافع من كبريائه وقد يكون عملا أملته الحكمة أو إحساس دقيق بسلامة الأشياء . وهكذا مات ذلك الرجل العظيم حامياً حمى الجمهورية ، مخلفاً أخلد ذكرى لحكمه اليبوريتانى ، وهو بغض الشعب الإنجليزى للجيوش الدائمة باعتبارها عدواناً على الحريات المدنية وهو أمر تميز به الشعب الإنجليزى منذ زمن بعيد ولا زال ماثلا فى القاعدة الدستورية التى تجرى بأن الجيش لا يقوم إلا على أساس الإنفاق عليه من عام لآخر .

إن السنوات الأخيرة من حكم أوليفر قد سادتها مرارة البغضاء من جانب الإنجليز وقد قسمت إنجلترا إلى أحد عشر قسماً خضع كل منها لضابط محلى كبير . ولم يقتصر واجبه على حفظ النظام بل كان عليه أيضاً أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . ولم تنس البلاد سريعاً ، كما لم تصفح عن أعمال البغى الصغيرة التى ارتكبها أولئك الطغاة من اليبوريتان ، (ومنهم كثيرون عرفوا بوضاعة الأصل وسوء التربية) الذين قضوا على ما كان يهواه الناس من رياضة وأثقلوا كاهل نبلاء الريف بالمغارم الجديدة . وقبل أن يلفظ أوليفر كرمويل آخر أنفاسه بوقت طويل كان الشعب الإنجليزى المؤثر للمتعة يصبو للخلاص من تلك القبضة الرهيبة التى فرضها عليهم فرضاً حكم قائم على التقى والورع .

كتب يمكن الرجوع إليها

— S.R. Gardiner : History of England. (1875)

— G.M. Trevelyan : England under the Stuarts. (1904)

— W.H. Hutton : William Laud. (1895)

— Lady Burghclere : Earl of Strafford.

— Lives of Oliver Cromwell : C.H. Firth, (1900). John Morley, (1900). John Buchan, (1934)

— T. Carlyle : Oliver Cromwell (1845-1846)

— T. Carlyle : Historical Sketches Ed. Alexander Carlyle. (1898)

— C.E. Wade : John Pym. (1912)

— W. Notestein : The Winning of the Initiative by the House of Commons (Proc. Brit. Ac.,) (1918)

الفصل العشرون

زعامة فرنسا

لويس الرابع عشر — طابع إمبراطوريته — سياسة كولبير — المشروعات البحرية لا تجتذب فرنسا كثيراً . تنسيق جزئى للشرائع فى فرنسا — كبت الحريات — المحالفة الفرنسية الإنجليزية — حدود فرنسا الشرقية . حرب الاستحقاق — المحالفة الثلاثية — معاهدة دوفر — معاهدة نيمجن Nimuegen ١٦٧٨ — لويس فى ذروة سلطانه — شارل الثانى ولويس — اعتلاء جيمس الثانى عرش إنجلترا — إلغاء مرسوم نانت Nantes — الثورة الإنجليزية ١٦٨٨ — انتصار وليم الثالث وسوء تقدير لويس — ميزات إنجلترا — حرب حلف أوجزبورج Augsburg .

كانت أوتقراطية لويس الرابع عشر التى تعكس حمية الشعور القومى الصاعد فى فرنسا الحقيقة المسيطرة على تاريخ أوربا منذ أن انفرد الملك بالسلطان عام ١٦٦١ حتى موته ١٧١٥ . وكما أن أسرة التيودور قد جلبت السلام لإنجلترا عقب الاضطرابات التى أثارتها حرب أهلية طويلة مما دعا إلى زيادة الترحيب بها ؛ كذلك كان حكم لويس الرابع عشر المديد بداية عهد أمان لفرنسا من الغزو الخارجى ، وخلاصها من أخطر أنواع الفوضى الداخلية التى استمرت حتى وقوع الثورة الكبرى ١٧٨٩ . فلم يعد سلطان التاج يتحداه النبلاء الثائرون يتزعمهم ملك إسبانيا كما حدث فى عهد الحلف الكاثوليكى وفى حربى الفروند ، ولئن كان نبلاء فرنسا لايزالون يحتفظون ببعض الإعفاءات المالية التى ميزتهم عن العامة والفلاحين ، فقد قلمت أظفارهم ، وجردوا من سلطانهم الفخم ، واجتذبهم البلاط ثم شدهم إلى فلكه البراق . وهكذا تخلى أشد النبلاء عتواً عن استقلالهم فى جو فرساى البيزنطى كما فقدوا اتصالهم بالشئون المحلية ، وهووا إلى مستوى ندماء الملك فى تآمرهم وتفاهتهم وعبوديتهم .

كان لويس أول ملك فرنسى جعل من الملكية مهنة جدية . فقرر منذ الوهلة الأولى ألا يدع وزيراً أو صاحب حظوة يوجه شئون الدولة العليا . فقد كانت الملكية فى اعتباره مهنة بلغت من السمو والنبل والمتعة « حرفة عظيمة نبيلة فاخرة » بحيث لا يمكن أن يقاسمه فيها أحد ؛ فهى وظيفة إلهية ، ائتمنته العناية الإلهية

نائباً لها ، استحق بما اختص به أن يكون جديراً بالرسالة الشريفة . كانت له عين نافذة ومظهر فخم وكياسة فى مجال النشاط ، وجمع إلى هذا كله عادة ثابتة من الجد والمثابرة وذاكرة قوية وقدرة على استخدام قرائح الرجال الأكفاء ، وعلى الرغم من قوة عواطفه البهيمية كان يعمل ست ساعات من كل يوم ؛ ولم يسمح على الإطلاق لمسائل الحب أن تتدخل فى شئون الدولة العامة . فكان الواجب يأتى دائماً فى المقدمة ، الواجب كما يفهمه بمعناه الواسع ؛ كالعمل فى سبيل تحقيق الغايات العظيمة المؤدية إلى عظمة فرنسا وشهرة عاهلها ؛ إذ أن الأمرين شىء واحد : « فحين يضع الملك الدولة نصب عينيه فإنه يعمل لنفسه » بذلك وصى ابنه . وهكذا كان من النادر أن يرى لويس وقد لاحت الابتسامة على وجهه الرزين الذى لوحته آثار الجدرى تحت شعره الطويل المستعار ، حين تحدث خصمه سان سيمون St. Simon الذى شهد سنواته الأخيرة المتداعية عن « القلب الذى لم يحب أحداً على الإطلاق ولم يحبه أحد » فإنما مرجع ذلك أن لويس الرابع عشر كان الملك المحترف الذى لم يلحقه يوماً بصيص من المرح أو نغمة من الغموض ، وإنما مضى فى جد ورزانة وتحفظ وأنانية يحمل على كاهله القوى المكتفى ذاتياً أعباء الدولة الجسام .

ويقابل هذا الشعور الحازم بالواجبات العامة أوجه القصور فى مزاجه وقد كلفته غالياً . فكثيراً ما اعترته نوبات من العجلة السريعة والكبرياء الممزوج بالغرور فقضت على أحكم الخطط المدبرة ؛ وهذا العاهل الذى بدأ أحياناً آية فى التدبير الهادئ وبعد الروية ، تجده أحياناً أخرى وقد اندفع فى عمله تحركه عوامل عنيفة من الحسد أو الجشع أو الاحتقار . وقد كتب — لصالح ولده — معلقاً على معاركه الحربية الأولى : « إن سلطانى الطبيعى وشبابى المتدفق ورغبتى الجارفة فى رفع صيتى — كل أولئك قد ملأنى شعوراً قوياً بالعجلة » . وهو قد تحرق شغفاً إلى مجاراة قواد عصره العظام . فيما قاموا به من جلائل الأعمال : « بل ربما إلى تخطى بعض المشروعات التى اعتبروها غير قابلة للتحقيق — ولقد كانت لكسمبورج Luxemburg ونامور Namour ومونز Mons ، وغنت Ghent وبروكسل ماثلة أمامى على الدوام » . ولم تخفف تقدم سنه المتقدمة من حدته . فقد استمر

حتى النهاية يتعشق العظمة ويمقت البروتستانت ، وهى أهواء وإن مجدها مواطنوه تمجيداً كبيراً . أقحمت فرنسا فى حرب مضنية دامت أربعين عاماً ؛ فقادتها بذلك إلى الخراب وكلفت البشرية غالياً .

وكانت ملكية لويس الرابع عشر باتساعها وأبهتها وقوتها المنظمة شيئاً جديداً على أوربا . حقاً إن إمبراطورية شارل الخامس كانت أكثر منها اتساعاً ولكنها كانت دونها اندماجاً وكفاءة ودونها قدرة على إثارة خيال العالم . وفى فرنسا — على عهد لويس — وجدت القومية أكمل تعبير عن نفسها دون أن تخفف من حدتها منظمات عالمية أو تعوقها مشكلات عنصرية ، ووجدت الملكية ، كفن ، أعظم مثلها البراقة ، ووجدت الإدارة كقوة موجهة ومدبرة مثالها الأول الحقيقى فى أوسع صوره . ويدين الملك خاصة فى تحقيق هذا لجهود وزراء تلقوا تدريبهم فى عهد سابق . وكانت الفترة الأولى من حكمه عصر عظماء العاملين فى شئون الدولة . فلمع اسم هيوج دى ليون Hugues de Lionne (١٦٦٣—١٦٧١) فى الدبلوماسية واسم كولبير (١٦٦٩ — ١٦٨٣) فى الصناعة والتجارة والتنظيمات البحرية ، واسم لوتلييه Le Tellier وابنه لوڤوا Louvois (١٦٧٧—١٦٩١) فى الحربية ؛ ولم يكن هؤلاء عمالا قادرين مهرة فحسب ، بل كانوا ذوى حمية للابتكار والتحسين ، فانطبعت آثار ذكائهم على أنظمة الدولة . ولم يكن لويس ذاته فى حبه للتملق المتصل خبيراً بأقدار الرجال . فلما زال جيل العمالقة الأول خلف من بعدهم خلف من الموظفين أصغر شأناً وأحط معدناً . إنه الانتقام الإلهى من الحكم الاستبدادى فى كل زمان ومكان حين تعوزه نسمات الحرية المنعشة ؛ فيتوقف إن آجلا أو عاجلا عن الإفادة من أجل خدمات الرجال المصلحين وأعلاهم قدراً .

كان كولبير أحد رجال الدولة الذين ازدانت بهم السنوات الأولى من حكم لويس الرابع عشر ، وهو شخصية لا مثيل لها فى المرتبة والامتياز . فكان هذا الوطنى البارد الطبع الحازم الذى لا يشرب غير الماء القراح بما اتصف به من همة شاملة عظيمة وإدراك للتفاصيل ومقدرة على التغلب على الصعاب وإنجاز للأمور يعدل مجلس وزراء بأكمله من الرجال العاديين . وقال عنه جوسران M. Jusserand « لم يحدث قبل كولبير أن أحداً قد أدرك بوضوح قيمة البحرية

والتجارة والمستعمرات والمالية السليمة ، وأهمية تحسين وسائل المواصلات بالطرق البرية والأنهار والقنوات » . فأعلن لنبلاء ڤرساى التافهين الغارقين فى اللهو المبدأ القائل بأن عظمة البلاد إنما تتوقف على ثروتها وأن ثروتها تتوقف على العمل . ومن أبرز مقومات شهرته أنه خلال حياته الطويلة العاملة أخذ يبشر فى إصرار وشجاعة بحقيقة لم تمل إليها قلوب الناس وقتئذ وهى أن قوة الأمة لا تقوم بالأزياء البراقة التى يرتديها الجند وإنما تقوم بالصناعة والتجارة والزراعة والخدمات التى تؤديها بحق تلك الطبقات من المجتمع التى كان ينظر إليها على العموم عندئذ باستخفاف وازدراء .

ولسوء الطالع كان كولبير يعمل متأثراً بنظرية خاطئة شاعت فى ذلك العهد وهى أنه لا يمكن الوصول إلى ثراء بلد ما إلا عن طريق إعواز بلد آخر . فهو لم يكن يرى فى التجارة الدولية تبادلا للسلع والمنافع يعود بالخير على كل من الجانبين ، بل رآها معركة للحصول على المال ، ربح دولة فيها خسارة للأخرى . ولما كان قد قدر أن عشرين ألف سفينة تكفى لنقل تجارة غرب أوربا ، وأن كلا من فرنسا وإنجلترا وهولندا تسهم بدرجات متفاوتة فى تقديم هذه السفن ، فقد توصل إلى النتيجة التالية : وهى أنه لا يمكن لتجارة فرنسا أن تتسع إلا عن طريق إضعاف أساطيل كل من منافستيها التجاريتين . ومن العجيب حقاً أن رجلا تميز بمقدرته النافذة يقع فريسة لتصور صبيانى فيفترض أن ثروة أوربا محدودة أو أن قوامها من الذهب . ونتيجة لفلسفته هذه الخاطئة فى التجارة وقعت الكارثة حين انساق كولبير إلى تقديم تأييده فى الحرب الهولندية التى تسببت بدورها فى مشاحنات أخرى مما أدى إلى هدم صرح الرفاهية التجارية الذى كان تشييده هدف حياته الأساسى .

ومما يؤثر للويس الرابع عشر أنه ظل يؤيد ذلك الإدارى الجاف المدبر حتى مماته عام ١٦٨٣ ، ذلك الوزير الذى شبهته مدام دى سڤينييه de Sévigné بثباته وبروده فى سبيل الوصول إلى هدفه بالنجم الشمالى . ولكن غيرة كولبير الوطنية كانت أمراً لا سبيل إلى إنكاره . إذ كان هدفه ألا يستخدم العالم أجمع فى سبيل مجد فرنسا وملكها .

وقد تركت الوسائل التى استخدمها كولبير فى تنفيذ سياسته الواسعة آثاراً عظيمة فى عصره كما انطبعت عميقة فى صميم الحياة فى فرنسا ، كان كولبير مفتوناً بنزعة الإنسان الكامل نحو التنظيم . ولم يفلت شىء من نظرته اليقظة النافذة حتى الفنون والآداب والصناعة والتجارة . وقد تزايدت المكوس التى فرضها على التجارة إلى درجة عطلتها فى النهاية . وكانت تنظيماته من الدقة بحيث قضت على مصادر شملت كل نواحى الصناعة . وقد امتدت يده الصارمة إلى أبعد مدى حتى تناولت أبعد ممتلكات التاج . فمن العبث أن يشد المستعمرون الفرنسيون رحالهم عبر المحيط الأطلسى إلى كندا ، أو يضربوا فى الطريق العاصف حول رأس الرجاء الصالح للوصول إلى الغابات الاستوائية فى مدغشقر ليفلتوا من كولبير ؛ إذ وضعت على شواطئ السين مجموعة معقدة من القوانين لتنظم الحياة فى المستعمرات الملكية فرددت فى هذا التيه التفاوت القائم فى فرنسا الإقطاعية . وعلى حين كان مستعمرو نيوإنجلند يتنسمون عبير الحرية ، كان المجتمع فى المستعمرات الفرنسية مضيقاً عليه الخناق وخاضعاً لرقابة كل من الكنيسة الممعنة فى كثلكتها والملكية المطلقة . وقد بلغ من قلة إدراك كولبير لقيمة الحرية فى تنمية الاستعمار ،أنه كان يلزم الأهالى والمستعمرين على حد سواء ، حتى فى مدغشقر بأن يسووا منازعاتهم وفق ما جرى به العرف فى باريس .

وعلى الرغم من هذه العقبات فإن كولبير قد أمد حركة الاستعمار بحافز قوى ، وإن فرنسا لتدين إلى حد كبير لهمته وإرادته بما كانت تمتلكه عند بداية القرن الثامن عشر من مستعمرات فى أمريكا الشمالية ، ومصائد للأسماك فى نيوفوندلاند ، ومزارع فى جزر الهند الغربية وفى مدغشقر ومحطات تجارية فى الهند . كان ذلك كله إرثاً مجيداً لم يقدر حق قدره ، ولم يدافع عنه كما كان ينبغى . ولو أن الفرنسيين قد واصلوا — بحافز من روح كولبير — تأسيس الترسانات فى فرنسا لكان من المحتمل أن العلم المثلث الألوان لا يزال يرفرف اليوم على قلعة كويبك وأن تبقى بعض أجزاء الهند على الأقل ضمن ممتلكات الجمهورية الفرنسية .

كانت مفاسد النظام المالى عميقة الجذور فى فرنسا بحيث تعذر إزالتها حتى على هذا الوزير الكفء . فاضطر كولبير أن يقبل أسلوباً من الضرائب من شأنه

التفرقة بين أقاليم فرنسا وإعفاء النبلاء من الضرائب ، والاحتفاظ بذلك النظام الفاسد ، نظام تلزيم الضرائب وبيع وظائف الحكومة مما شجع على اختلاس أموال الدولة . وهكذا بينما أدت الإدارة الصالحة إلى ازدياد موارد التاج زيادة عظيمة ، فإن طريقة جبايتها قد بددت كثيراً من أموال الدولة ، كما وقع العبء الأكبر — فى تقديرها — على أقل الطبقات قدرة على احتمالها — وبذلك كان تاريخ الجهود التى بذلها كولبير لجمع الأموال اللازمة لحروب سيده فصلا مظلماً من البؤس والتعسف ، ويمثل نقيضاً صارخاً لتألق ڤرساى واستهتارها . فبينما كان النبلاء منغمسين فى حفلات الصيد والرقص والمقامرة كانت الكلاب المتعطشة للدماء تتعقب المخلوقات التعسة التى تهرب الملح ، كما كان مئات من جامعى الضرائب ممن لا حول لهم ولا قوة يزج بهم فى السجون لفشلهم فى إلزام فقراء الفلاحين بدفع المقدار المعين عليهم من ضريبة العقار ، وعجز كولبير عن مقاومة المصدر الأساسى لهذه الشرور ؛ فلا أقل من ثورة تقضى بإدخال مبدأ المساواة فى مالية فرنسا .

وإن الحكمة التى نستخلصها من عهد كولبير أنه لا يمكن دفع شعب من الشعوب فى طريق لا يرغب فى اتباعه : فقد قنع الفرنسى بما كسب من أهلية متواضعة فى داخل بلاده وكره البحر وخشيته ، ولم يحفل بالمخاطرة بثروته فى مشروعات غير موثوق بها فى أطراف العالم ، لهذا باء بالفشل حلم كولبير بإمبراطورية بحرية عظيمة وتجارة عالمية تقوم بها شركات مساهمة . كان كولبير يأمل فى أن تصبح مصر تابعة لفرنسا ، وفى حفر قناة فى برزخ السويس ، وامتلاك سلسلة من القواعد البحرية على الطريق البحرى للهند والشرق الأقصى ، سابقاً بذلك فى الواقع نفس السياسة التى اتبعتها إنجلترا بعد ذلك بنجاح ، كما كان يأمل فى ضم مستعمرات مأهولة بالسكان ومرضى عنها من الشعب ، على أن بنى وطنه لم يشاركوه تلك الحماسة ؛ فلم تلق دعوته للمغامرات البحرية آذانا صاغية . وتركز اهتمام العاصمة على الحدود الشرقية التى استغرقت عنايتها والتى كانت تقترب من پاريس بصورة مزعجة للغاية . ولم تكن مقتضيات ومشاكل الدفاع غير كافية ؛ وكذلك إغراء المعارك الحربية الصيفية على المسرح التقليدى للحروب فى أوربا ، حيث تقاتل عظماء القواد خلال العصور ، وحيث كان الظفر بالمجد الحقيقى دائماً .

ثمة مظهر آخر لما استحدثه إقدام كولبير ، يتضح فى محاولته تنظيم القانون الفرنسى فأصدر « قوانين لويس » وهى مجموعة من الشرائع المحكمة الوضع تناولت الإجراءات المدنية والجنائية ، والتجارة والبحرية ، وزنوج المستعمرات (قانون السود) على أنها نظراً لتمسكها بعقوبة التعذيب ، وتحريم المستعمرات على اليهود والبروتستانت ، لا تعتبر من المعالم الإنسانية فى العالم . على أن تشريع ذلك العصر له أهميته ، ليس فقط باعتباره أول خطوة هامة نحو وحدة فرنسا التشريعية التى تحققت بعد ذلك تحت حكم نابليون ، بل أيضاً لأنه وضع الخطوط الرئيسية التى لا تزال الإجراءات فى محاكم فرنسا تسير بمقتضاها.ولم ينجح كولبير فى جمع الشرائع الفرنسية كلها فى دستور واحد، وإنما ظلت تغلب على المجتمع حتى وقوع الثورة مجموعة كثيفة معقدة من العادات المحلية ظلت تتراكم . ولكن كولبير قد أورث فرنسا فيما أورثه إياها فكرة جمع الشرائع كما خلف بعض الأجزاء الهامة المتناثرة ، ومنها ما يمكن تأليف تلك المجموعة حين يحين الوقت لذلك .

ولم تدع الروح القومية العسكرية والدينية العنيفة التى سيطرت على فرنسا فى عهد لويس الرابع عشر مجالا للحرية الشخصية . فأخمدت الرقابة الصارمة حرية الصحافة ، وحصنت البلاد حتى لا تسرى إليها عدوى المطبوعات الهولندية والإنجليزية المهلكة . وعرضت كتابة الرسائل حياة أفراد وأطرافهم للخطر — ولم يسمح بأى شىء من شأنه إزعاج الحاكم كتلك المقالات اللاذعة التى صدرت فى عهد مزران ، أو تلك الاحتجاجات المنظمة التى تقدم بها برلمان پاريس أيام الفروند . حقًّا لقد أفلتت هزليات موليير من الرقابة . وقد عوضت فيها حصافة الكاتب المسرحى عن طبيعة أفكاره المنافية للروح المسيحية . ولكن استبعد فى صرامة كل ما حمل نقداً للملكية أو تشكيكاً فى الكنيسة . وإنه لمما يحط بدرجة خطيرة من عظمة لويس الرابع عشر . على الرغم من إعلانه المتكرر عن رعايته لرجال الأدب . أنه لم يحرك ساكناً للحد من وطأة نظام جعل من المستحيل على ديكارت ، أعظم مفكرى عصره ، أن ينشر فى موطنه الأصلى أيًّا من الكتابات التى أعلنت عن ميلاد عهد جديد فى الفلسفة الأوربية .

وقد وضح تماماً أن نفوذ فرنسا قد سما سموًّا عظيماً نتيجة للتفكك السياسى

فى كل من ألمانيا وإيطاليا ، وتداعى قوة إسپانيا ، وموقف الملكية العائدة فى إنجلترا . واستطاع لويس فى الفترة بين ١٦٦١ ، ١٦٨٥ أن يعتمد غالباً على صداقة إنجلترا . فكانت أسرة ستيوارت فرنسية بعض الشيء ، فشارل كان حفيد هنرى الرابع ، وكانت أخته هنرييت Henriette (مدام ، Madame) متزوجة من دوق أورليان الذى كان أخاً للويس الرابع عشر . هكذا كان كل شيء يجذبهم إلى فرنسا : الدم الفرنسى ، والضيافة الفرنسية أثناء المنفى ، والأبهة الفرنسية ، والأتقراطية الفرنسية. والأموال الفرنسية — ولربما فاق هذه الأمور جميعاً بدرجة كبيرة سحر العقيدة الكاثوليكية لملك فرنساوهى العقيدة التى تحول إليها شارل سرًّا ،وأخوه جيمس علناً ؛ لذلك كانت صداقة فرنسا عظيمة الأهمية بالنسبة لشارل ،ولجيمس خليفته بدرجة عظيمة . فقد كانا يأملان بمساعدة فرنسا توفير التسامح الدينى للعقيدة الكاثوليكية القديمة ، وقد ينالان لها فى النهاية السيطرة ، كما أنهما باستخدام الموارد الفرنسية — الملاذ الأخير — قد يتمكنان من الدفاع عن امتيازات البيت المالك إذا تعرض التاج من جديد لتحد شديد . ومن ثم كانت إنجلترا فى عهد الملكين الأخيرين من أسرة ستيوارت — فيما عدا فترة قصيرة — موالية لفرنسا .

وفى تقدير العوامل التى أدت إلى تفوق لويس الرابع عشر وسيطرته ، يمثل الاتفاق الإنجليزى الفرنسى الذى ساد خلال النصف الأول من حكمه مكانة عظيمة الأهمية . فقد أدركت المدن الإنجليزية وهى وإن كانت پروتستانتية تماماً إلا أنها منغمسة فى التجارة ، أدركت أن الحاجة الملحة فى ذلك الوقت تدعوها إلى إضعاف هولندا أكثر مما تدعوها إلى مقاتلة دولة كانت تعدل هولندا فى كره الإنجليز لها — إلا أنها أضعف من هولندا فى البحار . كما لم تكن قد أصبحت بعد منافساً خطيراً لها فى أسواق العالم الجديد . وكان الشعور فى لندن تجاه الهولنديين خليطاً من الإعجاب والحسد والبغضاء — فقد أقام الهولنديون بفضل همتهم وحسن تدبيرهم ، وتسامحهم الدينى وكرم ضيافتهم ، وكذلك بفضل عاو كعبهم فى التعليم العالى وانخفاض مستوى رسومهم الجمركية ، أقاموا لأنفسهم أوسع تجارة للنقل ، وأقوى نظام فى أوربا . فلن تجد مكاناً آخر فى غير الجمهورية الهولندية رأس المال فيه بمثل هذه الوفرة والرخص ، ونظام البنوك بمثل هذا الرقى العظيم ، وبناء السفن بمثل

هذه السهولة واعتدال الثمن ، وقوانين التجارة بمثل هذه الملاءمة لحاجات مجتمع يعمل أفراده فى شئون التجارة والمال . وهذه الميزات التى قدرها تماماً رجال الحكومة البريطانية لم تكن إنجلترا قد أدركتها بعد (١٦٦٠) فى عهد شارل الثانى . وقد أحرز الهولنديون قصب السبق فى التسابق إلى المستعمرات والتجارة . ولما كان (وهو افتراض لا يتفق مع الواقع) الاعتقاد فى ذلك الوقت أن العالم ليس من الاتساع بحيث يكفل للهولنديين والإنجليز أن يعيشوا معاً معيشة مزدهرة ، وأن يتابع كل منهم طرقه وأساليبه ، فقد ألح الإنجليز فى ضرورة العمل على النيل من قوة هولندا بدرجة كبيرة . وقد ردت حكومة الملكية الإنجليزية العائدة إلى الحكم على الاحتكار الذى حرصت عليه هولندا بكل شدة فى منطقة جزائر التوابل وغرب أفريقيا — ردت على ذلك بسن قانون شامل فى عام ١٦٦٠ بصيانة تجارة المستعمرات الإنجليزية من الأيدى الأجنبية . ونشأ عن ذلك صراع كانت له نتائج هامة . فقد ساعدت الحربان اللتان خاضهما شارل الثانى ضد الجمهورية الهولندية على تقدم الملكية الفرنسية ، كما أن الحروب الأخيرة التى خاضتها إنجلترا ضد هولندا فى عهد وليم الثالث والملكة آن قد ساهمت بدرجة كبيرة فى أفول نجمها .

ولم تكن بريطانيا الدولة التى تصلح للسيطرة على البحار أثناء الحرب الأولى لشارل الثانى مع هولندا فإنها كانت لا تزال بطيئة الخطى ، يعوق سيرها الفكرة القاضية بأن أى قائد من ذوى الألقاب من قواد البر فى مقدوره أن يقود أيضاً الأساطيل أو أن أى خامل متسكع تقتنصه العصابات المنظمة لتجنيد بحارة الأسطول صالح للخدمة العسكرية فى البحار . وعلى إثر موقعة يونية ١٦٦٦ التى استمرت أربعة أيام ، عندما تسبب « دى رويتر de Ruyter » فى مقتل وإصابة ما يقرب من ثمانية آلاف شخص عاملين بالأسطول الإنجليزى عثر على البحارة الإنجليز طافين على المياه فى ملابس الأحد السوداء كما لو كانوا تماماً خارجين بعد الصلاة فى الكنيسة عندما أمسكت بهم جماعة من الإرهابيين. وكانت الأجور متأخرة والطعام غير متوافر. وكانت ظروف العمل فى الطبقات السفلى من السفن من السوء بحيث إن ثلاثة آلاف ملاح إنجليزى وإسكتلندى فضلوا فعلا العمل مع الهولنديين . ولم تكن ضخامة السفن الإنجليزية وحسن بنائها ، ولا الشجاعة والمران اللتان أبداهما الكثيرون من

البحارة الإنجليز السبيل للسيطرة على البحار . كذلك لم يكن من الحكمة أن يترك الأسطول خلواً من رجاله فى ميناء خال من وسائل الدفاع ، كما حدث فى يونية ١٦٦٧ ، عندما توغلت سفن الأعداء فى ميدوى Medway ، وأطلقت النيران على تشاتام Chatham ، وأوقعت بالبحرية الإنجليزية ضربة مدمرة دون أن تتكبد خسائر كبيرة . على أن الصدمة أفادت الإنجليز ، فإن لندن التى كان الطاعون والحريق قد نكلا بها ، لم تنس بسرعة زئير المدافع الهولندية فى نهر التيمس . فطرد كلارندون Clarendon رئيس الوزراء من البلاد . وبدأ أعضاء مجلس العموم يفحصون فعلا التقارير البحرية . وفى نهاية حكم شارل الثانى عاد ذوو القبعات إلى قواعدهم ، وبدئ البحث عن ضباط للبحرية . وهكذا انبعثت البحرية الملكية الإنجليزية كمهنة منظور إليها بعين الاعتبار نتيجة للدروس القاسية التى تلقتها إنجلترا فى الحروب الهولندية .

إن مشكلة حدود فرنسا الشرقية التى حاولت معاهدة لوكارنو[1] Locarno ١٩٢٥ تسويتها بصفة نهائية ، قد بدأت فى شكلها الحديث عام ١٦٦٧ ، عندما اجتاح لويس الرابع عشر عند موت فيليب الرابع ملك إسپانيا الأراضى المنخفضة الإسپانية بحجة أن حقوق إسپانيا فى هذه الأراضى قد انتقلت بمقتضى قانون براپان Law of Barbant إلى زوجه ، الابنة الكبرى للملك الراحل . وكثيراً ما عرضت سخافة المعاذير التى أدت إلى الحرب المعروفة بحرية الاستحقاق . فكانت مهزلة قلما وقعت لتعكير صفو السلام فى أوربا . على أن لفرنسا بعض الحق فى دعواها الحديثة أن الأراضى المنخفضة والفرانش كونتيه ، وإن كانت سياسيًّا تابعة لإسپانيا فهى فى معظمها فرنسية لغة وثقافة ؛ ثم إنها طالما بقيت فى أيد معادية عرضت شرق فرنسا للهجوم . إن تعبير « الحدود العلمية » ينتمى إلى لغة القرن

---

(١) معاهدة لوكارنو Locarno ١٩٢٥ : سلسلة من الاتفاقات الدبلوماسية وضعت فى لوكارنو (سويسرة) لكفالة السلم – وبمقتضاها :

(ا) تعهدت ألمانيا وبلجيكا وفرنسا وبريطانيا وإيطاليا بأن تتعاون معاً فى ضمان السلم فى غرب أوربا ؛

(ب) تعهدت ألمانيا بأن تحل أى خلاف يجرى بينها وبين فرنسا وبلجيكا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا عن طريق التحكيم .

التاسع عشر . ولكن الفكرة التى يتضمنها هذا التعبير أوحت إلى لويس بهذه السياسة ، كما أوحت بأعمال ڤوبان Vauban المهندس الحربى العظيم الذى أتقن وسائل الدفاع عن فرنسا فى كل جبهة ، وجمع إلى براعته فى فنه قلباً كريماً وبعد نظر الوطنى الحر المصلح . ومن ثم فإن حرب الاستحقاق وإن كانت عملا هجومياً لم تخل من غرض يتصل بمصالح فرنسا الحقيقية . وكسب « تورين » لبلاده فى المعارك التى قادها فى ١٦٦٧ شريطاً من المدن الفلمنلمية (شرلروا Charleroi وآرمنتيير Armentières وتورنى Tournai ودوى Douai وليل Lille) ، وهى المدن التى لا تزال فرنسا تحتفظ بها إلى اليوم .

وكان لغزو فرنسا للأراضى المنخفضة الإسپانية نتيجة بالغة الخطرة لم يلحظها لويس إذ ذاك . فقد نبهت الهولنديين للخطر . فأسرعت الجمهورية الهولندية بتسوية خلافاتها مع إنجلترا ، وتحت زعامة « جون دى ويت » John de Witt أحد كبار الساسة المدنيين ، عقدت مع إنجلترا والسويد محالفة ثلاثية (فى مايو ١٦٦٨) كانت كافية على قصر عهدها لإيقاف فرنسا وحث لويس على الجلاء عن فرانش كونتيه (معاهدة إكس لا شاپل Aix-la-Chapelle ١٦٦٨) . وقد جرح شعور الخيلاء فى العامل الفرنسى أن رأى أن جمهورية تافهة من التجار المارقين أخرجتها فرنسا إلى الوجود لتوازن بها عدداً مشتركاً تبلغ بها الوقاحة أن تنضم إلى حلف ضدها . أما إنجلترا والسويد فلويس يعرف كيف يعاملهما : فكلاهما فى حاجة إلى المال ومن المستطاع شراؤهما . أما الهولنديون فادخر لهم مصير آخر . ففى نوبة من الجنون استقر عزم ملك فرنسا على القضاء على الجمهوريين فى أمستردام الذين وقفوا لأول مرة حجر عثرة فى طريق أطماعه الحربية .

وكان فى استطاعة لويس عندئذ أن يعتمد على معونة شارل الثانى فى تحقيق هذه الخطة . فمنذ عام ١٦٦٩ ، ساد الاعتقاد فى دائرة خاصة ضيقة فى فرنسا وإنجلترا بأن الملك قد تحول إلى العقيدة الكاثوليكية . وقد وصل السر إلى مسامع « مدام » Madame أخت الملك ، ومنها إلى لويس الرابع عشر زوج أختها ، فلاحت له بذلك آفاق واسعة من الكسب السياسى والدينى . فدبرت مؤامرة خصت فيها (مدام) الشابة الجميلة الذكية الملتهبة العواطف بالدور الرئيسى أو أخذت هى على نفسها تحقيقه . ولم تلبث مزايا التحالف مع فرنسا أن رجحت لشارل بمهارة

على التحالف مع هولندا . ومن هذه المزايا التخلص من المنافسة الهولندية ، فى ميدان التجارة وتحطيم البحرية الحربية الهولندية، وتقسيم هولندا بين إنجلترا وفرنسا ، والأمل فى إقامة جيش ملكى من المرتزقة الأجانب فى الأراضى المنخفضة ، ويكون فى الإمكان استدعاؤه إذا دعت الحاجة لحماية الملك ضد أعضاء مجلس النواب فى إنجلترا ، وأخيراً إعادة الكنيسة الكاثوليكية إلى مكانتها الأولى فى إنجلترا . وقد عملت أخت الملك المتحمسة على صب هذه الحجج فى ذهن الملك واحدة بعد أخرى ، وأيدتها فى ذلك محظيته الماهرة ، فلقيت أذناً صاغية عند الملك الذى كان قد تحول إلى الكاثوليكية حديثاً . ونجحت المؤامرة . فعقدت فى ١٦٧٠ معاهدتان فى دوفر لتنظيم هجوم إنجليزى فرنسى كبير على هولندا . وكانت إحدى المعاهدتين سرية وهى معاهدة مدام ، لأنها تضمنت الاتفاق الدينى . وهكذا كان شارل ؛ وهو من أكثر الرجال لطفاً واستنارة، على استعداد لخيانة حليفته البروتستانتية وتدميرها ، ولتعريض الحرية البرلمانية فى بلاده للخطر فى سبيل تيسير أحواله المالية وتوطيد دعائم ملكه وترويج العقيدة الكاثوليكية .

إن الحرب سلسلة من المفاجئات . كانت جميع الاحتمالات تؤكد أن أساطيل إنجلترا وجيوش فرنسا لن تستغرق وقتاً طويلا فى الانتهاء من جمهورية هولندا الصغيرة . ولكن لم يقع ما كان متوقعاً . ففى البحر أثبت الهولنديون أنهم أنداد لأعدائهم الإنجليز . وفى البر أغرقوا بلادهم فصدوا الفرنسيين عن أمستردام — وهكذا امتدت ست سنوات تلك الحرب التى كان متوقعاً أن تنتهى فى أقصر وقت وأبهى نتيجة (١٦٧٢ — ١٦٧٨) ؛ إذ أخذت فى الاتساع كما يحدث دائماً فى الحروب ، وأماطت اللثام عن روح المقاومة العنيدة التى أثارتها مطامع فرنسا فى العالم التيوتونى — حقاً إن الفرنسيين حققوا فى نهايتها بعض أغراضهم ؛ إذ كسبوا (بمقتضى معاهدة نيمجن Nimwegen ١٦٧٨— ١٦٧٩) فرانش كونتيه وسلسلة من المدن على حدودهم الشمالية الشرقية ، على أن الهولنديين لم يغلبوا على أمرهم ، بل غدوا أكثر قوة على أثر ثورة أطاحت بالجمهورية ورفعت إلى السلطان أميراً شاباً من أسرة أورنج وهو الذى بزواجه من مارى ابنة جيمس ، دوق يورك فى ١٦٧٧ ، قدر له أن يصبح فيما بعد وليم الثانى ملك إنجلترا وأن يكون الروح المحركة للمقاومة الأوربية ضد فرنسا .

وعلى الرغم من شروط صلح نيمجن الموفقة « ذلك الصلح الفرنسى » الذى يجد فيه المؤرخ الفرنسى الحديث أسباباً تجعله خليقاً بالثناء عليه ، فقد أظهرت الحرب ظواهر كثيرة من شأنها أن توحى لسياسى أكثر حذراً من لويس الرابع عشر باتباع سياسة تقوم على الاعتدال وضبط النفس . فقد أثار ظهور جيش فرنسى على نهر الراين تألباً كبيراً ضد الفرنسيين ، شارك فيه الإمبراطور وكافة الإمارات الألمانية — فيما عدا بڤاريا — مع إسپانيا والدانمرك وهولندا . وهزمت السويد التى كان لويس يضع كل ثقته فى بأسها المعروف فى واقعة فهربلن Fehrbellin الحاسمة (١٦٧٥) تلك الواقعة التى أعلنت لأول مرة للأوربيين صلابة معدن الجندى البروسى ، وبوأت منتخب براندنبرج الأعظم وعميد أسرة هوهنزلرن Hohenzollern المكان الأول فى ألمانيا الشمالية . وكان ذلك نذيراً واضحاً لمتاعب مقبلة لفرنسا .

على أن لويس لم يكن الشخص الذى يبالى بتلك الظواهر المتجمعة للمقاومة الأوربية. إذ قدمت له إصلاحات لوڤوا الحربية جيشاً نظامياً من مائتى ألف من المقاتلين الأقوياء أعدوا إعداداً منظماً وزودوا بالحراب ، وعين لهم ضباط محترفون تلقوا تدريباً حديثاً . أما البحرية الفرنسية فقد نمت تحت إدارة كولبيرا الحازمة فأصبحت أسطولا من مائتى سفينة بعد أن كانت مجموعة من خمس عشرة سفينة . وعلى الرغم من أنه كان لا يزال عليها أن تتعلم الشىء الكثير فإنها قد بهرت أنظار أوربا وخاصة إنجلترا بمشاركتها كاملة فى الحرب الهولندية. ومن ثم استمرت عملية التوسع وتقوية الحدود الشرقية . وشكلت محاكم محلية عرفت باسم « مجالس الضم » . Chambers of Reunion ، لكى تقرر مدى حقوق الملك فى الألزاس والأسقفيات الثلاثة ، وفرانش كونتيه بمقتضى معاهدة مونستر ؛ ولما كانت لغة المدافع على استعداد دائماً لتعويض ما يغفله القانون ، فإن نتائج ذلك البحث الذى لا نظير له كانت مرضية للويس . فمنحت فرنسا السيادة التامة على الألزاس وأكملتها بالاحتلال الحربى لمدينة ستراسبورج (سبتمبر ١٦٨١) . وخرج لويس من هذه الحرب القصيرة التى أثارتها هذه الإجراءات التعسفية مكللا بنجاح ملحوظ. ولم يكن الإمبراطور — بسبب انشغاله بالغزو التركى الذى كان يشق طريقه إلى أبواب ڤينا — فى حالة تمكنه من تقديم عون ذى بال لدول التحالف الثلاثى فى عملياتها الحربية ؛

وهكذا مكنت هدنة رجنسبورج Regensburg (١٦٨٤) لويس من الاحتفاظ مدى عشرين عاماً بكل ثمار جهوده الطويلة المتصلة لتحسين حدود فرنسا الشرقية (وهى قلاع الفلاندر، ولكسمبورج ، وفرانش كونتيه ، والألزاس وستراسبورج) . وهنا كان جديراً به أن يقف ، إذ قد بلغ أوج سلطانه .

ولكن مطامع لويس كانت قد أصابت أوضاع أوربا ، كما نظمتها معاهدة وستفاليا ، بهزة خطيرة . كانت فرنسا ضامنة لتلك المعاهدة وقد أفادت فرنسا منها فائدة لا نظير لها ، ومع ذلك فإن معاهدة وستفاليا لم تكف لسد مطامع لويس . فلم يتورع عن نقضها، وراح يفقد الأصدقاء كلما أظهر ما تجيش به نفسه من أطماع فزاد بذلك من حشد أعدائه . فنى أول الأمر أزعج هولندا ثم ألمانيا ثم السويد . وأخيراً فقد صداقة إنجلترا .

كان الاحتفاظ بصداقة الإنجليز أو على الأقل بحيادهم منذ عام ١٦٦٨ من أهداف السياسة الفرنسية الرئيسية . وفى نظير تحقيق تلك الغاية وزع المال بسخاء على الملك والبلاط والبرلمان ، بل على رجال الدين من المذهب البرسبتارى . وقد أصابت هذه السياسة نجاحاً — وعلى الرغم من الغيرة الوطنية التى أثارتها رؤية النمو المدهش لبحرية فرنسا وقواتها العسكرية فقد استمر السلام يسود العلاقات بين فرنسا وإنجلترا تحت حكم شارل ، على أن سفراء فرنسا فى لندن لم يفتهم إدراك الشعور الحقيقى للشعب الإنجليزى . فمنذ الوهلة الأولى لغزو لويس للأراضى المنخفضة الإسپانية اجتاحت البلاد موجة من الذعر ، وتنبأت بالعدوان عليها ، وخشيت الغزو . ثم أنبأ باريون Barillon من لندن لويس فيما بعد فى أغسطس ١٦٧٧ أن صديقى فرنسا الوحيدين فى إنجلترا هما شارل الثانى وأخوه جيمس دوق يورك . ولاح للشعب الإنجليزى أن منافسة إسپانيا القديمة أو منافسة هولندا الأخيرة كانت أقل هولا من قوة فرنسا الحربية والتجارية الجديدة . على أن شارل استطاع أن يتغلب على الصعوبات الكبيرة التى أثارها عليه حزب الهويج بزعامة شافتسبرى Earl of Shaftesbury اللامع بالاستعانة بالموارد الفرنسية ، وازدياد إيراد الجمارك وحيله الخاصة . فأنقذ تاجه وتحاشى الحرب وانتصر على الحركة التى كانت ترمى إلى حرمان أخيه من العرش ، وحلّ البرلمان وحطم حزب الهويج . واستطاع خلال السنوات الأربع

الأخيرة من حكمه ، بفضل معاونة لويس المثمرة له إلى حدما ، أن يحكم إنجلترا دون الالتجاء إلى برلمان .

كان من الخير كل الخير أن يكون فى بلد لا يزال يصلى بنار الطائفية أن يكون على رأسه ملك يعالج الأمور بمثل ما عالجها شارل الثانى بقليل من الحدة وكثير من الاستثارة . كانت فطنة شارل وجاذبيته ، وبسطة أخلاقه ولطف أساليبه وبراءته الكاملة من كل أنواع التعصب ، وهذا مقروناً بحب استطلاعه العلمى كان بمثابة جرعة الدواء المرطبة لمريض أضنته الحمى. ولم يكن إسراف بلاطه المكشوف فى الملذات يتنافى ونوبات من العمل الذى أحسن توجيهه. وقد وضعته مرونة ذهنه فى نواح مختلفة فوق مستوى عصره بدرجة كبيرة. وعلى الرغم من اضطراره إلى الموافقة على إجراءات الاضطهاد التى صدرت من برلمان الفرسان Cavalier Parliament (١٦٦٠ ــ ١٦٦٧) ، فقد كان من أنصار التسامح الدينى ، فأثار عليه خصومة برلماناته بمحاولاته توفير التسامح عن طريق استخدام سلطانه الخاص بتجاوز القانون. وعلى غرار أوليفر كرمويل تبين له ازدياد أهمية مستعمرات إنجلترا فيما وراء البحار وقوتها البحرية ثم إن قوانين الملاحة التى صدرت فى عهد الجمهورية (Protectorate) لكى تضمن لإنجلترا احتكار الاتجار مع مستعمراتها قد تطورت فى عهده إلى أن أصبحت جهازاً من القوانين والقواعد تنتظم كافة مجالات التعامل بين إنجلترا ومستعمراتها .

وقد حفظ له إحساسه المرهف باتجاهات الرأى العام وتقلباته ، ذلك الإحساس الذى بلغ من الدقة بحيث لم يكن يتمشى والشجاعة المدنية الحقة ، حفظ له عرشه سالماً فى وقت كان الإفصاح فيه عن أفكاره الباطنة كفيلا بأن يحدث اضطراباً خطيراً . على أن الناس مهما بلغ منهم الشك لم يعرفوا أن ملكهم الدستورى كان فى قرارة نفسه مستبداً فى آرائه السياسية ، وكاثوليكياً فى عقيدته ــ كما أنهم جهلوا أنه كان عميلا يتقاضى مرتباً من فرنسا ــ ذلك لأن شارل لاذ بالصمت حتى إنه تناول طعامه مع الشرير « تيتوس وأتس » Titus Oates ، ولم يوجه له كلمة تأنيب صريحة عندما أخذ هذا يذيع افتراءات مهلكة ضد الكاثوليك من أبناء دينه . فهو لم يكن فى تسامحه وحذره بالفارس الذى يعرض نفسه للخطر .

كان الموقف يتطلب رجلا أقوى من شارل الثانى لوقف تيار اهتمام الناس بشئون الحكم ، ذلك الاهتمام الذى أطلقته من عقاله العواطف التى لابست الحرب الأهلية . فقد وقف الناس على قدم وساق ، يتحدثون ويتناقشون ويقرءون الأنباء ويرقبون رجال البرلمان فى عملهم . وكانت رسائل هارفيل Harvell إلى ناخبيه فى هل Hull تمثل ظواهر العهد الجديد . كما كان كذلك نمو الحزبين الهويج والتورى ، اللذين اتخذا شكلا محدداً لأول مرة فى النقاش الذى دار حول اقتراح حرمان دوق يورك (جيمس الثانى فيما بعد) من العرش بسبب عقيدته الدينية ، إذ كانت إنجلترا متشبثة بعقيدتها البروتستانتية ونظمها البرلمانية . وكانت الأخطاء الشنيعة التى ارتكبها زعماء حزب الهويج ، وقد بلغت قمتها بتأييد هؤلاء الزعماء لمفتريات Titus Oates كانت هذه الأخطاء وحدها هى التى قدمت لشارل فرصة انتهزها ببراعة فائقة لحل البرلمان فى عام ١٦٨١ .

مات شارل عام ١٦٨٥ . وخلفه على العرش جيمس الكاثوليكى المتحمس المجاهر بعقيدته . وكانت خطته تهدف إلى توفير التسامح قانونياً لأبناء دينه وذلك عن طريق حشد البرلمان بمؤيديه ، وإعفاء الكاثوليك من العقوبات التى كانوا يتعرضون لها بمقتضى قوانين البلاد — ولن تجد سياسة من الناحية الدينية أو الدستورية يمكن أن تعافها النفس فى بلد بروتستانتى دستورى كتلك السياسة ، وخاصة عندما أصبح من الواضح أن النجاح فى تنفيذها يتوقف على مساعدة فرنسا وأيرلندا وقوة عسكرية دائمة ، وكلها عوامل من شأنها فى الجو الذى ساد البلاد عندئذ أن تقضى على أى تفاهم مع الشعب الإنجليزى .

كان جيمس لازماً للويس كما كان لويس لازما لجيمس تقريباً إذ أن المناوئ الحقيقى لجيمس فى إنجلترا لم يكن دوق منموث Monmouth البروتستانتى الذى قضى على ثورته المشئومة فى سيدجمور Sedgmoor ولكن المناوئ الحقيقى لجيمس كان وليم أورانج الذى تزوج فى ١٦٧٧ من الأميرة مارى الابنة البروتستانتية لملك إنجلترا. كان أمراً بالغ الأهمية إذن للويس أن يظل الملك الكاثوليكى على عرش إنجلترا وأن يتعلم رعاياه المشاكسون — وهم لا يحصون عداً — احتمال نيره فى رصانة ، وطالما بقى جيمس على عرش إنجلترا ، فليس ثمة ما يدعو للخوف من مضايقات الأسطول

الإنجليزى لمستعمرات جزائر الهند الغربية ، التى كان لكولبير الفضل فى تنميتها ، أو من اشتراك الجيش الإنجليزى فى العمليات الحربية ضد فرنسا فى القارة الأوربية . على أن وليم أورنج كان أشد أعداء فرنسا كافة استماتة وعناداً . وكان اتحاد إنجلترا وهولندا تحت قيادته من شأنه أن يثير متاعب خطيرة أمام لويس الرابع عشر .

وحدث عندئذ ، فى الوقت الذى كان من الأهمية البالغة بمكان لنجاح السياسة الفرنسية فى أوربا بصفة عامة أن تظهر فرنسا تسامحاً إزاء رعاياها البروتستانت أن ألغى لويس مرسوم نانت (١٦٨٥) . فعلى الرغم من رغبته فى تأمين التسامح للكاثوليك من الإنجليز فإنه استرد ذلك التسامح الدينى الحكيم الذى منحه جده للبروتستانت الفرنسيين ، فحرم عليهم العبادة وطرد قسيسيهم ، وحطم كنائسهم ، وأغلق مدارسهم وهكذا دفع حوالى مائتى ألف من خيرة الصناع المهرة إلى مبارحة مملكته إلى بلاد أجنبية حيث أقاموا صناعات نافست الصناعات الفرنسية ، وأثاروا حقداً لا يهدأ ضد فرنسا . ولعل خير ما يمكن أن يعتذر به عن هذا التصرف الجنونى الذى لا مسوغ له أنه لم يجئ نتيجة لتأثير مشورة مدام دى منتنون Madame de Maintenon وهى السيدة العجوز البصيرة الورعة التى تزوجها الملك سراً عام ١٦٨٣ ، وإنما لأنه أرضى رجال الدين والدنيا فى فرنسا . ففى القرن السابع عشر كان بوسع الرجل الفرنسى العادى أن يكون كاثوليكياً مخلصاً لعقيدته وفى الوقت نفسه خصما لسلطان الكنيسة : فهو جاليكانى[1] وليس بابوياً ؛ وهو كاثوليكى وليس بروتستانتياً ولم يكن ثمة ما يخيفه أكثر من تجدد الحروب الدينية التى قضت على كثير من البيوت ، ومررت حياة عدد كبير من الأسر ، وخلفت وراءها سلسلة طويلة من الذكريات الأليمة التى فرقت بينهم . ولقد كان من الواضح لصاحب الإدراك الهادئ الرزين أن « كنيسة الإصلاح » — كما كانت تسمى — لم تعد منذ أيام ريشيليو تمثل خطراً سياسياً . إذ لم تعد تملك استحكامات ولا جيوشاً . وقد بقيت هادئة أثناء

---

(١) جاليكانى Gallican أى من أنصار حرية الكنيسة الفرنسية ؛ وهى التى أعلنها مجمع دينى عقد عام ١٦٨٢ من رجال الكنيسة الفرنسية لتأييد لويس الرابع عشر فى ادعائه الخاص بسيطرة الدولة التامة على الكنيسة ؛ فاحتج البابا إنوسنت الحادى عشر على محاولة ملك فرنسا اغتصاب حقوق البابا فى الإشراف على جميع شئون الكنيسة الدينية والدنيوية على السواء .

ثورات الفروند . وخدم أعضاؤها الدولة فى الجيش والبحرية والقضاء وكسبوا لأنفسهم مكانة سامية فى عالم المال والتجارة والصناعة ؛ على أن فرنسا لم تشعر بالاطمئنان طالما بقى يعيش فيها مايون من الهيجونوت بمجالسهم الكنسية ومدارسهم ، وقسسهم أصحاب الملابس السوداء وطقوسهم الدينية الخاصة . لم يكن الجمهور الفرنسى راضياً عن هذه الطائفة التى كانت لها خطورتها فى الماضى ،وقد تعود لها خطورتها لإقبال الناس عليها بسبب ما تبيحه من زواج القسس . وكان ثمة من يغبط الهيجونوت على ثرائهم كما كان ثمة من ينفس عليهم نشاطهم ، ومن الناس من ساءه عنفهم ، ومنهم من ساءه تعصبهم ضد جيرانهم الكاثوليك فى البلاد التى سادت فيها الكنيسة البروتستانتية . وتساءل الناس كيف يسمح لهذه الطائفة العنيدة المنافية للعقل ، الطائفة التى هجرت ديناً جديراً بأن يعتنقه ملك فرنسا وانتمت لكنيسة تشكلت بالطابع الجمهورى ، كيف يسمح لها أن تقيم لنفسها كياناً خاصًّا منبوذاً فى بلد كاثوليكى ملكى . وأخذ مجلس الكنيسة فى فرنسا يقدم الالتماس عاماً بعد عام للقضاء على هذه الهيئة الأجنبية . وخضع لويس لذلك الضغط مع أنه لم يكن بطبيعته متعصباً . وفرضت عمداً مختلف الوسائل القاسية الظالمة لتجعل مركز الهيجونوت فى فرنسا أمراً لا يطاق بحيث يضطرون إلى اعتناق العقيدة الكاثوليكية . ونجحت هذه السياسة البغيضة إلى حد بعيد . على أن ألوفاً من الهيجونوت الذين ظلوا محتفظين بديانتهم خلال عشرين عاماً قاسوا فيها من مضايقات الاضطهاد ، وإن كانت أقل شأناً مما كان ينتظرهم على عهد لويس ، بارحوا البلاد عندما احتلت مساكنهم جنود لوڤوا Louvois من الدراغون (١٦٨١ — ١٦٨٥) ، وأصبح السلب والقتل والاغتصاب جزءاً من يتمسك بعقيدة آبائه . وعندما ساد الاعتقاد بأن الإرهاب قد أدى غايته ، وأن مقاومة هذه الطوائف العنيدة قد تحطمت ، وأن من اليسير تحويل البقية البائسة عن عقيدتهم ، ألغى مرسوم نانت وتعالت أناشيد التسبيح تحمد هذا البطل من أبطال المسيحية الذى استطاع فى النهاية أن يتغلب على أوهامه ويعنى عناية جدية بخلاص روحه ، فبارى بذلك فعال الأباطرة قسطنطين وتيودوسيوس وشرلمان . وقال له بوسويه Bossuet واعظ البلاط : « إن هذا لهو أثمن ما قمتم به فى حكمكم من جلائل الأعمال وإنه المميز الصادق لحكمكم ، فبفضلكم

لم يعد للزندقة وجود ، وإن الله فى علياء سمائه قد أنزل هذه الآية » . ولكن مهما بلغ من سرور الفرنسيين الكاثوليك بإلغاء مرسوم نانت ، فإن هذا العمل لم يكن قط الوسيلة التى يحصل بها جيمس الثانى على رضى شعبه فى لندن التى سادها المذهب البيوريتانى .

وعجلت رعونة جيمس بمحاولته فرض الكاثوليكية على مواطنيه بوسائل غير دستورية بوقوع « الثورة المجيدة » فى ١٦٨٨ ، تلك الثورة التى نصبت وليم الثالث ملكاً على إنجلترا . كانت ثورة مجيدة لأنها اتسمت بالتسامح ، وترفعت عن اضطهاد الفريق الذى غلب على أمره . كانت أيرلندا المسرح الرئيسى للحرب البرية ، وبفضل انتصار بوين Boyne الشهير (٣٠ يونية ١٦٩٠) ، واستسلام ليمريك Limerick بعد ذلك بعام واحد ، قويت القبضة السياسية لإنجلترا البروتستانتية على الكاثوليك فى أيرلندا لمدة قرنين واثنين وأربعين عاماً [1] ؛ وفى خلالها أسفر التنافس الطويل على السيطرة الاستعمارية بين فرنسا وإنجلترا عن نتائجه .

لم يتوقع لويس أن تقدر إنجلترا على القيام بهذه الثورة البيضاء ، بل إنه خرج منها أقوى بكثير عن ذى قبل بفضل انتصار مبادئها البرلمانية . كما أن هذه الثورة تعارضت بشدة مع الفلسفة السياسية السائدة عندئذ فى القارة . ولو قد بذلت فرنسا بعض الجهد لاستطاعت أن تمنع وليم من النزول فى تورباى Torbay . ولكن لويس بدلا من أن يستخدم جيشه لإثارة المتاعب لوليم فى الأراضى المنخفضة ، أرسله إلى إقليم البلاتين حيث حيل بينه وبين التأثير فى مجرى الحوادث . وتفسير ذلك أن لويس اعتمد على حرب أهلية طويلة الأمد تشل حركة إنجلترا ، وتطلع فى صبر وهدوء إلى توقع حدوث شقاق بين خصميه الرئيسيين إنجلترا وهولندا .

ولا حاجة بنا إلى الدهشة لأنه أخطأ التقدير ، فإن مبادئ حزب الهويج فى إنجلترا ، ذلك الحزب الذى وضع تسوية ما بعد الثورة ، لم تكن كفيلة بأن تبعث على

---

(١) استقلال إيرلندا : — بمقتضى المعاهدة التى أبرمت فى ١٩٢١ بين بريطانيا والولايات الجنوبية الإيرلندية صارت إيرلندا (ما عدا الولايات الست الشمالية التى تقع فى الشمال الشرقى من إيرلندا والتى رغبت فى إبقاء علاقاتها مع بريطانيا) تتمتع بمثل ما تتمتع به كندا من حرية واستقلال ذاتى . ونالت حريات أوسع بمقتضى قانون وستمنستر (١٩٣١) .

الثقة فى الاعتدال وضبط النفس . فنى كفاحهم — رجال الهويج — لإقصاء چيمس عن العرش كادوا يلجأون إلى العنف فى معاملة خصومهم من الطوائف الأخرى ، فأيدوا المفتريات الشنيعة التى كان يروجها « تيتاس أوتس » Titus Oates والتى لم يكن لها أساس من الصحة ضد الكاثوليك ، كما عضدوا الثورة المسلحة التى قام بها مونمث Monmouth ضد چيمس — وقد تلقى بعضهم مالا من فرنسا ولكنهم استمعوا إلى صوت الاعتدال أثناء أزمة ١٦٨٨ ، وكانوا تحت زعامة هاليفاكس Halifax المنظم (The Trimmer) وهو أحد عظماء المصلحين فى إنجلترا. ولم يكن لويس ليستطيع أن يتنبأ بذلك ، ولا أن يتنبأ بأن رجل الحرب والسياسة ذلك الهولندى الرابط الجأش الذى استدعاه الهويج لإنقاذ الدولة سيشق طريقه فوق أحقاد الانتقام الحربى ، وينجح فى مهمته غير العادية ، مهمة جعل إنجلترا دولة متحدة العناصر وإن كانت آخذة بالنظام البرلمانى .

وفى أى مقارنة بين القوى البشرية فى فرنسا وفى الدولتين اللتين قد اجتمعتا تحت حكم وليم الثالث نجدهما دون فرنسا بدرجة كبيرة . فعلى حين كان عدد السكان فى إنجلترا حوالى خمسة ملايين ونصف المليون ، وسكان الجمهورية الهولندية حوالى مليونين ونصف المليون ، كان عدد سكان فرنسا حوالى تسعة عشر مليوناً أو عشرين مليوناً . على أن إنجلترا كانت تتميز عن فرنسا بميزتين : الأولى أن البحارة الإنجليز على إثر الانتصار البحرى الذى أحرزوه فى لاهوج La Hogue (١٦٩٢) وطدوا تفوقهم الحاسم على البحرية الفرنسية ، التى كانت قد فقدت عندئذ إدارة كولبير العظيم الفريدة — أما الميزة الثانية ولعلها أهم من الأولى ، أن شكل الحكومة التى كسبتها إنجلترا فى ثورة الهويج كانت أكثر ملاءمة من الحكم الاستبدادى فى فرنسا لمواجهة الضيق المالى والتغيير الاجتماعى . أما لويس فقد نبذ كل سلطة دستورية من شأنها أن تحد من سلطان الملك ؛ فرفض أن يستدعى مجلس طبقات الأمة وقصر مهمة البرلمانات على ممارسة وظائفها القضائية . وأدار حكومة البلاد عدد من الوزراء واللجان يعملون مع الملك ، على حين باشر شئونها فى الأقاليم مفتشون يمثلون فى العهد الحديث رؤساء البلديات ، وتركت دون مساس الامتيازات المالية التى اختص بها النبلاء الذين كان أكثرهم يعملون فى الجبهة أو ملحقين بوظائف البلاط — وعلى الرغم من

استنزاف الحروب المستمرة للأموال والسلطان العريض الذى كان يتمتع به الملك ، لم يبذل أى جهد لعلاج نظام يقوم على أن الجانب الأكبر من أعباء الدولة المالية تقع على عاتق أفقر طبقات المجتمع ، على حين تضاءلت للغاية مساهمة النبلاء ورجال الدين ، وهم الأثرياء إذا قورنوا بتلك الطبقات ،ولم يكن بوسع حكم أوتوقراطى يعمل فى الخفاء أن يستمر إلا فى حالة واحدة وهى أن يقضى على الظلم الاجتماعى . ولما كان هذا الحكم الأوتوقراطى قد أخفق فى ذلك ، ولما كان قد فقد روحه المحركة وكفاءته بموت أقدر وزراء الملك وتدهور نفوذ الملك الشخصى ، فإن ماكية لويس الرابع عشر تركت فرنسا فى حالة شنيعة من البؤس كما لو كانت انتصاراتها قد استحالت إلى هزائم .

على أن نظام الحكومة الفرنسية فى عام ١٦٨٩ كان أعظم ما يكون جلالا فى أوربا ؛ على حين عرف البرلمان الإنجليزى خاصة بتحزبه وتقلب أهوائه وارتشائه وعجزه — كما يبدو — عن التوجيه الثابت ، وفسر انتقال السلطة من الملك إلى البرلمان على يد الثورة على أنه علامة أكيدة على الضعف ، أولئك الذين فاتهم أن يدركوا أن البرلمان خلال القرن ونصف القرن التالى ستحكمه أرستقراطية زراعية وتجارية ، لا تفتقر إلى الخبرة بشئون الحكم ، ولا يعوزها الاهتمام بالصالح العام ولا تنقصها الشجاعة والحكمة التى تلزم لتكوين رجال الدولة . وكان الحكم البرلمانى شيئاً جديداً لم يجرب بعد . وقد أظهر دوق مولبرا للعالم فى واقعتى بلنهايم Blenheim وراملى Ramillies أن مثل هذه الحكومة فى مقدورها أن تقود حرباً أوربية ، وأن تنزل إلى الميدان قوات استطاعت أن تهزم القوات الفرنسية فى نزال عادى . وبذيوع هذه الانتصارات الباهرة يبدأ الإعجاب بالنظم الإنجليزية ويصبح أمراً ملموساً وينتشر على نطاق واسع فى القارة الأوربية خلال القرن الثامن عشر . وبرهن هذا الشعب المدنى الذى أكد فى قانون الحقوق عدم شرعية الجيوش القائمة وقت السلم ، وبرهن على كفاءته لمواجهة كل مطالب الحروب المضنية — بل إنه بز خصومه جميعاً فى مسائل الاقتصاد وأعمال البنوك والتجارة وعلم الرقابة على أموال الدولة وفنه .

وهكذا واجه لويس ، فى الحرب التالية التى شنها لتوسيع ، رقعة فرنسا واجه إنجلترا ،

التى لم تعد منافساً صديقاً بل غدت عدوًّا نشطاً . فكان صراعاً باهراً دار حول قضايا خطيرة ، واستمر عشرة أعوام (١٦٨٨ — ١٦٩٧) ، وتميز بانتصارات عديدة ، على أنه انتهى بإيقاف جدى لفرنسا عند حدها . وقد بدا أن لويس قد لقن أوربا مزيداً من فن التحالف ، فقد أعقب التحالف الثلاثى ، حلف أوجز بورج ١٦٨٥ ، وإنها لمحالفة جايلة القدر ، أيدها البابا سرًّا ، وانتظمت الإمبراطور والإمبراطورية وهولندا وإسپانيا وساڤوى وإنجلترا والسويد ، ولكنها محالفة أظهرت الحقيقة عن المحالفات المعروفة وهى أنها يندر أن تكون فعالة فى العمل فعاليتها على الورق ، فحلت بقوات الحلف سلسلة من الهزائم المخزية على يد أفضل جيوش قادها أمهر قواد عرفتهم أوربا إذ ذاك . استولى كاتينا Catinat على نيس ، واجتاح ساڤوى ، كما أحرز لكسمبورج الانتصار تلو الآخر على وليم الثالث فى الأراضى المنخفضة ، ووقع إقليم الپلاتين مرتين فريسة لعمليات تخريب لا رحمة فيها ، ولا تزال ذكراها من عوامل النفور بين الشعبين الفرنسى والألمانى . ومع ذلك فإن معاهدة رزويك Ryswick التى أنهت الصراع كانت هزيمة للويس . فى سبيل الوصول إلى الصلح مع أعدائه العنيدين الذين لم يصبهم الإجهاد بعد ، اضطر ملك فرنسا أن يتنازل عن فتوحاته ، وأن يسلم للهولنديين بحق تحصين المدن الواقعة على حدود الأراضى المنخفضة الإسپانية ، وأن يعترف بملك إنجلترا الملحد ، وأن يوافق على أن تخلفه على العرش أميرة ملحدة . إن المواقع المتفرقة لا يتوقف عليها كل شىء فى الحرب ، وإنما يكون النصر النهائى للفريق الذى يستطيع أن يصمد أطول مدة . وكانت هذه الميزة . بفضل ثبات ذهن وليم الثالث البروتستانتى ، فى جانب أولى المحالفات الأوربية العظمى .

كتب يمكن الرجوع إليها

— Macaulay : History of England (1858-62).

— Voltaire : Le Siècle de Louis XIV. (1753).

— G. Hanotaux : Etudes historiques sur le XVIe et le XVIIe siècle en France (1886).

— D. Ogg : Europe in the Seventeenth Century (1925).

— D. Ogg : Louis XIV. Home University Library (1933).

— D. Ogg : England in the Reign of Charles II. 2 Vols. (1934) .

— E. Lavisse : Histoire de France, Vol. VII.

— P. Clement : Histoire de la Vie et de l'Administration de Colbert (1846).

— J.J. Jusserand : Instructions données aux ambassadeurs de France depuis les Traités de Westphalie. Angleterre.



الفصل الحادى والعشرون

الوراثة الإسپانية

الوراثة الإسپانية – معاهدات التقسيم – اعتراضات النمسا وإسپانيا على التقسيم – لويس يقبل الإرث كله صحيحا – المحالفة العظمى – روح المقاومة الإنجليزية – حرب الوراثة الإسپانية – طابعها وأمدها – إسپانيا مظهر جانبى – معاهدة يوترخت – السيطرة البحرية تنتقل إلى إنجلترا – الجنسنست والجزويت فى فرنسا – پسكال Pascal المرسوم البابوى الفريد فى نوعه The Bull Unigenitus – استمرار النضال فى القرن الثامن عشر – ضعف البواعث الدينية والأسرية . القرن السابع عشر – زعامة فرنسا الروحية .

وفى تلك الأثناء كان ثمة مشكلة على جانب عظيم من الأهمية مست خاصة مصالح هولندا وإنجلترا فى طريقها لإحداث أزمة عاجلة . ماذا يكون مصير الإمبراطورية الإسپانية عند موت ملكها شارل الثانى ، الذى كان متوقعاً منذ أمد بعيد ، وقد تأخر طويلا ؟ كان ذلك المريض المعتوه الذى لا أمل فى نسل يخلفه يحكم إسپانيا منذ ١٦٦٥ . ولم يكن مما يسلم به فى فلسفة ذلك العصر السياسية أن يكون للشعب الإسبانى حق إبداء رأيه فى هذه المسألة التى تتعلق بمصيره . فلا زالت المملكة تعتبر كما لو كانت ملكاً خاصًّا للأسرة ، تسوى أموره بوصية أو يقتسم بين ذوى القربى باتفاقهم . ولكن هذه الإمبراطورية ما كان أعظمها من ملك للأسرة الحاكمة ! فالممتلكات الأوربية وحدها التى يملكها الفرع الإسپانى من أسرة الهاپسبورج كانت تكون إمبراطورية شاسعة انتظمت ميلان ونابلى وصقلية وسردينيا وجزائر البليار وكذلك الأراضى المنخفضة الإسپانية وإسپانيا نفسها – على أن الأملاك غير الأوربية كانت كذلك أكثر روعة وهى جزائر الفيليبين والكنارى وكوبا والمكسيك وفلوريدا وكاليفورنيا وبنما ، وكذلك أقاليم أمريكا الجنوبية باستثناء جيانا والبرازيل البرتغالية . وكانت هذه الإمبراطورية من الضخامة بحيث لم يحتملها سلام العالم ومن الاتساع بحيث استعصت على الحكم القوى الناجح . لذلك كان أمر تقسيمها سواء بوصية من الملك أو بالاتفاق الودى مسبقاً بين الأطراف المعنية كان أمر تقسيمها أمراً مرغوباً فيه من جميع النواحى باعتباره الوسيلة الوحيدة

لتجنيب أوربا ويلات حرب عالمية .

كان من المحتمل أن يطالب بالإرث الإسپانى فى ١٦٨٩ ثلاثة من الشبان : فيليب دوق أنجوحفيد لويس الرابع عشر ، وشارل الابن الثانى لإمبراطور النمسا ليوبولد الثانى ، وچوزيف فرديناند أمير بڤاريا المنتخب وابن أخ ملك إسپانيا . ولما كان الأمير البڤارى أقل هؤلاء الثلاثة بأساً فقد كان من المرجح أن المفضل من تكون الدول المهتمة بالأمر أكثر استعداداً لقبول المفضل من بينهم لأنه يقدم لها أقوى الضمانات للمحافظة على التوازن الأوربى[1]. وبناء على ذلك وقعت فرنسا وإنجلترا والأراضى المنخفضة معاهدة لتقسيم الممتلكات الإسپانية وقد خصت أمير بڤاريا الشاب بنصيب الأسد من هذه الإمبراطورية (وهو إسپانيا ومستعمراتها) ، على حين أرضت النمسا وفرنسا بالجزء الباقى منها إرضاء جوهرياً . وعلى أى حال فإن هذه التسويات الحكيمة قد أوقفها فى العام التالى موت الأمير البڤارى فجأة ، وتطلبت المشكلة علاجاً من جديد ولكن فى ظروف أقل ملاءمة بكثير من ذى قبل .

فطالما كان هذا الأمير البڤارى بشخصيته الضعيفة التى لا تثير جدلا على قيد الحياة ، كان بوسع جميع الأطراف المعنية بالأمر قبول خطة عامة . ولكن موته جعل المشكلة تكاد تستعصى على الحل . حقيقة أنه قد وضعت تسوية ملائمة لكل من لويس والدول البحرية : إذ تقرر بمقتضى معاهدة التقسيم الثانية أن تؤول إلى النمسا الأراضى المنخفضة (وكانت هذه مسألة جوهرية بالنسبة للدول البحرية) ، وكذلك إسپانيا والمستعمرات بينما تأخذ فرنسا ناپلى وصقلية وميلان التى تستعيض عنها باللورين . وإن قبول لويس هذه التسوية لدليل فريد على اعتداله فى تلك الفترة .

ولكن لسوء الحظ كانت هناك دولتان : إسپانيا والنمسا ، لا ترضيان مطلقاً عن فكرة التقسيم على أى أساس . كان طبيعياً أن يستنكر ملك إسپانيا وأعيانها فكرة تقطيع أوصال الإمبراطورية الإسپانية ، ولكن ليوبولد إمبراطور النمسا بسبب رغبته فى ميلان رفض العروض العظيمة التى تتيحها له معاهدة التقسيم الثانية ، وكان ذلك خطأ لا يفوقه فى سجل الحماقات التى كلفت النمسا الشىء الكثير سوى الإنذار

---

(١) انظر ثبت الأنساب (د) .

النمسوى إلى الصرب فى يوليو ١٩١٤[1]. وأمام هذه البعثات قضى بالفشل على سياسة التقسيم الحكيمة التى بذل فيها وليم الثالث ولويس الرابع عشر مهارة دبلوماسية فائقة . وعندما مات ملك إسبانيا فى نوفمبر ١٧٠٠ ، اتضح أنه ترك وصية تورث إمبراطوريته كاملة لفيليب الأمير الفرنسى ؛ فإذا لم يقبل الإرث كله آل إلى الأمير النمسوى شارل .

كان من المتعذر على لويس أن يرفض تسلم الإرث . حقاً إنه كان قد وقع لتوه معاهدة التقسيم الثانية التى كانت تمنح النمسا قلب الإمبراطورية الإسبانية ؛ ولكن النمسا لم تكن قد قبلت هذه المعاهدة ؛ كما أنه لم يكن ممكناً الاعتماد على إنجلترا وهولندا لمساعدة فرنسا على تنفيذ تلك المعاهدة. وفى حالة رفض لويس تسلم الإرث لحفيده كانت جميع الأملاك تؤول لشارل ، ولن يلوم أحد لويس إذا هو أحجم عن قبول انتقال كافة الأملاك الإسبانية إلى منافسه النمسوى . ولو قد كانت النمسا على شىء من التعقل إذن لحققت زيادة كبيرة فى قوتها دون الالتجاء إلى حرب عالمية . ولو قد كانت إسبانيا على شىء من الحكمة لتفادت الغزو الأجنبى فى نظير بقاء التنازل عن بعض الأملاك . ولكن لما كانت كل من النمسا وإسبانيا لا ترضى بأقل من الملك كله ، ولما كانت إسبانيا قد قدرت بحق أن فرنسا كدولة معادية أكثر خطورة من النمسا البعيدة وكدولة صديقة أكثر نفعاً منها ، فقد وجد لويس نفسه مضطراً ليتوقى عواقب أكثر سوءاً — أن يقبل الوصية . وهكذا تسنى لكاردينال إسبانى كان يهيمن على الملك وهو على فراش موته يكاد لا يحس بشىء أن يحول ملك فرنسا من نصير للتقسيم إلى درع واق لإسبانيا الموحدة .

ومن ثم أصبحت مهمة المحافظة على السلام عسيرة . ومع ذلك فإن الأمر الذى جعل من الحرب شيئاً لا مناص منه ، لم يكن قبول لويس للوصية بقدر ما كان طغيان روح الجشع الجديدة التى أثارتها الوصية فى ذهنه . فمضى لساعته فى سلسلة

---

(١) الإنذار النمسوى إلى الصرب فى يوليو ١٩١٤ . عند ما قتل ولى عهد النمسا فرانسوا فرديناند فى ٢٨ يونيو ١٩١٤ على يد طالب صربى فى سيراجيفو وجهت النمسا إنذاراً إلى الصرب فى ٢٣ يولية مطالبة فيه بعدة مطالب قبلت الصرب معظمها ولكن النمسا كانت مصرة على الحرب فأعلنتها فى ٢٨ يولية .

من عمليات الاعتداء الطائشة . وقد دبرت بشكل يشعل عداء الدول البحرية : فتدفقت جيوشه فى الأراضى المنخفضة الإسپانية ، واحتلت مدن الحدود الهولندية . ثم ألزم لويس الإسپانيين أن يمنحوا فرنسا حق الأسينتو ، أى حق الاتجار فى عبيد أفريقيا مع جزائر الهند الغربية الإسپانية . وإزاء مثل هذه الأعمال شعر الإنجليز والهولنديون بضرورة القتال فى سبيل المحافظة على كيانهم التجارى ؛ بل إن البرلمان الثورى دعا الملك وليم (فبراير ١٧٠١) ليبدأ المفاوضات مع الإمبراطور والدول الأخرى لكبح جماح الفرنسيين . وفى عام ١٧٠١ ، كما حدث بعد ذلك فى عامى ١٧٩٣ ، ١٩١٤ ، أشعل اجتياح إحدى الدول العظمى لبلجيكا نيران الحرب فى نفوس الشعب الإنجليزى .

وقد وضع دوق مولبرا Duke of Marlborough ، الذى أثبت وليم بعد نظر فى إرساله إلى لاهاى لمفاوضة هنسيوس (كبير عمد المدن الهولندية Pensionary Henesius فى هولندا — وضع أسس المحالفة العظمى التى شنت على فرنسا حرب الوراثة الإسپانية .

كانت أهداف المحالفة عملية ، كما حددت منذ البداية ، لدرجة أن أكثرها قد تحقق فى معاهدة يوترخت (١٧١٣) بعد مضى اثنى عشر عاماً انقضت فى نضال باهظ التكاليف . وكان وليم راضياً عن حكم فيليب لإسپانيا ومستعمراتها فى العالم الجديد طالما أن الأراضى المنخفضة وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط قد انتقلت من حوزة إسپانيا إلى النمسا — وقد دعت إلى ذلك عوامل قامت على أساس الحاجات البحرية للشعبين الإنجليزى والهولندى . فعلى نقيض فرنسا ، لم تكن النمسا خطراً فى البحر ولا منافساً فى التجارة ، وعلى ذلك يستطيع تجار لندن وأمستردام أن يثقوا فيها ويأمنوها على الممتلكات التى تقع على امتداد الطرق التجارية العظيمة إلى بحر البلطيق والشرق .

ولم تتغير السياسة الإنجليزية بموت وليم الثالث الذى كان فى الجيل الذى عاش فيه روح كافة الجهود الأوربية ضد فرنسا ؛ فإن جميع خططه الواسعة من محالفة عظمى وحرب ضد فرنسا ، وانتزاع قواعد بحرية فى حوض البحر المتوسط ، وقصد وراثة العرش الإنجليزى على البروتستانت قد أخذت بها جميعاً — كما يذكر لنا الأستاذ ترڤليان Trevelyan — الملكة آن Anne ابنة جيمس الثانى وربيبة الكنيسة

الرفيعة ، الفتاة البليدة الورعة التى بفلتة من فلتات الحظ اقترن اسمها بعهد عظيم .
وعلى الرغم من إطلاق الحرية للصحافة فى ١٦٩٥ ، وبلوغ الروح الحزبية مبلغاً عظيماً من العنف والحدة ، فقد كان فى السياسة الإنجليزية من روح التوفيق ما يكفى النظم البرلمانية لتعمل . وكان تجديداً موفقاً عندما وضعت النواة الأولى لإدارة مدنية عظيمة واستمر الخبراء الماليون يتابعون عملهم من وزارة إلى أخرى . وغلّب كل من حزبى الهويج والتورى بدوره مصلحة البلاد . فأتم حزب الهويج الاتحاد بين إنجلترا وأسكتلندا . كما أصدر التورى قانون وراثة العرش Act of Settlement الذى أدى فى النهاية إلى استدعاء منتخبى هانوفر البروتستانتى إلى عرش إنجلترا وعلى حين موّل الهويج الحرب التى كللت بالنصر ، أنجز التورى الذين تبوءوا مقاعد الحكم فى ١٧١٠ الصلح الذى رحب به الناس ، ومن الأمور الأساسية أن البلاد أصبحت رجلاً واحداً ، إذ اندمل الجرح الفظيع بإقرار التسامح الدينى فى عام ١٦٨٩ للمخالفين للعقيدة الرسمية . ثم إن الوفاق بين مولبرا والملكة ، ومهارة مولبرا السياسية وانتصاراته البراقة ، مقترنة بالسخط الذى ساد قلوب كل الإنجليز البروتستانت عندما اعترف لويس بالمطالب القديم بالعرش ملكاً باسم چيمس الثالث ، كلها كانت أسباباً كافية للإبقاء على الروح الحربية مشتعلة فى البلاد . إذ تعرض للخطر أمن البلاد وتجارتها وقصر توريث عرشها للبروتستانت . وإذا كان أعيان الريف قد جزعوا لضريبة الأرض البالغة أربعة شلنات ، وهى الضريبة التى كانت عماد سياسة جودلفين Godolphin لتمويل الحرب ، فقد أدوها حتى نهاية الحرب . وهكذا كانت الروح الإنجليزية . أما الهولنديون وقد انتزعت منهم مدن الحدود العزيزة عليهم فى الأراضى المنخفضة الإسبانية ، فإن الحرب كانت بالنسبة لهم مسألة حياة أو موت .

لم تكن الحروب فى النصف الأخير من القرن السابع عشر اللعنة المدمرة كما أصبحت اليوم نتيجة لتضافر العلم والتجنيد العسكرى . كانت حروباً تشنها قوات صغيرة من الجنود المرتزقة ، يقف نشاطها طوال فترة الشتاء وهى مدة نصف عام ، وأثناء فصل المعارك القصير ، لم تعد تعيش – كما كان الحال فى حرب الثلاثين عاماً – على ما تأخذه من البلاد وإنما على إدارة حكومية منتظمة . وكانت

الحركات الحربية عرضة للبطء والحذر لتلائم عهداً كان فيه أمراء البحر يلبسون الشعر المستعار الطويل ، وكانت عمليات الحصار المنسقة تعد أهم الفنون الحربية . ولما كان القواد مدركين لصعوبة سد النقص فى جيوشهم فقد كانوا يسعون إلى تحاشى المعارك القاسية من أن يرحبوا بها . ويستثنى من ذلك مولبرا ؛ فإن ذلك الأمير الإنجليزى الجذاب الذى لولا التعويقات التى جاءت من الهولنديين ، لاستطاع أن يطرد الفرنسيين من الفلاندر فى خلال العامين الأولين من الحرب ، كان تواقاً إلى اجتذاب غريمه إلى المعارك بقدر ما كان هذا الغريم راغباً عن ذلك .

كانت ضربات مطرقته حاسمة ، وكان فى وسع الحلفاء على إثر واقعتى بلنهايم Blenheim وراملى Ramillies (١٧٠٤ – ١٧٠٦) أن يوقعوا صلحاً مع لويس يؤمن لهم جميع أهداف الحرب الأساسية التى فرضتها المحالفة العظمى . فقد اكتسحت معركة بلنهايم الفرنسيين من بفاريا ، كما وضعت موقعة راملى معظم بلاد الفلاندر فى قبضة مولبرا . ووطد يوجين القائد النمسوى الرائع سيطرة القوات النمساوية فى شمال إيطاليا بمساعدة بعض المعونة من ڤيكتور أماديوس Victor Amadeus صاحب ساڤوى ؛ ومع ذلك فقد تأجل عقد الصلح سبع سنوات .

وإن السبب فى إطالة أمد الحرب دون داع لذلك يمكن إرجاعه فى النهاية إلى جمال ثغر لشبونة وملاءمته كميناء لرسو وإصلاح السفن الإنجليزية المكلفة بمهمات فى البحر المتوسط وكانت إنجلترا فى سعيها للحصول على بعض الموانى فى ذلك البحر فى حاجة إلى التحالف مع البرتغال . ولكن كيف يتأتى للبرتغال ، تلك الدولة الصغيرة ، أن تدخل فى قائمة المتحالفين ضد فرنسا إلا إذا اتجه المرشح النمسوى إلى إسبانيا وجمع أعوانه وطرد غريمه الأمير الفرنسى بمعونة الهولنديين والإنجليز والبرتغاليين ، وثبت أقدامه فى مدريد ؟ وقد أمر بطرس الثانى ملك البرتغال فى معاهدات ميثوين Methuen (١٧٠٣) كشرط لتحالفه مع إنجلترا ، أن يعلن شارل — مؤيداً التأييد المناسب من الحلفاء — عزمه على السعى للمطالبة بتاج إسبانيا . وتمت الصفقة . واتسعت أهداف الحلفاء من الحرب فأصبحت تتضمن غزو إسبانيا لحساب شارل ، وحرباً فاشلة فى شبه الجزيرة الإسبانية امتدت ما يقرب من عشر سنوات ، فكانت الثمن الذى دفعته إنجلترا لكى تحصل على حق استخدام

ميناء لشبونة ، الذى لولاه لما استطاعت أن تحصل من إسپانيا على صخرة جبل طارق ولا أن تنتزع منها بورت ماهون Port Mahon (فى منورقة Minorca)

ولم يفطن ساسة الإنجليز إلا تدريجياً وببطء وبعد إحجام إلى أن المسألة الإسپانية (الجانبية) لم تكن إلا مغامرة يائسة ، وأن شعب إسپانيا الذى هو أكثر شعوب أوربا أنفة لن يقبل مطلقاً ملكاً نمسوياً تفرضه عليهم دول شمالية ملحدة وكريهة ولا البرتغاليون الذين يفوقونهم كذلك بشاعة . وإذا كان القطالونيون قد دمغتهم ناركراهيتهم المتأججة لقشتالة ، كما شجعهم استيلاء «بيتربرا Peterborough» الباهر على برشلونة على تأييد الأرشيدوق شارل بالفعل ، فإن قطالونيا لم تكن قط جزءاً لا يتجزأ من إسپانيا . إذ لم يكن ثمة رابطة مشتركة من اللغة والعادات والمزاج يجمع بين سكان أراجونة ، الإقليم البحرى وسكان الجزء الداخلى من الهضبة إلا بقدر ضئيل . لذلك لم يكن اكتساب شارل القطالونيين المستقلين إلى جانبه الطريق إلى قلوب الشعب الإسپانى . وظلت الغالبية العظمى من الشعب الإسپانى منذ البداية إلى النهاية تؤيد فيليب الخامس .

ويرجع تاريخ سيطرة النمسا على إيطاليا ، تلك السيطرة التى لم تتزعزع نهائياً إلا فى عهد كافور وغاريبالدى ، ترجع إلى معاهدة يوترخت Utrecht(١٧١٣) التى أنهت حرب الوراثة الإسپانية . فقد فشل الإمبراطور فى خططه الإسپانية ، ولكنه عوض فى لمبارديا وسردينيا ونابلى . وبذلك آلت السيطرة على شئون إيطاليا التى خضعت إسپانيا منذ أيام شارل الخامس ، إلى حكومة تيوتونية لم تجعلها مواهبها الراسخة فى التنظيم والكفاءة مستساغة للإيطاليين بسبب افتقارها إلى بعض الصفات التى من شأنها أن تجذب عواطف الشعب اللاتينى . ومن العجيب أن يرى المتبصر فى الحوادث مدى توقف مصير إيطاليا على عقايتين إنجليزيتين : عقاية جودولفين Godolphin المالى ، ومولبرا الجندى اللذين لولاهما ، بالرغم من دراية الأمير يوجين العسكرية ، لما تغلبت مطلقاً قضية الحلفاء .

وكان من أعظم الأمور ملاءمة للدول البحرية استدعاء الإمبراطور ليحكم الأراضى المنخفضة الإسپانية ، حيث منح الهولنديون صفاً من استحكامات الحدود ، وتعهدوا بالدفاع عن هذا الإقليم الهام ضد أطماع فرنسا ، وألا يقوم

بذلك الهولنديون وحدهم وإنما تكون إلى جانبهم إحدى الدول العظمى فى القارة[١] .

وكانت إسپانيا – وهى الجائزة الأولى التى دارت عليها المباراة – من نصيب لويس . فإن فيليب الخامس الذى كان أثناء الحرب قد طرد مرتين من مدريد ثم أعيد إليها مرتين ، قد عاش ليؤسس أسرة مالكة من البوربون فى إسپانيا ، عاشت بعد الثورة الفرنسية والإمبراطورية ، وإذا كانت تعيش فى المنفى الآن ، فإنها لا تزال تأمل فى عودة الحكم الملكى إلى إسپانيا . وعلى الرغم من الفصل بين التاجين الإسپانى والفرنسى فصلا نهائياً ، فقد كان الارتباط السياسى الوثيق بين دولتى البوربون من معالم الحياة السياسية فى القرن التالى ، وكانت له دلالة خاصة عندما عاونت فرنسا وإسپانيا المستعمرات الأمريكية للخلاص من الحكم البريطانى . فكان تسليم البريطانيين فى « يوركتون » Yorktown (١٨٧١) رداً على موقعتى بلنهايم وراملى . كما كان حلقة فى سلسلة تلك الانتصارات فى « ألمانزا » Almanza (١٧٠٧) و « بريهيوجا » Brihuega (١٧٠١) وهى الانتصارات التى بفضلها وضع برورِيك Berurich وڤندوم Vendome أساس الحكم الفرنسى جنوبى الألزاس .

وهكذا لم ينته عهد لويس الرابع عشر الطويل بالفشل على الرغم من البؤس الذى عاناه الشعب فى السنوات الأخيرة من حكمه. فتحقق وسام Clausa Germanis Gallia « تمجيد إغلاق بلاد الغال فى وجه الجرمان » ؛ كما تحقق كذلك، ولكن بدرجة دون ذلك حرفية، القول المأثور الآخر من أقوال الملك الشمس « من الآن فصاعداً لن تكون ثمة برانس » . وإذا كانت فرنسا قد نجت من الغزو حتى أيام ناپليون ، فإنما مرجع ذلك جزئياً إلى التحسينات التى تمت فى تحصيناتها الشرقية منذ بداية حكمه وظلت مصونة حتى نهايته .

وخرجت إنجلترا من النضال وقد حققت ليس فقط الأهداف الأصلية التى أرادها وليم الثالث من الحرب وإنما كسبت أيضاً ميزة لم يتوقعها أحد . ففى أثناء اشتراكها فى الحرب الطويلة مع هولندا قد جعلت من البحر مجالها الخاص ، بينما قام حلفاؤها بتقديم الجانب الأكبر من القوات البرية التى حاربت تحت قيادة مولبرا . وكلما تقدمت الحرب أخذت البحرية الإنجليزية فى النمو بينما أخذت البحرية

---

(١) يقصد المؤلف الإمبراطورية ، أى النمسا .

الهولندية ، إذا قورنت بها ، فى التدهور . وهكذا أحرزت إنجلترا فى نهاية حرب الوراثة الإسپانية السيطرة البحرية التى كانت موزعة بالتساوى بين الدولتين فى منتصف القرن السابع عشر . كما حصلت إنجلترا فى تلك الأثناء على قواعد جديدة ومراكز للنفوذ والاستعمار فى كل من العالمين القديم والجديد : جبل طارق وپورت ماهون، ونيوفوندلاند ونوڤاسكوشيا ،وكان من الأمور العقيمة بالنسبة إلى فرنسا وميزان القوة البحرية على ما أصبح عليه فى ١٧١٣ أن تحارب فى سبيل هذه الأقاليم . فقد آلت إلى إنجلترا فى معاهدة يوترخت بالإضافة إلى الحق الثمين المعروف بالأسينتو وهو حق الاتجار فى عبيد أفريقيا (و بعض السلع الأخرى) فى المستعمرات الإسپانية .

على الرغم من أن ضريبة الأربعة شلنات كانت موضع حقد أصحاب الأرض ، فإن إنجلترا قد تحملت جهد الحرب بأحسن مما فعلت أية دولة أخرى محاربة ، إذ أن اتساع نطاق التجارة فيما وراء البحار قد قدم جواً من الثقة مكن الأفراد من تقديم القروض ، والحكومات من الاستدانة ، واستطاعت إنجلترا أن تحول حلفاءها عن طريق بنك إنجلترا والقرض الوطنى ودقة العمل فى وزارة الخزانة . واعتمد التحالف الأوربى كما حدث فى حربين أخريين أقرب عهداً على سلطان المالية الإنجليزية .

وكان مظهراً آخر من مظاهر قوة إنجلترا حصولها على اعتراف من لويس الرابع عشر بأن لا يتولى عرش إنجلترا إلا بروتستانتى ممثلا فى اعتلاء أسرة هانوڤر العرش . وهكذا اضطر الملك العجوز الذى اضطهد الهيجونوت أن يحيى فى ساعاته الأخيرة مدينة لندن المارقة التى لم يكن فيها ما يخشى أن يؤثر على رءوس الأموال مثل استئناف الصراع القديم العنيف بين الكاثوليك والبروتستانت فى إنجلترا .

بينما أفقر إلغاء البروتستانتية فى ١٦٨٥ الحياة الدينية فى فرنسا بدرجة عظيمة ، وفشل فى توحيدها كلية . فعلى الرغم من انتصار الجزويت وتسلطهم الكامل على البلاط ، فإنهم لم يكونوا الفرقة الوحيدة فى الميدان . فى داخل الكنيسة الكاثوليكية نفسها قامت حركة تستمد أصولها من نفس الأسس الروحية للبيوريتانية ، وفى بعض النواحى من مصدرها الدينى ذاته ، وقد تحدت عقيدة ڤرساى المألوفة ، وعاونت بقوة فى النصف الأول من القرن الثامن عشر على إعداد حركة مقاومة

سياسية للعرش . وقد استمد الجنسنست Jansenists اسمهم من چانسن Jansen أسقف « إيبر » Ipres (١٥٨٣ — ١٦٣٨) ، وهو مؤلف ثلاثة مجلدات خطية عن القديس أوجسطين St. Augustine ، أدانها البابا فى عام ١٦٤٢ — والذين قرءوا المؤلفات العلمية لهذا الكاثوليكى الهولندى قلة ، وكان أقل من هؤلاء كذلك من استطاعوا أن يتنبأوا بأن فيضاً من النشاط الروحى سيهبط على فرنسا من ذلك المصدر . وإن البون ليبدو شاسعاً بين حذلقة چانسن Jansen وفصاحة أرنولد Arnauld وسخرية پسكال Pascal الشائعة وجمال شعر راسين المصقول الملىء بالتأمل . ومع ذلك فقد كان أرنولد وپسكال وراسين أزهاراً فى شجرة واحدة هى أوجسطين نفسه ، وقد ترعرعوا على عقيدة الغفران ، التى اهتدى إليها مارتن لوثر فى القديس أوجسطين ، والتى على ضوئها انساق كثيرون نحو الاعتقاد فى القضاء والقدر ، ونحو الورع الشخصى الخالص ونبذ جميع الوسائل السهلة السطحية لخلاص الروح .

وقد كان ظهور رسالة أخلاقية كتبها قسيس فرنسى شاب فى عام ١٦٤٣ مهاجماً الوهم السائد بأن الإكثار من تناول القربان المقدس يكفر عن الحياة الشريرة المستمرة بمثابة حلقة الاتصال بين جانسن الأسقف الهولندى والمتدينين من أفراد الشعب الفرنسى . إن لرسالة « أنطوان أرنولد » Antoine Arnauld عن « تكرار القربان المقدس » De la Frequente Communion فعل السحر فى نفوس المخلصين . ففى عهد انتشر فيه الرضا بالتهتك كان ظهور ذلك الثوران الملتهب فى أسلوب بليغ مؤمن يمثل نكوص الضمير المسيحى عن التعاليم الدنيوية التى كاد يعظ بها الآباء اليسوعيون ، الذين جعلوا مذاق الدين مستساغاً لذوى المشارب الدنيوية أثناء محاولتهم استرجاع كافة الأفراد على اختلاف طبقاتهم وميولهم إلى حظيرة العقيدة . وكان قد ترعرع منذ أمد بعيد نوع صارم من الورع الكاثوليكى فى بعض المجتمعات الدينية ، وخاصة فى دير للراهبات بپور رويال Port Royal على مقربة من ڤرساى ، وقد شاع فى العاصمة بين أفراد الأسر القضائية الوقورة . ولمثل هؤلاء كانت رسالة « التكرار » De la Frequente بمثابة صيحة النداء تدعو لمقاتلة قوات الانحلال والرذيلة .

وعلى ذلك كان الجانسنست پيوريتان الكنيسة الكاثوليكية فى فرنسا ، وهم فى

روعة أخلاقهم واستقامتهم ، وشدة غيرتهم على المبادئ وهو أمر واضح فى كل مظاهر العبقرية اللاتينية ابتداء من لوكريتس Lucretius إلى كوندرسيه Condorcet ، قدموا بمعيشتهم وبكتاباتهم كذلك أبلغ التعنيف لعهد اتصف بالفجور . وذهب بعضهم إلى أقسى أنواع التطرف . فأدانوا الشعر والفن وفضلوا هزال الخريف الحزين على حيوية النمو فى الربيع . وأراد جميعهم العودة بالكنيسة إلى حالتها الأولى كما خشوا تقدم العلوم . وإذا قورن الجانسنى باليسوعى المرن الذى يعلم أن الكنيسة لا يمكنها أن تحيا إلا إذا وفقت بين تعاليمها والأحوال المتغيرة لعالم متغير بدا الجانسنى فى صورة الطائفى الخطير غير العملى . وعلى حين عد الجانسنى اليسوعى رخواً أكثر مما ينبغى رأى فيه اليسوعى ضيق أفق أكثر مما ينبغى أيضاً : ففريق (هم اليسوعيون) يرون أن ليس فى استطاعة البشر على الإطلاق أن يرقوا إلى عرش الرب عن طريق الفضيلة القاسية المجدبة ، وفريق آخر (هم أتباع چانسن) يصرون على أن الرب لن يتقبل على الإطلاق تحالفاً يقوم على الدهاء مع الرذيلة . فريق يسعى ليجعل الطريق إلى السماء سهلة معبدة لكثيرين ، وفريق يصر على أن هذا السبيل يجب أن يكون صعباً على الدوام ومقصوراً على الصفوة .

وقد أسفر التصادم فى الرأى عن ظهور مؤلف پسكال « الخطابات الإقليمية » Lettres Provençales (١٦٥٦ — ١٦٥٧) . وفى هذه الرسالة الجدلية المشهورة استخدمت كافة أساليب السخرية الخفيفة والجدل الحار لمهاجمة الفتاوى التى اتهم اليسوعيون باستخدامها لتبهيم التمييز الواضح بين الصواب والخطأ . وقد زاد فى أهمية هذه الرسالة أن مؤلفها لم يكن من رجال الدين المحترفين ، وإنما كان رياضيًّا عبقريًّا تمتع بذكاء مبكر يبعث على الدهشة ، وخصوبة فى الابتكار . (جمع بين وضوح الذهن العلمى الممتاز وقوته وشبهات سقيم ورع متحمس ودقة أحاسيسه الرائعة . واستطاع پسكال بإحساسه العميق (فقد تحول عن دينه مرتين) ، وأسلوبه السهل البسيط الذى خلص النثر الفرنسى من التكلف ، استطاع أن يستخرج محصولا وافراً من الأخلاق الدينية من مكمنها على مرأى من الجميع ، وأن يعرضها فى ضوء النهار وفى وضوح لا يعرف رحمة ٥

ولم يعش اليسوعيون ألبتة على إثر هذا الهجوم العنيف ، وإذا كانت صفة

(يسوعى) لا تزال باقية على ألسنة الناس رمزاً للتحايل المقنع المكير على الغش والاحتيال ، فإن هذا يرجع لدرجة كبيرة إلى « الخطابات الإقليمية » التى جعلت للچانسنية تأثيراً أقوى وأوسع مدى على الحركات العسكرية والأخلاقية لذلك العصر كما وصمت طائفة الجزويت بطابع الحط من قدر آداب المعاملة فى العالم المسيحى .

ومع ذلك فإن طائفة الجزويت لا طائفة الجانسنست هى التى كانت رهن إشارة العرش خلال حكم لويس الرابع عشر الطويل ، وساعدت على تشكيل سياسة الدولة ؛ إذ كان الجزويت أصدقاء الملك أما الجانسنست فقد كانوا موضع ريبة الملك منذ ارتباطهم غير الموفق فى وقت مبكر ببعض الأعضاء البارزين أيام حرب الفروند. فكان نصراً للجزويت عندما أدان البابا إنوسنت العاشر فى عام ١٦٥٣ خمسة مقترحات يشك فى أنها جاءت فى كتاب جانسن عن أوجسطين (Augustinus) ثم كان نصراً آخر للجزويت عندما أحرقت علناً الرسائل الإقليمية فى عام ١٦٦١ . وأخيراً تصالح جماعة الجانسنست مع البابا فى سنة ١٦٦٩ ، وتمتعوا بفترة حصانة نسبية من الاضطهاد . ولكنهم ظلوا مع ذلك بعيدين عن قلوب الناس وعن أى نفوذ سياسى . ومما يشرف الجانسنست أنهم أثناء النضال العنيف الذى دار بين لويس الرابع عشر وأنوسنت العاشر ، وهو النضال الذى حدث نتيجة لمطالبة الملك بريع أملاك الأسقفيات الشاغرة ، أنهم أخذوا جانب الكنيسة الرومانية فى مقاومتها سوء استخدام الملك لسلطانه دون مسوغ ، ولم يكن ذلك مما يرضى عنه الشعب الفرنسى . إذ كان يثار الشعور القومى الجارف فى فرنسا مع الملك فى تصديه للدفاع عن حرية الكنيسة الفرنسية ضد تدخل البابوية .

أما أهمية الجانسنست من حيث تأثيرهم السياسى فكان وقتها لم يحن بعد ، إذ تميزت السنوات الأخيرة من حياة الملك بظلال عميقة من الكوارث فى خارج البلاد والورع الحزين فى داخلها ، فقد اختلت الأحوال المالية منذ موت كولبير . واستبدل بالقروض القصيرة الأمد التى عقدت لتمويل الحرب نظام من الاقتراض غير المباشر ، ثم حل محل هذا النظام بدوره ظهور طبقة جديدة من التجار الوسطاء الذين غدروا بالدولة وأدخلوا فى جو البلاط سمًّا جديداً . لم يكن لويس رجل تدين ،

ولكنه كان يؤمن بالخرافات إلى أقصى درجة ، لذلك قرر أن يشن هجوماً جديداً على الآراء المخالفة للكاثوليكية حتى يخفف من غضب الآلهة ويبدل من سوء طالع جيوشه . ولما كان قد كسر شوكة البروتستانت فإنه كان على استعداد حينئذ ليستمع إلى نصح كاهنه اليسوعى الذى كان يتلقى اعترافه وأن يتخذ الإجراءات ضد الجانسنيين . وإن الوحشية التى لا مثيل لها التى وجهت بها هذه المعركة لصفحة سوداء فى تاريخ التعصب الدينى : إذ طردت الراهبات من ديرهن فى Port Royal de Champs « پور رويال دى شان » ، وهدم الدير ، وانتهكت حرمة مقابره ، وتركز الهجوم على ترجمة فرنسية للعهد الجديد ، كانت قد نشرت فى ١٦٧١ مصحوبة بتعليق متقن «لپاسكييه كويزنال» Pasquier Çuesnal أحد البارزين من جماعة الجانسنست. ولما لم يكن ثمة ما هو أيسر على يسوعى من اتهام كتاب مخالف له بالكفر أو الحصول على إدانته من روما ، فقد أصدر البابا قراراً بمصادرة مؤلف الزعيم الجانسنى . وعلى الرغم من احتجاج خمسة عشر أسقفاً والمعارضة القوية التى أبداها برلمان پاريس صدر مرسوم بابوى فريد فى نوعه Bull Ungenitus يعد ١٠١ مسألة منافية لأحكام الدين فى ذلك الكتاب الذى تعب فى إخراجه قديس مسيحى ؛ واعتبره أغلب قرائه أثراً خالداً لقداسة الإنجيل .

وعندئذ حان دور الجانسنيين ليسيروا إلى جانب الجاليكانيين (أنصار حريات الكنيسة الفرنسية[١]) ضد ادعاءات السيطرة البابوية ، وقد أضاف تحالف هاتين الطائفتين الدينيتين معاً إلى تزمت أنصارهما فى التمسك بالفضائل المسيحية ، أضاف إليهم مركزاً شرعياً وفخاراً وحماساً . وفى مقابل فرنسى واحد تأثرت عقائده الدينية بتعاليم جانسن كان هناك عشرة يأنفون من تدخل البابا أو ينقمون على جماعة اليسوعيين سلطانهم ، ونشأ الصراع عقب موت لويس الرابع عشر وأثيرت فيه مشاعر وآراء كثيرة منها ما كان متأثراً بالجانسنيين ، ولكن أغلبها كان متأثراً بالجاليكانية . وقاد المعارضة برلمان باريس وأيده اثنا عشر برلماناً فى الأقاليم ضد التحالف القائم بين الملك وطائفة اليسوعيين . وكان النضال طويل الأمد وعنيفاً أثيرت أثناءه كل

---

(١) الحرص على حريات الكنيسة الفرنسية – حريات الكنيسة الغالية (الفرنسية) (انظر الهامش ص ٣١٣) .

الآراء السياسية تقريباً التى أدت بعد ذلك إلى إقامة حكومة ديمقراطية فى فرنسا . فقبل ظهور العقد الاجتماعى ١٧٦٢ بأمد بعيد وقع النزاع بين الملك وبرلمان باريس — ذلك النزاع الذى كان يرجع فى أساسه إلى مصادرة البابا لرسالة چانسنية ، فعود الشعب الفرنسى على فكرة الحكومة الدستورية والملكية القائمة على رضا الناس — وعندما طردت طائفة الجزويت من فرنسا عام ١٧٦٤ أصبح المسرح مهيئاً للحركات التى أدت إلى الثورة الفرنسية ، وإلى ذلك الأفول الملحوظ فى سلطان البابوية وهيبتها ، ذلك الأفول الذى هو أحد المظاهر البارزة لعصر الثورة .

وفى التاريخ لا يقف شىء عند حد معين . على أنه قد يكون من الملائم أن نتخذ من صلت يوترخت نقطة مميزة ، ضعفت بعدها بدرجة محسوسة أهمية الدوافع الدينية والأسرية التى لعبت من قبل دوراً عظيماً للغاية فى تشكيل سياسات الدول ، وحل محلها الصراع على المستعمرات والأسواق — فالصراع الطويل بين إنجلترا وفرنسا على السيطرة الاستعمارية وهو الصراع الذى يميز القرن الثامن عشر ليست فيه ذرة من المصالح الدينية أو الأسرية . فقد تقدمت الصفوف طبقة جديدة لم تكن تهتم بشىء من هذا ، وامتلكت حينئذ من القوة ما مكنها من التأثير فى سياسة الدول .

وفى ذلك الوقت أخذت العلوم كذلك تستكمل كيانها حتى تستجيب بدرجة كبيرة للحاجات المادية للحضارة النامية . ولما كانت الجامعة فى العصور الوسطى أداة تثقيف الكنيسة الكاثوليكية ، فقد ظلت تعمل فى نطاق الحدود الصارمة للتعاليم الكنسية . وترتب على تبجيل السلطة الدينية تحريم البحث الحر . وساد الاعتقاد بأن النصوص المقدسة للإنجيل ومؤلفات أرسطو التى ما كانت لتقل عنها كثيراً فى الأهمية قد احتوت على كل ما تلزم معرفته ، وعلى كل ما من السلامة الإيمان به . فكل ما جاء فى هذه المؤلفات الكنسية صحيح وكل ما لم يجىء فيها غير ذى أهمية ، وكل ما تعارض معها باطل . فعندما دعا « كرشر » Kircher أستاذاً يسوعياً فى بداية القرن السابع عشر إلى التطلع خلال مجهره إلى البقع التى اكتشفت حديثاً على الشمس أجاب الأستاذ : « يا بنى ، هذا عبث ، لقد أنجزت قراءة أرسطو مرتين فلم أجد شيئاً عن البقع الشمسية . ليس هناك بقع على الشمس » . كان من الإلحاد إذن الاعتقاد فى نظرية كوپيرنيكوس عن الكواكب ، ومن الكفر إنكار خلق الكون منذ نحو أربعة آلاف سنة قبل المسيح ، ومن الإلحاد تعطيل بعث المرء

بتمزيق جثته . وعلى هذه الصورة كانت القيود الثقيلة التى كبلت التعليم فى كليات العصور الوسطى .

ولكن العالم كان أوسع من الجامعات . فالملاحون يهتدون بالنجوم فى تسيير سفنهم ويلاحظون ذبذبات البوصلة . والمهندسون البحريون ، إذ يرقبون حركات المد والجزر ، والمعدنون إن يصارعون الاختناق الناتج عن الغاز أو الماء فى باطن الأرض ، وصانعو الأسلحة إذ يعنون بمتانة بنادقهم ومدافعهم ، كل أولئك كانوا ينشئون بالتدريج مادة للمعرفة بعضها فنى وبعضها علمى ، وكلها بعيدة عن مناهج الدراسة بالجامعة ، ولم تتأثر قط بما انهمكت فيه الجامعة من العلوم ، واستلزمت الملاحة دراسة علم الفلك ، وأدت إلى الدراسات البصرية ، وعن طريق البوصلة توصلت إلى دراسة الجذب المغناطيسى . ولوضع جداول خطوط الطول ، كان من الضرورى التأكد من القوانين التى تتحكم فى حركة القمر ؛ كما أدى تحديد خطوط العرض إلى وضع مصور للأجسام السماوية . ونظراً للصراع الدائم بين اليابسة والماء فى الأراضى المنخفضة ، كان طبيعياً أن يكون أول تقويم علمى لتاريخ حركات المد والجزر وتسلسلها (١٥٩٠) من عمل مهندس هولندى يدعى ستيڤن Stevin . وعندما أصبح فن الحرب يعتمد بصورة متزايدة على المشاة ، فإن تعدين الحديد والنحاس قد أصبح له دافع جديد ، ونتائج ذات أهمية تزداد على الدوام .

والتعدين هو الأصل الذى أثمر كثيراً من العلوم والفنون التطبيقية (التكنولوجيا) . فقد تبين منذ القرن السابع عشر أن مهندس التعدين المثقف ينبغى أن يعرف علم تقسيم الأراضى بواسطة علم مساحة المثلثات ، وهندسة إقليدس ، واستعمال البوصلة ، وصناعة أجهزة التهوية وأجهزة نزح الماء ، كما فرضت مشاكل متنوعة نفسها عليه وهى تتعلق بعلم توازن الهواء والسوائل المرنة ، ومشاكل علم السوائل المتحركة ، والمشاكل الميكانيكية ، وبالمثل كانت سلامة المعدن ونتاج المنجم يتوقفان على قوانين العلوم الطبيعية .

ولا يكاد يقل عن ذلك أهمية تطور التفكير العلمى والاختراع الذى ابتدأ بالتطورات الحديثة فى فن الحرب . فمنذ وقت مبكر منذ عام ١٥٣٧ كان « تارتاليا » Tartaglia يعمل فى دراسة مسير الرصاصة فى اندفاعها . وقد أثار

علم حركة المقذوفات أعوص المشاكل فى علم الطبيعة بأسره . منها مقاومة الهواء لكرة تخترقه ، مسير الكرة فى الفضاء ، سقوط الأجسام تلقائيًا بتأثير جاذبية الأرض ولذلك كان افتتاح جاليليو براهينه الرياضية بتوجيه كلمة شكر إلى دار الأسلحة بفلورنسا أمراً له دلالته. إذ كانت الدار مسرحاً لكثير من النشاط ، ومستودعاً عظيماً لكثير من المواد التى أفادت البحث العلمى .

وفى تلك الأثناء كانت الاضطرابات الدينية والسياسية لذلك العصر تعمل عملها فى إضعاف الدعامات القديمة التى تقف فى وجه المعرفة الجديدة . فلم تعد أوربا موحدة العقيدة ، كما أن الملكية لم تسلم من التحدى . وإن الاكتشافات الثورية المثيرة لحقيقة طبيعة القشرة الأرضية قد مهدت الجو الملائم للتجديدات الفكرية وحقرت من شأن التقاليد القديمة . ولم تعد الحياة العقلية الراقية مقصورة على الجامعات وإنما وجدت أدوات ملائمة لسد حاجياتها فى هيئات جديدة مثل كلية فى فلورنسا يطلق عليها Academia del Cimente ، والجمعية الملكية فى إنجلترا ، وقد أنشئت كلاهما فى منتصف القرن السابع عشر ، وكرست جهودهما للكشف والتجربة . وكان Provare et reprovare الإثبات ثم الإثبات مرة ثانية شعار أهالى فلورنسا ، أما شعار الإنجليز فكان (Nullius in verba) « لا شىء مكتوب » .

وقد أظهر ذلك أن الروح العلمية الصحيحة التى كانت قد اختفت من أوربا منذ تدهور جمهوريات المدن اليونانية ، قد استردت مكانتها بين الشعوب اللاتينية والتيوتونية .

وشهد القرن السابع عشر تأليف هاملت Hamlet وتارتوف Tartuffe ، الفردوس المفقودة Paradise Lost ، كما شهد Principia لنيوتن . وكان ذلك هو العصر الذى عاش فيه رامبرانت Rembrandt وروبنز Rubens ، وڤانديك Van Dyck ، وهوبيما Hobbema ، ورويزدايل Ruysdael ، وفرانز هالز Franz Hals . كما سمعت فيه كذلك الأنغام الأولى للأوپرا الإيطالية ؛ وسمعت فيه لأول مرة ألحان بورسيل Purcell الموسيقية وأوتار كمان ستراديڤاريوس Stradivarius . وفى هذا العصر تزود البحارة بالبوصلة والبارومتر ، ورجل العلوم بالمنظار المكبر والمجهر ، والطبيب بالكينا (دواء الحمى) ومقياس الحرارة (الترمومتر) ، والرياضى بالبندقية ذات الأعيرة

النارية . وزادت وسائل الراحة فى الحياة اليومية باختراع ساعة اليد والحائط ، وأدى تعميم استعمال الشوكة (لاقطة الطعام) إلى حرمان الشرهين من نصف كميات طعامهم الضخمة ، لقد كان هذا العصر عصر ازدياد فى الثروة واتساع فى نطاق التجارة الدولية فى الكماليات : فالعصر الذى عاش فيه البيوريتان والجانسنست قد تميز باكتشاف المثلجات والشمبانيا ، واستيراد ما هو أنفع ألا وهو الشاى والبن ، وباستخدام الشموع فى قاعات ڤرساى الفاخرة ، وكانت إذ ذاك أجمل وسائل الإضاءة . وفى النصف الثانى من القرن السابع عشر ظهر أول بستانى رسمى وأول إخصائى وأول امرأة احترفت مهنة التمثيل على المسرح . على أن هذا العصر الذى شهد نشاطاً فى هذه وغيرها من أسباب الحياة السعيدة ، مثل إضاءة الشوارع ، والتأمين البحرى ، وتعريفة بريد لندن ، كان رغم حضارته المعقدة المتقدمة عصر حروب لا تكاد تهدأ . على أن أحداً لم يلق بالا لشعور الناس لا فى السياسات التى أثارت الحروب ولا فى التسويات التى أصلحت بين المتخاصمين . فالنظريات الديمقراطية لم تكن موضع نظر ، كما لم تكن موضع تنظيم . وكانت الصحافة لا تزال فى مهدها . وبعد اضطرابات الفروند والثورة العظمى اتجهت دول القارة الأوربية — كما لو كانت تبحث عن أمنها — إلى حكومات تزايدت نزعتها الأوتقراطية . وضرب لويس الرابع عشر فى علم الاستبداد الوراثى وفنه مثالا بهر أنظار كل إسكندناوة وألمانيا بحيث لم تقويا على مقاومته . على أن أوربا القرن السابع عشر قد تماسكت على الرغم من الحرب المستمرة ؛ فإن الشعور بحضارة مشتركة ومصلحة أوربية عامة فى الاحتفاظ بالتوازن الدولى كان أقوى من أن يمحوه نشاط جيوش مرتزقة غير متجانسة فى فصل الصيف . وقد أثبتت تسعة مؤتمرات سياسية كبيرة بدأت بوستفاليا وانتهت بيوترخت قوة العمل الدولى المتزايدة وانصرام تلك الحقبة من التاريخ الأوربى حين كانت الشعوب المسيحية كلها مجمعة على أن تعترف للبابا بدور الوسيط الدولى .

ومما تجب ملاحظته كذلك أن الحروب التى شنت ضد فرنسا وملأت عصر لويس الرابع عشر ، لم تشن عليه مطلقاً بروح معادية للثقافة الفرنسية . فالمكانة الفكرية والاجتماعية للملكية الفرنسية بدلا من أن تحط منها أطماع لويس الرابع عشر

الحربية فى نظر أعدائها قد لقيت منهم تمجيداً مضاعفاً . فالكتب الفرنسية لم تصبح أقل تداولا بين الأفراد ، ولا العلوم الفرنسية أقل احتراماً ، ولا الأزياء الفرنسية أقل انتشاراً بسبب اتحاد نصف أوربا ضد الملكية الفرنسية . فقد هيمنت الحضارة الفرنسية متمثلة فى براعة مؤلفيها وعلمهم الغزير . فرسمت معالم كل مجتمع تواق إلى الحصول على أقل قدر من خلاصة الحضارة فيما بين الحدود الروسية والمحيط الأطلنطى . وليس ثمة ما هو أوضح دلالة فى التمييز بين حروب الملكية فى ذلك العصر والنضال القومى فى أيامنا من استمرار تفوق فرنسا فى أوربا على الرغم من المقاومة السياسية المرة التى أثارتها أطماع ملك فرنسا وحبه للسيطرة .

كتب يمكن الرجوع إليها

— Macaulay : History of England (1858-1862).

— G.M. Trevelyan : England under Queen Anne (1932-1934).

— J.R. Selley : Growth of British Policy. 2 vols. (1895).

— E. Lavisse : Histoire de France, Vol. VIII.

— W. Coxe : House of Austria (1847).

— Winston Churchill : Life of Marlborough (1934).

— C.T. Atkinson : Marlborough and the Rise of the British Army (1921).

— Sainte-Beure : Histoire du Port Royal. 5 vols. (1840-1859).

— E. Bontroux : Pascal. Tr. E.M. Creak (1902).

الفصل الثانى والعشرون

القرن الثامن عشر فى إنجلترا وفرنسا

نفوذ إنجلترا بعد عام ١٧١٤ — جون لوك — ڤولتير — منتسكيو — طبيعة الفلسفة الفرنسية — الفزيوكرات (The Physiocrats)— الحكومة الإنجليزية فى القرن الثامن عشر — عصر جورج الثانى — الاضطرابات فى فرنسا — العقبات فى سبيل الإصلاح .

كان للثورة الإنجليزية التى قامت عام ١٦٨٨ . وما أعقبها من تولى أسرة هانوڤر العرش وتثبيته لها. تأثير عظيم فى الفكر الأوربى. مضت مشاهدها بيضاء لم ترق فيها دماء ، ولم يصحبها من المساوئ ما كان الناس يظنونه منذ الاضطرابات المشئومة التى وقعت فى عام ١٦٤٨ أمراً لامحيص عنه . ثم هى بعد ذلك قد حققت من المنافع الدينية ما اتضح أثره فى التسامح الدينى ، وحرية الصحافة ، وإقامة الحكم النيابى ؛ كل أولئك قد أوجد شعوراً عامّاً قويّاً من الدهشة والإعجاب؛ إذ أضحت إنجلترا — رغم ثورتها — وقد توافر لها من أسباب القوة والثراء ما لم يكن لها به عهد من قبل ، ثم هى فى البر والبحر قد كانت الروح المهيمنة للحلف الدولى الذى كبح جماح لويس الرابع عشر ، وهى قد أصبحت قادرة على أن تشن الحرب وتعقد الصلح وتشق طريقها وسط التيارات الدقيقة التى لابست تغيير الأسرة الحاكمة دون أن تعتريها انقلابات داخلية ؛ كما استطاعت فوق ذلك أن تدعم مركزها الداخلى تدعيماً قويّاً باتحادها مع إسكتلندا فى عام ١٧٠٧ .

وإذا صح أن تكون هناك فلسفة تبررها الأحداث ، فإن الأحداث قد بررت فلسفة الهويج التى ظاهرت الثورة الإنجليزية ، وكان رسولها العظيم وصاحب وحيها چون لوك ؛ ففى رسائل هذا العالم الرزين الخير من أبناء جامعة أكسفورد يلتمس جوهر الفكر فى عصر الاستنارة ؛ فهو صاحب المذهب القائل بأن الفكَر ليست فطرية نابعة من الغريزة وإنما هى انعكاس لصدى الأحاسيس (رسالة فى الفهم البشرى ١٦٩٠ — (Essay on Human Understanding, 1690).) وهو صاحب المذهب القائل بأن الحكومة المدنية ينبغى أن تكون قائمة على رضاء المحكومين ، وهو صاحب

الرأى بأن الملكية الخاصة حق لا يكسبه غير العمل ، ويؤمن بالتسامح الديني وتنشئة الشباب تنشئة عقلية ، وعنه وعن معاصره العالم العظيم « إسحق نيوتن » بوجه خاص، وعن « هنرى سانت جون » ، و « لورد بولنجبروك » بوجه عام ، تسربت إلى فرنسا طائفة من المذاهب العقلية . ومن ثم أخذت تنتشر وتنمو بحيث غدا ما عداها هناك رقيقاً بالياً يكاد يكون من سقط المتاع .

ولقد كان « ڤولتير »داعى الدعاة لترويج وتصميم المذاهب الإنجليزية الجديدة فى فرنسا ، وكان من أنشط الكتاب فى زمانه ، وألمعهم ذكراً ، وأطولهم عمراً ، وأبعدهم أثراً ، وألمعهم شخصية بحيث أضحى إمامهم فى أوربا ؛ ذاق مرارة الظلم الذى ساد زمانه فى فرنسا واكتوى بناره ، فزج به فى سجن « الباستيل » دون محاكمة ؛ لأنه تحدى أحد النبلاء . كما زار إنجلترا عام ١٧٢٦ وبقى بها حتى عام ١٧٢٩ . وهنالك أعجب بما رأى من حرية الشعب وما هو عليه من حيوية وثقافة . ثم مثل بعد ذلك أمام البابا ، وقرأ مؤلفات « أديسون » ، و « سويفت » ، و « بيكون » ، و « اولك » ، و « نيوتن » ، و « شكسبير » . وقد أوضح لمواطنيه فى مؤلفه « رسائل عن الإنجليز » (Lettres sur les Anglais 1733) الذى نشر عام ١٧٣٣ ، معالم ذلك المجتمع السعيد الباهر ، حيث يستطيع الفرد أن يقول وينشر ما يريده ، وحيث لا تعذيب ، ولا حبس بغير حق ، وحيث يتاح لمختلف المذاهب الدينية أن تزدهر ومن بينها المذهب المعروف باسم الكويكر (مذهب الأصدقاء) ؛ وقد بلغت بهم الجرأة أن أعلنوا أن الحرب عمل يخالف مبادئ الدين المسيحى . و « الإنجليزى » فى رأيه « لا يسلك إلى النعيم إلا السبيل التى يرضاها لنفسه ، ولا عسف ولا تحكم فى فرض الضرائب ولا يعفى نبيل ولا كاهن من دفع ضرائب معلومة ، والفلاح يستمتع بالخبز الأبيض واللباس الحسن ، وهو آمن على ما يدخر ، لا يخشى إن أضاف إليه زيادة فى الضريبة فى العام التالى » . وبعد ذلك بقليل زار إنجلترا عظيم آخر من عظماء فرنسا ، هو منتسكيو الذى جاء إليها بين عامى ١٧٢٩ ، ١٧٣١ ليفيد من الإطلاع على أحوال أهالى الجزيرة البريطانية . ولم يكن فى حديثه عنهم أقل حماسة من سلفه . جاء فى مذكرات كتبها عن رحلاته Travel Notes « أن إنجلترا أكثر دول العالم حرية ، لا تكاد تنازعها فى ذلك جمهورية واحدة ، وفى رأيى أنها

حرة لأن ملكها مقيد السلطان ، لا يملك لفرد من الأفراد ضرًّا محسوساً » . على أنه فى كتابه « روح الشرائع » Esprit des Lois الذى ظهر عام ١٧٤٨ وضع فلسفة للتاريخ لقيت من الرواج ما جعل لها فى الناس أعمق الأثر ورأى فيها — مخطئاً — أن السر الحقيقى فى حرية الإنجليز كامن فى الفصل بين سلطات الحكم الثلاث : القضائية والتنفيذية والتشريعية .

وظاهر أن أبرز ما ميز الحركة الفكرية التى بدأت فى فرنسا هو الاهتمام الشديد بتجديد المجتمع . فإن التأمل الميتافيزيقى كان أناقة لا ترضى ذهن ڤولتير العلمى الواضح ، ولا أذهان معاصريه من رجال الفكر الفرنسى ؛ وكانت فلسفة لوك وتلميذه الفرنسى « كونديلك » فيما وراء الطبيعة ؛ كافية لتحقيق هدفهم وهو تطبيق الفكر الإنسانى دون تهيج ودون الرضوخ لأى قيد من قيود الدين للتحرر من أضغاث العصور الوسطى وإصلاح حالة الفرد ، وازدهرت فى فرنسا تبعاً لذلك طائفة من ألوان الأدب الفلسفى والإنسانى من الرسائل والبحوث التاريخية إلى جانب البحوث الفلسفية والتربوية والتمثيليات بين تراجيدية وهزلية . وتوجب هذه الحركة بظهور دائرة المعارف الكبرى فى أربعة وثلاثين مجلداً بين عامى ١٧٥١ — ١٧٧٢ . ولم يقتصر تأثير هذه الحركة الخطيرة على فرنسا ، بل تعداها إلى سائر الأقطار الأوربية فأدت أجل خدمة بما حملت من نعى على العنف فى شتى صوره وعلى الاعتقاد فى الخرافة ، والأفكار البالية ، والظلم ، وعدم التضامن بين الطبقات فى بناء المجتمع الأوربى ، وهجوم على ما كان شائعاً فيه من معتقدات دينية واجتماعية . وقد نعت بعض كتاب العصر بالإلحاد الصريح الصارخ ، وكان ڤولتير وروسو — وهما ألمع كتاب عصرهما — من أئمة المفكرين المناهضين لرجال الدين .

وعن طريق اللغة الفرنسية التى حلت محل اللاتينية باعتبارها لغة الثقافة الأوربية ، أخذت هذه التآليف طريقها إلى البلاد الأخرى حيث كان لها تأثير لا يقلل من أهميته إن لم يكن ثمة بلد أوربى واحد — باستثناء إنجلترا — إذ ذاك من النضوج بما يؤهله لممارسة النظم البرلمانية ، فذاعت آراء ڤولتير وروحه فى بلاط الملوك المستبدين بين برلين وڤينا وسان بطرسبرج ، ومدريد . وكان العصر يومئذ عصر الملوك المستبدين من أمثال فردريك الثانى ملك بروسيا ، وكاترين الثانية قيصرة روسيا ، وجوزيف الثانى

إمبراطور النمسا ، الذين كانوا يرون أن السلوك الأبوى للحاكم المطلق هو وحده الوسيلة الكفيلة لتحسين أحوال المجتمع ، وإعلاء شأنه، وليس ثمة حاجة إلى وسائل أخرى .

لم يكن الفضل إذن فى انتشار آراء المفكرين من فلاسفة فرنسا وإعطائها لواء الزعامة يومئذ مبعثه مظاهرة الحكم الديمقراطى ، فڤولتير لم يكن ديمقراطى النزعة ، ولم يكن يهمه أو يهم المفكرين من أمثاله تقرير أداة الحكم وضبطها ، وإنما كانوا يرمون إلى تحقيق الحرية فى أوسع معانيها : حرية الفكر ، وحرية القول ، وحرية النشر ، وحرية الفعل . والحرية فى رأيهم هى العلاج الناجع فى شتى أنحاء العالم ، فقد كان من مبادئ المفكرين الفرنسيين التى اتسع ذيوعها — دون أن تعم أنحاء العالم — أن طبيعة البشر من عجينة واحدة فى كل زمان ومكان . فعلى الرغم ؛ مما سجله كل من ڤولتير وجيبون من أحوال الماضى ، ظلت الفروق بين الماضى والحاضر غير واضحة حتى وجدت الأجيال التالية فى قصص ويڤرلى (Waverle Novels) تصويراً لمجتمعات تخالف تماماً ما عرفوا فى مجتمعاتهم .

ولقد كانت النزعة العامة للفكر الفرنسى فى القرن الثامن عشر وهى التجريد والمنطقية والعالمية معاً ؛ والتأثير الشديد بما استحدثه العلم من جديد شائق ، وبما توقعه الناس من تحقيق السعادة للفرد كنتيجة لتطبيق الإدراك السليم دون أى قيد .

وطغت على القرن الثامن عشر موجة عاتية من العداء لرجال الكنيسة . مبعثها اتجاه الفلاسفة الفرنسيين جميعاً — كما آمن بلاشفة الروس المكافحون — بأن سلطان الكنيسة بما فيه من عتو وإبهام قد وقف حجر عثرة فى سبيل كل تقدم فكرى واجتماعى . وليس من شك فى أن حملات ڤولتير على العيوب الظاهرة فى حياة الكنيسة قد أفادت المسيحية فى فرنسا . وليس من شك أيضاً فى أن النقد الذى صدر عن فلاسفة فرنسا — وإن اتهمه الكثيرون بعدم العمق وقلة الإنصاف — قد كان فى موضعه ؛ وكان له ما يبرره فيما أصاب الكنيسة الفرنسية من فساد خطير . على أن وسائل الفلاسفة الفرنسيين فيما تصدوا إلى تحقيقه من أهداف لم تكن سلبية ، وإنما كانت إيجابية . وقد تحقق كثير من تلك الأهداف فى النظم التى أخذت بها أكثر بقاع أوربا استنارة ، حتى إن الكتب التى أصدرتها فى أول الأمر دور الطباعة بدافع

من قوة الإلهام تبدو للقارئ الحديث ملأى بنظريات لا تستحق من أحد عناء البحث . ولكن ثمة حقيقة واحدة تميز هذه الذخيرة الكبرى من الأدب الفرنسى وتحفظ لها خصائصها من العذوبة والفتنة وتعيننا على إدراك ذلك السحر الذى ملك على نفوس أكثر الأوربيين فى ذكاء ذلك العصر . وتلك الصفة هى ما يسميه الألمان « أدب البيان » (Aufklärung) وهو أدب الثقة والأمل .

وإذا كان الفلاسفة يومئذ قد فقدوا إيمانهم بتعاليم الكنيسة فإنهم قد ملئوا إيماناً بكرامة الفرد وقابليته للكمال . وساد الأدب السياسى فى فرنسا إبان القرن الثامن عشر روح من التفاؤل ، حتى اعتقدت طائفة كبيرة من النابهين فى فرنسا ، وهى إذ ذاك أذكى بلاد أوربا ، أنه إذا أمكنهم إزالة سخافات العصور القوطية فإن الإنسان — وهو بطبيعته خيِّر ولا حد لقدرته على تحسين نفسه — لابد منطلق فى طريق القوة . ففى رأى ديدرو أنه « إذا صحت القوانين صحت الأخلاق » . ولم يكن أحد مستعداً ليضع حدوداً تحد من سلطة المشرع فى عمله لتحسين الطبيعة الإنسانية إلى أبعد الحدود . ؛ ففى رأى هلفسيوس « أن المشرع الصالح إنما يخلق المواطن الصالح » .

وقد اتجهت طائفة من تلك التآليف الحماسية الفياضة التى صدرت عن فلاسفة القرن الثامن عشر إلى نقد المبادئ الاقتصادية القائمة على التدخل الحكومى وهى التى ورثتها فرنسا من حكم كولبير . فقد كان المفكرون من أصحاب المذهب الطبيعى Physiocrats يؤمنون بأن قوة الطبيعة كفيلة ، إذا تركت وشأنها ، بأن توفر للناس من أسباب الرفاهية ما لم يكونوا يحلمون بتحقيقه فى ظل نظام قائم على قيود من عمل الدولة أو السلطات المحلية . وقد أصاب هذا المبدأ نفوذاً كبيراً ، إلا أنه رغم ما اشتمل عليه من حقائق هامة لم يخل من ضلال بعيد ؛ فرجال الاقتصاد فى فرنسا آمنوا بأن الأرض هى وحدها مصدر الثروة ، ورتبوا على ذلك أن حاجات الدولة يمكن كفالتها بضريبة واحدة على الزراعة وحسب . وفى ذلك خطأ واضح فإن الأرض ليست إلا مصدراً واحداً من المصادر المختلفة للثورة ، وليس فى الإمكان أن تكفى ضريبة واحدة — مهما بلغت من العدالة لسد الحاجات المشروعة للدولة ، غير أن أولئك الاقتصاديين أصابوا وجه الحق حين قالوا إن

التجارة ليست إلا تبادل عروض ومنافع ، وأن ما تضعه الدول من قيود مصطنعة حول انتقال الموارد من إقليم إلى آخر ومن دولة إلى أخرى معطل للرخاء . وكان من أثر المبادئ التى نادى بها أصحاب المذهب الطبيعى فى فرنسا أنه ما إن قامت الثورة فيها حتى ألغيت الضرائب الداخلية فيها ، تلك الضرائب التى أجاد وصف آثارها السيئة الرحالة الإنجليزى البصير « آرثر يونج » . ثم تبلغ تلك المبادئ بلاد الإنجليز . إذ أخذها أستاذ شهير من أساتذة جلاسجو وهو آدم سمث عن كسنى طبيب لويس الخامس عشر ؛ فإذا هى بين يديه تحقق نتائج أبعد أثراً ، ثم تنتهى بإنجلترا آخر الأمر إلى الأخذ بمبدأ حرية التجارة ، ذلك المبدأ الذى ثبت نفعه للإنجليز فى أيام الرخاء والشدة على السواء .

قلنا إن ذلك اللون من التأليف قد امتاز بطابع التعقل والتفاؤل . وبقى بعد ذلك نداء قوى يبدو فى النهاية أنه فاق غيره من أصوات ذلك العهد فى قوة تأثيره وهو ما صدر عن « چان چاك روسو » . لم يكن فرنسى الأصل ، وإنما يرجع أصله إلى چنيف ، ولم يكن صاحب فلسفة ولا هو من الدهريين . ولكنه كان صاحب خيال مرهف . كان ذهنه صافياً ، وإنما غذاه ما نبع من غرائزه الطبيعية العميقة أو صدر عن مشاعره العاطفية — ولم يكن من التقدميين ، ولم يكن من أنصار توزيع العمل ؛ ولم يؤمن بقدرة الوسائل المادية والآلية على تحسين حظوظ الفرد ، وإنما كان يرى العالم تغشاه القسوة ، ويعمه الفقر والدمار ، ويرى الحضارة الأوربية الباهرة حشداً من ألوان الفساد والظلم ، فنذر نفسه لرسم معالم المجتمع الذى ينبغى أن يعيش فيه الرجل الصالح ؛ ولهذا الغرض كتب كتابه « العقد الاجتماعى » الذى أخرجه عام ١٧٦٢ ، فكان للفرنسيين بمثابة إنجيل جديد .

يرى روسو أن العلاج الأساسى للإنسانية من أدرانها بسيط للغاية ؛ يراه فى التماس الفضائل ، فالدولة الصالحة فى رأيه هى ما تعهد فيها الفرد — وقد أعد إعداداً طيباً للحياة المدنية — على أن يجعل إرادته مطابقة للصالح العام . والمجتمع لا يكون صالحاً فى رأيه إلا حيث يرعى فيه أفراده الفضائل ، كل امرئ يعامل الآخر بما يجب أن يعامل به ، ويخضع مختاراً لكل مايسن من القوانين العامة التى يؤمن بأنها وضعت لخدمة الصالح العام دون الصالح الخاص . ذلك هو أساس العقيدة السياسية عند

روسو . فالدولة الصالحة لديه لا تقوم على أساس من القوة أو الطمع ، وإنما تقوم على الإرادة الخيرة عند جميع أفرادها .

لقد كان فى كتاب روسو – على إيجازه – فصاحة وبيان . بل كان له فى الناس فعل السحر . وإن فى فاتحته وحدها تحد للحضارة « وُلد الإنسان حرًّا ولكنه صُفِّد بالأغلال فى كل مكان » . أى شىء يمكن أن يكون أكثر إغراء للبائس والمحروم من أن يتخيل مجتمعاً يقوم على المشيئة العامة؟ ومن أجل ذلك جاءت عبارة روسو هذه فأطلقت سيلا دافقاً من الشعور الثورى . غير أنه طالما غمّ على الناس أن سيادة المشيئة العامة عند « روسو » لم تكن شيئاً آخر غير حكم الفضيلة نفسها .

وفى رأى « مدام دى ستايل » أن « روسو » – وقد ألهب كل شىء – لم يأت بجديد من الأمر ؛ وقولها إنه ألهب كل شىء يشير إلى حقيقة هامة ، وأنه استطاع بحرارة مشاعره وأحلامه أن يؤجج فرنسا إلى درجة تثير الدهشة . أفتراه حقيقة لم يأت بجديد؟ إنه نادى بالفضائل كما آمن بكفاية الفرد العادى فى ذلك المجتمع الأرستقراطى ، مجتمع القرن الثامن عشر .

* * *

كان الدستور الإنجليزى فى القرن الثامن عشر يفوق سائر النظم فى القارة الأوربية ، ولكنه مع هذا لم يكن فى ذلك الأنموذج المثالى المستنير الذى تصوره فلاسفة الفرنسيين فى حماستهم المتقدة ، لقد كانت فيه عيوب بينة ؛ فالنقص واضح فى أساليبه الخاصة بالتسامح الدينى ، وواضح أيضاً فى نظامه البرلمانى . فالدولة فيه وقف على الكنيسة الأنجيلكانية . حقًّا إن البروتستانت كانوا أحراراً فى ممارسة شعائرهم الدينية علانية، ولكن المخالفين للعقيدة الرسمية كانوا محرومين من أى نصيب من السلطان وتحمل المسئولية ، بل كانوا محرومين من التمتع بأحسن فرص التعليم – لقد بلغ من إصرار الفرسان ورجال الدين الأنجيلكان على التشبث بنفوذهم أن ظلت أبواب البرلمان موصدة فى وجوه البروتستانت المخالفين للعقيدة الرسمية حتى عام ١٨٢٨ ، كما حوموا حق التعلم فى جامعتى أكسفورد وكيمبردج حتى عام ١٨٧١ ؛ بل ودّ أعضاء حزب التورى أيام الملكة آن أن يذهبوا فى العنت إلى أبعد من هذا المدى عندما أرادوا بالقانون التالى (Occasional Conformity Act)

أن يحرموا أولئك المخالفين حق التمتع بعضوية النقابات فى المدن، وعندما أرادوا بمقتضى « قانون مخالفة المذهب الرسمى » (Schism Act) إلغاء مدارسهم والقضاء على تربيتهم وتعليمهم . ولقد كان من حسنات العهد الذى ارتقت فيه أسرة هانوفر عرش البلاد أن استطاع حزب الهويج القضاء على تلك السياسة المفجعة ، ففى هذا العهد أبطل قانون مخالفة المذهب الأنجليكانى (Schism Act) وصدرت قوانين التعويض السنوى Indemnity Act ، تلك التى أنقذت الخارجين على المذهب الرسمى من الغرامات القانونية التى كانوا يؤدونها لها إذا هم تولوا منصباً فى الإدارة البلدية .

على أن نغمة التسامح هذه لم تتسع حدودها لتشمل أصحاب المذهب الكاثوليكى ، فهم ظلوا لا يتمتعون بممارسة شعائرهم الدينية علانية حتى عام ١٧٧٩ — أما فى أيرلندا — حيث قد يخشى خطرهم فى الناحية السياسية . فقد أخذوا بألوان خاصة من العنف باتوا أمامها فى عجز تام .

بقى الحكم أيام العاهلين الأولين من أسرة هانوفر بأيدى الطبقة الأرستقراطية ؛ فأسر الهويج العريقة كانت مهيمنة على مجلس اللوردات ، كما نجحوا فى الحصول على أغلبية فى مجلس العموم لأنصارهم ، وذلك عن طريق استخدامهم المال فى المقاطعات التى كانوا يمثلونها . أما أعضاء حزب التورى فقد كانوا فى الغالب أكثر فقراً وأقل مالا . ولكنهم باتوا — بسبب مشاركتهم المريبة فى قضية حزب اليعاقبة — يقاسون مرارة الجزاءات المتصلة بالمعارضة البرلمانية مدة خمسين عاماً أو يزيد . على أن خاصة الحزب التورى قد استطاعوا بعيداً عن البرلمان أن يمارسوا نشاطهم الاجتماعى والسياسى فى أوسع الحدود عن طريق الحكومة المحلية وهى فى الحق حكومة البلاد الفعلية ممثلة فيما كان يقوم به قضاة الصلح (Justices of the Peace) فى (Ouarter Sessions) وفى (Petty Sessions) . لقد كان هؤلاء هواة غير مأجورين وقد وجدوا فى تنفيذ قوانين الصيد ، وفى إعدام المخالفين له ، وفى معاقبة الصعاليك ، وجدوا فى كل ذلك المجال لإشباع شهوتهم فى الظهور وفى الإسهام فى النفع العام . وهكذا أخلدوا إلى السكون راضين مطمئنين على حين بقى الهويج يديرون دفة الأمور من (St. Stephens) .

ولقد وقع نتيجة لحادث لم يتوقعه أحد فى عهد وليم الثالث والملكة آن أن وقعت السلطة التنفيذية العليا أيام العاهلين الأولين من أسرة هانوفر فى يد مجلس وزراء مسئول

أمام البرلمان وينتمى أعضاؤه إلى حزب واحد ، ولما كان جورج الأول يجهل الإنجليزية فقد أخفق فى محاولة تدبير شئون الدولة مع وزرائه باللغة الفرنسية ، وكان من جراء ذلك أن انقطع عن حضور اجتماعات مجلس الوزراء . وكان للحكمة التى أبداها ؛ « سير روبرت والپول » Sir Robert Walpole أثناء العهد الطويل الذى مارس فيه الحكم (١٧٢١—١٧٤٢) أثرها الواضح فى تأييد سلطان حزب الهويج وتوكيد سلطة مجلس الوزراء ، ودعم مركز رئيسه. وهكذا استقر ذلك المبدأ الحق: مبدأ المسئولية الوزارية ، أى مسئولية الحكومة ممثلة فى وزرائها أمام البرلمان الذى عدّ بدوره مسئولاً أمام الناخبين .

وهذا التوفيق فى تأسيس نظام مجلس الوزراء قد يرجع إلى حادث تاريخى آخر ، فقد كان كل من وليم الثالث والملكة آن يؤثر أن يكون مجلس الوزراء من مختلف الأحزاب ؛ إذ أن فى اختيار الحاكم مستشاريه من رجال الأحزاب المختلفة إعلاناً بكونه فوق الأحزاب ، وتعظيماً لشأن التاج . على أن تلك التجربة فى تكوين الحكومة الائتلافية لم يكن فى الإمكان تحقيقها فى عهد هذين الحاكمين إلا بين الفينة والفينة ؛ ثم انهارت عندما تولى جورج الأول ونبأه الهويج أن أعضاء حزب التورى يأتمرون به مع اليعاقبة ليخرجوه من إنجلترا . ومنذ ذلك الوقت أصبح مجلس الوزراء يتكون من حزب الهويج وكذلك الأغلبية البرلمانية. وهنالك قام العرف على أن يكون أعضاء مجلس الوزراء من لون سياسى واحد ، وأن يحكم المجلس الدولة حكماً فعليًّا . لقد كان هذا حدثاً ، كان حدثاً سعيداً على كل حال . وفى خلال العشر السنوات (١٧٧٠ — ١٧٨٢) التى استقل فيها جورج الثالث بالحكم ، وبهت سلطان مجلس الوزراء فلم يبق منه غير ظله ، حلت بإنجلترا أخطر كارثة فى تاريخها حين فقدت مستعمراتها فى أمريكا .

ومع ذلك فإن الحكم النيابى أيام أسرة هانوفر بما ضرب عليه من سلطان طبقة موسرة من الإقطاعيين لم يستطع أن يتسم بطابع العدل الاجتماعى ، ومن ذلك أن قوانين العقوبات التى ظلت قائمة فى بريطانيا إلى أن أصلحت بفضل جهود روملى Romilly وصحبه فى القرن التالى ، قد كانت وصمة فى جبين شعب عرف بإنسانيته وطبيعته الطيبة . ولم تبذل الدولة أى جهد لنشر التعليم العام ، كما ظلت

حكومات المدن فاسدة ، مكروهة ، تغشاها أفكار العصور الوسطى حتى قامت حركة التطهير بإصدار قانون الهيئات البلدية Municipal Corporations Act عام ١٨٣٥. والواقع أن الغرض الأساسى الذى قامت من أجله الثورة المجيدة The Glorious Revolution هو حماية التقاليد القديمة ، والامتيازات التى كانت تتمتع بها المدن ، إلى جانب المحافظة على حقوق البرلمان وصيانتها من البدع والاعتداءات التى حاولها چيمس الثانى ؛ كل أولئك كان من شأنه أن يدعو إلى مذهب المحافظة . وفى غمرة الابتهاج بنتائج الثورة Revolution Settlement بات جماعة الهويج يعتقدون أن كل شىء قد استقر فى مكانه وأن الأمور قد استقامت لهم . وقد كانوا فى ذلك واهمين ، ذلك لأن البرلمان بوجه خاص كان أبعد ما يكون عن الكمال . ولكن الهويج الذين باتوا يرون البرلمان مثلا أعلى قد كانوا أبطأ إدراكاً من أن يلمسوا حقيقة واقعة وهى أن هيئة تشريعية ينتخب أعضاءها ملاك فى الريف Counties لا تقل ضريبة دخلهم عن أربعين شلناً ، وأقليات صغيرة فى المدن ، إن مثل هذه الهيئة لا يمكن أن تكون مرآة صادقة كافية لتمثيل المصالح القومية والرأى العام حتى إن « بيرك » Burke ، وهو وإن كان يرى الحد من سلطان الملك على البرلمان إلا أنه لم يحبذ توسيع نطاق التمثيل البرلمانى . ومن ذلك نرى أن الاتجاه العام أيام القرن الثامن عشر كان يهدف إلى إبعاد الجانب الأكبر من الطبقة الوسطى والفقيرة عن الحرم المقدس للنظام البرلمانى .

وكذلك كان فساد الحكم النيابى شرًّا آخر لم يفطن إليه المفكرون الفرنسيون الذين أعجبوا بالنظم الإنجليزية ، وهو فساد تغاضى عنه البرلمان وتغاضى عنه الناخبون فى دوائرهم على الرغم من احتجاجات المعارضين ، فالرشا كانت شائعة يقبلها الناخبون والمنتخبون على السواء . وإذا كان هناك من الأسباب ما يحملنا الآن على أن نظن فى نقاد ذلك العصر روح المبالغة فى وصف هذا الشر ، فلا شك مطلقاً فى أن الرشوة قد كانت قائمة حقًّا . لقد كان من المتوقع أن لا يفوز بالحصول على منصب أو مرتب إلا عدد قليل من الناخبين الذين يدلون بأصواتهم فى الانتخاب ، ولكن هذا التوقع كان له تأثير كبير يتعدى أولئك الذين دفعت لهم تلك المكافأة ؛ على أن الأمة كانت — على الرغم من كل تلك النقائص — فى يسر وسعادة .

فالكنيسة الأنجليكانية التى خيم عليها النعاس ، والجامعات فى خمولها وجهالتها ، ونبلاء القوم الأصحاء من اللاهين بصيد الثعالب ، وأصحاب السلطة التشريعية فى البرلمان من ذوى الأحذية العالية والمسرفين فى الشراب ، كل أولئك قد لاءمتهم تلك الحياة الوئيدة الخطى فى ذلك المجتمع الزراعى القديم . ذلك لأن هوّة الخلاف لم تكن سحيقة بين الطبقات ، ولم تكن ثمّ مشاكل اقتصادية عويصة تثير أعضاء البرلمان ، والثورة الصناعية لم تكن قد بدأت بعد فى خلق تلك الطبقة الجديدة من الناس فى شمالى إنجلترا من عمال المصانع الذين انطوت نفوسهم على المرارة وعاشوا فى مجموعات غير متناسقة من البيوت التى لم تتوافر لها أسباب الصحة . والمدن كانت لا تزال صغيرة والناس بوجه عام كانوا لا يزالون يستمتعون بالرياضة وألوان الترفيه فى جنبات الريف ، والبلاد قد غشيتها نسائم الدعة والاستقرار ممثلة فى تلك الدور من العهد الجورجى ، المقامة من الآجر الغليظ الأحمر . ولولا إغارة الإسكتلنديين من المناطق الجبلية عام ١٧٤٥ ، التى كانت لابد ملقية البلاد فى بحر من الفوضى إذا قدر لها النجاح الثانى . لولا هذه الإغارة المريعة لكان من الممكن أن يشعر الناس ممن لم يعضهم الفقر بنابه أن بلادهم فى عهد چورج الثانى قد بلغت حظها من الاستقرار والهدوء الداخلى . فقد كان المجتمع الإنجليزى مجتمعاً فريداً تجرد أفراده من نزعات الشك وما تثيره فى النفس من قلق وعذاب ، مجتمعاً لم تكدر صفوه مشكلات اجتماعية ، ولم يطلب من برلمانه برامج واسعة . ولكنه مضى راضياً بما قسم له فى كل سنة من قدر بسيط من التشريع المحلى . ذلك لأن عصر الخيال والعواطف الحالمة لم يكن قد طلع بعد على ذلك المجتمع المتروى الحكيم حيث كان الناس لا يطلبون من حياتهم ؛ أكثر مما تعطى ، ذلك المجتمع الذى ساده الاستقرار والانسجام ، فما أغرته الخرافة ولا هزته العاطفة وإنما ملأته الثقة ، فاستطاع أن يتجنب جنون الحماسة والتعصب حتى غدا مجتمعاً منقطع النظير لم تعرف أوربا له مثيلا منذ أيام Antonines[1]

واتسم التأليف السياسى فى إنجلترا أيام القرن الثامن عشر بذلك الطابع من

---

(١) Antonines : عهد الأباطرة الرومان الذين عرفوا بهذا الاسم وهم هادريان (١١٧ – ١٣٧) وأنطونينوس الورع (١٣٨ – ١٦١) ، وماركوس أورليوس (١٦١ – ١٨٠) وكان عصرهم من أزهى العصور فى تاريخ أوربا .

الهناءة والغبطة . فى الحق إنه لم يخل من روح الجدل والحماسة وإن لم يجادل فى الأصول . فلا « سويفت » Swift ، ولا « ديفو » Defoe ولا « أديسون » Addison ولا « ستيل » Steele ، ولا « بلنجبروك» Bolingbroke ولا « هنبرى وليام » Hanbury William شجعوا مواطنهم على التفكير فى أنهم يعيشون فى ظل نظام لا يحتمل من الظلم والمهانة ؛ فالخلافات فى إنجلترا خلافات برلمانية والمنازعات قائمة بين الجماعات السياسية من الأحزاب التى فى الحكم والأحزاب التى فى خارج الحكم. فهذا و «يلكز» Wilkes نفسه ، وقد كان متطرفاً فى آرائه بحيث استطاع فى السنوات العشر الأولى من حكم چورچ الثالث أن يفتح للنضال ميداناً جديداً ، لم يذهب إلى حد أن ينال من روعة الثورة الكبرى أو قيمة المبادئ التى قامت عليها ، على حين اختلف الأمر فى فرنسا حيث تجمع السخط من جراء اضطهاد الكنيسة وتعصبها وطغيان الدولة وتقلب أهواء القائمين عليها مما أدى إلى خلق لون من الأدب اللاذع الساخر .

كانت المشكلات الداخلية التى واجهت فرنسا والتى أخذت تسترعى انتباه المفكرين من الفلاسفة منذ الأعوام الأخيرة من حكم لويس الرابع عشر مشكلات مالية قبل كل شىء ؛ إذ لم تجرؤ أى حكومة فى فرنسا على أن تضع نظاماً للضرائب موحداً وعادلا على جميع طبقات الشعب . لقد كانت كل حكومة تسعى جهدها لتتألف لها أنصاراً من هنا وهناك ، فكانت تعفيهم من بعض الضرائب ، فالنبلاء والإكليروس ، وطائفة كبيرة من الطبقة الوسطى أعفوا من ضريبة العقار ، أى ضريبة الملكية الزراعية ، كما تمتعت كثير من المقاطعات الهامة فى فرنسا تمثل هذه الامتيازات ولا سيما ما ضم منها حديثاً إلى أملاك التاج ؛ ولقد طبق مبدأ الامتياز الضريبى فى أوسع الحدود وأصبح مرتبطاً بكثير من النعرات الطائفية وتقاليد الحكم الذاتى والعزة الإقليمية حتى غدا اقتلاعه من أشق الأمور فى فرنسا . ووضح أنه لن تستطيع القضاء على تلك المصالح المكتسبة الكثيرة التى سيتضافر أصحابها للدفاع عنها إلا حكومة قوية تظاهرها قوة كبيرة من الرأى العام . ولم تكن الملكية الفرنسية القديمة ، رغم احتفاظها بهيبة سلطانها ، بقادرة على أن تضطلع بهذا العبء .

ولم يكن أمام الفرنسيين إلا إحدى وسيلتين : إما وسيلة الإصلاح الدستورى ،

أو العمل الفردى . فأما الوسيلة الأولى فقد كانت غير قابلة للتطبيق إذ أن التقاليد الفرنسية لم تعرف ذلك النوع من المجالس التشريعية المسئولة أمام هيئات شعبية من الناخبين . ولا نذكر أن واحداً ؛ من ساسة فرنسا قد اقترح إنشاء مجلس تشريعى من هذا النوع . ولو قد فعل لما وجد من ملوك فرنسا من يقبل اقتراحه . ولم يكن فى استطاعة أى حكومة أن تنشئه دون أن تعرض البلاد لهزة عنيفة ، وذلك أثر من آثار عهد لويس الرابع عشر وحكمه المطلق الطويل الذى عطل كل تفكير منتج فى حل المشكلات الدستورية حتى إذا أظلمت الأيام فى أواخر عهد ذلك الملك المغرور وأخذ فنلون Fenelon وغيره من الكتاب يناقشون قيمة الحكم الاستبدادى ، جرت أفكارهم إلى وراء ، إلى عهد النظم الأرستقراطية القديمة فى فرنسا ، وراحوا يحلمون بنظام يسهم فيه أكبر عدد من النبلاء فى حكم البلاد ، وداعبت خيالهم فكرة إحياء مجلس طبقات الأمة ، ذلك المجلس الذى يرجع إلى العصور الوسطى والذى لم يدع إلى الاجتماع منذ عام ١٦١٤ . تلك الهيئة الثقيلة المضطربة التى فقدت كل نظام وكل سلطة تنفيذية ، وكل ترابط اجتماعى بين أعضائها وكل خبرة بمعالجة الأمور ، إن التفكير فى بعث تلك الهيئة قد سد كل طريق للإصلاح الدستورى . وآية ذلك أن اجتماع تلك الهيئة فى عام ١٧٨٩ لم يكن بداية حكم جديد فى فرنسا ، وإنما كان إيذاناً بالفوضى .

فالحكم المطلق كان قد بقى قائماً — على الأقل — فى التقاليد السالفة ، ولكن لم تتح له حرية العمل ، ذلك لأن برلمان باريس الذى أعاده فيليب أورليان ، وآزرته برلمانات الأقاليم الاثنا عشر قد ملأ طريق الإصلاح المالى بعقبات لا يمكن تذليلها . فلقد كانت الضرائب الجديدة والآراء الجديدة مصدر فزع لهؤلاء المشرعين حتى باتوا يحرقون الأسفار الفلسفية ، ويرفضون كل اقتراح معقول للحصول على المال من الناس وعلى الرغم من تأييدهم للضغط على الفكر وطمس المعرفة ومظاهرتهم مبدأ التمييز فى فرض الضرائب ، فقد تمتعوا بقسط وافر من محبة الشعب ، على اعتبار أنهم كانوا وحدهم اللسان المعبر عن روح السخط على بلاط خليع مستهتر . . وقد تطلب أمر إلغاء البرلمانات شجاعة فائقة من رئيس وزراء الملك «موبو » Maupeau . ولكن ما كاد الأمل يبدو عندما تعهد الملك بالقيام

بإصلاحات شاملة حتى قد خبا من جديد . في عام ١٧٧٤ أعاد البرلمانات الفرنسية ملك جديد تواق إلى كسب حب رعاياه . وإن كان امتثال لويس السادس عشر لشعور العامة مفهوماً ، فقد كان وبالا عليه ؛ إذ كان من الموثوق به أن تقاوم الأقلية صاحبة الامتيازات من رجال القانون ممن يتوارثون عضويتهم في البرلمان مقاومة شديدة ومزعجة أى إصلاح سديد وشامل للدولة الفرنسية .

كتب يمكن الرجوع إليها

— Lecky : History of England in the Eighteenth Century (1878).
— G.M. Trevelyan : History of England (1926).
— J. Locke : Essay on Human Understanding. Ed. A.C. Fraser (1894).
— Churton Collins : Bolingbroke, a historical study, and Voltaire in England (1886).
— John Morley : Voltaire (1921).
— H. Higgs : The Physiocrats (1897).
— Leslie Stephen : The History of English Thought in the Eighteenth Century. 2 vols (1902).
— A. Sorel : Montesquieu (1887).
— A. De Tocqueville : L'Ancien Régime et la résolution (1860).
— H. Taine : L'Ancien Régime (1876).
— F. Rocquain : L'Esprit révolutionnaire avant la Révolution(1878).
— Aubertin : L'Esprit public au Dix-huitième siècle (1889).
— The Political Writings of J.J. Rousseau. Ed. C.E. Vaughan (1915).
— Voltaire : Dictionnaire philosophique (1795).
— Voltaire : Lettres écrites de Londres sur les Anglais (1734).
— Lavisse : Histoire de France, Vol. IX.

الفصل الثالث والعشرون

شهاب من السويد

عهد كريستيانا – فتوح شارل العاشر – الإبقاء على بولندا والدانمرك – الحرب الشمالية (١٧٠٠ – ١٧٢١) – بتكال والاتحاد ضد السويد – شارل الثانى عشر وبطرس قيصر روسيا – بلطاوة – سقوط السويد .

أعقبت انتصارات چستاف وقواده التى رفعت السويد إلى أوج شهرتها الحربية عشر سنوات من تاريخ السويد أقل أهمية فى الواقع ، وإن كانت لا تكاد تقل اجتذاباً من تلك القصة الطويلة التى سبقتها: قصة الحملات العسكرية وقصة الحملات المضادة وقصة المعارك وعمليات الحصار . وكانت كريستيانا كأبيها چستاف مخلوقة عبقرية . وقد ظلت هذه السيدة الشابة المدهشة المتقلبة الأطوار تبهر أنظار أوربا عشر سنوات (١٦٤٤ – ١٦٥٤) ، تبسط يدها بطعاياها فى إسراف ، وتبدى من ضروب الاحتمال البدنى ما قد يثير إعجاب أقوى رجال جيش أبيها وأشدهم خشونة ، وتسحر بحب استطلاعها الوقاد نخبة مختارة من الفلاسفة والأدباء اجتذبهم إلى استوكهلم عطفها وحظوتها وبذلها المال لهم بسخاء . ثم لم تلبث إلهة الشمال The Pallas of the North أن تنازلت عن عرشها لابن عم لها ، مدفوعة فى ذلك إما بعاطفتها نحو الكنيسة الكاثوليكية التى أصبحت تنتمى إليها ، أو نتيجة لما أصابها من ملل مفاجئ وكراهية للعمل الروتينى ، أو رغبة منها فى إحداث تأثير يلفت الأنظار . وكان شارل العاشر شيئاً خطراً ، إذ لم يكن إلا مجرد جندى . كان شغفه بالمعارك عاطفة غلبت عليه ، ويعتبر مسئولا عن الحرب الأولى من حربى الشمال الكبريين اللتين أنزلتا الدمار بالسويد ، ورفعتا براندنبرج إلى مركز التفوق فى شمال ألمانيا ، وفتحتا الطريق للدب الروسى الهائل نحو غرب أوربا .

وقد راح هذا الرجل الملتهب يبحث عن أعداء فوجد فى پولندا والدانمرك هدفاً واضحاً للهجوم . فالأولى بلد كاثوليكى يحكمه الفرع الأكبر الكاثوليكى من أسرة « فازا » Vasa السويدية التى لم تكن قد تخلت بعد عن عرش السويد ؛ أما الثانية فهى العدو التقليدى القديم التى حكم يوماً ما إسكندناوة بأكملها ، وكان لا يزال

يضم النرويج والولايات الثلاث الجنوبية من السويد ، ويستطيع أن يتحكم فى تجارة بحر البلطيق بحكم موقعه شمال السوند Sound وجنوبه . بدأ شارل بالهجوم على پولندا فاجتاحها ثم ثنى بالدانمرك . وقد وصل الجيش السويدى سواء فى حربه فى هولندا أو فى الدانمرك إلى نقطة بدت فيها انتصاراته العسكرية كاملة لا مثيل لها . ومع ذلك فجدير بالملاحظة أنه عندما عقد الصلح فى «أوليڤا» Oliva وكوبنهاجن Copenhagen (فى عام ١٦٦٠) وتوقفت المتاعب بموت شارل فى سن مبكرة (١٦٧٢) ، لم تبق پولندا ولا الدانمرك تابعتين للسويد ، كما أن المكاسب الهامة التى ترتبت على الحرب الپولندية لم تكن من نصيب السويد التى بذلت جهوداً عظيمة ، وإنما كانت من نصيب منتخب براندنبرج الذى حصل على سيادة تامة على دوقية پروسيا ثمناً لوعده بمساعدة الپولنديين دون أن يبذل أى جهد مضن .

ولو أن شارل قد حرر أرقاء الأرض الپولنديين لربما عادل بذلك الأذى الذى نشأ فى نفوس الأهالى الكاثوليك الورعين بسبب سلوك قواته اللوثرية الدنس . على أنه لم يكن من الفطنة بحيث يسبق نابليون فى ذلك . ولما لم يكن عنده ما يقدمه للپولنديين سوى الصفعات والإهانات والعقيدة البروتستانتية فقد قامت ضده ثورة وطنية وأطاحت به من پولندا بمؤازرة النمسا . ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ ما قامت به النمسا ، فإن هذه المملكة الكاثوليكية العظيمة لم تكن تطيق أن ترى پولندا الكاثوليكية تقع تحت سلطان السويد اللوثرية .

وكما كان الإبقاء على پولند أمراً يهم النمسا ، كذلك اهتمت هولندا وإنجلترا وفرنسا بتخليص الدانمرك من مخالب السويد . فأنقذ أسطول هولندى كوبنهاجن ، وأوقع جيش مشترك من الهولنديين والدانمركيين والپولنديين والنمساويين الهزيمة بالسويديين فى « فونن » Fünen . فكلما لاحت فرصة طمس معالم الحدود القديمة المألوفة للملكة الدانمركية على أيدى العسكرية السويدية ، تدخلت قوى الدول البحرية المتحدة لدفع ذلك الطوفان . وذلك لما للتجارة فى بحر البلطيق من أهمية دولية . وإذا كانت الدول البحرية قد رضيت تماماً باستيلاء السويد على الولايات السكانية Scanian (فى جنوب السويد) وجزيرة « برنهولم » Bornholm ، فإنها

كانت ترى الحفاظ على استقلال الدانمرك جنوب « السوند » Sound مسألة ذات ضرورة عالمية .

وتتوسط خمسون عاماً من السلام العهد بين صلح « أوليڤا » Oliva وبداية الحرب الشمالية العظمى الثانية (١٧٠٠ – ١٧٢١) التى قدر لها أن تختم مصير السويد كدولة من الدول العظمى . بدأت روسيا نهضتها ، كما دربت أسرة الهوهنزلرن Hohonzollern جيشاً مروعاً فى « براندنبرج » ، أما السويد فحافظت على مركزها بفضل تأييد فرنسا الدبلوماسى القوى لها . وبلغت مكانة أسرة ڤازا درجة من القوة مكنت شارل الحادى عشر ، بعد أن ظل تحت الوصاية اثنى عشر عاماً ، من كسر شوكة النبلاء وإقامة حكم أوتقراطى اعتمد فيه على تأييد سكان المدن والفلاحين . كان ذلك الملك صموتاً جافًّا ثقيل الظل ولكنه كان شجاعاً مدركاً لواجبه كما كان بطل النصر على العدو الدانمركى التقليدى . وعند موته فى ١٦٩٧ خلف هذا الملك الغامض ، وإن كان موفقاً ، جيشاً ودخلا وإمبراطورية. حكمت السويد فى فنلندا ، وأقامت من نفسها حارساً على خليج « بثنيا » Bothnia ، ورفرف علمها على الثغرين الهامين « ريڤال » Reval و « ريجا » Riga . وأنكر على براندنبرج أن تأخذ پوميرانيا الغربية ، وهانوڤر « بريمن » Bremen و « ڤردن » Verden ، وأبى على الدانمرك أن تضم الولايات السكانية Scanian أى الولايات السويدية الجنوبية . واستولى على جزيرة صغيرة فى نهر « نيڤا » Neva وهى الجزيرة التى لن يلبث بطرس الأكبر أن يقيم عليها ١٧٠٣ بجهود أرباب السجن السويدى تصميم « نڤسكى » The Nevsky Prospect فى عاصمته سان پطرسبرج St. Petersburg .

كان المحرك الرئيسى لتفكك السويد أحد نبلاء البلطيق الذين كانوا يشاركون طبقة ملاك الأراضى فى المجر فى كونهم أشد الطبقات الأرستقراطية فى أوربا غروراً وصلابة . كان « يوحنا رينهولد بتكال » Johan Reinhold Patkul من « ليڤونيا » Livonia يطوى صدره على حقد شخصى شديد للحكومة السويدية ؛ إذ اعتدى على أملاكه الخاصة وكذلك على أملاك أفراد آخرين من الطبقة التى كان ينتمى إليها ، تنفيذاً لإجراء شامل قصد به استرداد التاج لأملاك كانت له . فقاوم مقاومة شديدة وحكم عليه غيابيًّا بالموت بتهمة الخيانة . ومنذ تلك اللحظة ندب هذا الرجل

الليڤونى الشرس نفسه على أن يعمل ليهوى بالإمبراطورية السويدية إلى الحضيض . فراح يتنقل بين العواصم يحيك خيوط عصبة لمحاربة السويد . فأوقع فى شباكه أوغسطس صاحب سكسونيا الذى كان قد انتخب ملكاً على پولندا ، وكان يطمع فى ليڤونيا Livonia وضم لحركته بطرس قيصر الروسيا الذى كان قد فشل فى الحصول على مساعدة الغرب فى حروبه ضد تركيا فأخذ يتطلع إلى ساحل البلطيق . وقد كانت مهمة بتكال فى اجتذاب فردريك ملك الدانمرك أسهلها جميعاً ؛ إذ رأى فردريك فى الزيجة الحديثة التى تمت بين أميرة سويدية وجوتورب دوق هلشتين Holstein Gottorp خنجراً مصوباً نحو الجزء الثمين من الأملاك الدانمركية . أما منتخب براندنبرج الحذر فقد رفض أن يقع فى الشباك . على أن التحالف كان بدونه قويًّا . وفى مايو ١٧٠٠ أغار السكسون على ليڤونيا وبدءوا الحرب الطويلة المدى التى بدلت من موازين القوة فى دول الشمال .

وبدت الفرصة مواتية إذ كان شارل الثانى عشر ملك السويد عام ١٧٠٠ صبيًّا لا تجارب له ، لم يعرف عنه إلا أنه قد طالب بالحصول على سلطان أبيه الأوتقراطى ، وحصل عليه . لم يكن فى الحسبان حينئذ أن ذلك الصبى المديد القامة الصارم الراجح العقل سيميط اللثام عن مناقب بطل من أبطال التاريخ الإسكندناوى فى ساعة تعرضت فيها بلاده لأشد الأخطار هولا ؛ ويبرهن على أنه قائد موهوب لا يقهر ، وأن سرعة بته فى القرارات لا يعدلها إلا إرادته الحاسمة وشجاعته الفائقة ؛ وأنه لا يرى فى أى مغامرة تهوراً أو بأساً ، ولا فى أى جهد عملا شديد الوطأة ؛ وقد هاجم بنجاح كلا من الدانمرك وسكسونيا على التوالى ، ثم لفظ بهما خارج النزال بعد أن أوقع بهما سلسلة من الضربات القاضية ، وسير عليهما الحملات الباهرة ؛ وفى أول اشتباك له مع جيش بطرس الأكبر الذى شنه فى يوم عاصف من أيام نوفمبر أمام أسوار « ناڤارا » Navara ، حاز نصراً حاسماً خالداً فى سجلات الحروب حتى ولو أسقطنا من اعتبارنا أنه قد حاز ذلك النصر أمام جيش يبلغ أربعة أمثال جيشه . كانت هذه أشياء جديدة استعصت على كل تقدير ولاح أنها تنذر بتطور فى أوربا . فى سرعة تبدو من المعجزات ، اقتحم الفتى السويدى حلقة أعدائه ، وأوقع بهم الهزيمة فى كل جبهة حتى إن مرلبرا Marlborough ذاته ما كان يتحرج عن أن يقدم

إليه شعائر التعظيم كأستاذ عظيم فى فن الحرب .

على أن من المؤسف أنه كان مفتقداً للاتزان النفسى : فبينما كان مولبرا على الدوام بارد الطبع كالثلج ، كان شارل شعلة دائمة من الهياج والغضب . وفى مثل هذه الشخصية ذات الطبيعة الشرسة الحادة المزاج كانت العادات التى يولدها الحكم الفردى نقمة على صاحبها لا نعمة ، ذلك لأنه إذا حاد عن جادة الصواب فما من قوة تستطيع أن ترده عن ذلك إلى الصواب ؛ ولم يكن للفشل أو الشدائد أو الهزائم أو الإذلال تأثير على جرأته الوحشية أو معين نشاطه الذى لا ينضب . بل جعله الإيمان بالقضاء والقدر الذى ولد عند النجاح المبكر ، يقتحم فى خفة وطرب كل ما يحل به من صروف الدهر ؛ بينما كانت السويد تستنزف دماءها بسبب أطماعه الحارة ؛ وتتهاوى مسرعة فى ميزان القوة حتى فقدت إلى الأبد مكان الزعامة ؛ وقيمتها فى شئون أوربا . كانت غلطته الكبرى أنه استهان بالروس ، فقد اعتقد بعد أن هزم جيشاً من ٤٠,٠٠٠ جندى غير مدربين فى « نارڤا » Narva أن الجنود المسكوفيين لا يستحقون إلا الاحتقار وأن فى وسعه أن يتخلص منهم وقتما يشاء . وهكذا بدلا من أن يعمل على تقوية الاستحكامات السويدية فى ولايات البلطيق ، كرس ست سنوات حرجة لإزاحة عدوه منتخب سكسونيا من الطريق ومعاقبته العقاب الذى يستحقه وتنصيب مرشح من قبله على عرش پولندا . إن ما حققه شارل لعجيب . على أنه بينما كان يسقط المدن الپولندية أو ينقل الحرب إلى سكسونيا كان بطرس قيصر روسيا ، وقد أعاد تنظيم جيشه واكتشف فى « شرمتييف » Sheremetief القائد الماهر ، يستولى على ولايات البلطيق المهمة (١٧٠١ — ١٧٠٤) . وقد ذهب بعض النقاد الحكماء إلى أن شارل لو قبل عرض سكسونيا الصلح عقب انتصاره فى « كليسوف » Klissow فى يولية ١٧٠٢ لأنقذ فى ذلك الوقت على الأقل تلك المنطقة العظيمة الأهمية من الإمبراطورية السويدية .

ومهما يكن من صحة ذلك الرأى فمما لاشك فيه أن شارل منذ فقد مقاطعات البلطيق سلك لاستردادها مسلكاً همجياً للغاية ، لا يرجى منه أى أمل ؛ إذ عندما سوى أموره مع پولندا وسكسونيا ، وألزم النمسا بتقديم الترضية لرعاياها البروتستانت

فى سيليزيا ، توغل فى قلب روسيا ليخلع القيصر عن عرشه . وهناك وسط البقاع الشاسعة المحرومة من الطرق المليئة بالمستنقعات والأحراش ، وفى شتاء روسيا القارس الذى لا يرحم، اشتبك جيشه الصغير المكون من أروع المحاربين بعدد هائل فاق فى خطره كثيراً الحرس الروسى . ولم يكن السويديون مزودين بما يرد عنهم غائلة الصقيع ، وقد تقلصت قوتهم إلى نصف ما كانت عليه أصلا بفعل الأمراض والحرمان ، وخابت آمالهم فى الإمدادات القوقازية العظيمة التى كانوا ينتظرونها فى الجنوب . فخاضوا ضد عدو فاقهم عدداً معركة « پلطاوة » Poltava فى ٢٨ يونية ١٧٠٩ حيث أبيدوا عن آخرهم . وصاح القيصر عندما تبين له الأثر الناجع للمدافع الفرنسية فى إبادة صفوف أعدائه : « الآن بمعونة الله تم بأمان وضع أساس مدينة سانت بطرسبرج مدى الزمان » .

وقد كان القيصر على حق ، فقد أمن فى واقعة پلطاوة منفذاً لروسيا تطل منه على الغرب . أما شارل ، وقد أعجزه جرح أصابه عن توجيه المعركة ، فقد فر إلى « بلندر » Blender فى تركيا ، ثم بقيت أمامه تسع سنوات أخرى مليئة لإثارة الرومانسية. ومع أنه حرض الأتراك ليشنوا حرباً على روسيا (١٧١١ — ١٧١٣) ، ثم عاد فى النهاية إلى وطنه ، فإنه وهو على ما هو عليه من الجرأة وصلابة رأيه المعهودين ، لم ينجح على الإطلاق فى تغيير ما قررته موقعة بلطاوة . فقد أسدلت هذه الموقعة الستار على الإمبراطورية السويدية . ورُدت بولندا لأغسطس صاحب سكسونيا Augustus of Saxony . ووضعت براندنبرج يدها على الجزء الأكبر من پوميرانيا السويدية . وأضاف بطرس « ريجا » Riga ، و « ريڤال » Reval إلى فتوحاته على بحر البلطيق . كما نجح جيش التحالف القوى المكون من هانوڤر وپروسيا وسكسونيا وروسيا والدانمرك فى إسقاط « سترالسند » Stralsund (فى ٢٣ ديسمبر ١٧١٥) بعد مقاومة طويلة ومجيدة . وكانت آخر ما تبقى للسويد من معاقل على ساحل ألمانيا ، ومع ذلك فإن شارل وقد فر إلى السويد ما زال يحلم بالنصر . فغزا النرويج على أمل الحصول على فتوحات جديدة يساوم بها أعداءه . وهناك أثناء حصاره لقلعة مظلمة ، لقى ذلك الرجل الشرس مكشوف الرأس ذو الحذاء العالى الذى اكتسح أوربا كما لو كان إعصاراً داعياً السويديين إلى التضحية تلو الأخرى ، دون أن يفقد قط

تأييدهم وإخلاصهم ، لقى شارل الثانى عشر حتفه كجندى ، وبعد مرور ثلاث سنوات قبلت السويد فى صلح نستاد Nystad (فى ٣٠ أغسطس ١٧٢١) انتقال ولايات البلطيق إلى روسيا ، وكانت الجائزة الأولى التى دار حولها ذلك الصراع الطويل .

كتب يمكن الرجوع إليها

— R. Nisbet Bain, Christina of Sweden (1890).

— R. Nisbet Bain, Charles XII & the Collapse of the Swedish Empire (1895).

— Voltaire, Histoire de Charles XII roi de Suede (1732). Tr. W. Todhunter, Everyman's Library (1908).

— Hallendorff & Schuck, History of Sweden (1929).

— D. Ogg, Europe in the Seventeenth Century (1925).

الفصل الرابع والعشرون

بطرس قيصر روسيا

روسيا فى القرن السابع عشر – تقديس مبدأ الوراثة – الأسرتان المالكتان – قيام أسرة رومانوف Romanoff – المنافسة مع بولندا – التأثيرات الغربية المبكرة – بطرس الأكبر – « آزوف » – بطرس يتحول نحو الغرب . تأسيس مدينة « سان بطرسبرج » . إصلاحات بطرس – روسيا تشارك فى سياسة الغرب .

بينما كان المعاصرون للويس الرابع عشر فى باريس ولندن ينعمون بمباهج المجتمع الراقى ، كان رعايا قيصر مسكوفيا غارقين فى همجية الشرق وظلامه ؛ واقتصر التعليم على بعض مدارس الأديرة . ولم يعترف أحد بحرية الفكر فى ذلك القطر الذى عمته الأمية ، وعرف فيه رجال الدين بالجهل والكسل والتعصب ؛ فأسرعوا للقضاء على البصيص الأول من حب الاستطلاع العلمى بدلا من تخصيص جانب من ثرواتهم الواسعة لتقدم المعرفة . على أن كافة الشعوب الآسيوية كان لها بعض أنواع التسلية البدائية . كذلك كان الأمر بالنسبة إلى الروس كذلك . فقد كانوا يطربون لسماع القصص الشعرية والأناشيد ينشدها الموسيقى الأعمى أو يتشدق بها القصاص المتجول ؛ كانوا يبتهجون للرقص والمزاح والقصائد التى تحكى سير أبطالهم . ولكنهم اختصوا أنفسهم بتسلية أخرى لم يعرفها أهل الشرق . فما من مكان آخر كانت تمارس فيه عادة السكر البهيمية على مثل هذا النطاق الواسع أو بمثل تلك العلانية ، يستوى فى ذلك النساء والرجال : رجال الدولة والفلاحون ، والرهبان والقسيسون ، لا يقلون فى ذلك عن العلمانيين . ولما كان النساء يعشن فى عزلة تامة ، فقد خلت حياتهن من البهجة الاجتماعية فيما عدا حى الأجانب فى موسكو ، وتستطيع أبسط صبية فى معمل للألبان فى بريتانى أن تزهو بنفسها أكثر من زوجة ثرى روسى ، زركشت الأصباغ الكثيفة وجهها ، وسلخت السياط ظهرها ، على عادة الزوج الروسى يقوم بها منشرح الصدر ، وتتقبلها الزوجة فى استسلام .

كان القيصر هو المالك للأرض والشعب . ولم يكن ثمة برلمان ولا مدن حرة

ولا نقابات حرف منذ استؤصلت الحرية الجمهورية فى « پسكوف » Pskoff ، و « نڤجورود » Novgorod فى نهاية القرن الخامس عشر على نحو يدعو إلى الأسف، كما لم يكن هناك أى نظام للطبقات الاجتماعية . وكانت العدالة تشترى وتباع علانية . وتأصل وباء الفساد الذى يرجع تاريخياً إلى أن أدواق روسيا العظام لم يصلوا إلى السلطان بقوة السلاح وإنما برشوة الموظفين التتار ، تأصل هذا الوباء فى عادات الأمة لدرجة جعلت كافة الجهود لاستئصاله غير مجدية . ولم تكن الضرائب إلا لوناً من اللصوصية ، وقد بلغ من تأخر البلاد فى المجال الاقتصادى أن الجانب الأكبر من صناعاتها وتجارتها كان فى يد القيصر. ويصور الرحالة الغربيون الذين زاروا روسيا فى القرن السابع عشر المجتمع الروسى فى صورة عنيفة مستهترة لا نظام لها ، حريصة على اعتزال الأجانب ، ولا يؤلف بينها إلا حكم همجى . فكان القيصر يجلد أتباعه كما كان هؤلاء وملاك الأراضى يجلدون خدامهم من العبيد ورقيق الأرض ، وكان الأسقف يجلد القساوسة ، ورئيس الدير الرهبان ، والزوج زوجته ، والأب أولاده . وكان الفرق يبدو واضحاً بين روسيا والغرب فى كل شىء : فى الملبس والسلوك والعادات والقوانين . كان الذكور يلبسون الأردية الطويلة ويرسلون لحاهم طويلة . وقد قال « إيڤان الرهيب » Ivan the Terrible : « إن حلق الذقن خطيئة لا تقوى على محوها دماء جميع الشهداء ، أليست عملية يشوه بها الإنسان خلقة الخالق ؟ » واقترنت القسوة فى أبشع صورها وألوان الرذيلة التى لا يمكن وصفها ، اقترنت بأغلظ الخرافات وصاحبتها كراهية راسخة لكل ما هو جديد آت من الغرب مهما انعدم ضرره ، وقد شجع على ذلك الرهبان بملابسهم السوداء ، والقسس بملابسهم البيضاء . ومما يدل على العقلية الروسية فى ذلك العهد أن الاضطراب الروحى الوحيد الذى حرك ركودها الجامد لم يكن مظهراً من مظاهر التقدم وإنما كان آية على الجهل ، فإن حركة راسكول Raskoll[1] (١٦٦٨) التى أصابت انتشاراً واسعاً

---

(١) حركة راسكول Raskoll (١٦٦٨) Raskolnilsi Russian non-conformists : حركة دينية انفصالية روسية ؛ كانت نتيجة لموقف البطريرك نيكون (١٦٥٢ – ١٦٥٨) من الكنيسة والقيصر – حظا نيكون بعطف القيصر الكسيس الذى أطلق يده فى إصلاح الكنيسة . على أن جهوده ومحاولاته لاقت معارضة قوية بسبب عدم كياسته ومحاولته السيطرة على القيصر نفسه . وبدأ الصراع بين معتنق العقائد القديمة Raskolniks والمستحدثة على يد نيكون Niconianism على أثر انعقاد ذلك المجلس (١٦٦٧) الذى أعلن حرمان المنشقين على الكنيسة من رحمتها .

وتأثيراً كبيراً قد رفضت بعض تغييرات طفيفة وإن كانت معقودة فى الطقوس الدينية ، أدخلها البطريرك (نيكون) Nicon .

كانت روسيا حينئذ الشرق بعينه . وقد بلغ من إنكار اعتبار الشعب الروسى جزءاً لا يتجزأ من الجماعة الأوربية أن من بين الاقتراحات التى بحثت فى بلاط هنرى الرابع ملك فرنسا مشروعاً لقيام الغرب بحركة صليبية واسعة النطاق لطرد المسكوفيين والأتراك من الأراضى الأوربية. كذلك لم يكن طيباً الحكم الذى ذهب إليه أورلياريوس Orlearius أحد نجباء الألمان عندما زار موسكو عام ١٦٣٦ فقال : « إذا تمعن الفرد فى طبيعة حياة المسكوفيين وأساليبهم اضطر للتسليم بأنه لن يجد شيئاً آخر يفوق ذلك الشعب الروسى همجية . إنهم لا يتعلمون أى فن أو علم أو يأخذون أنفسهم بأى لون من ألوان الدراسة ، وعلى النقيض من ذلك بلغ بهم الجهل أنهم يظنون أن ما من إنسان يستطيع أن يضع تقويماً إلا إذا كان ساحراً أو يتنبأ بدورة القمر وحركة الكسوف والخسوف إلا إذا كان على اتصال ما بالشياطين » .

وقد حكمت هذا الشعب المشاغب ولكنه المحافظ فى الوقت نفسه ،حكمته فى وقت امتد أكثر من ألف عام أسرتان : أسرة« روريك » Ruric وهى سويدية الأصل وأسرة « رومانوف » Romanoff التى نالت حقها فى العرش عن طريق اتصال نسبها بالأسرة السابقة ، وإنه لدليل فريد على اعتياد الروس تبجيل مبدأ الوراثة ، عندما قتل سرًّا المغتصب القدير « بوريس جودونوف » Boris Godounof ديمترى الابن الثانى لإيڤان الرهيب (١٥٩٨) ، وهو آخر من أنجبته الأسرة التى أنشأت الدولة الروسية الأولى على نهر « الدنيبر » Dniepper ، ونقلت إليها المسيحية عن الدولة البيزنطية ، وأنشأت دوقية موسكو العظمى ، ثم خلصت روسيا من نير التتار . وأبى الناس أن يصدقوا موت ديمترى ، إذ كيف يتأتى لأسرة حكمت منذ القرن التاسع أن تختفى هكذا فجأة ؟ فظهر شخصان مزيفان انتحل كل منهما اسم ديمترى : الأول راهب ارتد عن دينه ، وتحول إلى الكاثوليكية وتزوج من كاثوليكية ، والثانى لص ؛ وقد اجتذبا حماسة الفلاحين والقوزاق وهددا ــ اعتماداً على مساعدة پولندا والسويد ــ بحل الدولة وإرجاعها إلى أصلها الهمجى .

ولكن فى تلك الأثناء أى فى عام ١٦١٢ ، وفى أحلك الأوقات عندما كان سجسموند Sigismund الثالث ملك پولندا فى « سمولنسك » Simolensk والسويديون فى « نفجورود» Novgorod ، والپولنديون فى الكرملين Kremlin وقع حادث لا ينسى فى تاريخ روسيا وهو مميز لشعبها العاطفى المتدين ؛ والثابت أن روسيا كان يتحتم عليها أن تقرر ما إذا كانت ستقبل الخضوع لقيصر پولندى الأصل لا يقدم إلا ضمانات ضئيلة للمحافظة على العقيدة الأرثوذكسية وهو الأمر الذى كان متوقعاً ، ومن دير « توريتزا » Toritza وجهت الرسائل لعرض الأمر على المدن . وهبت الأمة لتدلى برد قاطع . وكان زعيما ذلك الشعور القومى العظيم المتفجر رجلين : قصاب وأمير : أما القصاب فهو «منين» Mininne من نيشنى نوفجورود Nischni-Novgorod ، والأمير بوزهارسكى Pozharski ؛ وإليهما يعود فخر تكوين جيش وطنى ، طرد الپولنديين من موسكو ؛ وترتب على ذلك موافقة المجلس الوطنى على اعتلاء ميخائيل رومانوف ابن البطريرك « فيلاريه » Phileret عرش الإمبراطورية (١٦١٣) .

كان ميخائيل صبيا غراً فى الخامسة عشرة من عمره ، ولكنه كان ينتمى لأسرة محبوبة من الشعب ، قوية المركز بسبب مباركة الكنيسة لها . ومن ثم استقر عزم نبلاء موسكو على تأييد صبى لا خبرة له ؛ كما قرر الشعب أن يقدم له ولاءهم البسيط العميق معاً ، مفضلاً ذلك على أن يخضع لمدع على العرش حملته إليه سواعد الجيش البولندى ، أو يشهد تعرض الكنيسة الأرثوذكسية للخطر باعتلاء ملك پولندى على العرش . وهكذا تحول إعجاب الشعب من أسرة روريك إلى أسرة رومانوف . فالقيصر مصطفى الله ، وهو الأب الصغير لشعبه ، وشافيه من همومه ، وثبت مركز الأسرة ونمت . فأنجبت بطرس الأكبر وإسكندر الثانى ، وغيرهما من الشخصيات الأقل فخامة ، وقد تألقوا فى الصفوف الأولى من ميدان الشئون العالمية . ثم فجأة تلاشت أسرة رومانوف كما ظهرت فجأة وسط عواصف الحرب والثورة بعد سلطان دام ثلثمائة عام . فعزل القيصر البرىء نيقولا عن عرشه وذبح (فى عام ١٩١٧) فى حفل دموى أقيم احتفاء بانتصار البلشفية . وكان نيقولا أطيب القياصرة وأضعفهم وأكثرهم إنسانية. بل هو السيد الكامل الوحيد فى قائمة حكام روسيا منذ القرن التاسع .

ورثت الأسرة الجديدة فيما ورثت الحرب ضد الپولنديين ، تلك الحرب التى أصبحت مزمنة منذ القرن الخامس عشر . ويعزى عداء الروس الشديد للپولنديين إلى عاملين : عقيدتهم الرومانية الكاثوليكية ؛ واتحادهم السياسى (وقد وطدته معاهدة « لوبلن » Lublin فى ١٥٦٩) مع دوقية « لتوانيا » العظمى Lithuania . وكانت على خلاف لتوانيا الصغيرة الحالية تتكون من مساحات شاسعة من الأراضى التى كانت يوماً جزءاً من روسيا ، وبعد أن سكنها الروس البيض والروس الصغار التابعون للكنيسة الأرثوذكسية أصبح ممكناً أن تعود إلى روسيا من جديد . ومجمل القول أن الروس رأوا فى الپولنديين جماعة من الملحدين المغرقين فى إلحادهم وعصابة جد خطيرة من اللصوص الذين أتوا ليسرقوا فى غير أرضهم . فلم يكن الپولندى — فى نظر الروس — كاثوليكياً فحسب ، بل كان كذلك كاثوليكياً باغياً . لقد كان امتلاك پولندا للتوانيا وحده كافياً لتسوىء العلاقة بينها وبين روسيا ، ولكن أسوأ من ذلك أن يحاول اليسوعيون الپولنديون رد اللتوانيين دفعة واحدة إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية حتى إذا فشلوا فى ذلك حاولوا خداعهم بسياسة جديدة تقوم على التراضى وذلك بإقامة كنيسة موحدة (Uniate) وهى كاثوليكية فى عقيدتها ، سلافية فى طقوسها ، هذا إلى تمادى الپولنديين فى تعاليمهم ووقاحتهم التى لا تقف عند حد . وعندما كانت روسيا تعانى بعض الاضطرابات لم يتورع الپولنديون من استغلال تلك الشدة. فأيدوا المدعين على العرش ، ونصبوا أنفسهم سادة على موسكو ؛ وأحرقوا جزءاً من المدينة ، وطالبوا بعرش روسيا (١٦١٠) . وكان الپولنديون أمهر من الموسكوف وأعظم ثقافة ؛ فسهل عليهم أن يقتبسوا عن خبراء العسكريين فى الحروب الألمانية . ولكن نبلاءهم كانوا معروفين بحدة الطبع . وقد ضعفت الدولة الپولندية ضعفاً شديداً عندما أصبحت الملكية انتخابية فى ١٥٧٢ ؛ عند انقراض الذكور فى فرع ياجلو Jagello. كان ثمة خميرة من العنف تهيج ذلك الشعب الحاد المزاج فتدفعه إلى معالجة أهداف متعارضة بحيث لا يمكن الجمع بينها ، فبينما نراه يشن هجوماً فى اتجاه نهر الدنيبر نراه يشن هجوماً آخر نحو البلطيق ، ناهيك باندفاع جرىء فى قلب روسيا نفسها . وقد كان من الخدمات الأولى لأسرة رومانوف كبح جماح قوة پولندا ، ولتوانيا المتزايدة . ففى عام ١٦٦٧ بعد حرب دامت خمس سنوات ، استردت مسكوڤيا

روسيا الصغرى ومدينة « كييف » Kieff المقدسة .

وقد بدأ أدواق موسكو العظام يمتون سلم النفوذ كجباة للضرائب لدى حكام التتار . أما الأسلوب الذى مكنهم من أن يحرروا التتار أنفسهم من حكم سادتهم الآسيويين ، وينشطوا للعمل خارج عاصمتهم ذات الغابات ، ويتقدموا نحو بحر قزوين والبحر الأسود وبحر البلطيق ، وإن لم يشعر بهم أهل الغرب إلا قليلا حتى بدأ نجم بطرس الأكبر يلمع فى الأفق . كان هذا الأساوب يعتمد دائماً على تطبيقات نشاط الغرب وعلومه ، فإن إيفان العظيم الذى تزوج من « صوفيا بليولوجوس» Sophia Paleologus ابنة أخ آخر أباطرة الدولةالبيزنطية ١٤٦٢ ،وضاعف من مساحة إمارة موسكو الكبيرة ، قد اجتذب المعماريين والمهندسين اليونانيين والإيطاليين إلى بلاطه ، وإنه ليدين بكثير من نجاحه لقائد مدفعيته الإيطالى « فيورافانتى ألبرتى » Fioravanti degli Alberti ثم إن انتصار كازان Kazan التاريخى الذى ألحق بالتتار أشنع هزيمة فى ذلك القرن ، وأوصل ممتلكات إيفان الرهيب (وكان أول من أطلق على نفسه لقب قيصر من بين الأدواق العظام) حتى حافة بحر قزوين ، ثبتته المساعدة التى كان لا غنى عنها والتى قدمها مهندس ألمانى . وكان افتتاح طريق التجارة فى البحر الأبيض (١٥٥٤) من عمل مغامرين من الإنجليز . كان بطرس الأكبر بعبقريته ونشاطه أعجوبة زمانه — على أنه لولا تجاربه الغربية التى اكتسبها فى شبابه أثناء اختلاطه بأصدقائه من السويسريين والهولنديين والأسكتلنديين فى الحى الأجنبى بموسكو لما أدرك على الإطلاق مطامعه العظيمة ، ولأصبح فيما بعد عاجزاً عن تحقيق تلك المطامع إذا لم يقدر له عون الخبراء الغربيين والمدافع الغربية فى حينه . إن القوى المحلية الواسعة لدى الشعب الروسى كانت فى حاجة لكى تنطلق وتنظم ، إلى مؤثرات عقلية من جانب العرب ؟

وفى عام ١٦٨٩ قبض بطرس على السلطة بعد أن أزاح فى عنف أخته صوفيا الوصية عليه — وكان إذ ذاك قد بلغ من العمر سبعة عشر عاما — كان هائلا فى قواه الجسمية وقد ملك كافة المواهب بما فى ذلك شراسة عنيفة مرعبة شديدة الاندفاع متقلبة الأهواء وإن كانت ضرورية لفرض تجديدات غير مستساغة على الشعب الروسى . وإن مزاجه الذى تميز بخصوبة تدعو إلى الذهول قد دفعه إلى كل أنوع

التطرف من السخرية الخيالية إلى الكآبة المظلمة. فقد رأيناه فى السنوات الست الأولى من حكمه يرحب بترك مهام الحكومة السخيفة للآخرين، بينما راح هو يقيم المساخر (الكرنفالات) بصحبة رفقائه المرحين فى « سلوبودا » Sloboda وهو حى الأجانب فى موسكو ، ويعد الألعاب النارية (الصواريخ) ، ويغنى فى الطرقات ، ويبنى السفن ، وينظم قتالا صوريًّا ، ويداعب أصدقاءه ، وحتى عندما بدأ يتناول الأمور بطريقة أكثر جدية لم يجزم أحد مطلقاً إلى أى حد سيكون جادًّا فى عمله. وقد صحبه حتى نهاية حياته ذلك المزاج الهمجى المشوش الذى كان أشبه ما يكون بمزاج التلميذ المستهتر مما دفعه حتى وهو فى سن الخمسين إلى أن يجعل من بطرسبرج كذبة أبريل . وإذا استثنينا نشاطه وتطلعه الدائب إلى المعرفة لم تكن عاداته الشخصية سوى عادات عامل مسكوفى سكير قذر ، يجد السعادة فى رفقة أصحابه الخشنين وفى أشق الأعمال وأبشعها . ولهذا أدى —وفى أعظم لذة— أعمالا كثيرة مختلفة كلما سنحت له الفرصة . فاشتغل مدفعيًّا وبحاراً وصانعاً للسفن وجلاداً ، ناهيك عن الحرف الأخرى الأكثر تهذيباً كطبيب أسنان ونقاش وجراح ؛ ولم يردعه عن أى عمل رادع أدبى أو دينى أو اجتماعى . فقد حبس شقيقته وطرد زوجته الأولى ونبش قبر عمه ودنس جثته . ولما خشى أن تنقض سياسته فى الاقتباس عن الغرب قتل ابنه الذكى الرجعى بعد أن أنزل به ضروباً من التعذيب البشع . حقًّا إنه كان يكره انحناء الناس— كما لو كانوا عبيداً —فحرمه. ولكنه كان قليل الاهتمام بكرامته الشخصية ، فلم ير فى أى عمل أو موقف شيئاً يحط من قدره سواء أكان ذلك عن كبرياء معكوسة أو بساطة شعبية حقيقية . فلم يحط من قدره فى أعين شعبه أن زوجته الثانية كانت خادمة عادية من ليفونيا Livonia ، أو أن تهتكه كان لا حياء فيه ، أو أنه كان يقضى أياماً سوية عاجزاً عن العمل ، صريع الشراب ؛ كان بطرس يمثل خلاصة قومه وبما عرفوا به من تناقض فى العمل ومزاج حاد وشهوات جارفة ، وألفة كريمة . ومع ذلك فعندما مات وهو فى سن الثالثة والخمسين كان الشعور بالارتياح عامًّا كما صوره أديب صاحب دعابة : مثل ذلك مثل الفئران تنظر فى سرور إلى جنازة القط .

لم يكن هناك ما هو أشد إغراء لحاكم شاب تواق إلى القوة البحرية والتوسع

التجارى من آزوف Azoff الحصن التركى العظيم عند مصب نهر الدون الذى يمكن الوصول إليه مائيًّا من موسكو. وهناك أمام أسوار آزوف كسب بطرس تجاربه الحربية الأولى (١٦٩٥) ، وهناك بمساعدة الأسطول — وقد أدخلت عليه بعض التحسينات الهامة بعد محاولة فاشلة فى البداية — جنى بطرس ثمار صبره وسعة حيلته . وقد استحق استيلاؤه على آزوف (١٦٩٦) المديح لأنه كان أول انتصار تحرزه القوات الروسية على الأتراك . ولكن القيصر الشاب الذى كان واقعيًّا لم يدر النصر رأسه .

وقد تكشفت مشاكل البحر الأسود عند تمحيصها عن صعوبات هائلة لا يمكن حلها إلا بالاستعانة بحليف من الغرب ، وأخذ بطرس يجوب الغرب باحثاً عن هذا الحليف ، ولكنه عاد من أسفاره بخفى حنين ، فآثر أن يبدأ ببحر البلطيق ثم بالبحر الأسود فى قائمة أهدافه الحربية . فقد كان أهون عليه أن يؤسس مدينة سانت بطرسبرج من أن ينتزع بمفرده شبه جزيرة القرم من التتار والترك . وهكذا أبدى القيصر — بقراره الخطير الذى قضى بالتحول الحاسم عن المسرح البعيد الذى شهد انتصاره المبكر — أبدى من سداد الرأى ما هو جدير برجل الدولة .

ومنذ الضربة التى وجهها إلى السويد حتى مماته فى ١٧٢٥ ظل بطرس فى حرب تكاد تكون متصلة . وعلى ضوء هذه الحروب التى شنها ضد السويد والأتراك والفرس يجب النظر إلى سياسته الداخلية . وكان أكثر ما يشغل ذهنه المتقلب أن ينشئ جيشاً كفؤاً كالجيش النمساوى وأسطولا يعدل الأسطول الهولندى ، وإدارة حكومية تضارع نظيرتها فى السويد ، وأن ينتزع من الفلاحين الذين أخضعهم بقيود الرق على نحو أقوى من ذى قبل الموارد اللازمة لمواصلة حروبه . وخلت سياسته مما من شأنه أن يخفف عن الفقير أعباءه أو يحقق أهداف العدالة الاجتماعية . فكل ما أراده لشعبه هو العلم والسلطان ، والمتع المادية فى حياة الغرب .

أما العمل العظيم الذى أنجزه بطرس فهو أنه — وقد تفهم بجلاء تفوق الغرب — وُفق بعد مجهود دائب استغرق حياته بأكملها ، وفى مواجهة آراء قوية سابقة فى رفع بلاده بصورة ملموسة إلى مستوى أرقى من الحضارة . ومن المرجح أنه كان يدين لنديم صباه « ليفورت Lefort » ، وهو سويسرى من جنيف ، وكان بيته فى الحى

الألمانى مسرحاً لألوان من العبث غير المهذب ، كان يدين له بأول تدريب تلقاه فى أساليب الغرب . ومن المؤكد أن « ليفورت » هو الذى اقترح عليه رحلته إلى الغرب عام ١٦٩٧ ، وكان ذلك حدثاً فاصلا فى تاريخ روسيا . ومن ثم لم يكن محتملا على الإطلاق أن ينسى بطرس الدروس التى لقنته إياها فى البحرية أمستردام ودتفورد Deptford ولا ما اكتسبه من ڤيينا — وهو بعد لا يزال تلميذاً مبتدئاً — من العلوم الحربية . كان أهل الغرب على علم تام بفن الحياة وأسرار القوة . كان فى وسعهم أن يبنوا السفن ويصنعوا المدافع والآلات، كما أنهم خبروا مسائل المال ووسائل الراحة والمتعة المعقولة ؛ وعرفوا القراءة والكتابة ، واختلطوا بالنساء فى حرية . وأقاموا لأنفسهم فى مدنهم ذات الشوارع الممهدة المضاءة معيشة لا هى بمعيشة الهمج ولا بمعيشة الرهبان المنعزلين . فاستقر عزم بطرس على أن ما أمكن عمله فى الغرب من المستطاع — بل من المحتم — أن يعمل فى روسيا كذلك .

وكان بطرس أول من تبنى من مواطنيه أهمية إقامة عاصمة لروسيا على بحر البلطيق وأصبحت مدينة سان بطرسبرج التى غنمتها روسيا نتيجة حرب طويلة الأمد ، شنت بسرعة، خير ضمان لعدم انقطاع هذا الاتصال الثمين بالغرب ، ولأن يصبح نفوذ روسيا ملموساً فى شئون السياسة الغربية . وكانت تعنى شيئاً أكثر من مدينة، إذ أصبحت رمزاً ؛ فقامت تمثل فى الحياة الروسية ذلك الاتجاه نحو الترحيب بالغرب وقبول مجرد حضارته ضد الفلسفة القومية الأخرى وهى الميل نحو السلافية فى القرن التاسع عشر والشيوعية فى القرن العشرين ، تلك الفلسفة ترى الحضارة الروسية — أمراً يختلف كل الاختلاف عن حضارة أوربا، فهى لا تفيد من الاختلاط بها ، وتعتبر موسكو القلب الحقيقى للدولة الروسية والمركز المناسب لحكومتها . وقد بدت مدينة بطرس على نهر « نيڤا » Neva لهذا الفريق من الناس لا تفضل كثيراً مركزاً اجتماعياً لبارونات البلطيق وقاعدة أمامية لألمانيا فى الأرض الروسية .

قام الحرس الروسى البريتورى (سترلسى أو المسلحون بالبنادق) بحركة تمرد (١٦٩٨) قمعت بسهولة ولكن بعد عقاب صارم ، وقد خلق ذلك فى البلاد منذ البداية جواً من الرعب كان يحتاج إليه القيصر المصلح لتنفيذ إصلاحاته .

وببصيرته النافذة وجه بطرس ضرباته بشدة إلى عناصر الحياة الاجتماعية فى روسيا المتأصلة فى تقاليدها كذقون الرجال وأرديتهم وعزلة النساء وثروات الرهبان القسيسين وسلطانهم المستقل ، بل إنه ذهب إلى حد إلغاء بطريركية موسكو ثم وضع شئون الكنيسة فى يد مجلس دينى مقدس يمثل فيه القسيسون والأساقفة .

وبعد أن قام بتغييرات بمثل هذه الثورة (١٧٢١) سهل عليه نسبيًّا إنشاء المدارس المهنية ، وإصلاح العملة والتقويم ، وحذف ثمانية أحرف من الأبجدية ، وإنشاء مجلس للشيوخ ، ونظام للوظائف العامة ، وبناء أسطول . وعلى الرغم من أن بطرس شفا غليله بشنق حاكم مرتش لسيبريا ، فإن الرشوة المتأصلة فى دنيا الوظائف بقيت تتحدى بطرس . وكانت زوجة بطرس الثانية كاترين الليفونية لا تتورع عن ابتزاز الأموال بطريق التهديد .

ولاشك أن تحضر أمة قد هوت إلى أعماق الفساد كان عملا يفوق جهد أى حاكم بمفرده ، ولم يكن بطرس يملك المال اللازم «للخدمات الاجتماعية » ، ومشروعاته التربوية — على طموحها على الورق — لم ينفذ منها إلا القليل فعلا . لم يكن لديه المال ولا هيئات التدريس ، كما لم يكن الميل للتعلم منتشراً ، ولا يمكن بدونه أن يتحقق أى تقدم تربوى كبير . فالشعوب لا تصنع أذواقاً جديدة تحت الطلب . والتعليم للروس — كالبحر — أمضوا وقتاً طويلا قبل أن يملكوا ناصيته . ولم يكن بطرس الذى كان صريع الشراب فى غيبوبة عما حواليه ، بينما كانت معركة بلطاوة فى أحرج أوقاتها ، بالرجل الذى يستطيع أن يمنح الشعب الروسى حاسة التدبير والإدارة ، ولو قد أخذ بطرس من شارل الثانى عشر أو نابليون القصد فى الشراب ، فما أجل الفعال التى كان قميناً بتحقيقها ! على أن بطرس قد أنجز دون شك عملا عظيماً عندما منح الروس المقومات الرئيسية الثلاثة للدولة الحديثة : الجيش والأسطول والإدارة المدنية . وعلى الرغم من أن المؤثرات الغربية قد دخلت البلاط المسكوفى منذ عهد إيفان الثالث ، فإن بطرس كان أول من فتح للروس نافذة الغرب على مصراعيها . فظلت مفتوحة منذ عهده ، وإليه يعود أيضاً فضل صدور أول جريدة روسية وإنشاء أول مستشفى روسى وأول متحف روسى .

وعلى الرغم من أنه لم يتخذ أى خطوة لتأمين المستقبل فإن عمله ظل باقياً

يقاوم الأهواء والآراء القديمة فى جزرها ومدها . وقد خلفه على التوالى أرملته فحفيده ثم ابنة أخيه ثم ابنته[1] .

وقد قامت وراء هذه الشخوص بعض الشخصيات الألمانية القديرة أمثال أوسترمان Ostermann الذى ظل وزيراً للخارجية سبع عشرة سنة، وميونيخ Munich قائد الجيش الروسى فى عهد القيصرة آن كورلاند Anne of Courland أو بعض الروس ممن تربوا فى مدرسة بطرس مثل بسترشيف Bestuchief المستشار الأول لإليزابيث . لقد انقضت أيام العزلة الاجتماعية والسياسية القديمة . وكان التحالف الوثيق مع النمسا حجر الزاوية فى السياسة الروسية حتى موت إليزابيث فى عام ١٧٦٢ .

وهكذا بفضل عبقرية فنان همجى دخلت روسيا فى نظام أوربا السياسى ، حيث أخذت تحتل مركزاً لا يختلف كثيراً عن مركز إنجلترا من حيث كونها جزءاً من القارة الأوربية، ومع ذلك تجتذبها مصالح بعيدة لا تعنى أوربا فى شىء . فعند بابها الخلفى تقع آسيا وما هو إلا صف منخفض من التلال المنحنية المكسوة بشجر الصنوبر ، كان « يرماك » Yermack أول من عبرها عندما كان شكسبير لا يزال صبيا ، يفصل روسيا عن غابات سيبيريا ومجاريها المائية ومراعيها ، حيث تبدو الطبيعة—فيما عدا اتجاه الأنهار من الجنوب إلى الشمال—وكأنها تكرر على أرض آسيوية التجربة التى منحت كندا سحرها وقوتها . ولكن لما كان الوصول إلى إمبراطورية روسيا الاستعمارية لا يتطلب منها ارتياد البحار، وإنما كانت ماثلة أمامها لا تحتاج إلا لمد يدها لأخذها ، فإن انجذاب السياسة الروسية نحو آسيا لم يتضح ولم يكن قويًّا منذ البداية ، ولم يظهر إلا فى القرن التاسع عشر عندما أصبح الموسكوف وجهاً لوجه أمام بريطانيا واليابان: عندئذ أصبحت جاذبية آسيا عاملا عظيم الأهمية فى السياسة الروسية ؛ ولم يكن الشرق فى القرن الثامن عشر بقدر ما كان الجنوب والغرب عامل اجتذاب المرجهين للسياسة الروسية . فالغرب قدم لروسيا خبراءه وفلسفته فى الحكم القائمة إذ ذاك على الاستبداد المستنير ؛ وقدم الجنوب لروسيا الفتوحات المغرية واحدة تلو أخرى . فثمة حدائق السهول فى

---

(١) كاترين الأولى ، بطرس الثانى ، آن أوف كورلاند ، وإليزابيث .

القوقاز ، وشبه جزيرة القرم بساحلها المشمس كأنه الريفييرا ، وهناك البسفور أكثر الممرات المائية سحراً وجاذبية ، وهو المعبر من مياه البحر الأسود الباردة إلى مياه القسطنطينية الدافئة ومنها إلى جزائر اليونان فالأراضي المقدسة . ومن السهل أن ندرك قوة تأثير مثل تلك المطامح فى الشعب الروسى . وقد أرادوا الثغر ذا المياه الدافئة والمخرج إلى بحر إيجة ثم السيطرة على المدينة الإغريقية القديمة التى اعتقدوا أنهم أصحاب حق فيها باعتبارهم ورثة للإمبراطورية البيزنطية ، فاضطرهم ذلك إلى النظر إلى الأتراك على أنهم الدولة التى تحول بين روسيا والشمس وأن يسووا كافة علاقاتهم السياسية بما يتمشى وتلك الحقيقة . فأصدقاء الأتراك أعداء لهم ، وأعداء الأتراك أصدقاء لهم . وقد أدركت ذلك كاترين الثانية ، أعظم خلفاء بطرس على الرغم من أنها ألمانية الأصل وفرنسية التربية . ففى اعتبارها أيضاً كانت مشاكل الجنوب مقدمة على غيرها . وفى عهدها وكخطوة لتحقيق سياسة الجنوب ، قسمت بولندا ، وضمت شبه جزيرة القرم لروسيا عام ١٧٨٣ وبذلك ثبت العلم الروسى على سواحل البحر الأسود .

كتب يمكن الرجوع إليها

— Kluchevsky : History of Russia. Tr. C.J. Hogarth (1911-1932).
— Rambaud : Histoire de la Russie (1884).
— A. Brückner : Peter der Crosse (1878)
— A. Toynbee : A Study of History, Vol III. (1934).
— Macaulay : History of England (1858-1862).
— R. Nisbet Bain : Pupils of Peter the Great (1895).
— R. Nisbet Bain : Salvonic Europe (1908),
— K. Waliszewski : Pierre le Grand (1897).

الفصل الخامس والعشرون

الترك والعالم المسيحى

قوة الجيش التركى – سليمان العظيم – عهد التوسع العثمانى – معاهدة توروك Torok ١٦٠٦ – طغيان الحكم التركى وتسامحه – انقسام العالم المسيحى – ضعف الترك ثم انتعاشهم – النمسا الحصن الأمامى للمسيحية – پولندا ، ضعفها الداخلى وأعداؤها فى الداخل – جون سوبييسكى John Sobieski المقاومة الفرنسية – انتصارات المسيحية ١٦٨٣ – ١٦٩٩ – غزو البنادقة للمورة – القومية المسيحية – العدو الحقيقى للإمبراطورية التركية – مشكلة النمسا الداخلية وخدماتها لأوربا .

لم يكن محتملا أن يغرب عن أذهان السلاطين الذين خلفوا السلطان محمد الفاتح مباشرة كيف أن قبيلة شرقية صغيرة غليظة الطبع جاءت من قلب آسيا وقدر لها بجهدها الدائب وجرأتها واحتمالها أن تسيطر على إمبراطورية امتدت من بغداد إلى حدود المغرب ، ومن الخليج الفارسى إلى شبه جزيرة القرم ونهر الدانوب ؛ إذ مكنهم تفوقهم الحربى من هذا الملك العريض ومكنتهم حكمتهم من أن يدركوا أن لا بقاء لإمبراطوريتهم إلا بهذا التفوق الحربى . ومن ثم كان الجيش أهم ما عنوا به . وقد بقى السلطان سنوات طويلة . يملك الجيش الثابت النظامى الوحيد الذى له اعتبار فى أوربا . وبفضله استطاع الأتراك أن يكونوا قوة رهيبة فى أعين رعاياهم وجيرانهم . وكانت منشآت السلاطين العسكرية فى المدفعية والشئون الهندسية والإمدادات والتموين فوق مستوى عصرهم . كما لم يكن فى وسع أى دولة من دول غرب أوربا أن تقاوم فرق السباهية والانكشارية التى تكونت على أساس ضريبة الدم من الأطفال المسيحيين بقوات تعدلها فى حماسة روحها أو قسوة مرانها وطول أمده . وظل السلاطين أكثر من قرن يجنون ثمار حميتهم العسكرية وانشغالهم بالجيش ، وقد قوى من حرارة ولائهم لأمير المؤمنين حماستهم وطاعتهم العمياء لدينهم .

وبهذه القيادة وباستغلال الانقسام فى العالم المسيحى اطرد نمو الإمبراطورية التركية . فنى عهد السلطان سليمان العظيم ، الفارس المثقف الذى حكم من ١٥٢٠ إلى

١٥٦٦ ، انتزع الأتراك — كما بينا من قبل — رودس من فرسان الاسبتارية ، وفرضوا الجزية على ترنسلفانيا وملداڤيا ، واغتصبوا من النمسا سبعة أعشار المجر — وأثارت تلك الانتصارات البحرية والبرية على حراس العقيدة المسيحية رعدة قلق فى أوربا . وبلغت الإمبراطورية العثمانية فى عهد هذا السلطان الممتاز أوج قوتها على الرغم من أن العثمانيين قد انتزعوا بعد ذلك بقرن من البنادقة كاندية ، وكمنيك Kamenick القلعة الفريدة الموقع من البولنديين . كان سليمان يجمع بين الهمة العسكرية وموهبة التنظيم الحكومى والميل الطبيعى للفنون والآداب . وبعده أخذت تظهر نذر الانحلال الأولى . خلفه على العرش عدد من السلاطين الضعفاء المتهتكين وترتب على حكمهم من المصائب ما لا يمكن تجنبه فى دولة تعتمد فى كل شىء على شخصية حاكم مستبد . فاجتاح الفساد الحكومة ، وعمت الفوضى الجيش ، وسمح للانكشارية والفرق السباهية بالزواج ، وبدأ التساهل فى جباية ضريبة الأطفال المسيحيين ، ثم ألغيت تماماً فى القرن السابع عشر . وإن معاهدة توروك Torok فى عام ١٦٠٦ وهى المعاهدة التى خلصت النمسا من الجزية المهينة ، وعينت الحدود بين الأراضى التركية والنمسوية لتشير إلى النقطة التى توقفت عندها الفتوحات التركية فى أوربا ؛ وكيف أن الأتراك فى مساومتهم مع أعدائهم قد اضطروا إلى قبول التنازل لهم عن بعض المزايا .

بلغت الإمبراطورية البيزنطية قبل الغزو العثمانى مبلغاً من البؤس بحيث إن عدداً كبيراً من الرعايا المسيحيين للباب العالى كادوا يعتبرون حكم الأتراك القوى نعمة . حقّاً كان المسيحيون مبعدين عن النفوذ السياسى ، يخضعون لضريبة خاصة ، كما تعرضوا فى أكثر من مناسبة لخطر الاستئصال المنظم . على أنهم تمتعوا على الرغم من عيوب حكامهم ومضايقاتهم بالضمانات التى لا غنى عنها لتوفير حياة محتملة : كان التركى قاسياً ولكنه كان كسولا ، صلفاً ولكن غبيّاً . ولما كان لا يصلح للعمل فى الصناعة أو التجارة فقد رضى بالسماح للمسيحيين بممارسة التجارة والصناعة ؛ ولما كان لا يملك ثقافة خاصة به يلقنها للآخرين فقد عاش اليونانيون والبلغار والصرب تحت الحكم العثمانى المتراخى غير المنتظم ، يمارسون شعائرهم الدينية ، ويحتفظون بعادات أجدادهم ، ويواجهون القرآن فى حماية بطارقتهم بمقاومة هادئة وإن كانت صلبة .

هناك إذن أمران ميزا الحكم التركى فى أوربا : طغيانه وتساهله : أبدى الأتراك عدم مبالاة بل احتقاراً شديداً للمنازعات القائمة بين الكنائس المسيحية . وما إن أقلعوا عن نية تحويل العالم إلى الإسلام حتى قنعوا بترك غير المؤمنين يصلون نار شقاوتهم . ولم يكن ثمة مسلك خيراً من هذا ملاءمة لمصالح الأتراك . فقد آثر الكثيرون من پروتستانت ترنسلڤانيا والمجر العيش تحت لواء الهلال على أن يقعوا فى قبضة الجزويت . وفى أثناء التنافس للحصول على معونة المجر ، ذلك التنافس الذى ميز الحروب الدانوبية فى النصف الثانى من القرن السابع عشر ، لم يكن هناك عامل أكثر ترجيحاً للغة الأتراك من سجية التسامح الدينى ، وأكثر معاكسة للنمسويين من اضطهادهم الذى قضى من قبل على پروتستانت بوهيميا ، وأصبح عندئذ يهدد أرواح وأملاك إخوانهم فى الدين من أهل المجر .

كان لهذه الإمبراطورية المتسعة الأرجاء التى نظمت بدقة لخدمة أغراض الحرب عدوان رئيسيان : شاه فارس وقرى أوربا المسيحية المضطربة المشاغبة . وقد اهتم الأتراك خلال تاريخهم الطويل بإعداد أسباب الدفاع فى هاتين الجبهتين المنفصلتين المتباعدتين .

وقد يكون جهدهم فرق ما يطيقون اولا مسألة واحدة وهى أن العالم الأوربى لم يكن قادراً على توحيد جهوده . فالانقسام بين الكنيستين الإغريقية واللاتينية هو الذى تسبب فى قدوم الأتراك إلى القسطنطينية . وقد مكنه الانقسام الدينى فى العالم المسيحى اللاتينى ، مضافاً إليه الخصومة بين فرانسوا الأول وشارل الخامس . مكن الأتراك من تثبيت مركزهم وتوسيع رقعة فتوحهم ؛ كما أن العداء بين الأسرتين المتنافستين أسرتى هاپسبورج والبوربون وما اتصل به من مشاعر متضاربة من الولاء والعطف فى الدول الأوربية ، قد فتح أمام العثمانيين فى النصف الثانى من القرن السابع عشر مجالا جديداً لزحف موفق على الأراضى المسيحية .

ولحسن حظ أوربا أن وافقت حرب الثلاثين عاماً ، التى حولت فيها البروتستانت والكاثوليك ألمانيا إلى مجازر بشرية ، نوبة من نوبات الوهن الخلقى التى كانت تنتاب العثمانيين بين وقت وآخر . وكان آل عثمان إحدى الأسر العظيمة التى حكمت العالم فى شجاعتها الفائقة وذكائها القاسى . ولكن حلت بها فترات من الوهن باعدت

بينها وبين التفرق . امتدت إحدى هذه الفترات حتى شملت النصف الأول من القرن السابع عشر . على أن الأتراك كان لديهم معين من القوة يستمدون منه ما يعينهم على الإبلال من تلك الفترات ، مما أذهل أعداءهم المرة تلو الأخرى . وهكذا أعقب نصف القرن من الفساد والفوضى عصر من الانتعاش الواضح فى قوة الدولة ونظامها . استدعى أحد الألبانيين المسنين ليصبح صدراً أعظم فى عام ١٦٥٦ أثناء الحكم الطويل للسلطان محمد الرابع الغريب الأطوار. وألبانيا قطر صغير ولكنه غنى بطباع أهله الذين لا يقلون صرامة وسيطرة عن جبالهم الجرداء . كان إسكندر بك ألبانيًّا كما كان محمد على مؤسس مصر الحديثة . وفى تلك الظروف عندما بلغت أحوال تركيا مبلغاً خطيراً للغاية من الفوضى ، استطاع محمد كوپريللى الألبانى بصرامته العنيفة أن يوثق عرى الإمبراطورية من جديد . وفى خلال فترة تربو على العشرين عاماً تمكن وزراء من أسرة كوپريللى العثمانيين مرة أخرى من القيام بدور عنيف هدد الدول فى جنوب شرق أوربا ، وأنهك خطوط دفاع العالم الغربى .

وقد وقع عبء الدفاع عن أوربا إزاء الخطر العثمانى أصلا على عاتق أسرة هابسبورج الكاثوليكية . وإن دور النمسا الخطير فى التاريخ الأوربى وهو أحد المبررات الرئيسية لوجود الإمبراطورية النمسوية ليتمثل بالذات فى صمود هذه الإمبراطورية قروناً عدة وراء الحدود الجنوبية الشرقية لأوربا تدافع عن الحضارة اللاتينية والألمانية ضد الإسلام على أنه بينما كانت قوات السلطان موحدة ومتماسكة كان ليوبرلد إمبراطور النمسا عاجزاً حتى عن السيطرة على ممتلكاته الموروثة . وكان سلطانه يلقى فى المجر خاصة أشد مقاومة من جانب هيئة النبلاء الذين كانوا يكرهون الجيوش الألمانية ويخشون توقع الضرائب الألمانية — وأكثر من ذلك جميعاً يستنكرون تعصب الكنيسة الكاثوليكية ؛ وكانوا على اتصال وثيق بأعداء الإمبراطورية . وإذا كانت النمسا قد أخمدت فعلا أنفاس بوهيميا ، فإن جمع قوات من ألمانيا — إذا استدعى الأمر — لا يكون إلا بعد موافقة أمراء الدايت ، ومواجهة سياسة فرنسا العدائية . ومع ذلك فقد كان لعواطف العصور الوسطى بعض اعتبارها حتى فى منتصف القرن السابع عشر . ففى الوقت الذى تعرضت فيه العقيدة الكاثوليكية لأزمة حقيقية ، استطاع أرشيدوق النمسا — باعتباره إمبراطوراً للإمبراطورية الرومانية المقدسة — أن يستنجد بما تبقى من

الروح الصليبية فى أوربا ، باعتباره رأس العالم المسيحى اللاتينى. كان له أن يتوقع الحصول على معونة الڤاتيكان ، ودعوات الكنيسة ، ومساعدة جيش صغير مختلط جمع ارتجالا .

وكانت جمهورية البولنديين الشاسعة الأرجاء المضطربة القلقة . أقرب حليف للهابسبرج وقد تبينوا أن ما قام به لويس الرابع عشر من إغراءات مالية كان عديم الأثر فى وارسو. ومنذ عام ١٥٧٢ أصبحت الدولة فى حالة تفكك تام من الناحيتين الخلقية والسياسية عندما رفض النبلاء البولنديون الخضوع بعد ذلك لحكومة قوية وأصروا على أن لا يتقلد التاج إلا ملك منتخب ، ففقد الملك كل نفوذ ، فلم تعد له أداة لجباية الضرائب ولا جيش قائم ، ولما كان من حق أى عضو فى الدايت البولندى أن يعطل تماماً أى إجراء للدايت (حق الڤيتو) بأى حجة مهما كانت تافهة ، لم يعد الملك يملك أى وسيلة لإحداث تغيير دستورى ناجعٌ أو تزويد بلاده بأى تشريعات عادية جديدة . وكانت مدة انعقاد الدايت سنتين ؛ إلا أنه كان يفتقد الخصائص التى تجعل منه برلماناً قومياً إذ كان يتكون من النبلاء المساحين ، يتقاضى بعضهم أجوراً من النمسا والبعض الآخر من فرنسا ، ولا يكاد ينفض لهم اجتماع دون اضطراب أو إراقة دماء . ولم يكن فى أوربا من النبلاء من فاق نبلاء بولندا فى صلابة معادنهم ، ولا من الفرسان من خاض المعركة فى أبهتهم ومبالغتهم فى الاستعداد للحرب . على أن المظاهرة كانت براقة ولكن النظام كاد أن يكون منعدماً ، فقد كان الجيش البولندى يعتمد فى عدده وتكوينه فى أى وقت على استعداد النبلاء ، أو أى طائفة منهم للنزول إلى ميدان القتال مع أتباعهم . وكان مبدأ التطوع هذا نفسه هو الذى هد من قوة الجيش البولندى وكفاءته ؛ بل كان مقياس الطاعة فى أثناء المعركة هو الهوى ، فقد يجد أنجح القواد نفسه ضعيفاً بسبب انسحاب الجند من تلقاء أنفسهم ، إما عن انفعال أو تعب أو دسائس سياسية . فكان اللتوانيون والبولنديون على طرفى نقيض ، كما كان البولنديون كذلك فيما بينهم ؛ وكانت طبقة الفلاحين من عبيد الأرض والطبقة الوسطى من اليهود تقف خارج أحكام الدستور ، لا تلقى إلا الاحتقار والبغضاء والظلم .

ولم تلبث أن نزلت بهذا الشعب التعس مصيبتان كبيرتان بمجرد أن تخلى فى

غير حكمة عن نظام الملكية الوراثية القديمة . فإنهم بدعوتهم سيجسموند من آل ڤازا Sigsmund Vasa ليتولى العرش البولندى فى عام ١٥٨٧ — وقد اعتنق الكاثوليكية بناء على ذلك — عرضوا أنفسهم لعداء السويد البروتستانتية . فجلبوا على أنفسهم مسئولية خطرة فقد كان النضال مع أقوى الدول الحربية فى الشمال يكاد يكفى فى حد ذاته لإنهاك دفاع البولنديين . ثم كانت تنتظرهم مصيبة أخرى .

كان روح السخط والقلق ينمو فى نفوس القوزاق فى أوكرانيا طوال النصف الأول من القرن السابع عشر ، حيث دأب المبشرون اليسوعيون على مهاجمة العقيدة الأرثوذكسية ، واستخدم الملاك البولنديون المتغيبون عن أراضيهم طائفة من اليهود الأدنياء ليجمعوا لهم إيجاراتها . وفى عام ١٦٤٨ لم يطق القوزاق صبراً على ذلك . فثاروا تحت زعامة « بوجدان كلمنتزى » Bogdan Kelmnitzi أحد قوادهم (١) وبمعونة الروس والتتار والسويديين (بفضل ظروف مواتية طارئة فى السويد) ، تسنى لهم زعزعة الدولة البولندية من أساسها . فما إن حل عام ١٦٥٠ حتى ظهرت مشكلة الإبقاء على پولندا ، وعرض على بساط البحث أكثر من مشروع لاقتسامها . على أنه على الرغم من كثرة جيران الجمهورية البولندية المتطلعين لاقتسامها ، فقد كان مما يتفق ومصلحة العالم المسيحى فى ذلك الوقت أن تبقى پولندا ، طالما كانت من الضعف بحيث لا تسبب أى متاعب للنمسا ، ومن الفساد بحيث تباع وتشرى لخدمة أغراض فرنسا .

تمتد مساحة واسعة من الأرض معروفة باسم پودوليا Podolia على امتداد خط تقسيم مياه الدنيستر Deniester والبوج Bug ، وهى بمثابة أرض حاجزة بين ولاشيا Wallachia وپولندا البولندية وليس فى وسع جيش پولندى أن يسير متجهاً جنوباً بشرق لمهاجمة الأتراك إلا إذا اخترق پودوليا وكذلك كان التتار والترك يتقدمون فوق خيولهم لمهاجمة البولنديين على امتداد ذلك الشريط من التربة السوداء التى تخترق سهل پودوليا الشاسع . وفى هذا الميدان المألوف للقتال حيث لا تزال تقوم حصون خربة مبعثرة منذ أيام حروب التتار فى القرن السابع عشر ، قفز فجأة إلى الشهرة كقائد عظيم اسمه « جون سوبييسكى » John Sobieski ،

---

(١) Hetman وهو لقب قديم لقائد القوزاق .

وهو نبيل پولندى ينتمى لإحدى الأسر القديمة .

إن من الأحداث القليلة الجديرة بالافتخار حقًّا فى التاريخ الپولندى اختيار هذا الجندى العظيم فى عام ١٦٧٤ لكى يكون ملكاً على پولندا بناء على انتصاره اللامع فى العام السابق فى واقعة « كوكزيم » Khoczim من أعمال پودوليا على جيش قوى كان يقوده « أحمد كوپريللى » . ففى لحظة حرجة من تاريخ الپولنديين ، نفضوا عن أنفسهم دسائس الفرنسيين واختاروا أفضل رجل ليقود الدولة فكان وميضاً نادراً من الحكمة لم يتكرر إلا عند تنصيب بدرڤسكى M. Paderevski رئيساً لوزارة جمهورية پولندا التى بعثت فى أعقاب الحرب العالمية الأولى . عندئذ استدعى الپولنديون للمرة الثانية أعظم رجالهم وأكملهم لتوجيه مصائر الدولة .

ومما يذكر « لسوبييسكى » Sobieski أنه كان كاثوليكيًّا ، ملأت قلبه محبة وطنه — وإن أخذ عليه شىء من التقلب : فقد حارب فى شبابه بنى وطنه لحساب السويد. وكان كل شىء فيه ضخماً : ضخامة بدنه المفرطة ، ثقافته الواسعة ، نشاطه فى العمل ، ترفعه عن الأحقاد والدسائس الحقيرة ، بشاشته وخصوبة مزاجه . كان أحد قواد عصره القلائل الذين كانوا يسددون ضرباتهم بشدة ، ويضربون دائماً ويجلبون النصر إلى بلادهم . فكلما ظهر ملك پولندا فى الميدان قاد الپولنديين إلى النصر . ففى عام ١٦٧٥ ألزم الأتراك بالتنازل لپولندا عن پودوليا كلها (فيما عدا قلعة كامنييك Kameniec) ، وعن ثلثى أوكرانيا . ولكن كان هدفه أعظم بكثير من انتصار محلى أو فوز يحرزه فى پودوليا ، إذ كان يحلم بحرب صليبية لطرد الأتراك من أوربا « ليذيق البرابرة » كما قال « غزواً بغزو ، وليتابع النصر عليهم تلو النصر على نفس الحدود التى لفظتهم إلى أوربا ، وفى كلمة واحدة لا يكتفى بغزو هذا الوحش وإخضاعه وإنما يقذف به بعيداً إلى الصحراء ، ويستأصله تماماً . وعلى أنقاضه يعيد بناء الإمبراطورية البيزنطية . إن هذا العمل لهو وحده العمل الشريف ، وإنه وحده العمل النبيل الحكيم الحاسم » .

ولكن أوربا لم تكن كلها معه فى هذا الرأى . فبينما كان سوبييسكى يعمل على تحريض الأعداء فى كل مكان على الأتراك ، كان لويس الرابع عشر يستخدم كافة الحيل ليضمن حياد پولندا فى النضال الذى كان معلوماً أنه على وشك الوقوع .

ولكنه أخفق فى هذه المحاولة . على أن الخصومة التقليدية بين پاريس وڤيينا كانت إحدى الظروف التى ساهمت فى قيام الأتراك بهجوم واسع النطاق هدفه المباشر ڤيينا والنهائى روما .

وإن ردّ قره مصطفى القائد غير الكفء للقيادة عن أسوار ڤيينا فى ١٦٨٣ ليؤرخ بداية ذلك العهد الطويل من الضعف الذى ألم بتركيا ثم أكدته معاهدة لوزان فى عام ١٩٢٣ . ومهدت الضربات الأولى لسوبييسكى السبيل لحرب كان الغرض منها التحكم فى أواسط الدانوب ، وقد تميزت بسلسلة من الانتصارات أحرزتها قوات الإمبراطورية إذ نجحت الإمبراطورية النمسوية العجوز باستخدامها لقوات من ألمانيا وساڤوى ، فى إلزام الأتراك بالارتداد عبر الدانوب . وفى هذه المعارك بزغت شهرة الأمير يوجين Eugene حليف مولبرا Marlborough ، وحبيب بريطانيا البروتستانتية . وقد أدى انتصاره الأخير فى « زنطه » Zenta الذى توج به سلسلة انتصاراته إلى صلح كارلوفتز Carlowitz (١٦٩٩) ، وبمقتضاه نزل الأتراك للنمسا عن كل المجر وترنسلڤانيا ولپولندا عن كل پودوليا وأوكرانيا .

على أن أحد الفتوحات المسيحية التى سجلتها هذه المعاهدة التى تؤرخ عصراً جديداً كان سابقاً لأوانه ، ذلك أن البنادقة وقد حرضهم البابا وشجعهم ارتداد الأتراك ، بدءوا حرباً لاسترداد بلاد اليونان وبمساعدة مرتزقة من الهنرڤريين وغيرهم من الألمان ، استعادوا دلماشيا وطردوا الأتراك من المورة ، وعندما أطلقوا نار مدافعهم على أثينا أنزلوا بالبارثنون ضرراً بالغاً لا يمكن إصلاحه . وفى صلح « كارلوڤز » سمح لهم بأن يحتفظوا بما حصلوا عليه من أسلاب . ولكن لم يكن مقدراً لليونان أن تكون مستعمرة للبنادقة ؛ فبعد تسعة عشر عاماً (١٦٩٩ — ١٧١٨) فى ظل أسد القديس مرقص استعاد الأتراك حكم المورة ذلك أن البنادقة الذين كانوا تحت زعامة « فرنتشسكو موروسينى » Francesco Morosini من القوة بحيث استطاعوا أخذ المورة لم يتمكنوا من الاحتفاظ بها . ليس هناك من اليونانيين من يحب الإيطاليين ، كما أنه ليس هناك يونانى أرثوذكسى يحب كاثوليكيًّا رومانيًّا ، وكذلك لم يرحب تجار بحر « إيجه » بقواعد الاحتكار الصارمة التى فرضها البنادقة . وانتهى حكم جمهورية البندقية الضعيف فى اليونان غير مأسوف عليه ؛ إذ أخفقت فى إثارة

حماسة شعب قد هوت به قرون طويلة من الظلم لنداء العقل اللاتيني ، شعب كان قانعاً تماماً باعتبار السلطان رئيسه الزمني وبطريق القسطنطينية رئيسه الروحي .

ولم تكن دعوة الڤاتيكان هي التي ردت جيوش الإسلام في القرن الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين . فقد كان « جون سوبييسكي » هو آخر من نفخ في بوق جودفري بويون Godfrey de Bouillon [1] ، هذا بينما كانت الشيع الكاثوليكية والبروتستانتية تتناحر على السلطان في بلاط شارل الثاني ملك إنجلترا ، ولويس الرابع عشر يغزو الأراضي المنخفضة الإسپانية ، ويمد السلطان بالمال . أما القوة الحقيقية التي فجرت الإمبراطورية العثمانية العجوز فلم تكن قوة رومانية بل يونانية ، لم تكن قوة عالمية بل قومية . كانت هذه القوة هي تصميم الشعوب المسيحية المغلوبة على أمرها في شبه جزيرة البلقان من يونان وصرب وبلغار ورومانيين على خلع نير الاستبداد التركي والتمتع بحياة قومية مستقلة . أما كيف نضج ذلك الشعور بطيئاً بين شعوب البلقان وكيف حصلوا على تأييد الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا تأييداً مستمراً وكذلك تأييد دعاة الجامعة الصقلبية ، وشجعتهم مطامع القياصرة في التوسع حتى أدت القومية الصربية في النهاية تؤيدها روسيا وتصبح خطراً يهدد بنسف الإمبراطورية النمساوية ، أدت إلى الحرب العالمية الأولى في ١٩١٤ ، أما كيف حدث ذلك فهذه كلها أمور سنقص نبأها عليك فيما بعد . وعندئذ ستلاحظ كذلك أنه عندما يسقط قياصرة أسرة رومانوف وتشغل روسيا بالثورة تعود فرنسا إلى سياستها التقليدية القديمة فتعاون الأتراك على الاحتفاظ بالقسطنطينية .

في تلك الأثناء خلقت انتصارات الأمير يوجين . التي أعادت كافة بلاد المجر إلى النمسا — لأباطرة الهاپسبورج مشكلة من أعوص مشكلات الحكم الداخلي لم تكن لتحتمل — على غرار المسألة الإنجليزية الأيرلندية — أي حل سهل مرض . لقي أرشيدوق النمسا في مملكة المجر الانتخابية طبقة نبلاء متعجرفة يسيطرون على رعايا شعب أجنبي ،

---

(١) جودفري بويون : حوالي (١٠٥٨ — ١١٠٠) دوق اللورين السفلي وأحد قواد الحملة الصليبية الأولى . انتزع بيت المقدس من المسلمين وانتخب ملكاً على مملكة بيت المقدس في يولية ١٠٩٩ ، على أنه آثر أن يلقب « بحامي القبر المقدس » . وخلفه في الملك عند وفاته أخوه بلدوين .

وتتكلم لغة لا يعرفها إلا القليل من الألمان وتعتز بعادات لا يشاركها فيها أى ألمانى ؛ ومنهم أسر كثيرة پروتستانتية ، منهم كثيرون وقفوا أجيالا عديدة إلى جانب الأتراك ، فهم أرستقراطيون من ملاك الأرض المحاربين ، غلاظ الطبع ، نصف شرقيين ، أقرب فى طباعهم إلى البولنديين منهم إلى الألمان ، لا انسجام بينهم وبين أوساط ڤيينا الموسيقية والفنية . فكيف يتأتى للإمبراطور أن يعامل ذلك الشعب العصى المتوقد حماسة نصف الوثنى ؟ وكيف يرتب علاقاته مع التيوتون والسلاف ؟ كيف يتأتى له أن يجعل من هذه الأجناس المتنوعة المتناقضة دولة ملكية كاثوليكية وطيدة الأركان؟ هل من الممكن أن يجمع كل هذه الشعوب تحت سلطة مركزية عليا ويؤلفها جميعاً على غرار ما فعل فى بوهيميا ؟ أكان من الممكن إقامة نظام اتحادى يشارك فيه كل جنس بنصيبه العادل من السلطان ؟ أم كانت الوسيلة العملية المثلى أن يضع السلطة فى أيدى الألمان والمجيار بوصفهم أكثر الشعوب رجولة وقدرة على الحرب ، ثم يترك لكل منهم حكم رعاياهم المتبربرين ؟

حاولت الإمبراطورية النمسوية العجوز حل تلك المشاكل فى القرنين الثامن عشر ، والتاسع عشر ، ثم كان شأنها شأن الإمبراطورية العثمانية فتفككت بعد الحرب العالمية الأولى بقوة انفجار الروح القومية فى داخلها . وقد كان للإمبراطورية النمسوية كثير من المعجبين ممن تلمسوا لها الأعذار من بين أولئك الذين يعتبرون القومية أفظع لعنة سياسية نزلت بالجنس البشرى . وكان مثل هؤلاء شديدى الإعجاب بهذه الدولة الكاثوليكية التى وجه اليسوعيون سياستها الدينية والتى نشرت بين رعاياها رسالة الدين والتهذيب ، وقد كان الكثيرون منهم فى بداية القرن الثامن عشر لا يزالون أنصاف برابرة وأنصاف وثنيين ؛ وهم يرون فيها محاولة لتحقيق المثل الأعلى لمجتمع مسيحى ينتظم كافة الأجناس واللغات على نطاق ضيق ، وكان هذا الهدف الذى اشرأبت لتحقيقه الكنيسة على الأرض . وهم فى السلام النمسوى كما فى السلام البريطانى ، فإنهم إذا كانوا من الكاثوليك فإنهم سيفضلون سلام النمسا على بريطانيا ، يتطلعون إلى لون من ألوان الحكم يعلو على الدولة القومية لأنه يستمد من القومية بعض مبادئها الداعية إلى اتحاد البشر على مستوى أعلى وأرحب وهم يقدرون الصعاب التى كانت الإمبراطورية النمسوية العجوز تعمل تحت وطأتها

والمظالم التى ارتكبتها ، وكراهة الشعوب لها كراهة ذهبت مثلا . ولكنهم مع ذلك يأسفون لاختفائها . كانت الحكومة النمسوية ــ كما بدت ــ تبدو غالباً ثقيلة ، عاتية ، جاهلة ولكنها مع ذلك ظلت تجمع فى رقعة واسعة وعرة من أوربا شعوباً متباينة ، سريعة الالتهاب ، تضفى عليهم مسحة من حضارة الغرب اللاتينية والتيوتونية .

ولو قد قامت الإمبراطورية النمسوية على غرار الولايات المتحدة الأمريكية على أساس الارتباط الحر لولايات تتمتع بالحكم الذاتى لتمكنت من تحدى عواصف الزمن بأمان . ولكن لم يتوافر لها أساس القبول الذى لابد منه . فكانت الدولة نتاجاً عارضاً لزيجات أسرية لم تتضمن ما هو أسمى من مجرد الولاء للأسرة الحاكمة ، ولا تعتمد على أى أساس من العادات المشتركة ، وأقامت وحدتها الدينية على أساس الاضطهاد . وهكذا راح اليسوعيون والجنود ورجال البوليس يشدّون هذا البناء بعضه إلى بعض ، ولولا هذه الروابط المصطنعة (الميكانيكية) لانحل البناء إلى عناصره . وقد عاش الناس فى الإمبراطورية النمسوية القديمة عيشة مرحة ، سعيدة ومثمرة ، لقد كانت دولة كاثوليكية وملكية فى نظامها ، أقامت معتقداتها على العرف ، استمتع الناس فيها استمتاعاً كاملا ورائعاً بالفنون والعلوم التى يمكن العثور عليها بسهولة حيث يكثر اليهود ، على أن الإمبراطورية كانت تفتقر إلى الروح السياسية ونسمات الحرية .

ولكن ذلك كان أمراً سابقاً لأوانه . لقد كانت النمسا فى النصف الأول من القرن السابع عشر على رأس الحربة لحركة الإصلاح الكاثوليكى والقضاء على حريات الشعب البوهيمى . ثم قدمت بعد ذلك خدمتين لأوربا لقيتا ترحيباً من الروح السائدة فى إنجلترا إذ ذاك بقدر ما كانت أعمالها الأولى كريهة وهما دفع الخطر التركى عن الحدود الشرقية ، وما قدمته فى الغرب من مساعدة صادقة كان لا غنى عنها للدولتين البحريتين البروتستانتيتين خلال صراعهما العنيف ضد فرنسا الكاثوليكية . ولعل الاستدلال على سياسة الدولة بناء على معتقدات أبنائها الدينية أمر ضئيل الأهمية لدرجة أن دعم استقلال الجمهورية الهولندية وتقسيم الإرث الإسبانى العريض وتوطيد وراثة العرش الإنجليزى للبروتستانت ، كل هذا يعزى بدرجة كبيرة إلى الجهود الحماسية التى بذلتها الدولة النمسوية القديمة التى سيطر اليسوعيون على

مصائرها ، تلك الدولة التى لفظت آخر أنفاسها بهدوء فى معاهدتى سان جرمان St. Germain وتريانون Trianon (١٩١٩ – ١٩٢٠) .

كتب يمكن الرجوع إليها

— W.R. Morfill : Poland (1893).

— Dyboski : Poland (Nations of the Modern World), (1933).

— N.A. de Salvandy : Histoire du Roi Jean Sobieski 2 vols. (1876).

— J.B. Moston : Sobieski, King of Poland, (1932).

— W. Coxe : House of Austria (1847).

— C. Finlay : History of Greece. Ed. H.F. Tozer (1877).

الفصل السادس والعشرون

السلام وبروسيا

عصر الاستنارة – الصداقة الإنجليزية الفرنسية – الخطر الإسپانى – شارل السادس والضمان الوراثى . حرب الوراثة الپولندية – فرنسا تحصل على اللورين – والبول Wolpole وفليرى Fleury . خصائص حروب القرن الثامن عشر – نهوض بروسيا – التوزيع الجغرافى للدولة البروسية – أسرة هوهنزلرن Hohenzollern – طبائع البروسيين – فردريك وليم الأول .

أعقب حرب الوراثة النمساوية فترة من الهدوء النسبى نادرة الحدوث فى تاريخ أوربا وبعيدة الأثر فى تقدم حضارتها . ذلك أن معاهدة يوترخت Utrecht ١٧١٣ التى قامت على أساس مجموعة من الموافقات الحكيمة ، لم تخلف إحناً تدعو إلى مشاحنات عاجلة . فعلى الرغم مما منيت به النمسا وإسپانيا من خيبة الأمل . فالواقع أن سائر الدول المتحاربة قد أفادت من تقسيم الإرث الإسپانى . وكان السلام شرطاً جوهرياً لضمان سلامة حكومتى فيليب أورليان الوصى على عرش فرنسا وجورج الأول ملك إنجلترا وقد كانتا حكومتين ضعيفتين غير مستقرتين .

ومن الأمور الملائمة أن جاء عصر العقل بشيراً بإيذان عهد غير مألوف من التحالف السياسى بين إنجلترا وفرنسا ، وقد كان التعاون الفكرى بين الأمتين أهم معالم القرن الثامن عشر . وقلما أخفقت الجيوش الإنجليزية والفرنسية المتحالفة منذ أيام يوليان الصابئ حتى انتصارات هيج Haig و فوش Foch . وكذلك انتصرت دبلوماسيتهما المشتركة ؛ فأنقذت أوربا من اندلاع حرب عامة مدى خمسة وعشرين عاماً (١٧١٣ – ١٧٣٩) . حقاً إن أوربا لم تستطع تجنب الحرب تماماً ، فقد حدث صدام بين إسپانيا والنمسا ، وبين إنجلترا وإسپانيا ، وأخيراً دارت حرب حول مسألة الوراثة الپولندية بين فرنسا وقوات إسپانيا وساڤوى من جانب والقوات

(١) انتصارات هيج وفوش : هى الانتصارات التى أوقفت الهجوم الألمانى الأخير الذى دبره لودندورف فى ١٩١٨ لكسب الحرب فى الجبهة الغربية ؛ وكانت خطته تقضى بفصل القوات الفرنسية عن القوات الإنجليزية وضرب كل منها على حدة .

النمسوية والروسية المشتركة من الجانب الآخر . على أنه يبدو أن تلك الخصومات قد خلت من عنصر الاستمرار الوحشى . كره كل من فليرى الشحيح المتعصب ووالپول الاقتصادى الضليع ما تقتضيه الحروب من نفقات وسرف زائد . فإذا كان لا مفر من الحرب ، ولم يكن فى وسعهما تحاشيها تماماً ، فقد صمما على أن تكون معتدلة النفقات ، محدودة المجال ، على أن يعملا على إنهائها فى أول فرصة مواتية .

وقد يبدو غريباً لأولئك الذين قدروا العوامل الكثيرة التى من شأنها أن تجمع بين فرنسا وإسپانيا ؛ كميراثهما المشترك للتقاليد اللاتينية الكاثوليكية ، وتعرض مستعمراتهما لمنافسة الإنجليز والهولنديين ، وخضوعهما المشترك لأسرة البوربون ، واستبعاد عامل الخلاف الوحيد الذى سمم العلاقات بينهما مدة طويلة — ألا وهو انتقال الأراضى المنخفضة من حكم إسپانيا إلى النمسا بمقتضى معاهدة يوترخت ، وقد يبدو غريباً فى نظر أولئك أن فرنسا آثرت محالفة إنجلترا على إسپانيا فى أى وقت تلا ذلك التاريخ . على أن العلاقات بين الدول غالباً ما تتأثر بالأحداث الشخصية . إذ ترك لويس الرابع عشر على عرش فرنسا طفلا بلغ من الضعف درجة جعلت من المشكوك فيه أن يبلغ مبلغ الرجال ، ولم تؤمن وراثة العرش فى الفرع المباشر للأسرة إلى أن أنجب لويس الخامس عشر وليًّا للعهد فى عام ١٧٢٩ ولذلك كان متوقعاً فى تلك الفترة أن يطالب فيلب الخامس أول ملوك البوربون فى إسپانيا بعرش فرنسا على الرغم من تنازله عنه رسميًّا . ولم يكن أحد فى باريس يؤيد فيلب وكان احتمال استبداله ڤرساى بمدريد — هذا الاحتمال الذى لم يرحب به أحد — كان كافياً لأن يبذر بذور الشقاق بين دولتى البوربون لسنوات كثيرة ويدعم الصداقة التى لم تزل محفوفة بالمخاطر بين إنجلترا وفرنسا .

وكانت مطامع إليزابيث فارنيز Elizabeth Farnese مصدر الخطر الأول الذى تعرض له أمن أوربا ، وهى الزوجة الثانية لفيليب الخامس ملك إسپانيا ، وكانت لا تتورع عن إشعال نار الحرب فى أوربا لتحصل على دوقيتى بارما Parma ، وتسكانيا Tuscany كصداق لأولادها . وقد لاقت إرادة هذه المرأة العنيفة المسيطرة تأييداً من إيطالى من أحد أبناء منظمى الكروم كان ذا دهاء متألق ، وقد ظلت ذكرى نشاطه العظيم ووحيه ماثلة طويلا فى نفوس الناس فى البلد الذى اتخذه وطناً له (إسپانيا) على

الرغم من مظهره الخشن . ولو كانت أحلام الكاردينال ألبرونى قد تحققت كلها لطرد النمسويين من إيطاليا ، وأسرة هانوفر من إنجلترا ، والوصى على العرش من فرنسا ، وانضوت هذه الأقطار الثلاثة تحت لواء إسبانيا ، وقد بعثت من جديد . ولكن أحبط هذه الخطط البعيدة المدى الاتفاق الفعال بين حكومتى فرنسا وإنجلترا. فدمرت البحرية الإنجليزية أسطولا إسبانياً تجاه ساحل صقلية ، كما مزقت العواصف أسطولا آخر فى خليج بسكى كان يحمل المساعدات إلى اليعاقبة فى أسكتلندا .

وكشفت مؤامرة دبرت لاختطاف الوصى فى باريس . واضطر الكاردينال الجرىء الذى لم يتورع عن مهاجمة النمسويين ، بينما كانوا مشتبكين بتشجيع من البابا فى حرب ضد الأتراك ، اضطر بضغط مشترك من إنجلترا وفرنسا إلى اعتزال خدمة إسبانيا .

وهكذا أخفقت خططه كلها وبسقوطه عام ١٧١٩ نشلت أول محاولة لتعديل تسوية يوترخت تعديلا أساسياً ، ولكن إليزابيث فارنيز التى لم ترهبها الأحداث لم تشف من أطماعها ، فثابرت فى خططها لصالح أبنائها . فالغايات التى كان ألبرونى يأمل فى تحقيقها بمهاجمة النمسا هجوماً مباشراً ، حاول ريبردا Ripperda الهولندى وهو وزير خارجية آخر دخل فى خدمة إسبانيا مرة أخرى (١٧٢٥) حاول تحقيقها بتفاهم وثيق مع بلاط ڤيينا وأصبحت أوربا على شفا حرب عامة . وبذلك أطل برأسه شبح سيطرة النمسا وإسبانيا ، كما هدد أسرة هانوفر اتفاق سرى بين حزب اليعاقبة وأعداء إنجلترا من الأجانب — على أنه للمرة الثانية أنقذ السلام فى أوربا تفاهم ودى بين حكام فرنسا وإنجلترا العقلاء .

كان يحكم النمسا عندئذ ذلك الرجل الذى حاولت إنجلترا عبثاً أن تضعه على العرش الإسبانى ، وأنفقت فى سبيل ذلك كثيراً من الدماء والمال . خلف شارل السادس على غير توقع أخاه جوزيف فى ڤيينا ، وقد كان من أصلب أفراد أسرة هابسبورج عوداً ، أبدى إنكاراً لجميل الإنجليز الذين ساعدوه فى الماضى ولكنه تشبث فى عناد بادعاءات الماضى ، وكان من الغباء بحيث إنه لولا ظرف واحد كاد يثير فى أوربا من المتاعب ما يعدل ما فعلته إليزابيث فرنيز ، لم يعقب إلا بنتاً واحدة

ووفقاً للقانون السالى [1] لا حق لها فى وراثة العرش النمسرى ، فاضطر أن يناشد دول أوربا الكبرى قبول قرار أسرى عرف باسم الضمان الوراثى ، الذى رتب — على الرغم من العوائق القانونية — لماريا تريزا وراثة دولة الهابسبرج كاملة دون تقسيم . وإن عاهلا يجرى وراء معروف سياسى من آخرين لن يكون فى أفضل مركز للحصول على مزايا . ولم يبطئ الساسة الأذكياء فى لندن وباريس فى وضع الصفقة موضع المساومة التى وضعتها الأقدار فى أيديهم . فكان الثمن الذى طلبوه غالياً . أرضى شارل والدول بإلغاء شركة الهند الشرقية فى أوستند التى كانت تهدد مصالح إنجلترا فى المحيط الهندى . أما الفرنسيون فقد بالغوا فى الثمن فكانوا أكثر ترذيقاً ، فقد استغل الكاردينال فلورى رئيس وزرائهم المحنك حاجة الإمبراطور فانتزع منه إعادة الدوقية اللورين إلى فرنسا .

وقد أتاحت الفرصة لهذا التنازل الأخير حرباً من تلك الحروب المحدودة القصيرة التى ميزت هذه الفترة التى اتسمت بالأطماع الدبلوماسية المعتدلة ، والانقسام المادى ، وهى حرب الوراثة البولندية ، وقد نشأت من أن لويس الخامس عشر الذى كان متزوجاً من مارى ابنة « ستانسلاس ليزنسكى » Stanislas Lesczinski أراد — معتمداً على عوامل سياسية وأسرية — أن ينصب حماه ملكاً على العرش البولندى . وكانت سياسة حمقاء كما رآها فليرى لأن روسيا كانت تعضد النمسا فى مؤازرة أغسطس المرشح السكسونى ، كما كانت تملك جيشاً ، على حين كان الفرنسيون على بعد فراسخ من مسرح الحوادث البولندية .

كان أمراً عقيماً أن تفترض أن فرنسا تستطيع أن تحقق أهداف الحرب بعمليات فى سهول بولندا البعيدة ، إذ كانت أملاك الإمبراطورية فى إيطاليا وعلى نهر الراين بالنسبة إلى فرنسا تقدم أهدافاً أقرب وأكثر عملية ، ولذلك كانت إيطاليا المسرح

---

(١) القانون السالى : قاعدة فى نظام الوراثة عند بعض الأسرات المالكة والنبيلة فى أوربا وتقضى بمنع الإناث وأخلافهن من وراثة العرش أو بعض المناصب الهامة . سمى بالسالى نظراً لافتراض خاطئ يقول إنها كانت جزءاً من قانون الفرنجة السالين . وكان معمولا بهذا القانون فى فرنسا وإسبانيا وبروسيا . وكان ذا أهمية خطيرة فى حقب من تاريخ هذه الدول .

الذى شنت فيه حرب الوراثة البولندية القصيرة (١٧٣٣ — ١٧٣٨) . وهناك نجحت فرنسا بمساعدة قوات إسپانيا وساڤوى غير المتجانسة أن تنزل بأعدائها على الرغم من تقلبات الحظ ضربة سريعة المفعول : فطرد جيش إسپانى تحت قيادة الجنرال «منتمار» Montemar النمسويين من ناپولى . وأقام هناك فرعاً من أسرة البوربون ، ذلك الفرع الناپولى المنكود الطالع الذى أثار بطغيانه سخط جلادستون Gladstone واحتقاره والذى قضى عليه جيش غاريبالدى من ذوى القمصان الحمراء .

وكان الاستيلاء على مملكة ناپولى أهم ضربة فى هذه الحرب التى شنت بهمة فاترة على نطاق ضيق وفى تقتير شديد ، وانتهت عند أول فرصة سنحت بانتهائها . وقد كان من الطبيعى أن يثور الإمبراطور لرفض إنجلترا وهولندة التدخل فى النزاع ، ولما كان نجاح القوات الإمبراطورية فى پولندا قد قابله فشلها فى إيطاليا ، أظهرت ڤيينا استعداداً لبحث عروض فليرى للصلح . وتعتبر هذه المعاهدة المعروفة بمعاهدة ڤيينا الثالثة (١٧٣٨) التى أنهى بها الكاردينال العجوز المسألة الپولندية أنموذجاً جميلا للدبلوماسية الفرنسية . ومع أن الكاردينال قد أنفق القليل وجازف بالقليل ، فقد استطاع أن يحصل على نفع عظيم من حرب غير منطقية لم يرحب بها أحد . فتقرر أن يتزوج فرانسوا دوق اللورين من ماريا تريزا ، وارثة العرش النمسوى وأن يتولى عرش تسكانيا عند موت آخر حكامها من أسرة مديتشى . وفى مقابل هذه الآمال البراقة تم الاتفاق على أن يتنازل فرانسوا لستانسلاس عن اللورين وأن تؤول المقاطعة إلى فرنسا عقب موت ملك پولندا العجوز . ولم يتوقف المؤرخون الفرنسيون قط عن تهنئة أنفسهم على تلك المهارة التى بفضلها استخرجت فرنسا وسط مرارة فشل آمالها فى پولندا إقليم اللورين بعمل براق لم يكن متوقعاً من أعمال الشعوذة وخفة اليد . ولكن كان من المتعذر أن تتم هذه المعجزة لولا أمرين : حاجة شارل إلى موافقة فرنسا على الضمان الوراثى ، وتصميم والپول على المحافظة على السلام . وهكذا انتهت الحرب الپولندية ولم تتعد بعض المعارك وأعمال الحصار ، وكان من الممكن أن تجلب الخراب على أوربا . وإذا استثنينا حلول ملك بوربونى فى ناپولى محل ملك هاپسبورجى ، وأن فرنسا قد ضمنت الاستيلاء على اللورين ، فيما عدا ذلك لم يحدث فى الواقع تغيير فى خريطة أوربا السياسية . وقد نشطت الدبلوماسية فى

العمل خلال هذه الأعوام الخمسة والعشرين : فكان عهداً حفل بالمؤامرات والمحالفات الثلاثية والرباعية والإنذارات بخطر الحرب والمؤامرات والدسائس من كل نوع . على أن وراء هذه الحركات التي لا تنتهى كان يكمن – لحسن الحظ – فى لندن وباريس عزم صادق على المحافظة على السلام ، يوجه أعمال الشخصيات الهامة .

إن التفاهم الفرنسى الإنجليزى الذى بدأه ستانهوب Stanhope السيد الإنجليزى المهذب بالاتحاد مع « ديبوا » Dubois المحتال الفرنسى الماهر قد أكمله ووطده سياسيان أعظم منهما بكثير واصلا عملهما . قد يكون من الصعب أن نتصور تبايناً أحد من ذلك الذى كان بين الكاردينال « فلبرى » رئيس وزراء فرنسا حين كان بين الرابعة والسبعين والتسعين من عمره وبين سير « روبرت والبول » الذى سيطر على مسرح السياسة فى إنجلترا مدة أطول من هذه . فالأول مفكر نحيل ، عاقل ، صبور ، رصين ، لا نظير له فى مهارته الدبلوماسية ، نزه نفسه عن العواطف الجارفة ورذائل العالم ؛ أما الآخر فهو سيد من نورفولك خشن الطبع ومحب للهو ولكنه كان أفضل اقتصادى وبرلمانى فى عصره . على أنه بقدر ما يمكن أن يكون فى وسع أى رجلين عمله لإخماد غرائز الحرب فى أوربا وهب هذان الحليفان العجيبان تلك الميزة . فكل منهما فى سعيه لإدراك مصالح أمته اضطر أن يسلك نفس الطريق الذى سلكه زميله ، وهو الطريق إلى السلام العالمى [1] .

لم تكن حروب القرن الثامن عشر نتيجة حركات شعبية أو عنصرية واسعة النطاق ، تؤيدها وتشجعها صحافة قوية . على أنه قد حكم على الشعوب بصفة عامة أن تحتمل نفقات حروب لم يكن لها يد فى إثارتها ولم تكن تهمها إلا قليلا . وليس معنى ذلك أن حكومات القرن الثامن عشر فى سعيها لتحقيق أهدافها التى كانت غالباً أهدافاً أسرية لم تكن بعيدة تماماً عن الرأى العام خارجها . فكان ملك فرنسا يستمع لنبلائه سريعى الغضب ، وربما كان فى وسع الملكية الإسبانية أن تعتمد دواماً على تأييد عواطف شعبها فى محاولة طرد الإنجليز من جبل طارق .

على أن العداوات التقليدية الكبيرة على الرغم من مخالفتها للعقل وعدم ملاءمتها

(١) ويتفق مع هذا قيام قدر كبير من الاحتكاك الدبلوماسى بين الدولتين بعد عام ١٧٣١ .

للظروف (كالخصومة بين فرنسا والنمسا ، وبين إنجلترا وفرنسا) قد تغلغلت فى الشعور القومى تغلغلا بعيد المدى حتى عز اقتلاعها على جيل من الدبلوماسية الأصيلة . وقد بذل كل من والپول وفليرى فيما بينهما الجهود للإبقاء على خريطة أوربا كما رسمتها معاهدات الصلح فى يوترخت Utrecht ورشتاد Rastadt . على أن عبر التاريخ الأوربى تشير إلى أن أوربا لم تعرف مطلقاً الاستقرار بل كانت دائماً غير مستقرة وقلقة . وفى السنوات الأخيرة من حياة كل من والپول وفليرى انبعثت على مسرح الحوادث قوة جديدة مروعة لا حد لقدرتها . فأقحمت القارة فى حرب عامة مدمرة . وكانت هذه القوة هى بروسيا فى عهد فردريك العظيم .

وعلى حين كانت إنجلترا تنمو ، كانت بروسيا « تصنع » . ولم يبد على الملامح السياسية لألمانيا حتى النصف الثانى من القرن السابع عشر ما يعلن عن ظهور هذه الدولة القوية حتى أنجبت أسرة هوهنزلرن التى كانت تحكم براندنبرج Brandenburg منذ عام ١٤١٧ قد أنجبت للمرة الأولى رجلا عظيماً بمعنى الكلمة . وهو فردريك وليم المعروف بالمنتخب الأعظم . انتصر على السويديين فى معركة « فهربلن » Fehrbellin سنة ١٦٧٥ ، وإن كانت شيئاً ضئيلا فى حد ذاتها إلا أنها كانت إرهاصاً للعظمة الآتية فى قابل الأيام . وأظهر فردريك عقب انتصاره هذا إدراكاً لما ينبغى أن تكون عليه الحكومة القديرة أوضح مما كان شائعاً فى عصره . وقد ورث فردريك ملكاً قليل السكان مقسماً ، لا يبشر بخير ، ومن هذا الإرث صنع فردريك وليم نواة دولة حديثة بتشجيعه الدائب على الهجرة وإصلاحاته الإدارية والعسكرية (إذ كان يعتبر شعبه مادة يشكلها ويتصرف فيها على هواه) . ذلك لأن فردريك وليم لم يترك شيئاً للهواية أو الصدفة . وقد أبان عن طبيعة طموحه بما تطلع إليه من إقامة جيش وأسطول وإدارة مدنية وبريد منتظم ونظام متدرج للضرائب بل مستعمرة فى أفريقيا . على أنه لم يكن من الممكن تحقيق كل ذلك : فالمستعمرة انهارت أمام منافسة الهولنديين القوية ؛ والأسطول كان عليه أن ينتظر حتى أيام « ترپتز » Tirpitz والقيصر وليم الثانى ، غير أن مطامع بروسيا الكبيرة قد ظهرت .

لم يعد لقب منتخب يكفى لخليفة فردريك وليم . وحصل فردريك (١٦٨٥—١٧١٣)

فى عام ١٧٠١ من الإمبراطور نظير مساعدات سيقدمها له على حق تتويجه ملكاً على بروسيا . وقد استنكر الشعور الدينى فى أوربا تتويجه لنفسه فى كاتدرائية كونجزبرج Konigsberg. وتوددت الدول الأوربية بحماسة للمملكة البروتستانتية الجديدة لتحصل على تحالفها . وقامت الجيوش البروسية بدورها فى حروب مولبرا وروت بدمائها مواقع بلنهايم Blenheim ، وراميللى Ramillies ، وأودينارد Oudenarde .

ولكن ضعف الدولة البروسية كامن فى تشتتها الجغرافى : فهى مقسمة إلى ثلاثة أقسام : فبراندنبرج تقع فى الوسط وهى الثغر الأمامى (March) « لهنرى الصياد » Henry the Fowler أمام هجمات الوند Wends ؛ على حين تقع دوقية بروسيا بعيداً جهة الشرق عبر كتلة من الأرض التى كانت ردحاً من الزمن ألمانية ثم أخضعتها پولندا لحكمها فى الفترة بين ١٤٦٦ ، ١٦٦٠ ؛ بينما تقع بعيداً جهة الغرب فى منطقة الراين الدوقيات الصغيرة « كليڤ » Cleves ، و « مارك » Mark ، و « راڤنزبرج » Ravensberg . وقد بسط عليها المنتخب الأعظم سيادة تامة معترفاً بها منذ عام ١٦٦٦ . ولم يكن ثمة ما يحتم قيام صلات بين هذه البقاع المتفرقة التى لم يكن أحد يظن أن ستقوم منها دولة واحدة ، وإنما هى الصدفة التى جمعت بينها تحت حكم ملك واحد . وكذلك الصدفة قد تكون بفض المشاركة القائمة بينها : إذ سار تاريخ دوقية بروسيا أو بروسيا الشرقية فى طريق على حين سار تاريخ براندنبرج فى طريق آخر . كانت بروسيا الشرقية جزءاً من أراض يسكنها فى الأصل شعب بدائى وثنى غير ألمانى دفعته إلى الدخول فى المسيحية الإرادة الحديدية لطائفة الفرسان الألمان الذين حكموهم مدة قرنين ، إلى أن ضعفت الطائفة بسبب نمو قوة پولندا العسكرية ، ومن ثم أصبحت بروسيا الشرقية مقاطعة تابعة للتاج الپولندى . ولم يكن تاريخ براندنبرج المبكر خيراً من ذلك كثيراً . فلم تتخلص هذه المنطقة من الاضطراب الذى تعرضت له كل الأراضى الألمانية بالتقسيم تارة وإعادة التقسيم تارة أخرى ، والرهن تارة ثالثة ، إلا بقدوم أسرة هوهنزلرن . وهى إحدى الأسرات القديرة فى أوربا . وعندما كانوا Burgraves فى نورمبرج Nuremberg عاشوا فى كنف الرعاية الإمبراطورية ، على إيراد الرسوم المقررة فى تلك المدينة المزدهرة . قد استخدموا سلاح المدفعية فى براندنبرج عندما كان لا يزال حديث

العهد ، واعتنقوا اللوثرية عندما ثبتت ثم الكلفنية فى الوقت المناسب حين فتحوا أحضانهم مرحبين بالهيجونوت الملحدين اللاجئين من فرنسا ، وفرضوا على رعاياهم اللوثريين سياسة حكيمة ومجدية تقوم على التسامح الدينى تجاه المذاهب البروتستانتية المخالفة لمذهبهم . ومع ذلك فقد أعوزهم فن واحد . هو أن أهالى براندنبرج عجزوا عن كسب ود البروسيين . فمما تجدر ملاحظته أنه فى كلا المرتين فى عام ١٦١٧ عندما اعترف ملك پولندا « بجون كازيمير » John Casimir حاكماً على تلك المقاطعة الپولندية ، وفى عام ١٦٦٠ عندما حاز المنتخب الأعظم السيادة التامة على الدوقية ، أبدى أهالى بروسيا انزعاجاً شديداً . والحق أن القوة وحدها كانت السبيل للتغلب على معارضة الدايت فى بروسيا الشرقية فى ذلك العام .

وللبروسى طابع أوربى خاص به . فجوته Goethe الذى عاش فى ڤيمار Weimar والذى يمكن اعتباره ممثلا لوجهة نظر الألمان من الطبقة الوسطى يتكلم عنهم كأنهم من المتبربرين . فقد كان فى هذا الشعب العجيب حيوية وخشونة عجيبة ، اختلفت تماماً عن الإحساسات الرقيقة التى تميز بها السكسونيون والفرانكونيون وأهالى بلاد الراين ، فما هى العوامل التى تعزى إليها خصائص الجنس البروسى ؟ أتعزى إلى الدم السلافى الذى يجرى فى عروقهم أم إلى المناخ القاسى فى شمال ألمانيا ، أم إلى التقاليد العسكرية الصارمة التى تفرضها الطبيعة على دولة لا تحميها حدود جغرافية ، أم تعزى إلى هذه العوامل جميعاً ؟ وبأى نسبة ؟ كل هذه أسئلة لا سبيل إلى الإجابة عنها إجابة حاسمة . ويكفى أن نذكر أنه قبل أن ينتصف القرن الثامن عشر أدرك العالم أن هذا الشعب الحى المسيطر الذى لم يتزود إلا بالقليل من متع الحياة قد أصبح بما عرف عنه من القصد والاعتدال والنظام والمهارة فى استخدام السلاح والقدرة البطولية على التضحية ، أصبح يمثل مشكلة جديدة خطرة بالنسبة إلى ساسة أوربا .

ومما يميز البروسيين عن سائر الألمان إدراكهم الدقيق للواجب نحو الدولة . فقادتهم لم يكن بوسعهم أن يعتمدوا على قدرة البروسيين على وزن الأمور ، فإن هذا الشعب الصلب لم يفكر قط فى شئون السياسة ، ولكنهم اعتمدوا على طاعة البروسيين طاعة عمياء دون تذمر لأوامر القيادة كما اعتمدوا على إيمانهم بأن كل عمل ينبغى

أن يؤدى بأمانة . فبروسيا أرض الأوامر القاطعة — وليس ذلك فقط. لأن عمانوئيل كانت Emmanuel Kant صاحب نظرية الواجب لمصلحة الواجب — كان بروسياً لحماً ودماً ، ولكن كذلك لأنه ما من مكان آخر فرض فيه احترام الواجب بمثل هذه القسوة والتوفيق . وفى هذا الصدد ضرب الملك فردريك وليم الأول أبو فردريك الأكبر مثلا واضحاً — وما من دولة كانت تستطيع أن تطلب ملكاً أكثر منه اقتصاداً أو أكثر منه تمثيلا لأفضل خصائص شعبه فى بساطته وتقديره للواجب وحياته المتقشفة .

وإن بروسيا لتدين بالشيء الكثير لحكم هذا الملك حسن العشرة غريب الأطوار ؛ تدين له بجيش عظيم مدرب أحسن تدريب وإدارة مركزية ونظام قويم لتعليم الشعب ، ونظام دقيق لجباية الضرائب ووضع الميزانية ، وخزانة عامرة . ومع ذلك فإن الرجل كانت له عقلية مدربى العساكر كما كان جلفاً ، وحشى الطباع جمع جيشه من العمالقة (المردة) كما يجمع تاجر الرقيق عبيده . وقد حطمت هناءة بيته ثورة عاصفة لم تخل من الجنون . ومما يدل على الإرهاق الوحشى الذى ارتبط لدى فردريك وليم بأخلاق العهد القديم أنه عندما تشاحن مع ابنه الموهوب الذى لم يكن يفهمه أحد وقع عليه عقوبات منها أنه ألزمه بأن يشهد قطع رأس رفيق صديق عزيز لديه .

ولكن ذلك لم يمنع فردريك فى مغرب حياته من أن يعترف — اعتراف المؤرخ — بالفضل لذلك الأب الذى حطم استبداده الوحشى هناءة شبابه فكتب : « فى عهد فردريك الأول أصبحت برلين أثينا الشمال ؛ وفى حكم فردريك وليم الأول غدت إسبرطة الشمال ، إذ عمت الروح العسكرية حكومتها كلها . وأصبحت العاصمة قلعة للحروب (قلعة مارس) . فازدهرت كافة الصناعات التى تخدم أغراض الجيوش . فأقيمت فى برلين مصانع البارود ومسابك المدافع ، ومصانع البنادق وما إلى ذلك . ولم يحفل فردريك وليم الأول بإنشاء صناعات جديدة قدر اهتمامه بالقضاء على النفقات التى لا فائدة منها . فقديماً كانت المآتم تكلف غالياً لدرجة تجلب الخراب . إذ كانت الجنازات تشيع فى احتفالات باهظة التكاليف ، فألغى هذا الإفراط وأبطل استخدام العربات والخيل المتشحة بالسواد ، كما أبطل

تزيى الخدم بلباس رسمى خاص . ومنذ ذلك الوقت لم يكلف موت الناس إلا القليل .
وأثرت الصفة العسكرية للحكومة على العادات والأزياء . فاتخذ المجتمع طابعاً
عسكرياً . ولم يعد هناك من يستخدم أكثر من ثلاث أذرع من القماش لصنع
معطف لنفسه . انتهى عهد الرقة . وأصبحت السيدات يتجنبن مجتمع الرجال .
واستعاض الرجال عن ذلك بمعاقرة الخمر والتدخين والمجون » .

كتب يمكن الرجوع إليها

— W.E.H. Lecky : History of England in the Eighteenth Century 8 vols. (1878-1890)·

— B. Williams : Stanhope (1932).

— John Morley : Sir Robert Walpole (1921).

— E. Armestrong : Elizabeth Farnese (1892).

— T. Carlyle : Life of Frederick II of Prussia 6 Vols. (1858-1865).

— E. Lavisse : Histoire de France. Vol. VIII.

— F.S. Oliver : The Endless Adventure (1930-31).

— Oeuvres historiques de Frédéric le Grand; nouvlle edition. (1830); II, Histoire de Mon temps.

— A. Sorel : L'Europe et La Révolution Française (1885-1903),

— P. Vaucher : Sir Robert Walpole et la politique de Fleury (1924).

— R. Lodge : Great Britain & Prussia in the Eighteenth Century (1923).

الفصل السابع والعشرون

الحرب فى أوربا (١٧٤٠ - ١٧٦٣)

التطاحن على سيليزيا – التنافس البحرى الاستعمارى بين إنجلترا ودول البوربون – فردريك الثانى وماريا تريزا –حرب الوراثة النمسوية–تدخل إنجلترا ودخول بروسيا الحرب من جديد – حركة ١٧٤٥ فى إنجلترا – صلح «إكس لاشابل» – الانقلاب الدبلوماسى – غفلة فرنسا – حرب السنوات السبع – «وليم بت William Pitt» – عام المعجزات بالنسبة إلى فردريك – عوامل انتعاش بروسيا – مكاسب إنجلترا الاستعمارية – كندا – الهند – عبقرية « كلايف Clive » – السلام فى بروسيا – مقارنة نتائج الحرب بالنسبة لكل من إنجلترا وبروسيا .

تتميز سنوات منتصف القرن الثامن عشر بنضال جبار دار – سواء فى بدايته أو فى نهايته – حول خصومتين دوليتين كبيرتين : إحداهما بين بروسيا والنمسا ، وقد خطفت الأبصار بجدتها ، أما الأخرى فكانت من بين كل الخصومات الدولية أكثرها شيوعاً . وقد انبعثت كل من حرب الوراثة النمسوية وحرب السنوات السبع من مصدر مشترك . ففى عام ١٧٤٠ امتشق فردريك الثانى حسامه لأنه صمم على أن يكون حديث العالم بغزوه سيليزيا . وفى عام ١٧٥٦ شن حرباً ثانية خوفاً من أن تغتصب منه سيليزيا . وهكذا فى خلال ثلاثة وعشرين عاماً ألقت سيليزيا الغنية بصناعاتها الكتانية وحديدها الخام الذى لم يستغل بعد ومسالكها المائيةالتجارية البديعة ، ألقت بدولة النمسا الكاثوليكية فى كفة وقوة بروسيا البروتستانتية الخشنة الناهضة فى كفة أخرى وما كادت النار تشتعل حتى انتشرت على نطاق واسع . إذ أثيرت كل الشهوات السياسية ، فتحدت أكثر الحدود السياسية ثباتاً ، واشتبكت كل دول أوربا تقريباً فى نزاع سالت فيه الدماء والأموال ، وتداولت فيه الأقدار والحظوظ : فى لحظة من اللحظات لاح أن النمسا ستجثو على قدميها ، وفى لحظة أخرى بدا أن فرنسا مآلها إلى التفكك ، وفى لحظة ثالثة أن هولندا والأراضى المنخفضة ستنضمان إلى فرنسا ، وفى لحظة رابعة أن روسيا والنمسا ستقضيان على بروسيا . ومع ذلك فإنه على الرغم من تلك الذبذبات العنيفة ، فإنه لم يطرأ على خريطة أوربا السياسية إلا تغيير ضئيل ، بعد حرب شديدة استمرت خمس عشرة سنة ، فيما عدا حصول ملك بروسيا

على سيليزيا ، وهى غنيمة انتزعتها بروسيا عند مطلع الحرب الأولى بخيانة غاية فى القذارة ، ولكن دافعت عنها عبقرية جندى عظيم وعناده أمام حشد من الأعداء .

وفى تلك الأثناء ظهر —من مصدر مختلف وبنتائج أهم — نزاع بين إنجلترا ومنافستيها فى عالم التجارة والبحر : فرنسا وإسپانيا . وإن الحرب بين إنجلترا وإسپانيا التى اندلعت بسبب مزاولة إسپانيا حق تفتيش السفن عام ١٧٣٩ والتى لم تلبث أن اندمجت فى النضال الأكثر خطورة بين إنجلترا وفرنسا ، لم تكن من صنع الساسة فى لندن وباريس ومدريد . إذ حيثما قابل إنجليزى إسپانيًّا أو فرنسيًّا فى عرض البحر رأى فيه منافساً وعدوًّا . فلم يكن ذلك نزاعاً بين بلاطين أو حكومتين ، وإنما كان نزاعاً بين الأفراد فى مسرحه ، وبين الملاحين والتجار والمهربين والمغامرين ، وقاطعى الأخشاب والمستعمرين والتجار الأحرار والشركات التجارية المتنافسة ؛ فهم يتشاجرون ويتنازعون إما فى البحر الإسپانى أو أكاديا ونيوفوندلاند أو على طول شواطئ نهرى الأهيو وسانت لورانس ، أو تحت سماء الهند المحرقة بين حقول الأرز فى ساحل الكرنات ؛ أو حقول قصب السكر وأشجار المانجو فى البنغال . فكان لا مناص من أن تؤدى المنافسة المطلقة على التجارة والاستعمار ومحاولة السيطرة فى آسيا وأمريكا إلى اصطدامات لا حصر لها بين الأنجلو سكسونيين ومنافسيهم من اللاتين . واستفحل أمر المشاحنات غير الرسمية ، فأصبحت حروباً غير رسمية . وقد حاول سير « روبرت والپول » Sir Robert Walpole عبثاً أن يتجنب الاشتباك فى نزاع بسبب مزاولة إسپانيا حقها فى تفتيش السفن عام ١٧٣٩ . ولكن صوت الرأى العام الذى رددت صداه وعززتها فى البرلمان معارضة فصيحة قد أجبرته على دخول الحرب . فكان يكفى لإثارة الإنجليز أن تقوم سفن الحراسة الإسپانية فى خشونة بتفتيش سفن إنجليزية تتاجر مع «البحر الإسپانى » بحثاً عن تجارة مهربة ، وأن يودع بحارة إنجليز مثقلون بالأغلال سجون إسپانيا القذرة . وقد وجدت شكاوى البحارة والتجار آذاناً مصغية على الدوام فى إنجلترا . وأثارت قصة الإسپانى الشرير الذى انتزع من الكابتن جنكينز أذنه موجة من السخط فى إنجلترا ، ولم يخفف من حدتها إلا إعلان الحرب مهما بلغ هذا العمل من سوء السياسة والتجنى على الحق .

وهكذا استمر النزاع البحرى والاستعمارى الذى بدأ هكذا على الرغم من أصالة رأى أعقل ساسة إنجلترا ، استمر تتخلله فترات قصيرة من الهدنة حتى صلح باريس فى عام ١٧٦٣ (إذ أنه على الرغم من توقف الحرب الرسمية فى بعض الأحيان كان القتال غير الرسمى المحلى مستمراً) . وعندئذ تبين أن صولجان النفوذ الاستعمارى قد انتقل من فرنسا إلى إنجلترا . وبفضل انتصارات « كلايف » Clive و « وولف » Wolfe تفوق النفوذ الإنجليزى فى الهند وكندا وأصبح لا منازع له .

وإن هذا التغيير فى ميزان القوى الاستعمارية الذى يكوّن — وإن استصغرت قيمته الحقيقية عندئذ — انقلاباً من أخطر الانقلابات فى تاريخ البشرية ، لم يكن حدوثه ممكناً دون قيام حرب أوربية . كانت السفن الإنجليزية سواء منها التجارية أو التابعة للأسطول الملكى أكثر عدداً من السفن الفرنسية والإسپانية ، ذلك لأن المصالح البحرية والاستعمارية كانت تأتى دائماً فى المقام الأول فى إنجلترا . وإن لم يكن ذلك صحيحاً بالنسبة لجورج الثانى ، بينما كان الاهتمام بالجيش فى فرنسا وإسپانيا يطغى على الاهتمام بالبحرية وما من خطأ فى تاريخ فرنسا كان أشد شؤماً من القرار الذى اتخذته الحكومة الفرنسية فى عام ١٧٤٠ بالاشتراك مع فردريك ملك بروسيا فى الهجوم على ماريا تريزا . تورطت فرنسا بهذا القرار فى حرب أوربية مرهقة ، قدمت لها كثيراً من المغريات وعرضتها لكثير من المخاطر كما تطلبت منها من التضحيات ما صرفها عن التفكير فى مستعمريها المبعثرين عبر البحار فأهملت البحرية الفرنسية تبعاً لذلك ، ولم تصلح فرنسا خطأها إلى أن انتقلت كندا والهند إلى أيد بريطانية . وإنها لسخرية من سخريات التاريخ أن الخطأ الذى ساعد إنجلترا على أن تصبح سيدة على البحار قد ساهم أيضاً فى تأمين تفوق بروسيا فى ألمانيا .

لم يكن ذلك خطأ فحسب بل كان جريمة . إذ أن فرنسا قد وافقت رسميًّا على الضمان الوراثى الذى أمنه لماريا تريزا وراثة العرش النمسوى . على أن الحكومة الفرنسية كانت دائماً عرضة لتجرفها فى تيار الحرب أهواء أرستقراطية عسكرية جامحة تمت لها الغلبة على حكمة الملك والكاردينال فليرى Fleury . فإن الأمل فى الانتقام لثارات فرنسا من عدوتها القديمة فى وقت بدت فيه لا حول لها ولا قوة ولا صديق لها

إن هذا الأمل لدى المارشال بليل Belleisle وأعوانه الملتهبين حماسة من أصحاب الألقاب تغلب على كل هاجس للضمير وبعد النظر فتساءلوا : « ما قيمة التزام ما إذا قورن بفرصة متاحة ؟ » على أن من النادر أن تجد إثماً ارتكب فى حق الشرف الدولى قد جوزى مرتكبه بأشد مما جوزيت به فرنسا فى هذا العدل .

أما فردريك الثانى (١٧٤٠ — ١٧٨٦) فلم يحجب بصيرته الصافية أى غيم من الأحقاد القديمة . كان هذا الشاب واقعيًّا رزيناً ، ألمانيًّا سنيًّا وإن كان بروسيًّا صالحاً لا يحمل أى ضغينة ضد النمسا ، كما لم يكن رعاياه السلبيون وهم أشد الناس بعداً عن السياسة ، يطمحون إلى التوسع . ولكن كان الميدان فسيحاً لذوى المطامع . وكان هذا الملك الهوهنزلرنى بجيشه القوى ، وخزانته العامرة ، وشعبه المطيع ، صاحب الكلمة العليا فى تقرير مصيره ولم يقيد حريته أى ولاء ؛ فهو مستعد لامتشاق حسامه تارة فى هذا الجانب وتارة أخرى فى الجانب الآخر وفقاً لما تتطلبه مصالح بروسيا . وكان تصرفه فى معالجته للمؤثرات السياسية دون عائق من دين أو فروسية أو احترام للعهد ، أو عاطفة نحو الجيش الألمانى ، الطابع المميز لحكمه والمساعدة المشكوك فى قيمتها التى قدمها للحياة العامة لألمانيا . كان فردريك يرى نفسه والعالم على حقيقتهما . عاش حياته كادحاً مزدرياً مباهج الحياة معتبراً نفسه الخادم الأول للدولة البروسية . وقد ملك موهبة القيادة فى الحرب والسلام لدرجة تكاد تكون منعدمة النظير . وكل هذه صفات ألزمت العالم بالإعجاب به . قد يجد الألمانى عيباً فى ذلك الملك الذى لم يحرص مطلقاً على إخفاء ازدرائه للغة وطنه وآدابها ، على أن البروسيين على حق فى اعتبار فريتز العظيم (كما كانوا يدعونه) أحد البنائين الرئيسيين لدولتهم . وفى بهر خدماته الرفيعة كانوا مستعدين للتجاوز عن حقيقة كونه ملحداً فى العقيدة ودنيئاً فى السياسة ، وأنه كان فى فكرته عن الحياة تلميذاً لڤولتير . رأوا فيه العاهل الذى جعل جيش بروسيا مرهوباً فى أوربا ووضع أسس شهرة بروسيا كدولة عسكرية وأضاف إلى إرثه البروسى مقاطعات جديدة مهمة . فمجدوه قائداً ، كان النصر حليفه بصفة عامة ، ولكنه لم يكن مطلقاً أعظم ولا أشد دهاء مما كان فى أحلك ساعات الهزيمة ، ومجدوه ملكاً سار بدولته وسط محن كبيرة نحو السلام والأمان ورفعها إلى مكان الزعامة فى

ألمانيا ، وردوا على ذوى الضمائر الرقيقة ممن نفروا من قائمة الأعمال الحربية التى بدأت بانتزاع سيليزيا الغادر ، وانتهت بالتقسيم الأول لپولندا الذى حقق به فردريك غاياته ، وردوا بأن مثل هذه الأعمال كانت مما تبيحه الأخلاق الدولية فى ذلك العصر وأن عاهل الهوهنزلرن لم يكن أسوأ من معاصريه ، وإن المبدأ القائل بأن الغاية تبرر الواسطة هو جانب لابد منه فى اعتذار البروسيين عن سلوك فردريك الثانى .

كانت مطامعه عظيمة ولكن باهظة الثمن . كان يتطلب الكثير من شعبه ولكن كان ذلك دائماً لخدمة أهداف عملية لبروسيا ؛ وإن لم يهمل مزايا المحافظة على التوازن الدولى . فإن أوربا التى حارب لإقامتها هى أوربا التى تقوى فيها بروسيا بضم سيليزيا إليها لتواجه النمسا بعد أن قصت أطرافها . وهذه هى أوربا التى قدمها له صلح « إكس لاشابل » Aix-la-Chapelle فى عام ١٧٤٨ . وهكذا حقق فردريك غرضه باستخدام الجيش البروسى أداة دبلوماسية . فتارة يلقى به فى المعركة . وتارة أخرى يسحبه فجأة ، وتارة ثالثة ينزله إلى الميدان ضد عدوه القديم . فأنقذ على التوالى النمسا من فرنسا بمعاهدة ، وفرنسا من النمسا بهجوم . وفى كل مرة كانت عمليات تدخله وانسحابه حاسمة ، حتى إن فردريك خلال الثمانى سنوات كان له وحده من بين جميع المحاربين ما يدعو إلى الرضا . فعلى حين لم يستفد جميع الآخرين ظفر فردريك بسيليزيا . على أن الأمر لم يكن هيناً ، فقد كان على أوربا أن تخوض حرباً طويلة أخرى قبل أن تروض ماريا تريزا الأبية نفسها على قبول خسارتها .

عندما مات الإمبراطور شارل السادس فى أكتوبر ١٧٤٠ دون وريث ذكر قدم للأوربيين فرصة ليظهروا أن مبادئ الشرف والفروسية وحفظ العهد لم تختف تماماً من العلاقات الدولية . كانت ابنته ماريا تريزا سيدة فتية متزوجة لا تجارب لها فى شئون الحكم وكانت خزانتها خاوية وجيشها ضعيفاً . وقد اعترفت كافة الدول الهامة فى أوربا (فيما عدا بڤاريا) بأحقيتها فى أن تخلف أباها على الإرث الكامل لأسرة هاپسبورج النمسوية ، وتم ذلك الاعتراف فى معظم الحالات لقاء ثمن دفع ؛ ولكن لم يفدها (وهى ملكة المجر) [1] كونها سيدة ولا قلة تجاربها ولا الضمانات

(١) كان هذا هو لقبها لأنها لم ترث أباها فى عرش الإمبراطورية .

فى خلال عام من توليها على العرش استدرجت إلى خوض
، أجدادها من أطماع حلف ضار تزعمته نفس الدول التى
.ه باحترام ذلك الإرث .

ك الثانى الضربة الأولى دون ما إثارة فانقض على سيليزيا وأبان للعالم
سا فى موقعة « ملوويتز » Mollowitz بفضل ما أبدته فرق المشاة
ية من الثبات ورسوخ القدم . كان من العبث بعد تلك النكبة التى حلت
بالنمسا أن يظن أحد أن بالإمكان حصر النزاع وإبقائه محلياً . ومن ثم أقبلت النسور
أفواجاً من كل مكان لتنقض على الفريسة . ففرنسا رغبت فى أن تسلب النمسا
الأراضى المنخفضة ولكسمبرج . وبفاريا تطلعت إلى التاج الإمبراطورى وتوسيع
حدودها شرقاً . أما منتخب سكسونيا فكان كذلك ملكاً على بولندا فقد كان يترق
إلى المطالبة بنصيب من إمبراطورية أصبحت مهددة بالانحلال. وقامت فرنسا العدو
القديم لأسرة هابسبورج بدور الطليعة فى التحالف المعادى للنمسا ، معتقدة أن الوقت
قد حان لتفرض بصفة نهائية تفوقها السياسى فى أوربا بمساعدة القوة البروسية الجديدة
التى لم يتنبأ بها أحد . ومضى بعض الوقت وكل شىء يجرى على هواها . توغل جيشها
فى بوهيميا واستولى على براغ ، بينما هدد البفاريون فيينا ودبر انتقال التاج
الإمبراطورى الذى ظل حكراً لأسرة هابسبورج أكثر من ثلثمائة عام إلى شارل ألبرت
ملك بفاريا الذى نازع ماريا تريزا أحقيتها فيه ، وصمم على أن يغير على أملاكها .
ولم يحدث مطلقاً فى تاريخ النمسا الطويل المعقد حتى السنة الأخيرة من الحرب
العالمية الأولى أن هوت النمسا إلى ذلك الدرك كما حدث فى أوائل الصيف من
عام ١٧٤١ .

ولكن لم يلبث أن تلا ذلك انقلاب ملحوظ فى الأقدار . ففى ساعة محنتها
ناشدت ماريا تريزا ولاء رعاياها المجريين ، فلقيت استجابة نارية لدى هذه
الأرستقراطية التى تملؤها روح الفروسية وحب الحرب . فطرد البفاريون من ميونيخ
والفرنسيون من « براغ » . وهكذا اضطرت سخرية من سخريات القدر

شارل ألبرت الإمبراطور الجديد أن يوقع معاهدة يتخلى فيها عن ادعاءاته فى الإرث النمسوى ، ويتنازل عن أملاكه الوراثية لملكة المجر وذلك ريثما يتم إبرام الصلح العام . وهكذا لم يقبل صيف ١٧٤٢ حتى كانت عجلة القدر قد أتمت دورتها كاملة ، فانقلبت سياسة فرنسا العدوانية عليها ؛ واضطرت وهى المهاجمة فى بوهيميا أن تنصرف إلى الدفاع عن الألزاس واللورين . وألقت إنجلترا وسردينيا بثقلهما إلى جانب النمسا ، وشجعت موقعة « ديتنجن » Dettingen الموفقة ، (يونية ١٧٤٣) وهى آخر معركة امتشق فيها ملك إنجليزى الحسام ، فكرة أن غزو فرنسا يمكن أن يتحقق على يد جيشين يتقدم أحدهما من منتصف الرين والآخر من أعاليه .

أما السبب الرئيسى لذلك الانقلاب المفاجئ فى الأقدار فيعزى إلى حركات الملك البروسى . كان فردريك ينوى الاحتفاظ بسيليزيا، على أنه لم يكن على استعداد لتبديد مال بروسيا ودمائها فى سبيل الحصول عليها إلا بقدر ما تدعو إليه الحاجة . لذلك كان فى كل وقت تواقاً إلى الاتفاق مع ملكة المجر على أن يضمن لنفسه دائماً الاحتفاظ بسيليزيا . وعلى هذا الأساس خرج من الحرب فى أكتوبر ١٧٤١ ، وعلى هذا الأساس خرج مرة ثانية من الحرب فى يولية ١٧٤٢ آخذاً معه فى هذه المرة سكسونيا من بين صفوف أعداء النمسا . ولكن ماريا تريزا وقد تخلصت فى صلح برلين (يولية ١٧٤٣) من أقوى خصومها ، وقد أبهجتها انتصارات مدهشة متتالية أحرزتها قواتها ، صممت على استغلال نجاحها إلى النهاية ، فراق لخيالها المتوقد أكثر الاحتمالات بهراً للأنظار : وهى ضم بفاريا وغزو الألزاس واللورين واسترجاع نابولى وسيليزيا . وهكذا تحولت الحرب التى بدأت بخطة لتدمير النمسا ، إلى حرب لتجزئة فرنسا . ذلك أن ملكة المجر فى سورة غضبها وبهجة انتصاراتها ازدرت نداء السلام .

وفى هذا الموقف العنيد الذى وقفته ماريا تريزا أصمت إنجلترا أذنيها عن نصيحة أحكم سياسى منها فأخذت جانب الملكة ؛ فإن والپول الذى اعترض على الحرب ضد إسپانيا لم يكن أقل كراهية لما يدعو إلى قطع العلاقات مع فرنسا ، لأنه كان يتنبأ بأن أول نتيجة لمثل هذا الاشتباك قيام ثورة يدبرها اليعاقبة ، قد تزعزع مركز أسرة هانوفر من أساسها . ولكن السلام لم يعد أمراً مرغوباً فيه فأقصى والپول عن

الحكم ليفسح الطريق لمستشارين يكونون أكثر تجاوباً مع المزاج المتهيج الذى كان يسود البلاد والملك . وتولى كرتريت Carteret زمام الحكم (فبراير ١٧٤٢) وهو من أكثر الرجال حنكة وإن لم يكن من أشدهم حذراً ، فورط البلاد فى حرب فى القارة بالاشتراك مع مولاه الذى كان قبل كل شىء هنوڤرياً . فعقدت معاهدة « ورمز » Worms (ديسمبر ١٧٤٣) بين إنجلترا والنمسا وسردينيا وفيها بعث مشروع محالفة عظمى تعززها الأموال الإنجليزية ضد مطامع فرنسا .

وهكذا اتفق الحلفاء جميعاً دون أن يلقوا بالا لفردريك . راقب ذلك الملك الفطن بقلق متزايد انتصارات النمسا فى الغرب ولاحظ « إنه لخطأ فاحش فى السياسة أن تأتمن عدواً قد تصالحت معه » . ولم يكن فردريك ليطمئن لنوايا ماريا تريزا . فبدلا من أن يصدق أن الملكة قد تصالحت معه حقاً فى صلح برلين ، كان مقتنعاً بأنها إنما تدبر خطة للانتقام . وعلى ذلك فبينما كان أحد الجيوش الإمبراطورية بقيادة شارل أمير اللورين منشغلا فى الألزاس ، نقض فردريك الصلح ضارباً بالمبادئ عرض الحائط ، وغزا بوهيميا ووضع يده على براج (١٦ سبتمبر ١٧٤٤) . وسرعان ما تبدلت أوضاع الحرب كلها . فقد وضع دخول فردريك الحرب من جديد النمسا موضع المدافعة عن نفسها مرة أخرى ، وخلص فرنسا من خطر بليغ . وعندئذ لاحت سلسلة من المغريات الفاتنة أمام حكومة لويس الخامس عشر تدعوها للتدخل : غزو بلجيكا ، وخلع الملك جورج عن عرش إنجلترا ، وإقامة أسرة كاثوليكية على عرش إنجلترا فدخل أحد الجيوش الفرنسية بقيادة الأمير موريس ساكس Maurice de Saxe القديرة الأراضى المنخفضة النمسوية ، واضطر الإنجليز للرضوخ للهزيمة مرتين (إحداهما فى فونتنوى Fontenoy ١١ مايو ١٧٤٥ ، والأخرى فى لوفلد Lauffeld فى ٢ يولية ١٧٤٦) .

ويرجع فساد الخطة الفرنسية الكبيرة إلى رجحان القوة الإنجليزية بحراً واستمرار الشعب الإنجليزى فى تعلقه بقضية البروتستنتية . ففرقت عواصف بحر المانش شمل أسطول مهاجم . وقضى المغامرون الإنجليز على التجارة الفرنسية . وقدر لشارل إدوارد الذى رفع علم أسرة استيوارت فى مرتفعات أسكتلندا عام ١٧٤٥ أن يواجه الحقيقة المرة وهى أن ملكاً هنوڤرياً غير محبوب لا يزال فى وسعه أن يعتمد على

تأييد سلبي من شعبه الذى وإن كان بليداً ،كان شديد التمسك بمذهبه البروتستانتى . وفى ساحة « كولودن » Colloden (١٦ أبريل ١٧٤٦) انهارت قضية اليعاقبة التى أثارت كثيراً من ضروب الآمال والولاء . ولكنها باتت فى خطر محقق منذ اللحظة التى اتضح فيها أن الإنجليز لم يكونوا على استعداد للانضمام إلى الأمير « شارلى » Prince Charlie عندما أخذ يتقدم جنوباً من « كارليل » Carlisle إلى « دربى » Derby . ومهما كان ضئيلا نصيب جورج الثانى من محبة رعاياه فإن عرشه قد توطد على دعائم راسخة بحيث لا يقوى على قلبه جيش صغير من الغاليين [١]، من حملة السيوف المتوحشين أتوا من مرتفعات أسكتلندا . وإن المخاطرة الطائشة التى مجدتها عبقرية سير ولتر سكوت Sir Walter Scott [٢] قد عاونت على تقوية مركز الملكية البروتستانتية ، وبسط نفوذها على كثير من الوهاد البرية المنعزلة حتى الطرف الشمالى لكيثنيس Caithness [٣] . وكان إخضاع إقليم المرتفعات فى أسكتلندا من النتائج الراسخة والدائمة لحركة ١٧٤٥. ثم جاءت الطرق التى أنشأها المارشال « ويد » Marshal Wade ، وفرق رجال المرتفعات التى كونها « بت » Pitt فأكملت قانون الاتحاد ، وفتحت أمام سكان شمال أسكتلندا الكاثوليك فرصة الإفادة من الموارد الوفيرة والإمكانيات المتنوعة لإمبراطورية عظيمة .

وفى الميدان الشرقى للحرب لم يحقق أى فريق كسباً حاسماً . وإن كان فردريك قد اضطر إلى أن يرخى قبضته عن بوهيميا ، فإنه كان لا يزال فى مركز يمكنه من أن ينزل بعدوه فى « هوهنفريدبرج » Hohenfriedberg وفى « سوهر » Sohr من الهزائم ما أدى — بالإضافة إلى قوة هذه الانتصارات الشخصية والنصر القيم الذى حصل

---

(١) Caelic : الغالى . وهى صفة تطلق على أحد فروع اللغة الكلتية ، الإيرلندية الموجودة فى مرتفعات أسكتلندا ، وفى جزيرة (ايل أوف مان) .

(٢) Sir Walter Scott (١٧٧١ — ١٨٣٢) . شاعر وروائى أسكتلندى الأصل كتب عدداً من الروايات الرومانسية وعدداً من الروايات التاريخية من أشهرها ويفرلى ، اليوريتان ، إيفانهو ، روب روى ، سجن أدنبره . وتعكس كتاباته روح البطولة الإنجليزى والأسكتلندى فى عهد الفروسية .

(٣) Caithness مقاطعة فى شمال أسكتلندا مشهورة بالزراعة وصيد الأسماك .

عليه حلفاؤه السكسونيون – إلى قبول النمسا توقيع صلح فى درسدن ضمن له امتلاك سيليزيا وجلاتز Glatz (ديسمبر ١٧٤٥) .

وعلى هذا النحو من الوحشية وعدم الحسم كان الصراع الدامى للسيطرة الذى وقع جنوبى الألب حيث انضمت النمسا وساڤوى ضد مملكتى البوربون . وكما حدث فى ألمانيا اضطر النمسويون فى النهاية إلى التنازل عن موضع لأعدائهم . فصلح « إكس لاشابل » (١٧٤٨) الذى أنهى الحرب ، منح دوقية بارما لدون فيليب الإسپانى .

لم تحصل أى دولة فى هذه الحرب التى اقترنت بتقلبات حادة انتصارات دون أن تقابلها هزائم خطيرة ، وأخيراً جاءت النهاية وقد أدى إليها الغضب أكثر من الرضا . والحق أن صلح « إكس لاشابل » لم يسو شيئاً ، لم يسو الصراع البحرى والتجارى بين إنجلترا وممالك البوربون ، ولا الصراع على سيليزيا بين النمسا وبروسيا ، كما أنه لم يحسم مسألة الصراع للسيطرة على إيطاليا ، ولم يقرر مصير الأراضى المنخفضة ؛ وإذا كان الصلح قد نص على إرجاعها إلى النمسا فلن تلبث أن تستولى عليها من جديد جيوش فرنسا الثورية . أما فى الهند فقد تكبدت إنجلترا خسائر كثيرة قبل أن يمضى وقت طويل حتى تستعيض عنها بالانتصارات الباهرة . وعند مدخل كندا وضعت إنجلترا يدها على ثغر لويزبرج الحصين ، وهى قاعدة فى جزيرة « كيب بريتون » Cape Breton ، وقد أبان الاستيلاء عليها عن خطط تالية .

لم يكن الإنجليز قط حبًّا كبيراً لحرب الوراثة النمسوية ، فأرعدت المعارضة وعلى رأسها « وليم بت » William Pitt الخطيب النارى الشاب الذى سيغدو وزيراً عظيماً للحربية ، منتقدة المساعدات المالية التى قدمت لفرق هانوڤر وهس ، واحتجت – وهو احتجاج لا يخلو من أساس – أن دفة السياسة البريطانية تسيرها أيد هنوڤرية ، وبدا أن قوة المال البريطانى قد أسىء استخدامها بتمويل حرب فى القارة كان يشك فى أن غرضها الأساسى هو حماية هانوڤر ، وكانت نتيجتها الرئيسية اجتياح الفرنسيين للأراضى المنخفضة وغزو رجال مرتفعات أسكتلندا لإنجلترا . كما أن فرنسا لم تكن راضية عن انهيار تجارتها الخارجية نتيجة لنهب القراصنة الإنجليز والكوارث التى نزلت بأسطولها ، وفشل حركة اليعاقبة التى دبرتها فى إنجلترا ، ووفرة أموال الإنجليز

الذين كانوا مستعدين عندما نزلت الهزيمة بجيوشهم مرتين فى سهول الفلاندر — لاستئجار جيش روسى لإعادة التوازن . ولكن الحكومة الفرنسية آثرت أن تجنح إلى الصلح على أن تواجه هذا الجيش الروسى وتعداده ثلاثون ألف مقاتل ، وقبلت سحب جنودها من هولندا والأراضى المنخفضة فى مقابل استرجاع لويزبورج .

إن الدبلوماسية تتميز عن سائر الفنون العملية بأنها أكثر محافظة . ففى حرب الوراثة النمسوية أدى الولاء لتقاليد قديمة إلى وقوف إنجلترا حليفة للنمسا وفرنسا عدوة لها . وجرياً على ما كان فى الماضى كان يظن أن الأمر يجب أن يكون كذلك دائماً . فذكريات الخصام القديم عندما اختبر « تورين » Turenne و « كونديه » Condé قواتهما ضد الجيوش الإمبراطورية . أو عندما واجه « مولبرا » و« يوجين » Eugene ماريشالات لويس الرابع عشر ، قد لونت أخيلة رجال الدولة ، وشكلت سياستهم . على أنه عندما تبين أن الحرب الطويلة الطائلة النفقات التى شنت وفقاً لهذا الأنموذج الدبلوماسى لم تؤد إلى أى نتيجة حاسمة ، تساءل الناس بطبيعة الحال عما إذا كان هناك خطأ تاريخى فى هذا الأنموذج الدبلوماسى ؟ ماذا جنت النمسا من تحالفها مع إنجلترا ؟ وما السبب الذى جعل فرنسا ترحب بتوسع بروسيا ؟ وأى الدولتين : النمسا الكاثوليكية أم بروسيا البروتستانتية بقيادة ملكها الجندى تكون أكثر نفعاً لإنجلترا فى صراعها الوشيك الذى لا مناص من وقوعه مع فرنسا على التوسع الاستعمارى . ومن هذه الشكوك وهذا التبرم نشأ انقلاب دبلوماسى : فمنذ تاريخ مبكر منذ عام ١٧٥١ كانت ماريا تريزا تبعث برسائلها إلى : « سيدتى ، أختى العزيزة جداً » محظية ملك فرنسا صاحبة الأمر والنهى .

والشخصية عامل له أهميته على الدوام فى العلاقات الدبلوماسية. كان فردريك يكره النساء وقد وجد فى السيدات الثلاث صاحبات الأمر والنهى فى أيامه مجالا دائماً للنكت البذيئة التى كانت تلقى رواجاً كبيراً . ماريا تريزا الإمبراطورة الورعة الحقود ، ومدام بومبادور Pompadour خليلة لويس الخامس عشر صاحبة النفوذ ، وإليزابيث قيصرة الروسيا الداعرة ، محتسية الفودكا ، وقد أفسحن المجال للسخرية القارصة التى انتشرت فى أرجاء أوربا . وأثارت موجة من السخط الشديد فى بلاطات ڤيينا وڤرساى وسان بطرسبرج . وإذا كانت الإهانات الطائشة التى قذف بها

فردريك : « الحيزبون الرسولية » (يقصد ماريا تريزا) و « الآنسة سمك » Melle Poisson (إذ قيل إن مدام بومبادور كانت ابنة امرأة من السوقة) لم تصنع الانقلاب الدبلوماسى فإنها على الأقل قد ساعدت على تمهيد الطريق له . كانت القيصرة إليزابيث صلبة ، ومع ذلك فلابد أن يكون قد أثارها فى فترات صحوها الاسم التهكمى الذى نعتها بأحط صفات البهيمية والفجور والرذيلة .

لم يرض الجمهور الفرنسى منذ البداية عن المحالفة مع النمسا التى تعارضت بشدة مع تقاليد فرنسا الدبلوماسية ؛ ولما كانت سبباً فى إحداث الاضطراب ، فإنها وسعت شقة الخلاف بين الملكية والأمة . ومع ذلك فليس هناك ما يبعث على الظن بأن المعاهدات التى عقدتها فرنسا مع النمسا جاءت نتيجة خيلاء جريحة لامرأة جميلة . فإن الأسس التى قامت عليها المحالفة الفرنسية النمسوية كانت سليمة بما فيه الكفاية ، فإن من الأمور المعقولة أن يظن أن دولة ألمانية بالقوة التى ظهرت بها بروسيا فى عهد فردريك قد تبلغ من القوة بحيث تهدد صفو فرنسا .

ومهما يكن من شيء فإن الأمر الذى تعرض للنقد لم يكن المعاهدة الفرنسية النمسوية الأصلية(أغسطس ١٧٥٦) التى كانت دفاعية فقط ، ولكن الوثيقة التالية التى تعهدت فرنسا بمقتضاها بعقد محالفة هجومية دفاعية مع ماريا تريزا . ولاشك أن مصالح فرنسا — فى هذا الموقف الفاصل من التاريخ — قد أسيء إليها فى هذه الحرب الأوربية الثانية ؛ إذ كان مواطنوها يناضلون فعلا ضد عدوهم القديم فى غابات أمريكا الخلفية . وفى سهول الكارانات ؛ لذلك كان من الأوفق لها أن تركز جهودها للدفاع عن أملاكها فيما وراء البحار التى كان يهددها فعلا النشاط الهائل الذى كان يبديه منافسوهم الإنجليز . ومع ذلك فما هو جدير بالاعتبار أن الرأى العام الفرنسى كان قليل الإدراك لطبيعة الحرب الحقيقية التى كان ساسة فرنسا يقودون الأمة إليها . فإن الأقلية من الفرنسيين التى كانت تهتم بالسياسة بدلا من أن يوجهوا اهتمامهم بمصير الهند أو كندا أو جزائر الهند الغربية ، استغرق اهتمامهم الشقاق بين الملك والبرلمانات ، بين المبادئ الحرة لجماعة الچانسنست والمعتقدين فى وجودالله ، ومبادئ طائفة الجزويت القائمة على الاضطهاد الكاثوليكى ، كما استغرق اهتمامهم أيضاً تلك المشاكل الدستورية المعقدة التى أثارتها المقارنة

بين النظم الحرة فى إنجلترا ونظام الحكم الأوتوقراطى السرى الذى كان يقوم فى فرنسا . وبلغ من شدة استياء الفرنسيين من الملكية وكرههم لرجال الدين واشتداد روح النقد والثورة أن عدداً من مهرة المراقبين من أمثال «دارجنسون» Marquis d'Ar-genson و« إيرل شسترفيلد » Earl of Chesterfield ممن كتبوا فى منتصف القرن الثامن عشر حذروا بوادر الثورة الوشيكة . لذلك لم يكن منتظراً فى مثل هذا الجو أن توجه تلك الحرب الكبرى توجيهاً قوياً واعياً . فبينما كانت طبقة الأدباء مشغولة بخوض غمار معركة التسامح والحرية ، كان رجال القانون فى برلمان باريس يقاومون مقاومة عنيفة كل محاولة لتوسيع الأساس الذى يقوم عليه فرض الضرائب . وكان هؤلاء القانونيون اللامعون — وإن كانوا قصار النظر — يعوزهم تماماً تصور أغراض الحرب والاستعداد لتحمل أعبائها ، والقدرة على منح الشعب الفرنسى وحدة التوجيه التى يحتاج إليها المجهود الحربى فى أى حرب كبيرة ؛ فإن ما انهمكوا فيه من صنوف الجدل الحادّ قد حجبت عنهم قضايا العصر الأكثر أهمية .

إن تقدم بروسيا فى سكسونيا (سبتمبر ١٧٥٦) الذى بدأت به حرب السنوات السبع قد شبه بغزو الألمان لبلجيكا الذى أشعل لهيب صراع أكبر . وإن كانت المقارنة غير دقيقة لأن سكسونيا وإن كانت فى الظاهر بريئة ، لا يمكن تبرئتها من سوء التدبير . وإن يكن حقًّا أن العمل الذى أقدم عليه فردريك بتسيير قواته فجأة تندفع فى أراضى دولة مجاورة له مسالمة ، ووضع يده على عاصمتها وخزينتها ، وضم جيشها عنوة إلى جيشه قد بدا لمعاصريه انتهاكاً فاضحاً للقانون الدولى ، بل إن اكتشاف أصول حلف معاد لبروسيا فى درسدن لم يكن له أثر فى التخفيف من الحقيقة الواضحة وهى أن ملك بروسيا كان أول من هدم السلام . فحرمه مجلس اللاهوت Aulic Council [1] فى ڤيينا من أملاكه وألقابه ودعا الدايت الألمانى ليبعث بجيش يقوم بتنفيذ الحكم ضد المجرم .

---

(١) Aulic Council : جهاز من أجهزة الإمبراطورية الرومانية المقدسة استمر من ١٤٩٧ — ١٨٠٦ ، مهمته الأصلية تنفيذية ، ولكن أصبحت له سلطات قضائية ؛ إذ أصبح يتلقى الالتماسات الموجهة للملك فأصبح بذلك بمثابة محكمة قضائية عليا . وهو يقابل مجلس الملك فى إنجلترا فى العصور الوسطى . وبوصفه من أجهزة الحكم الإمبراطورى ، حددت معاهدة وستفاليا ١٦٤٨ طريقة تكوينه واختصاصاته . وثبت عندئذ أن سلطاته تنفيذية وقضائية .

وكانت الأخطار والصعاب التى واجهت فردريك إذ ذاك هائلة . فهناك حلقة من الأعداء الأشداء كانت تهدده من كل جانب : ففى الجنوب النمسويون ، وفى الشرق الروس ، وفى الغرب الفرنسيون والإمبراطوريون وفى الشمال السويديون ؛ كان فردريك الأكبر فى مركز بالغ الخطورة إزاء هذه التجمعات التى كانت تستمد قوتها من موارد بشرية لا تكاد تعرف حدوداً . فهى قادرة فى التو على أن تبعث إلى ميدان المعركة جيوشاً تبلغ ضعف عدد جيوشه . فبينما كان فى وسع الروس والنمسويين أن ينزلوا جيشاً جديداً مكان جيش يتحطم فى المعركة ، لم يكن فى وسع فردريك أن يعوض خسائره من الجند .

ووسط هذا الحشد من الأعداء ، وجد فردريك فى إنجلترا حليفاً . وقد قال عنه جورج الثانى : « إن ملك بروسيا شرير خبيث ، صديق مؤذ ، حليف سيئ ، قريب طالح ، وجار سوء ، وهو فى الحقيقة أخطر أمير فى أوربا وأخبثهم طوية » . على أن جورج الثانى لم يكن عندئذ الموجه لسياسة إنجلترا وإنما كان وليم پت William Pitt الذى استحال ملك بروسيا فى خياله الملتهب بقدرة ساحر إلى بطل من أبطال الحرية فى أوربا ، دعامة العقيدة البروتستانتية . لم يرسل « پت» جيشاً إنجليزياً فى الجبهة الشرقية للحرب ، ولكنه أمد الحرب فى القارة بالمعونات المالية الإنجليزية ، بينما عاونت الغارات الإنجليزية على شواطئ فرنسا ، ومعونة الإنجليز وهانوفر لفرديناند أمير « برنزويك » Ferdinand of Brunswick الذى كان يدافع عن قضية فردريك فى غرب ألمانيا — أعاونت إلى درجة بعيدة فى تخليصه من الضغط الذى كانت فرنسا — لولا ذلك — قامت به على حدوده الغربية ؛

على أن فردريك ، وفردريك وحده هو الذى أنقذ بروسيا من الفناء : فالجيش البروسى على الرغم من أن غالبيته كانت من الأجانب ، قد صاغ منه قائده الملحد وحدة تدربت على أن تبذل فى إيمان بكل تضحية . وحين كان الجند يسيرون إلى الحرب وقد شدت عزائمهم فصاحة مليكهم الملهم الذى صنعهم على يمينه وملأتهم حماسة موسيقى التراتيل اللوثرية اعتقدوا أنه إله البروتستانت إنما يحارب معهم . ولما كانت أفدح الخسائر قد عجزت عن النيل من الأهداف الحديدية التى رسمها ، فقد فشلت فى تثبيط عزائم الجنود والشجعان الذين وقعوا تحت تأثير سحره . وعلى

الرغم من أن جيش فردريك قد هبط إلى ثلث قوته الأصلية بعد صراع العام الأول العنيف، فقد استمر يدافع عن حق الأمة البروسية فى البقاء ضد قوات هائلة. لم يلق البروسيون بالا لنهب برلين إثر إغارة الأعداء عليها ١٧٥٧، ولا لأعمال الجيش الروسى الوحشية التى اشتهر بها خلال شهور عديدة فى سنوات الحرب التالية. فإن الروح البروسية لم تتعلق بمكان وإنما كانت مترکزة فى رجل كان وراء مواهبه السطحية وأفضاله وثقافته وألحانه وأشعاره الفرنسية وتأملاته الفلسفية كان يخفى الإرادة الصلبة التى عرف بها شعبه المحارب من قديم. لم يبد فردريك قط من المقاومة الباهرة فى القتال ما أبداه فى العام الأول من الحرب. انتهى غزوه لبوهيميا بكارثة وانتصر فى براج ولكنه هزم فى « كولن » Kollin، واضطر إلى سحب فلول جيشه بعد أن أصابته هزيمة فادحة إلى شمال « إربز جبرج » Erbz Gibirge. وعندما أحاطت به شبكة من الأعداء، من الفرنسيين والإمبراطوريين والنمساويين والروس والسويديين فى أواخر الصيف من تلك السنة، فكر فى الانتحار مع أخته العزيزة. ولكن عندما جد الجد انقشعت حالة اليأس من نفسية الرجل المتقلب المزاج. فأسرع غرباً متوغلا فى أراضى سكسونيا لمقابلة الفرنسيين، ففاجأ جيش الأمير سوبيس Soubise فى روسباخ Rossbach (نوفمبر ١٧٥٧)، وهناك أنزل به هزيمة ساحقة، ذلك هو الانتصار الذى احتفل به — بحق — الواعظ المفوه لكنيسة « المثوديست » Methodist السيد « وايتفيلد » Mr. Whitefield بوصفه الانتصار الذى توج القضية البروتستانتية. وفى تلك الأثناء كان القائد « دون » Daun فى سيليزيا، وهناك فى موقعة « لوثن » Luthen الحامية الوطيس (ديسمبر ١٧٥٧)، فى جو ديسمبر القارس البرودة، دحر فردريك قوات ذلك القائد النمسوى القدير الذى كان قد اضطره إلى قبول الهزيمة قبل ذلك ببضعة شهور.

وقد أثارت إعجاب العسكريين فى كل العصور التالية همة فردريك ومهارته فى طرد أعدائه من سكسونيا وسيليزيا فى معارك ذلك الخريف العجيب بجيش ضعضعته ونالت منه هزائم سابقة، وقد عد نابليون وهو أعظم العسكريين قاطبة — عد « لوثن » بحركاتها ومناوراتها وتصميمها عملا فنياً خالداً. وتلك وحدها شهادة كافية لكى تضع فردريك فى مصاف القواد ذوى الشهرة الخالدة.

على أن هذه الانتصارات لم تغير الطابع الأساسى لمشاكل الحرب فى الشرق . إذ لم يكن فى الإمكان أن تأمل بروسيا أن تحمى نفسها حماية فعالة من الغزو الأجنبى ؛ فقد كانت حدودها عرضة للهجوم بدرجة كبيرة . فكانت المشكلة الوحيدة هى ما إذا كان فى وسع الملك فردريك صاحب هذه الدولة الصغيرة الغفيرة القليلة السكان أن يحتفظ بجيش قائم ضد القوى المتحدة لإمبراطوريتين عظيمتين ، فى استطاعة كل منها أن تنزل إلى الميدان جيشاً يفوق جيشه عدداً ومرونة . وإذا كان فردريك قد استطاع ذلك فإن ذلك لا يرجع فقط إلى عبقريته العسكرية التى مكنته مرة بعد أخرى كما فى واقعة « ليجنتز » Liegnitz (فى ١٤ أغسطس ١٧٦٠) وفى « ترجاو » Torgau (٣ نوفمبر ١٧٦٠) ، وفى « شفيدنتز » Schweidnitz (٩ أغسطس ١٧٦٢) من مهاجمة عدوه وهزيمته ، وإنما يرجع أيضاً إلى عدم اتحاد خصومه من الروس والنمسويين اتحاداً كاملا ، والأحقاد المتبادلة بينهما ، وكذلك إلى بعض الشوائب الخاصة التى استطاع أن يستغلها تماماً ؛ فلو كانت القوة المعنوية عند الروس تعادل قوة جيوشهم ، لو أن فرمور لم يتجه شرقاً بعد موقعة « زورندروف » Zorndorf المتعادلة (١٧٥٨) ، حيث حقن عدداً كبيراً من أرواح البروسيين ، ولو أن « سلتيكوف » Soltikov لم يستسلم للعبث بعد انتصاره الساحق فى « كنرزدورف » Kunersdorf (١٧٥٩) ، ولو بادر النمسويون بقيادة « دُن » Daun إلى استغلال هذا النصر الروسى النمسوى الرائع لكان لا مناص لفردريك من تناول تلك الجرعة المهلكة — جرعة الانتحار — التى كان يدخرها بديلا لصلح شائن . على أنه يبدو أن فى الخلق الروسى نقصاً فطريًّا فى القدرة على المثابرة . ففى حرب السنوات السبع توغل الروسيون المرة تلو الأخرى فى الأراضى البروسية . فوضعوا أيديهم على « كولبار » Colmar واستقروا فى « بوميرانيا » البروسية Prussian Pomerania وتوغلوا حتى فرانكفورت على الأودر Frankfort-on-Oder ، بل حتى برلين كذلك وحاربوا البروسيين فى ثلاث معارك وحشية وأنزلوا بهم خسائر فظيعة . ولكنهم لم يحافظوا قط على ثمرات انتصاراتهم . وعندما توفيت القيصرة إليزابيث فى ٥ يناير ١٧٦٢ ، كان لا يزال يهيم بين تلال سيليزيا قائد قصير القامة ، هزيل ، قذر الوجه ، يرتدى ملابس قديمة ملوثة بالشحم والنشوق الإسپانى ، ولكنه

مع ذلك كان يجد فراغاً من الوقت للناى والشعر الفرنسى . كان قادراً — كما أثبت فى واقعة « شفايدنتز » Schweidnitz على توجيه الضربات الوحشية نحو خصومه ، كان لا يزال يهيم بين تلال سيليزيا يتبعه عدد من المحاربين المحنكين ، وقد نالت منهم الحرب ، ولا يقلون عنه قنوطاً ورثاثة . وكان فى موت إليزابث خلاص فردريك ؛ فقد خلفها على عرش روسيا صديق له . كان بطرس الثالث شديد الإعجاب بالملك . أما وقد انسحبت القوات الروسية ، وأمام تهديد الأتراك لحدودها الشرقية ، اضطرت ماريا تريزا فى النهاية أن توقع صلح « هيوبرتسبرج » Hubertsburg (١٥ فبراير ١٧٦٣) . وهكذا ظهر أن فكرة إمكان الحكم على بروسيا بالزوال على يد مجمع دينى Aulic Council حتى إن أيدته جيوش أعظم ثلاث دول فى أوربا كانت أضغاث أحلام.

أما فى الميدان الغربى والبحرى فإن إنجلترا البحرية بتوجيه من عبقرية وليم پت قدر لها أن تضمن للتحالف البروتستانتى انتصاراً عظيماً . وعلى حين اتسمت النتيجة الرئيسية فى الميدان الشرى — أى فى حروب القارة — بروح المحافظة ، كانت نتائج الصراع الكبير بين فرنسا وإنجلترا ثورية لدرجة فاقت كل ما كان متوقعاً . لقد حال فردريك بجهوده العظيمة دون إحداث تغيير عنيف فى توازن القوى فى ألمانيا . فأنقذ بروسيا من الهلاك واحتفظ بسيليزيا ، ولكن إنجلترا كسبت إمبراطورية جديدة فى الشرق وفى الغرب . وهنا كان التبدل العظيم فى معايير العالم وموازينه . ففى نهاية الحرب أمن الأنجلوسكسون لأنفسهم التوسع فى قارة أمريكا الشمالية والحكم فى الهند . فالفرنسيون الذين هددوا المستعمرين الإنجليز بالوقوف سداً دون تقدمهم غرباً فى أمريكا الشمالية قد طردوا من مواقعهم على امتداد نهر الأهيو Ohio ؛ ورفرف العلم البريطانى على قلعة كوميك ، وهكذا تقرر مصير قارة ضخمة . وفى الهند وضع « كلايف » Robert Clive وهو ضابط شاب فى خدمة شركة الهند الشرقية ، أسس ذلك النظام الحكومى العجيب الذى جمع تحت لواء التوجيه السياسى لشعب بروتستانتى من شعوب الشمال أكثر من ثلثمائة مليون شرقى قدموا بما بينهم من فروق لا حصر لها فى الجنس واللغة والدين لسادتهم المحايدين فرصة للعمل ومشكلة للحل .

فى بداية الأمر سارت الأمور سيراً سيئاً بالنسبة للإنجليز ، فقد فاز الفرنسيون فى كندا وحلفاؤهم من الهنود الحمر فى الأعمال الحربية الأولى . ففى البحر المتوسط فقدت إنجلترا منورقة (يولية ١٧٥٦) مما ألهب نار الغضب والعار فى هذا الشعب الذى لم يعتد كثيراً على الهزائم البحرية . ثم سقطت كلكتا فى أيدى أعدائهم ، وأصيبوا بالهزيمة أمام « روشفور » Rochfort كما أعجزت العاصفة أسطولا بريطانياً أمام لويز برج Louisburg . ولكن حينئذ، وكما يحدث غالباً عندما تدخل إنجلترا الحرب ، أخذ احتياطيها من القوة المعنوية والمادية فى التكتل ، وبدأت النتيجة تبدو بفضل جهود قائد عظيم .

وبدأت عمليات الهجوم الواسعة المشتركة ضد فرنسا فى كافة أنحاء العالم تؤتى ثمارها . فسقطت فى أيدى الإنجليز لويزبرج مفتاح كندا ، وحصن « دوكين » Duquene (المركز الأمامى للجيش الفرنسى على نهر الأهيو ونقطة الوصل بين كندا الفرنسية ولويزيانا الفرنسية ونواة الإمبراطورية الفرنسية المحتملة فى الغرب الأوسط من أمريكا الشمالية) . وكذلك استولت إنجلترا على جوريه Goree ومعها تجارة العبيد الفرنسية فى غرب أفريقيا . كما أرسلت إنجلترا معوناتها المالية وجنودها لمساعدة الدوق « فرديناند برنزويك » Duke Ferdinand of Brunswick الذى كان يدافع عن القضية البروتستانتية فى منطقة هانوفر ؛ وقد سهلت مهمته كثيراً الغارات البحرية التى نشط الأسطول البريطانى للقيام بها على ساحل فرنسا . وكان الانتصار الحاسم على جيش فرنسى أكثر عدداً فى كريفلت Crevelt (٢٣ يونية) إعلاناً بأن موهبة عسكرية جديدة من نوع ممتاز قد جندت لخدمة القضية البروسية الإنجليزية.

وكانت أمريكا الهدف الرئيسى لجهود « پت » . وإن أعظم أمجاده كرجل دولة أنه فطن إلى أهميتها واعتبر سائر عمليات الحرب عاملا مساعداً للاستيلاء عليها . لقد كانت « ينبوع ثروتنا ، وعصب قوتنا ، ونواة قوتنا البحرية وقاعدتها » .

كانت خطة پت العظمى لتحطيم النفوذ الفرنسى فى كندا تتلخص فى هجوم ثلاثى يوجه من الغرب والجنوب والشرق ؛ وعلى الرغم من أنه لم يكن من المستطاع تنفيذ هذه الخطة كاملة فقد دلت على تفكير ارتفع إلى مستوى الهدف الذى ترمى إليه . والواقع أن التوفيق كان حليفها ؛ فلم يقع ما ينقض الانتصار الذى أحرزه « وولف » Wolfe فى « مونتكالم » Montcalm على مرتفعات « أبرهام » Abraham

(٣ سبتمبر ١٧٥٩) . وانتقلت إلىحكم الإنجليز كندا الفرنسية التى ظلت دواماً ممتنعة على عقيدة الإنجليز ولغتهم ونظرتهم إلى الحياة انتقلت إلى القيادة الإنجليزية ، حطاماً من فرنسا القديمة مطموراً فى جليد الشمال . وحافظت إنجلترا بقواها البحرية على هذا الفتح .

ولما كان ميزان القوة البحرية فى ذلك الوقت أمراً معروفاً فإنه لم يكن من المستطاع أن تجىء نتيجة الحرب فى الميدانين الغربى والشرقى مخالفة لذلك . فعلى الرغم من أن سكان كندا الفرنسية كانوا مدربين للحرب أعظم تدريب ، فقد كان يفوقهم عدداً سكان المستعمرات الإنجليزية الثلاث عشرة المزدهرة الممتدة على طول المحيط الأطلسى . فمليونان من الأنفس لهم ميزة التفوق على خمسين ألفاً ، وهى ميزة كان لابد لها أن تؤكد وجودها فى النهاية . على أن المستعمرات الإنجليزية لم يكن يعوزها الشجاعة أو الإقدام وإنما قوة الاتحاد . كان للإنجليز أسطول وكان لهم جيش ، وكان لديهم خطة للحرب ، استغلت موارد كانت موجودة منذ أمد بعيد ومكنتها من إظهار تأثيرها الحق .

وإلى البرلمان الإنجليزى يعود نصيب من الانتصارات البحرية والاستعمارية الكبرى التى أحرزتها إنجلترا فى ذلك العهد ، فقد أفسح المجال للاستماع إلى مشاعر الملاحين والتجار والمستعمرين والإصغاء إلى أطماعهم ومظالمهم . فاستحال على لندن ، ولكن لم يكن من غير المستحيل على باريس إهمال حاجيات المواطنين فيما وراء البحار .

ثم إن الدوائر الانتخابية فى إنجلترا كان لها مصالح وفروع استعمارية : فمثلا كان أعضاء « بول » Poole أبطال الاستعمار فى نيوفوندلاند Newfoundland ؛ أما منطقة (ديفيزز » Devizes فكانت تضع نصب عينيها مصالح مستعمرتى كارولينيا . أما فى باريس فلم يكن ثمة شىء من هذا ، إذ كان يعوزها مثل هذه الأداة لتركيز أصوات المستعمرين عبر البحار ، فبقيت إدارة البحرية الفرنسية تحت رحمة أفضال البلاط . ومن ثم قدر لوزراء أكفاء أمثال ماشو Machault أن يسقطوا دون أن يرتفع صوت للاحتجاج ، كما قدر لوزراء طالحين أمثال « مورا » أن يبقوا فى الحكم دون معارضة . فى سنة ١٧٥٩ الحرجة عرقل « بسكوين »

سير أسطول البحر المتوسط الفرنسى فى « لاجوس » Lagos ودمر « هوك » Hawke فى خليج « كويبرن » Quiberon جزءاً كبيراً من أسطول المحيط الأطلسى الفرنسى . حتى وإذا افترضنا فشل الحرب التى خاضها « وولف » Wolfe فقد كان فى هاتين المعركتين البحريتين الكفاية لتقرير مصير الحرب الأمريكية .

أما فى الهند حيث أفسح انحلال الإمبراطورية المغولية مجالا واسعاً للمطامع الأوربية ، فقد حالف الحظ فرنسا فى البداية ثم تخلى عنها بعد ذلك لأسباب مماثلة . وإذا قارنا موقعاً بموقع فإن مواقع الإنجليز كانت تمتاز على مواقع خصومهم : فبومباى Bombay كانت ثغراً أصلح من ماهيه Mahé ، ومدراس Madras أكثر توسطاً من « بند تشيرى » Pondicherry ، وكلكتا أكثر ملاءمة للتجارة من المحطة الفرنسية فى « شندرناجور » Chandernagor ؛ على أن الفرنسيين تفوقوا أولا فى السباق على النفوذ والسلطان السياسى . ففى أثناء حرب الوراثة النمسوية (١٧٤٠ — ١٧٤٨) كان النفوذ الفرنسى مسيطراً فى جنوبى الهند فى وقت كان « لابوردونيه » La Bordonnais يتولى قيادة الأسطول الفرنسى ، ودوبليه Dupleix يعمل فى « بندتشيرى » على تكوين إمبراطورية . عن طريق التحالف مع الهنود وجيش من السباهية Sepoy ، و« بسى » Bussy اللامع الملم باللغات الشرقية يحيك المؤامرات السياسية فى « حيدر آباد » بل أن مدراس نفسها انتقلت لحكم فرنسا لبضع سنوات .

ولكن الأوضاع انقلبت بعد صلح « إكس لاشابل » Aix-la-Chapelle فغدت شركة الهند الشرقية الإنجليزية أقوى فى التجارة والمال بدرجة فائقة من شركة الهند الشرقية الفرنسية . كان لإنجلترا فى ميدان العمل رجال أصلح ، كما كانت على استعداد لتقدم لهم من وطنهم تأييداً ومساعدة أكبر . واستدعت فرنسا « لابوردونيه » و « دوبليه » بينما اكتشفت إنجلترا « روبرت كلايف » Robert Clive و « سترينجر لورنس » Stringer Laurence ، و « إير كوت » Eyre Coote . وعلى حين امتنعت السفن الفرنسية عن عبور المحيط الهندى من قاعدتها البعيدة فى جزائر موريس Mauritius فى فصل الرياح الموسمية ، كانت المساعدات البحرية حاضرة لتأييد المصالح البريطانية فى كل فصل من فصول السنة . ثم إن فكرة إمكان حفنة من الفرنسيين الطموح إلى التحكم فى إقليم « الدكن » Deccan كانت تبدو لرجال

السياسة فى باريس ضرباً من الجنون بينما اندفعت حفنة من الإنجليز بقيادة روبرت كلايف ونجحت فى البرهنة على أنه من الممكن فعلا تحقيق خطة لبسط السيطرة السياسية أكثر جرأة وعلى نطاق أوسع . وإن سيرة روبرت كلايف (١٧٢٥ — ١٧٧٩) وهو ابن أحد أعيان الريف ممن أخنى عليهم الدهر ، وقد بدأ حياته كاتباً لحسابات أحد التجار فى خدمة شركة الهند الشرقية ، ثم أصبح مؤسساً للإمبراطورية ، تكون إحدى قصص العالم الخيالية . ومات كلايف بيده[1] فى سن التاسعة والأربعين . ولا تتعدى كل المدة التى قضاها فى خدمة بلاده فى الهند ، وقد تخللتها زيارتان لإنجلترا الاثنى عشر عاماً . فى الدور الأول جعل إنجلترا تتفوق فى الكرنات وفى الدور الثانى استرد كلكتا من سراج الدولة[2] (سلطان المغول) Suraj-ud Dawlah ، فهزم جيشه فى « بلاسى » Plassey ، وهزم الهولنديين وطرد الفرنسيين من البنغال وشمال « سركار » Circare ، وقضى على نفوذهم فى حيدر أباد وأقام النفوذ البريطانى فى وادى نهر الكنج Canges . وفى الدور الثالث ولم يكن أقل أدوار خدماته العامة مجداً ، نظم إدارة البنغال المدنية وطهرها . وقد تميزت عملياته الحربية بجرأة غير عادية . ففى سن السادسة والعشرين قاد خمسمائة رجل إلى « أركوت » Arcot عاصمة الكرنات حيث احتفظ بقلعة متداعية أمام عشرة آلاف من الهنود تؤيدها قوات فرنسية لمدة خمسين يوماً (١٧٥٧) وفى قلعة « بلاسى » Plassey الحاسمة قاد ثلاثة آلاف جندى ، منهم تسعمائة فقط من الأوربيين ، ضد قوة من أربعين ألفاً من المشاة وخمسة عشر ألفاً من الفرسان ، وهى قوات أعدائه متكبداً خسارة تقل عن مائة نفس .

---

(١) موت كلايف : قائد وسياسى بريطانى . التحق بخدمة شركة الهند الشرقية البريطانية وميز نفسه فى خدمتها وأحرز انتصارات باهرة على الفرنسيين فى الهند وأهمها انتصاره عليهم فى معركة بلاسى (١٧٥٧) . ولكنه اتهم عقب عودته إلى بريطانيا فى ١٧٦٧ بقبوله رشاوى وهدايا كبيرة . ومع أن البرلمان أبرأه من هذه التهم بعد محاكمة مثيرة ، إلا أنه انتحر (١٧٧٤) .

(٢) سراج الدولة مهراجا البنغال ، استحوذ على أملاك الإنجليز فى كلكتا سنة ١٧٥٦ ووضع أسراه منهم البالغ عددهم ١٤٦ فى السجن ووضعهم فى حجرة مساحتها ١٨ قدماً مربعاً فمات عدد كبير منهم اختناقاً نتيجة فساد الهواء حتى عرف السجن باسم « حجر كلكتا الأسود » . وقد ألحق كلايف بسراج الدولة هزيمة ماحقة .

وقد تكشفت له أسرار عظمة حكم بريطانيا السياسى فى الهند باستثناء سر واحد . لقد رأى أن قائداً أوربياً يقود قوات هندية يستطيع أن يصنع المعجزات بمساعدة رجاله إذا كان على استعداد لتعريض شخصه للمخاطر البالغة ؛ كما تحقق من أنه لا يمكن الحصول على نتائج سياسية عظيمة دون التعاون مع الهنود ومحالفتهم ، وركز جهوده لمحاربة الفساد وناضل لجمع شمل كافة ممتلكات شركة الهند الشرقية المبعثرة يوماً ما تحت حكم سياسى واحد . وإن الوصمة الكبرى التى لطخت شهرة ذلك الرجل الجسور البارد الطبع أنه قد غدر بأحد الهندوكيين النصابين . كان أوميشند Omichund محتالا ، ومع ذلك فإنه لم يكن من الواجب أن يتسبب محتال فى إقامة دليل واحد على الغدر البريطانى .

وفى أبريل ١٧٦١ لم يبق للفرنسيين شىء من إمبراطوريتهم فى الهند . وكان آخر حاكم لها أيرلندى الأصل ، حارب فى صفوف اليعاقبة — فى حركة ١٧٤٥ فى إنجلترا ؛ وكان لا يزال لديه من رصيد الكراهية ضد الإنجليز ما يصبه عليهم . كان « تولندال » Lally Tolendal كسائر أبناء جنسه شجاعاً فى غير أناة ولكنه أساء إلى شعور الجميع وارتكب كافة الأخطاء ، إذ لم يعرف شيئاً عن الهند أو عن شعبها ، كما أنه كان حاد المزاج وكثير الظن . فكان مثل ذلك الإيرلندى قادراً على القضاء على أية قضية . فتسبب « ليلى » التعس فى فقدان الهند فى موقعة « ونديواش » Wandewash الحامية الوطيس . حقاً لا يمكن الطعن فى شجاعته أو ولائه ولكنه وجد فى « إيركوت » Eyre Coote جندياً لا يكاد يفوقه إلا كلايف نفسه بقليل . ولما لم تكن السماحة إزاء الكوارث من فضائل الفرنسيين ، رأينا فى عام ١٧٦١ ، أى بعد مرور ست سنوات على سقوط بندتشيرى ، جمهوراً متوحشاً يتجمع فى ميدان « لاجريف » La Grève ، ليمتع أنظاره بالنزعات الأخيرة يجود بها هذا القائد الحاد الطبع ابن « إيرن » Erin تحت بلطة جلاد باريس الثقيلة . حيث كفر عن فشله فى القيام بوظيفة الحاكم . أما كلايف فقد كرمته بلاده المعترفة بفضله المنتقدة لبعض أعماله بوسام وتمثال ومرثية نبيل إيرلندى .

وعندما وضعت الحرب فى النهاية أوزارها بصلح باريس ١٧٦٣ منحت شروط الصلح (على الرغم من أنها جاءت أقل مما كان يرضى پت) إنجلترا ومستعمراتها

ممتلكات من الاتساع بحيث تغير مجرى تاريخها . أخرجت فرنسا من الهند ، ولم يبق لها إلا بعض المراكز التى كانت فى يدها فى يناير ١٧٤٩ . كما انتقلت كندا والسنغال إلى إنجلترا ، واستردت إنجلترا جزيرة منورقة — وتنازلت لها إسپانيا عن فلوريدا . وازدادت مجموعة جزائر الهند الغربية الإنجليزية بإضافة كل من الجزائر الآتية : سانت فنسان St. Vincent ، وتوباجوه Tobago ودومينيكا Dominica وجرنادين The Grenadines . كان صلحاً عظيماً بالنسبة لإنجلترا على الرغم من سماحه للفرنسيين بالاحتفاظ بحقوق الصيد على شواطئ نيوفوندلاند ونهر سانت لورانس واستعادتهم لبعض جزائر الهند الغربية القيمة . وقد كان أحد المعاصرين محقاً عندما نعته بأنه « أشرف صلح عقدته هذه الأمة » .

وقد مكن إنجلترا الازدياد العظيم فى رفاهيتها التجارية من تحمل أعباء حرب طويلة كثيرة النفقات دون كلل ، وفى نهايتها — كما قال آدم سميث Adam Smith بعد ذلك : « ازدهرت الزراعة فيها ، وتقدمت الصناعة ، واتسعت التجارة على نحو لم تعرفه من قبل » . وعلى نقيض ذلك تماماً كانت أحوال حليفة إنجلترا فى أوربا . فكتب فردريك : « إن سكان بروسيا قد نقصوا بمقدار ٥٠٠,٠٠٠ نسمة خلال حرب السنوات السبع وإن هذا لنقص فادح بالنسبة لمجموع السكان البالغ ٤,٥٠٠,٠٠٠ نسمة . لقد نهب النبلاء والفلاحون وفرضت عليهم الفدية على أيدى جيوش متعددة حتى لم يبق عندهم شىء سوى الخرق البالية التى تستر عريهم . لم يبق لديهم من المال ما يكفى حاجاتهم اليومية . ولم يعد هناك بوليس للمدن ، فحلت الفوضى والمصالح الخاصة محل سيادة روح العدل والنظام . وتخلى القضاة وعمال الضرائب عن أعمالهم بسبب توالى هجوم الأعداء ، ووقف حكم القانون وحل محله روح عدم المبالاة والغصب وقد رفع النبلاء والتجار والفلاحون والعمال والصناع أجورهم وأثمان منتجاتهم لأقصى درجة . ولاح وكأن كل شخص مكلف بخراب الآخر بابتزاز ماله . تلك كانت بعد انتهاء الحرب الحالة الفظيعة التى سادت أقاليم كانت مزدهرة جداً قبل ذلك . فكانت حال الأقاليم تشبه أحوال برندنبرج عقب انتهاء حرب الثلاثين عاماً » . وإن الإرادة البروسية ، وقد صهرها لهيب الضراء ، قد باتت فى صلابة الصلب وتطلعت إليها بلاطات ألمانيا الأكثر ترفهاً حيث ازدهرت

الفنون كبلد بربرى متأخر ينذر بالخطر .

وإذا قورنت تضحيات إنجلترا فى حرب السنوات السبع بالتضحيات الهائلة التى دفعها البروسيون ثمناً لسيليزيا بدا للألمان بصورة واضحة البون الشاسع فى حظوظ المتحاربين . فلم يسقط من الأوربيين إلا عشرون فى معركة « بلاسى » Plassey ومائة وأربعة وتسعون فى « فاندواش » Wandewash ، ثم إن تكاليف غزو كندا ، وفقاً لتقدير پت ، لم تتجاوز ألفا وخمسمائة من الأرواح . وإن الأرواح التى فقدتها بروسيا فى معارك فردريك الكبرى لتزيد على خمسة أضعاف ما فقدته إنجلترا فى الحصول على هاتين الإمبراطوريتين العظيمتين . على أنه إذا كان الثمن المبدئى الذى أدته إنجلترا — إذا قيس بعدد القتلى — منخفضاً فقد كانت تنتظرها اضطرابات كثيرة . فبعد بضع سنوات انفجر فى الأراضى الأمريكية ذلك النضال الهائل بين الوطن الأم والمستعمرين الإنجليز وأدى فى النهاية إلى تأسيس الولايات المتحدة الأمريكية .

كتب يمكن الرجوع إليها

— T. Carlyle : Life of Frederick II of Prussia (1858-65).
— B. Williams : The Life of William Pitt, Earl of Chatham (1914).
— J.R. Seely : The Expansion of England (1885).
— A. duc de Broglie : Fréderic II et Marie-Thérèse. 2 Vols. (1883).
— A.G. Bradley : The Fight with France for North America (1900).
— A.C. Lyall : Warren Hastings (1889).
— A.C. Lyall : The Rise & Expansion of the British Dominion in India (1907).
— Macaulay's Essays (Clive, Warren Hastings, Chatham), (1852).
— L.B. Namier : The Structure of Politics at the Accession of George III. 2 Vols. (1929).
— J.S. Corbett : England in the Seven Years' War (1907)

الفصل الثامن والعشرون

حرب الاستقلال الأمريكية

نتيجة الاستيلاء على كندا – المستعمرات الإنجليزية فى أمريكا الشمالية – القيود على التجارة – الضرائب المباشرة – عناد الملك جورج – حفلة الشاى فى بوسطن – مؤتمر فيلادلفيا – سوء قيادة القوات البريطانية فى أمريكا – جورج واشنطون – دخول فرنسا وإسبانيا الحرب – إنجلترا تواجه الأخطار – الأوهام الناتجة عن هزيمتها .

من الأسباب الرئيسية لحرب الاستقلال الأمريكية تلك الانتصارات ذاتها التى تم لبريطانيا الحصول عليها فى غير عناء كبير . إن طرد الفرنسيين من كندا والإسبانيين من فلوريدا خلص المستعمرين من هذين الجارين الخطيرين ولكنه أضعف اعتمادهم على الوطن الأم . فغدا المستعمرون –وقد قلت حاجتهم للمعونة الإنجليزية عن ذى قبل– أكثر استعداداً لتحدى ادعاءات إنجلترا . لقد حمل الكثيرون منهم السلاح بمحض رغبتهم أثناء تلك الحرب الكبرى ضد فرنسا. ولكن قليلين منهم قبلوا المشاركة فى تصفية المشكلات المالية التى ترتبت على تلك الحرب . وعندما اقترح جورج جرانفيل فرض ضريبة التمغة لوفاء جانب من تكاليف الجيش الذى استخدم لحماية المستعمرات نهضت لمقاومتها دوافع مختلفة منها ما قام على العناد والحرص وضيق الأفق ، ومنها ما كان يتصل بأحسن ما ورثه الجنس الأنجلوسكسونى من تقاليد سياسية .

كانت المستعمرات الإنجليزية الثلاث عشرة فى أمريكا الشمالية أوفر المستعمرات الأوربية فى العالم الجديد حظاً من الحرية . فعلى الرغم من تبعيتها للتاج البريطانى والبرلمان ، فقد سمح لها فى الواقع بتدبير شئونها الخاصة دون تدخل كبير من البرلمان البريطانى باستثناء مسألة معينة . فقد كان الاتجار مع المستعمرات خاضعاً لنظام روعى فيه أن يحقق فائدة متبادلة للوطن الأم ومستعمراتها . إن « التخطيط الاقتصادى » على نطاق واسع لا يتوقع له النجاح على الإطلاق خلال فترة قصيرة

من الزمن ؛ ويقدم لنا نظام الاستعمار الإنجليزى القديم مثلا طيباً للاحتكاك الذى يمكن أن ينشأ عن محاولة سليمة القصد لتنظيم الحياة التجارية والصناعية لمجتمعات مبعثرة من قاعدة بعيدة عنها . حرم على سكان المستعمرات أن ينشئوا صناعات قد تنافس صناعة الدولة الأم ، كما ألزموا بشحن صادراتهم على سفن بريطانية أو سفن للمستعمرات على أن يكون ثلثا رجالها من البحارة البريطانيين أو بحارة المستعمرات ، ووضعت قائمة طويلة من سلع معينة . ومنها سلع من منتجات المستعمرات وألزموا بألا ينزلوها إلا فى ثغور بريطانية . ومن ناحية أخرى حرم على الإنجليز أن يدخنوا إلا تبغاً مما تنتجه أمريكا وبرموده . كما منحت مساعدات مالية لقطاع الخشب فى نيوإنجلند لتشجيع صناعة المعدات البحرية .

ولم تكن هذه التنظيمات ثقيلة الوطأة ، أو مما لا يحتمل فى مرحلة النمو الاقتصادى الذى بلغته المستعمرات الإنجليزية فى بداية حكم جورج الثالث (١٧٦٠) ولم يكن الوقت قد حان بعد لتقدم الصناعة فى المستعمرات . وطالما كان أهل المستعمرات على استعداد للسماح للدولة الأم بتزويدهم بالبضائع المصنوعة ، فلم يكن مما يشق عليهم أن يشحنوا المواد الخام إلى الموانئ الإنجليزية للحصول فى مقابلها على منتجات المصانع الإنجليزية .

ومع ذلك كان هناك قيد واحد سبب حنقاً عظيماً للغاية . وإذا كان ورع سكان نيوإنجلند قد قام مستمداً من الإنجيل ، فإن رخاءهم كان يقوم بدرجة كبيرة على تجارة الروم . وقد صدر قانون العسل الأسود Molasses Act فى عام ١٧٣٣ . وقد حرم استيراد السكر المزروع فى مزارع فرنسية ، كما منع استيراد العسل الأسود والروم لخدمة مصالح أصحاب المزارع الكبيرة من البريطانيين وقد أصاب هذا القانون معامل التكرير فى نيو إنجلند بضربة بالغة ، ولولا نشاط حركة التهريب فى المستعمرات لكانت هذه الضربة فى حد ذاتها كافية لإحداث القطيعة بين إنجلترا ومستعمراتها . وإنه لأمر غريب يدعو إلى التأمل ، أنه لولا نشاط مهربى الخمور [1]

---

(١) Bootleggers : اصطلاح يطلق على مهربى الخمور المحرمة قانوناً . وهو اسم قديم يرجع إلى العصر الذى كانت الخمور تهرب فيه فى الأحذية الواسعة التى كان يستعملها المهربون . وأعيد استعمال هذا الاصطلاح فأطلق على مهربى الخمور فى الولايات المتحدة فى السنين التى حظر احتساؤها (١٩٢٠ — ١٩٣٠).

فى القرن الثامن عشر لأصبح الدافع الأول الذى أدى إلى تأسيس الجمهورية الأمريكية هو القيد الذى فرضه محتسو النبيذ من رجال البرلمان الإنجليزى على متاجرة الأمريكيين فى الروم مع الأهالى الهنود .

ولكن القطيعة وقعت بسبب الضرائب المباشرة . لقد تشاجر الإنجليز دائماً بسبب المال . وإن المستعمرين الإنجليز فى أمريكا (إذ كان العنصر الأيرلندى عندئذ لا يذكر) الذين قاوموا ضريبة التمغة التى فرضها « جرانفيل » Grenville كانوا أوفياء لتقاليد أجدادهم . وعلى أساس النزاع القديم المعتاد وهو « لا ضرائب دون تمثيل » احتجوا على ضريبة كانت صغيرة فى حد ذاتها ، ولكنها كبيرة بالنسبة لميزانيتهم الشحيحة . وهكذا كانت قضية إنجليزية انقسم بشأنها الإنجليز على جانبى المحيط الأطلنطى . بل وجد فى أمريكا أنصار لحزب التورى أو الموالون للدولة الأم ؛ بينما وجد فى إنجلترا أنصار للأمريكيين أو حزب الهويج . وقد اعترض أعظم الساسة البريطانيين الثلاثة فى ذلك الوقت وهم « تشاتام » Chatham « وبيرك » Burke وفوكس Fox على إلزام المستعمرات بدفع الضرائب وأيدهم فى الرأى فريق لا يستهان به من الطبقة الوسطى البريطانية . كانت طبيعة هذا النزاع فى مراحله الأولى أهلية ، حتى إن ضباطاً فى الجيش الملكى والبحرية الملكية آثروا الاستقالة من الخدمة العسكرية دون أن تلحق بهم وصمة عار على أن يحملوا السلاح ضد معارفهم وذوى قرباهم فى الجانب الآخر من المحيط .

ويسلم المؤرخون الأمريكيون اليوم بأن جانب الإنجليز فى القضية كان له من الحجج أكثر مما سلم به أسلافهم بصفة عامة . فإن مستقبل أمريكا الشمالية لم يؤمن بعد ؛ إذ كان خطر الهنود ماثلا على الدوام . ونظراً لتعقيدات السياسة الأوربية فقد كان هناك احتمال لمعاودة فرنسا وإسپانيا الهجوم عليها . ومن ثم بدا أن تكوين قوة للدفاع عن المستعمرات كيفما كان أعدادها أصوب ضمان ضد مخاطر كثيرة ليست فى الحسبان . وظل تمويل ذلك المشروع أمراً غير ممكن حتى ذلك الوقت بسبب الأحقاد المتبادلة بين المستعمرين . ولم يكن ثمة ما يدعو إلى الظن بأن محاولة الفرنسيين التى فشلت فى عام ١٧٤٥ عندما كان الخطر الفرنسى فى أعلى درجاته قد تنجح بعد ذلك بعشر سنوات عندما طرد الفرنسيون بصورة حاسمة من الميدان .

أكان إذن أمراً مثيراً للحنق أن يمارس البرلمان البريطانى حقوق سيادته فيفرض ضريبة على المستعمرين لتنفق فى المستعمرات على تكوين جيش لا غرض منه إلا الدفاع عنها ؟

وفجأة واجهت المشرعين من رجال الطبقة العليا فى بريطانيا الخالين البال المترفين تلك المشكلة الغريبة، مشكلة حكم إمبراطوريات نائية . ولم يكن لديهم من المؤهلات ما يكفى لفهم تلك الديمقراطية الصلبة التى كانت لا تزال عبر المحيط الأطلنطى تعتز فى حماسة بالمثل العليا التى عرفتها إنجلترا أيام كرمويل؛ وأخطر من ذلك عدم إدراك الملك للموقف عندما ظن أنه قد جعل من نفسه صاحب الكلمة العليا فى مجلس الوزراء والبرلمان . ونظراً للاحتجاج الصارخ الذى قوبلت به ضرائب جرانفيل ، فإن أبسط أنواع الحذر كانت تقضى بالتخلى عنها والتنازل عن أى أمل فى الحصول على موارد مالية من المستعمرات إلا ما توافق عليه مجالس المستعمرات بمطلق حريتها . أما جورج الثالث فكان لا يرى إلا وسيلة واحدة لمعاملة المستعمرين الثائرين . وهى وسيلة القوة . فلم يكن على الإطلاق مستعداً للتنازل فى مسألة كان يعدها مسألة مبدأ. فأرفق سحب ضريبة التمغة فى عام ١٧٦٥ بإعلان من البرلمان ينص على أن لبريطانيا الحق المطلق فى فرض الضرائب على مستعمراتها ، وفى الوقت نفسه قررت الحكومة البريطانية بعض الضرائب التافهة على الزجاج والرصاص والورق والشاى وقد فرضها « شارل تاونسند» Charles Townshend فى عام ١٧٦٧ والغرض منها تأكيد المبدأ أكثر من تحصيل دخل ذى قيمة . ولكن ذلك أثار سعير السخط فى المستعمرات فوصل إلى أعلى درجات الهياج . وقد أبى الملك أن يتنازل عن مبدئه حتى عندما اتضح بجلاء أن نفقات جباية الضرائب الجديدة كانت تزيد بكثير على قيمتها ، وأنها كانت تدفع ولاية « مساشوزتس » Massachusts . بسرعة نحو الثورة . فقررت وزارة لورد نورث Lord North بأغلبية صوت واحد أن تستبقى ضريبة الشاى بعد أن تخلت عن ضرائب تاونسند الأخرى . ومن الصعب أن نتصور عملا أكثر خرقاً من ذلك. فقد قدر أن أقصى ما يمكن تحصيله من هذه الضريبة هو ١٦,٠٠٠ جنيه سنويا ؛ وأعلنت الوزارة عمداً فى مايو ١٧٦٩ بغية استرضاء الرأى العام أنها لن تقترح فرض ضرائب أخرى على أمريكا بقصد تحصيل إيراد . فكان

رد الأمريكيين تلويحاً بالحرب . وفى ١٦ ديسمبر ١٧٧٣ تسلقت مجموعة من الرجال المتنكرين فى زى الهنود الموهوك Mohawk Indians ثلاث سفن فى ميناء بوستن ، وألقوا بكل حمولتها من الشاى فى الماء . وقابل مجلس الوزراء البريطانى ذلك العمل بالمثل ، فأغلق ميناء بوستن وأعاد تشكيل دستور مساشوزتس وأصدر قانوناً يخول للمتهمين بجرائم كبيرة فى هذه الولاية أن يحاكموا فى مستعمرة أخرى أو فى بريطانيا إذا تبين أنه لا يمكن محاكمتهم محاكمة عادلة فى ولايتهم .

وتجمعت المستعمرات حول مساشوزتس فى مقاومتها لهذه الإجراءات التأديبية . فتكون تحالف وميثاق مقدس يلزم المشتركين فيه بالامتناع عن تبادل التجارة مع بريطانيا إلى أن تبطل أوامرها البغيضة . وفى ٥ سبتمبر ١٧٧٤ تقابل ممثلون للاثنتى عشرة ولاية فى مؤتمر فيلادلفيا Philadelphia ليتفقوا على إجراءات المقاومة ضد التاج البريطانى . وأخذ كل جانب يقدر أوجه الضعف والانقسام فى الجانب الآخر .

ولم تكن إدارة بريطانيا للحرب أكثر توفيقاً من تلك السياسة التى جعلت الحرب أمراً لا معدى عنه . وكان فى المستعمرات جماعة ذات شأن تحبذ بصورة فعالة الإبقاء على الارتباط ببريطانيا ، بينما كان هناك كذلك فريق أكبر من المستعمرين لا يكترث بالموقف ولم يكوّن لنفسه رأياً ثابتاً بعد ؛ كذلك كان يتحتم على السياسة البريطانية أن تجعل أحد أهدافها الأساسية كسب هؤلاء الأصدقاء أو المترددين ، واحترام ممتلكات كل صديق أمريكى ، وتشغيل الموالين من الأمريكيين فى مهام الحكومة المدنية كلما أمكن ذلك . ولكن لم يحدث شىء من هذا . ومن سوء الطالع أن البريطانيين طلبوا معونة الهنود ، ولكن هؤلاء نفروا كل رجل على الحدود باعتداءاتهم ، هذا بينما كان جيش اللورد « هاو » Howe ، وغالبية جنوده من هس وهانوفر ينهب بيوت الناس دون تفرقة بين عدو وصديق . ويكفى لتفسير سلوكهم المؤسف أنه لم يتقدم من الموالين للتطوع فى صفوف القوات البريطانية أكثر من ٢,٥٠٠ طوال الحرب .

ومع ذلك فإنه لولا دخول فرنسا وإسپانيا الحرب إلى جانب الأمريكيين لخسر سكان المستعمرات الحرب . إذ لم يكن فى استطاعة جورج وشنطن العبقرى

نفسه—وكان أعظم الرجال شأناً فى كلا الجانبين — أن يجنب الثورة الأمريكية سلسلة هزائم ساحقة . فكانت مواقع «اونجآيلند » Long Island ، وترنتون Trenton ، وبراند يواين Brendywine أياماً حالكة فى التاريخ العسكرى « لأبناء الحرية» . وليس فى ذلك ما يدعو إلى التعجب ، فالدولة الأمريكية كانت فى طور التكوين . ففى فيلادلفيا عاصمة الاتحاد الغنى حيث كان كل شىء فجًّا ، وفى مرحلة التجربة ، وحيث لم يكن قد تكون بعد الإحساس بالدولة ، والولاء للدولة ، وتماسك الدولة ، لم يكن فى مقدور المدنيين أن يلقوا دروساً على الجنود . وقد كان وشنطن وحده هو الذى استطاع فى معسكر « ڤالى فورج» Valley Forge وسط مشقات الشتاء الفظيع القارس أن يجعل من جيش سيئ الإعداد غاية فى الاضطراب جيشاً على قدر من الكفاءة والتدريب ، وأداة من أدوات النصر . ما كانت الثورة — إلا فى القليل — من صنع شعب متحد مقتنع بها ، ولا أدل على ذلك من أن جيش وشنطن لم يزد تعداده على عشرين ألف جندى فى أى وقت طوال الحرب .

وفى ١٧ أكتوبر ١٧٧٧ أجبرت قوة إنجليزية تحت قيادة الجنرال « برجوين » Burgoyn أثناء تقدمها جنوباً نحو نيويورك على التسليم فى « سراتوجا » Saratoga. وقد أثار فرنسا « الملكية» ذلك الخبر الذى دوى فى جنبات العالم ، فدخلت الحرب لتأسيس « جمهورية » أمريكية تدفعها عوامل الغيرة الوحشية وحب الانتقام والحماسة .

ولن تجد سياسة كتلك أكثر مجازفة بالنسبة للويس السادس عشر ومارى أنطوانيت وأقل بصراً بالعواقب ؛ ذلك لأن الحرب الأمريكية لم تدفع الصرح المتداعى للمالية الفرنسية دفعته الأخيرة فحسب ، بل إن انتصار الديمقراطية وخلع حكم الملكية فيما وراء المحيط الأطلنطى قد أضاء فى كافة الأذهان التقدمية فى فرنسا صورة أوربا . وقد سويت خلقاً جديداً على نمط الأنموذج الأمريكى أى على أساس الحرية الجمهورية . ثم إن إتمام تحرير المستعمرات الأمريكية بمساعدة فرنسا قد تسبب فى إحداث تغيير كبير فى شعور الناس نحو ذلك النضال على جانبى المحيط الأطلنطى . لم تعد الحرب الأمريكية نزاعاً محليًّا وإنما أصبحت نزاعاً عالميًّا . إذا استنجدت المستعمرات بأعداء إنجلترا وحصلت على مساعدتهم . وإن ثورة

المستعمرات التى اعتبرت فى أساسها نزاعاً داخلياً صغيراً ، لم تلبث أن تحولت إلى تحالف رهيب أرهق موارد بريطانيا فى كل ركن من أركان العالم . وكأن بريطانيا لم تكفها عداوة دول البوربون الملكية فانضم الهولنديون ضد منافسيهم القدماء فى ميدان التجارة ، وتكون تحالف من الدول الشمالية المحايدة ، على رأسه كاترين قيصرة روسيا ، وكان يهدد بالتدخل ضد الأسطول البريطانى إذا استمر فى مضايقة تجارة الدول المحايدة فى البحار . ولم تتعرض بريطانيا مطلقاً فى كل تاريخها لعزلة أو خطر أشد مما تعرضت له إذ ذاك . فإذا كانت قد اضطرت أن تحارب الهولنديين على ساحل كروماندل Coromandel وفى سيلان ، وفى سومطرة وإذا كان حيدر على قد غمر إقليم الكرنات فى الدماء ، وإذا كانت إنجلترا قد خسرت ثمانية من جزائر الهند الغربية على أيدى الأسطول الفرنسى الذى ارتفعت كفاءته إلى درجة بعيدة ، وإذا كانت « مينورقا » و« فلوريدا » قد انتزعتا من الإنجليز فإن السبب الرئيسى لهذا كله هو عناد أبنائها المستعمرين أنفسهم . لم يكن تشاتام Chatham الصديق البريطانى الوحيد للقضية الأمريكية ، الذى شعر عندما ناشد الثوار معونة الدولة الأجنبية بأنه لن يكون — منذ الآن — ثمة مجال للإذعان .

والحرب ميدان خصب ترتع فيه الأوهام . فالفرنسيون يرون الكمال فى جمهورية مالكة للعبيد دون أن يفهموا معنى الحرية والمساواة ؛ والأمريكيون يرون فى الفرنسيين — وقد كانوا يختلفون عنهم بدرجة كبيرة فى كل النقاط الأساسية خلقاً وطبعاً — فرساناً مغاوير ويرونهم أقرب إليهم وأكثر تجانساً معهم من الإنجليز الذين ناصبوهم العداء والذين استقى المستعمرون منهم أصلهم ولغتهم وآدابهم ودستورهم . وثمة وهم آخر كان له نتائج أخطر — فإن هزيمة إنجلترا فى الحرب الاستعمارية قد ولدت اعتقاداً عاماً بأن تاريخ إنجلترا قد أشرف على نهايته ، وقرن برلمان وستمنستر بدايت وارسو ، وقرنت الأحزاب السياسية فى إنجلترا بالشيع الهدامة فى بولندا .

وكان الظن بأن نجم إنجلترا قد أفل اعتقاداً راسخاً لدى حكام على قدر كبير من القوة والذكاء من أمثال فردريك ملك بروسيا ، وكاترين قيصرة روسيا ، وجوزيف إمبراطور النمسا ، وأن مكانة إنجلترا التى بلغت مبلغاً عظيماً فى عام ١٧٦٣ ، قد

هبطت إلى الحضيض — فوق ما تستحق — عند تسليم يوركتون Yorktown بعد ذلك التاريخ بثمانية عشرة عاماً . وقد كان قياس مبلغ قوة إنجلترا دائماً من الأمور العسيرة .

ولما كانت فرنسا الثورة — مثلها فى ذلك مثل ألمانيا الإمبريالية فى أيامنا الحالية (١) — قد بدأت نشاطها متأثرة بتقدير خاطئ لقوة خصومها ، فقد قدر لها أن تصدم صدمة عنيفة .

حقًّا كان هناك ما يؤيد هذا التقدير الخاطئ من وجهة النظر السياسية البحتة . فقد كانت الحكومة الإنجليزية (١٧٧٠ — ١٧٨٢) التى أضاعت المستعمرات الأمريكية عاطلة عن كل عمل مجيد أو كفاءة متواضعة . لم يكن لورد نورث North رئيس الوزراء يؤمن بالحرب ولكنه سمح للملك بأن يسيطر على إرادته . فتحطم نظام مجلس الوزراء وأصاب الانحلال حزب الهويج . وهوى إلى الأبد عام ١٧٧٨ نجم تشاتام بعد صعود وهبوط . ولم يتألق فى الأفق بعد عقلية ابنه الجبارة الرصينة . أديرت الحرب إدارة سيئة ، وكرهها الناس وحالفها الفشل . وكانت خطب شارل فوكس اللامعة المعارضة وحدها هى التى أبقت على لهيب من الخيال السياسى فى برلمان وستمنستر ؛ ومن ثم تزايد القلق فى البلاد من نظام سمح بهذا القدر من الفساد والعجز والفشل ، وارتفعت صيحة تنادى بالتحرر السياسى للمدن الصناعية ، وأخرى تدعو إلى تقييد قدرة الملك على إفساد البرلمان . ولكن عندما استعاد الهويج أخيراً الحكم فى عام ١٧٨٢ ووقعوا صلح ڤرساى (يناير ١٧٨٣) مع أمريكا ، معترفين باستقلال الجمهورية الأمريكية ، لم تر أوربا فى ذلك غير مجرد فقدان إنجلترا لإمبراطوريتها ، ولكنها لم تدرك أن دستوراً هو الدستور الإنجليزى قد أنقذ ، والحق إنه لكذلك ، فإن إخفاق سياسة الملك الأمريكية قد جر معه تحطيم آخر محاولة فعالة للحكم الشخصى وقعت فى بريطانيا .

بل إن أمراً آخر أعظم من ذلك مر دون أن يسترعى الاهتمام ؛ فإن ذلك البلد المهزوم — كان يعدو بسرعة بتأثير سلسلة من التغييرات الاقتصادية التى لم يسبق لها مثيل من قبل ليُصبح مصنع العالم والمركز الرئيسى لأمواله .

---

(١) صدر كتاب فشر فى سنة ١٩٣٦ .

كتب يمكن الرجوع إليها

— W.E.H. Lecky : History of England in the Eighteenth Century. 8 Vols. (1878-1890).

— James Truslow Adams : The Founding of New England (1921).

— G.B. Hertz : The Old Colonial System (1905).

— G.L. Beer : Commercial Policy of England towards the American Colonies (1893).

— J.L. Hammond : Charles James Fox (1903).

— Sir George Trevelyan : The American Revolution (1905) .

— S.E. Morison : The Oxford History of the United States, (1783-1917), 2 vols. (1927).

— Cambridge Modern History, Vol. VII.

الفصل التاسع والعشرون

إنجلترا مصنع العالم

إرساء أسس مكانة إنجلترا فى عالم التجارة — بنك إنجلترا والقرض الوطنى — نتائج حصر وراثة العرش فى البروتستانت ونمو الصناعة — الخشب والفحم المحمولان عبر البحار — إنجلترا تصبح مصنع العالم— سخاء الطبيعة — إهمال الحكومة — الروح البيوريتانية— المخترعون — تحسن وسائل المواصلات — عهد الرأسمالية الجديد — الجانب الوقائى — نكبات الحروب الفرنسية . إهمال الشئون الداخلية . آدم سمث Adam Smith وكارل ماركس Karl Marx .

كان تأسيس بنك إنجلترا (١٦٩٧) والقرض الوطنى فيها من النتائج التى تمخضت عنها حروب إنجلترا ضد لويس الرابع عشر ، وكانت بدعاً ثار حولها جدل عنيف فى ذلك الوقت ، إلا أن آثارها العمرانية كانت من القوة بحيث إنه بدونها كان يتعذر على تلك الجزيرة الفقيرة نسبياً فى الزراعة ، على الرغم من بريق مخترعاتها الميكانيكية وغناها فى الموارد المعدنية ، أن تغدو مصنع أوربا والسوق الرئيسية للقروض فى العالم . وقد وضع أساس سليم لنظام الائتمان المصرفى فى عهد وليم الثالث وبفضل هذا النظام أمكن استغلال النتائج الاقتصادية للقاطرة البخارية ، ودولاب الغزل إلى أقصى درجة . ولو كانت العمليات المالية فى إنجلترا على مثل ما كانت عليه فى فرنسا من القصور ، لما أمكن على الإطلاق تحقيق ذلك التقدم . وإن الآلات البخارية التى عرفتها إنجلترا أيام الثورة الصناعية ، وهى الآلات التى جعلت إنجلترا من الثراء والقوة بحيث استطاعت أن تصمد لإرهاق الحروب النابليونية ، إنما كانت تدار « بزيت » المال ، وفى مركز الدائرة من النظام المالى الإنجليزى يقوم المصرف (البنك) .

كانت المصارف وكان المصرفيون من الأمور المألوفة فى أوربا عرفتها منذ زمن بعيد . فاستبدال العملة وتوفير النقود واقتراض المال كلها عمليات قديمة قدم أسواق بابل ومصر . عرفت أوربا من قديم صرافى اليونان والرومان والمرابين اليهود الذين ظهروا بعد غارات المتبربرين ، ثم عرفت بنك جنوة الذى قام بتمويل الحروب

الصليبية ، واللمبارد الذين سمى باسمهم شارع مشهور فى إنجلترا ، وآل مديتشى فى فلورنسا الذين زادوا فى دخل البابوية وآل فوجرز Fuggers من أوجزبورج الذين دعموا بالمال إمبراطورية شارل الخامس ، وصياغ لندن الذين كانوا يدخرون أموال تجارها ، وقدموا القروض لشارل الثانى . وكل هذه الوكالات كانت تؤدى بدرجات متفاوتة بعض وظائف البنك الحديث ، فسهلت عمليات التجارة وشجعت على تكديس الثروة . على أن العمليات التجارية والمالية لم تبدأ تتخذ طابعها الحديث إلا منذ تأسيس بنك أمستردام فى ١٦٠٩ . فى تلك المدينة المزدهرة الآهلة بالسكان كانت الأسهم والسندات تشترى وتباع ، وتقوم مضاربات على الصعود وأخرى على النزول ، وتتبادل العملات ، وتعقد القروض للحكومات ؛ وفيها كان مقدار متزايد من التجارة يمر فى عملية أعانت على تداوله بطريقة ملائمة وسريعة . وما لبث هذا المثال أن أثر فى الشعب الإنجليزى الذى دخل مع الهولنديين فى أوثق العلاقات الاقتصادية . إذ شاهدت لندن أمامها ذلك المنظر العجيب منظر بلد صغير جار لها وقد اصطنع وسائل لتمويل أساطيل وجيوش ومشروعات تجارية عظيمة لا تتناسب ومساحته الصغيرة وعدد سكانه القليل. وقد أدرك سير وليم تمپل Sir William Temple وهو من أحكم ساسة عهد شارل الثانى ،القوة التى استمدتها هولندا من إنشاء قرض وطنى وبنك وطنى ، وود لو حذت إنجلترا حذو هولندا . فلهذا النظام مزايا قيمة لا جدال فيها . إذ كانت تقدم للمواطن العادى مجالا آمناً لتشغيل مدخراته ، وبذلك حفزت الأفراد على الاقتصاد . كما مكنت شعوباً من الحصول على الأموال بسهولة ،وبالتالى مكنتها من تحمل أعباء مشروعات واسعة ، كما أمدت التجارة برأس مال ساهم فيه أفراد ليسوا تجاراً ؛ وبذلك أحلت نظاماً ماليًّا قائماً على الانتظام والترتيب محل نظام قائم على الهوى والتقلب . ولقد ظلت الحكومات الأوربية فى حالة خلل مستمر حتى اصطناع نظام البنوك وعقد القروض طويلة الأمد للدول . وقد قدمت إليزابيث وهى حقًّا أكثر الملكات شحًّا لجيلها مثلا نادراً وفريداً فى المقدرة على تحمل الأعباء المالية . على أن الهولنديين على ما عرفوا به من التوسع فى الإنفاق استطاعوا خلال القرن السابع عشر بأكمله أن ينهضوا بكافة أعبائهم المالية ، وذلك لأنهم اصطنعوا وسيلة سديدة لتمويل نفقات الدولة .

وقد عزز مثال الهولنديين ما كان من ضغط عملة مختلة ونفقات حرب باهظة . وقد نفذ شارل مونتاجو Charles Montagu (إيرل هاليفاكس Earl Halifax) فى عام ١٦٩٤ فكرة بنك الدولة التى ألح بها على الحكومة وليم بترسون William Patterson وهو أسكتلندى حاذق واسع الخيال جمع ثروة فى لندن . فإذا ما احتاجت الحكومة إلى قرض لتمويل الحرب ، تتكون هيئة باسم محافظ وشركة بنك إنجلترا لإصدار ذلك القرض ، وتضمن فائدة قدرها ٨ ٪ بكفالة الضرائب . ووافق البرلمان على مشروع الهويج لإنشاء بنك إنجلترا على الرغم من المعارضة الشديدة . على أن شكوك رجال السياسة التى شاركتهم فيها مدينة لندن كانت من التفاهة بحيث إنه اكتتب فى مبلغ القرض كله وهو ١,٢٠٠,٠٠٠ جنيه خلال عشرة أيام من تاريخ افتتاحه . ولولا ذلك القرض لما استطاعت البحرية الإنجليزية أن تخرج إلى عرض البحر .

وقد تصور أعيان الريف من حزب التورى أن النظام المالى الجديد الذى وضعه حزب الهويج ليس إلا خطة شنيعة قصد بها الإضرار بمصالح أصحاب الأراضى ، وأنها بالتأكيد ستجلب الخراب على البلاد . ولكن البنك كان أقوى من خصومه . فبقى قائماً على الرغم من مهاجمة الصياغ ومنافسة بنك للأراضى أقيم خصيصاً للقضاء عليه . وحصل على حق إصدار العملة الورقية (فى ١٦٩٧) ثم منح احتكار ذلك حتى عام ١٨١٠ . ومن أقوى الأسباب التى وطدت حصر وراثة العرش الإنجليزى فى البروتستانت الاعتقاد العام بأن اليعاقبة (أنصار أسرة استيوارت) لو استعادوا العرش سينبذون القرض الوطنى الذى مكن مولبرا من إحراز انتصاراته . وقد خطت إنجلترا خطوتها الأولى فى الطريق إلى الثورة الصناعية التى نشرت نظام المصانع فى أنحاء العالم وبذلك ضاعفت من ثرواته وسكانه ، عندما أقيم نظام الائتمان فيها على أسس عصرية .

إن موسيقى الغابات المعمورة بالجن فى ألمانيا لتعيد إلى أذهاننا عهداً كانت فيه الحضارة المادية لدول شمال أوربا ووسطها تكاد تعتمد كل الاعتماد على الغابات . سكن الناس فى أكثر جهات العالم خلال أكثر من ألفى عام فى بيوت أكثرها من الخشب ، وجابوا البحار فى مراكب خشبية ، وطلبوا الدفء لأنفسهم على نيران من الخشب ، كما استخرجوا من الغابات المواد التى صنعوا منها الأدوات العادية

للحياة المنزلية ، وكذلك أدوات الزراعة والصناعة . واستمرت المدن الكبرى فى شمال أوربا وقد صنعت أكثر منازلها من الخشب وقتاً طويلا حتى بعد أن استخدم الإيطاليون الحجارة والآجر والرخام ، وبعد أن اكتشف أهالى « كاكسين » صناعة الطوب التى عرفتها روما القديمة معرفة تامة . وكانت لندن التى دمرتها النيران فى عهد شارل الثانى مصنوعة من الخشب ، وكذلك كانت موسكو عندما أحرقها أهلها بأيديهم فاستحالت رماداً أمام ناظرى نابليون . وبلغ من إصرار التقاليد الريفية على البقاء أن أول آلة بخارية وضعت فى عربة من الخشب كما استخدم الثور فى إدارة أول نول .

وكانت مشكلة المحافظة على خشب الغابات موضع الاهتمام من وقت لآخر منذ القرن الخامس عشر ؛ ذلك لأن الأشجار كانت تقطع بكثرة غير عادية للوفاء ببعض الحاجات الاستثنائية مثل تعدين الفضة أو صناعة الخزف والزجاج . على أن الخشب بالنسبة لدول غرب أوربا البحرية ، عندما نمت فى القرن السابع عشر ، لم يعد مجرد وسيلة من وسائل الراحة المحلية ، وإنما غدا أمراً أساسياً لا غنى عنه لقوة الدولة . وبعد قطع مليون شجرة من أشجار البلوط لبناء أسطول الكومنولث ، تساءل « جون إڤلين » John Evelyn ، أرق الإنسانيين ، فى كتابه « سيلڤا » *Sylva* ، وهو من أمتع الكتب ، عن كيفية المبادرة بالمحافظة على مستقبل إنجلترا البحرى باصطناع الطرائق العلمية لإنماء الغابات . وإنه لافتراض يدعو إلى التأمل أن أسطول نلسن كان مصنوعاً من خشب الفضل فيه لهذا السيد الريفى الظريف من « سرّى » Surrey . على أن إنجلترا فى أمر حيوى مثل هذا لم تقنع بالاعتماد على مواردها المحلية ، فلجأت إلى غابات مساشوزتس البكر تعوض بها الغابات البائدة فى وندسور Windsor، وفى « هتفيلد » Hatfield ، وفى « سلوود » Selwood . وهكذا دُعى العالم الجديد فى هذا الشأن ، كما دُعى فى شئون أخرى ، ليمد العالم القديم بما قصر عنه .

وكان ثمة حينذاك مصدراً آخر من مصادر الوقود عرفته أوربا منذ العصور الوسطى ، وقد أصبح بيت القصيد فى الأغراض التجارية : فى القرن السابع عشر شاع فى لندن استخدام الفحم الذى كان يجلب من نيوكاسل . وإنه لأمر بالغ الأهمية لهذا العهد الجديد من التاريخ الأوربى الذى آذن فجره ، أن إنجلترا — وكانت إذ ذاك أكثر الشعوب البحرية والتجارية تقدماً — قد أعادت بناء عاصمتها بالحجارة

والآجر ، وأسست فيها بنكاً للدولة للإصدار والإيداع . وتوسعت فى استخدام الفحم ، وبذلك أعلنت فى أوسع نطاق عن مصدر القوة الذى سيغير عماقليل التكوين الاقتصادى للعالم .

وقد سبقت إنجلترا بما يربو على نصف قرن سائر بلاد أوربا باتخاذها طابع الدولةالحديثة ذات المستوى العالى فى الصناعة. لم تعد إنجلترا أرض الفلاحين الزراع ولا موطن الصناعات المنزلية الصغيرة ، ولم تعد بلداً تبلغ طرقه من السوء أن الرحلة من « يورك » York إلى لندن كانت تستغرق أسبوعاً ولو كان ذلك على ظهور الجياد ، وهى إذ ذاك وسيلة النقل الوحيدة المأمونة . كما أخذ يزول بصورة متزايدة نظام الفلاحة المسرف الذى يرجع إلى العصور الوسطى . وكان يقوم على تقسيم الأرض الزراعية فى الحقول الواسعة إلى ملكيات متناثرة ، ويحل محله نظام جديد للفلاحة يقوم على الملكيات الزراعية الكبيرة ذات الأسيجة من حولها يملكها ملاك يعملون على تحسين زراعتهم ويصطنعون دورة علمية للمحاصيل عن طريق التجديد فى استخدام زراعة النباتات ذات الجذور والحشائش . وقد أدى ذلك إلى زيادة المواد الغذائية ، وبالتالى زيادة عدد السكان . وقد غيرت القوة المائية أولا ، ثم قوة البخار ثانياً ، من ظروف الحياة الاقتصادية . ووجدت صناعة الحديد التى واجهها خطر محدق فى عهد الملكة آن Anne من جراء نفاذ الوقود ، وجدت فى مقادير الفحم الوفيرة فى وسط إنجلترا وشمالها قوة دافعة لم تتوقعها للتوسع السريع . وحل الصلب محل الخشب ، وعمال المناجم محل وقادى فحم الخشب . وتلا عهد الأسواق الدورية والباعة المتجولين عهد آخر تمت فيه تجارة التجزئة فى دكاكين (محال) فى القرى والمدن فى كافة أنحاء البلاد . وفى مدى نصف قرن (١٧٦٠ إلى ١٨٢١) ازداد عدد سكان إنجلترا من ستة ملايين وثلاثة أرباع المليون إلى اثنى عشر مليوناً . لم يشهد العالم من قبل مثلا لهذا المشهد الذى مثلته إنجلترا بعد أربعة أجيال من الاختراع والدأب مشهد وسائل المواصلات وقد أصبحت سريعة بما يفوق أكثر الأحلام بعداً عن الحقيقة ، ومشهد المصانع وقد ازدحمت بالآلات البارعة الموفرة للجهد الإنسانى ، ولوث دخانها الهواء الطلق ، ومشهد الصناعات وقد جلبت موادها الأولية من أحد نصفى الكرة الأرضية ، بينما بعثت بضائعها المصنوعة إلى النصف

الآخر ، ومشهد المدن الضخمة البشعة وقد بنيت على عجل ، ومشهد سكان أصبح رنين جرس المصنع يتحكم فيهم منذ طفولتهم المبكرة ، كما ألزموا باتباع نظام عمل كئيب مضن .

وترجع بعض العوامل التى جعلت من بريطانيا رائدة فى الرأسمالية الصناعية إلى سخاء الطبيعة ؛ فإن مناخها رطب وهو يلائم الصناعات القطنية ؛ كما كانت القوى المائية متوافرة فى المناطق الشمالية والشمالية الغربية من إنجلترا ؛ وأهم من هذه العوامل جميعها وفرة الفحم والحديد وتقارب مناطقهما ، وسهولة نقلهما باستخدام الطرق المائية . كما كانت حقول الفحم فى بريطانيا أعظم مما اكتشف منها فى فرنسا وألمانيا ، وأقرب إلى الموانئ الهامة . وهكذا على أساس الحديد والفحم والمنسوجات ، شيدت بريطانيا أسلوباً من الحضارة لم يلبث أن احتذى فى سائر أنحاء العالم .

وإذا كانت هذه الفرص الطبيعية قد استغلت تماماً فإن ذلك لم يكن راجعاً إلى مستوى عال من الثقافة العامة وإنما إلى وجود الجو الملائم للاختراع فى الصناعة على وجه الخصوص ، والمبادرة باستغلال نتائجه . كانت الأرستقراطية التى فى يدها مقاليد الحكم فى إنجلترا تهتم بشئون التجارة بخلاف طبقة النبلاء فى فرنسا . فلم يكن لوردات الهويج ، فى رغبتهم فى المال لتوفير رفاهية العيش يحتقرون ثروة تأتيهم من مصنع أو منجم أو استثمار المال فى الهند . هذا إلى أن هؤلاء اللوردات وقد نجحوا فى تقويض سلطان الملك ، لم يكونوا على استعداد لمشاهدة حكومة أوتقراطية تبعث من جديد فى صورة أخرى . قد يؤخذ على البرلمان الإنجليزى فى القرن الثامن عشر أنه لم يعمل إلا القليل ، والحق أن من الصعب مهاجمته لإنجازه الشيء الكثير . ومع ذلك فإن أعضاء البرلمان لم يضعوا أياً من العراقيل التى يمكن عدها خطيرة فى طريق شعب عرف بالاعتماد على نفسه ، وحبه للمال .

فى مثل هذا الجو من الحرية النسبية . ولعله من الملاحظ أن بريطانيا قد أصبحت عقب اتحادها مع أسكتلندا أوسع منطقة للتجارة الحرة فى أوربا — استرد خلفاء عصر البيوريتان مكانتهم . فعندما أقصى المخالفون للعقائد الرسمية Noncomformists عن الاهتمام الفعلى بالأمور السياسية حتى عام ١٨٢٨ ، حولوا نشاطهم وكدحهم إلى السعى فى طلب الثورة — فاعتبروا العمل شيئاً مقدساً ، واللهو خطيئة ، وجمع المال دليلاً

على قبول الإله لصلواتهم . وشاركوا بعزم قوى فى كل نوع على وجه التقريب من المشاريع الصناعية والتجارية وإن كان الحديد قد اجتذبهم بوجه خاص ، وبذلك ساهموا بنصيب وافر فى صنع إنجلترا جديدة ، وهى وإن كانت قد أصبحت أقل هدوءاً وجمالا فقد غدت أكثر ثراء وأوسع سلطاناً عما كانت عليه من قبل .

ومع ذلك فإنه لم يكن من الممكن إحداث هذه التغييرات بدون الاختراعات . فإن حفنة صغيرة من الأسكتلنديين والإنجليز الجديرين بالاعتبار ، أقل عدداً مما تحتاج إليه مباراة لكرة القدم نجحت فى أن تغير ببراعتها حياة البلاد الاقتصادية . ومما لاشك فيه أنهم قد استمدوا التأييد والإلهام من جو العصر الذى عاشوا فيه . فقد كان العلم ينشر سلطانه منذ أن بشر فرانسيس بيكون Francis Bacon بقيمة الطريقة الاستقرائية ، وكان من رجال العلم بعض المخترعين وخاصة جيمس وات James Watt (١٧٣٦ — ١٨١٩) الذى كان أول من قرر الأهمية الحاسمة للقاطرة البخارية فى مجال الصناعة . ولكن ربما كان أهم من التدريب العلمى فعلا الفكرة التى عاونت الجمعية الملكية على نشرها ومضمونها أن المعرفة شىء ينمو ويترعرع وأن فى وسع الإنسان — عن طريق الملاحظة والتجريب — الكشف عن حقائق جديدة. وهكذا ما إن ثار فى الإنجليز روح التطلع والبحث حتى أصبح لا مفر من أن يوجه نحو أهم أمر كان يشغل بال الشعب الإنجليزى فى ذلك الوقت. ولم يكن هذا الأمر — كما كان فى عهد البيوريتان — أمر عقيدة أو دين ، ولكنه السعى فى طلب المال عن طريق الصناعة والتجارة .

كان بعض المخترعين العظام عمالا فقراء لم ينالوا حظاً من ثقافة أو تعلم ولكن هدتهم فى معالجة أجهزة الصناعات التى يعملون فيها مهارة ميكانيكية سمت إلى حد العبقرية . ومن هؤلاء كان « كى بيورى » Kay of Bury . الذى أدى اختراعه للمكوك فى ١٧٣٣ إلى مضاعفة العمل الذى كان فى استطاعة النساج إنجازه ، بالإضافة إلى تجويد صنفه . وكذلك « جيمس هارجريفز » James Hargreaves الذى ضاعف دولاب الغزل الذى اخترعه فى ١٧٥٤ القوة الإنتاجية للنساج إلى ثمانية أمثالها وأكثر ؛ ومن هؤلاء أيضاً كان « ريتشارد آركرايت » من بريستون Richard Arkwright of Preston (١٧٣٢ — ١٧٩٢) مخترع إطار آلة الغزل ، ومؤسس صناعة المنسوجات

القطنية فى إنجلترا ، ومنشئ نظام المصانع .

ولن تجد كثيرين من الإنجليز فاقوا فى أثرهم الحضارى العميق ذلك اللانكسترى الممتلئ حيوية ، الذى عمل فى شبابه صبياً لحلاق ، ثم صانعاً للشعر المستعار ثم قام بسلسلة من الاختراعات لندف القطن وغزله ، مما جعل الإنتاج على نطاق واسع أمراً ممكناً ؛ ثم طبق فى المصانع التى أنشأها ليستغل اختراعه نظاماً يقوم على الإنتاج الجمعى المقنن ، وهو النظام الذى يميز عهد الرأسمالية .

ولما كانت المصانع الأولى لصناعة المنسوجات تعتمد على المياه لإدارة قوتها المحركة ، فقد أقيمت على مقربة من مساقط المياه ، وبصفة عامة على أرض سبخة موحشة ، بعيدة عن المراكز الآهلة بالسكان . ولا يزال النظر يقع فى مثل هذه البقاع على هياكل بالية لأبنية هزيلة مرتفعة المداخن ؛ وقد كانت يوماً ما مسرحاً للنشاط والحركة ، ولكنها هجرت منذ أمد بعيد . فإن الاستعاضة بالبخار عن الماء فى القوة المحركة لمصانع القطن قد جعلت من الأربح تركيز المصانع فى المدن . ولما أصبح فى الإمكان عندئذ توليد القوة فى أى مكان مناسب ، لم يعد من الضرورى نقل العمال إلى المناطق المائية النائية . وحل مصنع القرية محل صناعات المنزل الريفى الصغير ، وأصبح كلاهما فى عداد الآثار القديمة ، إذ أن استخدام البخار فى إدارة المصانع قد أدى مباشرة إلى قيام مصنع المدينة .

ولم يكتشف «جيمس وات » James Watt المهندس من «جرينوك » Greenock استخدام البخار كقوة محركة ، كما أنه لم يكن منشئ القاطرة البخارية . ولكن أثناء تأمله فى عيوب قاطرة بلغت من العمر ثمانية وخمسين عاماً اهتدى هذا العبقرى الرقيق الغضوب الحزين إلى سرّ جهاز تكثيف الهواء المنفصل (١٧٦٩) ، ذلك الجهاز الذى مكن قوة البخار من إحداث انقلاب فى ميدان الصناعة . كانت مضخة «نيوكومن» Newcomen تستعمل فى نزح الماء من المناجم ، ولكنها كانت عديمة الفائدة فى المستويات العميقة ، كما أنها فى جميع المستويات كانت قاصرة فى قوتها ، غير مضمونة فى عملها بسبب فقدان الحرارة وأسباب أخرى . وقد عالج « وات » Watt هذه العيوب باختراعه المكثف المنفصل . وهكذا قدمت فكرة نيرة واحدة للإنسانية ، أداة السيطرة على دنيا المناجم ، مع ما يتبع مثل هذا الفتح

من توفير مزيد من القوة المحركة والآلات والإضاءة والدفء ومستوى أعلى من وسائل الراحة لعدد كبير من الناس. ثم أدخلت الآلة البخارية فى مصانع القطن بفضل الاختراع التالى الخاص بالحركة الدائرية ، تقليداً لحركة العجلة المائية . وحدث هذا فى عام ١٧٨١ وهو نفس العام الذى سلم فيه البريطانيون فى « يوركتون » Yorktown . ولم يلحظ أحد إذ ذاك أن مخترعاً خجولا صنع روابط جديدة بين الولايات المتحدة وبريطانيا أكثر نفعاً من روابط الاحتكار الاستعمارى ، ففى القرن التالى انطلق القطن الأمريكى المنسوج فى مصانع « لنكشير » Lancashire يجوب أنحاء العالم .

على أن هذه الأفكار الميكانيكية لم تكن لتؤتى ثمارها فعلا لولا مشاركة وثيقة تقوم بين المخترع أحد كبار رجال الأعمال ممن يؤمنون بالبخار ولا تعوقه خسارة مادية أو مخاوف . فلولا مساعدة« ماثيو بولتون »Mathew Boulton صاحب مصنع البضائع الحديدية فى برمنجهام لكان محتملا أن تبقى اختراعات « وات » مهملة لا يستخدمها أحد . دعا « بولتون » « وات » لمساعدته فى ١٧٧٥ ، وركز اهتمامه فى صنع المحركات البخارية وبيعها ، فجمع رأس المال وجمع العمال وأقام المصانع ثم أقنع الجمهور فى النهاية . وبفضل همة بولتون وحماسته ومعين نشاطه الذى لا ينضب ، وكذلك بفضل المخترعات الميكانيكية التى اخترعها صديقه الرقيق الشعور ، تم فى عشر سنوات انقلاب ربما استغرق فى ظروف أخرى قرناً من الزمان . وقد أخرجت مصانع « سوهو » Soho أول آلة بخارية فى عام ١٧٧٦ . وبعد أربع سنوات أرسلت أربعون آلة إلى مناجم كورنوول. ولم يحل عام ١٧٨٩حتى أصبح للبخار السيطرة فى معظم الصناعات الرئيسية فى إنجلترا .

وكانت وسائل المواصلات فى النصف الأول من القرن الثامن عشر عائقاً كبيراً فى سبيل النمو الصناعى فى بريطانيا . فبينما كانت فرنسا تملك من الطرق والترع ما كان موضع إعجاب كافة الرحالة ، كانت الطرق الإنجليزية التى كان يشرف عليها طائفة من موظفى الأبروشية لا يتقاضون أجراً فى حالة مخزية ؛ أما القنوات فلم يكن لها وجود . ولم يكن فى الإمكان أن تحظى الصناعة بتوسع كبير طالما بقى الحال على هذا النحو ، وطالما بقى كثير من الطرق غير صالح للسفر إلا فى أشهر الصيف وطرق أخرى غير صالحة لمرور عربات النقل وعجلات السفر إذ كانت

لا تسمح إلا بمرور حصان نقل واحد . ولكن الشعب فى النهاية بدأ فى منتصف القرن يلحظ ذلك النقص الذى تغاضى عنه دهراً طويلا . فسنت قوانين بإنشاء مداخل للطرق تدفع عندها رسوم معينة ، استخدمت فى إجراء تحسينات قيمة وإن لم تكن منتظمة . وقام وليم « برندلى » William Brindley الأمى النابغة بهندسة النفق المائى بين ليفربول ومانشستر، وبفضل الجهود المتدفقة التى قام بها ثلاثة من المهندسين العظام : « متكالف »Metcalfe و « تلفورد » Telford «ومكدام »Macadam أزيلت الخرائب التى تراكمت منذ أمد بعيد . وزُودت البلاد بنظام من الطرق والجسور والقنوات لا يقل عن أحسن نظام فى أوربا . ودخل عهد الخيل المحملة بالبضائع فى ذمة التاريخ ، وبدأ عهد عجلات السفر القصير الأمد . فكتب « جوزيف آستون » فى تاريخه عن منشستر الذى نشره ١٨١٦ : « فى عام ١٧٧٠ لم يكن هناك سوى عربة واحدة فقط للمسافرين إلى لندن وأخرى إلى ليفربول . وكانت هذه تبدأ من « آستون » Aston إلى منشستر ، وكانتا تقومان مرتين فقط فى الأسبوع ، أما الآن فيوجد سبعون عربة مختلفة تبدأ رحلتها من هنا ، ومنها أربعة وخمسون عربة تسافر يومياً ، وستة عشرة أخرى ثلاث مرات أسبوعياً ، كل إلى مقاصدها المختلفة . وفى عام ١٧٥٤ أعلن عن العجلة «الطائرة » فكانت موضعاً للفخر ؛ إذ قيل إنه مهما يبدو ذلك بعيداً عن التصديق فإن هذه العربة باستبعادالحوادث الطارئة ستصل فعلا إلى لندن بعد أربعة أيام ونصف من مبارحتها منشستر ، والآن تقطع عربات البريد دائماً هذه المسافة فى ثلاثين ساعة ، وفى مناسبات كثيرة عندما كان بونابرت يترنح نحو النهاية . وعندما وصلت أنباء المعركة النهائية فى «ووترلو » وصلت عربات معينة وهى The Traveller ، وTelegraph, the Defiance ، فى ثمانى عشرة ساعة » .

هذا العهد الذهبى للأسفار فى إنجلترا — وإن كان عهداً قصيراً — خلده « شارل ديكنز » فى صفحات كتابه« بكويك » Pickwick عندما كان الحصان فى عنفوان مجده . وعندما كان المسافر يجد متسعاً من الوقت يمتع نفسه بمباهج الريف وخواطر الطريق. ثم جاء اختراع ستيفنسن Stephenson للقاطرة (فى عام١٨٢٩) فوضع حداً لذلك الفصل من تاريخ إنجلترا ، وبدأ عهد أكثر حركة وأكثر ثراء وأكثر إزعاجاً للجنس البشرى .

وما وافت نهاية الحروب النابليونية (١٨١٥) حتى أصبح طابع المجتمع الرأسمالى، كما شاع فى ذلك الوقت، أمراً واضحاً فى بريطانيا. على أن الرأسمالية قد وجدت فى صور مختلفة منذ فجر التاريخ وتميزت الرأسمالية الجديدة عما كانت عليه فى العصور السابقة بأنها لم تكن زراعية أو تجارية على وجه الخصوص، بل أصبحت رأسمالية صناعية إلى حد كبير. وقد ترتب عليها الفصل بين رأس المال والعمل فى جانب كبير من النشاط الاقتصادى حيث قام الاتصال عادة بين رأس المال والعمل. فلم يكن للصانع فى المصانع الجديدة، التى كان دخانها يظلم الجو، شىء غير عمله يقدمه ليتقاضى عليه أجراً. وهكذا بينما كانت الطبقة العاملة تبيع العمل، كانت طبقة أصحاب العمل تشتريه. وحل محل العلاقات القديمة التى قامت على العرف وأكسبتها العاطفة الإنسانية حلاوة، علاقة المال بين العامل وصاحب العمل.

لم تشعر الأمة بالشرور التى نجمت عن هذا التصنيع السريع الذى لا روح فيه حتى الأربعينات من القرن التاسع عشر. كانت المشاكل التى أثارتها جديدة ومن نوع لم يكن البرلمان الإنجليزى الذى يسيطر عليه أعيان الريف الأغنياء مهيأ لتقديرها. وعجز عن اجتذاب اهتمام أعضاء البرلمان أو إثارة عطفهم ما كان يجرى فى «لنكشير» Lancashire «وبلاك كنترى» Black Country من عرق النساء وكدح صغار الأطفال، والمساكن المخجلة وإهمال جميع وسائل الراحة، والتفاوت بين الأجور والأرباح، وتوقع البطالة حتى إن «بيرك» Burke نفسه الذى وسع خياله الملتهب قضايا الهند وأمريكا، والدلالة الكبرى للثورة الفرنسية، أغمض عينيه عن رؤية المشاكل الداخلية الملحة التى نجمت عن الثورة الصناعية. ولما كان القانون يحرم تكوين اتحادات العمال، فقد عجزوا عن تنظيم أنفسهم، فلم يسمع لهم حس.

ومع أن الحرب الطويلة ضد فرنسا لم يكن لها أثر فى إيقاف التوسع الصناعى والتجارى فى إنجلترا فإنها من كافة الاعتبارات الأخرى كانت بلاء صرفاً على بريطانيا والعالم. ذلك لأنه بسبب الحرب أهملت دراسة مشاكل المجتمع الصناعى الجديد التى كان لها من الأهمية والحدة ما يكفى لتكرس لها حكومة عاملة وعاقلة كل قواها. وهو درس كان من الممكن أن يكون مجدياً على أى حال. فبينما كانت

الحكومة الإنجليزية تناضل للمحافظة على كيانها ضد فرنسا فى عهد الثورة ونابليون ، وقد أصاب الطبقة الحاكمة فيها الذعر من خطر الروح الثورية فى إنجلترا ، كان من العبث أن نتوقع أن ينظر بعين العطف إلى حاجات تلك الطائفة الجديدة من الناس ، المشتغلين بالصناعة ، وهم لا يعرفهم أحد ويحيون حياة نصف همجية ؛ وكان عددهم يزيد بسرعة فى الظروف الغريبة التى تقوم فيها المصانع فى الجزء الشمالى من الجزيرة البريطانية . بل إن « وليم پت » نفسه ، وقد أظهر فى لحظة ما وميضاً حقيقياً من الاهتمام والإدراك ، تراجع عن واجب التخفيف من شقاء تلك الفئة الكادحة من السكان التى تشقى لتكسب رزقها . وإن العقلية التى عضدت بقاء تجارة الرقيق حتى عام ١٨٠٧ كانت أحد العناصر التى شكلت الجو العقلى الذى كان يسود فى تلك الأيام . كما كان الخوف من الثورة عنصراً آخر ، وكلا العنصرين لم يحبذا معالجة المشكلات الاجتماعية التى ترتبت على الثورة الصناعية معالجة حكيمة.

وإن آدم سمث Adam Smith مرحباً فى كتابه «ثروة الأمم» ببزوغ فجر العصر الجديد — عصر الصناعة (١٧٧٦) — يهلل لازدياد الثروة الذى أصبح أمراً ممكناً فى ظل نظام يقوم على حرية التجارة وتعميم الآلات ، وتقسيم العمل تقسيماً دقيقاً ؛ وفى هذا البحث الفريد الذى اعتبر إنجيلا يبشر بمبدأ التجارة الحرة ؛ فطن آدم سمث ، هذا الأستاذ الحكيم من أبناء جلاسجو ، إلى القوى الاقتصادية الهائلة الكامنة فى الشعب البريطانى التى يستطيع نظام قائم على الحرية أن يطلقها من عقالها . وقد أيدت الحوادث فى وقتها هذه الثقة الرزينة التى آمن بها ذلك الاقتصادى ، إذ آتت التجارة الحرة ثمارها . فالتصنيع أصبح مصدراً لرفاهية مادية متزايدة ؛ وكيفما كانت الاختبارات التى تقاس بها الثروة القومية فإن نموها طوال القرن التاسع عشر سار دون عائق. على أنه بعد نشر كتاب « ثروة الأمم » بإحدى وتسعين سنة ، عندما بلغ النظام الرأسمالى فى بريطانيا غاية نضجه ، ومضى ينتشر بسرعة فى كافة أنحاء أوربا ، نهض يهودى ألمانى [1] يقيم فى لندن هو كارل ماركس Karl Marx وسخر ذكاءه الناقد لدرس نتائج ذلك النظام الرأسمالى . فبينما لم ير فيه سمث إلا ضوء الشمس ، لم ير « ماركس » إلا ظلالا عكسها على مسرح الشر : ممارسة الفرد لحريته

(١) كانت أسرة كارل ماركس (١٨١٨ — ١٨٨٣) أسرة يهودية اعتنقت المسيحية .

دون عائق، وتقسيما للعمل بلغ من حدته أن عوق نمو الذكاء والحياة الفارغة الخالية من المتعة التي يحياها أرباب الحرف . ولم ير إلا هوة تزداد اتساعاً في كل يوم بين الثروة والفقر ، وفقداناً للشعور بالاستقرار والبقاء الذي كان يميز الأنواع القديمة من المجتمعات ، واستغلال أصحاب الأعمال للطبقة العاملة دون رحمة . وهذه صورة بالغ في رسمها ماركس ، كما أنها لم تكن مطابقة للواقع من بعض الوجوه الهامة . ولكن الاهتمام اتجه إلى معالجة العيوب الخطيرة التي لا شك فيها ، وهي وإن لم تكن تبرر الثورة كانت في حاجة ماسة إلى الإصلاح .

كتب يمكن الرجوع إليها

— P. Mantoux : La Révolution industrielle au XVIIIe siècle. tr. M. Verson. (1928) (Excellent bibliography).

— J. Aston : A Picture of Manchester, (1804-1826)

— Edward Baines : History of the Cotton Manufacture in Great Britain. (1835).

— R.N. Boyd : Coal Pits and Firemen : A short History of the Coal Trade & The Legistation affecting it. (1892).

— R.E. Prothert : The Pioneers & Progress of English Farming. (1888).

— R.H. Thurston : A Century's Progress of the Steam Engine. (1901).

— S. Smiles : The Lives of the Engineers. 5 Vols. (1874).

— C. Beard : The Industrial Revolution. (1901).

— J.L. & B. Hammond : The Town Labourer. (1917).

— J.L. & B. Hammond : The Skilled Labourer. (1919).

— J.A. Hobson : The Evolution of Modern Capitalism. (1894).

— A Toynbee: Lectures on the Industrial Revolution of the Eighteenth the Century in England. Ed. Lord Milner. (1908).

جداول ترتيب تسلسل الأسر المالكة

١ — أسرة التيودور واستيوارت : التيودور وتولية أسرة استيوارت .

٢ — إمبراطورية شارل الخامس .

٣ — آخر ملوك الڤالوا وتولية هنرى ناڤار العرش .

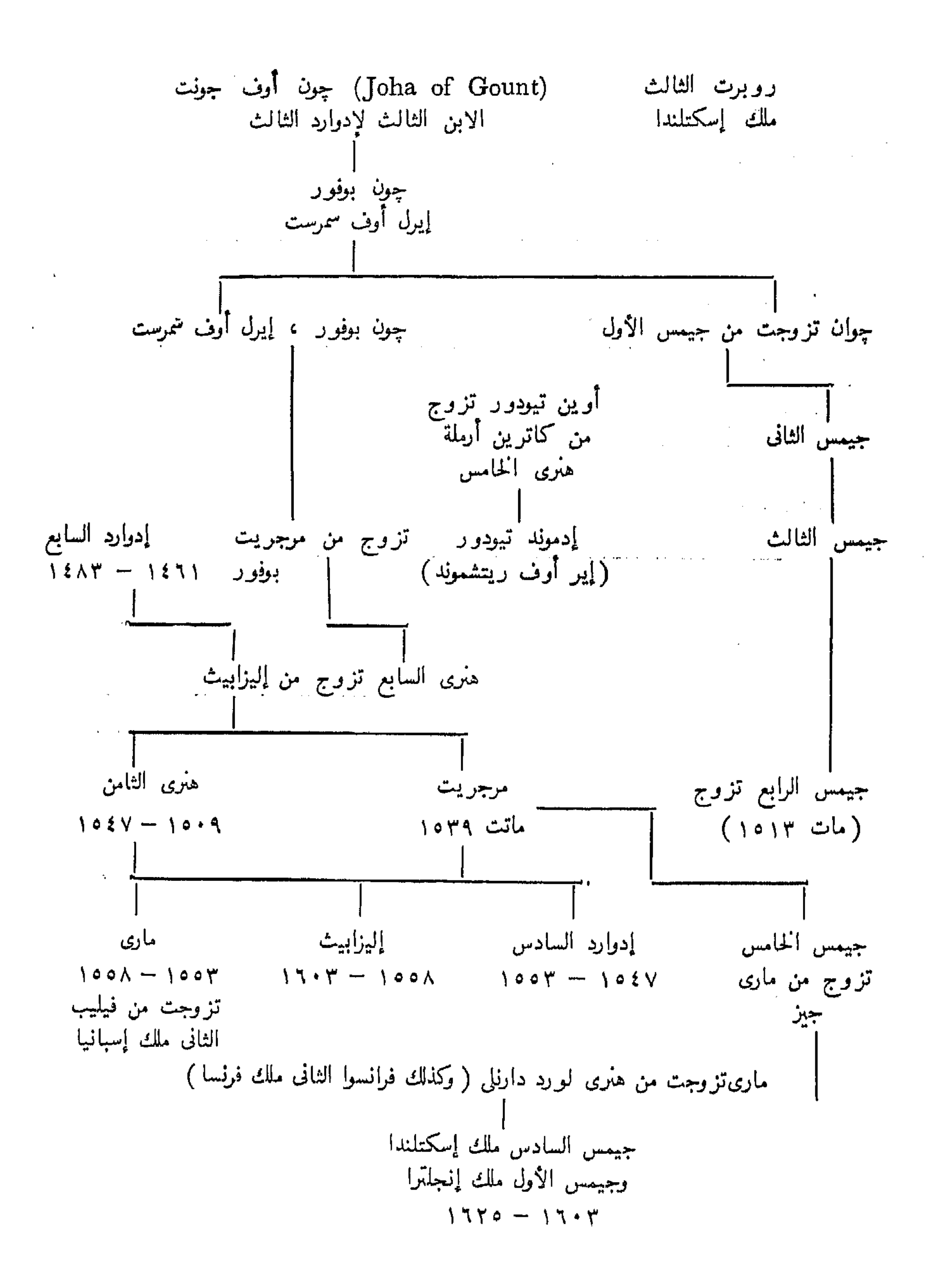
٤ — المطالبون بالعرش الإسپانى .

٥ — أسرة استيوارت وتولية أسرة هانوڤر العرش .

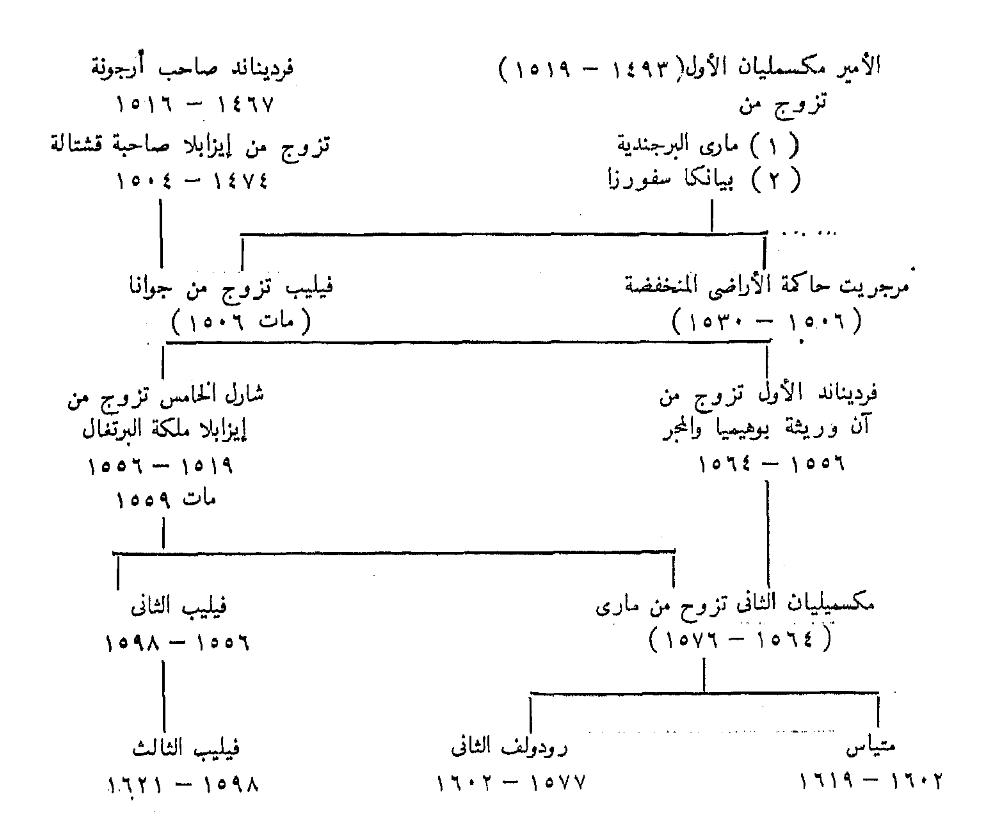
٦ — أسرة رومانوف .

٧ — أسرة هوهنزلرن .

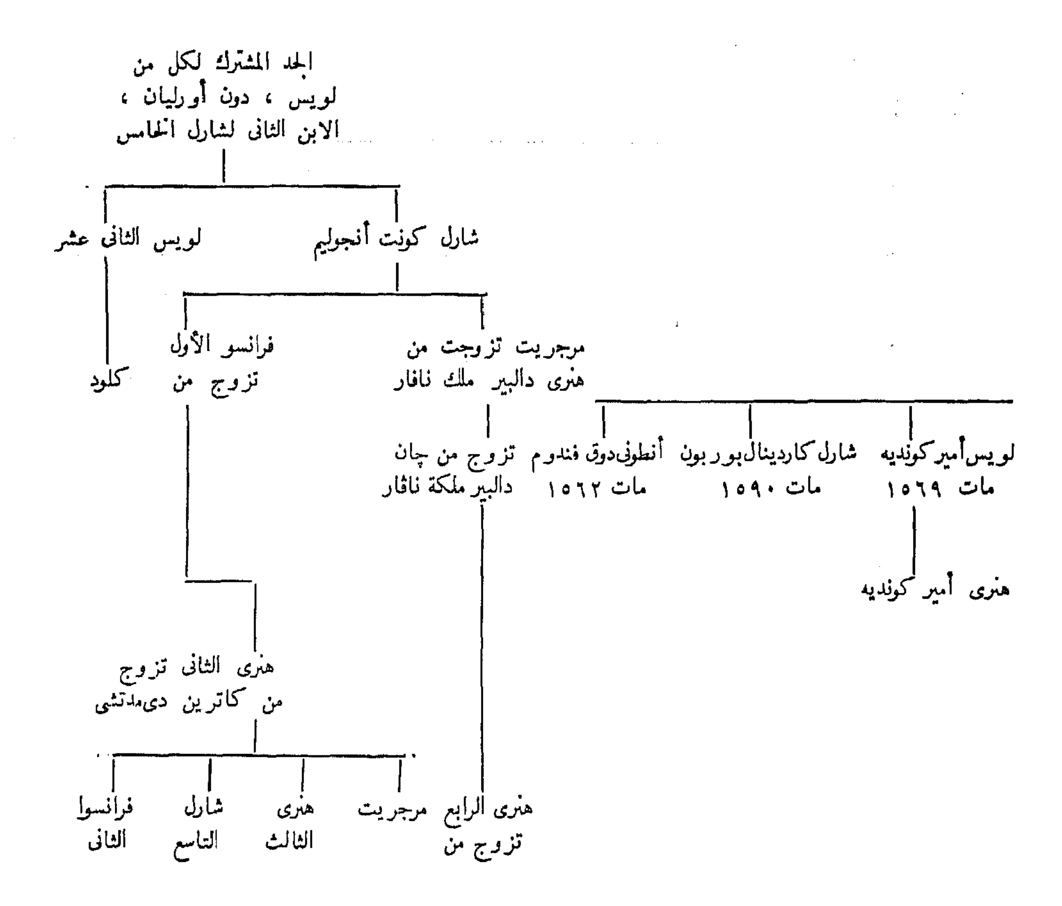
١ ـ أسرتا التيودور واستيوارت : التيودور وتولية أسرة استيوارت العرش



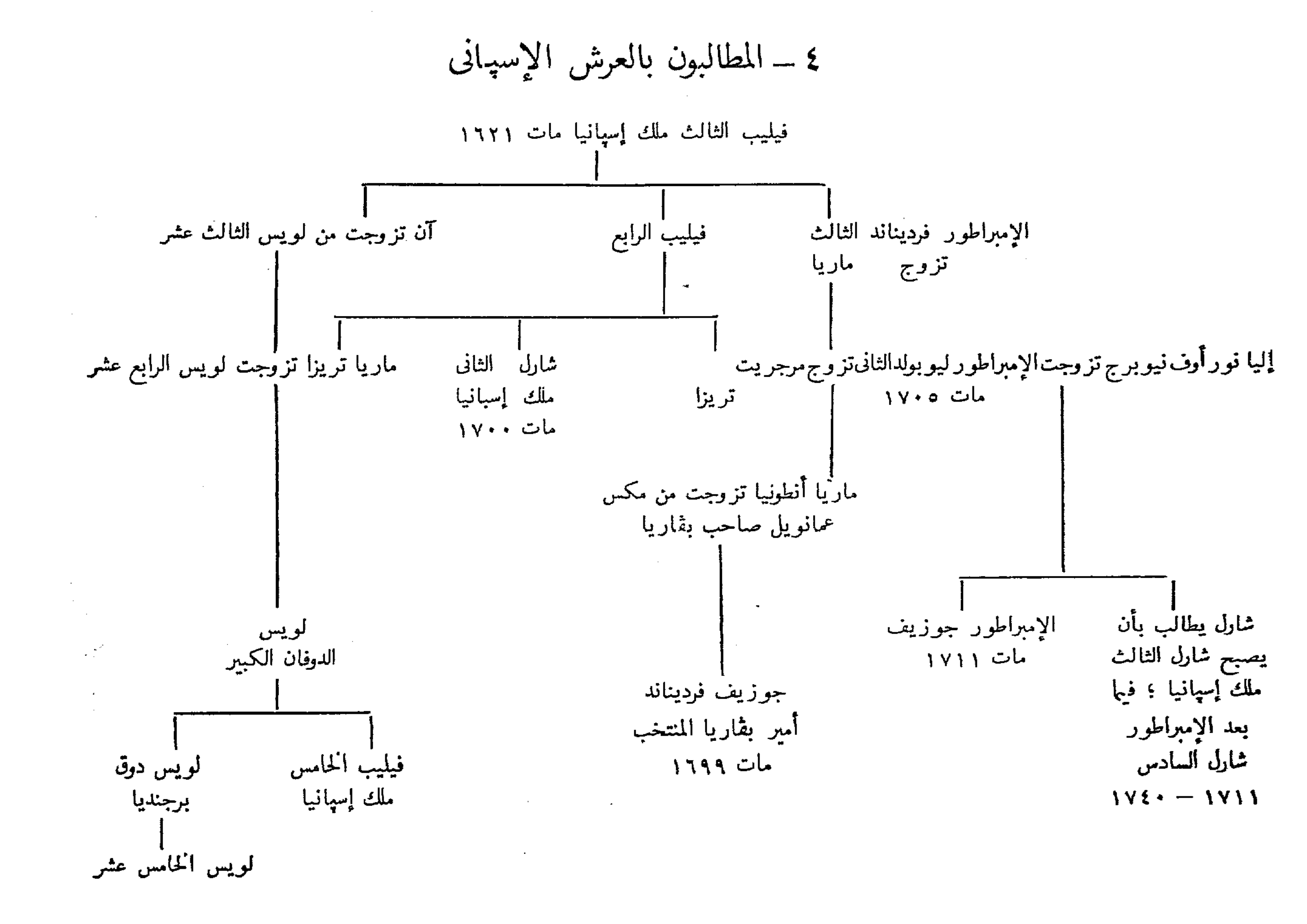
٢ – إمبراطورية شارل الخامس



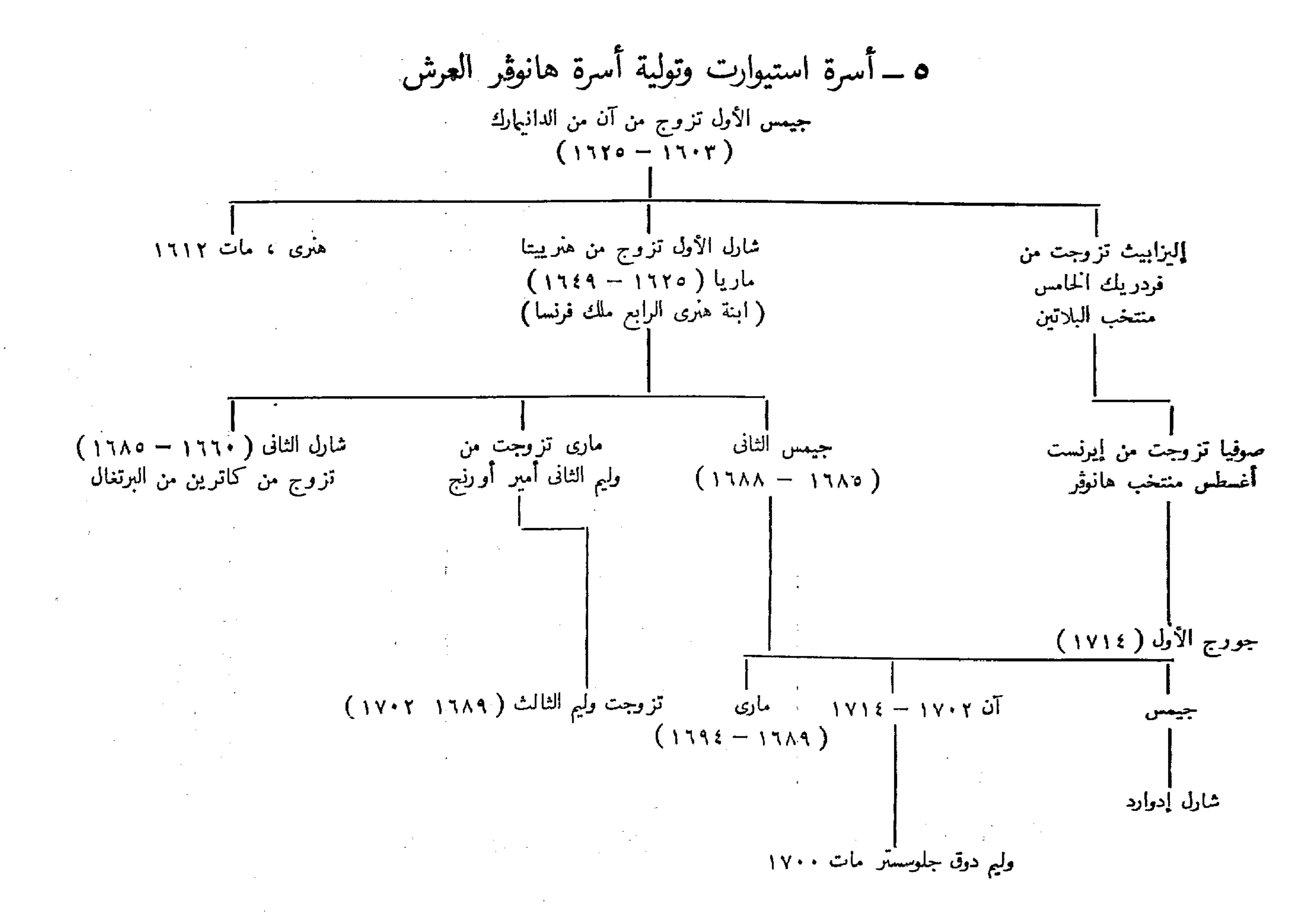
٣ ـ آخر ملوك أسرة الفالوا وتولية هنرى ناڤار العرش



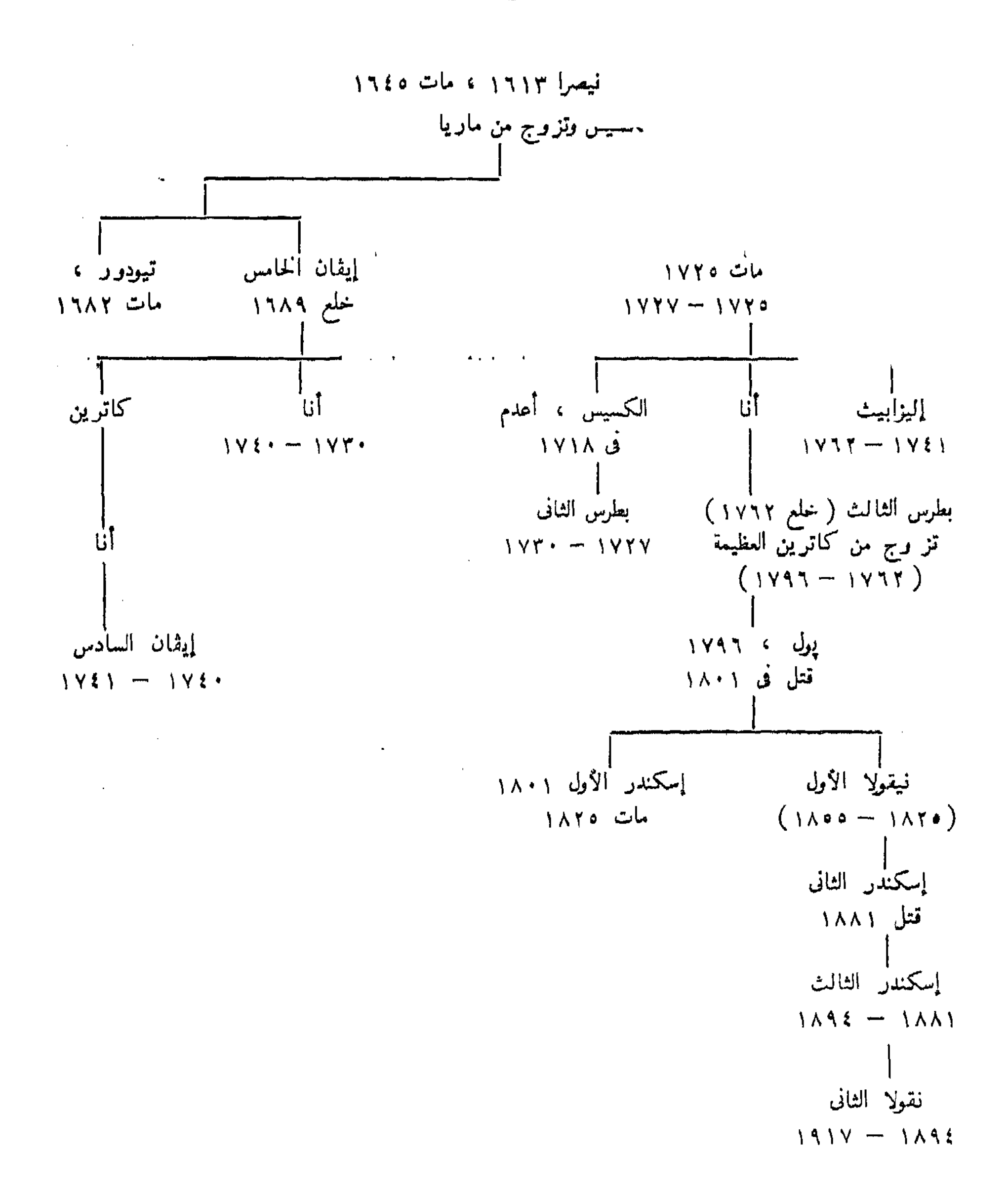
٤ ــ المطالبون بالعرش الإسپانى



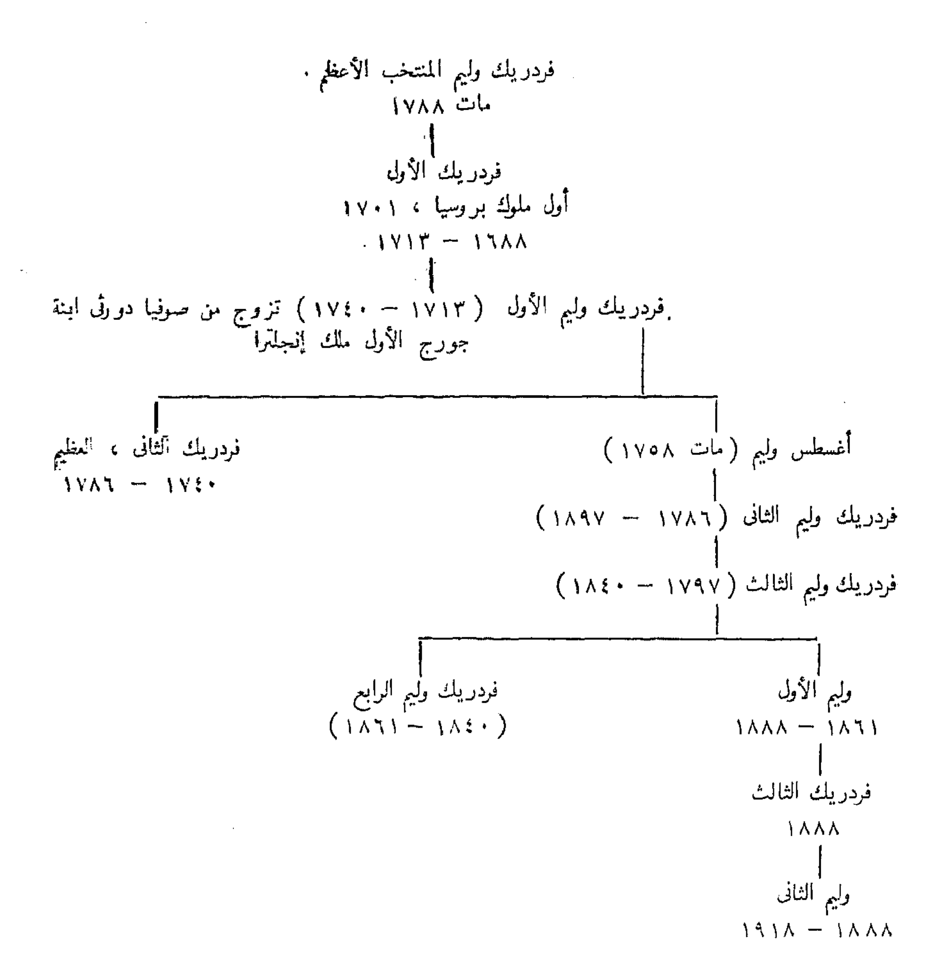
٥ ــ أسرة استيوارت وتولية أسرة هانوفر العرش



٦ – أسرة رومانوف

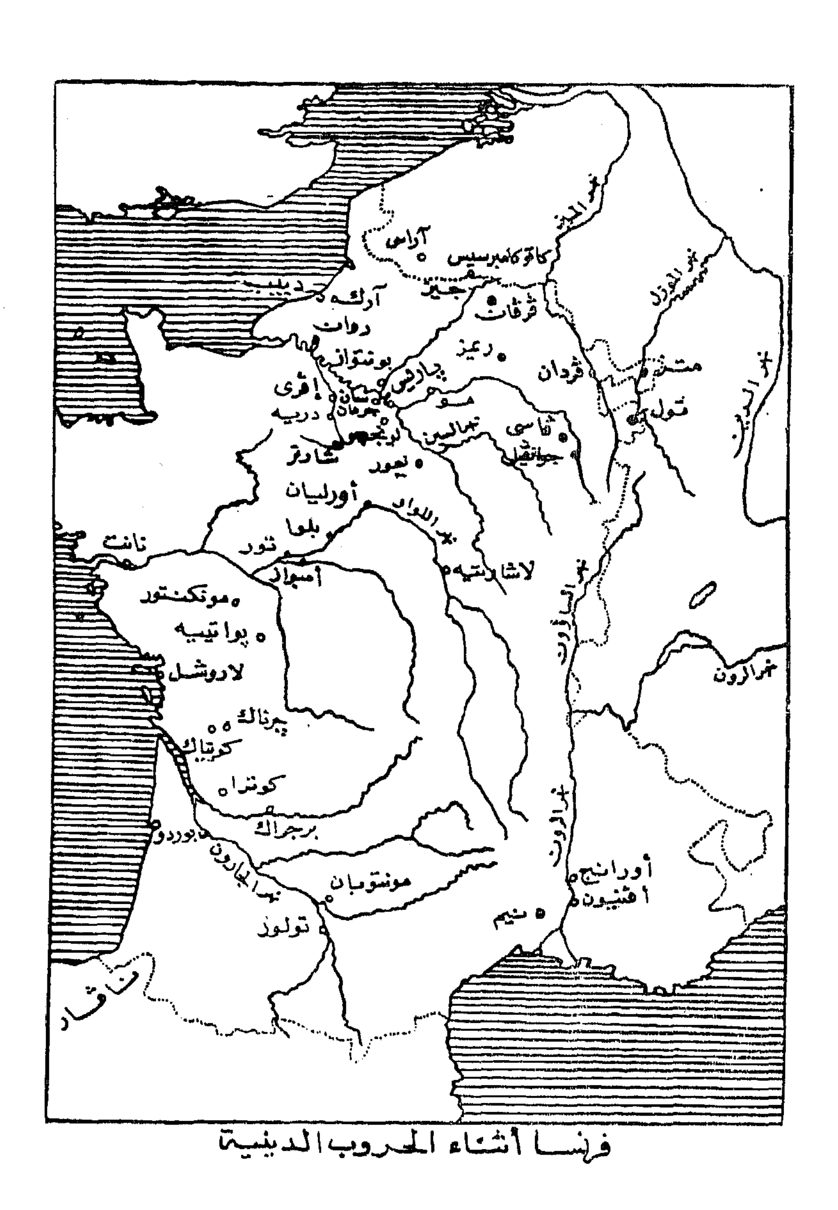


٧ – أسرة هوهنزلرن

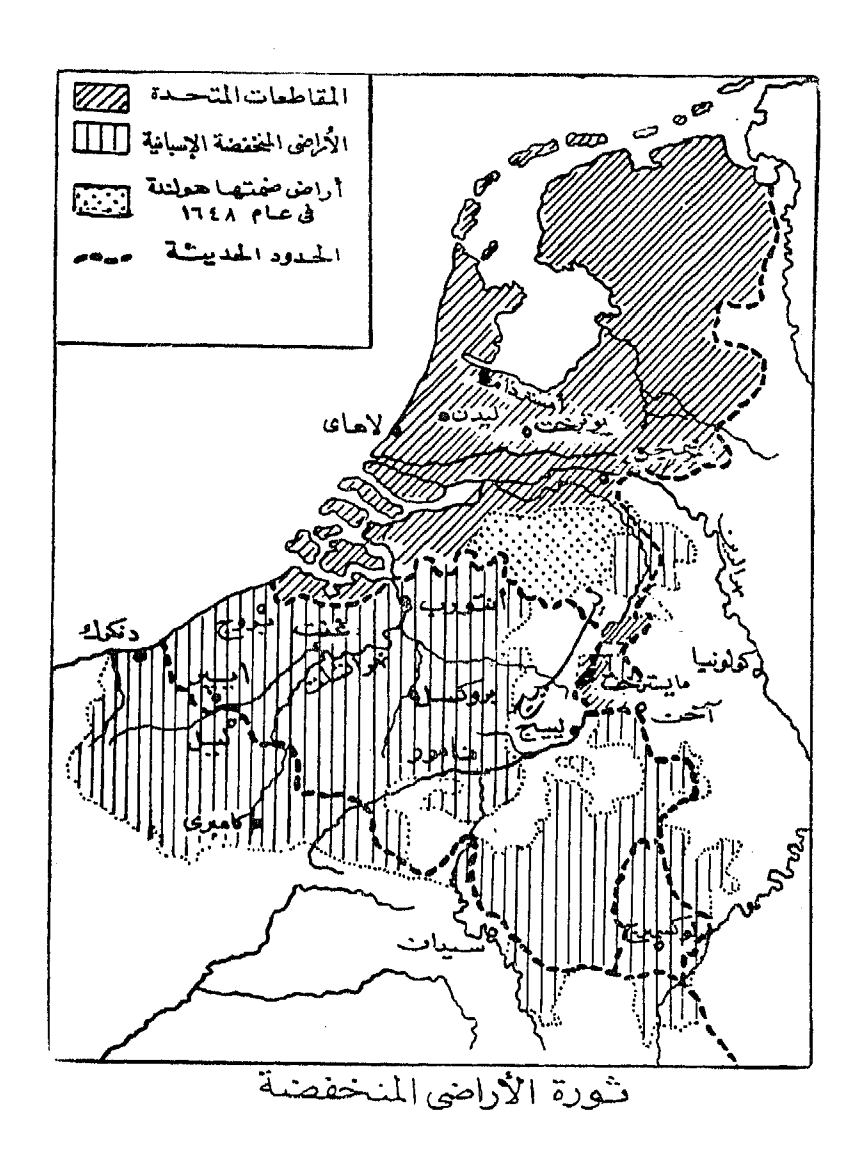


الخرائط

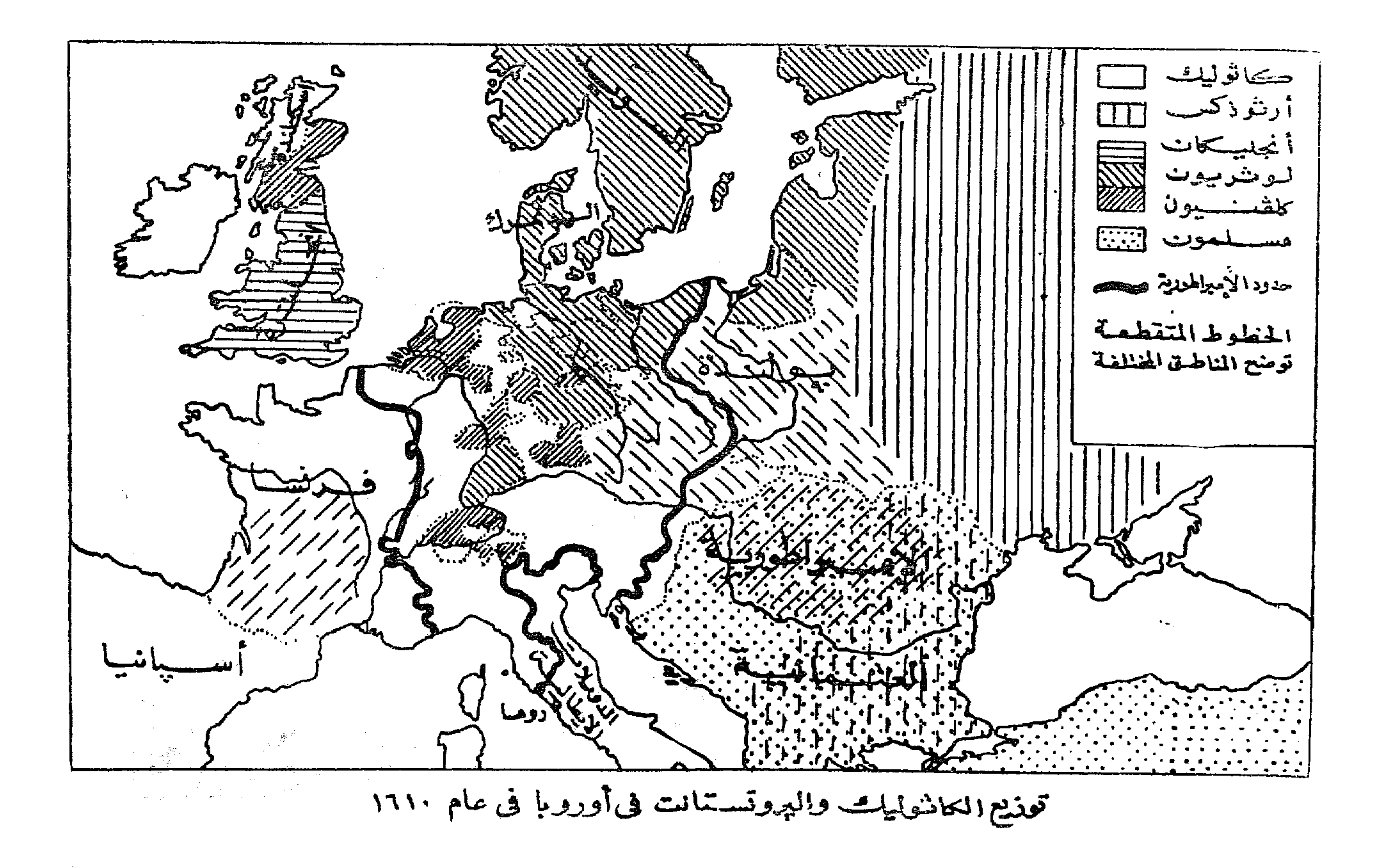




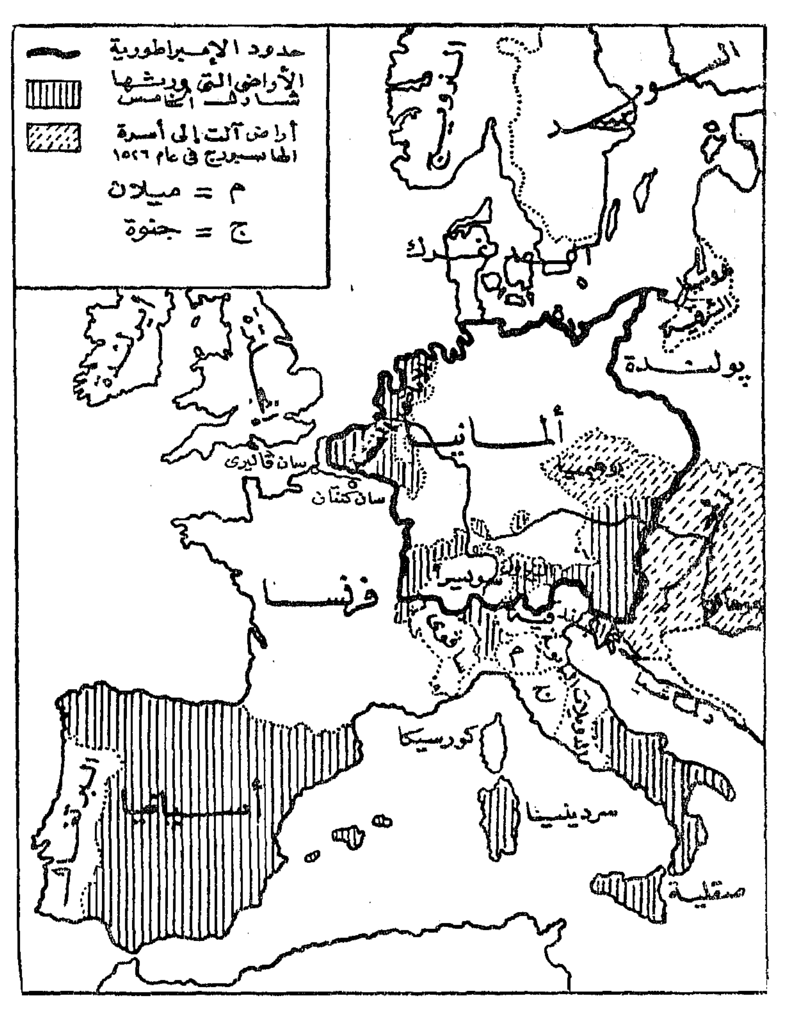
فرنسا أثناء الحروب الدينية



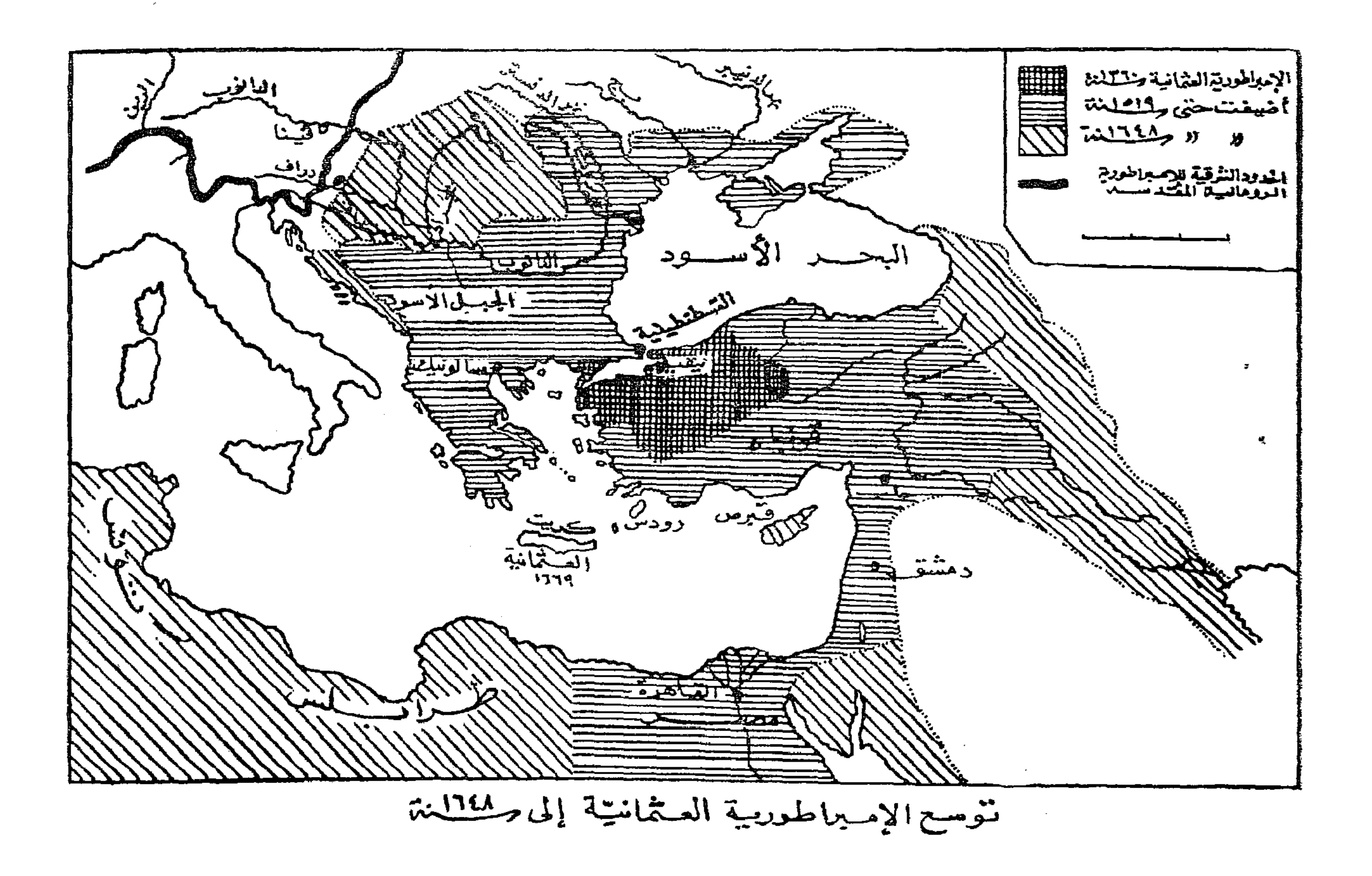
ثورة الأراضى المنخفضة



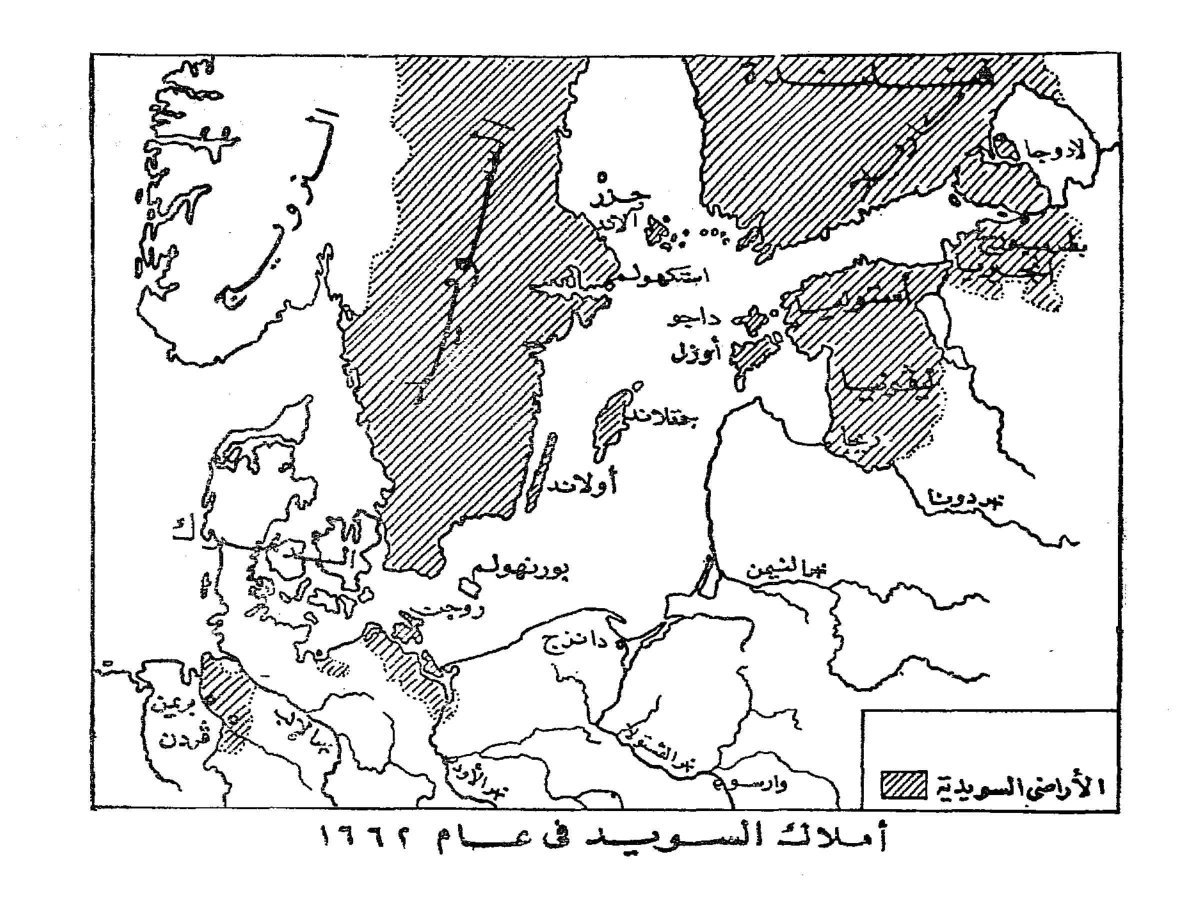
توزيع الكاثوليك والبروتستانت فى أوروبا فى عام ١٦١٠



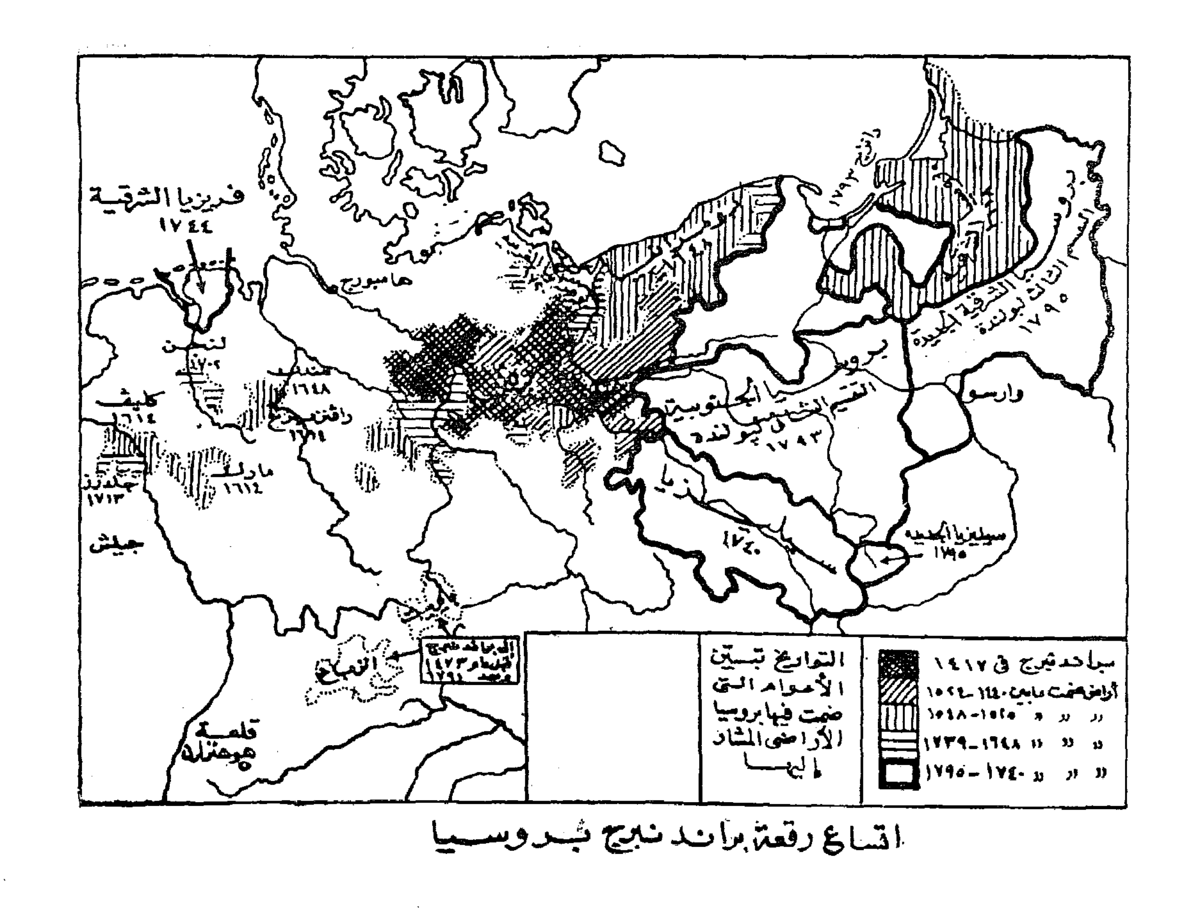
إمبراطورية شارل الخامس في عام ١٥٢٥



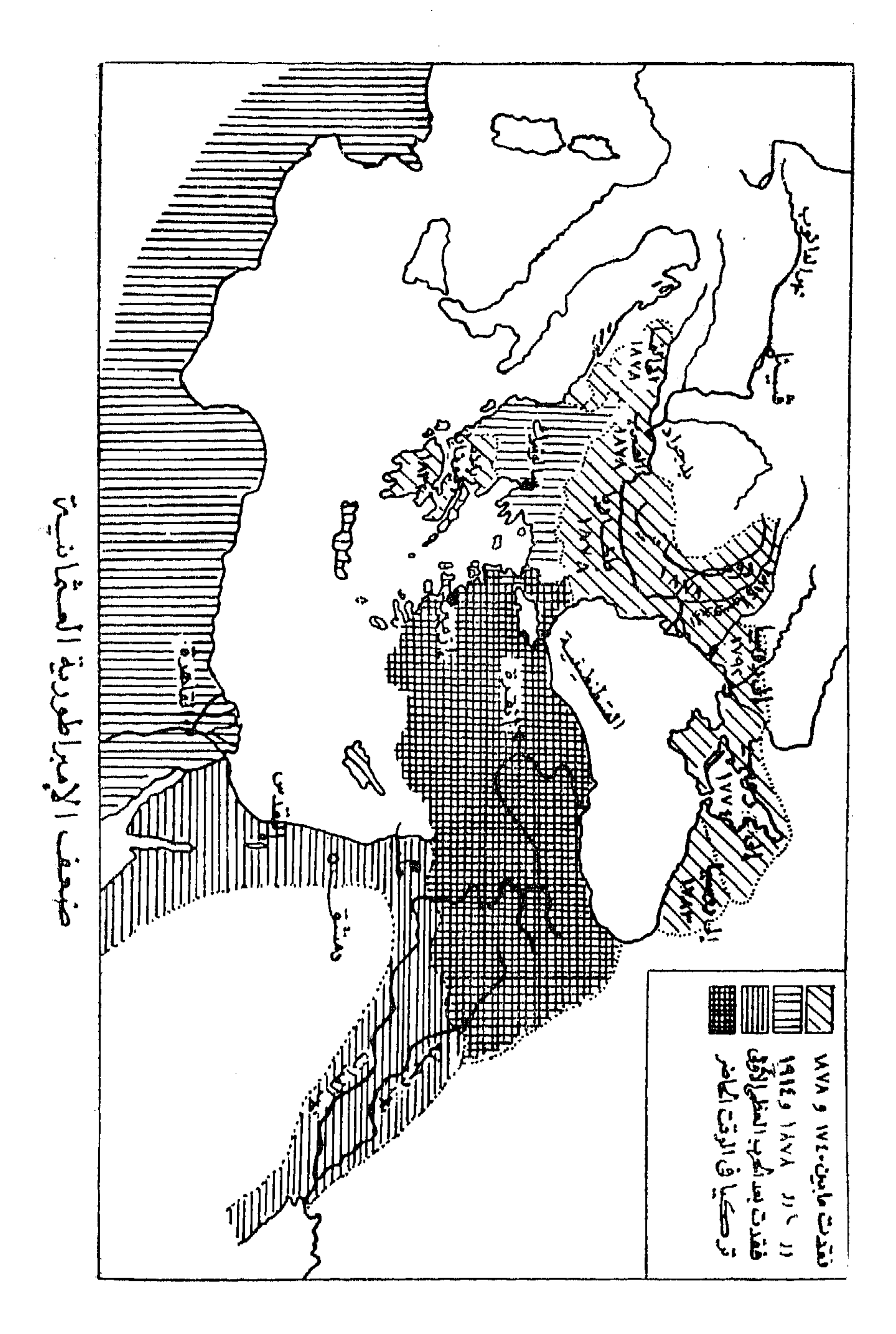
توسع الإمبراطورية العثمانية إلى سنة ١٦٤٨



أملاك السويد في عام ١٦٦٢



اتساع رقعة براندنبرج ببروسيا



مطابع دار المعارف بمصر

١٩٧٠

أصول التاريخ الأوربى الحديث

يتناول هذا الكتاب بالعرض والتحليل تاريخ أوربا منذ عصر النهضة حتى الثورة الفرنسية ، فهو يعرض لفترة نمت فيها المقومات المادية والمعنوية التى أخرجت أوربا إلى حيز القوة ودفعت بها دفعاً إلى خارج حدودها : فى الأمريكتين وفى آسيا وإفريقيا وأستراليا . وهو ليس سرداً لتاريخ حضارى صرف ، أو عرضاً تاريخياً جافاً ، وإنما هو مزاج لذلك كله فى إطار جميل من البيان الناصع .

وبنشر هذا الكتاب تتم مجموعة كتب تاريخ أوربا لهربرت فيشر بعد ترجمتها إلى اللغة العربية .

